

الإمام محمد أبو زهرة

خاتمة النبيين  
صلى الله عليه وسلم

المجلد الأول

ملزمة الطبع والنشر

دار الفكر العربي



الإمام محمد أبو زهرة

خاتمة النبيين  
صلى الله عليه وسلم

المجلد الأول

ملئزما الطبع والنشر

دار الفکر العربی





## الجزء الأول

نشأته - شبابه - بعثته

مصابرته المشركين - اتصاله بالقبائل

هجرته « صلى الله عليه وسلم »



## بسم الله الرحمن الرحيم

### محمد رسول الله وخاتم النبيين

لله الحمد على ما أنعم ، وله الفضل فيما أكرم ، إذ أكمل الدين ، وآتم الرسالة الإلهية ، بإرسال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، فأكمل الهداية ، وأبلغ الغاية ، وكشف المحجة ، وبين الجادة ، ورفع راية الاسلام القوى العزيز ، المكين ، وحمل الحواريون من أصحابه ما حملهم الله ، فقاموا بواجب التبليغ ، وأدوا الأمانة التي حملوها ، فكانوا منارا مقتبسا من نوره ، فرضى عنهم ، ورحم الإنسانية بما اقتبسوا من معاني الرسالة المحمدية •

#### يا رسول الله :

ان الله خلقك بشرا سويا ، ولكنك فوق سائر البشر ، وأثارك التي حملتها الأجيال من بعدك فوق القدر ، ونحن معشر المتبعين لك ان كان فينا شرف هذا الاتباع انما ندرك بالتصوير أمثالنا • فمن خواطرنا ومناسزع نفوسنا نتعرف نفوس غيرنا • ونحكم على أحوالهم ، وان حاولنا أن ندرك من هو أعلى منا ، فانه يجب أن يكون علوه على مرأى أنظارنا ، وفي مطالع آفاقنا ، فعندئذ نحاول وقد نصل ، ولكنك يا رسول الله في علو لا نصل اليه ، وفي سماك لا نراه ، وليس منا من يضاهئك حتى نتمثله ونختيله ، فأنى لأمثالنا أن يكتب في شأنك ، وأن يعلو الى شأوك ، ان ذلك أمر فوق المنال ، ويعلو على مدارك الخيال •

ومن أجل هذا نضرع الى الله أن ينالنا بغفرانه ، ان تسامينا محاولين الوصول الى الكتابة فيك ، فالمعذرة قائمة ، والقصور ثابت ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها •

#### يا رسول الله :

قد كتبنا في أئمة أعلام ، قد قبسوا من نورك قبسة أو قبسات ، أدركنا نورهم ، ووقفنا الله تعالى الى ما نحسب اننا وصلنا فيه الى ما يفيد ، وبمقدار ما قبسوا كننا ندرك ما به شرفوا ، وما به أصابوا ، واهتدوا •

فلما جئنا الى ساحتك ، وحاولنا أن ندخل اليها ، غمرنا النور ، وكف  
أبصارنا الضوء المنير ، فأنى ندرك ، وأنى نرى ، وقد صرنا كذى رمد غمسه  
ضوء الشمس ، أما ما هو أعلى ، فأصابتنا الحيرة ، ولا هادى لنا يخرجنا منها ،  
الا أن تكون الهداية من الله تعالى كما أمر ان قال سبحانه : « قل ان الهدى  
هدى الله » فليس لنا الا أن نلجأ اليه ضارعين أن يهدينا لتصوير شخصك  
الظاهر المطهر ، أو لتقريبه اذا كان التصوير فوق طاقتنا ، وأعلى من أن نصل  
اليه ، فان التقريب يحل عند العجز محل التسديد ، والعجز مغفور ، والقاصر  
معذور ، والله عفو غفور •

### يا رسول الله :

اننا نكتب فى العظماء لنصور نواحي عظمتهم ، ولكل عظيم ناحية  
واحدة من نواحي العظمة ، فالاتجاه الى تلك الناحية هو مفتاح عظمتهم ،  
فتسهل معرفته ، ولكنك يا رسول الله فوق عظمة الأشخاص ، لأن وجوه  
عظمتك تعددت ، حتى يعجز المحصى عن الاحصاء ، والمستقرى عن الاستقراء ،  
واذا نفدت الطاقة أقر مطمئنا بعجزه ، ومؤمنا بأن وجودك فى هذا الوجود  
معجزة البشر ، فاذا كنت من البشر ، ولست فى كونك الا بشرا ، فلست لها ،  
ولست ملكا من الملائكة فانك فى مقام أعلى من سائر البشر ومن الملائكة ، صانك  
ربك ، وحفظك ورباك على عينه ، حتى كنت وحيدا بين الغلمان ، بما كلاك الله  
به وحماك ، وصبيا فريدا بين الصبيان ، وكنت الشاب الأمين عن رجس  
الجاهلية بين الشباب ، فكل شئ فى حياتك الأولى كان من الخوارق التى علت  
عن الأسباب والمسببات ، فلم تكن أثر تربية موجهة ، ولا أثر بيئة حاملة ، ولا  
أثر شرف رفيع ، وأن كان محققا ، ولكنك كنت صنيع الله ، فكنت معجزة  
بشخصك وكونك ووجودك ، فيك البشرية ، وفيك المعجزة الالهية « الله أعلم  
حيث يجعل رسالتك » •

### يا رسول الله يا خير البشر

كنت ذا الخلق القوى ، والسياسى الحكيم ، والقائد العظيم ، والحاكم  
الرفيق ، والمربى لأمتك بالشورى ، والوحي ينزل اليك ، وكنت الرءوف  
بأمتك ، والمحارب الرحيم ، وحامل لواء السلام فى مرحلة النبى ، وعزة  
القوى ، أنشأت جماعة مؤمنة ابتدأت بها بذرا صالحا ، وأخذ ينمو فى بيتك  
الطاهرة ، مختفيا فى خلأ الايمان ، حتى أخرج شطاه ، فظهر متعرضا  
لمقاومة الحدثان • قويا فى تكوينه ، حتى استغلظ واستوى على سنوقه ، وصار

قوة الحق فى الأرض ، وكنت كما قال الله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطاها فأذره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » وكل ذلك بتوجيه ربك ، وإلهام نفسك ، وعلو فكرك ، وقوة قلبك ، فمن أى ناحية يدرس حياتك المدارس ، وقد كان كل شيء فىك قويا عظيما ، كما قال فيك ربك « واثق لعلى خلق عظيم » •

اللهم ربى ، ولا خالق سواك ، ولا إله غيرك ، وليس كمثلك شيء ، وأنت السميع البصير ، خلقت محمدا من البشر ، وجعلته سيد البشر ، وأرسلته رحمة للعالمين ، وإذا كان وجوده وما أحاط به خارقا للأسباب والمسببات فقد أرسلته بمعجزة لا تزال تتحدى الخليقة الى يوم الدين •

### ربى العظيم :

لقد تطاولت فاعتزمت أن أكتب فى سيرة نبيك وخاتم أنبيائك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاغفرلى يارب ذلك التطاول ، انك أنت الغفور الرحيم ، وأمدنى بعونك وتوفيقك فى هذا المقام الذى يعلو عن طاقتى ، وتعجز فيه قدرتى ان لم يكن منك العون •

رب لا تخزنى ، فانه لا قدرة لى الا بتوفيقك ، ولك الفضل ، والهن ، « وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » •

وانى قد اتجهت الى القصد فى القول ، فمهما يكن الاطناب ، فانه لا يصل الى الغاية ولا يبلغ الشأ ، ولذلك اجتهدنا فيما هو تحت سلطان قدرتنا ، ومع ذلك استطال بنا القول ، وان لم ندرك النهاية ، فهى فوق قدرة عاجز مثلى ، ولقد قسمت الكتاب الى ثلاثة أقسام :

**أولها -** ذكر حياة النبى صلى الله عليه وسلم من ولادته التى حاطتها الخوارق ، وحياته التى كانت كلها ارهاصات بالنبوة ، حتى بعثه الله تعالى بشرا رسولا ، وأودى هو وحواريوه فى الله ، وصبر وصابر ، حتى كانت الهجرة التى أنشئت بها مدينة الاسلام ، ودولة الايمان •

**والثانى -** فى جهاده ، وقمع الشرك ، وفتح الطريق للدعوة المحمدية ، وإزالة المحازبات من طغيان الظالمين ، وفتنة المؤمنين ، حتى تسير الدعوة فى طريقها من غير عوج ، وفى طريق معبد لا يحاجزه الشر ، ولا يدعثره

الايذاء ، وان هذا القسم ينتهى بصلح الحديبية ، حيث يؤس الشراك من أن ينال من أهل الايمان ، وعجز عن أن يغزو المؤمنين ، وصارت الكلمة العليا فى الجزيرة العربية للايمان ، وسارت الدعوة فى كل مسار .

**والقسم الثالث من بعد الحديبية،**وفيه تجرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لليهود الذين كانوا شوكة فى جنب العرب ، وأخذ الاسلام يعم جزيرة العرب ، ويخرج الى أقطار الأرض ، فكانت مؤتة ، وكان الفتح العظيم الذى يؤس فيه الشيطان أن يعبد فى هذه الأرض ، وأخذ الاسلام يغزو ما حول العرب بكتب النبى ورسله ، وبالسرايا ييئها ، وبالخروج الى الروم الذين قتلوا المؤمنين من أهل الشام فى أرضهم ، فكان لابد من تأمين الدعوة ، وإزالة الفتنة، وهذا القسم ينتهى برحلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من هذه الدنيا بروحه الى السموات العلا .

اللهم أنفعنا بهديه ، وأهدنا سبله ، انك تهدي من تشاء ، وانك على كل شئ قدير .

محمد أبو زهرة

## تمهيد

### الاضطراب الفكرى :

١ — فى القرن الخامس الميلادى وما يليه ، كان العالم الانسانى يموج بالشىء ، وتضطرب النفوس ، واستحكمت الأهواء ، وتفرق بنو الانسان ، حتى صار القانون السائد المسيطر ، الحق هو القوة ، والقوة هى الحق ، فشاهت الأفكار ، وتقطعت الأسباب . وصار ابن آدم ينقض ما أبرمته الفطرة ويحل الرابطة الانسانية الجامعة ، وعجز العقل عن أن يحكم ما بين الناس ، بل انه اتخذ العقل مطية لتبرير الباطل ، وتزييف الحق ، والعيب بالميراث الانسانى للنبيين من بعد ابراهيم موسى وعيسى ، وشوهت المفاصد ، تعاليم موسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء المرسلين ، فالنصارى قد استسلموا لحكم الامبراطرة ، وزكوه ، بل أيدوه ، وتفرقوا ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، وأغرى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة . فالكنيون تحكموا فى اليعقوبيين ، حتى نفروا منهم .

واليهود شوهوا تعاليم موسى عليه السلام فضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وصاروا مع فساد قلوبهم ، لا وجود لهم الا بمعونة قوى يريد أن يكون غالبا لهم ولغيرهم وتسربلوا سربال العداوة لبنى الانسان جميعا ، اذ يعطون لأنفسهم من الصفات العقلية ، والمزايا الدينية ما ليس فيهم وينكرونها فى غيرهم ، حتى زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، وزعموا لغيرهم المنزلة الدون ، وكانوا يقولون عن العرب الذين نكبوا بمعاشرتهم « ما علينا فى الأميين سبيل » ، فهم يأخذون منهم بالحق والباطل ولا يعطونه شيئا لأنه لا سبيل لهم بحق ، ولا بغيره .

٢ — وكان الأقربون والأبعدون ، والقاصون والدانون فى اضطراب فكرى ، وعجز العقل البشرى عن أن يحل مشاكل هذا الوجود . فتاه العقل فى معرفة أصل الوجود ، ولم تستطع الفلسفة الأيونية أن تحل مشكلة أصل الوجود ، ولا أن تصل الى منشئه ، مما أثبت أن العقل مهما يؤت لا يستطيع أن يفسر سر الظواهر ، فهو يعرف مظاهر الأشياء ، ولا يعرف الأسرار المستكنة الباعثة ، يعرف مظاهر الحرارة والكهرباء ولا يمكن أن يعرف ما يحركها ، الا اذا اتجه الى معرفة المؤثر من الأثر ، والمنشئ مما أنشأ ، ولكنه وقد غمر بالمحسوسات ، ومظاهر القوى ، دون أن يعرف مصدرها ، عمى عن الأصل ، وشغل بالفرع ، فتاه فى هذه السماء ، وصار فى عمياء ، لا يعرف المبتدأ ، وان عرف مظاهره .

ومع ظهور الأديان السماوية ، واختتامها بالاسلام لا يزال العقل ، وهو مأسور بما يحس ، لا يعرف ما وراء المحسوس ، وكل ما تراه من سيطرة العقل ونفاذه لا يتجاوز المظاهر واستخدامها ، وهو يجهل باعثها ، ولا يعرف منشأها الا اذا كان ينفذ من المظهر الى المنشأ المكون .

وانه لا يمكن معرفة الكون على حقيقته الا بالايان بمن أنشأه ، وأن الأديان السماوية تدعو الى معرفة المنشئ مما أنشأه ، ومعرفة الخالق من المخلوق ، فهي تدعو الى دراسة الخلق لمعرفة من أنشأه تدعو الى دراسة الكون ، وتعرف مظاهره لمعرفة من وراء هذه المظاهر ، ولم يكن ذلك شأن الدارسين للكون فى الماضى ، ولا من يدرسون مظاهره المجردة فى الحاضر ، وانما يهتمنا الماضى الذى كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه الوجود .

٣ — تلك كانت حال العقيدة فى الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى ورثتها ، ولما جاء سقراط زعيم هذه المدرسة وكبيرها ، أراد أن ينزل بالفلسفة من السماء الى الانسان ، ودعا الى ترك البحث عما وراء الطبيعة ومظاهرها ، الى الانسان ، وأراد أن يعمل ما يجدى وما ينفع فى السلوك الانسانى ، بدل أن يهيم فيما وراء الطبيعة من غير هاد يهدى ، ولا يرشد .

**أخذ يدور نظام التعامل الانسانى ، ومقياس الفضيلة الذى يميزها عن الرذيلة ، ليميز به الحق من الباطل ، وخطأ السلوك واستقامته ليعرف ما هو فاسد وما هو صالح .**

ودعا الى ذلك ، واختلف هو وتلاميذه ، فمن قائل ان القياس هو المعرفة وهو ما اختاره سقراط ، ومن قائل انه الحكمة والعدالة والشجاعة والعفة والفضائل ، كلها ترجع الى هذه العناصر ، وقد اختار ذلك أفلاطون ، ومن قائل انه اللذة أو المنفعة ، فما هو نافع ، ولو نفعا شخصيا خير ، وما لا نفع فيه فهو شر ، ومن قائل ان الخير وسط بين رذيلتين .

وهكذا كانت المتاهات العقلية فى ادراك أسس التعامل الانسانى ، كالحيرة فى معرفة العقيدة الصحيحة ، فالعقل لم يستطع أن يصل الى قانون التعامل المستقيم ، كما لم يصل الى ادراك سر الوجود ، بل كان يهيم فى نظريات من غير أن يصل الى حقائق ثابتة .

وفى وسط ذلك الديجور ظهرت السوفسطائية التى تشكك فى حقائق الوجود ، فمنهم من أنكرها ، ومنهم من شك فى كل شيء ، ومنهم من قال ان



الحق فى الأشياء هو ما يعتقد كل امرئ فى ذات نفسه ، وتسمى العنصرية ،  
فليس للأشياء حقيقة ، وإنما الأمر فيها الى اعتقاد وجودها •

وهكذا كان الضلال المبين بسبب الاعتماد على العقل المجرد فى وسط  
تلك الفلسفة التى لا تهد ، بل يضل فيها الفكر ، كما يضل السارى فى ظلمات  
الليل •

## المجوسية :

٤ — ولو غادرنا اليونان ومن سبقوهم الى الفرس ومن وراءهم فانا  
واجدون عجبا ، فانا نجد بجوار الفلسفة اليونانية التى سرت اليهم فلسفة  
أخرى ، أرادت أن تنظم التعامل الانسانى وتحل مشكلة أصل الوجود بأوهام  
توهموها ، وأساطير اكتسبوها فكانت الزرادشتية التى تفرض أن الوجود  
له الهان اله الخير واله الشر ، وأن كليهما يتنازع النفس الانسانية والكون  
وما فيه •

وان هذا بلا ريب باطل لا أصل له من دين ، ولكن قد يقال انه تحريف  
لدين سماوى ، كان يدعو لعبادة الله تعالى وحده ولا مانع من ذلك عقلا ،  
وقد وجد فى بعض كتب ذلك بقايا تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد قال  
تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير »

ولكن نجد بجوار ذلك مذهبا اجتماعيا خطيرا يدعو الى القوة ، وانه  
لا عبرة بالضعفاء ، وانهم لا يصلحون للبقاء ، فالحق مع القوى دائما ، والباطل  
مع الضعيف دائما ، فقانون الحياة يعمل للأقوياء على الضعفاء ، ويجب أن  
يبقى الأقوياء ، وأن يفنى الضعفاء ، فلا إيمان بالعدل ، وإنما الايمان بالقوة •

## المناوية :

٥ — ثم كان بفارس أيضا مذهب يحسب أن الوجود الانسانى كله شر  
يجب ألا يبقى ، بل يجب العمل على افناء الانسان ، وهو مذهب ( مانى )  
وعقيدته تسمى المناوية ، فهو مذهب يدعو الى الفناء ، ولذلك يمنع  
الزواج ، حتى لا يكون تناسل ، وينتهى ذلك الانسان الذى اعتبر وجوده  
لعنة فى الأرض ، وما دام الانسان فى الانسال مستمرا ، فان اللعنة الانسانية  
مستمرة ، وكأنه يحسب انه نزل الى الأرض بخطأ ارتكبه أبوه ، فالخطيئة  
باقية بوجوده •

## المزدكية :

٦ — وبعد ذلك جاء المذهب المخرب ، كان مذهب آخر يحل الوحدة الانسانية ، والعلاقة الفاضلة ، وهو مذهب مزدك الذى انتشر فى فارس ، وأساسه اباحة النساء ، فلا زواج ولا ارتباط ، بل يسافد الانسان كما يسافد الحيوان من غير أى قيد من رابطة حافظة للأنساب ، ورعاية للطفولة المقبلة ، كما أباح الأموال ، فلا ملكية تحمى انسانا من انسان ، بل كل الأموال مباحة للجميع من غير أى نظام ، فهو يمنع القيود فيها كما يمنع القيود فى النساء .

وجملة هذا المذهب أنه يبيح الانطلاق من كل قيد ، كما أن الحيوان فى البداية أو الغابة منطلق ، لا يقيد الا بقوة غير التى ترسم له حدا لا يتعداه .

والوهم الذى قام عليه ذلك المذهب أنه زعم أن الشحناء والبغضاء تتوالدان من احتياز النساء بالزواج أو نحوه ، واحتياز المال بالملكية ، ويحسب أنه إذا زالت روابط الزوجية ، وزالت الملكية للأموال يكون الناس فى سلام دون خصام ، ويا ليتة اعتبر الانسان كالحیوان لأنه مع زوال الملكية والعقود الرابطة للعلاقة بين الذكر والأنثى فى الحيوان لم تزل القوة الغالبة والافتراس بين الحيوانات المتحدة فى الجنس والأرومة والمختلفة .

ومهما يكن فقد انتشر ذلك المذهب فى فارس ، وضاعت الأنساب ، واعتنقه بعض الأكاسرة ، وساد وسار مدة حكم هذا الكسرى .

ولكن زال ملكه ، قبيل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانظر كيف تأذى بهم ما سموه حكم العقل .

## البرهمة :

٧ — ولو أننا تجاوزنا فارس الى ما وراءها من أرض المشرق ، فانا واجدون الهند ، وما فيها ، وهنالك نجد ديانة تقوم على التفرقة الانسانية بين طبقات ، فالتناس ليسوا سواء ، فى الحقوق والواجبات ، بل يقرر دين البراهمة التفرقة بين الناس من حيث العبادة والزلفى لبراهما ، المهم الأكبر فقد انقسم الناس من حيث مهنتهم التى تتوارث ، والتى تصير المهنة عندهم أصلا نسبيا ينتقل من الأصول الى الفروع ، ومن الفروع الى فروعهم ، فقسما الى أربع طبقات :

فالطبقة الأولى : هى أعلاها ، وهى طبقة البراهمة ، وهم رجال الدين الذين يبينون أحكامه ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الهم ( براهما ) ولذلك

كانوا أعلى الناس ، لأنهم خلقوا من أعلى الاله ، وهم فى زعمهم خلاصة الجنس البشرى ، وعقله المتفكر ، ورأسه المدبر ، لأن الرأس عنوان ذلك كله ، فهم علاوة الجسم •

والطبقة الثانية : طبقة الجند ، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب الهمم براهما • ويديه ، وهم لهذا الحماة والغزاة وموطن القوة • ومرتبته دون مرتبة البراهمة ، وهى تليهم مباشرة •

والطبقة الثالثة : طبقة الزراع والتجار ، وهم مخلوقون من ركبتى الهمم ، والمسافة بينهم وبين الطبقة السابقة لها كبيرة ، وهى قريبة من الطبقة التى تليها مباشرة لتقاربهما فى التكوين والخلق •

والطبقة الرابعة : طبقة الخدم والرقيق ، وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمى الهمم فهم أحط الطبقات ، وأبعدها ، لأنها البعيدة عن رأس (براهما) •

وهناك دون هذه الطبقات طبقة أبناء الزنى والمحرومين أو المنبوذين ، والذين يتناولون الأعمال الحقيمة فى المدن ، ويسمون من ليسوا من الهنود ( ابلج ) ومعناها أنجاس ، فكل من ليس هنديا نجس ، ، ويلحق بتلك الطبقة من المنبوذين •

ونجاسة أولئك ليست نجاسة معنوية فقط ، بل هى نجاسة حسية فى زعمهم ، حتى ان الأجنبى لو شرب من كوب ماء حطموه ، وألقوا بحطامه فى الأرض •

ويلاحظ فى هذه الطبقات أنها تتوارث ، فلا يرتقى ابن طبقة الى أعلى منها ، ولا ينحدر من هو فى الأعلى الى الأدنى •

والفضائل تتفاوت بتفاوت الطبقات ، فضائل البرهمى أن يكون وافر العقل ساكن القلب صادق اللهجة ظاهر الاحتمال ضابطا لنفسه ، مقيما للعدل بآدى النظافة ، مقبلا على العبادة ، مصروف الهممة الى التدين •

ويجب أن يكون الجندى مهيبا شجاعا ، ذلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ، حريصا على لقاء الخطوب ، وتيسيرها •

ويجب أن يكون الزراع والتجار عاكفين عليها ، يرعى الزراع شئون السوائم وتربيتها ويقوم التاجر بشئون التجارة ، ومعرفة الأسواق ، وماتقاضاه الخبرة من صفق فى البياعات والتمرس بشئونها وتعرف أحوالها •

ويجب أن يكون الخدم والأسارى والأنجاس مجتهدين فى الخدمة ،  
والتحجب الى الناس ، لأن ذلك أليق بما ينبغى أن يكونوا عليه من آداب ، وهذا  
الذى يتفق مع أعمالهم فى الجماعات •

ويقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه ما للهند من مقولة مقبولة فى  
العقل أو مردولة بعد بيان الطبقات ما نصه : « وكل من هؤلاء اذا ثبت على  
رسمه وعادته نال الخير فى ارادته اذا كان غير مقصر فى عبادته غير ناس فى  
جل أعماله ، واذا انتقل عما عهد اليه الى ما عهد الى طبقة أخرى - كان  
آثما بالتعدى » •

هذه نظم وعبادة فيها وثنية ، واذا ضربنا صفحا عن الوثنية فيها  
واتجهنا الى النظم العملية ، فعجب كيف يقبل شعب مهما تكن درجة  
التفكير فيه تلك الطبقة المقتنية ، ويسير عليها على دين واجب الطاعة ، ومن  
أجل هذه الطبقة كان التأخر النفسى والاجتماعى •

### هل للبرهمية اصل سماوى :

٨ — لا شك أنه لا يوجد فى دين سماوى التفرقة الطبقة التى يعتبرها  
البراهمة فى القديم فى ضمن دينهم الذى انتشر بها قبل المسيح ، ولاتزال بقاياها  
قائمة ، وان خفت حدتها بفعل الزمان ، وبطبيعة الاتصالات الانسانية العامة ،  
وشيوخ فكرة المساواة بين الناس علما ، وان كان العمل لا يزال يتخاذل عن  
تعميم المساواة بين الناس بحكم الخضوع المزعوم لقضايا العقل الذى يحسبون  
أنهم يطبقونه •

ولكن يفيد كلام أبى الريحان البيرونى أن احتمال أن يكون لأصل  
البرهمية رسالة سماوية ، ويرجح هذا الاحتمال بدليلين ينشأ عنهما ، وبهما  
يكون احتمالا ناشئا عن دليل ، ولمثل هذا الاحتمال قوة فى الاستدلال •

أولهما : أن الرسل المذكورين فى التوراة والقرآن ليسوا هم الرسل  
وحدهم ، بل يوجد غيرهم ، فقد قال تعالى : « منهم من قصصنا عليك ، ومنهم  
من لم نقصص عليك » ويقول سبحانه وتعالى : « وان من أمة الا خلا فيها  
نذير » فوجود ديانة سماوية بين الهند الذين كانت فيها ثقافة وادراك أمسر  
راجع ، بل أمر يقارب المقطوع به بمقتضى النصوص القرآنية •

ثانيهما : ما يذكره أبو الريحان البيرونى فى كتابه « ما للهند من مقولة

مقبولة فى العقل أو مرذولة « من أن خواص الهنود موحدون ، وأن عوامهم هم الذين دخلت الوثنية فى مزاعمهم ، فهو يقول فى هذا المقام :

« اعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله القادر الحكيم المحيى المدبر المنفرد فى ملكوته عن الأضداد ، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، ولنورد لك شيئاً من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط : « قال السائل فى كتاب يا تنجل : من هذا المعبود القوى ؟ قال المجيب : هو المستعلى بأزليته ووحانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبريء من الأفكار ، لتعاليه عن الأضداد المكروهة ، والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمداً ، إذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بحجة عليه فى وقت ما أو حال .

ثم يقول السائل بعد ذلك ، فهل له من صفات غير ما ذكرت ، فيقول المجيب : العلو التام فى القدر لا فى المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام ، وهو العلم الخالص عن دنس الهوى والجهل ، قال السائل : أفصنعه بالكلام أم لا ؟ قال المجيب : اذا كان عالماً فهو لا محالة متكلم . قال السائل : فاذا كان متكلماً لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء الذين تكلموا من أجل علومهم . قال المجيب : الفرق بينهم وبينه هو الزمان ، فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم الى غيرهم ، فكلامهم وأفادتهم فى زمان ، إذ ليس للأمور الأزلية بالزمان اتصال ، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى كلم إبراهيم ، وغيره من الأوائل على أشكال شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتاباً ، ومنهم من فتح الواسطة باباً ، ومنهم من أوحى اليه ، فقال بالفكر ما أفاض عليه . قال السائل : فمن أين هذا العلم : قال المجيب علمه على حاله فى الأزل ، وإن لم يجهل قط فذاته عالة ، لم تكتب علماً لم يكن له ، كما قال فى بيذ الذى أنزل على إبراهيم : احمداً وامدحوا من تكلم ببيذ ، وكان قبل بيذ . قال السائل كيف نعبد من لم يلحقه الاحساس ؟ قال المجيب تسميته تثبت آينته ، فالخبر لا يكون الا عن شيء . . . والاسم لا يكون الا لسمى ، وهو ان غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس ، وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هى عبادته الخالصة » .

هذه نقول البيرونى فى كتابه عن الكتب المقدسة الهندية ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن هذه الكتب تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتنزهه

عن مشابهة الحوادث ، فهو ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير العالم المتكلم ، والمتصف بكل كمال ، لا يتلاقى فيه مع صفات أحد من البشر، فوحدانيته سبحانه وتعالى فى الخلق والتكوين ، وصفاته العلية ، وخلوصه سبحانه بالعبودية لا ريب فيها فى كتب البرهمية الأصلية .

الأمر الثانى : أن الرسل جاءت اليهم ، وقد ذكر أن النصوص الدينية فى التوراة والانجيل والقرآن ، لا تمنع ذلك بل أنها تؤيده ، كما تكون من الآيات الكريما .

وإن برهما - لم يكن لها ، ولا شيء فيه من الألوهية الا أنه كان رسولا من عند الله تعالى . والعبارات التى نقلها لنا البيرونى من كتبهم صريحة فى ذلك صراحة مطلقة .

الأمر الثالث : أن هناك كتابا منزلا تلقاه براهما من ربه ، من غير نظر الى كون ذلك الكتاب حرف فيه الكلم عن مواضعه كما حدث للتوراة والانجيل ، أم لم يحرف ، والراجح أنه حرف لتقدم العهد ، بدليل أنه وجد عندهم تشبيه ونحل لابراهما وصف فيها بالاله ، لا وصف الرسول عند عامتهم .

### كتبهم :

٩ — للبراهمة كتب كما دلت على ذلك عبارات البيرونى ، وأقدم ما عرف من كتبهم الفيدا ، ولم يعرف المؤرخون عصره على وجه التحقيق والضبط ، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل القرن الخامس عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، فقد كانت مع الفاتحين الآريين على أنها من أصول ديانتهم .

والفيدا مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى نظرهم ، ويقول جماهيرهم : « أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، ويقول البيرونى أن خاستهم يقولون أن فى مقدورهم أن يأتوا بمثلها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها » ولم يبين البيرونى وجه المنع : أهو منع بمعنى التحريم ، بمعنى أن فى استطاعتهم أن يأتوا بمثلها ويتجهوا الى ذلك ، ولكنهم كلفوا ألا يأتوا أم أن هذا المنع انما هو صرف لهم عن أن يأتوا بمثلها ، فهم قادرون على أن يأتوا ، ولكنهم صرفوا عن ذلك كما يقول بعض الجهلاء فى اعجاز القرآن منحرفين فى دينهم ، لم يبين لنا البيرونى أى الوجهين أراد بالمنع ؟ لكن أراد الأول ، وهو منع بالتحريم وذلك لا يقتضى الامتناع ، فقد يكون من بعض المكلفين من

يعصى ، فيأتى بمثلها • أو يزيد عليها ، لأن الناس ليسوا معصومين عن المخالفة ولا أحد من البراهمة يعتقد جواز وجود أمثالها ، ولذلك نرجح أن يكون الامتناع فى زعمهم يصرفه ، ونكتفى من الإشارة الى كتبهم بهذا القدر •

## البوذية :

١ • — بعد أن حرفت البرهمية وجعل الناس فى عقيدتها طبقات كان لابد أن يكون من بينهم من يغير ، ولا يرضى بهذه الطبقات • ولذلك ظهر من بينهم من لا يرضى ، وهو من رجال الطبقة الأولى ، وبلغ أقصى الغاية فيها ، وهو بوذا الذى ولد سنة ٥٦٠ قبل المسيح عليه السلام ، وكانت دعاية بوذا تخفيف ويلات الانسانية التى أرهقها نظام الطبقات •

ولقد اتجه فى سبيل تخفيف ويلات الانسانية الى الدعوة لتخفيف الحاجات وكف النفس عن الشهوات ، وهذه الشهوات هى التى تشقى ، فإذا كانت ويلات الناس تجيء اليهم من ناحية أهوائهم وشهواتهم ، واتساع مطالبهم ، والرغبة فى المزيد منها ، فإن تخفيف ويلات الحياة يكون بتربية النفس على الاستغناء عن أكثر مطالبها ، والاكتفاء بالقليل ومجانبة الأهواء والشهوات ، فأنها هى التى تجعل النفس طلعة ، تحب اللذائذ وأن كانت عاقبتها سيئة ، فكان من الواجب السيطرة على الأهواء •

وقد وضع منهاجا للتربية النفسية ، الخط الأول منه يبدأ باجتناى الأهواء ، والاتجاه الى الأمور بقلب سليم منها ، فإن النفس تشرق ، ويكون ادراكها سليما ، ثم يكون من بعد ذلك الاعتقاد سليما ، ومن بعد الادراك يكون النطق الصادق ، ثم العمل القويم ، ثم السلوك الحسن ، ثم الجماعة التى تقوم على الأخلاق •

ويقرر مبادئ خلقية ، فهو يقول فى النهى عن أمور عشرة :

- ١ — لا تقتل أحدا •
- ٢ — لا تسرق ولا تغضب ، ولا تأخذ مالا لم يقدم اليك •
- ٣ — لا تكذب ، ولا تقل قولا غير صحيح •
- ٤ — لا تشرب خمر ، ولا تتناول مخدرا •
- ٥ — لا تزن ولا تأت بأى أمر يتصل بالحياة الجنسية يكون محرما •
- ٦ — لا تأكل طعاما لم ينضج •

- ٧ - لا تتخذ طيبيا ، ولا تكلل رأسك بالزهر .
- ٨ - لا ترقص ، ولا تحضر مرقصا ، ولا حفل غناء .
- ٩ - لا تقتن فراشا وثيرا ، فلا تقتن أرائك وطانفس ، ولا وسائد ولا حشايا رافهة .
- ١٠ - لا تأخذ ذهبيا ولا فضة .

وان هذه المبادئ البوذية فيها عيب ، وهى ناقصة .

أما عيبها ، فانها لا تعتمد على عقيدة موجهة ، بل يروج عن بوذا أنه أنكر أن يكون ثمة اله منشاء للوجود ، ولهذا شاعت عبادة الأوثان فيمن جاءوا بعد ، فلم تنق قلوبهم ، لأنه لم تسلم عقيدتهم ، وكانت وهما من الأوهام ضل فيها العقل ، ولم يهتد الى سواء السبيل .

ويضاف الى هذا عيب آخر ، وهى أنها تزهد فى الحياة ، وتمنع الانتفاع بخيراتها ، فكأنما مباح هذه الحياة ، انما خلقت لكى ترى وتشاق النفوس لها ، ثم تحرم على الانسان .

وأما النقص فلأن فضائلها سلبية ، هى نهى لا طلب ، ومنع لا التزام ، فالخير فيها لا يطالب فيها ، ولكن يتجنب الشر .

ان الفضائل الانسانية تتكون من عنصرين ، عنصر ايجابى ، وهو تقديم النفع الانسانى والقيام بحق الانسان على أخيه الانسان ، والاتصال بالتعاون بين الناس بعضهم مع بعض ، وذلك هو العنصر القوى فى الفضيلة ، والعنصر الثانى الامتناع عن الايذاء وهذا هو العنصر السلبى ، وهو الأدنى ، والأول هو اللباب ، وهو الخير الحقيقى ، بل انه يمنع غيره ، فان النفع يمنع بعض الأدنى ، فاذا اقتصرت البوذية على السلب نقص معنى الكمال فيها .

وان تكاليف البوذية قد يستطيع تنفيذها الخواص ، ولا يمكن أن يكون تنفيذها عاما ، والمذاهب لا يلاحظ فى تطبيقها الخاصة ، بل لابد أن يكون تطبيقها عاما ، وهى كالمذاهب الصوفية يطبقها الشيوخ ، ويقاربهم المريدون ، ولا يمكن أن تكون نظاما عاما يطبقه الجميع .

ولهذا لم يطبقها الجميع ، بل انقسم البوذيون أنفسهم الى قسمين :

( أحدهما ) البوذيون الذين أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحددون



عنها ، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة ، وحرموا غيرها ، ولا يختارون للباسهم الا الخشن من الثياب لما راضوا أنفسهم عليه من ترك لذات الحياة لتكون الحياة تحت سيطرتهم ، ولا يخضعوا لسلطانها •

( ثانيهما ) البوذيون المدنيون ، وأولئك لم يطبقوا المنهاج الشاق ، فاختاروا لأنفسهم طريقا وسطا ليس فيه إفراط فى اللذائذ ، ولا شدة فى تركها •

أخذوا ببعض الأخلاق البوذية من تواضع وصدق وأمانة ، ونالوا بعض الملائ التى لا تعقب الما ، ولم يندفعوا فى اجتراح الشهوات ، حتى لا يصابوا بالام الحرمان ان لم يستطيعوا •

وخلاصة القول أنهم أخذوا من المبادئ السلبية المبادئ الخمسة الأولى ، وهى الا يقتلوا ، ولا يسكروا ، ولا يسرقوا ، ولا يكذبوا ، ولا يزنوا ، وتركوا الباقيات من المهنات ، فلم يحرموها عليهم •

ولقد كان ذلك الانقسام سبيلا لأن يكثر المدنيون ، ولأن يوجد فريق لا يأخذون بشيء من هذه المبادئ ، بل يتركونها وراءهم ظهريا • وبذلك ضعف العقل وحده عن أن ينشئ دينا آمرا وناهيا •

### الكونفوشيوسية :

١١ — وان البوذية التى ولدت فى الهند كان أكثر تابعيها فى الصين لا فى الهند ، وقد انتقلت اليها وثنية ، كما كانت فى الهند ، واقترن بها ما ليس منها ، وانحرفت العقول •

ولكنها اذ انتقلت الى الصين قد احتضنها بيئة امتازت من بين البيئات بالوثنية ، والتمسك بكثير من المبادئ العملية التى تتفق مع قانون الأخلاق الى حد كبير ، ولكن لعدم اعتمادها على عقيدة قوية كانت فى قلوب شاغرة ، واذا سكنت المبادئ فى قلوب شاغرة عن الايمان جف عودها ، ولم تقو على البقاء •

كان فى الصين فيلسوف يسمى فى لغة الفرنجة كونفوشيوس ، وهى تحريف لاسمه الاصلى فى الصين وهو « كونج فوتس » وقد أخذ ذلك الفيلسوف بالمذهب البوذى ، ولكنه أخذ بمبدأ البوذيين المدنيين ، وكان مذهبه ليس دينا يتبعه ، ولكنه اصلاح يدعو اليه •

ومع وجود المنهج العلمى فى اصلاح كونج فوتس نجد بجواره فيلسوفا كان أسـن من كونج فوتس اذ أن هذا ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد ، أى أنه يعاصر بوذا ، والفيلسوف الآخر واسمه لوتس ، كان يكبر الأول بنحو خمسين عاما ، ومذهبه هو الاعتزال أو أن ينجو بنفسه ومن يتابعه من المفاسد .

وقد التقى الفيلسوف الشاب كونفوشيوس الذى يرى أن مبادئ الأخلاق يكون أساسها النفع الايجابى ، لا الاعتزال السلبي بالشيخ لوتس الذى لا يرى الا الاعتزال السلبي ، فتحاورا .

قال الشيخ للشباب : « ان الخير ليس فى محاولة اصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والاختلاط ، اذ أن الاختلاط يفسده ، بل الخير كل الخير فى الزهادة والقناعة والاعتزال ، والتسامح ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وهى العفو » .

قال الشاب للشيخ : « اذا كان واجب كل شخص من أحـاد الأمة أن يعتزل فى كهف من الكهوف فمن الذى يبقى فى المدن يعتمرها ، وفى الأرض يفلحها ويرزعها ، وفى الصنائع يمهر فيها ، ومن الذى ينسل ويعمل ، ليبقى الكون عامرا ببنى الانسان ، واذا كان الاعتزال مقصورا على الحكماء ، والفضلاء ، فمن الذى يربى الانسان ويؤدبه ، أم يترك الناس حائرين باترين لا هادى ولا مرشد .

### عقيدة الصين القديمة :

١٢ — ومهما تكن آراء كونج فوتس من الحكمة والصواب فقد اختلط بها ما ليس سائغا ، فقد كان يعتقد بالهة ، وبأن السماء مرتبطة بالأرض فيصلح الكون اذا صلح الانسان ، ويفسد بفساده ، لقد كان كونج فوتس يعتقد ما يعتقد الصينيون القدماء .

وأساس هذا الاعتقاد أنهم يعبدون ثلاثة أشياء : السماء ، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ، ( الملائكة ) وأرواح الآباء .

والسماء التى يعبدونها لا يقصدون بها تلك القبة الزرقاء ، بل يقصدون الأفلاك ومداراتها ، والقوى المسيطرة التى تسيطر عليها وتسيرها فى مداراتها ، وباتصالها بالأرض والرياح والأمطار تنبت الأرض ، وكان عبادتهم للسماء لاعتقادهم أنها عالم حى يتحرك حسب نظام دقيق محكم ، وللسماء السلطان الأكبر على العالم ، اذ أن كل ما فيه من قوى مسيرة خاضع لسلطان السمااء .

وظاهر كلامهم أنهم لا يفرضون للكون سمائه وأرضه قوة منشئة مغايرة  
هى المدبرة والتى تحفظ العالم ، وتحول قواه ، فهم بذلك يعدون منكبين لله  
الواحد الأحد الفرد الصمد ، وعلى ذلك يكون الأساس الذى بنيت عليه  
عقيدتهم باطلاً .

وهم يعتبرون التحول والتغير فى الكون على حسب مداركهم ، وعلى  
أساس عقيدتهم السقيمة فهم يرون أن العالم قسمان مادي وروحي وأن الروحي  
هو الذى يسير المادي ، فهم بهذا يرون أن المنشئ من ذات الكون لا من قوة  
فوقهم ، وبذلك يتقاربون من الفلسفة الأيونية .

ومع أنهم لا يؤمنون بالواحد الأحد المنفرد بذاته عن المشابهة يؤمنون  
بالقضاء والقدر ، ويرون أن السماء هى التى تقدر وتقضى ، فلا مفر من  
حكمها فى زعمهم ، ولا خلاص من سلطانها فى اعتقادهم .

ويؤمنون بأن الأحكام القدرية مرتبطة هى والأمور الكونية ، بالأخلاق  
الانسانية ، فإذا كانت الأخلاق مستقيمة استقام الكون، وإذا فسدت اضطرب ،  
فكلما كان الاعتدال والانسجام والعدالة بين الناس استقام الكون ولا يضطرب .  
وما الزلازل وما خسف الأرض وكسوف الشمس وخسوف القمر الا من فساد  
الأخلاق ، وعدم استقامتها . وهى أمارات على ذلك ، وإذا كان السلوك غير  
القويم يحدث الاضطراب ، فالسلوك القويم يجلب الخير ، والبركات . ويجعل  
كل ما فى الكون يجرى على ما يحبه الانسان ويرضاه .

وعلى ذلك يكون المؤثر فى الكون ثلاثة :

أولها : السماء بسلطانها ، والأرض بقبولها لحكم السماء ، والانسان  
بارادته الخلقية ، فان اختار خير الأخلاق وأفضلها واتجه إليها . فان مظاهر  
الكون تكون لخير الانسان . فالجو يمتلئ بالنسيم العليل ، والحرارة المنعشة  
غير اللافحة ، والغيث المحيى لموات الأرض من غير أن يخرب العمران ويصير  
غيثا ، وتكون الشمس المشرقة ، والنهار المبصر والليل الساجى .

١٣ — وبذلك نجد أن العقيدة الصينية فاسدة ، والخلق الصينى  
قوى ، والارادة الصينية قويمة ولكنها قائمة على عقائد فاسدة ، وما يقوم على  
الفاسد لا بد أن ينهار ، اذ هو قائم على شفا جرف هار ، غير مستقر  
ولا ثابت الدعائم .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية ووليدتها الرومانية قد عجزت عن تكوين

حكم خلقى له مقياس ثابت لا يتغير بتغير الأعراف ولا بتغير الأماكن والأزمان ،  
فان الصين قد وصلت الى حكم عملى حسن فى جملته يتجه الى الخير فى  
غاياته • ولكنه لم يقم على دعائم ثابتة من ايمان خال من الأوهام ، وعقيدة  
بعيدة عن الأخيلة غير المحققة ولا الثابتة •

ان العقيدة الصالحة هى التى توجد الأخلاق الثابتة ، وهى التى توجد  
المجتمع الفاضل الذى يريد الخير بدافع من ايمان ثابت الدعائم قوى الأركان •

١٤ — وننتهى من هذا السياق الذى انتقلت فيه من اليونان والرومان  
سائرين الى الشرق الأدنى فالشرق الأقصى — الى أن العالم كله فى الفترة التى  
كانت قبل المسيح وخاتم النبیین محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يموج فى  
مضطرب فسيح من الآراء والمنازع المتناحرة •

وأنه فى الوقت الذى كانت الوثنية تضيق ذرعا بالوحدانية التى جاء بها  
موسى وخلائفه ، وجاء بها عيسى وحملها حواريوه — كان الشرق الأقصى بعيدا  
عن هذه الدعوات الى الوحدانية ، فكانت فيه مجوسية الفرس ، ووثنية  
الهندوس ، وظلم الطبقات ، ثم كان من وراء ذلك عبادة الأفلاك والنجوم  
والأرواح فى الصين •

كان العالم اذن يموج بفساد الفكر ، وفساد العمل ، واضطراب الحكم ،  
وانقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وسيطرة الأقوياء على الضعفاء ، وقد  
اشتد الطغيان •

### وثنية اليونان والرومان :

١٥ — وبجوار تلك كانت أوروبا تعيش فى ظلمات الوثنية ، وكان  
غربها من الوندال والسكسون قبل المسيح يعيشون فى جاهلية عمياء ، لم  
يكن فيها هاد ولا مرشد ، كما تعيش بعض القبائل فى مجاهل أفريقية ولا  
فرق بينهم الا فى اللون ، فأولئك بيض ، وهؤلاء سود ، ولكن الفعل واحد ،  
والوحشية متقاربة ولعل البيض أغلظ أكبادا ، وأقسى قلوبا •

١٦ — ولما جاءت المسيحية جاءت اليهم بعد أن شأهت ، واعتراها  
التغيير والتبديل ، وذلك لأن الفلسفة اليونانية والرومانية من بعدها عجزت  
عن اصلاح الأخلاق ، وبث الاطمئنان فى القلوب ، والرضا فى النفوس ، فكان  
لابد من دين يقود العقل الى ما فيه خير العباد •

وقد فقدت الأوثان قوة تأثيرها فى الجماعات ، اذ أن الفلسفة قد أيقظت العقول ، وان لم تهدها ، وحركت الأفهام ودفعتها الى التفكير ، وان لم تهدها الى الصراط السوى الذى يسلكه من يستضىء بنورها وحدها ، فكان لابد من دين بجوارها ، وخصوصا أن المدائن الرومانية لم يكن فيها التناسق الاجتماعى الذى يجعل كل انسان يرضى بما قسم له من حظ .

ان التاريخ يحكى أن توزيع الثروة فى الدولة الرومانية لم يتحقق فيه العدل الاجتماعى ، فبينما تترف فيمن أفاءت عليهم الدولة بالغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ترى ألوف الألوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به فى حياتهم ، فاستولى عليهم الاحساس بالظلم ، والناس لا يشقون بالأم ذاتية وحرمان ذاتى بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التى امتنعت عليهم ، وكذلك كانت الآلام فى سواد الرومان ، ولولا بقايا من الصبر عندهم لانفجروا فى ثورات ماحقة لا تبقى ولا تذر .

### مزج الفلسفة بالدين :

١٧ — وفى هذا الوقت أرادوا أن يمزجوا الفلسفة بالدين أو يحلوا الفلسفة محل الدين ، اذ أخذت التماثيل تفقد قوتها ، ولم يعد لها سلطان فى التأثير فى نفوس الشعوب ، وفقدت معابد الأوثان ما كان لها من روعة ، ولقد كان يعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان قويان كلاهما فيه شدة وبأس ، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم فى حاجة الى عزاء من الدين ، وسلوى بالجزاء فى يوم آخر غير يوم الشقاء الذين يعيشون فيه ، والمعامل الثانى الذى أضعف هذه السلوى هو أن الآلهة التى تمثلوها فى الأوثان فى زعمهم قد فقدت قوة تأثيرها .

وقد أرادت الفلسفة أن تحل محل الأديان ، ولكنها لم يكن لها تأثيرها ، فاتصلت بالأديان والتقت بها التقاء تعاون ، وليس التقاء تخاصم وتناحر ، كما كان الشأن بينهما .

جاء فى كتاب المبادئ الفلسفية « ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهديب الآراء الدينية ، وترتيبها والمتقدم بها الى الشعور الدينى اللجوج بفكرة فى العالم قد تقنعه ، فأوجدت نظما دينية تتفق مع الأديان فى النظر فيما وراء المادة اتفاقا يختلف قلة » .

وهنا نجد الفلسفة اليونانية التى تسمى الأفلاطونية الحديثة تحاول الالتقاء بالديانين اللتين كانتا بارزتين فى ذلك الابان ، وقد تخاذلت وثنية

اليونان والرومان عن أن تقف وحدها فى الميدان ، فأتى بآراء فى خلق العالم  
تقرر أن منشئ الكون الجدير بالعبادة فى نظرها يشتمل على ثلاثة أمور :

أولها - أن الكون صدر عن منشئ أزلى دائم لا تدركه الأبصار ولا تحده  
الأفكار ولا تصل الى معرفة كنهه الأفهام .

ثانيها - أن جميع الأرواح شعب لروح واحدة ، وتتصل بالمنشئ الأول  
بواسطة العقل الذى صدر عن المنشئ صدور المعلول عن ثلثه ، فهما متلاقيان  
فى القدم ، ويصح التعبير عن المنشئ الأول بالآب وعن العقل بالابن ، وان كان  
أحدهما ليس متخلفا عن الآخر فى الزمان .

ثالثها - أن العالم فى تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة .

### التثليث فى الفلسفة :

١٨ — وخلاصة القول أن الشئ الأول هو مصدر كل شئ ، واليه  
معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ، ولا بعرض ،  
فليس بفكر فكركنا ، ولا إرادة كإرادتنا ، ولا وصف له إلا أنه واجب الوجود ،  
يتصف بكل ما يليق به فيفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود ، ولا يحتاج  
هو الى موجود له .

وأول شئ صدر عن هذا المنشئ فى نظر صاحب تلك المدرسة وهو  
أفلوطين هو العقل ، صدر عنه كأنه متولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ،  
ولكن ليس كمن تولد عنه .

ومن العقل انبثقت الروح التى هى وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث  
يصدر كل شئ ، ومنه يكون التدبير والخلق .

ويلاحظ أمران :

أولهما - أنه التقت الأفلاطونية الحديثة مع الدين ، وصارا يضربان  
على نغمة واحدة هى نغمة ذلك التثليث ، وهو ما اشتملت عليه النصرانية التى  
حالت اليها المسيحية التى تزعمها من تركوا ما دعا اليه المسيح عليه  
السلام .

وبها تلتقى الفلسفة مع ذلك الدين ، وتلتقى الوثنية التى تتعدد فيها الآلهة

وتكون منهما تلفيق متناسق أو غير متناسق ، من غير نظر الى كون هذا الامتزاج مزيجا ، قد اختلفت فيه ظواهر العناصر الممتزجة فى مزاج واحد ، أم لم تختلف .

الأمر الثانى. — أن شيخ هذه المدرسة هو أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢ ميلادية اعتنق الديانة المسيحية الأولى التى جاء بها أتباع المسيح عليه السلام فيما نطن ، ثم ارتد عنها الى وثنية اليونان الأقدمين .

وجاء من بعده أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م ، وقد تعلم فى مدرسة الاسكندرية أولا — ثم رحل الى فارس والهند ، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية واطلع على آراء بوذا ومذهبه ، وبراهمة الهند وديانتهم ، وعرف آراء البوذيين فى بوذا ، وقد رفعوه الى مرتبة الاله ، والبراهمة فى كرشنة ، وقد رفعوه أيضا الى مرتبة الاله ، وقد عاد من بعد هذه الرحلة التى تزود منها بالزاد البرهمى واليوذى الى الاسكندرية التى كانت مهد مدرسته المثلثة على النحو الذى بيناه .

١٩ — فى هذه الموجة الفكرية كان يعيش العالم فى القرن الثالث من مولد المسيح عليه السلام وقد استمر ذلك الاضطراب الفكرى أمدا بعده ، حتى جاء القرن السادس ، وقد زادت المنازع وتخالفت المناهج ، وانحل الفكر انحلالا شديدا فيما يتعلق بالاعتقاد .

وانشقت النصرانية التى انحرفت عن تعاليم المسيح عيسى ابن مريم على نفسها ، فكان منها الملكانية وكان منها اليعقوبية ، واشتد الخلاف بينهم ، حتى انتقل الخلاف الى عداوة فكرية ثم الى عداوة تشبه العداوة الجنسية ، وأغرى الله تعالى بينهم بالعداوة والبغضاء ، وتفرقت النفوس والأفكار ، وضعف الاعتقاد ، وانحل الايمان ، فانه كلما انتقلت العقائد الى أن تكون موضع مجادلات تضعف ، ويعرض لها الشك ، وينتهى اليقين ، وكذلك كان الأمر فى الأرض التى كانت تعتنق النصرانية فى القرن السادس ، فى البلاد التى كانت تجاور الجزيرة العربية وفى الجزيرة نفسها .

٢٠ — فالمسيحية ابان القرن السادس الميلادى قد ضعفت الايمان بها ، لكثرة الجدل فيها ، ولم تكن قد استقرت الأفكار حولها ، واقتصرت على اتجاه معين من اتجاهاتها .

فابتدأت أولا باضطهاد الوثنية لها ، وتجسس اليهود على النصارى ، واختفى المسيحيون فى أكنان من أرض الروم وفلسطين مستترين بعقائدهم ،

وكلما ظهر فريق منهم قوبل بالاضطهاد ، والأذى المرير ، وتبارى فى ذلك ملوك الرومان ، وقد جعلوا عمل أمرائهم الذين يرسلونهم هو ذلك الأذى ليثدوا ذلك الدين الجديد فى مهده ، ويقبروه فى حجر ولادته •

وقد تكاثرت المصادر الدالة على ذلك الاضطهاد ، وقد جاء فى كتاب تاريخ الحضارة ما نصه « قد كتب بلين وكان واليا فى آسيا الى الامبراطور تراجان كتابا يدل على الطريقة التى كان يعامل بها المسيحيون قال : « جريت مع من اتهموا بانهم نصارى على الطريقة الآتية ، وهو أنى أسألهم اذا كانوا مسيحيين ، فاذا أقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهددا بالقتل ، فان أصروا أنفذ فيهم عقوبة الاعدام مقتنعا بأن غلطهم الشنيع ، وعنادهم الشديد يستحقان بهما هذه العقوبة ، وقد وجهت التهم الى الكثيرين بكتب لم تذيّل بأسماء من كتبوها ، فأنكر المتهمون أنهم نصارى ، وكرروا الصلاة على الأديان الذين ذكرت أسماءهم أمامهم وقدموا الخمر والبخور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأديان ، بل إنهم شتموا المسيح ، ويقال انه من الصعب اكراه النصرانى الحقيقى على شتم المسيح ، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى وكانوا يقرون بأنهم يجتمعون فى بعض الأيام قبل طلوع الشمس على العبادة ، وعلى انشاد الأناشيد اكراما للمسيح ، وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم بل على ألا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزناوا وأن يوفوا بعهدهم ، ورأيت من الضروري أن أعذب امرأتين ذكرتا أنهما خادمتا الكنيسة ، بيد أنى لم أقف على شيء سوى خرافة سخيفة •

وقد كثر الاضطهاد ، وكان نيرون يجعل من النصارى مشاعل تسير فى موكبه ، ان يطيحهم بالقار ، ويشعل فيهم النار ، وتصير تلك الشعلة فى احتفاله بنفسه •

وأوقع دقلديانوس بنصارى مصر أشد الاضطهاد ، وأنزل بهم العذاب وقتل فى مصر المسيحية التقتيل الذريع الماحق ، حتى انه اعتبر تاريخ ذلك العذاب هو ابتداء التاريخ القبطى •

٣١ — وبعد زوال الاضطهاد ظهرت الخلافات على أشدها ، فكانت بقايا الوحدةانية تظهر على لسان أريوس ، ومعه أكثر كنائس الشرق ، وأكثر الكنائس فى فلسطين ، وكثير من كنائس مصر •

ولما أراد قسطنطين أن يدخل فى النصرانية جمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وأعلن ثمانية عشرة وثلاثمائة من المجتمعين ألوهية المسيح ، فأخذ بقولهم مع أن المجتمعين ابتداء فى المجمع كانوا يبلغون ٢٠٤٨ أو يزيدون ، ولكنه أراد



أن تتغير المسيحية الى ما يقرب من الفلسفة الوثنية على أن يبقى اسم المسيحية ، وان خلت من لبها ، وهى الوجدانية التى تحارب الوثنية •

ثم توالى بعد ذلك المجمع الذى مال بالمسيحية عن معناها مجامع أخرى ، وأول مجمع عام انعقد بعد ذلك كان المجمع القسطنطينى الأول سنة ٢٨١ ميلادية وفيه أضيفت الى مناصب الألوهية روح القدس لتتم عناصر الأفلاطونية الحديثة التى أشرنا إليها آنفا •

ولكن يظهر أن ألوهية المسيح التى قررها مجمع نيقية لم تكن قد استقرت فى الأذهان ، فقد جاء من بعد ذلك نسطورس ، واعتقد أن المسيح ليس ابناً للاله بالحقيقة ، إنما البنوة مجازية ، إذ هو ابن بالنعمة والمحبة ، لا بالألوهية فاجتمع مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م ، ليبطل قوله ، ويكفروه كشأنهم فى كل من يجهر برأى •

توالى من بعد ذلك الخلافات المفرقة ، فمنهم من قرر أن مريم ولدت المسيح الانسان ثم فاضت عليه البنوة الالهية التى هى اللاهوت ، فيقولون ان فى المسيح صفتين اللاهوت والناسوت ، أو الانسان والاله ، والابن هو مجموع الاثنين ، وهو الأقنوم •

والآخرون يقولون انه طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى ومريم ولدت الناسوت واللاهوت معا ، فقد ولدت الانسان والاله •

وقد اعتنقت الكنيسة المصرية وحدة الطبيعة وولادة مريم لها معا •

وكان الخلاف الشديد بينهما ، وكان النزاع وكان الجدل ، وكل جدل يحل الاعتقاد ، ويضعف قوته ، ويخضع شوكته ، ولا يجعل له قوة دافعة مانعة •

وقد اشتد ذلك كله فى القرن الخامس والسادس •

وبذلك نقول مقررين أمرين :

أولهما - أن القرن السادس كانت العقائد فيه غير قارة فى النفوس ، والآراء تخلق وتعتنق ثم يتعصب لها ، وليس التعصب دليلاً على قوة الاعتقاد ، بل التعصب دليل على الانحراف النفسى ، والنظر الجانبي ، وكذلك كان تعصب الملكانيين ضد اليعقوبيين ، إذ كان فى جملته ادراكاً جانبياً منحرفاً • العصبية هى المسيطرة فيه ، وليست قوة اليقين هى المسيطرة •

ثانيهما - أن النفوس فى القرن السادس كانت مهياة للعقيدة الصحيحة تعتنقها اذا ظهرت بيناتها ، وقام الاستدلال المنطقى عليه ، وخصوصا أن الأفكار المرددة كانت أوهاما ، أو أقوالا غير متميزة تمييزا عقليا ، ولم تكن قد استقرت استقرارا يجعل التعصب لها يشبه الطائفية ، كما حدث من بعد بين النصارى ، وبين اليهود \*

وهكذا نرى المسيحية التى خلفت المسيحية الحقيقية التى جاء بها المسيح رسول الله عليه الصلاة والسلام ، جاءت الى النفوس قلقة غير مستقرة ، بل انها مضطربة غير ثابتة \*

فاذا كانت أوثان الرومان قد فقدت قوة تأثيرها ، وحل فى ربوع الوثنية ديانة تأخذ من اليهودية طرفا يأخذها بأحكام التوراة الا ما خالف الاناجيل ، وتأخذ من الوثنية بأطراف ، ولا تكاد تأخذ من الدين الحقيقى شيئا - فان ذلك المزيج الجديد لم يستقر ، بل جاء مضطربا واهنا حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، فكانت النفوس مهياة لدين جديد هو الدين الحق \*

## العرب

٢٢ — طفنا بتفكيرنا حول العالم من غربه القريب والبعيد ، الى شرقه الأدنى والأوسط والأقصى ، ولم نخرج على البلاد العربية ، ونحسب أنها القلب ، وأنها ذؤابة الفكر الأدبى ، فاليها تأزر الحقائق الدينية قديما وحديثا ، ومنها خرجت أصوات الأنبياء ، خرجت ابتداء من أطرافها ، ثم ختمت الرسالة الالهية فى قلبها ، ولقد هاجر ابراهيم أبو الأنبياء الى بلاد العرب وولد فيها ولده اسماعيل الذى كان أول البشرى وحمد الله على ولادته ومن بعده اسحاق ، والأول من جاريته هاجر ، والثانى من زوجته سارة ، وقال من بعدهما « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق » \*

وقد كان من ولده قريش الذين كانوا ذؤابة العرب ، ولهم مكانة الزعامة فيهم ، كما سنبين عند الكلام عن الكعبة المكرمة ، فاليهم يآرزون ، والى تلك البنية يحجون \*

وكانت قريش ومن يتبعونها على الدين الذى جاء به أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فكانوا فى أصلهم موحدون لا يعبدون غير الله تعالى ، فلا يعبدون صنما ، ولا حجرا ، ولا حيوانا ، وليس فيهم لوهية لمخلوق الا ما

كان ممن وفدوا اليهم من النصارى كنصارى نجران ونصارى تغلب وغيرهم، وقد كان يقوى توحيدهم صلتهم بإبراهيم عليه السلام ، وشرفهم فى الانتساب اليه عن طريق ولده اسماعيل عليه السلام ، ولكن طراً عليهم ما حالت به أحوالهم ، وتغيرت بسببه عقائدهم وذلك لتقادم الزمن بينهم وبين اسماعيل عليه السلام ، حتى نسوا ما عرفوا \*

## دخول الوثنية أرض العرب :

٢٣ — توردت عبادة الأوثان على النفس العربية ، والتفكير العربى من نواح ثلاث :

أولها — أن بقايا من الديانات القديمة كانت فيها وثنية ، وإن لم تكن سائدة فى البلاد ، فقوم نوح كان فيهم وثنية ، وقيل أنه كان عربياً ، أو خاطب العرب ، وقد قص الله خبر أوثانهم فقال تعالى : « وقالوا لا تدرن ألهمكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيراً » \*

ولا شك أن هذه الأثرية من بقايا الوثنية تبقى ، وإن لم تكن سائدة مسيطرة ، وإنك لترى أن بعض المتدينين بديانات سماوية يبقى فى نفوسهم بعد اعتناقها بقايا أشربت بها نفوسهم ، وتجرى آثارها فى بعض أرائهم ، وإذا لم تصل الى أن تكون رأياً يقنع ، فإنها قد تكون تقليداً يتبع \*

الثانية من جيرانهم الرومان ، فإن الوثنية الرومانية كانت على مقربة من العرب من قبل المسيح ومن بعده ، فعدوى العقائد تسرى كعدوى الأمراض، ومن الاختلاط الذى كان بين بعض العرب والرومان فى الاتجار كانت العقائد الدينية تجيء اليهم ، وخصوصاً أن دولة الرومان كانت أقوى سلطاناً من الجماعات العربية ، وأن بعض القبائل العربية كانت تخضع لسلطان الروم ، كالغساسنة ، فإنهم كانوا تحت سلطان الرومان ، وكانت له تبعية للرومان ، ووراء هذه التبعية الاختلاط ، ووراء الاختلاط العدوى \*

والناحية الثالثة ذكرها ابن اسحق صاحب السيرة فقال :

« يزعمون أن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى اسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت والتمسوا الفسيح فى البلاد الا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى أدى ذلك الى أن كانوا يعبدون ما استحسّنوه من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت من بعدهم خلوف ، ونسوا ما كانوا عليه

واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من الضلالات •

ويذكر الحافظ بن كثير فى تاريخه أن ابن هشام قال : « حدثنى أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشام ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العمالق رأهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ، قالوا له هذه أصنام نعبدها ، فتمطرنا ، ونستنصر بها فتنصرنا ، فقال لهم الا تعطون منها صنما ، فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته » •

وعمر بن لحي هذا كان سيد خزاعة ، وكانت لخزاعة سُدانة البيت الحرام ، فكان له بهذا سلطان فى التوجيه • يعظمون ما تعظمه •

وان هذا يدل على مقدار العدوى التى جاءت من الرومان ، فما كان فى الشام انما هو من أثر وثنية الرومان ، وان ذلك يؤكد أن وثنية العرب كان للعدوى أثر فيها وان كان ثمة أسباب قوتها •

ومهما تكن الأسباب فقد توافرت ، حتى دخلت الوثنية الأرض العربية ، وبين ذرية ابراهيم حاطم الأوثان الذى جعلها جذاذا •

وقد سيطرت الوثنية على أعمالهم حتى لقد ورد عن أبى رجاء العطاردى أنه قال : « كنا فى الجاهلية اذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من التراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها •

**لم ينسوا الله فى وثنيتهم :**

٢٤ — لقد أغرم العرب بعبادة الأوثان اغراما شديدا ، حتى صارت جزءا من مداركهم وعقولهم وأصبحوا يستنصرون بالأحجار ، ويظنون أنها تجيب سؤلهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينسوا الله تعالى خالق هذا الوجود ومنشئه ، وكانوا كما قال تعالى عنهم : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » •

وهنا تفترق الوثنية الرومانية واليونانية عن وثنية العرب اذ ان وثنية العرب فيها ايمان بالله ، وان لم يكن وحدانية ، بل كانوا يشركون مع الله تعالى غيره ، أما الآخرون فقد كانت نظرية الحلول تسرى فيهم ، ولا يجىء فى وثنيتهم ذكر الله تعالى قط •

والمسبب الجوهرى فى هذه التفرقة أن الأصل عندهم هو التوحيد ، كما تلقوه عن اسماعيل وإبراهيم عليهما السلام ، فكان بقية مما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب، كما قال تعالى فى كتابه الكريم • ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا يموتن الا وأنتم مسلمون » •

الأمر الثانى – هو احترام الكعبة والبيت الحرام ، وهو ما ورثوه عن إبراهيم عليه السلام فقد كانوا مع وثنيتهم فيهم بقايا من عهد إبراهيم من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدى البدن ، والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، ويقول ابن اسحاق فى سيرته • كانت كنانة قريش اذا اهلوا قالوا لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده ، ويقول تعالى لحمد « وما يؤمن أكثرهم بالله ألا وهم مشركون »

ومن أجل أن العرب كانوا يحاولون الجمع بين إيمانهم بالله تعالى وإيمانهم بالأوثان نقول ان إيمانهم بالأوثان لم يكن قويا مستغرقا ، كما آل اليه أمرها عند الرومان ، وخصوصا قبل البعث المحمدى ، كما أن إيمانهم بالله تعالى لم يكن صحيحا ، لأن الإيمان بالله لا يتحقق الا اذا كان المؤمن يؤمن بوحديته لا يشرك فيه أحدا فى ذاته ولا فى الخلق والتكوين ، ولا فى العبادة، فلا عبادة الا لله تعالى وحده •

ولكن الذى يدل عليه الجمع بين الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالأوثان هو أن اعتقادهم فى الأوثان لم يكن قويا مكينا ، بل هو اضطراب فى الاعتقاد ، ولا استقرار فيه ، بحيث تستقر النفس وتطمئن ، وكيف يستقر عقل ، يجمع قبضة من التراب أو يقطع قطعة من الحجر يجعله معبوده ، ويعبده أطراف النهار وزلفا من الليل ، وهو مع ذلك يجزم بأنه ليس بخالق ، ولكنه مخلوق •

وإذا كانت الوثنية قد ضعفت فى آخر أمرها قوة الأوثان ، فإن أوثان العرب خلقت فكرتها ضعيفة يوجد ما ينازعها ، أو يجعلها قلقا غير مستقرة اذ هى فى نفسها تحمل عوامل ضعفها وردها ، ولكنه التقليد الأعمى ، الذى سد مسالك الادراك على العقل •

### القلوب فارغة من إيمان :

٢٦ — ان الذى ذكرناه أن القلوب والعقول كانت فارغة تحتاج الى ما يملؤها ، ويسد فراغها ، ولا يتركها شاغرة فى شرق الأرض وغربها يستوى

فى ذلك قاصى الأرض ودانيتها ، فالشرق الأقصى كما يعبر رجال السياسة لم يكن فيه ايمان بشئ ، وقد كانت الأوهام هى التى تسيطر ، والأوهام وان استمكنت فى نفوس من تسيطر عليهم غير صالحة للبقاء ، انما الذى يصلح للبقاء مما يسيطر على النفوس هو ما يكون متفقاً مع حكم العقل ، والتفكير السليم ، والأوهام وان قويت لا تستطيع مقاومة العقل ، ومثل الأوهام كممثل الضباب يبدده ضوء الشمس ، فكذا العقل يبدد ضباب الأوهام ، ويكشف عن المدارك غميتها •

والهنود تسيطر عليهم أوهام أشد ، وظلم اجتماعى غير صالح للبقاء ، والفرس ظهر عندهم مذاهب هدامة تهدم الانسانية ، فتجنتها من جذورها أو تهدم أخلاقها التى يتماسك بها أحادها •

والرومان وما كان تحت ظلمهم قد فقدوا الايمان ، فاستبدلوا بالوثنية النصرانية التى ابتدعوها ، ولكن لم يثبت بها ايمان الى القرن السادس •

وليس فقد الايمان كان خاصا بالعقيدة فيما وراء الطبيعة ، بل كان مفقودا فى القيم الانسانية الخلقية كما هو مفقود فى العبادة والألوهية ، فلم يكن ثمة خلق انسانى سليم ، بل كان كل شعب ينظر الى الآخر ، نظرة العدو ، وأصبح التفكير الخلقى مقصورا على معاملة أبناء الوطن الواحد ، لا أبناء الانسانية عامة وعم ذلك ولم يخص ، حتى كان الفلاسفة لا يؤمنون بحق الشعوب فأفلاطون قد كان يعتبر ما عدا اليونان من الناس برايرة ، وكل من يبعد عن وطنه فرسخا أو دونه يسترقه من يلقفه من غيره ، وقد وقع الرق على أفلاطون نفسه ، حتى افتدى ، وهكذا قد فقد الايمان بالقيم الانسانية كما فقد الايمان بالالوهية •

فكانت أماكن الايمان شاغرة من القلوب ، فلا بد من أن يكون من يملؤها ، لابد من محمد رسول الله رب العالمين ، ولابد أن يقوم فى وسط الأرض يدعو أهل الأرض فى أرض النبوة الأولى •

## أرض النبوة الأولى

٢٦ — قرأت لبعض كتاب الفرنجة كلاما يتحدث فيه عن اورشليم وبيت المقدس يقول فيه أن اورشليم وما حولها البقعة المباركة كانت مدرسة الأنبياء ، ففى وسطها تربى الأنبياء ، وعلت أصواتهم بالرسالة ، وأنه لا مدرسة للنبوة غير هذه المدرسة ، ففيتها ظهر داود وسليمان وعيسى ، وهى التى

أرادها موسى ، ودعا بنى إسرائيل لأن يدخلوها ، فقالوا « ان فيها قوما جبارين  
وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » \*

وذلك القول فيه حق ، وفيه باطل ، أما الحق فهو ما ينبىء عنه من مكانة  
أورشليم التي بها المسجد الأقصى مسرى النبي ، وثالث المساجد التي تشد إليها  
الرحال ، والتي كان منها المعراج ، والقبلة الأولى للإسلام ، وهى بهذا وبغيره  
سميت فى القرآن الكريم والمصادر الدينية السماوية الأرض المقدسة \*

أما الباطل فى كلام ذلك الكاتب فهو :

أولا - فى قصره النبوة على أورشليم وما حولها ، فان القصر ليس  
بسلام ، فانه ما من أمة الا خلا فيها نذير ، و بعد أن قص الله تعالى قصص  
عدد من الأنبياء قال تعالى فى كتابه الكريم : « منهم من قصصنا عليك ، ومنهم  
من لم نقصص عليك » واننا لا نذهب بعيدا عن أورشليم فانه بجوارها الجزيرة  
العربية وأدلافها كان فيها الأنبياء أصحاب الرسالات التي جاءت بها كتب  
سماوية وذكرتها التوراة والقرآن ، مما سنذكره فى هذا الموضوع قريبا ان  
شاء الله تعالى \*

ثانيا - لأنه فهم أن للنبوة مدرسة يتربى فيها الأنبياء وذلك باطل لأن  
النبوة رسالة من الله تعالى لخلقه ، لا تكون بمدرسة يتخرج فيها الأنبياء ،  
ولكن تكون بوحي من الله تعالى ، وتكليف منه سبحانه وتعالى ، سواء  
أكان ذلك الوحي بخلاب أوحى به اليه ، أو بكلام الله تعالى من وراء حجاب  
كما كان الشأن بالنسبة لموسى عليه السلام ، أو برسول من الملائكة ينقل عن  
الله تعالى لمن اصطفاه من خلقه نبيا أو رسولا ، فاعتبار أورشليم مدرسة  
للنبوة \* كلام ليس دينيا وليس علميا ، ولا يتفق مع تاريخ الأنبياء المرسلين  
عليهم الصلاة والسلام \*

٢٧-— وإذا سأل سائل لماذا بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم  
فى الجزيرة العربية وفى الحجاز منها ؟ ولم يبعث فى أورشليم كما بعث داود  
وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام \*

ونقول فى الجواب عن ذلك : ان أكثر الأنبياء خصوصا أصحاب  
الرسالات كموسى وإبراهيم ونوح وإسماعيل وإسحاق لم ينشئوا بأورشليم  
كما توهم ذلك الكاتب الفرنجى الذى لم يعرف معنى الرسالة والرسول ، ولم تكن  
الجزيرة العربية خالية ، بل هى كانت منبعث الأنبياء أصحاب الرسالات من

القديس ، والذين كانوا فى اورشليم ان استثنينا عيسى عليه السلام وداود وسليمان لم يكونوا أصحاب كتب يعمل بها أقوامهم وانما كان يعمل أكثرهم بكتب نزلت على غيرهم ، وأكثرهم كان يعمل على إقامة تورا موسى •

أما الرسل الذين جاءوا فى الجزيرة العربية فقد كانوا أصحاب رسالات، ينفذونها بأنفسهم ، ولم يكن عملهم مقصورا على بيان الرسالات لمن سبقوهم، ولقد بين الله وحده الرسالة الالهية التى اختلفت كتبها ، ولم يختلف معناها ، فذكرها فى قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والسندى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، يجتنبى اليه من يشاء » •

وأولئك هم أولو العزم من الرسل ، ولم ينشأ فى اورشليم منهم الا عيسى عليه السلام ، والآخرى كانوا تابعين من البلاد العربية ، أو مما حولها من أرض كنعان ، أو من أطراف الجزيرة كأرض سيناء •

فالبلاد العربية هى موطن الرسالات الأولى ، بها ابتدأت الرسائل الالهية ، وبها ختمت ، فلم يكن غريبا أن يبعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاد ، وينبثق نوره فى الآفاق من أهل المدر ، وأهل الوهر فيها •

هذا اجمال نرج اليه ببعض التفصيل :

ادريس عربى :

٢٧ — ان الحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد النبوة فادريس عليه السلام الذى رفعه الله تعالى مكانا عليا ، والذى تقول الأخبار ، انه كان فى البطن الثالث لأدم أبى الخليقة ، قالوا انه كان عربيا وفى أرض العرب ، وليس لدينا دليل يجعلنا نؤمن بأنه البطن الثالث لأدم ، ولذلك نطرح القول فى ذلك غير مكذبين ولا مصدقين ، ولا نحسب أنه من أساطير الأولين •

وانما الذى نتمسك به هو أنه صديق من الأنبياء الذين وصفهم الله تعالى بذلك الوصف الكريم • فقد قال تعالى : « واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا » ، فهو صديق ، وهو رفيع المكانة عند الله تعالى ، لأنه سبحانه رفعه مكانا عليا •

ويغلب على الظن أنه لم تكن نشأته بأورشليم ، لأن اورشليم أنشأها يعقوب بن اسحاق عليهما الصلاة وأتم التسليم •



ولقد جاء فى كتاب قصص الأنبياء لأبى الفداء أن ادريس فى سلسلة نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد جاء فيه ما نصه :

« ادريس عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه بالنبوة والصدقية ، وهو فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . »

وما دام فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعد عربيا ، ولا يعد من أورشليم ، ولا شك أن الحكم فى هذه المسألة الموقلة فى التاريخ لا يعد حكما قاطعا ، ولكنه حكم راجح ، وأكثر مسائل التاريخ الحكم فيها ظنى لا قطعى .

### نوح عربى :

٢٩ — تضاربت الروايات عن منشأ نوح عليه السلام أكان ببابل أم كان بالجزيرة العربية ، ولكن الثابت أنه من البلاد العربية ، وذكروا أن سفينته مرت فى مقابل الكعبة أربعين مرة ، ولقد أكد ابن كثير أنه دفن فى البلاد العربية ، فقد قال ابن كثير فى قبره : وأما قبره عليه السلام ، فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن ساط مرسلا أن قبر نوح بالمسجد الحرام ، أى بالموضع الذى بنى فيه المسجد الحرام .

ويقول ابن كثير : « وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المؤرخين من أنه ببلدة بالباق تعرف اليوم ( أى فى القرن الثامن الهجرى ) بكرك نوح ، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك » .

والحق أنا نميل الى أنه طوف بالأنافى . فإذا كان منشؤه ببابل ، فهو قد آوى الى بلاد العرب حصن الديانات الأولى ، ومنابع النبوة .

### هود نبى الله كان عربيا :

٣٠ — هود أقدم من ابراهيم عليه السلام ، كان من قوم عاد ، وكانوا عربا يسكنون بالأحقاف ، وكثيرا ما يكون يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام .

ويذكر ابن كثير أنه يقال أن هودا أول من تكلم بالعربية ، ويقول ابن كثير : « وزعم وهب بن منبه أن أباه ( أى أبا هود ) أول من تكلم بها ،

وقال غيره أول من تكلم بها نوح عليه السلام ، ويقال للعرب الذين كانوا قبل اسماعيل العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمود ، وحجرهم وغيرهم ، وأما ولد اسماعيل ، فيسمون العرب المستعربة .

وقد قالوا ان هودا كان أول نبي بعد نوح عليه السلام ، وربما يوصىء الى ما حكاه الله تعالى في خطابه لقومه : «وانذكروا ان جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ، فانذكروا الاء الله لعلكم تفلحون ، قالوا اجئتنا لنعبد الله وهذه ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » .

ونرى من هذا النص انه يوصىء الى ان هودا جاء من بعد نوح ، وان قومه كانوا خلفاء من بعد نوح ثم يؤتى بالاشارة من جهة اخرى الى ان قوم نوح كانوا في أرض العرب ، كما كان خلفاؤهم ، والله أعلم .

وان عادا كانوا من أقوى قبائل العرب منعة ، واقواها شكيمة ، ولكن كانوا أشدها غرورا ، كما قال الله تعالى عنهم : « فاما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجددون ، فارسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون » .

وهكذا نرى هودا عليه السلام يجادل قومه بالحسنى أو التي هي أحسن ، وهم يجادلونه بالعنف أو الطغيان حتى أهلكهم الله تعالى بريح صرصر عاتية .

### صالح عريبي :

٣١ — صالح عليه السلام هو نبي ثمود ، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك ، وقد مر بديار رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ذاهب الى تبوك في الغزوة التي قد غزاها .

كان يدعوهم الى التوحيد ، وكانت بينته ناقة لا يمسوها بسوء ، والا كانوا خاسرين كما قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح وقومه : « والى ثمود اخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تاكل في أرض الله . ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب اليم » .

ولقد كان قوم صالح من بعد عاد وقوم هود ، اذ كانوا خلفاءهم ، وكانوا اقوى واكثر عددا كما قال تعالى : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » •

ولكن ثمود بعدت عن أمر ربها ، واعتدوا على صالح ، فنزل عليهم عذاب واصب وابادهم ، ويروى أن المسلمين رأوا البئر التى كانت تشرب منها ، وذلك فى غزوة تبوك ، فقد روى عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها وملئوا القدور ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة •

### ابراهيم أبو العرب المستعربة واسماعيل :

٣٣ — لقد ولد ابراهيم فى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل • وقيل ان ابراهيم ولد بغوطة دمشق فى قرية يقال لها برزة فى جبل يقال له جبل قايسون ، ولكن ابن عساكر راوى الخبر يقول « والصحيح أنه ولد ببابل •

ولكن ابراهيم لم يستقر فى بابل ، بل كان يتنقل فى الأقاليم ، فارتحل الى كنعان حيث أرض فلسطين ثم ارتحل الى حران ، والجزيرة ، والشام •

وكانت عبادة الكواكب سائدة فى البلاد التى نزل بها ، وكان هو يدعو الى عبادة الله تعالى الواحد القهار ، ولقد حطم الأوثان وجعلها جذاذا ، وقد حاول المشركون أن يحرقوه بالنار لما فعل بالهتهم ، فألقوه فى النار ، وهو لا يعتمد الا على الله تعالى ، وقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، فاستجاب الله لدعائه ، وجعل النار بردا وسلاما عليه ، فقال سبحانه : « وقلنسا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين » أرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا ، فهم أرادوا الأذى لابراهيم ، وأراد الله الخير له ، فكان كيدهم شرا ، وأراد احباط ما صنعوا وكانوا الأخرسين ، لأنه لم يتم لهم مأرب ، وحقق لابراهيم الغاية •

ولم يجد ابراهيم مهاجرا الا فى بلاد العرب ، هاجر اليه بعد أن طوف ما طوف ، اذ أن أم ولده اسماعيل هاجرت بولدها الى مكة فرارا به ، وطمأنينه عليه ، وكان معها ابراهيم ، أو هو الذى أخذها اليه •

هربت بابنها اسماعيل الى موضع مكة ، ومعها أبوه خليل الله •

وقد أصابها العطش ، فأخذت تسعى الى الماء بين الصفا والمروة حتى رأت عينا ثرة ، فمالت سقاءها وشربت هي وولدها •

ولقد شب اسماعيل عن الطوق ، وتعلم العربية ، ورزقه الله هو وأمه رزقا حسنا ، كان ياتيهما من غير حساب ، وكان الخليل يزورهم الوقت بعد الآخر •

### بناء الكعبة :

٣٣ — وفى احدى الزورات التقى الشاب بأبيه ، فصنع كل منهما ما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد ، على شوق بعد طول غياب ، فقال الأب لولده الشاب : يا اسماعيل ان الله تعالى أمرنى بأمر •

قال الشاب : اصنع ما أمرك به ربك •

قال الشيخ : وتعيننى عليه ؟

قال اسماعيل : وأعينك عليه •

قال الشيخ لابنه : فان الله أمرنى أن أبني هاهنا بيتا ، وأشار الى اكمة مرتفعة على ما حولها •

فعندئذ رفعوا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة ، وابراهيم يبني ، حتى اذا ارتفع البناء جاء بالحجر الأسود فوضعه ، ليكون علامة ابتداء الطواف وانتهائه فى مراته •

وهذا ما بينه الله تعالى فى قوله تعالى تعالت كلماته : « واذا رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك انت المتواب الرحيم ، ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم » •

استقر بابراهيم المطاف بأن بنى ذلك البيت أول بيت وضع للناس ،

فشرفت البلاد العربية به ، وشرفت بإبراهيم الذى جعلها تختار بناءه بأمر الله تعالى .

فإبراهيم اذا كان مولودا ببابل ، وان بيته أول بيت لله تعالى بناه بالبلاد العربية ، فليست البلاد شريفة به وبابنه فقط ، بل هى شريفة بأن ابنه أبو العربية المستعربة .

واذا كان إبراهيم أبا الأنبياء حقاً وصدقاً ، فانه لم يبن بيتاً بأمر الله تعالى الا فى البلاد العربية ، ولم يبن ذلك البيت بكنعان ولا ببابل ، ولا بغيرهما ، فكانت الجزيرة العربية أرض النبوة الأولى حقاً وصدقاً ، ولا غرابة فى أن يكون مبعث محمد عليه الصلاة والسلام فيها ، انما تكون الغرابة ان خرج نبته الطاهر من غيرها .

شعيب ومدين :

٣١ — جاء شعيب بعد إبراهيم وبعد لوط ، وقيل انه كان بعد يوسف عليهم السلام ، ومن المؤكد أنه جاء بعد لوط لأنه جعل من انذاره لقومه أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط ، فقد قال الله تعالى عنه : « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط متكم ببعيد » .

وان هذا النص القرآنى السامى يدل على أمرين :

أولهما : أن مبعث شعيب عليه السلام كان بعد مبعث هود وصالح ولوط فقد جعل فى بيانه ما حدث لأقوام هؤلاء من عذاب دنيوى ماحق كان موضع انذار لهم .

ثانيهما : أنه يدل على أن قوم لوط كانوا فى العرب ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : « وما قوم لوط متكم ببعيد » فهم كانوا على مقربة منهم ، فهم كانوا مثلهم فى أطراف أرض العرب من ناحية الشام ، ان قد اختار لوط محلة غير المحلة التى كان بها عمه إبراهيم عليهم جميعا الصلاة والسلام ، فهم من صفوة خلق الله الذين اصطفاهم على عباده ، وكانوا رسلاً مبشرين ومنذرين ، وتركوا رسالات خالدة ، خلدها القرآن الكريم .

ولا نترك الكلام فى شعيب من غير أن نذكر كلمتين :

أحدهما : أنه بعث لمدين ، وأهل مدين هم أهل الأيكة ، إذ كانوا يعبدون شجرة عظيمة هى الأيكة وهم أصحاب يوم الظلة ، وقد ذكر علماء تاريخ الأنبياء أن يوم الظلة يوم فيه حر شديد أصابهم ، وأسكن الله تعالى هبوب الهراء عليهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ظل ولا ماء ، ولا دخول فى الأسراب فهربوا من محنتهم الى البرية ، فأظلمت سحابة ، فاجتمعوا تحتها ، ليستظلوا بظلالها ، فلما تكاملوا أرسلها الله تعالى عليهم ترميمهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء فأنهكت الأرواح ، وخرت الأشباح .

هذا ما ذكره ابن كثير فى معنى الظلة والصيحة التى أصيب بها قوم شعيب ، وقد ذكر سبحانه وتعالى الرجفة والصيحة ، فقد قال سبحانه وتعالى فى قصتهم فى سورة الأعراف « فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ ، فَأَسْبِغُوا فِي دَارِهِمْ جَائِثِينَ » ، وجاء فى سورة هود أنه « أَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ فَأَسْبِغُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِثِينَ » .

وهى عقوبات متتالية أرهقتهم المذلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم ، حتى فروا من أماكنهم ، فجاءتهم الضمامة فرجوا أن يستظلوا ، أو أن يجدوا فيها الرحمة ، فكانت الصيحة العنيفة وكانت الرجفة التى أصابتهم .

وقد قال فى ذلك ابن كثير : جمع الله تعالى عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفها من المثالات ، وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عنيفة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات .

الكلمة الثانية أن أهل مدين امتازوا من بين عبدة الأوثان بأنهم جمعوا مع عبادة الشجرة فساد الأخلاق وسوء المعاملات بعضهم مع بعض ، كانوا يطففون فى الكيل والميزان ، وكانوا قطاع طريق ، يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، يأخذون الفائدة الزائدة ، ويدفعون الناقص ، فان استدانوا نقصوا من الدين ، فكانوا بذلك أشد فسادا ، ولذلك كان نهى نبيهم لهم عن الفساد ، فقال لهم : ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فلا يفسد الجماعات الا التعامل الفاسد ، وهو مبيد جمعها ، لقد كانوا قليلا ، فكثروا الله ، ولكنهم أضعفوا نخوتهم ، وأماوا عزتهم ، فانصرفوا الى الفساد .

ولقد كان أوضح ما دعاهم اليه شعيب عليه السلام هو الوفاء والمعاملة الطيبة ، والتعاون على البر والوفاء بالحقوق ، بدل التعاون على الاثم .

وكان شعيب فصيح العبارة قوى البيان والتأثير ، حتى لقد روى فى بعض الآثار أنه خطيب الأنبياء ، ومدين من بلاد العرب على أطراف الشام ، جاء فى قصص الأنبياء لأبى الفداء فى أرض مدين ما نصه :

« كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم التى هى قرية من أرض معان من أطراف الشام معا يلى ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدّة قريبة ، ومدين قبيلة عرفت بهم ، وهم من بنى مدين ابن مديان » (١) .

### موسى كلف الرسالة فى أرض العرب

٢٣ — لقد نشأ موسى بمصر حيث ولد بها ، وتربى فى دار فرعون ، وترعرع فى هذا ، وكان فى رعاية الله ، لا فى رعاية فرعون ، اذ كان يتوجس منه خيفة ، ولكن صنعه الله تعالى على عينه ، فحماه وأعطاه سبحانه وتعالى النبوة ، فكان كليم الله تعالى .

ولكنه لم تبلغ اليه رسالة ربه فى أرض مصر منبته ، ومرياه ، بل كلمه ربه من وراء الشجرة خارج مصر حيث البلاد العربية .

ذلك أن موسى عندما قتل من المصريين رجلا ، اعتدى على آخر من بنى اسرائيل قوم موسى ، وجرّض على أن يقتل آخر لولا أنه أدرك أن هذه فتنة ، وقال لمن حرضه من قومه « انك لشوى مدين » ، ولما أخبر أن الملأ ياتهم به ليقتلوه خرج من مصر ، واتجه تلقاء مدين وهو يحس بالحاجة الى الغوث والمعونة ، وهو يقول « رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » ، وهو يقول أيضا راجيا الهداية من ربه يقول : « عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » .

« حتى اذا ورد ماء مدين ، وجد أمة من الناس يمسقون ، ووجد من دونهم امرأتين قنودان » : أى تكفكان غنمهما أن تختلط بغنم غيرهما ، وكانتا لاتسقيان

---

(١) قصص الأنبياء ص ٢٧٥ ج ١

غنمهما الا من فضل الماء الذى يبقى بعد سقى الرجال ، وانهم كانوا بعد سقيهم يضعون صخرة على العين ، فلا تتمكن الفتاتان الا من سقى غنمهما من فضل الرجال ، فقال موسى الفقير الى رحمة الله • للفتاتين الضعيفتين فى بدنهما كما هو ضعيف النفس لفقره ، والضعيف يحنو على الضعيف « ما خطبكما » قالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » فجاء موسى الى الصخرة فرفعها بعد أن صدر الرعاء وسقى لهما •

بعد ذلك قصت الفتاتان على أبيهما قصة القوى الأمين ، فاستأجره ثمانى حجج أو عشرة ، حتى انقضت المدة ، وهى عشر سنين لأنه قضى الأجلين، أى أتمها عشرة •

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله أنس من جانب المطور نارا ، قال لأهله امكثوا ائى أنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما آتاها تودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى انه أنا الله رب العالمين » •

ومدين كما جاء فى قصص الأنبياء لأبى الفداء ، هى المدينة التى اهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام •

فمدین كما ترى من بلاد العرب ، هى التى جاءت فيها الرسالة • بعد أن أقام موسى عليه السلام فيها عشر سنين ، بعد فيها عن بيئة فرعون فصفت نفسه •

وقد يقال ان النص يفيد أنه كان بجانب المطور أى فى أرض سيناء ، ونحن نقول ان ذلك حق ، ولكن بعد أن صفت نفسه من فرعون وآثاره وطغيانه ، وتربيته قومه على الذلة والخنوع ، حتى كان فى مصر الرخاء والخصب والذلة مجتمعات •

وكيف يوفق بين كون مدين ببلاد العرب على أطراف الشام • وكون موسى كلف الرسالة بجانب المطور • يجيب عن ذلك السؤال أبو الفداء فى قصص الأنبياء : « وسار بأهله » أى من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق الى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختلف ، فلما سار بأهله ، ومعهم ولدان وغنم قد استفادها مدة إقامته بمدين ، ومهما يكن من الأمر ، فان الله اصطفى موسى كليما له ورسولا الى فرعون ،



وشعيب استنقذه من أرض مصر ٠ مدة عشر سنين ، بعد فيها عن جو فرعون المعتم ، ليتلقى أمر ربه بتبليغ رسالته الى «فرعون الذى طغى أن رآه استغنى» ٠

### أرض العرب مأوى الفارين بدينهم

٣٣ — كانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فروا من الاضطهاد ، فاتخذوها مستقرا ومقاما فهى أرض النبيين أصحاب الرسالات العامة ، وهى أيضا مأوى الديانات التى نبتت فى غير أرض العرب عندما اضطهدوا فى ديارهم ، ونزل بهم البلاء من التتار الذين جاسوا خلال ديار بنى إسرائيل ومزقوهم كل ممزق ، وهم أولو البأس الذين بعثهم الله تعالى ، ثم من بعد ذلك الرومان الذين ضربوا عليهم الذلة والمسكنة ، وكانوا لا يعترفون لهم بحقوق الرومان ، ولم يدخلوهم فى الجنسية الرومانية مع أنهم فى حكمهم وتحت سلطانهم ، ورعاياهم ، ولكنهم الرعايا الأدنون ، وهم من فوقهم ، ولذلك لم يجد كثيرون منهم مأوى يأوون اليه الا البلاد العربية التى كانت حصن الذين يفرّون بدينهم ، ولا يجدون ملجأ الا أرض النبيين الأولين التى لم يتغلب عليها ٠

وقد وجدوا الملاذ ابتداء فى أرض اليمن فاستظلوا بظل قوم تبع ، ومع أنهم كانوا وثنيين وجدوا فى حكمهم ظلا ظليلا ، استظلوا به ، وأخذوا حريتهم فيه ، وقد اعتنق اليهودية بعض اليمنيين ، ولكن اليهود لا يعتبرون اليهودية دينا فيه اصلاح البشر وصلاحه ، ولكنهم يعتبرونه جنسية ، ويقولون مقالهم المزعوم الفاسد ، نحن أبناء الله وأحباؤه ، ولذلك لم يضموا اليمنيين الذين دخلوا فى اليهودية اليهم ، ولم يضعوهم فى جماعتهم ويسمونهم السامرة ، ولقد عاشروا الأوس والخزرج فى موطنهم الأصل باليمن ٠

ولما هاجر أولئك الوثنيون الى يثرب حيث الجناح الخصيب ، وحيث المنجع المربع ، هاجر اليهود أيضا ، الى ما حول يثرب فهاجر بنو النضير وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وخيبر ٠

ولم يندمجوا فى الشعب العربى ، بل اتخذوا حصونا تحتويهم حينما أقاموا ، وانتجعوا الخصيب من الأرض ، فكان لهم النخيل والتمر فى يثرب ، امتلكه الذين أقاموا فيها من بنى قينقاع والنضير ، وقريظة ، وامتلك أهل خيبر مثلها ٠

وكانوا كشأنهم أثرين يحبون أنفسهم ، ولا يتعاونون مع أهل البلاد ، فكانوا لا يتعاملون مع العرب ، وان تعاملوا معهم يبخسونهم ، وخانوهم

عهودهم ، كما قال تعالى : « ومنهم من ان تأمته يدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، بلى من أوفى بعهده واتقى ، فان الله يحب المتقين » .

فالعرب الذين آوهم وأنزلوهم أرضهم ، أبوا هم عليهم المعاملة الطيبة ، ونظروا اليهم على أنهم دونهم وأنهم أميون ، والامى يؤكل حقه في زعمهم الباطل ، ومنطلقهم الأثيم ، وجانبوهم ، وتحيزوا في حيز دونهم ، وعاشوا بجوارهم يأخذون ولا يعطون .

### النصرانية :

٣٤ — كما أوت اليهودية الى أرض الحرية أرض العرب ، أوت النصرانية اليها عندما كانت مضطهده من الرومان ، وكان اليهود يغرونهم بهم كما روى عن محاولتهم اغراء الرومان بالسيد المسيح عليه السلام نفسه .

وقد لجأت النصرانية الى أرض نجران ، ويظهر أنهم كانوا من النصاري الذين فروا من حكم قياصرة الذين اضطهدهم ، ويظهر أنهم كانوا في ابتداء أمرهم موحدين حتى غشيت الوثنية تلك الديانة السماوية بالتثليث وادعاء الألوهية لعيسى ابن مريم ، وأمه ، والروح القدس .

فقد جاء في كتاب الاكتفاء ما نصه : كان بنجران بقايا من أهل دين عيسى ابن مريم على الانجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله التامر ، وكان موضع أصل ذلك الدين بنجران ، وهى بأوسط العرب في ذلك الزمان .

وإن استقامة أهل نجران على أصل دين المسيح عليه السلام كانت قائمة فيهم ، حتى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ذكرهم القرآن الكريم بالثناء عليهم فقال تبارك وتعالى :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع ان يدخلنا ربنا مع القوم المصالحين ، فأنابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » .

## رجلا صالحا :

وقد قالوا فى أخبار نجران أنه مع مكانة عبد الله ، كان رجلا صالحا من نصارى الشام ، ويظهر من سياق الأخبار أنه كان ممن فردينه هاربا من أرض الرومان ، أما لاضطهادهم النصارى ، وأما لأنه رأى بعد زوال الاضطهاد أن الرومان وجهوها وجهة وثنية ، وانصرفوا بها عن التوحيد الذى هو لبها وأصلها .

وذلك الرجل اسمه « فيميون » كان رجلا زاهدا صالحا مجتهدا عاملا لا يأكل الا من كسب يده ، كان حريصا على أن يعيش مستخفيا ، لا يريد أن يعرفه الناس ، فما أن يعرف فى قرية ، حتى يخرج منها الى غيرها ، ولكن فضله كان يكشفه .

ولعل السر فى استخفائه أنه كان مضطهدا ، فأراد ألا يعرف ، وأن يذهب الى أماكن متفرقة يحتجب عقيدته الخالصة ، حتى لا يكون اضطهاد يقع به .

ولقد تبعه فى ذهابه وجيئته شاب اسمه صالح ، اتبعه اتباع المريد للشيخ فكان ينزل معه حيث نزل ، ويرحل من حيث ارتحل .

وبينما هما يسيران اختطفتهما سيارة ، واسترقهما من فيها ، وباعوهما ، وقد رأى من أتباع فيميون فى عبده المزعوم خيرا كثيرا ، إذ كان يقوم من الليل ويصلى ، غير أنه لرق الجسد ، ما كانت له حرية العبادة .

وكان أهل نجران يعبدون نخلة ، كما كان يعبد من قبل أهل مدين أيكة ، وقد أخذ ذلك الزاهد الطيب يدعو لله وحده ، ويسيطر بدينه على من استرق بدنه .

قال لهم : انما أنتم فى باطل ، أن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوت عليها الله الذى أعبدته وحده لا شريك له لأهلكها .

قال الرجل فافعل ، فانك ان فعلت دخلنا فى دينك ، وتركنا ما نحن عليه ، فقام فيميون وتطهر وصلى ، ثم دعا الله تعالى عليها ، فأرسل الله تعالى عليها ريحا فاقتلعها فاتبعه عند ذلك الكثيرون ، وذاعت حاله ودعاؤه ، وما كان للشجرة بعد الدعاء .

وبذلك دخلت نجران فى دين ( فيميون ) فحملهم على الشريعة الحق من دين عيسى عليه السلام .

ولا شك أن هذا الخبر لا يخلو من الأساطير ، وخصوصا أن فيه بعض

الأوهام ، وقد ضربنا عن ذكرها صفحا ، واكتفينا منها بما يقبل التصديق .  
ولا يوجد ما يدل على الكذب ، أو يوهم بأنه غير معقول فى ذاته .

وانه مهما يكن فيه من مبالغات لا ينفى العقل وجودها فانه لا شك ان النصرانية دخلت نجران ، وفى أول دخولها كانت مسيحية المسيح ، لا النصرانية التى دخلها الانحراف من بعدها ، واذا كانت قد غشيتها غواشى التحريف فى أهل نجران من بعد ، فان بقية من الاستقامة النفسية كانت فيهم عندما التقوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولقد كان مع أهل نجران من العرب من دخل النصرانية غيرهم كنصارى بنى تغلب الذين كانوا مع المسلمين ، واستمروا حتى عصر الراشدين ، ومع انتشار النصرانية فى أهل نجران بدعاة المسيحيين الأصليين كان ملكها باقيا على وثنيته ، وقد رأى الشعب يخرج منه الدعاة الذين يدعون الى توحيد المسيحية الأولى مخلصين ، فشدد فى ايذاء هؤلاء الدعاة وكنل بهم ، وأوجد فيهم صنوفا من العذاب ابتدعها ، ولم يسبق بها .

### اصحاب الأخدود :

٣٠ — وان أهل نجران اخلصوا فى المسيحية وقبلوا فى سبيلها العذاب الشديد ، ورضوا به عن أن يغيروا دينهم غير مطمئنين الى عقيدة سواه ، وابتلوا فى ذلك ، فابلوا بلاء حسنا ، وصبروا .

وذلك أن ذا نواس سار اليهم ، وأراد حملهم على اليهودية ، أو أن يعودوا الى الوثنية ، فأبى أهل نجران أن يخالفوا ، وأن يرتضوا بالعذاب بدل أن يغيروا ويبدلوا فحفر لهم اخدودا ، أى شق لها فى الأرض شقا طويلا امتد ، وألقى بهم فى النار التى أثارها فى هذا الأخدود ، وحرقتهم ، فما غيروا وما بدلوا ، حتى قالوا انه ألقى فيها نحو عشرين ألفا أبادهم ، وهؤلاء هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم فقال تعالى : « والسماوات ذات البروج واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا أن يأمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء شهيد ، ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الصريق » وهكذا نرى أن الذين عذبوا ذلك العذاب سماهم القرآن الكريم مؤمنين ، مما يدل على سلامة اعتقادهم وحسن ايمانهم ، وأنهم يؤمنون بالعزيز الحميد لا يؤمنون بشيء سواه فلا تثليث ولا شرك . واذا كان هؤلاء هم نصارى نجران ، فهو دليل

على أنه لم يصل اليهم التحريف النصراني ، أو لم يكن قد دخل التحريف بعد الى ذلك الدين المتين •

وكأنه قد نزل بأولئك المؤمنين الصادقين ما نزل بهم من القياصرة قبل قسطنطين أمثال ( قلدیانوس ومن قبله نيرون وغيرهما ممن أذاقوا النصراني الخسف والهوان ) •

## اختصاص الجزيرة العربية

٣٦ — ولماذا اختصت الجزيرة العربية بالرسالات الأولى ، رسالة ادريس ، ونوح وهود ، وصالح ، وكان لابراهيم الفضل في انشاء البيت ، وكان شعيب قد بعث في مدين بها ، وانبعثت نور رسالة موسى عليه السلام منها •

ثم لماذا كانت مهجر اليهود عندما نزل بهم الأذى ، ونزل بهم سوء العذاب ولماذا وجد المسيحيون الأول فيها مأوى •

ونجيب عن هذه الأسئلة بأمر ثلاثة :

أولها : أن البلاد العربية ليست بلادا متوحشة ، كما يتوهم الذين يحكمون بغير بينات ، أو الذين يرمون الكلام على عواهنه ، أو الذين يتجنبون على الحقائق مغرضين غير منصفين ، انما هي بلاد فيها ذكاء ونفوس صافية كصفاء سمائها ، وقوة الاستجابة فيها متكافئة مع قوة المقاومة • وليس لأحد أن يدعى أن بلادا في العصور القديمة كانت أكثر منها تحضرا ، فأوربا كانت في غربها تعيش كالوحوش ، قالوا ندال أوسكسون وغيرهم لم تصل اليها حضارات قبل أن تصل المسيحية ، وما وصلت اليهم الا بعد أن شأهت ، وانحرفت عن أصلها ، بينما كان الشرق في القديم مهد الحضارات ، ومهد الديانات ، ومهد الرسل واختصت الجزيرة العربية بأنها كانت أقصى الشرق ، ففيها انبعثت رسالات الله تعالى ، ومن حولها كأرض كنعان وأرض بابل ، وغيرهما مما يحوطها ، أو من يدخل في دائرتها كاليمن والبحرين وما وراءهما •

الأمر الثاني : أن الجزيرة العربية مع ذكاء أهلها واستقامة نفوسهم • وان انحرفت أحيانا عقولهم معتصم حصين ، فبيداؤها ، وقراها ، وبرها ، فيها حصون لمنع الاعتداء الوحش من الأمم التي اشتدت اغارتها في الماضي ، فاذا كان النبيون قد قروموها في اقناعهم ابتداء ، فانهم اذا كانت الديانة في

حصنين منيعين ، حصن من الأرض المانعة لكل أجنبي من أن يقتطعها ، وحصن من النفوس التي اذا أمنت قاومت واعتزت بإيمانها ، وان استقامت النفوس وقوتها هي التي بها تتميز أخلاق الأمم ، فان العقول اذا انحرفت تقوم وتستقيم ، والقلوب اذا غشيتها غاشيات الضلال في نفوس ملتوية غير مستقيمة الحق لا يصل اليها الا من رحم الله .

واعتبر بحال العرب بين دولتين قويتين من الدول التي صاقتها فانهما لم يتجاوزا في سلطانهما أطرافها ، ولم تتمكن احدهما أن تنتقل من الأطراف الى داخلها فانهما عندئذ تجدان قلوبا صلبة قواها ضوء الشمس الساطع ، وقوة الحياة فيها . والتعرض لأوبد الحيوان ليلا ونهارا .

الأمر الثالث : قوة الشكيمة وقوة الخلق العربى ، وما امتاز به العربى من جود ، وسماحة ، وحسن تأت اذا وجد القيادة الحكيمة ، فان العربى أنف الا اذا رأى القائد الحكيم الذى يقوده ، ولعل أحسن تصوير للنفس العربية ما قاله الامام الحكيم عمر بن الخطاب عندما تولى امرة المؤمنين ، فقد قال رضى الله عنه « مثل العرب كمثل جمل أنف فليعلم قائده أين يقوده » .

وبذلك يلتقى في العرب عناصر ثلاثة تجعلهم في موطن الدعاة الى الحق في المكان الأول .

العنصر الأول : قوة في النفس تقاوم ، ولا تستسلم ، واعتبر ذلك في النصارى المؤمنين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، ولما حاول تبع أن يغيرهم ووضعهم في الأخدود ، ما نال مأربا ، ولا وصل الى مبتغى .

العنصر الثانى : صفاء نفسى وقوة مدارك ، احتفظوا بها حتى في جاهليتهم ، وصدق النفس ، والصدق في القول ، والعمل الذى يوجهون اليه .

العنصر الثالث : الأنفة ولا يطيعوا فى ذلة ، بل يتبعون فى هداية ورشد مختارين ، غير مجبرين ، ولقد جاءت بعثة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ، فبدت هذه السجايا ، وشقت طريق النور فى وسط الظلمات .

## الله أعلم حيث يجعل رسالته

٣٧ — نعم — الله وحده هو الذى يختار مكان الرسالة ، والذين يحملون الرسالة ، والذين ينزل عليهم الوحي ، ويبلغ رسالة الله تعالى الى خلقه

فاختار الله تعالى أرض العرب ، لأنها أرض الرسالات العامة التي جاء بها النبيون الذين أرسلوا مبشرين ومنذرين ، وأوتوا الكتاب الإلهي بقوة .

وفيها العبر وفيها المثالث ، وفيها الآثار التي تدعو الى الاعتبار ، وهى لا مطمع فيها لتحكم أو تسيطر ، وهى التي لم تغلب عليهم قوى الشر ، وان كانت فيهم عيوب ، فهى التي تتعلق بالعلم ، ولا تتعلق بالنفس ، وهى التي لم يجز فيها الذل الذى يفرضه الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة كما قال الله تعالى حكاية عن بلقيس : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » .

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتمرسوا بظلم الملك هى التي حملت رسالة العزة الى بقاع الأرض ، واذا كانوا قد أبوا حكم الملوك فى جاهليتهم ، فقد قوضوا عروشهم بعد اسلامهم ، هم أعداء التحكم الفردى ، وهم الذين قوضوا قصورهم انتهاء ، بعد أن أشربوا حب الاسلام ، وحملوا لواءه شرقا وغربا .

وانه لو كان لنا اختيار فى أرض غير العرب ، لأعيانا الاختيار ، لأنها أرض العزة ، فلا ذلة فيها ، وأرض الحرية ، وهى أرض الشجاعة ، ولا ينقل دين العزة والاقدام ، والعمل الصالح الا الأحرار الذين يتأبون الدينية ، ويرضون بالذل ، ويتحملون الشدائد ، وليس ذلك الا فى العرب ، وأرض العرب ، ولذلك ما ان انطلقوا بالاسلام الا خرجوا من ديارهم يدعون الى الحق ، ويهدون اليه من غير مواناة ، ولا فرار ، ولا يأس ، ولا يتركون البأس الى الرضاء ، لأنهم تحملوا آلام الصحراء .

وترى لو تصورنا أرضا للنبوة فى غير أرض العرب ، أتكون فى أرض القياصرة حيث تطامن العامة لحكم القيصر ، وديثوا بالصغار له نفوسهم ، حتى حسبوه من طينة غير طينتهم ، وحيث يختلفون فى كل شئ ، وحيث لا يحكم بينهم الا الهوى ، وحيث العنصرية الجاثمة على الرءوس ، وحيث رق النفوس لهوى الحكام ، والخروج على كل منطق للمساواة الانسانية .

واذا لم يكن الرومان ، أفتكون أرض الفرس هى أرض النبوة ، وكسراهم فرض عليهم المذلة والهوان ، وتوزعتهم سيادة الأشراف ، حتى اذا بعدوا عن ذل الملك ، وجدوا ذل الحاشية ، وجدوا أنهم ينتقلون فى الذل والهوان ، وقد لانت نفوسهم ، وخنفوا وهانوا أمام الملوك ، وهل هؤلاء فى ذلتهم هم الذين

يحملون دعوة الاسلام الى العزة وهل هم فى رقبهم النفسى هم الذين يدعون الى الكرامة الانسانية التى سجلها الله تعالى في قوله تعالت كلماته : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » \*

لا يمكن أن تكون دعوة الحق ممن تمرسوا بالظلم ، حتى أمات نخوتهم ، أو ممن ألفوا الخضوع ، حتى لا يستطيعوا التفصى عنه ، والخروج منه ، ولا ممن قنعوا بالحياة الدون ، ورضوا باللهون ، انما لا يدعو الى العزة ولا الى الحرية الا الأحرار \*

وهل تتصور أن تكون أرض الفراعنة هى التى تدعو الى اسقاط حكم الفراعنة ، وإعلان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وما انتقلوا من حكم الفراعنة الا لمن هو أظفى ، وأشد بغيا ، وأكثر عتوا وفسادا ، فهم يسارعون فى الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع الى قطاع ، ومن جانب الى جانب ، لا يتململون ، ولا يضجون ولا يثورون لقهر قاهر ، أو ظلم ظالم ، بل أنهم يآلفون الخضوع حتى يحسب الدارس لهم أنهم يستطيبنه ، ويستمرثونه ، ويعانون من بذلهم وينغضون رءوسهم على من يحاول أن يبيث فيهم روح العزة والكرامة ، بل يحسب أنهم يجدون العزة عبئا لا يمكن احتماله ، وحمللا لا يمكن حمله ، ووزرا يرزحون تحته \*

قال لهم فرعون أنا ربكم الأعلى فصدقوه ، وقال لهم اليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، فلم يكذبوه ، وقال لهم ، اليس لكم من اله غيرى ، فقالوا أنت الاله \*

لقد تضعضعت نفوسهم ، حتى ألفوا الذلة فصعبت عليهم ، وقبلوا أن يكونوا قوما بورا \*

وان الذلة كانت تجرى فى دمائهم ، حتى انه اذا جاءهم من يريد لهم العزة استنكروا ما يدعو اليه ، وان صدقوه جعلوه معبودا أو كالمعبود ، وأطاعوه فى الخير والشر ، وتصوروا فيه ما ألفه آباؤهم من تقديس لقوله ، وأطاعة لعمله ، يذوقون الجوع والعري ، ويرضون ، لأنهم كانوا مع فرعون ، فلا يتصورون الطاعة ، الا لمن يشبهه \*

ان موسى عليه السلام عندما بعثه الله تعالى بعثه فى غير مصر ، وفى غير أرض فرعون ، ولما دعا فرعون بدعوة الحق لم يجسد مستجيبا الا من السحرة ، وعدد من الشعب ليس بالكثير ، فما آمن من قوم فرعون الا قليل ،



وخرج ببني اسرائيل ناجيا بهم ، وأطبق البحر على فرعون ، وخرج الى سيناء ليدعو بدعاية الحق . ولكنهم لم يصلحوا لتمرسهم بما كان عليه المصريون ، حتى انهم أرادوا أن يتخذوا من عجل صنعه لأنفسهم الها ، كما كان المصريون يعبدون العجل ، وهانت نفوسهم كشأن المصريين ، حتى ان موسى عندما طلب منهم أن يدخلوا الأرض التي كتب الله تعالى لهم أن يدخلوها ، غلبت عليهم شقوتهم ، وغلب عليهم الذل الذي أذاقهم فرعون كئوسه .

واقراً ما حكاه القرآن الكريم عنهم ، فقد قال موسى : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تترددوا على أدياركم فتنتقلبوا خاسرين قالوا يا موسى ، ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا فانا داخلون ، قال رجال من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه ، فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، انهما ههنا قاعدون ، قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين » .

كان ذلك من تأثير اذلال فرعون ، فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة ، حتى يتربوا على البأس والقوة ، ويجيء جيل يغالب ، ولو تركنا الشرق الأدنى الى الهند لوجدنا الطبقات قد قتلت فيها النخوة ، ودفعت شعبها الى الاستسلام للذل ، اذن فليس لدعوة الحق والعزة والحرية الا العرب .

## مكة المكرمة

٣٨ — اذا كانت الجزيرة العربية موطن النبوة الأولى ، وقد ثبت أن خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام آوى الى بلاد العرب بعد تحلوفه بين العراق وأرض كنعان ، وبنى بيت الله تعالى ، وقد وجد في الدعوة الى الوحدة فيها مستجيبا ، وأنشأ فيها بيت الله الذى قال الله تعالى فيه : « ان أول بيت وضع للناس الذى يكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا » .

كانت مكة المدينة الممتازة بين العرب ، وقد تضافرت أسباب كثيرة فى العرب جعلتها مناط عزتهم ، وملقى اجتماعهم ، وجماع لغتهم ، وكان من أهم هذه الأسباب ، وأبرزها :

( ا ) أن أبا الأنبياء هو الذى ابتداءً بإنشائها ، وكانت من بعده مدينة العرب العظيمة وقطبها الذى تدور حوله قواها ، وهى وسكانها أولاد ابراهيم ، هو ذور المكانة العظمى عند العرب استجابة لدعاء ابراهيم ان قال عليه السلام ، كما حكى الله سبحانه وتعالى : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ، ان ربي لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ، ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء » .

فكانت الاستجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام ، أن كان العرب يفسدون اليها من كل فج عميق ، من وقت ان أنشأ ابراهيم البيت الحرام ، وصار مثابة للناس وأمنا ، وملقى العرب أجمعين ، مع اختلاف قبائلهم ، وتباين منازعهم .

(ب) وكان سكان مكة المكرمة هم قريشا الذين كانوا أعلى العرب فكرا ان كان الطلو بالفكر ، وأشرفهم نسبا ، ان كان التفاخر بالنسب ، ولسانهم كان أقوى الألسنة أداء ، وأنصحها لفظا ، وأشرقها أسلوبا ، ولذلك كان العرب يجتهدون فى أن تكون آثارهم الأدبية بلغة قريش ، فكان الشعراء حريصين أشد الحرص على أن يكون شعرهم بلغة قريش ، ويعتزون بأن يكون على نهج اللسان القرشى .

ولقد ذكر رواة الأدب أن من ينال قصب السبق يعلق شعره على أستانر الكعبة ، كأنما يسجل بين العرب مآثره الشعرية ، ومكانته بين الناس •

( ج ) وجود البيت الحرام بها ، وهو أعلى الأسباب ، إذ أنه صار بيت العرب الدينى ، ومستقر شرفهم اليه يحجون وبه يأمنون ، كما قال تعالى : « أو لم يروا أننا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، أفيالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » •

لقد كانوا لتقديسهم لمكانة البيت ، كانوا يحرمون على أنفسهم أن يقتلوا أو أن يقتلوا داخل الحرم ، حتى انهم مع تشديدهم فى الأخذ بالثأر مما فرق جمعهم كانوا يحرمونه على أنفسهم فى الحرم المكى ، زاده الله تعالى تشريفا وتكريما ، وإن الرجل كان يلقي قاتل ابنه أو أخيه فلا يمسه بسوء لمكان التقديس النفسى ، بل انهم لا يحترمون المكان فقط ، بل يحترمون أيضا الزمان الذى يكون فيه الحج الى بيت الله الحرام ، فكانوا لا يتقاتلون فى أشهر الحج ، ولا شهر العمرة ، وهو ما يسمى بالأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، إذ كانت فيه عمرة مضر ، ولذلك سمي رجب مضر •

وقد أقر الاسلام من يعد حرمة البيت ، ومنع القتال فى الأشهر الحرم الا اذا كان فيها اعتداء ، فانه يكون من ظلم النفس ألا يدافع المعتدى عليه عن نفسه •

( د ) انه كانت الصحراء العربية موضع تنازع بين القبائل ، ولم يكن فى القبائل من تقرر لها نظام ، الامكة وان لم تكن فيه صفة الدولة ، بيد انه كان سلطانا ناشئا من تعاونهم ، وتضافرهم ، وتلاقيهم ، فهو نظام حر ناشئ ومنفذ بين قوم أحرار ، وان لم تكن دولة ابتداء ، فإنه يجوز اذا اتسع السلطان ، ووجدت القدرة الثابتة يصلح أن تكون فيه دولة العرب من بعد ، لأنهم يجدون فيها الرياسة المختارة من الشعب ، بمقتضى الارادة العربية التى تتلاقى فيها القبائل ، وبمقتضى الانتخاب الطبيعى فى البلاد العربية •

( هـ ) وكانت قريش بمكة المكرمة ذات اتصال تجارى بين الروم والفرس ، فكانت فيها المتاجر تغدو وتروح ذاهبة الى اليمن حاملة بضائع الروم اليها ، ومن اليمن تنفذ الى ما وراءها فى أرض الفرس ، وكانت بضائع الفرس التى تؤخذ من اليمن تذهب الى الشام لتصل الى ما وراءه من الرومان •

والسبب فى أن مكة كانت لها تلك الميزة الاقتصادية أنها كانت فى وسط

البلاد العربية بين اليمن والشام ، وإن المواصلات إبان ذلك كانت عن طريق البر بالصحراء العربية ، وفوق ذلك النزوع التجارى فى أهل قريش ، احترفوا التجارة ، واتخذوها مرتزقا لهم ، إذ لم يكن فى مكة زرع يغنيهم •

وكان العرب يتخذون موسم الحج سبيلا للصفق فى الأسواق التى تعقد فى أيام الحج ، ومن هذه الأسواق عكاظ ، وغيره ، وكان هو أكبرها •

ولرغبة العرب البيانية قد اتخذ الشعراء من هذه الأسواق سوقا لترويح شعرهم فكانت الأسواق فيها الزاد المادى ، وفيها الزاد البيانى •

وقد قال الله تعالى فى روح قريش التجارية « لا يلا ف قريش أيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » •

( و ) ويجب أن يذكر فى هذا المقام أن الوثنية سادت العرب ، فنسوا دين إبراهيم ، ودين هود وصالح وغيرهم وسرت فيهم الوثنية سريان النجاسات فى الماء الطاهر القراح ، ولعل قريشا فى مكة آخر من دخل فى الوثنية ، كما تحدث أخبار العرب ، فالوثنية سرت اليهم من غيرهم ، ولم تنبعث من أرضهم ولكنها موجة من الموجات التى كثرت فى ذلك العصر ، وما سبقه ، حتى لقد حسب بعض الناس أنها موجة من التفكير الدينى سرت فى العرب ، ووفدت اليهم من حولهم ، وجاءت اليهم من أرض غير أرضهم •

وقد أشرنا من قبل الى أن العرب وخاصة قريشا لم يكن إيمانهم بالآوثان إيمانا متغلغلا فى النفس ، إذ أنه كان مع الاعتقاد فى الآوثان اعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ، وبقية من تعاليم إبراهيم عليه السلام ، فمناسك الحج كانوا يقومون بها على اختلاف أو انحراف ، والفاظه الموروثة كانت تردد على تحريف يقرب من وثنيته •

وكون بقايا من ديانة إبراهيم فيهم كان يجعلها موضع الرسالة ، وإذا كانت الوثنية قد قاومت التوحيد الذى جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما كانت كلها من أجل الاعتقاد ، بل من تسلط العصبية الجاهلية ، والمنافسة فى الشرف بين بطون قريش وأفخاذها ، كما سنبين أن شاء الله تعالى عندما نتحدث فى مقاومة الشرك للوحدانية ، وذلك بمقاومة زعماء مكة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

كانت مكة جماع العرب ، فكانت بها دار الندوة التى تجمع أقيال

العرب وكبراء القبائل ، من شتى الجزيرة من اليمن جنوبا الى الغساسنة بالشمال ، فاذا أهم العرب أمر واحتاجوا الى أمر جامع لا يجدون مثابة تجمعهم الا دار الندوة فى أرض مكة المكرمة ، وكانت الرياسة فيها لقريش ، وأقربهم كان من جدود النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان عليه الصلاة والسلام يحضر ندوة قريش فى صدر حياته ، وكان مع هدوء طبعه ، واطمئنان نفسه يلفت الأنظار ، وتتطلع اليه الأبصار .

يروى أنه كما جاء فى كتاب « زهر الآداب » حضر الندوة قيل من أقيال اليمن ، فرأى الرسول ، كلما عرض ما يراه خير اطمأن الى القول اطمئنان المؤمن ، وإذا كان ما يرى فيه غير الخير أحد البصرة ، فى هودة ، من غير هوان ، فقال ذلك القيل مالى أرى هذا الغلام ينظر اليكم تارة بعينى لبؤة وتارة بعينى عذراء خفرة ، والله لو أن نظرتة الأولى كانت سهاما لانتظمت أفئدتكم فؤادا فؤادا ، ولو أن نظرتة الثانية كانت نسима لأنشرت أمواتكم » .

ومكة فوق ذلك لها المكانة فى التاريخ الدينى القديم ، فقد ذكرت فى الديانات القديمة ، واليهودية والنصرانية . وقبل أن نخوض فى ذلك نتكلم فى ناحية حول حال مكة المكرمة .

### أو بناء فى مكة المكرمة وبلوغها هذه المنزلة

٣٩ — وان مكة قد صارت مطمع آمال العرب ، لما ذكرنا من معان دينية وقومية وثقافية وتجارية ، ولكن لا بد من معرفة وقت قدسيتها ، ونيلها هذه المكانة بين العرب ، وان ذلك أمر لا بد منه فى دراستنا عن النبی الذى ظهر فى هذه المدينة ، واتصالها بماضيها القريب والبعيد .

كان مكان مكة وسط البلاد العربية ، وقد ذكر ياقوت الحموى وضعها فى كتابه « معجم البلدان » فذكر أنها بقعة من الأرض تحيط بها الجبال الجرداء من كل جوانبها ، وينفذ من بين هذه الجبال المحيطة ثلاثة مسالك ، أحدها سلك بها الى طريق اليمن . ويصلها الثانى بطريق جدة حيث سيف البحر ، ويكون مرافا جدة ، ويصلها الثالث بطريق الشام ، حيث يمر بيثرب ، وبذلك يتضح اتصالها منذ القدم ، وان كانت الشقة بعيدة .

وقد كانت البقعة التى أنشئت فيها تلك المدينة التى تتوسط البلاد العربية . ملتقى القوافل ، ومنتجعها فى السفر ، حيث تأوى وتستريح بين جبالها حيث كانت فى الوادى حول هذه البقعة ماء العيون ، وكان بجوارها أو على قرب منها أماكن منثورة ، كان يلون بها التجار بقوافلهم .

وان ابراهيم عندما اوت الى هذه البقعة هاجر جاريته وولدها اسماعيل،  
واللهم الله تعالى بناء الكعبة ، التى كانت أول بيت للعبادة ، كما تلونا من  
قبل ، وان انشاء ذلك البيت المقدس هو الذى أدى الى تكوين المدينة ، وان هذا  
تصوير للوقائع التى حدثت ، والتى ذكرها القرآن الكريم فى محكم التنزيل .

وان فى التاريخ ما يدلنا دلالة راجحة على ابتداء بناء المدينة ، وان معرفة  
ابتداء المدن فى ذلك الماضى السحيق لا يمكن أن يكون على وجه جازم أو راجح ،  
فان المدن لا توجد مساكنها فى أمثال هذه العصور البعيدة التى تنشأ  
فى الصحراء ، ولم تكن فى أرض لها حكومة ثابتة قائمة ، تنشأ وتخطط ،  
وتبنى وتهندس انما الذى يتصور أنها ابتدأت ببناء المسجد ، ثم تدرجت ، ثم  
أخذ الزمان يزيدها بناء ، والعمران يدخل إليها شيئا فشيئا ، وان تصورهما  
على أساس التصور الذى أوامأت إليه المصادر الدينية ، فانه يكون انشاؤها  
قبل ميلاد المسيح بنحو تسعة عشر قرنا .

ويستفاد من هذا أن الكعبة قد بنيت ، أو على الأقل بناها ابراهيم عليه  
السلام قبل دخول القبائل الآرية الهند ، لأنها دخلت فيما نظن قبل ميلاد المسيح  
عليه السلام بنحو خمسة عشر قرنا ، وعلى ذلك لا تكون ثمة غرابة فى أن  
يجيء ذكر مكة والكعبة ، والتبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم فى كتب  
القيدا المقدسة عند الهنود كما سنبين ان شاء الله تعالى .

ومهما يكن فان الذى بنى الكعبة ابراهيم ، والتف من بعدها حوله الأبنية ،  
سواء أكان ذلك قبل تجمع الأبنية لتكون مدينة مكة أم كان بعد التجمع ،  
وفصل القرآن الكريم ذلك فى نصوص كثيرة .

ولكن الذين يحاولون مهاجمة القرآن الكريم من ناحية التشكيك فى  
الوقائع التاريخية التى يشتمل عليها ، ينكرون أو يفترون ، أو يثيرون الشك  
المجرد .

فيثير الريب قوله ان قصة ابراهيم واسماعيل من صنع اليهود ، قالوها  
ليربطوا بينهم وبين العرب برابطة من قرى النسب ، حتى يكونوا أولاد  
عمومتهم ، ليحسنوا ايواءهم ، اذ يؤوون اليهم ذوى قرابتهم لرابطة الرحم  
بينهم ، ويسوق شاهدا لكلامه التباعد بين الوثنية العربية ، وبين دين ابراهيم  
عليه السلام الذى كان موحدا ، وكان هادم الأوثان .

وفى الحق ان ذلك الكاتب أو المؤرخ غلبت عليه شهوة التشكيك فى  
القرآن فساق كلاما لا يبنى على أى أساس علمى من وقائع ثابتة ، لأنه كان

يجب أن يبنى الطعن على وقائع ثابتة ، أنه يحاول هدم أمر معروف مقرر ذكره التاريخ قرنا بعد قرن ، حتى جاء الى هذه العصور ، وقد تطابقت عليه الكتب السماوية حتى المحرفة منها ، فقد جاء ذكر ابراهيم واسماعيل فى التوراة ، أى كتب العهد القديم التى يؤمن بها المسيحيون ، وأنهم جاءوا الى بلاد العرب •

فقد جاء فى التوراة ( أى كتب العهد القديم عند المسيحيين ) •

قد جاء فى الاصحاح السادس خبر هاجر الجارية وحملها ، وذهابها بابنها فى البرية ( أى الصحراء ) « هو ذا الرب قد أسكننى عن الولادة ، ما دخل الى جارىتى لعلى أزرق منها بنين ٠٠٠ فلما رأت هاجر أنها حملت صغرت فى عينها ، فقالت ساراي لابراهيم ظلمى عليك ، وقعت جارىتى الى حضنك فلما رأت أنها حملت صغرت فى عينها ، يقضى الرب بينى وبينك ، فقال ابراهيم لساراي هو ذا جارىتك فى يدك افعللى بها ما يحسن فى عينك ، فأذلقتها ساراي ، فهربت من وجهها ، فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية على العين التى فيها طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراي ، من أين أتيت ؟ والى أين تذهبين ، فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراي فقال لها ملاك الرب : ارجعى الى مولاتك ، واخضعى تحت يديها ، وقال لها ملاك الرب تكثير أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب ها أنت حبل وتلدتين وتدعيه اسماعيل ، لأن الرب قد سمع لضراعتك ، وأنه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن •

وجاء فى الاصحاح الحادى والعشرين « مضت وتاهت فى برية بير سبع ، ولما فرغ الماء من المقربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيدا على مرمى القوس ، لأنها قالت : لا أنظر موت الولد ، فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الرب هاجر من السماء ، لا تخافى ، لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام ، وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها ، فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وكان الله تعالى مع الغلام ، فكبر ، وكان ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمة زوجة من أرض مصر ••

• ع — ( ١ ) هذه نصوص صريحة فى التوراة تدل على أن اسماعيل ولد من هاجر جارية سارة ، وأنه ولد فى برية فاران وهى قد كانت حول الكعبة ، وان هذا حجة على منكر أن يكون اسماعيل من ولد ابراهيم أو أنه جاء الى أرض الحجاز ، وأن اليهود قالوا هذا ليتقربوا الى العرب ، يحسبان أنهم اولاد عمومة •

(ب) وإن على هذا التشكك أمر مثير ، من غير بيّنة ، ولا دليل وكأنه يشك في التوراة أيضاً ، وما كانت اصحاحات التوراة مقارنة لتقريب اليهودي من العرب ، بل انها سابقة على ذلك .

وإن الشك الذي أثاره تدل الأمور الثابتة على مناقضة ما أثاره ، وذلك لأن الطبع اليهودي في ماضيهم وحاضرهم أنهم لا يعترفون لأحد بدين غير دينهم ، وأنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويقولون وهم بين ظهرائي العرب ما علينا في الأميين سبيل ، وأن المعروف أنهم كانوا في البلاد العربية يستعلون على العرب ويظنون أنهم الأعلون بما أوتوا من كتاب .

(ج) وفوق ذلك فإن العمومة المدعاة من اليهود لا أصل لها في زعم ذلك الكاتب النحير ، فكانت للعرب العدنانية التي تنتهي إلى إسماعيل عليه السلام ، وهم الذين يسمون العرب المستعربة ، واليهود ، عندما آووا إلى العرب قارين بدينهم من عنت التتار ، ومن بعدهم الرومان ، ومن أذاقوهم العذاب أبوسا ، إنما آووا إلى أرض عرب قحطان ، فهل يعقل أن يتملقوا القحطانيين بادعاء النسب إلى العدنانيين ، والارتباط بينهم برباط القرابة بالعمومة ونحوها ، إنما المعقول الذي لم يدركه الكاتب النحير أن يكون الادعاء عند القحطانيين ، لا عند العدنانية ، ولا يصدق كلام ذلك إلا أن يكون تصرفهم مخالفاً كل معقول ويأتون عكس ما يريدون ، كعقل ذلك الكاتب .

( د ) وإن تاريخ العرب المحفوظ أن العرب العدنانية لهم تاريخ ثابت موصل تلقاه أهل العقول بالقبول ، وما يتلقاه العلماء بالقبول لا ينقض بمجرد الشك ، بل لا يرفض إلا بدليل يناهضه ، وبيّنات تقاومه ، ولا يقاوم بمجرد الشك والاضاعت الحقائق ، وضلت الأفهام ، وظواهر الأحوال شاهد يؤخذ به ، حتى يقوم الدليل على خلافه .

( هـ ) وإن الزعم بأن أولاد إسماعيل وثنيون ، وإبراهيم عليه السلام كان موحداً ، فكيف يلتقيان ، أو القول بأن العرب وثنيون ، والموحد لا يمكن أن يكون أباً للوثنيين ، منطق فاسد ، لأن مؤداه أن من يكون موحداً يجب أن تكون سلالته كلها من الأولاد الصليبيين إلى آخر الذرية ، ولو كانوا في الطبقة المتمة للمائة موحدين ، وذلك كلام باطل ، فإنه قد ينصرف الأبناء عن وصايا الآباء ، وإذا كان ذلك غريباً في الطبقة الأولى ، أو ما يكون قريباً منها ، فإنه لا يكون غريباً في الطبقات البعيدة من الذرية .

وإن إبراهيم عليه السلام قد طوف في الآفاق داعياً إلى التوحيد محارباً للوثنية ، وترك أثره واضحاً في العرب خصوصاً ذريته ، فقد كانت ذريته



موحدة ، سالكة سبيل الحق فى عبادتها ، ولكن القلوب اذا تقادم العهد قد تنحرف شيئا فشيئا حتى تصل الى الوثنية ، فالوثنية عارضة على العقل العربى ، وخصوصا ذرية ابراهيم عليه السلام ، فان الوثنية لم تكن أصيلة فيهم ومع ذلك كان فى وثنيتهم بقايا من تعاليم ابراهيم عليه السلام ، وما كانوا يؤمنون بأن أوثانهم لها قوة الخلق والانشاء ، كما كان عند المصريين القدماء ، وكما كان عند اليونان والرومان ، بل كانوا يقولون بأن الخلق والتكوين لله تعالى وحده ، « ولئن سألهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ، ويقولون « ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

وان تفكير ذلك الكاتب المستشرق فيه غرابة من حيث المنهج العلمى المستقيم من ناحية أمرين :

أولهما : أنه من الاستهانة بأى منهاج عقلى أن يثير عالم الشك من غير أى مسوغ للريب من أمور تقترب بالأمر الجازم المقطوع به ، فان ذلك اشارة لطريقة السوفسطائيين الذين يشكون فى حقائق الأشياء شكا مجردا من غير أى باعث علمى ، أو من غير أى بيئة تسوغ الشك ، حتى يحارب اليقين ، ولكن هذه الأمور البديهية نسيها ذلك الباحث ان صح هذا الوصف له ، وما أنساه الا شيطان التعصب المردى الذى ينزل من علياء العلم الى منهوى العمى « وانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ثانيهما : أن من الحقائق الاجتماعية والنفسية ، أن العقائد فى الناس تتحول وتتغير ، ويجرى عليها نظام التغير ، ويستمر فى طريقه ، ما لم يكن هناك كتاب ثابت يهدى الى الحق ، ويرشد الضال فيهدى ، ويكون ميزانا يمنع الانحراف .

#### مكة المكرمة موطن تقديس لأجل الكعبة المشرفة :

١٤ — وان التاريخ الانسانى العام جاء فيه ذكر مكة والكعبة ، وقد ورد اسمها فى مصادر التاريخ اليونانية واسمها فى كتاب بطليموس الاسكندري ماكورايا (١) . وانها أقدم من ذلك ، فانها تمتد فى القدم الى تسعة عشر قرنا قبل الميلاد ، وذكره لها فى القرن الثانى بعد الميلاد ، لا يومىء من قرب أو بعد ، الى أنها كانت غير موجودة قبل ذلك العصر ، وليس انشاؤها فيه إذ هو اخبار عن الموجود ، وليس بيانا لوقت الوجود .

(١) حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكى ص ٨٤ .

والمؤرخون بشكل عام ذكروا أنه كان فى غرب الجزيرة العربية أماكن كانت فيه مكة ، وما حولها من الصفا والمروة ، وعرفات ، والمزدلفة ، ومنى كانت بالقرب منها، فإذا كان المؤرخون يذكرون أماكن للعبادة فى غرب الجزيرة العربية فهى هذه الأرض •

وقد جاء فى كتاب تاريخ الاسلام لجواد على : « قد ذهب أوغست ميل الى أن المعبد الذى قال عنه ديودور الصقلى انه معبد مشهور هو مكة (١) » •

ويستفاد من هذا امران :

• أولهما : أن مكة كانت قائمة بشهادة التاريخ العام

وثانيهما : أن الكعبة : كانت بها ، وكانت معبدا يفد اليه الحجاج من كل مكان من بلاد العرب ، يقصدها القاصى والدانى من تلك البلاد •

٤٢ — هذه شهادات المؤرخين بتقديس الكعبة فى القديم ، وبمنزلتها عند العرب ، واجتماعهم حولها مع تفرقهم منازل ، وقبائل وعصبيات أحدثت حروبا مدمرة ، ودماء مہرقة ، ومع ذلك يلتفون متحابين أو غير متحابين ، ولا آخذين بثاراتهم احتراماً للبيت ، وتقديساً لهذه البنية التى زادها الله تعالى تكريماً وتشريفاً •

## المكان والزمان

٤٣ — كانت مكة هى المكان المختار للرسالة ، وقد أشرنا الى ما كانت تمتاز به من البلاد العربية ، فأشرنا الى مكانتها الثقافية ، فهى ملتقى العرب ، ولغتهم أفصح اللغات ، وشعراؤهم يعملون على أن تسجل أشعارهم بلغة قريش، فكانها التى تختص بوصف الفصحى واللغات الأخرى بجوارها كاللغات العامية بجوار الفصحى فى عصرنا الحاضر ، وهى ملتقاهم الدينى ، فاليها يحجون ، وينسلون من كل أرضها ، يلتقون فى أسواقها ونجوعها بها تروج بضائعهم ، ويروج أدبهم وفيها يتفاخرون من غير ملاحاة ويتجادلون من غير مجافاة • وفيها تحقن الدماء ، وتغمد السيوف فى أجفانها ، يلتقون على التدين ، والمحبة، ولا يلتقون على العداوة والبغضاء، فالأهم يطرحونها، وأحقادهم يستديرونها،

---

(١) جواد على ص ٤ ص ٥٠٤ •

ولا يرون أمامهم إلا النسك على قدر مداركهم وتبادل المنافع ، والقول الطيب ، ومع أن كل قبيلة لها صنمها في الكعبة على ظاهرها ، كانوا يجتمعون في العبادة على تقديس البيت الحرام مطرحين ما عداه .

وكانت مكة مع هذه المنزلة الثقافية والدينية والاجتماعية ملتقى القوافل التي تجيء من اليمن ومن أقصى الشرق ، والقوافل التي تجيء من أقصى غرب الجزيرة ، فيلتقى فيها المتاجر ، وتلتقى فيها العقول الناقلة للحضارات ، ولو نقلا سطحيا ، ولا يصل إلى أعماق القلوب ، ولكنه يمس المدارك ، وأثـره في مكة ويثر بـه تلتقى البداوة ببعض الحضارة ، فيكون مزج بين رقة الحضارة ، مع خشونة البادية ، فيكون مزيج غير متميع ، وقوة نفس في غير جفوة ، وتلتقى صفاء البداوة والحضارة الغربية منها ، فينتقى الخبث ، ويبقى اللب الكريم .

وان أكثر الرسالات الالهية التي كانت على مقربة من الرسالة المحمدية كانت في أرض تكون على مقربة من البوادي ، أو هي في البوادي ومثلها كالواحات في وسط الصحراء ، لأن أولئك تكون نفوسهم قابلة للجديد من الرسالة ، وغير متخلفة في مداركها :

( ا ) اذ يكون فيها الصفاء الصالح لتلقى تكليفات الوحي الالهي ، وفيه المدارك المتقبلة التي تزن وتفكر وتربط حاضرها بماضيها ، وتستخرج من ماضيها ما ينير لها حاضرها ، من غير اعنات فكرى ولا اجهاد نفسى ، والمقاومات للرسالة تكون أعراضها ظاهرة ، يمحوها الزمان القصير ، اذ ليست مستكنة في أغوار النفوس ، وخبايا القلوب ، بل انها على سطحها ، والتغيير يعرف السطوح ، ولا يتجه الى عميق القلوب .

(ب) وان المدائن ذوات الحضارات تكون فيها عادات راسخة ، وتقاليـد ثابتة ، وأفكار سائدة ، فلكي تدخل العقيدة الجديدة يجب تفريغ الأذهان مما امتلأت ، حتى يكون ثمة حيز للتفكير الجديد ، اذ أن العلوم وما يتصل بها من فلسفات سواء أكانت حقا أم كانت باطلة تملؤها ، واذا جاء الدين الجديد كانت المصارعة بين ما ألفوا ، وما جد لهم ، وأقل أبواب المصادمات المجادلة ، والمجادلة مع المتعصبين تضيق فيه الحقائق ، ولا يبدو جوهرها نقيا صافيا .

وان الأفكار العلمية ولو خطأ تركز في النفس ، والتقاليـد المستحكمة المسيطرة تشتد حتى تصل الى أغوارها فلا يسهل الوصول الى اقتلاعها .

وقد يقال ان أهل البادية لهم عادات وتقاليـد ، كما أن أهل الحضارات لهم ذلك ، ونقول في الجواب عن ذلك ان تقاليـد البدو لا تركز على عناصر فكرية

تتغلغل فى الأذهان ، وتسيطر على القلوب كالأفكار والآراء فى بلاد الحضارات ، وما يكون فى دائرة العمل من غير تغلغل فى النفس لا يكون راكزا ثابتا ، كالذى يكون منشؤه التفكير العميق •

( ج ) وان التجارب قد أيدت ذلك ، فان الدين الجديد يسهل دخوله فى البادية الصافية نفوس أهلها •

( د ) وان أى دين لابد له من ناس يحملونه ، ويسيروا به ، وأهل البادية الذين يكون عندهم نوع من التفكير والرقى النفسى يكونون أقوى نفوسا ، وأشد جلداء ، وأكثر احتمالا ، ولقد قرر الاجتماعيون أنهم هم الذين يحملون أعباء الجهاد فى سبيل ما يعتقدون ما دامت أوضاع الحضارة لم تصب قلوبهم بل فيهم بأس وقوة احتمال •

وان الشواهد قائمة ، فاننا نجد الأديان التى جاءت برسول أوحى اليهم من السماء كان بعثهم فى الأرض التى تكون بين الحضارة والبداءة ، وكان التابعون دائما من أهل البأس والقوة الذين عاشوا فى الصحراء ، وقاوموا لأواءها ، ولم يكونوا من أهل المدن التى أصيبت بطراوة التحضر •

واعتبر ذلك بموسى عليه السلام ، فقد أرسل الى قوم فرعون ، ولكن ما نزلت عليه الرسالة الا فى أرض مدين المتاخمة لحدود الشام ، وما وجد الذين يستجيبون له من أهل مصر ، وما كانوا هم الذين حملوا عبء التبليغ من بعده ، وحمله غيرهم •

ولقد كان بنو اسرائيل أضعف فى نفوسهم من أن يحملوا عبثها من بعده وذلك لأنهم مردوا على أخلاق المصريين ، وان لم يكونوا منهم ، فكان لابد من أن يتربوا على البأس فى البادية ، ليستطيعوا حملها ، ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ، اذ أمرهم نبيهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب لهم أن يدخلوها ، وان لم يقيموا فيها : « قال فأنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » •

ولقد فهم بعض الكتاب أن الموحدين كانوا فى الساميين فقط ، وجاء بعض الأوربيين ، وعلل ذلك بأن العقل السامى عقل سطحي ، لا يفهم من المعقيدة الا التوحيد ، ولا يتصور المعنى الفلسفى فى التثليث ، وهذا الكلام يأتى على عقيدته بالنقض ، لأن عقيدته المسيحية جاء بها سامى • فلا بد أن يكون ما أتى به ، وما دعا اليه يتفق مع السامية التى لا تهضم فلسفة التثليث وأن يكون التثليث الذى نسب اليه لا تشتمل عليه رسالته ، ولا تدعو اليه رسالته ، وليس ما اشتملت عليه عقيدته •

على أن العقل الآرى قد اعتنق الوجدانية فى أصل الديانة البرهمية .  
التي جاءت بها القبائل الآرية ، فدعوى الاقتصار فى الوجدانية على العقل  
السامى يأتى على أصل التثليث بالنقض ، وينتهى بأن التثليث من أوهام  
الفلاسفة ، وليس من عقائد الرسل .

ولعل ما ذكرنا من أن القبائل الآرية التي جاءت تحمل الديانة البرهمية  
من بواى آسيا ، قرينة على أن الرسائل الالهية ، انما تنزل فى الأرض التي  
تكون بادية قريبة من المدائن ، أو تكون فى طريق القوافل ، فقد جاءت الى  
الهند التي كانت مملوءة بالأنهار والأحراش ، وفيها تحضر نوعا ما ، ولم يكن  
فيها صفاء البادية ، وبأسها ، وقوتها وسذاجتها ، وسلامة فطرتها ، ولذلك  
سرعان ما حرفت العقيدة الى الصورة التي جاءت بعد ذلك من نظام الطبقات  
الظالم .

وقد أشرنا من قبل الى أن الرسائل الالهية غير محصورة ، وأن الله تعالى  
ذكر أنه لم يقص فى القرآن أخبار كل النبيين ، فقد قال تعالى كلماته :  
« منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » .

وسيتبين عند الكلام فى البشارات التي بشرت بالنبي صلى الله تعالى  
عليه وسلم أن من البشارات ما جاء فى كتاب الفيدا الذي هو أعلى مصادر  
الديانة البرهمية ، وبينما فى وضوح أنها فى أصلها ديانة توحيد ، كما جاءت  
بالفيدا النصوص الدالة على ذلك مما يدل على أنها ديانة منزلة ابتداء ، وأن  
انحرف عنها القوامون عليها ، وشاھت الى الحال التي آلت اليها من عصور  
سابقة ولا تزال قائمة الى الآن .

٤ — من هذا البيان الموجز يتبين أن البيئة الطبيعية بمكة وما حولها ،  
وما لها من مزايا امتازت بها كانت من المرشحات لأن تكون موطن النبوة  
وموطن خاتم النبيين ، فاذا كانت النبوة قد ابتدأت بإبراهيم أبى الأنبياء  
واسماعيل ابنه ، فان ختام النبوة فى العالمين كانت بها أيضا ، برجل  
من ولد اسماعيل .

فهى أصلح مكان لأن ينبعث منها الدين الجديد الخالد الى يوم القيامة  
حيث يلتقى العرب جميعا فيها ، وحيث الأمن والسلام فيها ، وحيث  
القدسية التي تملأ النفوس تنبعث من أرضها ، وحيث دار الندوة التي يتشاور  
فيها العرب أجمعون .

وكان المكان أصلح الأرض ، لأن تغرس فيه أغراس الدين الجديد وأن  
يؤتى أكله .

والعرب أصلح الجماعات لأن يحملوا عبء الدعوة اليه ، والدفاع عنه ،  
وحمايته من سطوة الملوك ، وطغيان الجبارين حول العرب ، ومن ورائهم فهم  
أهل البأس والنجدة •

ولغة قريش فى مكة أصلح اللغات لأن ينزل بها القرآن الكريم الذى  
أعجز العالمين عن أن يأتى أحد بمثله فالمكان صالح لأن يبعث رسول الله طهرا ،  
وثقافة ، وقوة بأس ، وجلاد ، ولغة ، « الله أعلم حيث يجعل رسالته » •

## الزمان :

٥ هـ — اذا كان المكان الذى اختاره الله تعالى لخاتم النبوة أصلح  
مكان يدرك العقل البشرى صلاحيته ، ويعلم بالاختيار مكانته ، فان الزمان  
قد تهيأت فيه الأسباب لدين يجمع الانسانية ، ويهديها ، والمقلوب قد فرغت  
وأصبح العالم فى حاجة الى هداية من السماء ، إذ قد صار الناس على فترة  
من الرسل ، فالديانة السماوية حرفت ، وانحرف تابعوها ، وغشروا  
وبدلوا وحولوها عن غايتها ، وبعدوا عن الحق فيها •

والأوثان قد تزايلت قوتها وضعفت مكانتها . وادركت العقول موضع  
الوهم فيها ، فألهة اليونان قد زالت الأوهام التى تحيطها ، والأوثان الرومانية  
تكشف للناس أنها أحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها ليس فيها سر يمنع أو يمنع ،  
يضر أو ينفع ، يشفى أو يسقم ، وعلى فرض أنها لم تذهب الأوهام حولها ، فهى  
خرافات يجب ازلتها ، وفساد فى العقول يجب اصلاحه •

وكانت الامبراطورية الرومانية تعبث برعاياها ، وتفرض عليهم طاغوتها  
وهم لا حق لهم يستطيعون به تقويمهم ، والنفوس قد ضلت وزلت ، ولكنها  
لم ترض وتطمئن ، فهى هالعة جازعة ، لأنها كانت تفرض على الشعب دينها  
وأن كان لا يرتضيه ، وتفرض عليه عقائد لا يؤمن ولا يرضى بها ، كما كانت  
الحال فى الشعب المصرى الذى فرض عليه دينها ، أو عقيدتها ، كما فرض عليه  
سلطانها ، وجعلتهم عبدا أو كالعبيد •

والرومانيون فى داخل أرضهم ، وفى الشعوب التى منيت بحكمهم كانت  
التفرقة بين الناس واضحة جلية •

كانت التفرقة أولا ، من حيث تحكم رجال السلطان فى الرعية ،  
واختصاصهم بالمال يجيء اليهم من الغنائم التى يغتنمونها فى الحروب ،  
وحرمان بقية الرعية من المال والسلطان معا ، والناس لا يشقون لآلام ذاتية

فقط وان كان الحرمان فى ذاته يحدث ألما نفسيا ، ولكنهم يألمون من ذلك ، ومن رؤية النعمة فى يد غيرهم يرتعون ويلعبون ، ويعبثون ، ولا حق لأحد فى أن يعترض عليهم أو يلومهم ، أو يوجه اليهم نقدا .

والتفرقة من الناحية الثانية فى أن الشرف كل الشرف لطبقة الأشراف والمهانة كلها فى الطبقة المحكومة ، والشريف الرومانى يعلو على كل أحاد الرعية من الضعفاء .

والرق فى أرض الرومان كانت تتكاثر أسبابه ، حتى انه يسوغ لأى انسان يرى شخصا من أى شعب أن يسترقه والحكم للقوى فى العلاقات الانسانية كلها ، وكأن أرض تلك الدولة أجمة يفترس قوياها ضعيفا .

والأحكام بين الناس تسير على مقتضى تلك النظم المقيمة التى تفرض التفرقة بين الناس .

والمرأة عندهم أمة لأبيها قبل الزواج ، وأمة لزوجها فى بيت زوجها ولو قتلها لا عقوبة عليه .

وهكذا ترى نظاما اجتماعيا أهدرت فيه الحقوق الانسانية الأساسية التى تثبت للانسان بمقتضى أنه انسان ، وشاع الفساد . وظهر فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس .

كان لابد من تغيير لهذه الحال ، ومن اصلاح لهذا الفساد ، لأن الله لا يحب الفساد ، والله لا يريد ظلما للعباد ، فلا بد من أن يكون من يغير هذه النظم ، وليس فى الناس من يغير ، ويبدل بالفساد صلاحا ، وبالضلالة هدى ، ولا يكون من الانسان لأن ابن الأرض ترك لأخيه الانسان فأكله أو أذله ، أو أهدر انسانيته ، لابد من رسالة السماء تكون فى أرض تصاقب الرومان ، وهم ذوو بأس وقوة .

٦٤ — وإذا تركنا غرب الجزيرة العربى وشمالها ، واتجهنا الى شرقها وجنوبها ، فانا نجد أرض فارس ، وما كان فيها من انحلال سياسى وظلم ، وانحلال اجتماعى ، وانحلال فى الأسرة ، وظلم فى الحكم ، نجد كسرى يعتبر الشعب كله عبيدا أو كالعبيد ، ومن حوله من رؤساء ودهاتين يسوغون ذلك للناس ، ولا يكادون يسيغونه ، وان العقائد المختلفة التى توردت على العقل الفارسى جعلته فى متاهات فكرية يضل فيها السارى ، وتظلم النفس ، والطبقية التى سرت اليها من الهنود الذين على مقربة منها حلتها اجتماعيا وان كانت

لم تصل الى مثل ما كان عليه الهنود والأسرة كانت غير قائمة على أسس قوية وسليمة ، فقد كان الولد يتزوج أمه وأخته ، ويتزوج الرجل ابنته ، وغير ذلك مما يضعف النفس فى العلاقة الزوجية ، وينحدر به الانسان الى أحط من الحيوان ، وكان مذهب مزدك الذى جاء فى آخر الحكم الفارسي الذى حل المجتمع الفارسي، وضاعت فيه الأنساب واستبيحت الأموال حتى وهنت الحقوق، وضعف تثمير الأموال ، واختلط الحابل بالنابل وما كان فى المستطاع أن يغير النظام بنظام من فارس ، فان التجارب فى المذاهب السابقة من زرادشتية الى مانوية الى مزدكية ، لم تنجح فى اصلاح ، بل كانت كالأدوية التى تزيد الداء العضال استشراف فى الجسم ، فتكون هى اسبابا لتقوية الانحلال ، فالزردشتية دعت الى القوى ، فتحكم القوى فى الضعيف ، والمانوية دعت الى انهاء ابن الانسان من هذه الأرض مما اضطر كسرى لقتله ، وجاء من بعد ذلك مزدك ، فنشر الفساد وانهار به المجتمع الفارسي انهيارا .

اذن لابد من هداية للسماء ، لتستقيم الأمور ، فكانت فى أرض العرب التى تجاورهم ، كان من أرض العرب الرسول الأمين ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) .

٤٧ — واذا تجاوزنا فارس وخراسان وما وراءهما ، نجد الهند والصين ، وعندئذ نجد حيرة العقول واضطرابها ، نجد مجتمعا مضطرب التفكير ، قد حرفت البرهمية ، حتى صارت وثنية بعد أن كانت ديانة موحدة ، وصار براهما الها مجسما فى أعينهم ، مع أنه فى حقيقته رسول أرسله الله تعالى ، قد جسموه ، وجعلوا بعضه يخلق منه خلق من أعلاه ، وخلق من سواعده ، وخلق من ركبتيه ، وخلق من قدمه ، وحالوا بين الخلق والحق ثم فرقهم الفرقة والطبقية ، ورضوا بالتنافر بينهم بدل التحاب والتواد ، وتقطع بينهم أمرهم ، حتى صاروا هدفا يراى ، ومقصدا يقصد .

وصارت الأوهام تسيطر عليهم ، حتى توهموا فى أحد رجال الدين عندهم أنه اله أو ابن اله ونحلوه من الصفات مالا يكون لبشر عادى ، وذكروا أن النصرانى تبعوه ، الى آخر ما قيل مما أخذهم عنهم النصرانى من بعدهم .

ولما اتجهت بعض النفوس الى اصلاحهم كانوا فى حيرة من أى الأبواب تدخل فى الاصلاح ، لأن معرفة المداخل والمخارج فى باب التهذيب الدينى لا يكون الا بدين ، ولم يكن ثمة دين مرشد ، ولا نبى مبعوث يدعو الى الحكمة والى الصراط المستقيم .

فأقتصروا على ما يومئ اليه الاحساس ، فجاء بوذا واتى بعقيدة هى



الى الحرمان أقرب منها الى الاصلاح والايجاب ورفع الانسان وتكوين الارادة المتجهة الى الفضيلة الايجابية والعمل النافع المثمر ، وعمارة هذه الأرض ، واقامة المصالح على أسس خلقى مكين .

وان الحرمان لا ينتج ولا يثمر ، ولا يطبقه العامة ، وان ادعاه الخاصة ، ولذلك لم يكتب لهذا المذهب الأخذ به أخذا كاملا ، أو قريبا منه ، أو حتى ارادته الا عند بعض الآحاد الذين سموا فى الماضى والحاضر الفقراء ، وقد راضوا أنفسهم على الحرمان غير المنتج .

ولما انتقل المذهب الى الصين أثمرت فيه ثمرات غير ايجابية ، وكان كلها يتجه الى الحرمان ، وقد أراد بعض المصلحين أن يحول الشعب الى الناحية الايجابية ، ولكن ضلال الفكر ، حال بينهم وبين ادراك الحقائق ، وقد ضلوا فى تفكيرهم ضلالا بعيدا على النحو الذى ذكرناه فى صور كلامنا ، وان الاشارة فيه تغنى عن العبارة والايجاز يقوم فى ذلك مقام الاطناب .

فكانت حالهم تقتضى هاديا مرشدا لا يكون من بينهم ، ولا يكون ممن على شاكلتهم ، بل يكون من الله تعالى ، واذا كانوا قد عبثوا السماء ، فهدايتهم تجيء من خالق الأرض والسماء .

وقد يقول قائل انه بلا ريب العالم كان يحتاج الى رسالة من السماء ، والى رسالة محمد عليه السلام خاصة التى دعت الى تهذيب النفس وتقوية الجسم ، وأن يكون الانسان ربانيا نافعا ، فهل سد الفراغ فى أوروبا وآسيا فى مجاهل العالم ، ومعاله ؟ والجواب عن ذلك أن الشريعة لا تزال قائمة ثابتة وما جاء به محمد لا يزال يدعو الى الحق ، ويوجه ويهدى ، وأتباع محمد هم الذين قصروا فى العبء الذى حملوه ولم يقوموا بحق الأمانة التى ائتمنهم محمد عليه الصلاة والسلام عليها بأمر ربه ، والله بكل شئ محيط .

## البشارات

٤٨ — اذا كانت الدنيا كلها كانت تتطلع الى وجود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليصلح الناس ، وليعلمهم الكتاب والحكمة ، وليهدى من تبغفه الدعوة ، وهم ممن يؤمنون بالغيب ويهدون الى صراط مستقيم ، فان البشارات كانت تجيء اليهم برسول قد قدر الله زمانه ، وسيدركهم ابانه ، ولم تكن البشرى من الكتب السماوية التى كانت على مقربة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى اليهودية والنصرانية ، بل كانت البشرى مما وراء ذلك مما دل

على أن هذه الكتب جاء بها رسول ، وكانت هذه الكتب مما اشتمل عليه ما يدعو اليه من توحيد الله تعالى العليم العزيز ، الذى جاءت النذر والبشرى بما يدعو أهل الايمان اليه •

وأقدم الكتب التى اشتملت على هذه البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كتب الهنود القدماء ، فان كتابهم فيدا الذى اشرنا اليه قال بعض المطلعين من المسلمين ان فى فيدا ما يدل على التبشير بوجود الرسول محمد خاتم النبيين ، واليك ما قال ذلك الكاتب ننقله مما نقله عنه الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه « معالم النور » جاء فى هذا الكتاب القيم ما نصه •

« يقول الأستاذ عبد الحق أن اسم الرسول العربى أحمد مكتوب بلفظه العربى فى الساما فيدا من كتب البراهمة وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها : « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه ، وهى ملوثة بالحكمة ، وقد قبست منه النور ، كما يقبس من الشمس •

ولا يخفى المؤلف وجوه الاعتراضات التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن بعضهم أنه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هندية ، وحاول أن يجعلها تفيد أننى وحدى تلقيت الحكمة من ربه ••• قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه ، أن العبارة منسوبة الى البراهمة ، ( فانزا كانفا ) من أسرة كانفا ، ولا يصدق عليه أنه وحده ملقئ الحكمة من أبيه » (١) •

ويستفاد من هذا الكلام أمران :

أولهما : أنه ورد ذكر أحمد فى كتاب الفيدا كما ورد ذكر هذا الاسم الكريم فى التوراة والانجيل •

ثانيهما : أن البراهمة الذين حرفوا تعاليم هذه الديانة ، التى كانت فى الأصل ديانة توحيد ، حاولوا أن يحرقوا الكلم عن مواضعه ، ويغيروا المعنى بتفسيرها بغير مجراها •

ولا شك أن التفسير التحريفى لهم يخالف ما يدل عليه الأصل كما قرر الأستاذ عبد الحق ، وفوق ذلك فان العبارة تفيد بنصها « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه » ويخالفه التفسير المنحرف ، فان الذى تلقاه بالنص أحمد هو الشريعة وأنه تلقاها من ربه لا من ابنه ، والفرق واضح بين الأب والرب الا اذا كانوا يجعلون الرب أباً كما قال النصارى من بعدهم •

---

(١) معالم النور للأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ص ١٢ •

وقد يقول قائل ان البرهمية لم يأت بها رسول نزل عليه أمر من الله ، وان الجواب عن ذلك أن نصوص كتبهم تفيد كما ذكر البيروني ، أن براهما كان مرسلًا ولم يكن لها ، ولم يكن ابن اله ، وقد نقلنا لك ما ذكره البيروني فارجع اليه .

لقد جاء في كتب الهندو كما قررنا تبشير بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما جاءت بكتب فيدا ، التي اعتبرها الهندو أصلاً لعبادتهم ، ولقد ذكر الأستاذ عبد الحق أن وصف الكعبة ثابت في كتب الآثار فافيدا ، ويسمونها الكتاب بيت الملائكة ، ويذكر من أوصافها أنها ذات ثمانية جوانب ، وأبواب تسعة والأستاذ عبد الحق يعبر عن الأبواب بالأبواب المؤدية الى الكعبة ، وهي باب ابراهيم ، وباب الوداع ، وباب الصفا ، وباب على ، وباب عباس ، وباب النبي ، وباب الزيارة ، وباب الحرم ، ويفسر الجوانب الثمانية ، كما فسر الأبواب .

فيذكر أنها جبال تكتنف البيت الحرام ، وهي جبال خليج . وقيعقيان ، وجبل هندي ، وجبل لعلع ، وجبل كدا ، وجبل أبي حديد . وجبل أبي قبيس .

ولا يلتفت الكاتب الى ما قاله البراهمة المحرفون من أن البيت هو هيكل الانسان وجسمه ، وذلك لأنه قول لا اعتبار له ، إذ أنه يتنافى مع وصف القدسية المذكورة وصفا للبيت ، ولا الى أنه بيت الملائكة ، فلا يوصف الانسان بأنه بيت الملائكة .

ويسترسل الكاتب في بيان أن كتب البراهمة قد اشتملت على اشارة الى ما يلاقىه النبي صلى الله عليه وسلم من عداوات ، ويشير الى عدد الذين حاربوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في موقعة بدر وانتصاره عليه (١) .

وقد تشكك بعض النصوص في الكاتب الهندي ، ولكن الكاتب لم يعتمد على أوهام توهمها ، لم يعتمد على وهمه ، أو خياله ، إنما اعتمد على المنقول ، وفسره تفسيراً تحتمله الألفاظ ، ولا يجافى العقول ، والذين خالفوه فسروها تفسيراً لا تقبلها العبارات . بل تناقضها ، وهي مخالفة للمعقول ، كتفسيرهم بيت الملائكة والقداسة بأنه جسم الانسان ، كتفسير الرب بالآب ، وغير ذلك .

٤٩ — ولقد ذكر الكاتب الأستاذ عبد الحق اشارة تبشر بالنبي محمد صلى الله تعالى عله وسلم من كتاب زندافستا ، أنه وصف في هذا الكتاب

(١) كتاب مطلع النور للأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ص ١٣  
بتصريف قليل .

ببعض الأوصاف التي جاءت في القرآن الكريم ، فقد وصف بأنه رحمة للعالمين ، والله تعالى يقول في الكتاب المبين «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» وذكر أنه يدعو الى الواحد الأحد الذي ليس له كفاء ، وليس له أول ولا آخر ، ولا ضريح ولا قريح ، ولا صاحب ولا أب ولا أم ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا مسكن ولا جسد ، ولا شكل ولا لون ولا رائحة .

ولا شك أن هذه أوصاف للذات العلية ، وهي من الوجدانية في الذات والصفات ، ووحد الخلق والتكوين ثابتة واضحة ، ونتيجة لهذا وحدة العبادة فلا يعبد الا الله تعالى .

ويقول الأستاذ العقاد « ويشفع ( رأى الأستاذ عبد الحق ) ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبئ عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود ، وفيها اشارات الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف » ان أمة زرادشت حين ينبذون دينهم ، يتضعضون ، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون نحو كعبة ابراهيم التي تطهرت من الأصنام ، ويؤمنون يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان ، وطوس وبلخ ، وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن حاورهم ، وان نبينهم ليكونون فصيحا يتحدث بالمعجزات (١) .

وهنا نقف وقفة قصيرة ، فان هذا الكلام يدل على أن زرادشت كان نبيا ، وان ديانته ديانة سماوية ، والا ما اشتملت على هذه البشارات ، وما كان لها عندنا اعتبار ، لولا أصلها السماوي ، وكيف يتفق هذا مع ما يقال في كتب الفرنجة من أن زرادشت كان يدعو الى القوة ، والى معاضدة الأقوياء ، وافناء الضعفاء حتى وجدت فلسفة في أوروبا تدعو الى افناء الضعفاء ، وألا يكون لهم مكان في الوجود ، وذلك يتنافى كل المنافاة مع أخلاق النبوة السماوية ، وما تدعو اليه الأخلاق الانسانية الكاملة ، فان حق الحياة كانت لكل الأحياء ، والضعيف لا يموت أو ييخع بحق قانون الأخلاق وقانون السماء ، ولكن يعاون ويعيش ، حتى يبلغ أجله .

والجواب عن ذلك أن هذه النصوص موجودة فعلا في كتب الزرادشتية ، وهي تؤدي بمنطقها الى أنها جاءت على لسان رسول في كتاب سماوي ، فقد وقعت الحوادث ، كما ذكرت فقد تضعض الشعب الفارسي فعلا ، وادخل أرضه العرب فعلا ، وكان الفارسيون حملة العلم الاسلامي الذي كان رحمة

للعالمين • وذلك لا يكون الا من وحى السماء • فليس لنا الا أن نقول ان هنا رسولا ورسالة ، وكتابا ينطق بوحى الله تعالى •

أما ما ينحل الى زرادشت من أنه كان يدعو الى القوة فان كان يراد بها أن يكون المؤمن برسالته قويا فى خلقه وعقله وجسمه ، فان ذلك حق ، وهو يتفق مع مبادئ الأخلاق ، ووسائل الرسل ، وقد أثر عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير » وليس فى هذا ما يمنع أن يكون نبيا مرسلا ، داعيا الى التوحيد ؟ •

وان كان يراد أنه يغلب القوة على الحق فذلك باطل ، وتقوله أوهم الأوربيين وهو جدير بساستهم ، ولا نظن الا أن فلاسفتهم الذين زعموا هذا قد حرفوا القول عن مواضعه ، كما حرفوا دعوة المسيح عليه السلام ، وادعوا له الألوهية وهو منها براء ، وما قال لهم الا ما أمر الله تعالى به •

وكذلك ما يزعمون من أنه أوجب افناء الضعفاء ، انه فيما نرى دعا أهل الايمان الى أن يدرعوا بالقوة ، وأن يعالجوا الضعف ، لا أن ينفوا الضعفاء •

وخلاصة القول فى هذا المقام أن البشارات جاءت فى هذه الكتب ، وهى صادقة فيما قالت ، وتنتج اثبات النبوة لمن وجدت فى كتبه ، وليس لنا أن نطعن فى صدق ما تنتجه ، لمجرد أوهم توهمها ناس ينكرون الرشدانية ، وادعوا على عيسى أنه اله ، أو أنه ابن الله ، فليس غريبا أن يدعوا على غيره ما دونها •

وقد يقول قائل ان القرآن الكريم عندما ذكر الذين بشروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يذكر هؤلاء ، بل ذكر أن الانجيل فيه أن المسيح عليه السلام بشر برسول من بعده اسمه أحمد ، وذكر أن التوراة فيها محمد عليه الصلاة والسلام مكتوب ، كما قال تعالى : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء ، فساكتبها للذين يتقون ويؤتُونَ الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم أصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » •

والجواب عن ذلك أن أهل الكتاب كانوا يجادلون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان كانوا على مقربة من دعوته ، فكان يحاجهم بما عندهم ، وكانوا

هم يعرفون هذا النبي ، ويستفتحون على المشركين عندما كانوا ينازلونهم بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به •

على أن رسالة النبي عليه الصلاة والسلام ما كانت تستمد من شهادة السابقين ، انما كانت قوتها تستمد من ذاتها ، وتحمل في نفسها الشهادة بصدقها ، والبيانات الناطقة بأنها حق ، وأنها من الله العزيز الحكيم •

### محمد في التوراة :

٥١ — جاء ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في التوراة بالاشارة الواضحة ، ومع أنه جرى فيها التغيير والتبديل لم يمح ذلك ما فيها من اشارات بينات واضحات الى رسالته عليه الصلاة والسلام مما جعل اليهود يعرفونه على وجه اليقين ، كما يعرفون أبناءهم ، واستفتحاهم على المشركين به قبل أن يبعث ، فلما بعث كفروا •

وقد عني الأستاذ عبد الحق ببيان النصوص العبرية التي فيها البشارة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت ترجمتها هي « ان الرب جاء من سيناء ونهض من سمير لهم ، وسطع من جبل قارن ، وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم » •

وجبل فاران انما هو بمكة ، وقد قال عبد الحق في ذلك : « ان الشواهد القديمة جميعا تنبى عن وجود فاران في مكة ، وقد قال المؤرخ جيرون ، واللاهوتى يوسبيوس ان فاران عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى المشرق من أيلة ، ولا يكتفى بالنقل العبرى وترجمته ، بل ينقل عن النص العربى المترجم ان اسماعيل سكن برية فاران بالحجاز ثم يقرر أن سفر العدد من العهد القديم جاء فيه أن بنى اسرائيل ارتحلوا من برية سيناء فحلت السحابة في برية فاران ، ويستنبط من ذكر عشرة الآلاف الذين ذكروا على أنهم محمد وأصحابه عندما خرجوا في غزواتهم الى مكة ، والى الشام ، فقد بلغوا هذا العدد ، وكانوا من الصحابة الأطهار ، ويسوق ما جاء في التوراة من أن موسى كلم الله تعالى بشر محمد عليه السلام بقوله : « ان نبيا مثلى سيقم الرب الهكم من اخوانكم أبناء ابراهيم » •

ويسترسل الكاتب المحقق في بيان ما جاء بالتوراة من اشارات فيذكر عبارات نبي من أبناء ابراهيم مثلى تثبت انه محمد عليه الصلاة والسلام ، اذا

لم يجرى أى نبى بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة تبين كل الأحكام غير القرآن الكريم الذى نسخ بعض الأحكام التى جاءت فى التوراة (١)

وهكذا نجد التوراة قد بشرت بالنبى ، وإشارات التبليغ قائمة فيها ، حتى بعد أن عراها التغيير والتبديل .

وإن هذا الكلام لا يبيش فقط بالنبى عليه الصلاة والسلام ، بل يبين مكان الرسالة ، ومنبعها الذى تعم منه مشارق الأرض ومغاربها ، ففاران كما جاء فى أخبار المؤرخين ، والمحققين من الكتاب الأقدمين ، كان بينهما وبين أيلة مسيرة ثلاثة أيام ، وكما جاء فى كثير من أقوال المؤرخين كانت حول مكة أو بمكة .

وقد ذكر الأحمديون الذين عنوا بترجمة معانى القرآن الكريم ، وإن كنا نخالفهم فى أصل ترجمة القرآن ، كما نرى الرأى المبطل لاعتقادهم مسع ذلك تأخذ كلامهم فى التبشير بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهون لهوان غائصها الذى استخرجها ، والحكمة ضالة المؤمن يلقفها أنى وجدها .

ذكر الأستاذ المرحوم العقاد ما قاله الأحمديون ، فقال :

« ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن ( أى معانيه ) الى اللغة الانجليزية ، فانها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بحثا مستفيضاً فى مقدمة الترجمة ٠٠٠ قالت فيه أن نبوة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء ، وهى التجلى فى سيناء ، وقد حصل فى زمانه ، والتجلى من سعيير ، أو جبل أشقر ، وقد تجلى فى زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل ، على قول الجماعة الأحمدية واقع حيث يقيم أولاد يعقوب الذين اشتدوا بعد ذلك بأبناء أشعر ، وأما التجلى الثالث فمن أرض فاران ، وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة ، وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحيون الحجاج فى تلك الأراضى بالرياض من برية فاران ٠٠٠ وقد أصبح أبناء اسماعيل أمة كبيرة ، كما جاء فى وعد إبراهيم ، فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان ولا وجه لأقامتهم ، حيث أقام العرب المنتسبون الى اسماعيل ، ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب ، والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها ، وقد جاء فى التوراة أسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا فى بلاد العرب .

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٥٠ .

ومن نبوءة أشعيا التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة أن أبناء اسماعيل كانوا يقيمون بأرض الحجاز ، ففى هذه النبوءة يقول النبى أشعيا فى الاصحاح الحادى والعشرين تبينتين بقوافل الدادانيين ، هاتوا ماء للالقاء العطشان ، ياسكان أرض تيماء « وأونوا الهارب بخبره ، فانهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب ، فانه هكذا قال الى السير فى مدة سنة كسنة الأجير يغنى كل مجد فيدا ، ويقول المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة فيدا بهزيمة المكين فى وقعة بدر ، وهى الهزيمة التى نزلت بهم فى وقعة بدر بعد هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير » (١) وهذا النص يشير ، وكل تبشيرات الكتب بالأخبار المستقبلية يكون بالاشارة التى لا تخفى على المتأمل ، وربما لا يفهمها من يأخذ بظواهر الألفاظ ، لا بمراميتها وغاياتها ، وأن التفسير بالظواهر لا يجدى ولا يؤدى معانى ، والاتجاه الى المرامى التبشيرية يجعل للألفاظ معانى قائمة بذاتها وواضحة .

ويسوق جماعة الأحمدية فى مقدمة تفسيرهم بالانجليزية ، فينقلون عن الاصحاح فى سفر اشعيا ، وهو يرفع راية للألم من بعيد ، ويصف لهم من اقصى الأرض ، فإذا هم بالعجالة يأتون ، وليس فيهم أزع ولا عائر ، لا ينعسون ولا ينامون ، ولا تنحل حزم حقائبهم ، ولا تنحل سيور أخذيتهم سهامهم مملوءة ، وجميع قسيهم ممدودة حوافر خيلهم ، كأنها الصوان » .

وان هذا النص يدل على الدعوة الى الحج ، وهى قد تدل على بعض قوله تعالى : « وأذن فى الناس بالحج ياتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير » .

وجاء فى سفر أشعيا فى الاصحاح الثامن : « ولا تقولوا فتنة لكل مايقول هذا الشعب فتنة ، ولا تخافوا خوفا ولا زهوا ، قدسوا رب الجلود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدسا ، وحجر كل صدمة ، وصخرة عثرة ..... » وكما وشرقا لسكان اورشليم ، فيعثر بها كثيرون ، ويسقطون فيتكسرون ، ويعلقون فيلفظون ، صدا شهادة ، اختتم الشريعة بتلاميذى ، فاصطير للأب السائر وجهه فى بيت يعقوب » .

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٧



واننا نرى أن الإشارة بعيدة أو أن الدلالة يعسر ادراكها على وجه يقينى ، وحسبنا ما مضى من نقول ففيها ما يكفى •

### محمد فى الانجيل :

٥ — جاءت البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى الأناجيل وأوضح إشارة منها فى التوراة ، ولنضرب لذلك بعض الأمثال •

(أ) جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى على لسان المسيح يخاطب بنى اسرائيل : « هوذا بينكم يترك لكم خرابا ، لأنى أقول لكم • انكم لاتروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » فهو يدل على أن هناك من يأتى بعده مباركاً باسم الرب ، ولم يأت بعد الا محمد عليه الصلاة والسلام •

(ب) وفى الاصحاح الحادى والعشرين من هذا الانجيل على لسان السيد المسيح ما نصه : « لذلك أقول لكم ، ان ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل اثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترخص ، ومن سقط هو عليه يسحقه •

(ج) وجاء فى انجيل يوحنا فى الاصحاح الأول حديث يوحنا مع الكهنة فى اللاويين ، اذ سألوه : من أنت ، فاعترف ولم ينكر ، وقال انى لست أنا المسيح ، اذن ماذا ! أنت ايليا ، فقال لا • قالوا أنت النبى ! فأجاب لا • فقالوا له من أنت لنعطى جواباً لمن أرسلونا ، ماذا تقول عن نفسك ؟ قال أنا صوت صارخ فى البرية •

ولا شك أنه كان تنبؤ عن نبى ليس هو المسيح ولا هو نبيا ، فمن يكون هو غير محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

(د) وجاء فى الاصحاح السادس من انجيل يوحنا الذى صرح بالوهية المسيح فيما يزعمون جاء فيه على لسان المسيح ، « انه خير لكم أن أنطلق لأنى ان لم أنطلق لا يأتىكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء اليكم يبكت العالم على خطيئته ، وعلى بره ، وعلى دينونة ، فأما على خطيئته فلأنهم لا يؤمنون به ، وأما على بره فلأنى ذاهب الى أبى ولا تروننى أيضا ، وأما على دينونة الله ، فلأن رئيس هذا العالم قديس ، وأن لدى أموراً كثيرة أقولها لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تتحملوها الآن ، وانما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى الحق جميعه ، لأنه لا يتكلم عن نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية ، وذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم ، وبعد قليل لا تبصروننى » •

وان هذا الكلام اذا ا طرحنا عبارات الآب ، والالوهية المدعاة ، يتبين انه يتنبىء عن المعزى الذى يجىء بعده • وانه ينطلق ليخلى له الطريق وانه ييكت على خطيئته ، وهو انكار نبوة المسيح ، وييكت على بر بالمسيح فى زعمهم ، لأنه ييكتهم على ادعائهم الوهية المسيح لله سبحانه وتعالى المنزه عن الصاحبة والولد •

ثم انه يصرح الى انه يدعو الى الحق جميعه ، لأنه اتى بالمشريعة كاملة غير منقوصة خالدة لكل زمان ومكان ولكمالها كانت هى الخالدة ، فمن غير محمد يكون وان المعزى للخليقة الذى ينكر الخطايا ، وينكر غلو أهل الكتاب فى دينهم انه محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد جاءت نصوص الأناجيل الحاضرة بأن المسيح يبشر بالفارقليط ، والفارقليط هو أحمد ان ذلك هو المعنى اللفظى للفارقليط (١) •

### على فترة من الرسل :

٥٢ — ان نظرت الى العالم شرقا فى أقصاه ، أو غربا فى أقصاه ، أو القريب الدانى ، أو البعيد النائى ، فانك واجد ان العالم فى حاجة الى من يهديه من ضلاله ، فالفلسفة لا تصلح الناس ، ولو استقامت على الطريقة ، لأنها ان اقنعت الخاصة لا تملأ نفوس العامة ، ولا تهديها الى سواء السبيل ، وهى ما استقامت فما أصلحت أحدا •

والعقائد قد اعتراها التحريف ، فاليهود حرفوا التوراة عن معناها ، ونسوا حظا كثيرا مما ذكروا به ، ونظروا الى الناس جميعا ، على أنهم دونهم ، وأنهم ليسوا عباد الله مثلهم ، وأن الله تعالى خالقهم كما خلق غيرهم بل زعموا أنهم المختارون وأن كل الناس دونهم ، وبذلك عاشوا فى الأرض فسادا ، ولما ذلوا وهم على الاعتقاد بأنهم شعب الله المختار ، حقدوا على الخليقة ، وعملوا بكل الوسائل للكيد لغيرهم غير متحرجين ولا متأثرين ، بل أنهم يغترون بالعداوة بين الناس ، وينشرون الفساد فى غير تحفظ ، ولا مراعاة لأى جوار فى أى مكان ، فكان لابد من نبى يأتى بدين قوى يكفكف غرورهم وينهنه من غلوائهم •

---

(١) قد كتب بعض تلاميذنا المسيحيين كتابا قيما يبين فيه بعض نصوص الأناجيل بنبرة المسيح عليه السلام ، وقد طبع •

والنصرانية انحرفت ، وخرجت عن مبادئ المسيح وغلوا فيه ،  
واستبدلوا بأدب المسيح وسماحته استعلاء واستكبارا فى الأرض وعتوا وفسادا  
فكان لابد من رسول بشير ونذير ، يهدى الى الحق والى صراط مستقيم •

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن  
تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل  
شئ قدير » •

---



الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



## محمد من أوسط قريش نسباً

٥٣ — التقى أبو سفيان بن حرب بهرقل بعد أن ظهر أمر نبوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشاعت دعوته ، وسمع الرومان برسالته ، فسأله عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلة كان من بينها السؤال عن نسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبو سفيان ، وهو خصم شديد للدن قوى الخصومة عندما سئل فى ذلك ، فقال غير كاذب : « انه من أوسط قريش » أى أعلامه لأن الأوسط هو الأعلى والأشرف . فقال هرقل هكذا يبعث الانبياء من أشراف الناس نسباً .

وأخبار القرآن عن الانبياء السابقين تثبت أنهم كانوا من أعلى الناس فى قبائلهم من حيث مكانة أسرهم ، ولتضرب لذلك مثلاً بشعيب عليه الصلاة والسلام ، فقد كان من رهط شريف ، وكان نسيباً فيهم ، ولقد قال الله تعالى فى مجادلته لقومه « قالوا يا شعيب ما تفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لثراك فيثا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز ، قال يا قومى أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، أن ربي بما تعملون محيط » .

وأن هذا النص الكريم يدل على أن شعيباً عليه السلام كان من قبيل فيهم شرف ، وفيهم عزة ومنعة ، وبذلك كان من أوسط العشائر وأعلامها فى مدين .

ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أسرة فيها سمو وعلو فى قومه ، وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لم يزل الله عز وجل ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة صفياً مهذباً ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » .

وفى الصحيح من حديث وائلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أن الله اصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاى من بنى هاشم » .

وبذلك يتقرر أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان رفيع النسب ، وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير ، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة ، فإن المال لا يكون نسباً ، وقد كان عمه أبو طالب كبير

البطحاء وشريفها ، وكان مع ذلك فى المال قلا ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع علو نسبه بين العرب كان فقيرا ، وكان يتيما ، وكان يرمى الغنم ، فليس علو النسب والشرف ملازما لكثرة المال ، أو قوة البطش ، أو عظمة السلطان ، انما شرف النسب أن يكون من كورة يعلو أحادها عن النقائص ، ويخشون العار من أن يقعوا فى رذيلة يستنكرها العرف ، ويستهجنها ذور العقول السليمة ، وأن يكون لهم شرف نفسى ، ولم يجعل النبي عليه الصلاة والسلام شرفه فى العرب بالمال ، أو السطوة ، بل جعل شرفه بأنه من خيرهم نفسا وبيتا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « جعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفسا » .

وانظر الى أبى سفيان الذى كان من أعلى قريش عندما سأل هرقس أجاب بالصدق والأمانة ، وأن كان صدقه حجة عليه ، ومعطيا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة ، واستعلاء بدعوته ورسالته ، ويقول أبو سفيان وهو على الشرك : « لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » .

٤٥ — ولماذا كان الأنبياء لا يكونون الا من كورة عرفت بشرف النفس وعلو المحتد ، وأن تولدت الرفعة من غير كبرياء ، واحترام النفس من غير استعلاء . ذلك ، لأن الرسالة تحتاج الى دعوة قوية لا يرنقها كدرة التعيب ، أو عدم الثقة ، أو نقص فى شرف النفس ، أو رمية بالذيلة ابتداء ، وأن كان هو فى ذاته كاملا .

ان النسب الذى ليس فيه رفعة ، ولم يعرف بأنه من عشيرة ذات تقاليد فاضلة ، كان أول ما يبادر به هو الرد ، لعدم شرف أسرته ، وإنما نجد النبيين كانوا يعيرون بأن أتباعهم من أرذل القوم ، لا من أشرافهم ، ولا من ذوى النسب ، ويتخذون ذلك ذريعة لرد الدعوة ، وأن كانوا فى ذلك ظالمين ، وأن رد قوم نوح أبى الانسانية الثانى لبيبين هذا ، فقد قال تعالى عنه وعن قومه الذين ردوه « فقال المأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أرذلنا بآدى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » . قال يا قوم أرايتم أن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها ، وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من يتصربنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للمذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى انن لمن المظالمين » .



ان اعتراضهم على أن الذين اتبعوا نوحا عليه السلام هم أراذلهم  
اعتراض ظالم ، ولكن الله تعالى أرحم بعباده من أن يأتيهم بنبي مغمسور في  
أسرته ، منكوب في أمر أمته ، مردول ابتداء عند قومه ، فيبادرون بعدم تصديقه ،  
ويجاهرون ابتداء بمخالفته ، ويصرون ، ويأخذون حجتهم من حال عشيرته وما  
يالفون ، وان التأثير في الأقوام لا يكون باكره النفس على عكس  
ما يبدو لها ، وما تبادر برده ، لأن المبادرة بادی الرأي بالرد تجعل النفس  
تبتدىء بالانحراف عن الخط المستقيم الذي تدركه العقول ، وإذا انحرفت زاوية  
التفكير بأمر منفر بادی الرأي ، فانه يستمر في خط الانحراف ، ولا يرجع الى  
الحق ، الا بعسر ، وانه كلما استطال خط الانحراف انفرجت الزاوية ، ويصعب  
التلاقى من بعد ، ورضى الله تعالى عن على كرم الله وجهه ان يقول : « ان  
للقلوب شهوات ، وأقبالا وأديارا ، فان القلب اذا أكره عمى » ودعوات الرسل  
للهداية ودعوات الرسالة للهداية ، وليست للعماية .

٥٥ — ولا شك أنه يجب أن يكون للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم  
منعة من قومه ، لأنه يبادر الناس بالمجاهرة بغير ما يعلمون ، وما يعتقدون ،  
ويصدع مفاجئا بما لا يريدون ، وانهم بلا ريب يجدون أنه لا يدفع ما يجيء  
على غير رغبتهم بالحسنى ، بل بالمقاومة الحقيقية القوية ، وإذا لم يكن له  
منعة من قومه يقتلونه في فجر الدعوة قبل أن يصبح صباحا ، ويكون لها ضوء  
في المجتمع ، ولو كان ضئيلا ، فانه من بعد يكون نورا ، ولو أطفئ النور عاش  
في ظلام لا يضيء أبدا ، وانظر الى قصة قوم شعيب ، ان أنه لم يمنعهم من أن  
يقتلوه الا رهطه ، فقد قالوا فيما حكاه القرآن الكريم عنهم مما تلونا :  
« ولولا رهطك لرجمناك » .

فلو كان الرسول في غير رهط يمنعه ، وفي غير منعة تدفع أعداءه لماتت  
دعوته في مهدها .

وما لنا نفوص في الماضي قريبا كان أو بعيدا ، ونحن بين يدي حضرة  
الرسول عليه الصلاة والسلام ، ان أن قريشا عندما صدع بأمر ربه ، عارضته ،  
ولجت في المعارضة ، ولما لجت في المعارضة ساورتها نزعة الشر لقتله ، وما  
كان يمنعه الا أسرته ، وشرف هذه الأسرة ، ومكانتها عند العرب ، وخوفها من  
أن تبادر بالثأر ، ودفع العار ، حتى تمكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم  
من أن يخرج بدعوة الحق من الفجر الذي يشق الظلام الى الصباح المشرق  
المنير ، بل الى الضحى الذي يملأ الوجود ضياء ، عندئذ قيض الله تعالى من  
يمنعه ، وقد وقفت الدعوة تناضل عن نفسها ، وترد كيد الكائدين .

٥٦ — وقد يقول قائل انهم ان لم يستطيعوا النيل من شخصه ، فقد نالوا ممن يتبعونه ، ووقفوا محاجزين دون أن تصل دعوته الى الضعفاء ، فلم يمنعهم مكانه فى أسرته من أن ينالوا من صحابته ، ويعوقوا رسالته ، وقد مات فعلا بعض الضعفاء من الصحابة تحت حر العذاب .

ونقول ان هذا دليل على أنه لو كان صاحب الدعوة كأولئك الضعفاء لم يوجد من يمنعه — لقتلوه ، وقالوا أنه أصلها فلو قتلناه لزالنا ، فيستكلبون عليه وتموت الدعوة فى مهدها ، فيجعلون بوقفها .

وانه يلاحظ أن الأذى الذى كان ينزله المشركون من قريش بالمؤمنين كان يتفاوت بمقداره بمقدار قوة أسرهم ، ومكانتهم فى النسب الذى كان موضع فخارهم ، فكان لأبى بكر وعثمان ، لون ما كان لآل ياسر ، وآل خباب ابن الأرت ، وكان لهؤلاء الذين لا ناصر لهم أشد ما يلقى الانسان من أخيه الانسان ، حتى كانوا كالذين عذبوا بالأخدود كما نوهنا من قبل ، وكما جاء فى القرآن تعالت كلماته ، وسمت عن القيل عباراته .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ناله الأذى ، وأصابه العنت من أولئك ، ولكن دون أن يفكر فى قتله الا بعد أن يئسوا من أن يقفوا الدعوة وبعد أن وجدوه يعمل على توجيه دعوته الى خارج مكة ، وقد أخذ نورها يتجه الى القبائل العربية ، فحاولوا أن يقتلوه ، ولكن قد أن له عليه الصلاة والسلام أن ينشئ دولة الايمان ، وقد تكاملت عناصر تكوينها ، ولكن فى غير أرض مكة .

وهكذا اختبر الله أهل الايمان بالشدائد ، حتى هاجروا فرارا بدينهم ، لأن الشدائد تملأ القلوب صرامة ، وتعطى الارادة عزيمة ، فلا تنه ولا تضعف ، ولا تحزن ولا تئس من روح الله ، ومن أن تكون كلمة الله تعالى هى العليا ، وهكذا يربى الرجال الذين يكونون دعائم الحق ، قال تعالت كلماته « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، الا ان نصر الله قريب .

٥٧ — كان لابد لنبي الرحمة أن يكون فى كل حياته رحيمًا ، فيربى على الرحمة بالضعفاء صغيرا ، يكون بينهم ضعيفا ليحس بالام الضعفاء والمساكين ، فليس رحيمًا من لم يذق مثل ما فيه حال الضعفاء .

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنه كان نسييا من أعلى نسب فى قومه قد كان فى المال قلا ، وابتدا حياته يتيما ، ثم كان أجيرا فى رعى الغنم ، فالتقى فيه مهذبان : أحدهما - النسب الرفيع الذى يجعله لا يتجه الى سفساف الأمور ، بل يتجه الى معاليها ، ليتكافأ نزوعه مع شرفه ، فيتلاقيا ، ويتوافرا على اعلاؤه ، وبذلك حفظ محمد شرف النسب ، فكان الصادق الأمين، الذى لم يكن فيه ما ينقص نسبه ، ويضعف شرفه العظيم ، فكان النبيل حقا وصدا ، وكان الكامل بين ذوى الأنساب ، والمتبع من غيرهم •

المهذب الثانى اليتيم وقلة المال ، وان هذا المهذب من شأنه أن يجعله موطأ الكنف للضعفاء من العبيد ، والعاملين والفقراء ، فلا يستكبر ، ولا يستعلى ، بل يكون قريبا منهم ، أليفا معهم من غير أن يناله ذل الفقر ، وضعف الحاجة واستخذاء المسكين ، فهو العالى الرفيع ، وهو الذى ينبع معين الرحمة من بين جنبه ، فان الرحمة تنبع من بين الشدائد ، والرحيم هو الذى يذوق الشديدة من غير أن تذله ، ليرحم غيره ، ولا يعترى نفسه حقدا على من هو أعلى منه ، بل هو ينظر دائما الى من دونه ليعليه ، وليحميه ، ويعينه •

ان هذين التهذيبيين قد توافرا فى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاتجه منذ صباه الى معالى الأخلاق التى تليق بذوى الشرف والرياسة ، ولم يتخذ الشرف سبيلا للاستطالة على غيره •

وان يتمه وفقره ، وعمله فى ميدان الأجراء الضعفاء جعله قريبا مألوفاً غير متعال ، يحس أنه من الضعفاء فى اخلاصهم ، ومع الأشراف فى امتناعهم عن الدنية فى أعمالهم ، وفى كل أحوالهم كان العطوف الأليف •

وانه يلاحظ فى استقراء أحوال الناس أن الضعفاء دائما اذا لم ترنق قلوبهم بحقد ، ولا حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله ، يكون فى قلوبهم اخلاص ، ومع الاخلاص اشراق النفوس الذى ينزع بها الى الحق ، وإلى صراط مستقيم ، ذلك لأن قلوبهم لم تصبها كدرة الهوى ، والشبهوات واللذات التى يدفع اليها المال ، أو يسهل سبيلها ، واستغراق النفس بها ، فيكون الانسان قريبا من الايمان سرعان ما يدخل قلبه الايمان ، ولذلك كان أول من يجيب دعوة الأنبياء ويؤمن بها ، وأول من يجيب دعوة أى حق ويؤمن بها الضعفاء • والفقراء بهذا القيد الذى ذكرناه ، وهو ألا يدنس قلوبهم حقدا ، ولا حب انتقام ، ولا حسد يطفىء موضع الايمان فى قلوبهم •

لقد أوتي النبي عليه الصلاة والسلام الرحمة بالضعفاء ، لأنه أحس بأنه منهم ، من غير أن يناله ما عساه يكمن في نفوس الضعفاء من استكانة ، ورضا بالدون من السجايا المرهقة المذلة ، لأن الضعيف إذا لم يصب بالحق أهيب بنوع من الرضا بالقليل ، وعدم المطالبة بحقه الهضيم ، وأن ذلك قد يجر إلى الاستخذاء ، والنبي عليه الصلاة والسلام أوتي مزايا الفقر من إخلاص واتجاه إلى الطريق المستقيم ، من غير تدلى الضعفاء إلى هوان ، أو اذلال ، لأن علو النسب منعه ، وأبعده عن ذلك ، فالتقت فيه الحسنيان ، حسنى النسب، والإخلاص لله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك تهيئة للرسالة الإلهية الرافعة للإنسانية .

## النسب الطاهر

٥٨ — يذكر المؤرخون للسيرة الطاهرة ، سيرة خير الأنام محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه من ولد اسماعيل بن إبراهيم ، ولكن لا تعرف سلسلة النسب كاملة اليه ، بل ان التاريخ لا يحفظ الا عشرين منها ، فهو محمد ابن عبد الله ، بن عبد المطلب ، واسمه شيبة الحمد ، بن هاشم واسمه عمرو ، ابن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، ابن قصي واسمه زيد بن كلاب بن مرة ، بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، ابن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن الياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

وهذا التعريف بنسبه الكريم ، هو المجمع عليه بين كتاب السيرة ، ولقد كان ذلك التعريف كما تدل الرواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، فقد كان يقول : « كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا انتهى الى عدنان أمسك ، ثم يقول كذب النسابون ، قال الله تعالى : « وقرونا بين ذلك كثيرا » .

وان هذا الخبر المنسوب للنبي عليه الصلاة والسلام يدل على صدق تلك السلسلة الكريمة ابا عن جد الى أن ينتهى الى عدنان ، وان حفظ النبي لهؤلاء فقط يدل على أمرين .

أولهما — الشك فيمن فوقهم ، وأنه لم يصل اليه عن طريق صحيح ، وأنه وصل الى الناس عن طريق النسابين ، وأن النسابين قد يدفعهم الفخر الى الكذب والافتراء .

ثانيهما — أنه يدل على صدق هذا النسب ، فما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول الا حقا ، فهو الصادق الأمين ، ويظهر أن ذلك القدر من النسب الرفيع هو الذى كان معلوما فى حكم المتواتر ، أو المشهور عند العرب ، وغيره موضع شك ، والقول فيه رجم بالغيب ، وأخذ بالتوهم أو الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا .

وما كان أولئك معروفين الا لأنهم أثرت عنهم مآثر ، صارت مفاخر لنرياتهم ، وان كان النبي عليه الصلاة والسلام لم يفخر قط بنسبه ، ومع ذلك هو من خيار الأقوام ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « ولدت من خيار من خيار من خيار » فهو يذكر الخير فيهم ، ومكان الشرف فى أسلافه ويمتنع من أن يستعلى بهم ، والتفاخر استعلاء واستطالة بالنسب ، وقد يكون فيه شحناء ، والشحناء ليست من شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم .

٥٩ — وان الظاهر ان اولاد عدنان قد اقاموا بمكة منهم من هو قى  
سلسلة نسبة النبى عليه الصلاة والسلام ، وذلك لان اسماعيل عليه السلام ،  
كانت اقامته قرب مكة ، وهو بانى الكعبة ، ولان النسابين ذكروا انه كان اولئك  
العشرون بها ، ولأنهم كانوا معروفين فيها كابرا عن كابر ، وما يعرفون الا  
لاقامتهم بمكة التى قام بها الأخلاف من بعدهم ، ولتقديس الكعبة ومكة ، وفود  
الناس اليها من كل فج عميق .

ولقد ذكروا ان بعض ذرية عدنان اقام باليمن ، وأنسل فيها نسلا ، وذلك  
لان عدنان ولد له ولدان أحدهما معد ، والثانى عك ، فتزوج هذا من  
الأشعريين ، وهم بنو أشعر الذين يقيمون باليمن ، فانتقل الى موطن زوجته  
باليمن ، ثم كان من بعض منهم من كان بعض ولده يخرج من مكة ، وينفرد  
بالبقاء فيها من يدخل فى سلسلة النسب ، كما رأيت فى معد ، وأخيه عك ،  
فهذا هاجر الى اليمن مع أسرة زوجه ، وبقي معد فيها .

وجاء معد ، فكان مثل أبيه فكان من أولاده قضاة الذى تنسب اليه  
هذه القبيلة ، وكان نزار هو الذى استمر بمكة ، حتى كان منه ولده من بعده  
من يدخلون فى نسبه عليه الصلاة والسلام .

وكان من أولاده ربيعة الذى ينسب الربيعيون ، وانمار ، وأياد ، وهذان  
كانا أبوين لقبيلتين ، وكان ابنه مضر الذى كان جد النبى عليه الصلاة  
والسلام ، وهو الذى اقام بمكة المكرمة .

وكان لمضر ولدان هما الياس ، وغيلان ، ومضر خيرهما ، هو الذى  
يدخل فى نسب النبى عليه الصلاة والسلام ، ويظهر انه فى عهد الياس أخذ  
بنو اسماعيل يغيرون ما ورثوا من شريعة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام  
فأنكر عليهم ما غيروا من سنن آبائهم وسيرتهم ، ويقول فى ذلك صاحب كتاب  
« الاكتفاء » : بأن فضله عليهم ، ولأن جانبه لهم ، جميعهم رأيه ، ورضوا به  
رضاء لم يرضوه لأحد من ولد اسماعيل ، فردهم الى سنن آبائهم ، حتى رجعت  
سنتهم قائمة على أولها .

وجاء من بعد الياس ابنه مدركة ، واسمه عامر ، وله ابنان آخران ، لكن  
هذا كان المختار منهم ، وسماه مدركة لأن ابلا كانت قد نفرت منهم ، فتقاصر  
الولدان الآخران عن تتبعها ، ونهض عامر ، لردّها من نفاها ، وقد بعدت ،  
فأدركها فردّها ، فسمى مدركة وصفا لهذا العمل ، وكان لمدركة خزيمة وهذيل  
فكان خزيمة المختار ليكون جدا للنبى عليه الصلاة والسلام ، كان جد لهما ،  
وولد لخزيمة — كنانة وأشد وأشد وأشد والهون ، وكان كنانة هو المختار ليكون  
النبى عليه الصلاة والسلام من صلبه .

وكان لكنانة عدة أولاد ، ولكن الذى اختار الله تعالى ، ليجرى فى صلبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو النضر المختار من بينهم ، ويقال ان النضر هذا هو الذى جمع قريشا ، ولكن الأكثرين على أنه فهر حفيده الذى هو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

والنضر كان له أولاد كان أنجبهم فهر جد النبى عليه الصلاة والسلام .

وكان فهر هو مجمع قريش ، وكان يسمى قريشا ، وقد كان فيه حكمة ، وخلق سوى ، وقد قال فى وصيته التى قالها لولده غالب الذى أعقبه فى الزعامة وهو المختار ليكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صلبه ، فقد قال لابنه غالب عندما حضرته الوفاة .

« يا بنى ان فى ألحزن قبل المصائب اقلق النفوس ، فاذا وقعت المصيبة برد حرها ، وانما القلق فى غليانها ، فاذا أنا مت فبرد حر مصيبتك بما ترى من وقع المنية أمامك وخلقك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، وبما ترى من آثارها فى محبى الحياة ، ثم اقتصر على قليلك ، وان قلت منفعتك ، فقليل ما فى يدك ، كان خيرا لك من كثير ما أخلق وجهك » .

ولقد كان غالب له أولاد ، وقد خلفه فى زعامة قريش لؤى ، وقد كان لؤى هذا فيه حكمة كأبيه وجده ، بدت وهو غلام حديث ، فقد جرت مناقشة بينه وبين أبيه غالب دلت على حكمة قلبهما .

قال الغلام لأبيه : يا أبت من رب معروفا قل اخلافه ، ونضر مأؤه ، ومن أخلفه أهمله ، واذا أهمل الشيء لم يذكر ، وعلى المولى تكبير صغيره ونشره ، وعلى المولى تصغير كبيره وستره .

فقال الأب الحكيم : « انى لأستدل بما أسمع من قولك على فضلك ، واستدعى لك به الطول على قومك ، فان ظفرت بطول ، فعد به على قومك ، وكف غرب جهلهم بحلمك ، ولم شعثهم برفقك ، فانما تفضل الرجال الرجال بأفعالها ، ومن قايسها على أوزانها أسقط الفضل ، ولم تعل به على أحد ، وللعليا فضل أبدا على السفلى .

خلف الغلام بعد أن اكتمل رجلا أباه ، وقد ولد له أولاد ، كان كعب أعقلهم ، وأفضلهم ، وهو جد النبى ، وقد كان حكيما كأبيه وجده ، ويذكر رواية السيرة انه قال هذه الخطبة :

« أيها الناس اسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ونهار وضاح ،

والسماء بناء والأرض مهاد والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثا ، لتضربوا عن  
أمرها صفحا ، الآخرون كالأولين ، والدار أمامكم ، واليقين غير ظنكم ، صلوا  
أرحامكم واحفظوا أصهاركم ، وأوفوا بعهدكم ، وثمروا أموالكم ، فانها قوام  
مروءاتكم ، ولا نصونها عما يجب عليكم ، وعظموا هذا الحرم ، وتمسكوا  
به ، فسيكون له نبا عظيم ، وسيخرج نبي كريم » •

هذا ما يقوله كتاب السيرة فى نسبة الخطبة اليه ، وليس لنا أن نحكم  
بصدق النسبة أو تكذيبها ، ولكن نحملهم مغبة ذلك ، ان صدقا وان كذبا •

وقد كان لكعب بن لؤى أولاد خيرهم مرة جد النبی عليه الصلاة والسلام ،  
وقد كان أحد الرجال الذين تفاخر بهم قريش •

وقد جاء من بعد مرة كلاب ، وهو جد النبی صلى الله تعالى عليه وسلم •

ثم جاء من بعده ولده قصى وهو خير أولاده ، وأظهرهم ، وأبينهم أثرا فى  
قريش فهو الذى جمع الله به قريشا ، وكان اسمه زيدا ، فسمى مجمعا ، لما  
جمع من أمرها ، ويسمى قصيا لتقصيه أمورها ، وان قصيا على هذا جد  
قريب ، وليس من الأجداد الذين يبعد عهدهم به عليه الصلاة والسلام . وله  
شان خاص فيما يتعلق بسدانة الكعبة ، ورياسة الندوة وغيرها ، فلا بد أن  
نخصه بكلمة •

### قصى :

٦ - قد ترك أبوه كلاب ولدين أحدهما قصى ، والثانى زهرة ، وكلاهما  
جد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقصى جده عليه السلام ، وهو الجد  
العصبية ، وأما زهرة فهو جده لأمه ، فهو الجد الرحمى ، وكان كلابا بهذا  
قد جمع الله تعالى له شرفين ، فهو جد النبی عليه الصلاة والسلام لأبيه ولأمه ،  
فالتقى فيه الشرفان •

وقد طوف قصى فى بلاد العرب ، فهو فى أول حياته لحق بأمه فى قضاة ،  
فأقام معها ، وقد كان فتى قويا كريما أيما يابى الضيم والعار ، ناضل يوما  
شابا من قضاة فنضله قصى ، فغضب المنضول ، وحزت فى نفسه حرارة  
السهام ، وسبة الهزيمة ، فتنازعا فى القول ، فقال المهزوم : لا تلحق بأهلك  
فلست منا ، ويظهر أنه الى هذا الوقت ما كان يعرف أباه وشرفه ، فقد عاد  
الى أمه وشكا لها من مرارة القول الذى سمعه ، فقالت له انت والله يا بنى  
أكرم منه نفسا ووالدا ، ونسبا ، وأشرف منزلا ، انت ابن كلاب بن مرة ابن



كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى ، وقومك  
بمكة عند البيت الحرام ، وفيما حوله ، تقد العرب الى ذلك البيت •

أجمع قصى بعد ذلك الخروج ، واللقوق ، وضاق ذرعا بالبقاء غريبا ،  
فقال له أمه لا تعجل ، حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج فى حاج  
العرب ، فانى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس (١) •

انتقل قصى الى أسرة أبيه فى مكة بعد أن جاءت الأشهر الحرم ، وخرج  
حاجا ، وكان جلدا بهذا نسييا • ولم يلبث أن نال سدانة البيت الحرام ، ولم يكن  
من قبله لقريش بل كانت لخزاعة ، وكان له الأمر فى اجازة الحج للناس ، وكان  
ذلك لغير قريش ، فانتزع تلك الولاية بحيلة الداهية ، وقوة ذى البأس •

ولى بهذا قصى سدانة البيت، وامرة مكة، وجمع قومه من منازلهم، واجتمعت  
فى يده بمقتضى الولاية سدانة البيت وامرة مكة والحجابة والرفادة والسقاية  
والندوة واللواء ، ومعنى الحجابة أن يملك مفاتيح البيت ، فلا يفتح الا بأمره ،  
ومعنى السقاية تولى سقاية الحج ، والرفادة كانت خرجا تخرجه قريش فى كل  
موسم من أموالها وتعطيه قصيا ، فتصنع به طعاما للحجاج فيأكله  
من لم يكن له سعة ولا زاد ، وقد سن هذه السنة الكريمة ، ودعا اليها  
قريشا ، وقال فى خطابه لهم بذلك :

«يا معشر قريش انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وان  
الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم  
طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم » •

ومعنى اللواء ألا يعقد لقريش لواء الا بيد قصى هذا ، ومعنى الندوة  
دار الشورى لقريش ، ثم كانت من بعد ذلك للعرب ، فكانت تعقد فى دار قصى •

وقد أعطى كل هذه الحقوق التى نالها بهمته لابنه عبد الدار ، ليعزه بها ،  
واراد أن يرفع خسيسته وينال الشرف على بنى عمه من قريش . ولذلك قال  
له أبوه عندما أعطاه أياها : «أنا والله يا بنى لألحقك بالقوم ، وان كانوا قد  
شرفوا عليك » •

• وكان عبد الدار هذا ولده البكر ، وله ولد آخر هو عبد مناف ، وقد شرف فى مكة بذاته ، ونيل أمره ، وقد ذهب كل مذهب ، وأبوه حتى •

وقد أراد أبوه بإعطائه عبد الدار ما أعطى أن يتعادل الأخوان فى الشرف الذى وصل اليه الأول بذاته ونبله ، وتخلف الثانى ، فأعطاه ما يعوض تخلفه •

وعبد مناف هذا هو الجد الرابع للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أعطى الله لعبد مناف أولاداً أربعة هم عبد شمس جد الأمويين ، والمطلب الذى ربه عبد المطلب الذى يعد اسمه الأصل شبيبة الحمد ، وقوفل ، جسد جبير ابن مطعم •

٦١ — وكان أولئك الأربعة فيهم شرف ذاتى كشرف أبيهم ونبله ، فلم يتركوا لعبد الدار وأولاده ما أعطاه جدهم قصى ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لفضلهم فى قومهم ، وقد انقسمت قريش فى تمكين بنى عبد مناف من نزاع ما بأيدي أولاد عمهم ، فرأى بعضهم أنهم أولى لمكان فضلهم ، وليس امرأة مكة وزعامتها عطاء يعطى من لا يستأهله ، بل يوسد الأمر لمن هو له أهل ، ورأى آخرون أن بنى عبد الدار أولى ، لأن قصيا صاحب الحق هو الذى أعطى أباهم ، ولأنه بأيديهم ، ولا ينزع من يد صاحبه لغيره ، ومن قريش طائفة التزمت الحياد •

وقد كان خلف شديد انتهى الى صلح سديد ، لأن المختلفين أزمعوا الحرب ، وحيث بلغ الخلاف أقصاء تنبه المختلفون اذ نبهتهم العاقبة المرتقبة الى أن يكفوا ، أو يكف كل فريق عن غلوائه ، فتداعوا الى الصلح •

اصطلحوا على أن يكون فى بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء ، والندوة فى بنى عبد الدار كما هى •

وكان هاشم أصبح بنى عبد مناف ، وأنقبهم صحيفة ، ولذلك كان له الشرف على أخوته ، ونال مما أخذ به بنو عبد مناف ، وكان ينفس عليه أخوة عبد شمس ما كان له من شرف ذاتى ، ومكانة عند العرب عامة ، وعند قريش خاصة ، وقد أعقبه فى شرفه مربى النبي عليه الصلاة والسلام عبد المطلب ، وهنا نقف وقفة عند عبد المطلب •

**عبد المطلب :**

٦٢ — نقف عنده وقفة قصيرة ، لأنه هو الذى حضن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى سن الحضانة ، وعبد المطلب أمه من يثرب مهاجر

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهى من بنى النجار بها ، وقد شب فى حياته الأولى فيها ، وقد تربى بينهم فى دار الغربية ، حتى أتى به عمه المطلب ، ودخل مكة ، ولزم صحبته ، فقل له عبد المطلب •

وقد أعطته قريش رياستها ، واستحق ذلك بقوة نفسه وقوة خلقه ، وسماحته ، فهو لشبابها أب ولكهولها أخ ، فى طلعتة يمن ، وفى خلقه عزمة قوية ، ولكن فى هدوء ، وسمت طيب راض ، وطيب ، ولكن فى غير هوان •

هو الذى حفر زمزم بعد أن طمرتها جرهم عندما سيطروا على مكة ، وكانت لهم قوة فيها واستمرت مطمورة عبر السنين ، حتى حفرها عبد المطلب ، فسقوا من مائها ، وأثار ذكريات اسماعيل عليه السلام بحفرها ، وملاهم عزة وكرامة باستعادة بئر كانت ببركة أم اسماعيل الذى كان هو وأبوه فخر العرب ، وزاده ذلك شرفا فيهم ، وعلوا ، وما كان لطيبة نفسه بالذى يستعلى على أحد بمناقبه ، وما أعطاه الله من حسن النقيية ويمن الطالع ، بل يحمد الله تعالى على ما وفقه وهده •

ويذكر كتاب السير أنه حفرها برؤيا صادقة مكررة ، وكأنها الهام من الله تعالى ، اللهم سبحانه وتعالى اياه لصفاء نفسه ، وإشراق روحه •

يروى على بن أبى طالب عن أبيه عبد المطلب أنه قال : انى لنائم فى الحجر ( بجوار الكعبة ) إذ أتانى أت ، فقال : « احفر طيبة ، قلت وما طيبة ، ثم ذهب عنى • فلما كان الغد رجعت الى مضجعى ، فنمت فيه ، فجاء فقال احفر برة ، قلت وما برة ؟ ثم ذهب عنى •

فلما كان الغد رجعت الى مضجعى فنمت فيه ، فقال احفر المضمونة قلت : وما المضمونة ، ثم ذهب عنى •

فلما كان الغد رجعت الى مضجعى ، فنمت فيه فجاءنى فقال احفر زمزم قلت وما زمزم ؟ فقال : لا تنزف أبدا ، ولا تدم ، وتسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل ، ومعنى بين الفرث والدم ، أى عند المذبح الذى كانت قريش تذبح ذبائحها فيه ، ومعنى قرية أى المكان الذى كان فيه نمل • ووجد الغراب ينقر عندها ، وكأن هذين كانا علامة حد المكان ، والآية التى تدل على صدق الآتى ، فى تبشيريه •

فلما بدا لعبد المطلب الماء كبر الله تعالى ، وقد كانت قريش تلاحظ عمله ، وكأنها غير مصدقة لنتائج ما يحفر ، فلما كبر علموا أنه أدرك ما يريد •

ولكنهم جاءوا يشاحونه فى أن تكون العين تحت سلطانهم جميعا ،  
لا تحت سلطانه وحده ، وقالوا : انها بئر اسماعيل ، وان لنا فيها حقا ،  
فاشركنا معك فى السلطان عليها •

ولكنه لم يسلم لهم ، بل رأى أن تكون تحت سلطانه ، لأنه هو الذى  
حفرها ، وقد نازعوه هذا الحق ، ثم لما رأوا من طبيقته ، وراجعوا حسن  
نقيبته ، تركوا الأمر ، وما هو بمانعهم من مائها ، ولكنه يسقيهم ويسقى  
الحجاج منها فى غير منة ولا أذى ، ولكن فى عدل وحسن توزيع على أن يكون  
له حق السقاية فيها •

وان وصف زمزم بأنها لا تنزف ، وفيها سقاية الحجيج خبر حقيقه الزمن  
الى اليوم ، فلا يزال الحجاج يشربون منها ، وهى تفيض عليهم فى سخاء ،  
وهى عين ثرة ، ومعين لا ينضب ، ولا تزال فيها بركة اسماعيل ، ونقيبة  
عبد المطلب • والدلالة على أن بيت الله تحوطه البركة كما قال تعالى فى  
وصفه : « أن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » •

٦٣ — ان الناظر فى تاريخ عبد المطلب ينتهى بأنه كان متصفا بثلاث  
صفات كريمات •

الأولى — الطيبة والسماحة ، فكان موطلا الكنف قريبا من الناس اليفا  
محبوبا ، لا يستغلظ على أحد ، ولا يستكبر ولا يستعلى ، يطمئن أهل مكة  
اليه ، ويثقون به ، ويرضونه حكما ، ولو على نفسه •

الثانية — أنه كان مباركا ، لا يضع يده فى عمل الا بارك الله تعالى ،  
حمل المعول ، فحفر بئر زمزم واذا لم يكن ذا مال فى قومه ، فقد كان موفورا فى  
كرمه ، مباركا له فى رزقه ، وأكثر قریش فضلا عليهم ، وعائدة بالخير على  
جمهورهم ، لا يضر بخير ، ولا يستأثر به ، وقد وقاه الله تعالى شح نفسه •

الثالثة — عزمته ، وإصراره على ما يقوم به من خير مهما يصادف فى  
ذلك من عقبات ، وما يحتاج اليه العمل من خير له وللناس •

فكان قوى الارادة ماضى العزيمة ، متحملا اثر ما يقول •

ذكر علماء السيرة أنه ما كان له عند حفر زمزم الا ولد واحد ، وهو  
الحارث بن عبد المطلب ، وكان العرب يعتزون بكثرة المال ، وكثرة البنين ،  
فكان يجرى على ألسنتهم فى مقام الفخر « انا أكثر منك مالا واعرز نفرا »

وإذا كان عبد المطلب قد قنع بما أعطاه الله تعالى من مال ، وأن لم يكن كثيرا كغيره من أثرياء قريش وثقيف ، فقد قنع به ، لأنه كان يكفى لحفظ مروءته ، وما كان حريصا على أن يجمع ، بل كان حريصا على ألا يمنع ، وحسبه ذلك شرفا •

ولقد كان له شوق الى البنين ليكون أعز نفرا ، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا •

ولقد نذر نذرا فيه بقية من بقايا الجاهلية ، وهو أنه إذا عاش له عشرة من البنين ، قدم أحدهم فداء عند الكعبة ، وكأنه يريد أن تكون فيه قوة التقرب الى الكعبة ، كما تقرب جده إبراهيم بولده البكر الى الله تعالى ، ولكنه فعله نذرا من نفسه ، ولم يفعله بأمر ربه ، ولذلك كان استعداد إبراهيم قوة عبادة ، ونذر عبد المطلب لا يخلو من جاهلية ، وهذا فرق ما بين أبى الأنبياء وخليل الله تعالى ، وصفيه ، ومن عاش فى جاهلية الوثنية ، غير مستنكر لها ، والله هو الذى يهب من يشاء الذكور ، ويهب لمن يشاء الاناث ، ويهب لمن يشاء الذكور والاناث •

اتجه الرجل القوى فى نفسه وعزمته الى الوفاء بنذره ، وقد بلغ ولده عشرة رجال ، ولكن من يختاره لهذا الفداء ، فأراد القرعة ، فجمعهم ، ودخل بهم فى جوف الكعبة ، وأمرهم أن يأخذ كل واحد منهم ورقة ، ويكتب فيها اسمه ، وقد أخبرهم من قبل بنذره ، فارتضوا طائعين غير منافرين ، وبعد أن كتبوا أسماءهم وضع اسم كل واحد فى قدح ، وأمر خبيرا فى القداح أن يسهم بينهم ، فساهم ، فكان القدح على عبد الله ابنه وأبى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

ومع أن عبد الله كان أحب بنيه اليه ، أخذ الشفرة يحدها ليذبح أحب ولده اليه ، ولكن ترامى الخبر فى أندية قريش من أن عبد المطلب يحمل شفرته ليذبح ابنه ، فجاؤا سراعا اليه ، ورأوه حاملا شفرته ليذبح ولده الحبيب غير وأن ولا مقصر ، فصاحوا فيه ماذا تريد يا عبد المطلب • قال : انى أذبحه ، فهال الأمر قريشا ، وفزع اخوته ، وقد أضعفت عزمتهم وطاعتهم الأولى ، ومحبة أخيه ، ولكن لم تضعف عزيمة الشيخ القادى ، الوفى بنذره وأن كان الفداء أحب اليه منهم جميعا ، ولكنها قوة الارادة والعزيمة • والايمان بما يعتقد ، وأن كان باطلا •

أقسم الأبناء وقريش على ألا يذبحه ، وبنوا ذلك على أنه ستكون مغبته سواء على قريش خاصة ، وعلى العرب عامة ، قالوا له لا تذبحه أبدا حتى

تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه ليذبحه ، فما بقساء الناس على هذا !؟

وقالت له ابنة أخته والله لا تذبحه حتى تعذر فيه ( أى تبدى العذر عن النذر ) فان كان فداؤه فديناه بأموالنا .

ذهبوا الى عرافة فى أرض الحجاز . فأبشارت عليهم بأن يقدّموا المدية وهى عشرة من الابل ويقرع بينها وبين الذبيح ، فان كانت القرعة عليه زادوا فى الابل ، حتى تكون القرعة عليها .

أصاخوا الى صوّتها ، واجمعوا الأمر ، ثم قربوا عشرة من الابل وعبد الله الذبيح ، فقرعوا بينها ، فكان السهم على عبد الله ، ثم زادوا حتى صارت عشرين ، فكان القدح أيضا على عبد الله ، فزادوا حتى صارت ثلاثين ، ولكن خرج القدح على عبد الله أيضا ، واستمرت الزيادة عشرة بعد عشرة حتى وصل العدد مائة من الابل ، ثم ضربوا القدح فخرج القدح على الابل .

فقال قريش قد انتهى الأمر ، ورضى ربك بالفداء يا عبد المطلب . ولكن عبد المطلب يريد أن يستوثق من الرضا بالفداء ، فزعم الرواة أنه ضرب مرة ثانية وثالثة ، والقدح يخرج على الابل ، فنحرت الابل ، وتركتم للناس لا يصد ولا يمنع انسان .

٦٤ — وان دل هذا على صفة من صفات عبد المطلب ، فهى تدل على صفة الرجل المريد لما يفعل ، القوى فى عزمه ، الصادق فى نفسه واختياره ، وهو يدل على قوته فى البلاء ، وتحمل الصبر على ما يكره ، وان تقاضاه الصبر ذبح أحب أولاده اليه ، فاختر ، وابتلى فأحسن البلاء .

والرجل القوى ليس هو الذى يخضع ارادته لهواه ، أو عزمته لمشفقته ، انما القوى حقا وصدقا هو الذى يجعل الايمان والارادة يغلب الهوى والمحبة ، وقد كان عبد المطلب القوى ، ولا يمنع ذلك أن يكون شقيقا محبا ، فاذا أمن بفكرة نفذها بقلب قوى صابر . وبنفس مطمئنة راضية ، ولو كان مصدر ايمانه باطلا .

وكان قوى الجنان ثابت الجأش لا يضطرب ، ولا يهن ولا يضعف عند المفاجأة ، ولا تذهب نفسه شعاعا ، عندما يكون الأمر المخوف .

جاءت الحبشة بملكها ، وأفيالها ، وأقبل على منكة جيش لجب قوى

مستعد بأقوى العدد ، وبأكثر العدد ، فانخلعت القلوب واضطربت الا قلب  
عبد المطلب كبير قريش ، وسيد البطحاء ، وكان يحسن القول ، ويهرب بقوله  
فى هدأة من غير هداة فى الحق •

جاء الجيش الحبشى ، واستاق ابلا لأهل مكة ، ومن بينها ابل لعبد  
المطلب ، فذهب الى لقاء أبرهة ملك الحبش وقائد جيشهم ، ومعه الرهبة  
والطغيان ، فما اضطرب قلب كبير البطحاء ، بل ذهب اليه ، وكانت فيه  
هيبة ، وله سميت كريم ، يهايه من يلقاه . ويطمئن الى سماحته ، فعند اللقاء وقع  
فى قلب أبرهة هيبة فسأل عما جاء اليه ، فسأله أن يرد الابل ، فقال أنه  
حسبه جاء يسأل عن الكعبة ، وقال مستنكرا « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل  
عن الكعبة » فأجابه فى قوة أوقع الرعب فى قلبه بأجابته « أما الابل فأنا  
ربها ، وأما البيت فله رب يحميه » والجواب فيه ارهاب وتخويف ، اذ أنه  
يقول له « لا تظن أنك منتصر ، أو غالب ، أو مقتل البيت الذى جئت لهدمه ،  
فان ذلك فوق قدرتك ، بل فوق طاقتك ، لأنه بيت الله والله يحمى بيته ، ولن  
تنتصر ، فالله خاذلك ، جواب مرهب مفزع ، ولكن فى هدوء الحكيم ، ورفق  
الذى يزن القول ، ويعرف موقعه •

ولذلك كلام مفصل فى موضعه ان شاء الله تعالى •

## عبد الله

٦٥ — ذلك هو الجد القريب الذى تربى النبی علیه الصلاة والسلام فى حضنه ، والذى رأى فيه أول ما رأى عزة الرجال ، وحكمة الشيوخ ، وعطف الأبوة التى عوضه بها عن أبيه الذى لم تكتحل عيناه برؤيته ، ولابد ان نذكر كلمة عن الرجل الذى افتدته قريش كلها ، وهو عبد الله أعز أولاد أبيه اليه ، واقربهم منه ، لقد كان أحب أولاد عبد المطلب العشرة (١) ، وقد اتسم بالجمال فكان أجمل قريش ، وأحب الشباب اليها .

وكان فى خلقه طيبة نفس ، واطمئنان قلب ، ورضا بما يجرى به القدر مع استعداد للفداء ، ان كان ما يقتضيه لم يتردد أن يقدم نفسه لأبيه ليوفى بنذره ، فاستعد لان يذبح ، فكان الذبيح الثانى بعد جده العظيم اسماعيل ، واذا كان فداء اسماعيل بذبح عظيم كان من أمر الله تعالى ، لأن الله تعالى اختبر ابراهيم بما رأى فى المنام ، وما دام الاختبار ، فالفداء يكون بأمر الله تعالى ونهيه . أما ذبح عبد الله ، فكان بنذر من عبد المطلب ، فكان الفداء برأى أهل مكة ، فما كان من البشر يكون منهم ، وما كان من الله تعالى ، فالأمر اليه ، وكان لجمال وجهه ، ولطيب نفسه ، موضع اجتذاب الناس ، ومحبتهم ، فلم يسلموه لأبيه ، وقد أراد قتله ، ونجوه من يد أبيه الشفيق الحازم المرید القوى فيما يريد ، وان كان شديدا عليه .

وكان موضع اجتذاب النساء لوسامته وجاذبيته ، ولكنه كان العفيف الذى لا يريد الا الحلال ، ولا يبتعد عنه ، وكأنه يبتعد عن الحرام مروة ، وكرامة نفس ، لا لتنفيذ أوامر الهية ، بل أمر مروته واحتفاظ كرامته يستجيب لهما ، كأوامر المصادر الدينية .

تعرضت له امرأة ، راققتها وسامته ، وجذبتها طيبته ، فارادته لنفسها ، وربما راودته عن نفسه ، ولكنه العيوف الذى لا يشتر الا عسلا يملكه حلالا نكاحا ، ولا يريده نزوة أو سفاحا ، فيردها الشاب القوى الذى لا يستهويه الهوى قائلا :

أما الحرام فالممات دونه      والحل لا حل فأستبينه  
فكيف بالأمر الذى تبغيه      يحمى الكريم عرضه ودينه

(١) العشرة هم الحارث والزبير وحمزة وضرار وأبو طالب واسمه عبد مناف ، وأبو لهب ، واسمه عبد العزى عبد الكعبة ، والمغيرة ، ونوفل ، وعبد الله .



صان الشاب نفسه ، وصان أمانته ، وصان خلقه وكرامته ، فلم يتبدل  
كما تبدل الشباب من قومه ، لأنه أراد أن يعيش طاهرا كريما محبوبا ، لينقل  
وديعة الله تعالى للإنسانية الذي ينقل رسالته سبحانه وتعالى الى خلقه  
وذلك بزواج طاهر حلال .

### الأم :

٦٣ — كل فتاة فى قريش كانت تتمنى أن يكون الشاب عبد الله  
ابن عبد المطلب شبيه الحق — أن يكون لها زوجا ، وأن يكون لأولادها أبا ،  
وقد قارب العشرين أو يزيد من عمره عفيفا ، لم يزن بريية ، ولم يعرف عنه  
نزوع الى شر ، بل كان ينزع الى الخير ، ولا يزيد ، ولأبيه عليه حق  
الطاعة فى غير معصية ، إذ كان له ملازما ، لا يستطيع له فراقا ، ولا خلافا ،  
لأنه حب أبيه ، وصفيه المختار .

وقد اختار أبوه له زوجا آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أخى  
قصي ، وابن كلاب ، وكان أبوها سيد بنى زهرة ، كما كان عبد المطلب سيد  
بنى قصي ، ثم سيد مكة جميعها غير منازع ، لأنه محمود النقية حكيما بين  
قريش لا يطيش ، ولا يجبن ، ولا يرهق أحدا ، فكان السيد المطاع فى غير  
جبر ، ولا اعنات ، ولا تضيق ، ولقد التقى الشاب مع أبيه فى الاصحار الى  
بنى وهب بن زهرة ، إذ أن عبد المطلب كان قد تزوج هالة بنت وهب بنت عم  
آمنة ، واختار لابنة آمنة . وهى بنت عم لزوجته التى أنجب منها حمزة ابن  
عبد المطلب (١) الذى صار فى جهاده للإسلام سيد الشهداء ، وصفية أم الزبير  
ابن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك التقت فى حمزة  
ابن عبد المطلب ثلاث صلات بالنبى ، أولها أنه عمه ، وثانيها أنه ابن عم أمه ،  
وثالثها أنه أخوه فى الرضاة ، وفوق ذلك أنه ثانى عميه اللذين تصديا للدفاع  
عن النبى عليه الصلاة والسلام فى مواجهة قريش فى مكة ، ولكنه الثانى الذى  
دافع عنه لا بمقتضى حكم القرابة القريبة الوثيقة ، بل بذلك وبحكم الايمان  
بالرسالة المحمدية ، والجهاد فى سبيل الله ، فكان سيد الشهداء حقا .

وكذلك كانت صفية بنت عبد المطلب لها بالرسول قرابتان : قرابة العصب،  
وقرابة الرحم ، فهى عمته أخت أبيه ، وهى ابنة هالة بنت عم أمه ، وكانت معه  
فى الرخاء وفى الكريهة ، وفيها شجاعة آل عبد المطلب .

---

(١) ابن كثير الجزء الثانى ص ٢٥١ .

وبنو زهرة مع التقائهم فى نسب النبى فى جده كلاب كما سماه العرب ،  
وحكيم كما سماه التاريخ لما فيه من حكمة ، لم يكونوا مع بنى هاشم فى خلاف ،  
ولا منافسة جرت الى عداوة فى جاهلية أو اسلام ، بل كانوا لهم معاونين  
ومناصرين وموادين ، لا بقضاء يسيطر على نفوسهم ، ولكن مودة تربط على  
قلوبهم •

ولقد قالوا فى الأخبار ان كلابا كان ممن يؤمن بأنه سيكون نبى من  
قريش ، وكان يخطب قومه كل جمعة ينبههم بذلك (١) وان صح ذلك الخبر  
فمؤداه ان كلابا هذا كان من أشد المستمسكين بإبراهيم ، ونبى من بنى  
اسماعيل ، ولا يمتنعنا ذلك من أن نقول انه تأشب ايمانه بالله تعالى بعض اثارة  
من الوثنية الجاهلية ، فنحن لا ننفي هذا عن عقلاء العرب ، وذوى الأخلاق  
والهمة فيهم كعبد المطلب ، ومن بعده ابنه أبو طالب سيد مكة ، وحامى  
الرسول ، ومانعه من الأذى •

وآمنة تلتقى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة أمها برة بنت  
عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار بن قصى جد النبى صلى الله تعالى عليه  
وسلم •

٦٤ — وهنا يثور كلام يجيء فى أخبار عن عبد الله أبى رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم أكانت له زوج غير آمنة تزوجها قبلها أو بعدها وان  
آمنة احدى اثنتين كانتا زوجين لعبد الله •

قال ابن اسحق صاحب السيرة « فقد ذكر أن عبد الله انما دخل على  
امراة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل فى طين له وبه آثار من طين ،  
فدعاها الى نفسه ، فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين فخرج من عندها  
فتوضأ ، وغسل ما كان به من ذلك الطين » ، ثم خرج عامدا الى آمنة فمر  
بالمرأة ، فدعته الى نفسها ، فأبى عليها ، وعمد الى آمنة فدخل عليها وأصابها ،  
فحملت بمحمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ثم مر بامراته تلك ، فقال لها  
هل لك ؟ قالت لا ، مررت بى ، وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت على  
آمنة ، فذهبت بها « (٢) •

وانا نرد ذلك الخبر ، ونؤمن بأن عبد الله ما تزوج الا آمنة أم محمد  
خير الخلق والنور المنبثق فى هذا الوجود ، وانا نقرر ذلك •

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٥٤ •

(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٥٧ طبع الحلبي •

أولا : لأنه خبر انفرد بذكره ابن اسحق ، ولم ينقله ، ولم يأت في كتب السنة الصحاح ، ولو كان عبد الله له زوج أخرى لاشتهر ذلك ، ولذكر في الأخبار ، كما ذكر خبر زواج عبد المطلب المتعدد ، وأولاده من كل زوجة تزوجها ، وبيان نسبها ، ومن تنتمي اليهم ، وما كان عبد الله أبو سيد الخلق بأقل شأننا من أن يعرف زواجه الأول ، والثاني من عبد المطلب ان كان قد عد الأزواج ، وقد علا شرف عبد الله بأبوته لمحمد ، فليس بأقل من أبيه الكريم ، والسيد العظيم .

وثانيا : أن هذه الزوج المزعومة لم تذكر متى كان زواجهما منه ، وما أحوال ذلك الزواج لو كان حقا ، وما الذي انتهى إليه ، ولماذا تزوج أخرى في هذه السن المبكرة ؟ ؟

ان عدم ذكر شيء من هذا في ذلك الخبر يجعله غير قابل للتصديق ، وهو غريب في ذاته .

وثالثا : أن المذكور في السير أن المرأة المشار إليها في السير كانت قد طلبت أن يصيبها ، ولم تذكر زواجا ، وأنه أجابها بالاستنكار ، وقال البيهقي المشهورين عنه اللذين يفيدان أنه لا يقبل الا المحلل الذي يسوغه له عرضه وكرامته ، وشرف أسرته ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

ورابعا : أن الخبر يحمل في نفسه دليل بطلانه ، لأنه يذكر أنها طلبته وهو مغبر بطين ، فلم ترض ، وكان المعقول وقد طلبها طلب الرجل لامرأته وأنها مانعته حتى يغتسل ، وأنه اغتسل أن يذهب إليها ، وإذا عاد إليه بعد أمانة وهي إحدى زوجتيه ، فانه ليس لها أن تمتنع عليه لأنها زوجته ، فكيف يقال من بعد انه رضيت به لغرة نور في جبينه ، ولو كان ذلك هو السبب ، ما منعها عند اجابته وعلى ثيابها طين ، لأن الأساس في نظرها أن تصل الى أن يكون النور في رحمها لا يمنعها غبار طين أو نحوه .

فالخبر مضطرب في مبناه متناقض مع العقل في معناه ، فيرد جملة وتفصيلا .

### صفات سامية في أمانة :

٦٥ — اتسمت أمانة كما يبدو من أخبارها ، أنها كانت صبوراً ، وكانت تشبه البتول في سموها ، وفي اصطفاء الله تعالى لها في أن تكون أما

لسيد البشر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما اصطفى مريم البتول لتكون  
أما للمسيح عليه السلام ، ولكن أمانة ، ولدت محمد وحملت به كسائر البشر •

وكانت شبهها بالبتول فى الصبر ، وفى خلاصها من فتن الزواج ، وكونها  
حملت صاحب اكبر رسالة فى هذا الوجود •

انها منحت زوجا مرموقا محبوبا تتمناه كل فتيات عصره ، ولكنه  
سرعان ما غادرها بعد الزواج بمدة قصيرة ، قدرها بعض الاخباريين بانها  
ثلاثة أيام او ثلاثة أشهر ، سافر ليمتار لاهله من قريش تمرا ، فذهب لأخوال  
أبيه بنى النجار ، ومات هناك •

فهذه الأم الصبور على فراق زوجها الشاب ، ولم تشتت عسل الزواج  
ورضيت الحرمان فى سبيل نفع قومها ، ان ذهب ليجلب لهم رزقا ، والمرأة  
الفاضلة ترضى باغتراب من تحب اذا كان الاغتراب لنفع قومها ، واصلاح  
حاله ، وارتضت صابرة ، أن يولد ولدها الحبيب فى غيبة زوجها الحبيب  
التي لم تلبث ان نالته حتى بعد عنها ، فكان الرضا بالانتساب اليه يغنى عن  
المتعة بقربه ، واكتفت من متعة هذا الزواج الطاهر بمتعة قرّة عينها وادها  
الحبيب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعاشت مطمئنة الى امل اللقاء ،  
وأن يجمع الله تعالى الشمل المتفرق كما أراد رب العالمين ، ولكن الله جلت قدرته  
أراد اختبارها فأفقدوها زوجها فى غربته ، فكانت الصابرة الكريمة القائمة  
على تربية ولدها ، الراضية بأمر ربها من غير أن يعرف عنها تملل بحياتها  
وعيشها •

ولما استغنى ولدها عن المراضع شدت رحالها مع وليدها ، وقطعت  
القيافى والقفار فى مشقة لا يقدر عليها الا الصابرون ، وذهبت الى يثرب  
لترى قبر زوجها الذى اختيرت له وهو مرمى الأنظار والحبيب فى مكة ،  
وأبى القدر الحكيم الا أن ترى بعد ذلك رسمه المدفون فيه ، وهى فى كل هذا  
الصبور المطمئنة الى قدر الله تعالى العادل : « لا يسأل عما يفعل ، وهم  
يسألون » •

ومكثت هناك بجواره مدة لا تقل عن ثلاث سنين كان فيها متاع حسن  
بالنسبة لها ، ان كانت قريبة من زوجها الحبيب ، وقد ارتضت ذلك ،  
واطمأنت نفسها ، فهى الصابرة الآمنة كاسمها ، الشريفة كقومها ، الكريمة  
كمحتدها •

ويظهر أنها لم ترد أن يبعد ابنها عن قومه ، وهم أشرف مكة ، ولم تكن التى تضمن به على جده، فهى تؤثره على نفسها دائماً وقد احتملت المشقة وأخذت تقطع الفيافى والقفار ، وليس معها الا جارية تعينها على مشقة الطريق ، وتكون لها رفيقة مع بعد الشقة ، وتعاونها فى حضانة الغلام النورانى .

ولكن هذه المجاهدة فى سبيل الوفاء ، والاخلاص للولد ولجده أجهدها الرحلة فماتت ، وهى عائدة الى مكة ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة ، وهى ان أسلمت روحها ، ودعت الدنيا تاركة عزيزها ، كما ودعت أباه من قبله ، ولكن وداعها الأول كان لعزیز الى طريق الأبدية ، أما وداعها من بعد ، فكان لولدها العزيز ، وتركه الى طريق الحياة والجهاد فيها ، ولكنها تركته الى رعاية الله تعالى مع الجارية التى صحبتها ، فرعاه الله تعالى وصنعه تعالى على عينه ، حتى وصل الى جده العظيم فى قومه فاحتضنه .

وهنا نقف وقفة قصيرة ، لننظر الى تلك المجاهدة الهادئة الصبور ، فاذا قلنا انها عاشت كالعذراء ان لم يكن الا أنها حملت سر هذا الوجود ، وكأنها أودعت أمانة النبوة لتحفظ بها ، وكأنها كالبتول العذراء ، بيد أن هذه لم تصطفها الملائكة ، عزاء من رب العالمين ان اختارها وتعهدها نبى وأقامها فى المحراب وكانت فى رعاية ظاهرة ، وأما أمانة بنت وهب فقد خوطبت بلسان الفطرة المستقيمة ، وعلمت بحكم الباعث فى نفس طاهرة أنها حملت أمانة ، واستمرت الأمانة معها فى رعاية الله تعالى ، وهى حاملة ما حملت غير وانية ولا مقصرة ، ولا هادى يهديها الا ما انبعث فى نفسها من نور الفطرة ، والاحساس بعبء الأمانة .

## الجنين المبارك

٦٥ — ان أحداث هذا الوجود تسير على مقتضى ناموس كونى ثابت عند رب العالمين قد أراده الله تعالى بحكمته وتخيره بإرادته ، وأقامه بقدرته ، وليس للمصادفة حكم عند الله ، وانما حكمها لا يتجاوز ما عند الناس ، لأنهم يربطون الأسباب بمسببات بحكم العادة ، ويطبقون عليها نظام قانونهم المحسوس المعلوم ، فإذا خالفه قالوا انه مصادفة ، وهذا نظر الذين يدركون الماديات ، ولا يدركون ما وراءها ، ويحكمون بالمحسوسات ، ولا يحكمون بأن ثمة سلطانا قاهرا لخالق الأسباب والمسببات ، وأنها لا تقيد إرادته ، بل هو الذى يقدرها بحكمته .

وقد صرح سبحانه بأن أهل القرى لو آمنوا واتقوا لأنزل لهم الرزق مدرارا ، فقال تعالت كلماته ، « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » .

وصرح سبحانه بأنه أنزل الرجز على الذين ظلموا من آل فرعون ، وقد ربط الله تعالى ذلك بعصيانهم ، فقال تعالت كلماته فى قصصهم « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه إلا أننا طأثرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون ، فانتقمنا منهم ، فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

وان هذه النصوص الكريمة تدلنا دلالة قاطعة على أن الله ينزل البركات لمن استقاموا على الطريقة ، ان سلكوا طريق الوصول الى الخير وتوكلوا عليه سبحانه حق التوكل ، وأنه يصيب الأقوام بالرجز والحرمان والبلايا ان هم طغوا وبغوا ، فى ترتيب محكم سنه سبحانه وتعالى وأراده ، وان خالف ما نعلم من الأسباب والمسببات .

لسنا نقول مقالة قداماء الصين من أن الكون يضطرب ، وما فى السماء يختلف اذا عصى ابن الأرض وأفسد ولم يصلح ، فان ذلك كلام قوم وثنيين يؤمنون بالمحسوس ، ولكننا نقول مقالة المؤمنين ، ان مدبر الكون يجرى الأمور

على مقاديرها بما قدره سبحانه وأراد ، وعلى ما ارتضاه من نظام « لا يسأل عمل يفعل ، وهم يسألون » \*

٦٦ — سقنا هذا الكلام لتوضيح أن محمد بن عبد الله قد كان وجوده بركة على قومه من وقت أن علقت به أمه الى أن قبضه الله تعالى اليه ، وأن البركة التي آتاه الله تعالى لقومه مباشرة من وقت العلوق به في بطن أمه ، كانت خيرا على الانسانية كلها ، لأنها حمت البيت الذي كان أول بيت للناس ، وهي كعبة المسلمين ، وهو المكان المقدس الذي قدسته الأديان كلها كما أسلفنا من قبل .

وقد كان انقاذ البيت ، وهو في بطن أمه ، إذ أن أبرهة ملك الحبشة واليمن أراد اقتلاع البيت من مكة وهدمه ، وأن يبنى بدله في اليمن ليكون ذلك البيت الجديد هو مزار العرب ، ومثابتهم وأمنهم كما كان البيت ، وفي ذلك مصادمة لدعوة ابراهيم عليه السلام ، إذ يقول : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » \*

وقد استعد بخيله ورجله من قبل الحمل بالنبي ، وساور مكة وأمّه حامل به ، وقد ردهم الله مدحورين ببركة الجنين الذى بعثه الله تعالى برسالة تشرف البيت الحرام وتحميه ، ولنخرج على ذلك بكلمة موضحة موجزة \*

## أصحاب الفيل

٦٧ — آل أمر اليمن الى رجل من الحبشة اسمه أبرهة ، وصار لها حاكما بأمره ، وبنى بها كنيسة فخمة بصنعاء سماها القليس ، وأراد أن يحج اليها العرب ، وخاصة النصارى منهم ، فلم يؤثروها على البيت الحرام ، ولم يستبدلوا به ، وبعد بنائها بعث الى النجاشى بالحبشة ، وهو لا يزال يعتبر نفسه تابعا ، وجاء فى هذا الكتاب « انى بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها ملك قبلك ، ولست يمنت حتى أصرف اليك حج العرب » \*

ولكن رجلا من العرب أدرك هذا المراد ، فأراد تحقيقها ، وأحدث فيها شيئا استهانة وسخرية \*

فلما رأى أبرهة اعتقار العرب لها ، واستمرارهم على الذهاب الى البيت الحرام من غير وناء ولا تقصير لم يجد بدا لتنفيذ ارادته الا أن يهدم

البيت الحرام بجيش يسيره مجهزا بأعظم عدة ، وخرج بالفييل الذى يستخدمونه فى الحرب مع الابل والخيول .

أفزع ذلك العرب وأعظموه ، وراوا مدافعته حقا عليهم فنفر منهم نفر بقيادة بعضهم وهاجموا أبرهة ، ولكنه هزمهم ، ومضى قاصدا البيت الحرام ، لا يقاومه أحد من العرب الا هزمه ، واستمر سائرا لا يلوى على أحد من العرب الا أخضعه .

وصل الى الطائف ، وقد راوا ما حل بغيرهم فمالئوه ، وخصوصا انهم كانوا ينفسون على قریش ما كسبوه من شرف لقيامهم على سدانة البيت . وحاولوا أن يجعلوا مكان تقديسهم بيتا بنوه لئلا الههم المزعوم .

أهم الأمر من بمكة من قریش وكنانة وهذيل ، وسائر من كان بها ، وعلموا أنه لا قبل لهم بمقاومته لما عنده من قوة ، ولأن الانتصارات المتتالية فى طول طريقه الى مكة زادت قوة ، وزادهم خوفا ، فسكتوا حتى يكشف المخبوء فى قدر الله تعالى .

ولعل الفزع قد غلب عليه مما علم من منزلة للبيت فى الكتب المقدسة . ومنها كتب النصارى التى أشارت الى ذلك ، فلم يرد أن يستمكن من البيت عنوة ، بل أراد أن يسلمه له أهله ، لا ليزيد بناءه ، بل ليهدمه ، فان فعلوا كان ذلك مبررا فى زعمه .

ومهما يكن فانه قد تردد فى القتال ، أو أراد أخذه بسلام ، فأرسل رسولا الى مكة ، وقال له سل من سيد أهل هذا البلد وشریفهم ، ثم قل له « أن الملك يقول لكم انى لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا له بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم : فان هو لم يرض الا حربى فانتنى به » .

ذهب الرسول الى مكة ، وعلم أن سيد البلد وشریف مكة هو عبد المطلب ابن هاشم قبلغه الرسول ، فأجابه عبد المطلب أجابة سليمة ، ولكن فى طيها ايمان بالله رب البيت ، وذلك لا يخلو من ارهاب بقوة الله .

قال عبد المطلب للرسول : « والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه » .



كان هذا الكلام السهل اللين يخفى فى نفسه انذارا شديدا لرجل كتابى نصرانى ، لأنه بهذا الكلم اللين ينبهه الى أنه لا يحارب أحدا من أهل مكة انما يحارب الله ، ويهدم بيتا بناه بأمر الله أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، فهو مع هذا اللين يتضمن تهديدا يروع من كان عنده اعتقاد بالله ، وايمان برسالته •

وقد كان بلا ريب لذلك الكلام وقعه ، ومن الكلام الهادئ ما يفعل فى النفوس مالا تفعله المقاومة بالسيوف ، وخصوصا اذا كان الكلام لمن تعود الانتصار فى الحروب ، وهزيمة من يدافعه ، ان فى هذا الكلام تهديد بحرب لم يألّفها ولم يعرفها ، وهى حرب الله ، وحرب أبى الأنبياء •

٦٨ — استاق جيش أبرهة ابلا لعبد المطلب ، وقد طلب هو لقاءه فلقية ليؤكد ما قاله لرسوله بالمقول المتضمن فعلا ، اذ قرر أن يطالبه برد الابل التى استاقه جيشه بعلمه أو بغير علمه •

التقى عبد المطلب المهيب غير المرهوب بعد أن علم أبرهة قوله •

ولقد كان عبد المطلب من أوسم الناس وأجملهم وأشدّهم هيبة ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ، فنزل عن سريره ملكه وجلس بجواره ، ثم قال له بلسان الترجمان :

قل حاجتك • فقال للترجمان : حاجتى أن ترد لى ابلى مائة بعير أصابها ، فقال أبرهة كنت أعجبتنى حين رأيته ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى • أتكلمنى فى مائة بعير لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه •

فقال عبد المطلب يضع أبرهة أمام الله تعالى وجبروته الذى فوق كل جبروت ، أنا رب الابل ، وأن للبيت ربا سيمنعه • قال أبرهة ، وقد غلب عليه الفزع : ما كان ليمنع منى • قال عبد المطلب أنت وذاك ، لا شك أن عبد المطلب يهدده بالله ، أولا بتأكيد أن الله مانع البيت ، وثانيا بأن قال له أنت وذاك ، كان التهديد واضحا ، وأن كان هادئا ، ولعل الذى قوى وقعه هدوءه ، فالهدوء يخاطب النفس فتعتبر ، خصوصا لمن تعود الانتصار المادى الذى يكون فيه ايمان فى الجملة بالغيب ، وأبرهة نصرانى •

عندئذ تحقق رجاء عبد المطلب فى ربه ، وتحقق أمر الله ببركة الجنين الذى حل فى بطن أمه ، وهو سيد الخلق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

أرادوا بالفيل أن يسير متجها الى البيت الحرام ، فوقف ولم يسر اليه وحبسه الله تعالى عنه ، فوجهوه الى اليمن ، فاتجهه ، فوجهوه الى الشام فاتجه ، ثم أرادوا أن يوجهوه الى البيت ، فامتنع (١) ولهذا كانت ارادة الله أن ينجو البيت ببركة البيت ، بركة الجنين المستكن فى الغيب المستور .

ولو أن أبرهة اعتبر واعتزم العودة الى اليمن لرجع من الغنيمة بالاياب ، ولكنه اعتزم تنفيذ نيته ، فلم يبق الا ان يأخذه الله تعالى اخذ عزيز مقتدر ، فأرسل الله تعالى طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، كما قال سبحانه وتعالى فى سورة الفيل : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

اتتهم رياح عاصفة ، ومعها طير جاء جماعة بعد جماعة ، ترميهم بحجارة صلبة شديدة قوية تنفذ فى الجسم ، لا تبقى فى ظاهره ، بل تدخل فى باطنه ، وراء جلده ، وقد جعلتهم كعصف مأكول ، أى كبقل اكل لبه ، وبقي قشره ، وقد قال علماء الاخبار ان تلك الحجارة الصلبة التى أرسلها الله تعالى بريح عاصف كانت صغيرة تشبه حب العدس ، وأن الحليز كان يحملها فى منقاره ، وفى رجليه .

ولقد قال بعض الكتاب انهم أصيبوا بالجدرى قرح أجسامهم ، ولعل جرثومة ذلك الداء الوبيل كانت فى الأحجار التى رمتها الطيور التى جاءتهم وباء وبلاء ، واهلاك ، وقد كادوا من الشر كيدهم ، ودبروا بالفساد أمرهم ، وتحذوا بيت الله وهو أول بيت وضع للعبادة ، والذي كرمه الله وباركه .

وليس عندى ما يمنع أن يكونوا قد أصيبوا بالجدرى بما رماهم الله تعالى به ، فقد قال ابن اسحاق فى سيرته « حدثنى يعقوب بن عينية أنه أول ما رميت الحصبة والجدرى بأرض العرب كان فى ذلك العام .

هذا كلام مقبول اذا قلنا ان الحجارة كانت تحمل معها جرثومة هذه الأمراض الفتاكة ، ولكن ما لا يقبل هو القول بأن الطير هى جراثيم ذلك المرض ، لأن هذا يكون مخالفا لنص الآية الكريمة ، إذ أن نص الآية الكريمة يفيد أن الطير رمتهم بحجارة قوية شديدة .

---

(١) الاكتفاء ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ومن تاريخ البداية والنهاية

لابن كثير .

٦٩ — ان ذلك العذاب الأليم الذى أصابهم فى الدنيا ، فبعد أن أرسل الله تعالى عليهم الطير الذى جاء جماعة بعد جماعة ، ورماهم بالحجارة الجامدة التى كانت تنفذ الى جسمهم ، وتضع فيه جراثيم الأمراض الوبيلة كالحصبة والجدرى ، صاروا يتساقطون فى الطرق ويهلكون كل مهلك ، وقد وصف حالهم ابن اسحاق فقال : « خرجوا يتساقطون ويهلكون بكل مهلك على كل منهل • وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة بعد أنملة ، كلما سقطت أنملة أتبعها منها ، مسده ( صديد ) تمت قيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون •

عاد من حيث خرج ، ولكن فرق ما بين الخروج ، أنه فى الخروج كان قويا فى بدنه مغرورا فى نفسه يصحبه جيش لجب ، يحسب أن لن يغلبه أحد ، وقد غلب من قاومه حتى اذا جاء الى رحاب الله يتحدى الله تعالى فى بيته ، ويريد هدمه ، وقد جعله الله تعالى مباركا ، عاد مذموما مدحورا ، مقصوص الجناح لا مجازا ولكن حقيقة ، فقد تقرح جلده ، وتساقط ، وذهب تدبيره وكيدته فى ضلال كآته العماء •

وقد استجاب الله تعالى لعبد المطلب. وهو أخذ بحلقة باب الكعبة يقول :

لا هم ان العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لا ينيلن صليبيهم وصلبيهم ومحالهم غندرا محالك

كانت واقعة الفيل هذه وآمنة الطاهرة كالبيتول حاملة قد أودعها الله تعالى خير الخلق محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فكان مباركا على العرب ، وعلى الناس أجمعين من يوم أن حملت به أمه •

وما حملت به كرها ، وما كان فصاله كرها ، فما كانت تحس بشدة فى حمله وما أحست بشدة فى فصاله ، ولقد قالت السيدة آمنة الطاهرة : « لقد علقت به ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى خرج معه نور ، ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه » •

## ولد الهدى

٧ — سبقت محمداً في الوجود بركاته ، فقد ولد كما يقسول أكثر الرواة بعد خمسين يوماً من مغادرة الفيل وأصحابه مدحورين ، بعد أن أباد الله تعالى أكثرهم ، وقد ابتلعتهم الأرض ، بعد أن غرهم الغرور .

وقبل أن نخوض بالقول في مولده صلى الله عليه وسلم ، نقول انه ولد وأبوه غائب ، ذلك أننا ألقنا في القول أنه ترك زوجه وقد ذهب في غير ليمتار لأهله ، وليتجر فيكسب رزقه ، فسافر في غير لقريش ، وكان الوفي الأمين فانتبهز فرصة ذهابه الى يثرب ، وزار قبر جده هاشم الذي كان يهشم الثريد ، الذي يأكل منه الحبيج ، ولكنه لم يعد من غربته ، بل أصابه المرض في بيت بنى النجار ، وعاد العير الذي كان معه ، وتركوه حزانى على تركه مدنفاً بمرض عضال في بيت بنى النجار أخوال أبيه ، وأصهار جده الكريم ، وعادوا الى مكة ، وأخبروا أباه الذي حذب عليه ، وزوجه الصبور التي صبرت غيبته ، وجمل لها الصبر لأنها كانت ترجو لقاءه ، ولكن حرمت من هذا ، ففطع الأمر عليها ، ولكنها الصبور مع رقة صباها .

وان عبد المطلب أرسل الى ابنه الحبيب كبير أولاده الحارث ، فذهب اليه ، وقد رأى فراق نفسه ، وقيل أن الموت سرى اليه ، ولم يجده أخوه الا ميتاً .

فاذا كان الأب قد ثكل ابنه الحبيب فتجلد ، فقد فقدت الأم الزوج الحبيب فكان منها الصبر المرير ، ولكنه مع ذلك كان الصبر الجميل ، وهو الصبر الحبيس الخالي من الضجر والأنين .

### ولادته قبل وفاة أبيه :

٧١ — أكثر الرواة على أنه ولد صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبيه عبد الله ، ولكن روى أنه توفي قبل أن تضع أمه حملها ، ومنهم من أقصر المدة ومنهم من أطالها ، حتى أوصلها الى نحو ثلاث سنين ، فقد قال ابن حزم الظاهري ما نصه :

« ولد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ، اذ مات أبوه ، وهو لم يستكمل ثلاث سنين ، وماتت أمه ، وهو لم يستكمل سبع سنين » .

وان هذا القول يقتارب مع من يقول ان أباه «عليه السلام» مات بعد ولادته عليه الصلاة والسلام بنحو ثمان وعشرين شهرا ، ولكن كلام ابن حزم يومئذ الى مدة أطول ، لأن الثمانية والعشرين شهرا هي سنتان وثلاث ، ولا يقرب من ثلاث سنين •

فقد روى عن عوانة بن الحكم أنه قال هو وأبوه ان عبد الله توفى بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهرا ، وقد قيل توفى بعد ولادته بسبعة أشهر •

واننا نستبعد كل الاستبعاد أنه توفى والنبي عنده نحو ثلاث سنين ، كما نستبعد أنه ولد من بعده ، لاجماع الرواة على أنه عليه الصلاة والسلام استرضع في بنى سعد ، وهو يتيم ، ومن كان أبوه حيا لا يتيم ، وإذا كانت الرضاعة أقصى مدتها في الغالب حولان كاملان لمن يريد أن يتم الرضاعة ، وقد أرسل الى المراضع في أولها أو بعد مضي وقت قصير من الولادة ، فلا يمكن أن يسمى عند أخذه وأبوه حيا يتيم ، واجماع الرواة على وصفه باليتيم عندما أخذته حليمة التي أرضعته •

وان الذي رجحه الرواة - وعليه الكثرة الكاثرة - أن أباه توفى وأمه حامل به • وقد قال ابن كثير في تاريخه « والمقصود أن أمه حين حملت به توفى أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه على المشهور » •

وقد روى ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ، قال خرج عبد الله بن عبد المطلب الى الشام في عير من عيرات قريش ، ففرغوا من تجارتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالي بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضا شهرا ••• فبعث اليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ، ودفن ••• فوجد عليه عبد المطلب وأخوته وجدا شديدا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حمل ، ولعبد الله يوم توفى خمس وعشرون سنة • •

ويؤخذ من هذا الكلام أن رحلة عبد الله الى التجارة كانت فور زواجه أو بعده بقليل كما تومئ عبارة ابن كثير • وأن عمره يوم الوفاة كان خمسا وعشرين ، وكانت رحلته بعد الزواج بقليل ، ويستفاد من هذا أنه كان الزواج بعد العشرين وقرب الخامسة والعشرين •

ولقد قال الواقدي في وفاة عبد الله وكونه قبل ولادة ابنه الكريم :  
« هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله عندنا » وهو المشهور ، كما نقل  
الحافظ ابن كثير رضي الله تبارك وتعالى عنه (١) .

## ظواهر تعلن مكانته

٧٢ — تكريم الله تعالى له ظهر وهو جنين كما رايت ، وظهر واهم  
حامل به ، وكان وجوده على ظاهر الأرض كان أمرا خارقا للعادة ، في  
بركته على قومه برد أصحاب الفيل وكيدهم في تضليل ، وفي الحمل به ، إذ  
لم يصبها شيء من أعراض الحمل الشاقة ، وكأنه مر في قلبها مرور الماء في  
الميزاب ، وإن طال حتى مدة الحمل .

ثم كانت الأمور تسير سيرا يدل على أمور ربانية أكنها الغيب لذلك  
المولود الجديد ، فأبوه يلقي وديعة الله في أمانة الصبور المطمئنة ، وما كان  
الزواج إلا ليلقى هذه الوديعة ، ويعرب عنها سافرا مغتربا ، وقبضه الله  
تعالى بعد أن ألقى هذه الوديعة ، وكأنه خلق بما يشبه كلمة الله تعالى  
« كن فيكون » .

وينزل من بطن أمه مكتملا ، كأنه تجاوز السنة ، وهو قد نزل في المهد ،  
لم يتناول له حجر النساء ، فأمه المصادقة تقول أنه وقع على الأرض معتمدا على  
يديه كما نقلنا ، وهو في هذا شبه الساجد ، وقال بعضهم أنه نزل جاثيا  
على ركبتيه .

وعندما ولد أرسلت أمه الكريمة إلى جده عبد المطلب تبشيره بولد قد  
رزقه ، فقالت في رسالتها : « قد ولد لك غلام فأنت فانظر إليه » . وقد  
أضافته إليه مسرية له عن حزنه لموت ولده عبد الله الذي وجد عليه وجدا  
شديدا ، فلما جاءها أخبرته بالولادة ، وبرؤية صادقة تعددت روايتها مما يدل  
على مكانته ، وبذلك سرت عن نفس حميها ، وهي الحزينة ولكنها الصبور  
التي تواسى غيرها في مصاب أبيه ، ومصاها ، وإن كان أعظم وأسبق احتمالا ،  
وجد ما يسهل احتماله أوجد ما يعوض ، وهو المولود الذي يسمو على كل  
الخليقة ، وهو سيدها ، وهو محمود الوجود ، وهو حمد الكون وتسبيحه ،  
وإذا كان الله تعالى قد أعطى به البركة على قومه ، فقد كانت أرهاصات

التكريم تبدو وهو جنين أيضا فى بطن أمه ، لقد رأت أمه فيما يرى النائم رؤيا صادقة ، والرؤيا الهام من الله تعالى ، أو توجيه منه سبحانه يشعر بها من تصفو نفسه ، وله اتجاه روحى ، ورأت حين حملت به كأنه خرج منها نور أضاعت له قصور الشام ، وقد ورد ذلك فى حديث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح النسبة .

قد ذكر ابن اسحاق أن كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به فقيل لها : « انك حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع الى الأرض فقولى :

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد (١)

ثم سميه محمدا .

وقد يقول قائل ، وكيف نثبت التكريم بالرؤيا وقد تكون أضغاث أحلام ، وهى لا تثبت شيئا ، فنقول فى الاجابة عن هذا السؤال العارض : ان الرؤيا الصادقة تشبه الالهام أو كأنها وحى ، أو هى جزء من الوحي كما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « الرؤيا الصادقة جزء من أربعة وأربعين جزءا من النبوة » وثبت فى الصحاح أن أول ما جاءت به ارهاصات الوحي كانت الرؤيا الصادقة « فما كان يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح » .

هذا ما تقوله الحقائق الدينية فى الرؤيا الصادقة ، ويقول الذين يتكلمون فى الأرواح فى هذا الزمان ان الرؤيا الصادقة سبحات روحية فى الملكوت الأعلى .

وانه بلا ريب هناك فرق ثابت بين الرؤيا الصادقة وأخلاق الأحلام التى تكون صورة لحال مادية أو عصبية للنائم ، كتخمة تصيبه من كثرة الطعام ، أو أن يكون مخمورا ، أو أن يكون مضطرب الأعصاب ، أو مضطرب النفس ، أو مشغولا بأمر من أمور المادة أو الشهوة ، فان هذا يكون أخلاقا لا تخبر عن شيء ، ولا تصدق فى شيء ، وهى التى تسمى أضغاث أحلام ، والتى لا يكون لها تأويل ، ولا يعيرها خبير .

واذا كان من الناس من ينكر الرؤيا الصادقة ، ويكذب الأحلام باطلاق ، ويقول انها صورة للعقل الباطن ، فذلك لأنه لا يمكن أن يدرك معنى

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩٣ .

الرؤيا الصادقة ، اذ لم يجربها ، لأن الله تعالى لم يؤته قوة روحية ولم يؤته طاقة نفسية يستطيع أن يتغلب بها على خواطر اللذات والشهوات . وهو لا ينام الا مخمورا ، أو مبطونا ، أو تكون نفسه واقعة فى الأهواء والشهوات ، فيكون ليله كنهاره ، ونومه كصحوه ، وحياته كلها صورة للمادة فى النوم واليقظة على سواء .

٧٤ — وترى من هذا الكلام الذى سقناه من بشارات التكريم فى منام امه البتول الطاهرة الصبور أن تسميته محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان بأمر من الآتى التى آتاها فى هذه .

وقد توافقت مع رؤيا أخرى راها سيد قريش عبد المطلب الذى كان قد اشتهر بالنسك فى قومه ، وان لم يكن نسكا فيه حرمان ، بل نسكا فيه ما يجمل بالبروة ، وقد كان صادق الرؤيا ، قيل لعبد المطلب لم سميت محمدا فقال شيخ قريش الطيب : « انه رأى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء ، وطرف فى الأرض ، وطرف فى المشرق ، وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، واذا اهل المشرق والمغرب يتعلقون بها » .

واراد عبد المطلب أن يعرف مدى هذه الرؤيا التى راها ، فسأل من يعبر له رؤياه ، فقيل له انه يكون مولود من صلبه يتبعه اهل المشرق والمغرب ، ويحمد اهل السماء والأرض (١) ، اجتمعت رؤياه ، ورؤيا الأم الرؤوم التى قصتها على الجد الكريم عندما بلغت بالمولود الذى بلغته بانه مولوده فارتضى الاسم الذى أفهمت به رؤيا الأم وهو محمد .

صلوا عليه وسلموا تسليما      قالله قد صلى عليه قديما  
وحباه بالخلق العظيم فأبشروا      يا مادحين لذاته تكريما

لم يكن هذا الاسم معروفا عند العرب ، ولقد ذكر علماء السيرة انه لم يسم به أحد فى الجاهلية الا ثلاثة تسموا بهذا الاسم فى عصر ولادة النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد قال صاحب كتاب الروض الأنف فى ذلك : « لا يعرف من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله تعالى عليه وسلم الا ثلاثة طمع أبائهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وقرب زمانه ، وأنه يبعث فى الحجاز

(١) الاكتفاء ص ١٦٨ من الجزء الأول .



أن يكون ولدا لهم ، ذكرهم ابن فورك فى كتاب الفصول ، وهم محمد ابن سليمان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أحيحة الجلاح ، والآخر محمد بن حمران بن ربيعة \* وكان أباء هؤلاء قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم ان ولد له ولد سماه محمدا \*

سقنا هذه القصة لنثبت منها ندرة الذين سموا ولدا لهم محمدا ، ان لم يكن معروفا ذلك الاسم عند العرب ، ونكاد نوافق على حصر العدد فى ثلاثة ، واذا فرض وكان أكثر فانه لا يتجاوزه بكثير ، سواء أصبح السبب الباعث على التسمية أم لم يصح ، فان تلك التسمية لم تعرف الا قرب مولى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانا نميل الى صدق هذا الباعث لأن التبشير برسول اسمه أحمد ، كان معروفا فى أوساط أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وان أنكر أكثر اليهود رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دعوته لهم : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم » \*

وقد اختبرت هذه التسمية من الله تعالى ، ولنذكر اشارة الى ما فى هذه التسمية من معنى يفهم بمقتضى قراءة اللغة ، ذلك أن صيغة التفعيل تدل على تجدد الفعل وحدوثه وقتا بعد آخر بشكل مستمر متجددا أنا بعد أن ، فيقال اذا تكرر ذلك الفعل \* وعلى ذلك يكون محمد ، أى يتجدد حمده أنا بعد أن بشكل مستمر حتى يقبضه الله تعالى اليه ، وذلك لأنه تكون منه فعال الخير المتجددة وقتا بعد آخر ، فهو لا يننى عن فعل الخير الذى يقتضى ثناء وحما ، ولا عن قول المصدق الذى يقتضيه ، ولا عن الجهاد فى الحق الذى يستمر عليه الى أن ينشر الحق وهو شرع الله تعالى ، ويخلد الى يوم القيامة \*

وكان من أسماء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم - أحمد - وهو الاسم الذى بشر به فى الانجيل ، وبشر به موسى عليه السلام ، وهو أفعال تفضيل من الحمد والثناء ، فهو كثير الحمد ، وكثير الثناء والذكر لله تعالى \*

ولعله لم يكن التبشير فى الانجيل وعلى لسان موسى عليه السلام الا بأحمد ، الا لأنه اشتهر بذلك فى حياته وخصوصا بعد أن بعث ، وكثرت دعوته ولأنه اسم لا يشاركه فيه أحد ، ولو نادرا ، فيكون التبشير متجها اليه \*

تاريخ مولده :

٧٥ — الجهرة العظمى من علماء الرواية على أن مولده عليه

الصلوة والسلام فى ربيع الأول من عام الفيل فى ليلة الثانى عشر منه ، وذلك لأن الفيل وجيشه ساروا مكة فى المحرم ، وولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد مقدم الفيل بخمسين يوما ، وبذلك جمع الأكثرون على انه ولد بعد مساورة جيش أبرهة بخمسين يوما •

وقد وافق ميلاده بالسنة الشمسية نيسان ( أغسطس ) ، فقد ولد فى العشرين منه ، وقد جاء ذلك فى الروض الأنف فقد قال : « ذكر أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى ربيع الأول وهو المعروف ، وقال الزبير كان مولده فى رمضان ، وهذا موافق لمن قال ان أمه حملت به فى أيام التشريق ، والله أعلم ، وذكروا أن الفيل جاء مكة فى المحرم ، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوما ، وهو الأكثر والأشهر ٠٠٠ وأهل الحساب يقولون وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان ( أى أغسطس ) فكانت لعشرين مضت (١) •

ويلاحظ هنا أمران :

أولهما : أن هناك رواية تقول انه ولد فى رمضان ، وأنه على مقتضى هذه تكون البعثة فى رمضان ، وأول نزول القرآن ، وأول نور الاسلام ظهر على وجه الأرض فيه بمولد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه يوم الفرقان اذ جعل الله تعالى كلمة الشرك السفلى وكلمة التوحيد هى العليا ، وفيه زوال دولة الأوثان ويأس الشيطان من أن يعبد فى هذه الأرض بفتح مكة المكرمة ، وطرح الأوثان من فوق ظهرها ، وحطمها •

ولولا أن هذه الرواية ليست هى المشهورة لأخذنا بها ، ولكن علم الرواية لا يدخل الترجيح فيه بالعقل •

ثانيهما : أن صاحب الروض يذكر فيما نقلنا أن الأشهر أنه ولد بعد خمسين يوما من قدوم جيش أبرهة ، ولكن هناك قول آخر مشهور وهو أنه ولد بعد خمس وخمسين ، كما فى رواية أبى جعفر محمد الباقر ، اذ يذكر أن الفيل قدم فى النصف من المحرم ، فيكون المناسب لليلة الثانية عشرة هو أن يكون قد مضى خمسة وخمسون ليلة (٢) •

وان ذلك يتفق مع التقدير الشمسى بعشرين من نيسان ، ولذلك نختار

---

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٠٧ طبع المغرب •

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٦٢ •



فانه كانت سنه عند هجرة النبی علیه الصلاة والسلام الى يثرب ٦٠ سنة ،  
والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت سنة ثلاثا وخمسين •

وهكذا ، تواردت أخبار من جهات مختلفة عن اليهود بأنهم أدركوا  
مطلع ولادة النبي عليه الصلاة والسلام ، ونحن نؤمن بأن اليهود كان عندهم  
من علم التوراة ما يجعلهم يعلمون أن النبي الأُمى سيبعث من العرب ، وكانوا  
يستفتحون به على المشركين الذين كانوا يجاورونهم في المدينة . « فلما جاءهم  
ما عرفوا كفروا به ، فلَعَنَ الله على الكافرين » •

(د) ذكر مخزوم بن هانيء المخزومي أن ايوان كسرى ارتجس ليلة  
مولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسقطت منه أربع عشرة غرفة ،  
وخمدت نيران فارس التي يعيدها المجوس ، ولم تخدم قبل ذلك بألف سنة •

ورأى أحد رجال كسرى في منامه أن ابلا صعبا تقود خيلا عربا قد  
قطعت دجلة والفرات في بلاده ، فلما قص الرؤيا على كسرى أفرغه ، فتصبر  
وأن لم يصبر ، فجمع كبار دولته وقال لهم : اتدرون فيم بعثت اليكم ؟ قالوا :  
لا الا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك اذ ورد اليهم كتاب بخمود النار ، ثم  
أخبرهم بما رأى أحد رجاله وبما هاله وقد تأولوا هذه الرؤيا ، وخمود  
النيران بأن حدثا يكون من بلاد العرب •

٧٣ — ونقف وقفة قصيرة أمام هذه الروايات التي توردت من مزايلة  
الأصنام عن أماكنها وتمايل وجوها ، واضاءة الضوء ساعة مولده ،  
وارتكاس ايوان كسرى ، وخمود نار فارس التي لم تخدم منذ ألف سنة ،  
فنقرر أن العبرة فيها بصدق الرواية لا يكون هذه الأخبار مقبولة في العقل  
فان حكم مؤرخ بعدم صدق الرواية ردنا •

ونقول في الرواية ان المحققين في علم الرواية لم يجدوا مساعا لتكذيبها  
فان الحافظ ابن كثير يروي في هذا روايات كثيرة يعلن شكه في صدق  
بعضها ، ويسكت عن سائرهما ، وقد نقلنا ما لم يشك فيه ، فحق علينا أن نقبل  
منها ما قبل ، ونرد منها ما ذكر أن فيه ريبا ، وخبر الصادق يقبل ، مادام لم  
يعرف عليه كذب ، والأحكام تبني على أخبار الصادقين ، ولو كان فيها احتمال  
الكذب لأنه احتمال غير مبني على دليل ، ومجرد الاحتمال لا يمكن أن يكون  
سببا لرد أقوال الصادقين ، والا ما حكم قضاء ، ولا أدنين متهم ، ولا ثبت  
حق ، ولا دفع باطل ، ولذلك لا يسعنا الا أن نقبل ما لم يجر فيه طعن •

واما من ناحية قبول العقل ، فانا قد بينا أن خوارق العادات تجيء

بتقدير الله تعالى الذى لا يتقيد بالعادات ولا بما يجرى بين الناس من أسباب ومسببات ، فانه خالق الأسباب والمسببات فقد يكون الرجز والمحق والخرف ، والزلازل لفساد قام به بعض الخلق ، وذكرنا الآيات الدالة على أن الله تعالى يلقي بالنعم على من يتقى ويعمل صالحا وقد تلونا من قبل قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وذكرنا أن الرجز والعذاب قد يكون بسبب فساد ارتكبه بعض الأقسام ، كما أنزل الله تعالى من الرجز على فرعون وملئه ، بما كانوا يفسدون فى الأرض .

فالذين يدعون أن هذه الأخبار غير مقبولة فى العقل ، انما ينظرون الى الأسباب والمسببات العادية التى تجرى فى أعمال بنى الانسان ، ولو علوا بأنظارهم الى ما فى الكون من كسوف وخسوف ، وما فى الرياح من مثيرات ، وما فى الأرض من زلازل وخسوف ما وجدوا لذلك تعليلا الا أن تكون ارادة الحكيم العليم القاهر فوق كل شئ الذى لا يسأل عما يفعل ، وأنه يفعل ما يفعل لحكم يريدها ، ومصالح يقدرها ، وقد ربطها بأمر يعلمها ، وهو علام الغيوب ، وتقديره هو تقدير العليم الخبير .

واذا كان الله تعالى قد أراد الكرامة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأراد أن يعلم من يطيعون به من أهل وقوم ما كرمه الله تعالى به ، وهو سينادى بالحق ، فان ذلك هو المعقول ، وغيره هو المردود ، لأنه مخالف ، لما قدره الله تعالى لهذا الانسان الذى سيعلم الانسانية كلها .

٧٧ — ولا يصح لعاقل أن يقول ان هذه أوهام سيطرت ، وخيالات خيلت ، وظنون ظنت ، لمجرد أنها خالفت مجارى العادات ، وما ألف الناس فى كل مولود ، فليس ككل مولود .

ومع ذلك فنحن نرجح صدقها ، ولا نلزم الناس بالايمان بها ، فليس من الايمان أن تؤمن بأن ايوان كسرى ارتجف ، ولا النار خمدت ، ولا أن الوجود قد استنار عند أن شرف هذا الوجود ، لأن هذه الأمور ليست جزءا مما دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الايمان به ، اذ أن ما يجب الايمان به هو ما دعا اليه ، وما تكلم به عن الله سبحانه وتعالى ، وما نطق به القرآن الكريم ، وحكم به الديان .

ولو رجعنا الى ما كتبه الأناجيل الحاضرة فى مولد عيسى عليه السلام وما ألزمت الأناجيل به للنصارى الذين يؤمنون بهذه الأناجيل التى يزعمون صدقها — لوجدنا ما تذكره السيرة النبوية لا يعد شيئا كثيرا بالنسبة لما ذكرته

الأناجيل وأوجبت الأيمان به ، ولتقبض قبضة يسيرة مما جاء فى هذه الأناجيل وما زعمته بالنسبة لولادة المسيح عليه السلام .

(أ) جاء فى انجيل متى فى الاصحاح الثانى أنه لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه فى المشرق ، وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته .

(ب) وجاء فى انجيل لوقا فى الاصحاح الثانى ، لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا ، وظهر من السحاب أنغام مطربة .

(ج) وجاء فى ولادة المسيح أيضا فى أحد الأناجيل ، لما ولد يسوع المسيح أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عينى القابلة ، وعينى خطيب أمه يوسف النجار .

(د) وجاء فى انجيل لوقا الاصحاح الثانى « وعرف الرعاة يسوع ، وسجدوا له » .

(هـ) وجاء فى انجيل متى الاصحاح الثانى أيضا « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرمودس الملك ، اذ المجوس من الشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين : « أين هو المولود من اليهود » .

هذه قبضة مما عند النصارى فى أناجيلهم ، ولا شك أن ما يذكر عند ولادة الرسول من أخبار صادقة هى دون ما يذكره هؤلاء عن مولد عيسى عليه السلام .

وانه من الحق أن نقرر أن الفارق بين ما يقولون فى مولد عيسى عليه السلام وما يقوله الرواة الصادقون من ناحيتين :

الأولى - أن ما يذكر فى الأناجيل عن حال عيسى عليه السلام أكثر غرابة ، وما يذكر لنبيينا عليه السلام أقل غرابة بكثير .

الثانية - أننا لا يجب علينا دينا وإيماننا أن نؤمن لهذه الأخبار وإن كانت صادقة ، ولكن المسيحيين يعتقدون صدق ما فى أناجيلهم ، ومن لم يصدقها يكون كافرا بها .

وإذا كان ذلك هو الحق الذى لا ريب فيه ، فليس لأحد من الذين كتبوا فى النبى عليه الصلاة والسلام أن يثيروا غبارا حول ما ذكره عند ولادته عليه الصلاة والسلام ، والا فعليهم أن يثيروا عثيرا بل أكواما من التراب ، حول

ما قيل عند ولادة السيد المسيح عليه السلام ، ولكن رضى الله عن عبد الله ابن عباس الذى يقول ، ان الانسان يرى الشظية فى عين أخيه ، ولا يرى الخشبة فى عينه هو ، وما ذلك الا لعدم الانصاف •

## ارضاعه

### صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٨ — الغذاء الأول للجنين بعد ولادته هو الرضاعة ، والرضاعة تكون من الأم ، لأن لبنها يسير مع نموه سيرا مطردا ، فكلما كبر الغلام فى المهد كبرت دسامة اللبن ، حتى يستغنى بالغذاء ، ولذلك كانت الرضاعة من الأم أولى المطلوبات من الأمومة ، فقد قال تعالى فيما شرع من أحكام : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة » فكان بمقتضى الفطرة أن تكون أمنة الأم الرءوم هى التى تتولى ارضاعه • ولكن كان لابد من يعينها بلبنه ، فقد أرضعته معها ثوية وهى جارية لأبى لهب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ناوأه العداوة لما بعث رسولا ورحمة للعالمين ، ولكن قد كان محبا لأخيه عبد الله ، ولابنه النبى الكريم محمد ، وكانت ثوية أول من أعلم أبا لهب بولادة ابن أخيه محمد ، فأعتقها لهذه البشرى الكريمة ، وكان هذا له خيرا يحتسب ، ولكن أخفاه كفره ، وانضمامه الى المخالفين المؤذنين للنبى عليه الصلاة والسلام ، وضعفاء المؤمنين •

أعانت ثوية أمنة فى ارضاعه ، وقد أرضعت أيضا حمزة ابن عبد المطلب ، وقد كان هذا سببا من الأسباب التى طلب عبد المطلب لمحمد المراضع •

وعلى ذلك نقول ان طلب المراضع للنبى عليه الصلاة والسلام من مراضع البادية له أسباب ثلاثة :

**أولها :** عدم كفاية لبنه لتغذيته ، ولعل من بعض أسباب ذلك ما نالها من حزن دفين عميق صبرت عليه من غير تبصير ، وهو موت زوجها الحبيب الطيب ، ولم يزل ألم قريش كلها لوفاته وآلم أبيه ، وآلم أخوته ، وان خففته فان المشاركة فى الأسى تخففه ولا تزيله •

**ثانيها :** أنه كان من عادة أشراف قريش أن يعطوا أولادهم للمراضع فى البادية ، ولا يرضع نساؤهم ، كما هو ظاهر الآن فى كبراء الحضر أو نوو

اليسار فيهم ، فانه لا يرضع نساؤهم الأولاد ، وان كانوا لا يرسلونهم الى الريف .

**ثالثها :** أن الغلمان اذا رضعوا فى البادية اكتسبوا غذاء طيبا ، وهواء ليس معكرا بما فى جو المدن ، فأهل الوبر أقرب الى الهواء النقى النظيف من أهل المدر .

ولقد قال فى هذا صاحب الروض الأنف ، وأما دفع قریش وغيرهم من اشراف العرب أولادهم الى المراضع ، فقد يكون ذلك لوجوه أحدهما تفريغ النساء الى الأزواج . وقد يكون ذلك منهم لينشأ الطفل فى الأعراب ، فيكون أفصح للسانه ، وأجلد لجسمه . وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبى بكر حين قال له : ما رأيت أفصح منا يارسول الله ، فقال : ومايمنى وأنا من قریش ، وأرضعت فى بنى سعد ، فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء الى المراضع الأعرايات ، ليتربوا على تحمل الأجواء ، ويتنسّموا نسيم البادية ، ويعرفوا عاداتها ، ويخششونوا بخشونتها ، ولا يذششوا فى حلية المدينة ، غير متعرضين لما تقتضيه الحياة . من تحمل الأعباء ، وما تفرضه مقتضياتها من شدائد ليكون منها الأشداء .

**٧٩ —** جاءت المراضع الى مكة من بنى سعد بن بكر يردن الرضعاء يرضعهم . وكان من عادة العرب ألا تأخذ المرضع أجرا على الرضاعة ، وان كن يقبلن من آل الطفل الهدايا والرعاية ، فتسد بعض حاجاتهن ، ويرين من العار أن يكون لهن أجر منتظم ، وسرى بينهم المثل السائر تموت الحرّة ، ولا تأكل من ثديها .

ومنهم كما جاء فى الروض الأنف من كن يقبلن الأجرة ، اذا لحت بهن الحاجة .

ولقد كان محمد يتيما لم يترك أبوه شيئا يعد ثروة ، فقد ترك خمسة جمال ، وبعض الشاه ، وأمه اسمها أم أيمن التى حضنته بعد وفاة أمه الكريمة فكان يتيما فقيرا .

وقد حضرت المراضع ترجو أن يعهد اليهن بمن يرضعنه راجيات من هذه الرضاعة الهدايا أو رضا من المال ، لا أجرة يؤجرن بها أئداءهن ، فاذا كن يرجون ما يرجون ، فانهن لا يرضعن الا أولاد ذوى اليسار ، ولذلك أعرضن عن اليتيم الفقير ، وبذلك خرج كل المرضعات بطفل من ذوى اليسار ، الا حليلة بنت أبى ذؤيب ، واسمه عبد الله بن الحارث بن كبشة ، وكان زوجها



معها ، واسمه الحارث بن عبد العزى ابن رفاعة وكان المرضعات كما قال  
الواقدي عشرا كلهن عاد بالأولاد الا حليلة ، فلما رأتهن جميعا أخذن أطفالا ،  
ولم يبق الا اليتيم الطاهر محمد بن عبد الله ، أخذته راجية الخير ، وان لم  
ترج العطاء ، ولنتركها تحدثنا كيف قبلته ، فانها تصور لنا طيب نفسها ،  
وما أفاضه الله تعالى عليها من خير بسبب بركة اليتيم الكريم ، فهي تقول :

♦ — « فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا خرجت على أتان لى قمراء  
معها شارف (١) • كانت والله ما تبض (٢) • بقطرة ، ولا ننام ليلتنا أجمع  
من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى ثدى ما يغنيه ، وما فى  
شارفنا ما يغديه ، ولكننا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فلقد  
أذمت. (٣) بالركب ، حتى شق ذلك عليهم •

حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما معنا امرأة الا وقد عرض عليها  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك  
أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول ما عسى أن تصنع أمه  
وجده !!

فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا غيرى •

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى • والله انى لأكره أن أرجع من بين  
صواحبى ولم أأخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ، فلاأخذنه •

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة •

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا انى لم أجـد  
غيره •

فلما أخذته رجعت الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى  
بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، حتى  
ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك •

---

(١) الأتان القمراء هى التى تميل الى الخضرة ، والشارف الناقة  
العجوز •

(٢) أى ترشح الناقة لنا بقطرة من اللبن نتغذى به لكبر سننا •

(٣) أى صارت مذمومة فى الركب •

وقام زوجى الى شارفنا فاذا أنها لحافل •

فبتنا بخير ليلة يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة  
لقد أخذت قسمة مباركة ، قلت والله انى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا ، وركبت أتانى  
وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على شىء من حميرهم ،  
حتى ان صواحبي ليقطن يابنت أبى ذؤيب ويحك ، اربعى علينا ، اليسست هذه  
أتانك التى كنت خرجت عليها ، فأقول لهن بلى والله انها لهى •

قالت ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد ، ولا أعلم أرضا من أرض الله  
أجذب منها ، فكانت والله ، غنمى تروح على حين قدمنا به معنا — شبعا  
لبنا ، فنحلب ونشرب منها ٠٠٠ حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون  
لرعيانهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم  
جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شبعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله  
الزيادة والخير •

٨٦ — اذا كان محمد قد اقدم باليمن والبركات على اهل محه ، برد  
أبرهة وفيله ، وجيش اليمن مدحورين ، عادوا ، فبركته بعد ولادته تسير معه  
حيث سار •

لقد رضيت باليتيم ، وصاحبها قبله ، وكلاهما طيب النفس مطمئن قانع  
مستعين بالله تعالى قانع بما يعطيه ، فجزاها الله تعالى جزاء حسنا ،  
فأطعمهم من جوع ، ودر عليهم الأثداء الجافة ، فأضاف الى لبنها لبنا كفاه  
هو وصبيها وأخصب كلؤهم بعد اجداد ، وامتلات أضراع غنمها ، فكان  
الخير العميم والفضل العظيم •

وقد يسأل سائل لم كان هذا ، ويستغرب ، ولكن لا غرابة لمن يؤمن بالله  
تعالى فان له تقديرا فوق تقدير العباد ، ونظاما فوق نظامهم ، وانما يستغرب  
من لا يؤمن الا بالمحسوس ، ويربط بين الأسباب العادية ومسبباتها •

وان الذى نقف عنده هو أن هذا الغلام الذى صنعه الله على عينه ولد  
يتيما ، ولكن لم يذق قهر اليتامى ، ولا ذل اليتيم ، بل كان بين أحضان من  
يحبونه ، فأول حواضنه أم روم لم ترفى الوجود نورا الا نوره ، وغمرها  
حبه • وغمرته بعاطفتها ، فكان كل حبها له ، لم يشركه فيها زوج اذ فقدته ،  
فال حبها اليه ، فكان له صفوا خالصا ، لم يرثق بشركة ، والتقى فى عاطفتها  
حب لزوج كريم لم تنعم برفقته ، وابن حبيب محبب فيه كل ما فيه ، وكانت  
الحاضنة الثانية أم أيمن التى كانت ميراثه من أبيه أحبته كما تحب الأم ولدها

وكانت له بعد أمه رفيقة به أضافت اليه من حنانها ما عوضه ، وإن لم يكن  
العوض كالأصل ، ولا البديل كالبدل •

ثم كانت الحاضنة الغريبة التي صارت برضاعه أما كأمه ، خلق فيها رب  
العالمين محبته ، وجعله يمنا وبركة لترى في محبته حب الله ، ولترى في  
عاطفتها عليه رزق الله تعالى •

والحواضن الطيبات الطاهرات هن اللاتي يدر منهن العطف الانساني ،  
فمنهن يتلقى العواطف الاجتماعية والأنس الانساني ، ولذلك نشأ محمد عليه  
الصلاة والسلام انسانا محبا يألفه كل من يعرفه •

وإذا كان قد فقد الأب ، فقد قيص له الجد ، وإذا كان قد فقد الأم في  
بأكورته ، فقد تغذى من عطف أم أيمن ، واستقى منها أكرم العواطف ، وهذا كله  
فوق ما أودعه الله إياه من خلق كريم عظيم •

٨٢ — أخذت حليمة ترضعه حولين كاملين ، وهو في حضنها مع  
ولدها لا يفترقان ، لا تضن عليه بعطف ولا محبة ، ولا تخص ابنها بفضل منهما  
بل هما على سواء •

فما بلغ الحولين ، حتى استغنى عن اللبن وأخذ في الغذاء حتى كان  
غلاما جفلا ، أى قويا ممتلئا يستغنى بالطعام • ولم يذكر التاريخ أكانت تلتقى  
به أمه ، أم تركته الى البادية مطمئنة عليه !! ، ولكن إذا كان التاريخ لم يذكر  
أنها رآته ، فلنفرض أنها كانت تراه من وقت بعد آخر ، وإذا كان التاريخ لم  
يذكر الرؤية ، فإن أقصى ذلك أنه لم يثبتها ، ولم ينفها ، فالفطرة والحنان  
يوجبانها ، وهما أصدق خبرا ، ولذلك نقرر أنها لأبد كانت تراه من حين  
لآخر (١) •

وأنه بعد أن استغنى عن الرضاعة ، وبلغ فيها حولين كاملين ، يكون  
من الحق على الموضع أن ترده الى أهله ، وإذا كانوا يرون أن يبقى عندها  
فأنه يكون برجاء منها ، ورضا منهم ، وهذا ما فعلته ، فقد قالت :

قدمنا به على أمه ، ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما  
رأته أمه ، قلت لها دعينا نرجع بأبننا هذه السنة الأخرى ، فأننا نخشى عليه  
وباء مكة ، فوالله مازلنا بها ، حتى قالت نعم •

(١) الاكتفاء ص ١٧١ — ج ١ « وسيرة ابن هشام » •

رأت الخير بين يديه ، فأرادت أن تبقى ليقى الخير ، ولأنه قدس نال محبتها ، وأصبحت لا تستطيع فراقه كأنها التى حملته ، ولم ترض الأم التى حملت به أن تتركه لشوقها اليه ، ولتضمنه احضانها ، فلم تسلمها ولدها لأول طلب ، بل مازالت بها حتى قبلت ، ولعل قبولها سببه ما ذكرته من أنها تخشى عليه وباء مكة ، وتريده أن يكون مستمتعا بجو الصحراء الصافى من حمل الأسقام والأوباء ، فهي قد رضيت ايثارا ومحبة .

## أخبار شق الصدر :

٨٣ --- عادت حليلة فرحة ببقاء الخير والبركة ببقاء محمد فى حضانتها ، وإذا كانت من قبل مرضعا وحاضنة فهي الآن حاضنة ، وان ذلك يحملها عبئا آخر ، وهو صيانتة وحفظه ، اذ كان من قبل يلزم حجرها ، او يكاد ، أما الآن فانه لا يلزم حجرها ، بل يغادره ليلعب ، ليروح ويغدو ، هنا وهناك ، وان ذلك يحتاج الى صيانة ، وكانت تتبعه .

وقد خرجت مرة لتبحث عنه مع أخته من الرضاعة ، وكان الحر شديدا ، فتقبل كلاهما ، ( أى استرخى فى القيلولة ) فقالت الفتاة ، انه لا يحس بحر ، لأن غمامة تسير حيث يسير ، وتقف حيث لا تتركه .

ونقف وقفة قصيرة عند الأخبار الواردة فى شق صدره عليه الصلاة والسلام ، فقد رويت فى ذلك أخبار بعضها فى خبر قصير ، وبعضها فى خبر طويل ، ولا تخلو من زيادة فى بعض ، ونقص فى آخر ، وان كان المعنى الاصلى متفقا فى الجميع .

ولنذكر واحدا منها ، وهى ما روى وثبت فى صحيح مسلم عن طريق حماد وابن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه وصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال هذا حظ الشيطان ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده فى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه يعنى ظئره ، فقالوا ان محمدا قد قتل ، فاستقبلوه ، وهو منتقع اللون ، قال أنس ، وقد كنت أرى ذلك الخيط فى صدره « واننا نلاحظ فى ذلك الخبر أمرين :

أولهما : أن الخبر فيه أنه غسله بماء من زمزم ، ويلاحظ أن الواقعة ان صحت كانت فى البادية فى مكان ناء عن زمزم ، وإذا كان من ماء مع جبريل ، فمن أين علم أنه من زمزم .

ثانيهما : أنه ذكر أنه كان يرى أثر الخيط فى صدره عليه الصلاة والسلام ، وإذا صحت الواقعة فإن المعقول أنه عمل ملك ، والملك لا يكون لعمله أثر محسوس •

ونحن نرى أن الأخبار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب •

وعلى فرض أنها صحيحة ، لا نقول أنها غير مقبولة ، بل انا نقبلها ان صحت ، ولكن الاضطراب فى خبرها ، يجعلنا نقف غير رادين ، ولا مصدقين •

ومهما يكن الأمر فى قصة شق البطن ، فإن الغلام الطاهر كانت تحوطه أمور خارقة للعادة لم تكن لتحدث للغلمان فى سنه عادة •

ولقد جاء فى الروض الأنف أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عادت به حليلة بعد أن حملت أمه على الرضا ببقائه عندها سنة أخرى أعادته بعد شهر أو ثلاثة خوفا عليه مما يجرى ، ولقد ذكر الرواة حديث شق البطن ، وأنها لما بلغها خافت على الغلام فرددته الى أمه •

قال ابن اسحاق انها رأت أن بعض النصارى رأوه ، ورأوا ما به من علامات النبوة ، فطلبوا الى حليلة أن يأخذوه عندهم فارتابت فى ذلك حليلة فرددته الى أمه خائفة عليه ، ولتخلى نفسها من التبعة ، وسنزيد من بعد الخبر بيانا •

٨٤ - هذا الكلام يدل على أنه آل الى أمه بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من السنة الثالثة ، وهو معقول لأنه لا رضاعة من بعد ذلك ، والأحوال كانت توجب هذا ، لما كان يصيب أمه الرضاعية من خوف عليه ، بسبب الارهاصات التى كانت تحوم حوله مما أفزعها •

ولكن جاء فى الروض الأنف ما نصه :

« وكان رد حليلة اياه الى أمه ، وهو ابن خمس سنين وشهر فيما ذكر أبو عمرو ، ثم لم تره بعد ذلك الا مرتين احدهما بعد تزوجه خديجة رضى الله تعالى عنها ، جاءت اليه تشكو السنة ، وان قوما قد استنوا ، فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات ، والمرة الثانية يوم حنين » •

وان هذين بلا شك خبران متناقضان : أحدهما يفيد أن أمه تسلمته عند بلوغه سنتين وشهرين أو ثلاثا ، والثانى يقرر أنها تسلمته بعد خمس سنين وأشهر •

ولكن التوفيق بينهما ممكن بأن أخذها الأول لتضعه إليها ، ويكون في كنفها ، ولا يمنع ذلك من أن تجيء حليلة اليه تأخذه عندها الفينة بعد الفينة ، يستروح بنسيم الصحراء ، وتتيمن به ظلّره المخلصة العطوف ، أما حد التسليم بخمس سنين ، فهو عندما أخذته نهائيا أمه ، ولم يذهب بعد الى بنى سعد ، ولذلك قرروا أنها لم تره بعد ذلك الا بعد أن اكتملت رجولته بتزوجه ، وبعد أن أبلغ رسالته ، وتذاكرت الركبان بنصرته في يوم حنين ، فقد دامت من بعد اقامته عند أمه ، ورحلت به الى يثرب لتريه قبر أبيه ، ولتزور وهي وفاء لرجلها الطاهر الأمين .

لقد سلمته حليلة الى أهله ، وكان يتردد عليها برغبتها ، وأجازة أهلها ، وقد ذكر ابن اسحق خبرين قد نوهنا الى أحدهما ، ولم نذكر الآخر ، وقد كان السبب في الا يقيم عندها اقامة ممتدة ، ولكن تأخذه الوقت بعد الآخر :

**اولهما :** أن ابن اسحق قدر أنه زعم الناس فيما يتحدثون أن حليلة ظلّره لما قدمت مكة به ضلت وهي مقبلة به نحو أهله ، فالتهمسته فلم تجده ، فأمت جده ، فقالت له انى قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى الناس فوالله ما أدري أين هو ؟ فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرده ، فوجده ورقة بن نوفل ابن أسد ، ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له هذا ابنك وجدنا بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فجعله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوده ويدعو له ، ثم أرسل به الى أمه أمنة .

وقد ذكر هذا الخبر ابن اسحاق ، وصدره بكلمة زعموا مما يدل على شكه ، ولكن لا موضع للشك فيه ، فالخبر في ذاته مقبول ، وهو يدل على عظيم حذب جده عليه ، وحرص حليلة ، ومحبة قريش له .

ولكن هل هذا كان في تسليمها الأول ، أو في تسليمه في المرات التي كان يتردد عندها ، تيمنا لجواره وقربه منها ، وقبول أمه لذلك ليستروح هواء البادية ، وتتقى أسقامه بها .

الخبر الثانى قد أشرنا اليه من قبل ، ورجحنا أنه السبب في اعادته بعد شهرين من بلوغه حولين كاملين ، وهذا نص كلام ابن اسحاق :

« حدثنى بعض أهل العلم : أن مما هاج أمه السعدية على رده الى أمه مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه حين رجعت به بعد قطامه ، فنظروا اليه وسألوها عنه ، وقلبوه ثم قالوا لها لناخذن

هذا الغلام ، فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ، فان هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره ، فزعم الذى حدثنى أنها لم تكذ تنفلت منهم حتى ارسلته الى أمه •

سفر أمه به الى يثرب :

٨٥ — كانت آمنة مثالا للمرأة الكاملة ، وهى بعد لم تتجاوز العشرين الا بقليل ، فقد رأت أن تزور يثرب وهو معها هو وأم أيمن حاضنته بعد أمه الكريمة ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن تزور مع ولدها قبر أبيه ، وفى ذلك أجل الوفاء ، وأكرمه ، وكأنها ترى زوجها وديعته التى أودعها أياها •

وثانيهما — أن تعرفه بقربته من ذوى الأرحام ، وهم بنو النجار ، إذ تزوج منهم جده هاشم ، تزوج سلمى بنت زيد بن عمرو الذى ينتهى بنسبه الى عدى من بنى النجار ، وكان بالمدينة ذا شرف ومال •

وقد تحقق لها ما أرادت ، ولعل هناك باعثا آخر ، وهو أنها كانت تخشى على وليدها العزيز جو مكة ، ووباءه ، فأرادت أن تخرج به من ذلك الجو المزدحم الأهل بالسكان ، لقد كانت حليلة تأخذه من وقت لآخر ، فينقى جسمه من جو مكة المتكاثف ، وينال من جو البادية ما ينعش جسمه ونفسه ، ويكون ارادته ويكون فيه متصلا بالكون لا يحجبه عنه حاجب ، ولا يحول دونه باب ، بل هو متصل بالسماء وزرقتها ، والنجوم ومدارجها ، والقمر وانبلاجها ، فيرى الشمس سراج الوجود ، والقمر منيره من غير استتار يمنعه ، أو حاجز ، يرى الشمس فى مشرقها ، وضحاها ، وأصيلها وغروبها ، وشفق القمر إذ يضىء ، فيشق نور الظلام وينبلج نوره ، ويتغنى به الشعر ، وفى ظله يتسامر المدركون لجمال منظره ، ودلالته على الخلاق العليم •

سافرت به أمه لتزور قبر أبيه ، وأخواله ، ولتخرج به من مزاحم مكة ، ومحاجزها ، وهى أحب أرض الله اليها ، ولكنه الوفاء ، ورعاية الوليد الطاهر فى جسمه ونفسه ، وأهله ، ولتريه ذوى رحمه كما رأى عصبته •

والظاهر أنها خرجت بعد أن أخذته من حاضنته ووضعته بعد أن بلغ خمس سنين وأشهرها كما ذكرنا من قبل أى أنه كان قد ابتدأ السادسة ، وسار فيها أشهرها •

وقد زار ، أولئك الصفوة من الأخيار قبر عبد الله أبيه ، والزوج الحبيب زوج أمنة فعبرت العيون وسكنت الأصوات ، وتناجت الأرواح على مشهد من الغلام المحس المدرك ، فعرف أباه ، وقد ارمس في التراب ، ورأى رمسه بنظره ، وأدرك محبته من عبرات أمه ، فكان منظرا مطبوعا في نفسه ، وهمسا مس قلبه ومشاعره ، ولعله أول حزن مس قلبه الغض البريء •

أقام وأمه في أطم بنى عدى بن النجار ، وهو قصر بنى في أكمة عالية كائنه الحصن ، وقد كانت الأطم معروفة في المدينة •

ويظهر أن الإقامة لم تكن قصيرة ، وربما كانت طويلة نسبيا ، ومهما يكن فقد رسمت في ذهن الغلام صورا وضحاها الخيال ووسعها من غير مبالغة ولا اغراق عند ذكرها •

فيروى أنه قال ، وقد رآها بعد أن حمل أعباء الرسالة : « كنت مع غلمان من أخوالي نظير طائرا يقع عليه ( أى على أطم بنى النجار ) وقال في الدار التي نزل بها هو وأمه : ها هنا نزلت بى أمى ، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله بن عبد المطلب » •

## موت الطهور أمنة :

٨٦ — أقامت أمنة بدار بنى النجار ما طابت لها الإقامة ، ولم ترد الاستمرار بعيدة عن بنى هاشم وعن الجد الطيب عبد المطلب كافلة ، فكان لابد من العودة ، فأخذت في السير الى مكة ، ولكنها وهى عائدة اليها أدركها الموت بمكان اسمه ( الأبواء ) وهو بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب ، كما يقول صاحب الروض الأنف (١) وبذلك صار محمد صلى الله عليه وسلم يتيما من أبويه الذى ادخره الله تعالى للإنسانية هاديا بالحق ، داعيا الى الرحمة ، فكان نبى الرحمة ، لأن الرحمة بالناس تنبع من الآلام الذاتية التى تعترض فى أثناء الحياة ، فانه لا تنبعث الرحمة بالضعفاء الا ممن ذاق مرارة الضعف ، وأى ضعف أشد من اليتيم ، وان القسوة فى كثير من الأحيان تكون من الذين ينشئون فى الحلية فاكهين فى نعيم الحياة •

(١) يقول فيه صاحب الروض الأنف ، وقيل سمى الأبواء ، لأن السيل كان يسوء فيه •



ولقد ماتت الأم الطاهرة ، وهو يدرك الحياة ، وقد ذاق حلاوة حنائها ، ولطف عطفها ، وهى التى كان هو لها كل الوجود ، واستبشرت به ، واتخذت حبه عوضا عن الحب الزوجى الذى فقدته فى باكورة زواجها ، وإذا كان قد فقد أباه من قبل ، فقد كان ذلك وهو فى غيب الله المكنون ، وقد عوضه جده عطف الأب فلم يحس بألم الفقد ، لأنه لم يعلمه ، واستقبل الحياة بهذه الحال ، ولم يجعله جده عبد المطلب يحس بالفقد الذى لم يعه ، أما الأم ، فقد فقدتها ، وهو فى وعى ، وبعد أن ذاق حلاوة حنان الأم ، وأنه لا شيء يعوض عطف الأم الرءوم ، وهو حرمان من شيء موجود شعر به ، وأصابته به لوعة ، علمته الصبر وعوده أخضر .

وزادت اللوعة ، وزاد معها الصبر أن الموت ، وهما غريبان ، وليس لهما الا الصحراء ، وطريق مدعثر ، وشقة بعيدة ، لأبد من قطعها ، فاجتمع ألم الغربة ، وألم الفقد ، وألم الانقطاع ، وصار الركب فى رعاية الله تعالى الذى صنعه على عينه ، وذلك ليحس مع الصبر واحتمال الآلام كريم الرعاية الالهية ، والعناية الربانية ، ويكون له من هذا زاد نفس يذكره عندما يلاقى الشدائد فى الدعوة الى الحق ، ومناوأة الشرك وتكاثف المشركين عليه ، وتعرضه للأذى والتجائه الى الله اذا أحس بالضعف .

وان الذى حملة ، وحل محل أمه فى حضانتها جارية حبشية ، وإذا كانت لم تعطه حنان الأم ، وعزة العطف ، فقد كآلته وحمته .

وان ارتباط حياته الطاهرة بأمة حبشية تزويد من الله تعالى له بيزاد انساني ، ليشعره بأن الناس سواسية ، وأن كل الفضل فيمن يحسن فى عمله ، لا فيمن يفاخر بنسبه ، وأنها لحكمة عالية أن تكون الحاضنة التى لا يستغنى عنها محمد صلى الله عليه وسلم أمة حبشية ، لأنه تربية ربانية على المساواة الانسانية ، وأنه لا شرف الا بالنفع ، والعاطفة . لذلك لم يكن غريبا من السذى حضنته جارية حبشية إذاقته حب الأمومة ، وان كان دون حبها ، وأوصلته الى جده محوطا بعناية الله وعطفها — أن يكون نصير الأرقاء ، والمانع للرق الانسانى ، فليس غريبا أن يغضب أشد الغضب ، عندما يسمع بعض صحابته يعير آخر بقوله « يا ابن السوداء ، ويقول فى قوة : لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن المبيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى فمحمد ابن المبيضاء حضنته السوداء فكان ابنا لهما معا » .

٨٧ — ذاق حب الأم ، وذاق لوعة فراقها ، ولذلك زار قبرها ، بعد أن بلغ أشده ، وصار رجلا مكتملا سويا ورسولا نبيا ، جاء فى الروض الأنف «وفى الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء ،

فبكى وأبكى » وهذا حديث صحيح ، وفى الصحيح أيضا أنه قال استأذنت ربي فى زيارة قبر أُمى ، فأذن لى واستأذنته أن أستغفر لها ، فلم يأذن لى ، وفى سند البزاز من حديث بريدة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حين أراد أن يستغفر لأمه ضرب جبريل عليه السلام فى صدره ، وقال له : لا تستغفر لمن كان مشركا ، فرجع وهو حزين ، وفى حديث آخر ما يصححه ، وهو أن رجلا قال له يا رسول الله أين أبى فقال فى النار ، فلما ولى الرجل قال عليه السلام ان أبى وأباك فى النار » وليس لنا أن نقول نحن هذا فى أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقوله عليه الصلاة والسلام « لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات » وإنما قال النبى عليه الصلاة والسلام لذلك الرجل ما قال ، لأنه وجد فى نفسه ، وقد قيل انه قال أين أبوك أنت ، فحينئذ قال ، وقد رواه معمر بن راشد بغير هذا اللفظ ، فلم يذكر أنه قال ان أبى وأباك فى النار .

ولاشك أن الخبر الذى يقول ان أبى محمد عليه الصلاة والسلام فى النار خبر غريب فى معناه ، كما هو غريب فى سنده ، لأن الله تعالى يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وقد كان أبو محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمه على فترة من الرسل ، فكيف يعذبون !! ان هذا مخالف للحقائق الدينية ، لقد مات أحدهما قبل أن يبرز الرسول الى الوجود ، وماتت الأخرى وهو غلام لم يبعث رسولا ، ولذلك كان الخبر الذى يقول انهما فى النار مردودا لغرابة سنده ، أولا ، ولبعد معناه عن الحقيقة ثانيا . ولعل نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن الاستغفار ، لأن الاستغفار لا موضع له ، اذ أنه لم يكن خطاب بالتكليف من نبى مبعوث ، وليس كاستغفار ابراهيم لأبيه الذى نهى عنه ، لأن أبى ابراهيم قد خطب برسالة ابراهيم فعلا ، فهو مكلف أن يؤمن بالله ، ويكفر بالآوثان .

وفى الحق انى ضررت فى سمعى وفهمى عندما تصورت أن عبد الله وأمنة يتصور أن يدخل النار ، لأنه عبد الله الشاب الصبور الذى رضى بأن يذبح لنذر أبيه ، وتقدم راضيا ، ولما اقتدته قريش استقبل القداء راضيا ، وهو الذى كان عيوفا عن اللهو والعبث ، وهو الذى برزت اليه المرأة تقول هيت لك ، فيقول لها أما لحرام فاللمات دونه ، ولماذا يعاقب بالنار ، وهو لم تبلغه دعوة رسول ، ونفى الله تعالى العذاب الا بعد أن يرسل رسولا ، ولما تكن الرسالة قد وجدت ، ولم يكن الرسول قد بعث .

وأما الأم الرؤوم الصبور التى لاقت الحرمان من زوجها فصبرت ، ورأت ولدها يتيما فقيرا ، فصبرت ، وحملته صابرة راضية فى الذهاب الى أخواله ، أيتصور عاقل أن تدخل هذه النار من غير أن يكون ثمة رسالة الهية تهديها ، ودعوة الى الوحدة توجيها .

انى ضرست لا لمحبتي للمصطفى الحبيب فقط وان كانت كافية • ولكن  
لأن قصة أمة جعلتني لا أستطيع أن أتصور هذه الصبور معذبة بالنار ، وقد  
شبهتها بالببتول مريم العذراء لولا أن الملائكة لم تخاطبها •

٨٨ — ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما مر بقبر أمه  
غلبت عبراته ، ولا عيب في ذلك ، فقد قال عليه الصلاة والسلام البكاء من  
الرحمن والمصراخ من الشيطان ، ولقد ذكر الرواة أنه بكى عندما مر بالأبواء ،  
وبكى من معه لتذكر أمه • ولقد قال القرطبي في تذكرته « جزم أبو بكر الخطيب  
في كتاب السابق والملاحق ، والناسخ والمنسوخ ، وأبو حفص عمر بن شاهين  
باسناديهما عن عائشة رضي الله عنها ، قالت حج بنا رسول الله صلى الله عليه  
وسلم حجة الوداع فمر على قبر أمه ، وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه  
صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انه نزل ، فقال يا حميراء استمسكي فاستندت  
الى بيت البعير ، فمكث عنى طويلا ، ثم عاد الى وهو فرح مبتسم ، فقلت  
بأبي أنت وأمى يا رسول الله نزلت من عندي وأنت باك حزين مغتم ، فبكيت  
لبكائك ، ثم عدت وأنت فرح مبتسم ، فبم ذا يا رسول الله ، فقال « ذهبت لقبر  
أمة أمى ، فسألت أن يحييها الله تعالى ، فأحيها فأمنت بي » •

وروى في احياء أمه وأبيه خبر مثل ذلك بسند فيه مجهولون •

ونحن نرى أن توافر السند الصحيح في هذه الأخبار غير ثابت ، ولكن  
نقول ما قاله صاحب الروض الأنف — « الله قادر على كل شيء ، ولا تعجز  
رحمته وقدرته عن أى شيء ، ونبيه عليه الصلاة والسلام أهل أن يخصه  
بما شاء من فضله ، وينعم عليه بما شاء من كرامته صلوات الله تعالى  
وسلامه عليه •

ولقد روى الحافظ بن كثير أحاديث كثيرة في هذا الباب ، وذكر أن  
فيها غرابة ، وذكر الخبر الذي سقناه عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها  
« أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، سأل ربه أن يحيى أبويه فأحيهما  
وأمنا به ثم قال فيه : « انه حديث منكر جدا ، وان كان ممكنا بالنظر الى قدرة  
الله تعالى — لكن الذى ثبت فى الصحيح يعارضه » (١) •

وخلاصة القول وهو ما انتهينا اليه بعد مراجعة الأخبار فى هذه المسألة  
أن أبوى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى فترة ، وأنهما كانا قرييين الى

---

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨١ •

الهدى ، والى الأخلاق الكريمة التى جاء به شرع ابنهما من بعد ، وأنهم كانوا على فترة من الرسل ، ونعتقد أنه بمراجعة النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة لا يمكن أن يكونا فى النار ، فأمه المجاهدة الصبور ، الحفية بولدها ، لا تمسها النار • لأنه لا دليل على استحقاقها ، بل الدليل قام على وجوب الثناء عليها هى وزوجها الذبيح الطاهر •

وما انتهينا الى هذا بحكم محبتنا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإن كنا نرجوها ونتمناها ، ولكن بحكم العقل والمنطق والقانون الخلقى المستقيم ، والأدلة الشرعية القوية ، ومقاصد الشريعة وغاياتها •

## فى حضن عبد المطلب

٨٩ — عادت أم أيمن بركة الحبشية الى مكة وسلمت الغلام الطاهر الى جده عبد المطلب ، وقد بلغ السادسة من عمره الكريم العاشر بالخير ، وعمل الصالحات ، فأنشأه اليه وقربه •

وفى البيت كان الصبية من أولاد عبد المطلب ، والشباب من الرجال والنساء ، كان فيه حمزة وكان فيه العباس ، وكانت فيه هالة زوج عبد المطلب ، وابنة عم أمه ، فهى ذات رحم ، وما كان يمكن أن تنظر اليه ، كما تنظر أزواج الآباء ، الى ذرية أزواجها ، بل كانت تعد كخالته ، لأنها ابنة عم أمه ، وهى ربة البيت الراعية لبيت زوجها الكريم ، ولذريته الأطلهار ، فما كانت تنظر اليه شزرا ، بل كانت تحبوه من عطفها ، ما تحبوه لولدها ، فكان وسط مملوء بالعطف والصلاح ، فما قهره يتمه ، ولا أرهقه فقد أبويه ، وإن لم يكن عزه كمثل عزهما ، ولا عطفه كمثل عطفهما ، ولكن من حواليه ، لم يبقوا عطفنا يستطيعونه الا قدموه •

وكان جده عبد المطلب يرى فيه أعلى صورة للغلمان ، والتقت فيه محبتان من عبد المطلب ، احدهما محبة أبيه الذى اهتصره الموت ، وعنده أخضر ، ومحبة الغلام الطاهر فى ذاته ، فكان يدنيه اليه ، وإذا كان اليتيم بطبيعته يوجد انفرادا نفسيا ، واعتزالا ، فإن الجد العظيم خشى أن يكون لذلك أثره فى قلب هذا الغلام الحبيب ، فكان يباليغ فى تقريبه منه حتى يأنس به دائما ، جاء فى السيرة لابن اسحاق : « كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له ، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتى وهو غلام

جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : « دعوا ابني فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع » .

حياه عبد المطلب بالمعطف الأبوي ، فكان ينسبه اليه مباشرة . فلا يقول ابن عبد الله ، ولكن يقول ابني ، ليأتنس به ويؤنسه ، ويمنع عنه الاحساس بغربته بين أولاده ، ولكيلا يخس بأنه دونهم ، ويفضله عليهم في المجلس ، ليمنع قهر اليتيم ، فألقى الله سبحانه محبة منه عليه .

ان أخشى ما يخشاه القوامون على اليتامى أن يحسوا بانفراد ، فلا يألفوا الناس ، فكان عبد المطلب الحكيم العطوف الكريم يبت روح الائتلاف في هذا اليتيم .

وكان فطرة عبد المطلب السليمة ، وفراسته كانا يلهمانه أنه سيكون له شأن ، وبدت ارهاصات ذلك في منامه الذي ارتآه ، ثم في أحواله التي شاهدها ، ثم في الأخبار التي جاءت عنه وهو في البادية عند حليلة وزوجها ، ولذلك كان يبدو على لسانه ما يدل على أنه يتوقع له خيرا عظيما ، كما جاء في الخبر الذي سقناه ، وقد قال أيضا ابن اسحاق . مرويا بسنده « لما توفيت أمية قبضه اليه جده عبد المطلب ، وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام وكان يجلس على فراشه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك : « دعوا ابني انه يؤسس ملكا » (١) .

وكان في ذلك البيت قلب آخر منحه محبة الأم ، ورأت فيه وجودها ، تحنو عليه كأمه ، وهي التي حضنته كأمه ، وأوت به من غربته وهي أم أيمن ، وكان عبد المطلب يعتمد عليها اذا غاب عنه في رعايته فكان يحثها على أن تبلغ أقصى الغاية في العناية به ، فيقول : لها « يا بركة لا تغفلي عن ابني فاني وجدته في غلمان قريب من السدرة ، وان أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة » .

ولكمال عطفه ، وإيناسه ، وتأليفه بكمال حنوه كان لا يأكل طعاما الا يقول على بابني ، فيؤتى به ، ولكن الله تعالى يختبر نفس الغلام بحرمان ثالث ، فقد اختطف الموت أباه ولم تكتحل عيناه برؤيته ، واختبره ثانيا بأن اهتصر الموت عود أمه ، وقد أدرك معنى حنو الأمهات ، وراها كالعود الأخضر ،

يذبل ، ويذوى • ثم اختبره الثالثة ، وقد رأى جده الكريم يتركه ، فقد فقد الأبوة القريبة ، والأبوة البعيدة ، وقد أحس بعظم ما فقد عند سماع المراثى فيه ، وهى تعلن مكانته ، ومحبتة وأنه قد ابتدأت ، وهو لا يزال حيا ، ولكن الموت يدنو منه •

وكانت الأشعار تجيء بالرياء من بناته ، ويقول ابن اسحق « انه لما أحس بذلك الموت أمر بناته أن يرثينه فكن يرثينه ، وهو يسمع » •

وهذا الرياء هو أبلغ النواح ، وان ذلك الخبر يدل على أنه كان فى وعى كامل ، ولم يصبه خرق الشيخوخة •

## فى كنف أبى طالب

٩ • — كان اليتيم الكريم يعيش فى عزة وعطف ، ورفق فى أحضان أمه الطاهرة ، وحاضنة البرة أم أيمن بركة هذا البيت ، وكنف الشريف فى قومه السيد فى قبيلته ، لم يحس بالمهانة أو القهر ، بل أحس بالشرف والكرم والرفق والعطف ، واستمرت هذه حاله الى أن بلغ الثمانية •

وقد مات جده ، وكالته فى الثامنة من عمره ، ولكنه لم يفقد عطفه وهو يعالج سكرات الموت ، بل استمر قائما بحقه عليه ، ولذلك عندما أحس بالموت يدب فى جسمه دببيا ، أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحياطته ، وقد اختصه بهذه الوصية ، لأنه كان فى قرين له مقام المطلب بعد أبيه ، ولأنه أقرب كل بنى اليه ، لأنه ابن شقيقه ، إذ أمهما واحدة ، وهى فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بنى مخزوم •

وقد قام أبو طالب بحق الوصية ، فكان يراعه حق الرعاية ، فكان يصاحبه فى غدوه ورواحه ما أمكنت الصحبة • لأنه ابتداء يتعود عادات الشباب ، ولا يغنى عنه فى هذا الدور من حياته الا الصحبة الموجهة ، فكان يصحبه لهذا ، ولحبته الشديدة له ، فكان يختصه بمحبة لا يحب أولاده بمثلها ، فكان لا ينام الا بجواره فى منامه ، وقد لاحظ فيه يمنا لم يلاحظه من قبل ، وكان مثله ، كمثل حليلة وأولادهم ، إذ حل فيهم فشبعوا بعد جوع ، ودرت عليهم أخلاف ناقتهم بعد أن جفت •

كان أبو طالب فى بعض الأزمة المادية ، فكان عياله اذا اكلوا لم يشبعوا ، واذا اكل معهم محمد الميمون شبعوا ، فكان أبو طالب اذا أراد أن يغذيهم • قال

لهم كونوا كما أنتم حتى يجيء ولدى وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فإذا جاء أكلوا معه ، فكان الطعام يفضل منهم ، وإذا لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : « انك لبار » هذا ما قصه ابن اسحاق فى سيرته (١) •

وليس عندى ما يسوغ لنا أن ننقض ذلك الكلام فهى قدرة الله تعالى على كل شيء ، وإذا اختص الله بها محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهى ارهاصات الرسالة ، وقد جرى على يديه وفى أحواله خوارق عادات أخرى ، أوضح وأظهر وأبين ، فالضوء الذى صاحب ولادته ، وارتجاس ايوان كسرى، وتهدم غرفاته ، وخمود نيران المجوس ، والبركة التى حلت على حليلة وذريتها بقدمه ، كلها أحوال خارقة للعادة هذا دونها فى الارهاص •

ولكن جاء عن الحسن بن عرفة ما قد يومىء بالتعارض الظاهرى ، فانه روى عن ابن عباس أنه قال : كان أبو طالب يقرب الى الصبيان صفحتهم ، فيجلسون وينتبهون ، ويكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا ينتهب معهم ، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة •

وهذا قد يوهم التعارض ، وبفحص الخبرين يتبين أنه لا تعارض لأن الأول يتبين منه أن الشيع وفصول الطعام يكونان اذا كان بينهم ، وليس معنى ذلك أن ينتهب كما ينهبون ، انما معناه أن يأكل وقد عزل له طعام خاص ، حتى لا يتسابق معهم فى الالتهام ، اذ نفسه العفوف تأبى عليه أن يزاحم فى مد الأيدى الى الطعام ، فذلك من تأديب الله تعالى له ، وما منحه من عفة وابتعاد عن الجشع فى الطعام وغيره ، كما يبدو من صفحة حياته •

وانه يكفى أن يكون معهم فى الطعام لتكون البركة ، ولعل البركة تزداد بهذا التخصيص الذى اختصه به أبو طالب فان الله تعالى قابل ذلك التخصيص من عبده الكريم بفيض من فيضه العميم •

---

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٢ •

## الى العمل

٩١ — اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى العمل ، وقد شب عن الطوق ، وان كان لم يبلغ سن المراهقة ، واتجه الى العمل الذى يستدعى رفقا منه ورعاية ، وفيه حنو على الضعفاء ، اتجه الى رعى الأغنام ، وهو عمل فيه ثلاث مزايا :

- احدهما : أن فيه سياسة لحيوان ضعيف يقتضى عطفًا ورفقا في سياسته .
- والثانية : أنه يعاشر فيه الضعفاء من الغلمان الذين ليس فيهم استعلاء أهل الجاهلية الأولى الذين كانوا يستعلون بشرفهم .
- والثالثة : أن فيه كسبا ماديا من عمل اليد ، وأفضل الكسب ما كان من عمل اليد .

وانه كان يرعى الغنم فى بنى سعد ، مع أخوته من الرضاعة أولاد حليمة ، فكان يلهو معهم بذلك الرعى فى آخر أيام رضاعته ، وأولى سننى حضانتها ، فكان لهو مفيدا ، وخير اللهو ما كان فيه مصلحة ، وفائدة ، وكان بلا شك ذلك النوع أجره فيه ، إذ أنه لهو ، وأجرته هو متعة اللهو الحلال المفيد .

وثبت أنه رعى الغنم فى مكة ، وقد كان فى سن شب فيها عن الطوق كما أشرنا ، وقد اتجه اليه غير لاه به ، ولكنه عامل فيه ليكتسب حلالا ، ويأكل طيبا .

ولقد ثبت فى الصحاح أنه كان يرعى الغنم فى مكة على قراريط ، يأخذها من أهلها ، والقراريط ، هى حصته من اللبن فيما يظهر ، فهو يرعاها على أن يكون له حصته من لبنها يناله ، ولعله كان يتغذى بها مع أولاد أبى طالب ، أو يأكل منها ، ويتصدق فينال خيرين : خير الكفاية ، وخير الصدقة أو المودة .

ويظهر أن رعاية الغنم من تربية الله للنبيين ، إذ تعودهم على الرفق ، والعطف على الضعفاء ، وحسن قيادة النافر ، وتأليفه وتقريبه ، وادناؤه من قطيعه .

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ذكره ابن اسحاق بسنده ما من نبي الا وقد رعى الغنم ، قيل وأنت يا رسول الله ! فقال نبي الرحمة : وأنا ، .



وقد روى فى بعض الأخبار ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال :  
« بعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم ، وبعث داوود عليه السلام وهو راعى  
غنم ، وبعثت وأنا راعى غنم » .

وجاء فى الروض الأنف فى تعليل ذلك : « وانما جعل الله تعالى هذا فى  
الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ، ولتكون أمتهم رعاية لهم ، وقد رأى  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ينزع عن قليب ، وحوله غنم سود ،  
وغنم عفر ، قال ثم جاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه فنزع نزعا ضعيفا ،  
والله يغفر له ، ثم جاء عمر ، فاستحالت غربا يعنى المدلو ، فلم أر عبقرى  
يفرئ فريه » فأولها الناس بالخلافة لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولولا ذكر  
الغنم السود والعفر لبعدت الرؤيا عنهما (١) .

وان هذه الرؤيا الصادقة أومأت الى الرعية ، بأنها كالغنم العفر ،  
للإشارة الى أن الرعية يسوسهما حاكمها بالرفق والعطف ، والتوجيه من طلب  
الغذاء لها من غير اعنات ، ينقلها من الخير الى الخير من غير ارهاق ولا  
اكره ، ولا اذى ، كما ينقل الراعى قطيعه من كلاً ، من ماء الى ماء بالترغيب  
والتحبيب لا بالايذاء والترهيب .

### حماية الله تعالى :

٩٢ — حمى الله تعالى محمدا فى نشأته ، فكفله محبوبه ، فلم ترهق  
أعصابه ، ولم يرهق فى يتمه ، فنبت نباتا حسنا محبوبا أليفا مألوفاً ، وحمى  
نفسه من أن تتردى فى مهاوى الانحراف .

لقد كانت طبيعة العمل الذى اختاره الرسول ، لأنه أسهل الأعمال  
اليه أن يختلط بصبيان من طبقات مختلفة أكثرهم من طبقات الفقراء والخدم  
والعبيد . فأولئك الذين كانوا يؤجرون لهذا العمل الذى لا يعدمن معالى الأعمال  
بل يعد من صفارها ، ومع أنه كان مع الخدم والعبيد والغلمان ، لم تنزل نفسه  
عن عزتها من غير استعلاء ، فكان يجذبه الى العلا شرف نسبه وطيبة محتده ،  
وما يراه فى أسرته من سمو وعلو وسيادة ، وما يكمن فى طبعه الكريم من  
حب لمكارم الأخلاق من غير غطرسة ، ولا كبرياء ، ولا استهانة أو استصغار  
للضعفاء ، ويجذبه الى التظامن والرضا بالقليل صغر العمل فى ذاته من غير  
نظر الى ثمراته ، وأثره فى تربية النفس على حسن المعاملة ، والرفق بالناس .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١١ طبع المغرب .

وكان الأحداث منهم خصوصا الذين انغمس ذووهم أو أولياؤهم فى الشهوات يستولى على قلوبهم حب اللهو البريء وغير البريء ، ومنهم من ينزع الى الشر من بعد ، ويكون عنصر فساد فى المجتمع اذا شدا وترعرع وبلغ أشده ، واذا كان الضعف يثير الرحمة ، ويدفع الى الحب الخالص البريء ، فهؤلاء يدفعون الى المجون ، والمجون يهدى الى سيطرة الهوى وسيطرة الهوى تهدى الى الفساد ، والصحة تجعل السقيم يعدى البريء ، وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب ، كما يقول الشاعر العربى الحكيم •

فكان أشد ما يخشى على محمد عليه الصلاة والسلام فى صباه هو عدوى المجون ، ان هو محبب الى نفوس الغلمان فى سن المراهقة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام كان مراهقا فى هذا السن ، ولكنه تربية الله فجنبه ذلك ، وأبعده ، ويحكى عن نفسه عليه الصلاة والسلام والمجون يساوره ، فيعصمه الله تعالى ، فيقول ، وهو الصادق الأمين ما روى البخارى عنه ، أنه قال : « ما همت بشيء من أمر الجاهلية الا مرتين » وقد ذكر ابن اسحق أن احدى المرتين كان فى غنم يرعاها هو و غلام من قريش ، فقال لصاحبه اكفى أمر الغنم حتى أتى من مكة ، وكان بها عرس فيه لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقى عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله تعالى •

وفى المرة الأخرى قال لصاحبه مثل ذلك ، وألقى عليه النوم كما ألقى فى المرة الأولى ، وترى من هذا حماية الله تعالى له من الاسترسال فى الهوى ، فهو فى الخطوة الأولى سد الطريق ، لا بمجاهدة نفسية ، لأن سنه لم تكن تقوى على المجاهدة النفسية ، بل بأمر خارج عن ارادته ، وهو النوم الغامر ، وكان له نعمة ، وتوالى ذلك النوم ، حتى قويت ارادته ، وكانت له عزيمة تمنع ، وقوة ارادة ، وبمقتضى النظام الفكرى ، أنه لو لم يعصمه الله تعالى بالنعاس الذى منعه ، ربما كان يسترسال فى اتباع الهوى ، وبذلك تسيطر الشهوات ، فكانت العصمة المانعة فى أول الخطوة ، وأول الدفعة ، وانما الصبر عند الصدمة الأولى كما قال عليه الصلاة والسلام من بعد أن منحه الله تعالى الرسالة •

## الى التجارة

٩٣ — اشتهرت قريش بين العرب بالتجارة ، فكان سراتها تجارا ، ذلك أنها لم تكن بلد زرع ، بل كانت بواد غير ذى زرع ولم يكن فى العرب صناعة تكون موردا اقتصاديا ، لأنها كانت مثابة أمن الناس بوجود البيت

الحرام ، فكان حجاج ذلك البيت يجيئون من كل فج عميق ، وكانت الأسواق تقام فى الحج ، كان فيها الاتجار ، وفيها تعقد ندوات الشعر ، والمسابقات البيانية ، فكان مع تبادل البضائع تروج بضاعة البيان .

وكان كسب أغنياء قريش من التجارة ، وأوساطهم فى المال كانوا يتجرون كل على حسب طاقته ، وعلى حسب ما عنده من المال ، وكبار التجار منهم كالعباس بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة وأبى بكر ، كانوا يتجرون فى الجلب من اليمن والشام .

وكانوا ينقلون بضائع الفرس الى الرومان عن طريق اليمن ، وبضائع الرومان الى الفرس عن طريق الشام . فكانت لهم رحلتان : احدهما فى الصيف يذهبون فيها الى الشام يجلبون اليها بضائع الفرس ، ويحملون فيها بضائع الرومان ، والأخرى فى الشتاء يحملون منها بضائع الفرس ويحملون اليها بضائع الرومان ، فكانت التجارة الخارجية سبيل ثروة كبارهم ، والتجارة الداخلية مرتزق أوساطهم ، وأما فقراؤهم فكان مرتزقهم من النعم الابل والبقر والغنم .

ولذلك كان من مقتضى هذه الحياة التجارية أن يتجه محمد عليه الصلاة والسلام الى التجارة ، عمل الأغنياء ومرتزق الأوساط ، وما من المعقول أن يستمر راعى أغنام ، فانها تناسبه وهو صغير السن ، أما اذا كبر ، فانه لابد أن يتجه الى التجارة الداخلية والخارجية ، وأن يعرف الأسواق التى يكون منها الاستيراد ، ويكون عن طريقها التصدير ، ولابد حينئذ من أن يسافر ، وقد ألهمه الله تعالى أن يطلب السفر مع قافلة قريش التى تحمل البضائع الى الشام ، وتجلب منها .

## سفره مع عمه

٩٤ — عندما بلغ سن المراهقة وشب عن الطوق كان لابد أن يتجه الى مرتزق قومه وهو التجارة كما نوهنا من قبل ، وجد القافلة وفيها كافله ، وولى نفسه ، عمه أبو طالب ، فابتغى أن يكون مع هذه القافلة ، يسير بسيرها ، ويجرب الحياة عن طريقها ، ويدرس شئون التجارة التى يمارسها كبار التجار بمكة ، ويتعرف الأحوال ، ويكون على خبرة بالحياة وما يجرى فيها .

ويظهر أن عمه كان يستصغر سنه ، ويرى أن تلك الرحلة الشاقة فوق

طاقته ، فوق أنه لا منفعة له فيها ، إذ ليس فى القافلة مال له ، حتى يتعرف حاله .

ولكن شدة رغبة النبى عليه الصلاة والسلام جعلته يستجيب لطلبه ، ولقد عبرت كتب السيرة عن رغبة محمد عليه الصلاة والسلام بقولها « صب به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - أى تعلق بالسفر - وأحب الصحبة فرقى له أبو طالب وقال لأخرين به معه ، ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا .

ونقف هنا وقفة قصيرة ، لماذا كان التعلق الشديد بذلك السفر ؟ قد بينا ما فيه الجواب عن ذلك ، وهو تعرفه التجارة وشؤونها معرفة عيان لا معرفة اخبار ، وأن يمهّد لنفسه ممارستها ، والاتجاه اليها بدل الاقتصار على رعى الغنم .

أما امتناع أبى طالب ابتداء كما يوهم القول ، فسببه الخشية عليه من وعثاء الطريق ، ولخشية الضيعة ، ولذا عندما نزل على ارادته قال « لا يفارقنى ولا أفارقه » .

خرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مع عمه للتجارة بالشام ، فحلت القافلة بأرض مدينة بصرى ، وبصرى كانت موطناً لصوامع الرهبان ، يقيمون بها ، منصرفين الى عبادتهم ، وتعرف الانجيل والتوراة ، وما يحتويان ، فكان لهم مع الرهبنة والزهادة علم بالكتاب وإشاراته ، وتبشيراتهم .

### ارهاص وإشارة بالنبوة :

٩٥ — قامت هذه الرحلة مشتملة على ارهاص كبير معلم بنبوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وفيها اعلان عن البشارة بهذه النبوة والاعلام باماراتها .

لقد كان ببصرى راهب فى صومعة ، اسمه بحيرى ، وكان على علم بالكتاب ، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوى علم بالتوراة والانجيل ، يتوارثون ذلك العلم كابرا عن كابر .

وكان من طبيعة بحيرى كما هو طبيعة كل الرهبان ألا يخرجوا للقاء القوافل ، ولا تعرف أحوالها ، ولا استضافة من فيها ، لأن الرهبنة تتقاضاهم العزلة وهم لا يخرجون عن سنتها ، ولا ينحرفون بأنفسهم عن أحكامها ،

ويظهر أن قوافل العرب تعودت هذا وتعودوها من هذا الراهب خاصة  
الا يلقاهم ، ولا يلقوه .

ولكنه فى هذه المرة خرج من صومعته ، اذ رأى من البيئات ما يتفق  
ما عنده من التبشير برسول يأتى من بعد عيسى اسمه أحمد . فخرج من  
الصومعة ليلتقى بتلك القبيلة ، ويعرف من تنطبق عليه تلك الأمارات ، ويتحقق  
فيه التبشير . ذلك أنهم نزلوا قريبا من صومعته ، ذلك أنه رأى غمامة تظلم  
تسير حيث يسيرون وتقف حيث يقفون ، وأنهم اذا أووا الى فىء شجرة ،  
رأى أغصانها تنهصر ، وتميل حتى تظل واحدا منهم هو رسول الله صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، وجد هذه العلامات ، ويظهر أنه لم يتبين ذلك الصبى ، أو  
تبينه ، وأراد أن يعرف أحواله ، وبقيّة الأمارات الدالة على أنه المذكور  
فى الانجيل .

ولذلك أراد أن يزيد تعرفه بالقوم ، فاتجه الى اكرامهم ، فأقام لهم وليمة  
عامة تشمل صغيرهم وكبيرهم ، لا يتخلف منهم أحد ، وأرسل اليهم يدعهم ،  
وقال فى رسالته لهم : « انى صنعت لكم طعاما يا معشر قريش ، فانا أحب أن  
تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم ، وعبيدكم وحرملك » .

لم يكن العجب من الدعوة الى الطعام ، انما كان العجب من أنه ترك  
صومعته ، وخرج اليهم ، ولذا قال رجل من قريش « والله ان لك يا بحيرى  
لشائنا اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما  
شأنك اليوم » .

قال بحيرى صدقت قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وأحببت أن  
أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكم . فاجتمع القوم اليه ، ولم يتخلف  
الا محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحداثة سنه ،  
وبقى تحت الشجرة يرفع ابلهم ويحرسها ، فلما رآهم لم ير الصفة التى عرف  
بها الرسول المنتظر فى كتبهم ، فذكر لهم أنه طلب الا يتخلف أحد منهم عن  
طعامه ، فقالوا يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغى له أن يأتى ، الا غلام وهو أحدنا  
سنا ، فتخلف فى رحالنا ، قال لا تفعلوا ادعوه ، فليحضر هذا الطعام .

فقال رجل من قريش مع القافلة : والملا والمعى ان كان للؤم منا أن  
يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، حضر محمد صلى  
الله تعالى عليه وسلم الوليمة ، واختصه الرجل بفضل من العناية فاحتضنه ،  
وأجلسه .

أخذ بحيرى يلحظه لحظا شديدا ، وينظر الى الأشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته •

حتى اذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا قال له يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتنى عما أسألك ، وانما قال بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو غلام لم يبعث : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما • عدل بحيرى عن استقسامه بهما ، وقال والله الا أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال عليه الصلاة والسلام سلنى عما بدا لك •

جعل بحيرى يسأله عن رحلته وهيئته وأموره ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخبره • ويقول ابن اسحق فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته •

ثم نظر الى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، فى موضعه من صفته التى عنده •

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ، فقال ما هذا الغلام منك ، قال : أبنى !! قال بحيرى ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال أبو طالب فانه ابن أخى • قال فما فعل أبوه • قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ، ارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر من اليهود ، فوالله لئن راوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فانه كائن لابن أخيك شأن عظيم ، فأسرع به الى بلده •

فخرج به عمه أبو طالب سريعا ، حتى أقدمه مكة ، وانجز تجارته (١) •

٩٦ — ان هذه رواية من الروايات التى رويت فى هذه الرحلة ، والتقاء بحيرى الراهب • وليس فيما ذكره بحيرى • ولا فى أصل القصة غرابة • لأن التبشير بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت عند أهل الكتاب ، وقد أشرنا الى ذلك فى مقدمة كتابنا ، وليس فى القصة أمر يستحيل تصديقه ، أو يتعذر تصديقه ، بل انه خبر يتفق مع ابتداء نشأة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، السيرة لابن هشام ، الاكتفاء •

واظلال الغمامة له عليه الصلاة والسلام ، ليس فيه غرابة أو ما يظن أنه غريب في زعم الذين يجحدون ، ومن طبيعتهم جحود ما ليس ماديا ولا محسوسا ، ولكن يرد عليهم جحودهم بأن شواهد الصدق في الخبر قائمة ، فخاتم النبوة كان أمرا ظاهرا في جسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رآه الرءاؤون ووصفه الواصفون فإذا كانوا لا يؤمنون إلا بالمادى ، فهذا أمر مادي ظاهر ، وقد وجد فيه ، ولم يوجد في أحد من غيره ، فكيف يمترون ؟ وهناك شاهد آخر بالصدق ، وهو وجود هذه الأوصاف المعروفة في التوراة والانجيل حتى بعد أن أصابها التحريف ، وإذا كانوا قد نسوا خطأ مما ذكروا به ، وأفسدوا الباقي ، فالبيشارات تلوح معلنة وجودها ، رغم أنف الجاحدين المستكبرين ، فلا مجال لارتياح مرتاب .

بقى في كلام بحيرى أنه يخوف أبا طالب الكافل الكريم من اليهود ، وفي بعض الروايات أنه يخوفه من الرومان لأنه يعرضه للأذى ، والتخويف منهما معا جائز ، وذلك لأن الرومان كانت الملكانية في الطوائف المسيحية حريصة على معاداة العرب ، وكل مذهب ديني غير الملكانية ، ولذلك كانت العداوة شديدة اللدد بينهم وبين اليعقوبيين بمصر ، وكان بينهما ما بين النصرارى واليهود ، بل كانوا أشد ائذا ، وحينما قربت العقيدة بين طائفتين كانت العداوة أحد ، إذ كل حريص على أن يدمج الآخر فيه .

وأما اليهود فمع أنهم كانوا في البلاد العربية يستفتحون في يثرب على الذين كفروا بالنبي الذى أن أواته ، كانوا يكرهون أن يكون من بنى اسماعيل ، لأن حسدهم يجعلهم يستكثرون أن يكون نبي من غير ذرية اسحق عليه الصلاة والسلام .

وخاتم النبوة الذى كان في ظهر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو لحم ناتئ بين كتفى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نسق ليس فيه تشويه للمنظر ، قيل أنه كتفاحة ، وقيل أنه كرقبة العنزة ، وإن كثرة التشبيهات ممن رآوه في جسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليست اختلافا في أصله ، ولكنه اختلاف في عبارة الذين رآوا ، والتشبيه من حيث حجمه ، ونظر الذى وصفه ، والرواية التى ذكرناها ، هي أقصر الروايات عبارات .

وقد روى الترمذى رواية أخرى أطول ، وقد جاء فيها أن بحيرى قال عندما أخذ بيد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

« هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال أشياخ قريش من أين علمك ، قال انكم حين أشرفتم لم يبق شجر ،

— ٩٤ —

( م ١٠ - خاتم النبيين )

ولا حجر الاخر ساجدا ، ولا تسجد الا للنبي ، وانى اعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه ، ثم رجع فصنع لهم طعاما » (١) .

٩٧ — عاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الرحلة التى يبدو من ثناياها أن محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) أراد فيها أن يعرف الشام وأحواله . والتجارة ، والصفق فى الأسواق ، وبدت فيه تلك البشائر النبوية ، وعلم الأشياخ من قریش مكانة ذلك الصبى ، وهو المحبوب بينهم كأبيه ، حتى انه لما نبههم بحيرى الى انه لم يكن بينهم ويجب أن يكون بينهم ، تنبهوا ، وقال قائلهم ، انه للؤم اذ لم يكن بيننا ، وناداه واحتضنه ، شعورا بالمحبة الشديدة المخلصة ، واشعارا بالندم على ما كان ، رأوا هذه الحال .

وأخذ عمه أبو طالب بنصيحة الراهب ، وقفل به راجعا مسرعا ، خشية عليه ، مما خشى الراهب ، من أن يغتاله اليهود ، أو الرومان ، فعاد به الى قومه .

وانه فى هذه الرحلة التجارية التى رعب فيها محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) واستجاب له أبو طالب شفقة ورقة وملاطفة ، وهو يحسب أنها من رغبات الصبيان ، وأجابه محبة وتديلا — يحسب انه لا جد فيها ، ولا غاية ، ولكن الصبى يظهر أنه كان يريد منها الجد ، فيريد منها الاستعداد لعمل يعتمد فيه على نفسه ، ولا يكون كلا على عمه المحدود فى الرزق ، فهو يريد الكسب من عمل يده .

واذا كان اليتيم لم يقهر محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) فى نفسه ، ان أعزه الله تعالى ، وأكرمه ، ولم يمكن أحدا من قهره فكان اليتيم العزيز المحبوب ، فان محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) استفاد من اليتيم الجد فى طلب الرزق غير معتمد على أحد غير ربه ، أنال من اليتيم محاسنه ، ولم ينل اليتيم منه بمساوئه .

ذلك أن الثابت أن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدا الاعتماد على نفسه من بعد وقد رأينا أنه ابتدا يرعى الغنم صبيا ، فلما تجاوز الصبا الى المراهقة اتجه الى صناعة اشراف مكة ، وهو التجارة ، ولم يذكر التاريخ فى أى من ابتدا التجارة ، ولكن الامارات تصور لذا أنه ابتدا فى سن مبكرة .

(١) الروض الأنف ، ج ١ ص ٢١٩ .



أولاً — لأنه رغب رغبة شديدة فى أن يسافر الى قافلة التجارة ، ولا نفرض أنه طلب ذلك لمجرد متعة السفر ، فانه كان صبيا جادا ، ولم يكن ممن يميلون الى المتع •

وثانيا : لأنه كان لا يمكنه أن يعتمد على ثراء أحد ، اذ كان كافله الذى كفله ، وهو أبو طالب فقيرا •

محمد التاجر :

٩٨ — اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى التجارة منذ بلغ البلوغ الطبيعى ، وقد ثبت فى المصادر التاريخية أنه زاولها مع شريك أو شركاء وقد ثبت أنه كان شريكا للسائب بن أبى السائب ، واستراح الى شركته ، ورأى فيه ما يمازج أخلاقه ، وإن لم يسم اليها ، ولكنه على أى حال رأى الشريك الأمين السمع فى معاملته ، فكان لا يمارى الذى لا يجادل فى الشراء ، ولا يخفى الخبيث من البضائع ، ويظهر الطيب مماراة فى تجارته •

وقد التقى به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند فتح مكة ، فرحب به ، ووفى له بحق الرفقة القديمة فى الاتجار ، وتلقاه مستبشرا مرحبا ، وقال له مذكرا بماضيه ليؤنسه فى حاضره : « مرحبا بأخى وشريكى ، كان لا يشارى ولا يمارى » •

ولم يذكر فى التاريخ ما كان يتجر فيه • لأن كتاب السيرة لا يعنون فى حياة النبى ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) الانسانية بمقدار عنايتهم فيما يتعلق بالرسالة ، وارهاسات النبوة ، وخوارق العادة الصادرة التى أحاطت بحياته فى حاله وترحاله ، ووجهتهم فى ذلك أنهم يجعلون موضع الاهتمام فى دراستهم هو ما امتاز به من يدرسون حياته ، ومثلهم فى ذلك أن من يكتب فى حياة رجل من النبغاء يعنى بجهة نبوغه ، وموضع النبوغ ، ولا يعنى بالنواحي الأخرى الا لتصوير شخصه •

وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد رسول الله تعالى ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وله عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى للانسانية كانت عناية كتاب سيرته الشريفة ، بما يتصل بالرسالة مما سبقها ولحقها ، وقليل منهم ما يكون اتجاهه الى نواحيه المتصلة به كائنسان الا أن يكون لذلك اتصال بموضوع الرسالة •

وقد كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى حياته الأولى راعيا

للغنم ، أو تاجرا مثالا للأمانة والصدق ، وكان مرموقا من مكة ، وأخص ما امتاز به فى حياته كلها الصدق والأمانة والوفاء بالعهد ، ولطف العشرة ، وأنه موطلا الكنف يآلف ويؤلف ، يفتح قلبه لكل عمل كريم ، ولا يضمن على أحد بالمعونة أن لزمت .

كذلك كان فى كل أعماله فى الحياة ، وكذلك كان فى تجارته ، حتى سمي الأمين ، وصار هذا اللقب علما له مع اسمه ، فإذا أطلقت كلمة الأمين ، لا تنصرف الا اليه ، اذ هى لا تطلق الا عليه ، وان كل من يعمل بأمانة ، ويقول بصدق دونه فى الأمانة والصدق ، وكان لذلك فى مكان يعلو به على كل من فى مكة المكرمة من غير استعلاء ولا استكبار .

ولكن ما الذى كان يتجر فيه ؟ لا زال هذا السؤال يلح علينا ما دمنا لم نذكر مادة تجارته فيما ذكرنا ، ولكن يصح أن نسد الفراغ فى هذا الجزء من تاريخه ، عليه الصلاة والسلام ، فانه يتجر فى البضائع التى تتبادل داخل مكة المكرمة ، ولا تذهب الى خارجها ، لأنه لم يعرف انه خرج من مكة المكرمة مع قافلة التجارة الى اليمن أو الشام ، فكانت تجارته عليه الصلاة والسلام ، مع شريكه مقصورة على ذلك النطاق فى داخل المدينة ، وما يفد اليها ، وقد كانت فيها أسواق تمتلىء بالتجار فى موسم الحج ، وكون الحجاج يفدون من أقصى أرض العرب الى أدناها لأبد أن يجعل فيها بضائع ترد اليها مع الحجاج ، ويأخذ الحجاج من بضائع فى مكة المكرمة يعودون بها الى ديارهم .

وإذا كانت رحلة الشتاء والصيف لقريش فيها التجارة الخارجية التى ينقلون فيها بضائع الروم الى الفرس وبضائع الفرس الى الروم ، فمكة المكرمة كان فيها الاتجار فى داخل البلاد العربية فى موسم الحج ، ومنها بضائع الروم والفرس فى البلاد العربية ، فكانت فيها الأسواق رائجة .

### مشاركته فى الأمور الجامعة

٩٩ — لم ينقطع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، عن قومه فى أعمالهم الجماعية ، اذا كانت تتعلق بالتعاون على خير يقومون به ، فإذا كانوا على أمر جامع ذهب اليه ، وشارك فيه ما وسعه المشاركة ، من غير أن يرضى بباطل ، أو لا يبشر بحق ، بل كان دائما مع الحق يستبشر به ، وضد الباطل ، ينغض رأسه به ، هن غير صخب ، ولا شحناء ، فما كانت الشحناء من شأنه ، ولا المباغضة من خلقه ، بل هو فى كل أحواله الودود الحليم ، والنفس الطيبة . كان يحضر دار الندوة اذا انعقدت ، ويستمع الى كبار العرب ، فما يرضيه

من قول الحق يستشرف اليه ، ويستبشر به ، وما لا يكون حقا ، يبدو نفوره منه ، ولا يرتضيه •

جاء فى كتاب زهر الآداب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى صباه حضر ندوة قریش ، وقد حضر من اليمين كبارهم فنظر اليه قيل من أقبالهم ، ورأى فيه نظرات قوية أحيانا ، وهادئة مستبشرة أحيانا أخرى ، فقال :

مالى أرى هذا الغلام تارة ينظر اليكم بعينى لبؤة ، وأخرى بعينى عذراء خفرة ، والله لو أن نظرتة الأولى كانت سهاما لانتظمت أفئدتكم ، فؤادا فؤادا ، ولو أن نظرتة الثانية كانت نسima لأنشرت أمواتكم •

لم يكن منقطعا عن الحياة الجماعية ، إذ أنه رسول الرحمة والمحبة ، وتاليف الجماعات ، فلا بد أن يكون بينهم فى الكريهة ، والرخاء ، لا يفترق عنهم إلا اذا كان الاثم ، فانه يجانبه من غير مباغضة لأهله ، بل يهديهم الى الحق واجتناب الآثام ، فمحب صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليس من طبعه الاعتزال ، بل من طبعه الاتصال بالناس ، ليعرف مواطن الصحة ومواطن المرض ، فاعتزال الحياة والأحياء ليس من الطبع القوى ، بل هو من الضعف العصبى ، إلا أن يكون لعبادة ، فانه ان اعتزل الناس استأنس الله ، فيقدم من بعد ذلك على الناس ، وقد ادخر •

## حرب الفجار

♦ ♦ — الفجار مصدر فاجر ، فمصدر فاعل فعلا أو مفاعلة ، كقتال أو مقاتلة ، ونقاش ومناقشة ، والفجار معناه تبادل الفجور ، أى وقع كل من المتحاربين ، وكان الفجور الذى تبادله الفريقان ، هو أنهما أقدما على القتال فى الشهر الحرام ، وابتداء القتال فيه كان حراما فى الجاهلية ، ولعله بقية من بقايا ابراهيم عليه السلام ، ولذلك جاء الاسلام بتحريم ابتداء القتال فيه أو السير بالقتال فيه الا لضرورة ، ولقد قال الله تعالى : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » •

والأشهر الحرم كما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان • وكان

القتال فيها حراما ليكون الأمن والاطمئنان في الحج الى البيت ، والعودة منه ، وكان رجب حرم فيه القتال ، لأنه شهر عمرة .

وقصة هذه الحرب ، التي انتهت فيها شهر الحرام كما جاءت في كتب السيرة ، أن رجلا من بنى هوازن اسمه عروة الرجال أجار عيرا للنعمان ابن المنذر فيها تجارة وطيب وحريز ، ومعنى اجارتها منع أى أحد من أن يعتدي عليها ، ويقال إنها في جواره ، وتسمى هذه العير اللطيمة .

فلما كانت هذه الاجارة كبر على بعض رجال كنانة ان يمنعها من كنانة ، وهو البراض بن قيس ، فقال غاضبا اتجبرها على كنانة ، فقال عروة نعم وعلى الخلق كله .

فسار الرجلان ، وقد غافل البراض الكنانى عروة ، وقتله ، فقامت الحرب بين القبيلتين وانضمت الى كنانة ، والتقت كنانة وقريش ، مع هوازن ، واقتتلوا أربعة أيام ، حضر النبي عليه الصلاة والسلام رابعها . وكان اليوم الذى حضره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو أشدها .

وقد توادع الفريقان على أن يستأنف القتال بينهما من العام القادم في عكاظ .

فلما توافوا في الميعاد ركب عتية بن ربيعة جملة ، ونادى :

« يا معشر مضر علام تقاتلون ، فقالت هوازن ما تدعو اليه ؟ قال الصلح ، قالوا كيف ؟ قال فدى قتلاكم ( أى ندفع الدية عليها ) ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دياتنا ، قالوا ومن لنا بذلك ، قالوا ومن أنت ؟ قال أنا عتبة ابن ربيعة ، فدفع الصلح على ذلك ، وبعثوا اليهم أربعين رجلا . فيهم حكيم ابن حزام ، فلما رأوا الرهائن من الرجال بين أيديهم عثوا عن دياتهم ، وانقضت حرب الفجار بصلح كريم » .

١٠١ — وهنا نسأل ماذا كانت سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الحرب ؟ وماذا كان عمله شيئا ؟ وما الذى جملة على الذهاب اليها : أما من ناحية سنه ، فنقول : ان ابن هشام يقول في سيرته : « ان سنه كانت بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، ويقول ابن اسحاق : انه كان في العشرين من عمره الكريم .

ولا تجد لاحدى الروايتين ترجيحاً على الأخرى ، الا أن يكون سسند ابن اسحق أقوى ، فلقد قال المشافعى رضى الله عنه « الناس فى السيرة عيال على ابن اسحق » ولعله يكون مما يقوى خبر ابن هشام من السيرة أن أعمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذوه فى هذا اليوم ، فهذا يدل على أنه لا يزال حدثاً ، ومن بلغ العشرين يكون رجلاً •

ومهما يكن فانا نرى أنه كان ابن عشرين ، كما يدل على ذلك ما يجىء فى حلف الفضول •

ومع أنه بلغ العشرين لم يقدم على القتال ، لأنها ليست حرباً عادلة ، وفطرة محمد السليمة ما كانت لتسمح له بأن يقاتل فى حرب فاجرة انتهكت فيها الحرمات من الجانبين ، فكلاهما آثم ، فكيف يشترك الطاهر المطهر الذى رباه الله تعالى على عينه فى حرب خالطها الاثم ، فى سببها وفى زمانها ، وفى وقائعها ؟

لم يكن للنبى فى هذه الحرب الا أنه شهدا بعد أن حمى وطيسها ، وكان ذلك بسبب أعمامه الذين اشتركوا فيها ، ولعله كان يود مشاهدتها ، لأن له قلباً طاهراً ، لا يسكن والناس فى كرب ، فكان يشاهد ، وان لم يقوم بعمل فيه حرب ، ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى عمله الدافع للأذى ، وليس فيه أحداث : « كنت أنبل على أعمامى » أى أمتنع النبيل عن أعمامى ، فهو كان درعاً واقية لأعمامه ، فلم يغمس يده فى حرب الا أن يكون واقياً لذوى رحمه كالنبيه الذين رعوه حق الرعاية •

ومهما يكن الأمر فى شهوده تلك الحرب الآثمة ، حتى فى نظر الذين أشعلوها ، فقد كان من النظارة ، ولم يشترك الا أن يكون وقاية لذوى رحمه •

## حلف الفضول

٢ • ١ — عاش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مطلع حياته مع قومه يشاركهم وجدانهم ، ان كان يتجه الى الخير ، ويتجنب الشر ولا ينفمس ، فهو يفعل ما يتفق مع الفطرة المستقيمة التى فطره الله تعالى عليها ، والمنهاج القويم الذى هداه الله تعالى اليه ، وأدبه بأدبه •

ومن ذلك حلف الفضول الذى قال فيه ابن كثير انه كان أكرم حلف وأشرفه  
فى العرب •

وقد كان ذلك الحلف ، والنهى عليه الصلاة والسلام قد بلغ العشرين ، وقد  
أجمع الرواة على ذلك ، وقالوا انه كان بعد حرب الفجار كان حلف الفضول فى  
شهر ذى القعدة ، وكان الفجار قبله بأربعة أشهر ، أى أن الفجار كان فى شهر  
رجب وهو من الأشهر الحرم ، ولم يذكروا أن حرب الفجار كان ، والحج قائم ،  
وشهر رجب ليس من أشهر الحج ، وأن كان من الأشهر الحرم •

وقالوا ان سببه أن رجلا من زبيدة قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه  
العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه بنى عبد الدار ، ومخزوما  
وجمحا ، وغيرهم ، فلما رأى الرجل أن حقه ضائع ، وبدا القعود فيمن استعان  
بهم علا جبل أبى قعيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة  
المشرقة فنادى بأعلى صوته منشدًا •

يا آل فهر اظلموا بضاعته      ببطن مكة نائى الدار والنفسر  
ومحرم اشعث لم يقض عمرته      يا للرجال ، وبين الحجر والحجر  
ان الحرام لمن تمت كرامته      ولا حرام لثوب التاجر الغدر

فالرجل يثير فيهم الحمية بذكر الظلم الواقع عليه ، وأنه واقع ببطن  
أرض الله ، ويجوار البيت المقدس الذى لا تخطف فيه الأموال وتضيع  
الحقوق ، وأن الظلم بين الحجر ، وبين الحجر الأسود الذى يقدرسونه ، ويشير  
الى أنه محرم للعمرة •••••

كان أول من استجاب لنداء الله ، وتقدم لأغاثته بنو عبد المطلب ، فقام  
فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقابل ما لهذا مترك ، أى لا يصح أن يترك •

اجتمعت لهذا بطون بنى هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة فى دار عبد الله  
ابن جدعان ، وكان جوادا ، فصنع لهم طعاما ، وكان ذلك فى ذى القعدة  
الشهر الحرام •

تعاقدوا وتحالفوا ليكونن على الظالم ، حتى يؤدى اليه حقه ، ما بل

بحرصوفة ، ومارساثبير وحراء مكانهما ، وعلى الناس فى المعاش ، قسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول (١) .

وقد نفذ ذلك الحلف فور انعقاده ، فقد مشى المتعاهدون الى العاص ابن وائل فانتزعوا من سلعة الزبيدى فدفعوها اليه ، وقد قال الزبير ابن عبد المطلب معتزاً به :

ان الفضول تعاقدوا وتحالفوا      الا يقيم ببطن مكة ظالم  
أمر عليه تعاقدوا وتوافقوا      فالجار والمعتريهم سالم

ولقد سر النبي عليه الصلاة والسلام لشهوده ذلك الحلف ، وأعلن أنه ينفذه فى الاسلام : «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ولو دعى به فى الاسلام لأجبت ، تحالفوا على أن يردوا الفضول الى أهلها » .

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ولقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعى به فى الاسلام لأجبت » .

ولقد نفذ الحلف قبل بعثة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيروى أن رجلاً من خثعم قدم حاجاً أو معتمراً ومعه ابنته من أوضاع الناس جمالا ، فأخذها عنوة منه نبيه بن الحجاج وغيبها ، فقال الخثعمى : من يعيدنى على هذا الرجل ، فقبل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة المشرفة ، ونادى يا آل حلف الفضول ، فاذا هم يفيضون اليه من كل جانب ، وقد انتضوا أسياهم يقولون جاءك الغوث ، مالك ، فقال ان نبيها ظلمنى فى بنتى ، وانتزعها منى قسراً ، فساروا معه ، حتى وقفوا على باب داره ، فخرج اليهم ، وما زالوا به حتى عادت الفتاة الى أبيها .

وان ذلك الحلف كان لازماً ، لأن مكة كانت بلد العرب ، وثمرات العرب

---

(١) قيل انما سمي حلف الفضول ، لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه ، وكان الداعى اليه ثلاثة من أشرفهم اسم كل واحد منهم فضل ، وهم الفضل بن فضالة ، والفضل بن الحارث ، والفضل ابن وداعة ، ذكره ابن قتيبة ، وقيل سمي حلف الفضول ، لأن أصحابه دخلوا فى فضل من الأمر التزموا به ، وقيل ان الفضول معناها الحقوق ، وتحالفوا على ردها .

تجىء إليها ، فلا بد أن يستقر فيها الأمن ، ويكون بلد الاطمئنان والمحافظة على الحقوق ، ولا يكون فيها اعتداء حتى يجىء الناس إليها •

ولأنها يحج إليها الناس من كل فج عميق ، فلا بد أن يتعاون أهلها على جعلها مكانا مقدس فيه الحقوق كما يقدس البيت ، ولأنها أرض البيت الذى جعله الله تعالى مثابة للناس ، فلا يكون الأمن للأرواح فقط ، بل يكون للأرواح ، وللأموال ، ولكل ما يحتاج اليه اطمئنان النفس •

## الزواج

١٠٣ — بلغ محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، سن الزواج ، ولكنه لم يتزوج فى سن مبكرة ، كغيره من الشباب ، بل استمر لا يتجه الى الزواج أو لا يفكر فيه ، حتى بلغ الخامسة والعشرين ، كما سنين •

ولماذا لم يعرف أنه فكر فى الزواج من قبل هذه السن ، لقد كان عفا كريما ، لم يقع منه فى طفولته ما يشين الكرام وقد عصمه الله تعالى يوم هم ، وهو طفل أن يلهو بالوقوف عند عرس لا يغشى حراما ، ولكن ربما يرى فيه حراما ، فصانه الله تعالى بأن ضربه بالنوم ، فنام الليلة كلها ، حتى أيقظته الشمس فى ضحاها •

وهو ليس حصورا ، كما برلت على ذلك حياته من بعد ، وما كان خاملا فى قومه ، بل هو الذى اذا خطب لا ترد خطبته ، وكان فيه خلق قويمة يجعل القلوب تهفو اليه ، وفيه جمال يجعل الأنظار تتعلق به ، وتشرئب الأعناق اليه ، وقريش كلها يحبه • ويرضاه صهرا •

أكان فقيرا لا يجد ما يبوء به على أهله ؟ نعم انه لم يكن غنيا ، ولكنه تعود منذ نعومة أظفاره أن يكون عاملا ، فرعى الغنم ، ثم اتجر ، واذا كان الاتجار لم تأتته موفور يرفعه الى الثراء ، فقد كان فيه الاكتفاء ، فلم اذا اذن تأخر فى الزواج •

ان الذى ثلمسه من تاريخ حياته فى ابتدائها ، حتى صار شابا ممتلىء الشباب أنه ما كان يعير شهوات البدن اهتماما فليس للنساء موضع فى تفكيره ، انما يشغل النساء والطعام القلب الفارغ ، وما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى أى دور من أدوار حياته مما يشغل قلبه لذات الجسم ، وشهوات النفس ، لا عن ضعف فى النفس ، ولكن عن قوة فيها ، وهمة عالية



تتجه الى معالى الأمور ، وعزيمة صادقة ، و ارادة قوية ، لا تجعل للهوى سلطانا عليها ، بل تجعل كل العواطف تحت سلطانها ، والغايات العليا هى التى تجذبها ، فلا تجذبه امرأة مهما يكن فيها من جمال ، ولا تستولى على نفسه غاية يتغياها تتعلق بالبدن ، ولا مطلب من مطالب الجسد ، وان لم يتجه الى الحرمان فى ذاته .

وكأنه لا يعيش الا فى حياة روحية من غير حرمان ، فليست نفسه مثقلة بعموم الجسد ، وان شئت تقول انه الملك المريد المكلف الذى لا يعصى الله ، لأنه يريد الا يعصى ، فهو لا يعصى لامتناع المعصية عليه بل لأنه يكف النفس عنها ، فله فى الكف فضل ، وليس كالمالك يمتنع عليه العصيان .

### خديجة :

٤٠١ — لم يعرف أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتكلم فى صغره ، ولا فى باكورة شبابه فى أمر الزواج الا بعد أن نبه اليه ، وصار مطلوبا ، ولم يكن طالبا ، ولنذكر الأخبار كما جاءت فى كتب السيرة فيما يتعلق بزواجه من سيدة قريش ، كيف ابتدأت بالمشاركة فى التجارة ، ثم بالمشاركة فى الحياة .

اشتهر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، بالأمانة والخلق الكريم ، وتحدثت بأمانته الجماعات المكية فى سمرها وفى مجالسها ، وكان قد مارس التجارة فى دائرة محدودة فى داخل مكة على قدر طاقته ، وما يملك ، وانه لقليل .

وكان لخديجة مال كثير ، حتى ان غيرها الذى يحمل بضائعها ، كان يعادل غير قريش كلها فى حجمه ، ونفاسة ما اشتمل عليه من بضائع التجار .

وكانت حكيمة شريفة فى قومها ، تحتفظ بجمال ، وشباب ، وكانت أرملة زوجا لرجلين قد ماتا ، وما كانت تتولى تجارتها بنفسها ، لأن ذلك لم يكن شأننا من شئون النساء ، بل السفر والترحال للتجار كان من شئون الرجال ، لصعوبة السفر فى هذا الابان ، وكما وصف السفر عبد الله بن عباس لولا الأثر لقلت ان العذاب قطعة من السفر وليس هو قطعة من العذاب .

كانت خديجة مع قوة شخصيتها لهذه الاعتبارات لا تذهب بتجارتها الى الشام ، وكانت تسلك إحدى طريقتين — احدهما — أن تؤجر ناسا يكونون وكلاء عنها فى التجارة على أجر معلوم تعطيهام اياه ، على مقدار ما يبدلون

من جهد فى الرحلة ، يبيعون ويشترون باسمها ، ولا شأن لهم فى كسب التجارة ،  
وانما لهم أجر معلوم يأخذونه كسدت التجارة أو ربحت ، وأجرهم مقدر بالأمن  
أو بالعمل أو بهما معا .

الثانية : طريقة المضاربة الشرعية ، وذلك بأن يتجروا فى المال بعقد بينها  
وبينهم على أن يكون الربح بينها وبينهم ، مقسوما بحصص شائعة كالربح  
أو الثمن أو السدس ، أو نحو ذلك ، وملكيتهما قائمة ، وإذا خسرت التجارة  
تكون الخسارة عليها وحدها ، لأن المال باق على ملكيتها ، ويسمى هذا العقد  
المضاربة أو القراض .

ولا شك أن الطريقتين كانتا تحتاجان الى أمانة كاملة ، فكانت تتحرى  
فى أولئك العاملين لها الأمانة ، لأنهم فى عملهم ينوبون عنها ، لا تلقاهم الا فى  
ذهابهم ومجيئهم ، وكانت مع ذلك ترسل من قبلها من يكون معهم كميسرة  
مولاهما .

ولما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يعمل فى تجارة محدودة ،  
وقد بلغها أمانته ، وشرفه ، وعفته واستقامة نفسه ، اتجهت اليه ، وكان هو فى  
مطارج أنظارها ، والظاهر أنه بمجرد أن خطر على خاطرها ، لم ترض غيره  
بديلا ، لأنه لم يكن له نظير بين العرب ، فى أمانته وعفته وشرف نفسه ، وخلقه  
الكريم ، وبعده عن التدلى الى مهوى الرذيلة .

١٠٥ — بينما هى تفكر فى اختياره وكيلا عنها فى رحلة القافلة التى  
تحمل غيرها مع غيرها كان أبو طالب عم النبى عليه الصلاة والسلام يفكر فى  
أن يعرض محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، عليها العمل فى تجارتها وكيلا ،  
ليبعد عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، جهد السنين الشديدة التى كانت  
فى الأسرة .

ويظهر أنها كانت تبحث عن تراه كفتا لحمل العبء ، ويتهافت عليها  
الطالبون ، فأشار أبو طالب على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، القوى  
الأمين ، بأن يعرض نفسه مسارعا الى ذلك خشية أن يسبقه غيره ، ولكن محمدا  
صلى الله تعالى عليه وسلم ، يرى فى العرض ذلة لا يرضاها الكريم ، ومثار  
إتهام لا يرضاه الأمين ، فهو يريد عزة المطلوب ، لا ذلة الطالب ، ولننقل للقارئ  
الكريم المجاببة التى كانت بين العم وابن الأخ :

قال أبو طالب : يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان  
علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير

قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبثت رجلا من قومك ، يتجرون في مالها ، ويصيرون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك ، وان كنت أكره أن تأتي الى الشام ، وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا نجد بدا من ذلك .

فيقول محمد الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعلها ترسل الى في ذلك .

فقال أبو طالب أخاف أن تولى غيرك (١) .

ونرى من تلك المناقشة كيف لا يعرض شرفه وأمانته ، وتكونان محل قبول أو رفض ، لأن الأمين حقا وصدقا — لا يجعل الأمانة ولا الشرف متجرا يتجر به ، ولكن الشرف في ذاته مطلوب ، والأمانة سجية ، لا يتخذها سبيلا للكسب ، وليس هو غايتها ، لا تطلب الا له ، ولكن تكون ثمرة طيبة ، كما تثمر الأرض الطيبة ، والشجرة اليانعة .

قل إنها بلغت هذه المحاورة بين العم وابن الأخ فطلبت ، وإنها كانت تعرف صدقه وأمانته وكرم أخلاقه . وإنها ما كانت تعلم أنه يريد هذا .

وعندئذ أنها كانت تفكر فيه ، وإن رغبته تلاقت مع رغبة عمه سواء أعلمت بالمحاورة أم لم تعلم ، وإذا أراد الله تعالى أمرا تهيات أسبابه ، وكان التوفيق بنجاحه .

أرسلت خديجة الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، تطلبه وقالت له :

« دعاني الى البعثة اليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك » .

إننا نلمح من ثنايا السطور أنها كانت راغبة في أن تعهد اليه بتجارها من ذات نفسها أو أنها لرغبتها أعطته ضعف ما كانت تعطى غيره ، ولماذا ضاعفت الاجر ؟ الجواب عن ذلك أنها وقع في نفسها أن التجارة ستكون رابحة بفضل الأمانة ، ولتشجعه على الحرص ، وربما تكون رغبة خفية ، جعلتها تعامله بما لم تعامل به غيره ، وأخفت ما لا تبديه مما جرى من خير بعد ذلك .

---

(١) المناقشة في شرح المواهب اللدنية .

ولقد سارع محمد عليه الصلاة والسلام ، الى عمه الحبيب يخبره بما جرى ، لأنه طلبته ، فسر عمه ، وقال له « ان هذا رزق ساقه الله تعالى اليك » \*

## ارهاصات الرحلة :

١٠٦ — فصلت العير ، وفيها خير خلق الله تعالى ، تكلؤها عنايته سبحانه وتعالى ، ولم تكن سفرا قاصدا بل كان فيها مشقة ، وان لم يكن فيها عنت فوق الطاقة ، وكانت عير خديجة وحدها ، تبلغ غير قریش كما أشرنا ، حتى بلغت سوق بصرى التى بلغتها القافلة الأولى التى كان فيها محمد ( عليه الصلاة والسلام ) مع عمه أبى طالب ، وهو فى الثانية عشرة من عمره .

وروى أنه وصل الى سوق « حباشة » وهى أرض بتهامة ، ولكن الرواية الأولى هى المشهورة وهى أقرب الى التصديق ، أو هى الصادقة ، لأن تهامة من أرض العرب ، والرحلة كانت الى الشام ، اذ كانت العير حاملة البضائع الى الشام ، لا الى العرب .

وكان معه ميسرة مولى خديجة ، لا ليرقبه ، فما كان يتصور منها ذلك بالنسبة للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليعينه فى حله وترحاله .

وكان خروج العير أو وصولها لأربع عشرة بقية من ذى الحجة (١) ، وله عليه الصلاة والسلام خمس وعشرون سنة .

وكان هذه العير خرجت بعد قيام الأسواق التى تقام فى مكة أيام الحج ، عكاظ ، وذى المجاز ، ومجنة ، وهذا يومىء الى أنها حملت من بضائع هذه الأسواق التى تجيء من اليمن ، وسائر نواحي العرب ، قاصيها ودانيها ، وذهبت الى الشام محملة بها ، وكانت البضائع تباع فى مكة ، لتنتقل من بعد الى الشام ، أو الى اليمن .

ولما وصلت العير الى بصرى كان السير قد بلغ منه الجهد فأوى الى شجرة قريبة من صومعة راهب هو نسطورا ، وهو غير راهب الرحلة التى كانت مع عمه ، اذ الأول اسمه بحيرى ، وهذا اسمه نسطورا وقد مضى على الأولى نحو ثلاث عشرة سنة ربما يكون الأول قد مات ، أو غير صومعته .

---

(١) المواهب اللدنية للعسقلانى وشرحها ج ١ ص ١٩٨ .

التقى الراهب بميسرة غلام خديجة ، والذي كان فى معونة محمد عليه الصلاة والسلام وخدمته ، وقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، قال الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبي ، وكأن هذه الشجرة منذ القدم هى منزل الأنبياء ينزلون فى ظلها وغيرهم ينصرفون ، ولا يلون عليها ، وقد استبعد بعض كتاب السيرة هذا المعنى ، لبعد العهد بين محمد عليه الصلاة والسلام ، وعيسى عليه السلام ، والشجرة فى نظر هؤلاء المستبعدين لا تعمر فى العادة هذا العمر الطويل ، وليس من المعقول أن تخلو شجرة من أن ينزل فيها السيارة فى الطريق الطويل وفيه الظل والحرور ، اللهم الا أن يقال ان هذه خصوصية للأنبياء ، ينصرف عن الايواء اليها غيرهم ، ويجيء اليها النبيون كأنهم مأمورون بالايواء » .

ولهذا الاستبعاد فسر الآكثرون كلام الراهب بأنه ما نزل الآن فى هذه الساعة تحت هذه الشجرة الا نبي فهو يخص محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، بوصف النبوة باعتبار أنه هو الذى نزل الآن ، لأمارات عنده .

وربما نميل الى ذلك التفسير ، لأنه لا دليل على تخصيص الأنبياء بشجر أو منزل أو نحو ذلك ، وانما التخصيص فى الاكرام الشخصى . والأمارات الظاهرة فيه (١) .

وقد قيل فى هذه الرحلة انه كان كلما اشتد الحر ، كان يرى ميسرة ملكين يظلالنه من الشمس ، وبغيره يحمله .

وليس لنا أن ننفى ذلك الخارق للعادة اذا روى بسند صحيح ، لا مجال للريب فيه ، ولكن فى رواية ذلك كلام .

أقام محمد عليه الصلاة والسلام فى الشام حتى باع أحمال العير الخاص بخديجة ، ثم بثمن ما باع اشترى بضائع من الشام ، وقفل راجعا بها الى مكة .

---

(١) يروى أن الراهب لما رآه دنا اليه وقبل رأسه وقدميه ، وقال له : أمنت بك وأشهد أنك الذى ذكره الله تعالى فى التوراة ، فلما رأى الخاتم قبله ، وقال أشهد أنك رسول الله تعالى النبى الأمى الذى بشر بك عيسى . الى آخر ما قال . ويروى أنه فى أثناء تجارته اختلف على بعض معامليه فقال الرجل احلف باللات والعزى ، فقال ما حلفت بهما ، قال القول قولك .

والربح يتعرف بمقدار الثمن الذى تباع به لينقله التجار فى قافلة تذهب الى اليمن ، وقد باع كل البضائع التى اشتراها فى مكة ، فكان الثمن ضعف رأس المال الذى كانت المتاجر التى ذهب بها محمد ( عليه الصلاة والسلام ) فكأن الكسب كان مثل رأس المال •

وان ذلك بفضل أمانة محمد عليه الصلاة والسلام ، وحرصه فى التجارة ، وبفضل ما هو أعظم من ذلك وهو البركة التى فاضت على محمد ( عليه الصلاة والسلام ) فيما يعمل •

### الأملاك :

١٠٧ — ان ميسرة مولى السيدة خديجة أخبرها بما رأى من طيب نفسه ، ومن لطف عشرته ، ومن حسن معاملته ومن سماحته ، ومن أنه موطن الكنف يأنف ويؤلف ، مع شرف محتده ، ومكارم أخلاقه العامة والخاصة ، ولعله أخبرها أيضا بما كان من لقاء الراهب ، ومن أكرام الله تعالى فى الحر ، وما حسبه ملكين يظللانه فى الحرور اذا اشتد ، وغير ذلك من أرهاصات •

ثم ما كانت ترى من مكانة له فى قريش ، ومحبة غامرة له من كل من يلقاه ، فهو المحبوب المألوف •

كل هذا أوجد فيها طموحا لأن تكون زوجا له ، وأن تكون أما لأطهر الأولاد من أظهر الرجال ، ورغبت فى ذلك أشد الرغبة ، وهى التى بعد هلاك زوجها الأولين اللذين كانت لها منهما الولد — كثر طلاب يدها من أشراف مكة ، ولكنها العزوف العيوف التى ردت كل طلب مع كثرة من طلب ، وعلو أقدارهم المادية فى نظر الناس ، والنسبية فى نظر ذوى الأنساب •

ولكنها وجدت فى الشاب الهاشمى محمد ( عليه الصلاة والسلام ) ما ليس فى الرجال شيئا وشبابا — فرغبت فى الاملاك منه فى غير عشق ولا هيام ، ولا رعونة وطيش ، ولكن فى ارادة مقدرة ، وتفكير فى الماضى والحاضر والقابل ، فقد علت خديجة عن حال العشاق ، ولم يكن سننها ، ولا شرفها ، ولا مكانتها فى قريش لتسمح أن يغريها من الصفات ما يغرى الغريرات من النساء •

ولكن محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) هل طمع فى الزواج منها أو من غيرها ؟ أو هل حدثته نفسه بمعنى من المعانى ، أو هاجسته من هذه الهواجس ؟

انه لم يثبت شيء من ذلك لأن محمداً ( عليه الصلاة والسلام ) ما خلب كيدته أمر من أمور اللذائذ والشهوات وما يتصل بها ، ولكنه اذا نبه يتنبه ، فكان لا بد من منبه .

٨٠١ — أدركت بفطنتها وغريزتها أنه لا بد من أن ينبه ، فتولت هي ذلك الأمر ، وللنساء فيه قدرة ، وأن كانت من مثل خديجة فيسه مواجهته واحتشام من غير اسفاف .

أرسلت نفيسة بنت منية لتنبه محمداً ( عليه الصلاة والسلام ) ولتجس نبضه ، وقد فعلت ، ولنترك الكلمة لها :

قالت : كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي أوسط قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها ، لو قدر على ذلك ، طلبوها ، وبذلوا لها الأموال . . . فأرسلتني دسيسا الى محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) بعد أن رجع في عيرها من الشام ، فقلت يا محمد ( عليه الصلاة والسلام ) ما يمنعك أن تتزوج . قال : « ما بيدي ما أتزوج به ، قلت : فان كفيت ذلك ودعيت الى المال والجمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب . قال فمن هي ؟ قلت خديجة قال وكيف لي بذلك ، فذهبت فأخبرتها فأرسلت اليه أن اثت لساعة كذا » ذهب محمد ( عليه الصلاة والسلام ) للقاءها ، فواجهته الأمر ، وخاطبته بعد أن استوثقت من أنه لا يردها ، فقالت « يا ابن عم انى قد رغبت فيك لقربتك وسطتك (١) في قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك » وعند هذا العرض الكريم أعلن القبول ، وإن لم يكن ذلك القبول في عقد ، بل هو خطبة .

والسيدة الكريمة الحازمة لم تترك الأمر بينها ، بل لا بد من تلاقى الأسرتين بعد ، وتلاقى الإرادتين ، وتوافق الرغبتين . لأن الزواج اتصال أسرتين ، لا مجرد اتصال فردين .

ولذا قالت لمحمد ( عليه الصلاة والسلام ) اذهب الى عمك ، فقل له : « عجل الينا بالغداة » .

جاء اليها أبو طالب ، فقالت له يا أبا طالب اذهب الى عمى ، فقل له

---

(١) أى بوسطك ، وكونك من أوسط قدرك أى أعلاهم نسبا .

يزوجنى من ابن أخيك ، فوافق أبو طالب على أصل الزواج ، وعلى أن يقوم من جانبه ، وقال : « هذا صنع الله » •

٩٠٩ — تمت الخطبة ، وتراضت الأسرة ، وكان يوم الزواج ، وكان الصداق اثنتى عشرة أوقية من ذهب ونصف أوقية •

اجتمع رؤساء مضر ، وكبراء مكة وأشرفها لاتمام العقد ، وكان وكيل الزوج عمها ، وأبو طالب كان المتكلم باسم محمد ( عليه الصلاة والسلام ) وقف أبو طالب خطيبا ، وقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئىء معد (١) وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمة ، وجعل لنا بيتا محجوجا ، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ان ابن أخى هذا محمد بن عبد الله ( صلى الله عليه وسلم ) لا يوزن برجل الا رجح به ، وان كان فى المال قلافان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وقد بذل لها من الصداق ما أجله وعاجله اثنتا عشرة أوقية ذهبا ونشا (٢) وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل •

وقد وقف بعد ذلك ورقة بن نوفل (٣) ، ويظهر أنه كان له ما يسوغ أن يعقد من قبلها وخطب قائلا فقال :

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عدت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم ، ولا شرفكم ، وقد رغبتنا فى الاتصال بحبلكم ، وشرفكم فاشهدوا يا معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد ابن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) •

ولكن أبا طالب أراد أن يتكلم عمها بالقبول ، لأنه أقرب اليها من ورقة فقال : قد أحببت أن يشركك عمها ، فقال عمها : « اشهدوا يا معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) خديجة بنت

---

(١) ضئىء معناها أصل •

(٢) أى نصف أوقية •

(٣) كان ابن عمها •



خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش » • ومن هذا كله يتبين ان الذى تولى تزويجها عمها عمرو بن أسد ، وشركه ابن عمها ورقة بن نوفل (١) •

والمشهور بين العلماء وأصحاب السير والتاريخ أن سنه عليه الصلاة والسلام فى وقت الزواج كانت خمساً وعشرين سنة ، وكانت هى فى الأربعين من عمرها •

ولقد كانت أقوال أخرى فى سنهما عند الزواج ، ولم يبلغ واحد منها مرتبة الشهرة ، فقليل ان سنه عليه الصلاة والسلام كانت الحادية والعشرين ، وقيل كانت التاسعة والعشرين ، وقيل كانت الثلاثين وقال ابن جريج كانت السابعة والثلاثين •

وهذه أقوال ليس لها سند ، والمشهور هو المعتمد ، حتى يقوم الدليل على خلافه ، وذلك فوق أن بعضها لا يتلاقى مع النسق التاريخى ، ذلك أن المتفق عليه أن الزواج لم يكن فور حرب الفجار ، بل كان بعده بمدة ، ولو كان فى الحادية والعشرين ، لكان فوره • والتقدير بالسابعة والثلاثين بعيد التصديق

---

(١) ننبه هنا الى أمرين - أولهما - أننا اعتمدنا فى تقدير المهر على ما جاء فى خطبة أبى طالب ، وجاء فى بعض كتب السيرة أنه أمهرها عشرين بكرا ، أى أنه ذكر أن المهر كان بالنوق ، وقد جمعوا بين التقديرين بأن الثانى كان قد زاده النبى عليه الصلاة والسلام ، لأن الكرام يزيدون على ما هو مفروض ، وقد يقال ان المذكور من المذهب هو تقدير للقيمة •

الأمر الثانى - أن المشهور المعروف أن الذى زوجها هو عمها عمرو ، وهو المشهور ، وقيل أخوها عمرو بن خويلد ، والأول هو الذى عليه المعول ، ولا التفات لغيره •

وما ذكره ابن اسحاق من أن الذى زوجها أبوها خويلد غير صحيح ، لأن خويلد قد مات قبل حرب الفجار ، وذلك ثابت مشهور ، ولأن الخبر بأن الذى يقول أن الذى زوجها هو أبوها ، تضمن ما يدل على كذبه ، فقد قال رواه أن أباه كان سكران من الخمر ، وكلمه وهو سكران ، فألقت عليه حلة وضمخته بالطيب ، فلما استفاق ، قال ما هذه الحلة والطيب ، فقالت قد أنكحت منى محمداً ، فانكر ، ثم لما رأى محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) وافق •

وان احتمال أن يعقد رجل من أشراف العرب عقد زواج وهو سكران يستنكره العرف والعقل ، ولا يمكن أن يقدم عليه أبو طالب ، وهو كبير ومسن ، ووكيل للنبى ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) فى الزواج •

اذ مؤداه أن محمدا عليه الصلاة والسلام عاش راهبا الى أن بلغ السابعة والثلاثين ، وان بناته غير فاطمة تزوجن قبل الهجرة ، وبعضهن تزوجت وطلقت ، ثم تزوجت ، ولو كان زواجه فى السابعة والثلاثين ما كن بلغن سن الزواج قبل الهجرة ، وخصوصا أنه ما كان أول أولاده من أم المؤمنين خديجة أنثى ، بل ولده القاسم الذى كان يكنى به ، ثم ابنه الطيب ثم الطاهر وهكذا ، نرى أن السياق التاريخى لا يتسق الا مع المشهور \* وهو ذو السند ، ولا سند لغيره \*

وأما سنها ، فقد كان المشهور أربعين ، وقيل كانت فى الخامسة والثلاثين ، وقيل كانت فى الخامسة والعشرين ، ولا سند لهذه الأقوال ، ولكن التاريخ يعتمد دائما على المشهور الذى له سند يعتمد عليه ، ولا خلاف بين كتاب السيرة فى أن سنها رضى الله تعالى عنها ، وجزاها عن الاسلام خيرا كانت أربعين ، وغيرها أقوال منثورة لم يؤيدها كتاب السيرة والمحققين \*

ولسنا من الذين يتجهون الى الاغراب ، لأن الاغراب ان كان سائغا فى بعض العلوم ، فهو لا يسوغ قط فى التاريخ ، لأن تتبع الاغراب فى التاريخ انكار لما اشتهر ، وارتضاء بما لم يشتهر من غير سند \*

ان الحقائق هى الأمور المشهورة ، ورد ما عداها ، الا اذا قام الدليل المكذب للمشهور بما لا يقل عنه قوة ، والله تعالى أعلم \*

## أغناه الله وأسأه

• ١١ — ولد محمد عليه الصلاة والسلام يتيما ، وعاش يتيما ، ثم آتاه الله تعالى اليسر العامل ، وكفاه العيش الكادح ، رعى الغنم ودبر التجارة ، ثم بسط الله تعالى له الرزق ، وآتاه الزوج الوفية الرضية ، فأكمل الله بما انسانيته ، وأكمل لها أمومتها ، وتوافقا فى قطع فيافى هذا الوجود ، وكمل كل منهما ما ينقصه بما عند الآخر ، هى امرأة شريفة ، ذات ثراء ، وهو رجل مكتمل عامل قوى أمين ، فأغناها بأمانته ، وكفلها برجولته ، ووجه مالها الى الخير ، بحسن نيته وطيب طويته \*

وقد كان يعمل لها فى المال من قبل بأجر مضاعف ، تطيب به نفسها ، ويكسب مالها على يديه أضعاف ما ينتج غيره ، وكان عبدا شكورا ، ولواستمر فى هذه الطريق يعمل فى مالها ومال غيرها ، لأدر الله تعالى عليه أخلاف الرزق ، ولو كان يبتغى المال وأعراض الدنيا هذه ، لنال الشباب والمال معا \*

ولكنه رأى أن يعمل فى مالها بغير أجر ، وأن يضاعفه بغير ثمن ، وأن تكون أم ولدها ، لطيب عرفها وشرف نفسها ، وقد تخير لنطقته ، فاختار أكمل امرأة فى قريش ، وأعلها فى المكرمات كمبا ، وقد اختارها الله تعالى لتكون له رداً فى شدائده ، تواسيه بالكلمة والعطف والحنان ، فى وقت اشتد فيه البلاء ، وعظم الابتلاء ، فأعنته المخالفون ، وكان عزيزاً عليه أن يعتنهم ، فكان فى حاجة الى من يأوى اليه ، كما هو فى حاجة الى من يزود عنه .

وإذا كانت امرأة نوح وامرأة لوط قد تخاذلتا عن معاونته النبيين الصالحين ، فامرأة محمد عليه الصلاة والسلام أعلت شأن النساء قاطبة ، فكانت الزوج الملهمة المواسية ، الودود العطف الولود ، يلقي قريشاً وصدودها ، وعداوتها وجفوتها ، فإذا آوى الى بيته وجد برداً وسلاماً .

وإذا كان قد فقد عطف الأم الرءوم فى صدر حياته فى وقت الحاجة ، فقد عوضه الله تعالى فى خديجة زوجاً وأماً ورفيقة الحياة .

١١١ — أغنى الله اليتيم ، كان عائلاً فأغنى فهل طغى واستغنى ، هل عبث وتلهى ، هل اتخذ الحياة لهواً ولعباً ، هل أخذ فى التكاثر ، والمكاثرة ! لا شيء من ذلك ، إنما يفعل ذلك من اتخذ المال غاية ، ولم يتخذ سبيلاً للخير وعون الانسان لأخيه الانسان .

ومحمد ( عليه الصلاة والسلام ) ما اتخذ المال بغية يبتغيها ، ولا غاية يتطلع اليها ، فما أراد التكاثر ، وما عرفه فى أى دور من أدوار حياته .

إنما اتخذها وسيلة للمكرمات يقوم بها ، وللخير يسديه ، فكان يطعم الكل ، ويعين على نوائب الدهر ، ولا يجد ذا حاجة الى العون الا أعانه ، ولا ذا خصاصة الا سدها ، ولا ذا مسغبة الا أشبعه ، ولا ذا متربة الا رفعه ، كان يبحث عن مواضع الحاجة ، فيأرب ثلثتها .

تلقت فيمن حوله ، فرأى كافله وحبيبه أباً طالب فى ضيق ، وعيلة ، فجاء الى عمه العباس وكان ذا ثراء ، وقال له هلا أخذ بعض ولد أبى طالب ليتخفف من ضيق ، فعرضاً عليه الأمر فقال اتركاً لى عقيلاً ، وخذاً من شئتما فأخذ صلى الله تعالى عليه وسلم ، علياً ، وأخذ العباس جعفرأ ، فكان على ولده الذى تربى فى مهد النبوة .

وكل من حول محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كانوا ممدودين بعبونه وفضله ، وخلقه ، فكانه استولى على مال خديجة ليوزع فى الخير ثمراته وليكون خيره عميماً ، وفضله كثيراً .

وبينما كانت قريش تكسب بالربا والمبيع الحلال ، وتشبه أحدهما بالآخر ،  
فتقول البيع مثل الربا ، كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتجسر في  
الحلال ، ولا يكسب من اثم ، ويعين ويغيث به الملهوف ، والكسب مع ذلك وفير .

وهنا يسأل سؤال لماذا ابتدا بالقل ، وانتهى بالكثير ! والجواب ان حياة  
محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيها قبل المبعثة البشرية الكاملة في كل  
أحوالها في سرائها وضرائها ، في كريهتها ، ومنشطها ، في ضيقها ورخائها ،  
فلم يتربه الفقر ولم يذله القل ، بل صبر عزيزا ، وقنع كريما ، وجد ليكسب  
قوته ، وحاول أن يخرج من ضيق الفقر بقوة العمل ، ومن ضنك العيش ببجوبة  
النفس ، وغناها ، فكان الفقير العزيز الكريم العامل المكتسب المبين ، فلم يقل في  
فقره ربى أهائى ، وعاش مع الضعفاء شاعرا بضعفهم . وباحساسهم ،  
لا يسير وراء الأمانى والأحلام .

ثم اختبره الله تعالى بالمال ، فكان الشاكر ، الذى يفيض بالخير على  
غيره ، ويعلم حق المال ، في مورده ، ومصرفه معا ، فلا يكسب الا من طيب ،  
ولا ينفقه الا في طيب ، وهو في كسبه وانفاقه لا يكون الا نافعا ، فكسبه طيب ،  
وصرفه طيب .

وثبت من النظر الاجتماعى أن الكسب الطيب هو الذى يكون بطريق فيها  
نفع عام . فالزراعة كسب طيب ، لأن فيها تقديم الغذاء والكساء مما تخرج  
الأرض من زروع وأثمار ، والعمل باليد فيه كسب طيب ، لأن فيه نفعاً عاماً  
بالصناعات النافعة ، والاتجار كسب طيب ، لأن فيه الجلب للناس من أماكن  
لا يخرجون اليها وفيه توزيع خيرات الأرض على أهل الأرض لا يحرم منها  
أقلية ولا يستطيل بالقوة المادية فيها طاغ .

وأخيراً محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ضرب للناس  
في بشريته قبل المبعثة أعلى مثل للفقير الصابر العامل في فقره ، والغنى  
الشاكر الذى عاش كالضعفاء في غناه ، فكان غنى النفس في الحالى .

١١٢ — وأن محمداً ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ، بعد أن استقامت  
لديه أسباب الرزق لم يتجه الى اللذات يشتر عسلها ويقرع منها ، بل كان  
الزاهد في غير الحلال المعروف الذى لا يتنافى مع المروءة ومكارم الأخلاق ، بل  
كان زاهداً غير محروم ، وطالبا للطيبات غير مبتغيها ، لأن الابتغاء قد يدفع الى  
اشتائها .

وهناك أمر آخر ، كان يجعل المال غير ذى شأن الا بالقدر الذى يعين على

مكارم الأخلاق ، والنفع لبنى الانسان ، وهو ابتعاده عن كل أوهام الجاهلية ، وأحقادها ، ومنازعاتها •

وفى وسط بحبوحة العيش ، ومن غير ترفه ، قد أخذ يدرس الكون وما فيه ومن فيه ، وما وراء الكون من أسرار الوجود ، مبتعدا عن الوثنية ، وما حولها ، مستنكرا عبادتها ، غير مستسلم لتوهم أن فيها تأثيرا فى الانسان •

فما سجد لصنم قط ، وما أغواه شر قط ، بل كان الطيب الوادع الأمين •

وكان قويا فى بدنه ، غير مسترخ فى عضله ، فهو يصارع ركامة أقوى أهل مكة فيصرعه من غير اعتداء ، ما عرف عنه قبل البعثة أنه اعتدى على انسان ، وما تناول بيده مخلوقا قط ، فما عرف أنه دخل فى شحناء ، لأنها لم تكن من شأنه ، وما أشر ، وما تكبر ، وما طغى •

واذا كان موسى القوى قد أثر أنه وكز مصريا اضطهد اسرائيليا فقتله ، لاعتدائه على أحد من شيعته ، ولم يكن ظالما ، فما عرف عن محمد أنه تناول انسانا عدوا أو وليا بأذى قط ، ولكل فضل ، وقد فضل الله تعالى بعض النبيين ، فما كانت قوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على أحد ، بل كانت قوته لله تعالى ، وللانسانية ، ثم لقومه من غير اعتداء •

## اعادة بناء الكعبة

١١٣ — ما من أمر جامع فيه خير فى ذاته ، وللناس كافة ، الا اشترك فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بفضل من المال والعمل ، وان قريشا ، بل العرب أجمعون كان يربطهم رباط لا يهى ولا ينقطع ، لأنه يتجدد أنا بعد آن ، وهو يتكون من عنصرين : أحدهما الكعبة المكرمة التى بناها أبو الأنبياء الخليل ابراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى أول بيت وضع للناس ، والحج إليها ، واقامة المناسك فيها •

ثانيهما — اعتقادهم أن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض ، وقد كانوا حريصين على تلك الرابطة ، لا يتركونها ، ولا يقطعونها ، وخصوصا قريشا ، إذ وجدوا فيه عزهم الذى يعتزون ، وشرفهم الذى يتنافرون به أمام العرب جميعا ، ويجعل لهم سيادة وحكما ، وحسبهم أن العرب يتقاتلون الا فى أرضهم ، فاذا جاءوا اليهم كانوا فى حرم آمن ، كما من الله سبحانه وتعالى

عليهم ، فقال تعالت كلماته : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » •

وقد أصاب وهن بناء الكعبة المشرفة ، فأرادت قريش أن تجدد بناءها ، وكان ذلك بعد عشر سنين من تزوج محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) من أم المؤمنين خديجة ( رضى الله تعالى عنها ) وكان النبی ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) قد بلغ الخامسة والثلاثين ، رجلاً سوريا •

ولم يكن قبل تزوجه كما توهم بعض الرواة من غير سند صحيح •

وبذلك كان بناء الكعبة المشرفة قبل مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بخمس سنين إذ أن البعث كان فى الأربعين ، وتجديد البناء كان فى الخامسة والثلاثين من عمره الشريف •

وكان التجديد ليكون على ما بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وإن قريشا أخذت لهذا البناء أهبة ، واتفقت على ألا يكون البناء إلا من مال طيب لا خبث فيه ، وأن يكون العمل بنية طيبة خالصة •

وقد قال فى ذلك ابن كثير : « كانت الكعبة المشرفة حرزهم ومنعتهم من الناس ، وشرفاً لهم » لذلك أرادوا بناءها لما خشوا عليها من التهدم ، وقد قال أحد كبراء بنى مخزوم ، عندما هموا ببنائها :

« يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلة أحد من الناس » (١) •

١١٤ — هذا السياق يدل على مدى تأثرهم بالكعبة المكرمة وتعظيمهم لها ، ومكانتها عندهم ، ويدل أيضاً على أن الكعبة الشريفة واتصالها بالخليل ابراهيم جعلت حبهم موصولاً به ، وأوجد ذلك فيهم نوعاً من الوجدان الحى ، كان هو النبت الذى صار زرع الايمان والتوحيد من بعد ذلك •

وأن ذلك يستدعي أن نرجع الى الخليل ابراهيم لنرى كيف كان البناء الأول للبيت ، ثم ننزل من بعد ذلك الى ما كان من بعد •

ان ابراهيم أول من بنى البيت ، ولا يذكر التاريخ الراجح الصدق

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٣٠١ •

ما يشير الى أنها قد بنيت من قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد قال فى ذلك ابن كثير رضى الله عنه :

« لم يجرى فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل ، عليه السلام ، ومن تمسك بهذا بقوله تعالى « مكان البيت » ، فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر له فى علم الله المقرر فى قدر المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم الى زمان ابراهيم ٠٠٠٠ » .

ثم يقول عما قيل من أن آدم عندما نزل الى الأرض نصب قبته فيها ، وأن الملائكة قد قالوا طغنا قبلك بهذا البيت ، وأن سفينة نوح طافت به أربعين يوما : « ولكن كل هذه الأخبار عن بنى اسرائيل ، وقد قررنا أنها لا تصدق ، ولا تكذب » وينتهى من هذا ابن كثير الى أن التاريخ الاسلامى لا يعرف بانيا للكعبة قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، واننا نقف حيث وقف ولا نسير وراء أوام أو أساطير لم يوجد من التاريخ الصادق ما يوثقها ، ولا من الكتب الدينية الثابتة الصحيحة ما يؤيدها ، فلا نهيم فى ظنون ، « وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

وقد بينا أن البقعة فى ذاتها قبل البناء عليها كانت معروفة فى التواريخ القديمة ، وقد أكد هذا المعنى ابن كثير ، فقال ان بقعة البيت الحرام كانت معظمة من قبل بناء ابراهيم ، فقال : « وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها ، مشرقة فى سائر الأعصار والأوقات » .

وان ذلك كلام حق اذ ان نص القرآن الكريم يومىء الى أن البيت كان له مكان مقدر قبل أن يبنيه خليل الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام ، وقد قال تعالى : « واذا بؤانا لإبراهيم مكان البيت » فكلمة بؤانا تومىء الى أن الله تعالى قدر لهذا البيت مكانا من قبل ، وهدى اليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

واننا اذا انتهينا الى ما قرره ابن كثير وغيره من أن مكان البيت كان معتنى به ، وكان معظما ومشرفا ، قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فانا قد نحسب أن تكون بناية قد أقيمت حوله للعناية به ، ولحفظه من أن يضيع فى غيره ، ولكن من هم الذين بنوه ، وما مدى ما فعلوا ؟ ان ذلك هو المسكوت عنه ، والبحث عنه من غير وسائل معرفة من كتاب معصوم ، أو تاريخ وثيق رجم بالغيب وتظنن فى غير مظنة .

ولعل فضول العلم تجعلنا نتساءل أيهما بنى أولا ، البيت الحرام أم المسجد الأقصى ، فنجيب انه من المؤكد أن البيت الحرام الذى بناه هو ابراهيم ، وقيل ان الذى بنى بيت المقدس هو يعقوب حفيد ابراهيم ، وقيل بنى من بعد ذلك ، وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر : قلت يا رسول الله « أى مسجد وضع أول : قال المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال المسجد الأقصى » .

ولابد أن نتصور أنه بعد أن بناه ابراهيم خليل الله تعالى ، قد جرت فيه اصلاحات كثيرة ، فما كان بناء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ليستمر قائما غير قابل للتهديم أكثر من ألفى سنة ، فلم يكن كالأهرام بناه فرعون الذى اغتصب كل القوى فى بنائه ، ولكن بناه ابراهيم الخليل هو وابنه الذبيح من غير أن يجرى فيه غصب حجر أو مدر أو وبر ، أو قوة أى انسان .

## بناء قريش

١١٥ — اتجهت قريش بعزمة ماضية ، وان شئت فقل مخلصه طاهرة الى بناء البيت بجهود أبنائها ، وأموالهم الطيبة التى لا خبث فيها ، فليس ثمن دم مغصوب ، ولا ربا ، ولا مهر بغى ، ودخلوا غير متنازعين ، ولا متخاصمين ، ولا متخاذلين ، أعدوا لذلك العمل الخطير فى معناه ، وان لم يكن البناء كبيرا فى ذاته بين الأبنية التى كانت تجرى فى أرم ذات العماد ، وفرعون ذى الأوتاد ، ولكنها أقدس ما بنى البشر ، وما أقام أهل الحضر والمدر والوبر ، لأنها الكعبة « أول بيت وضع للناس مباركا » .

تقدموا للهدم ثم البناء ، ويظهر أن قدم العهد بالبناء والأحجار ، قد جعل بعض الهوام يعيش على مقربة منه ، فقد زعموا أنهم قد رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها ، فاشفقوا منها اشفاقا شديدا وخشوا أن يكونوا قد وقعوا منها فى هلكة ، ووقفوا حيارى لا يقدمون ، فلما سقط فى أيديهم ، والتبس عليهم الأمر ، حسبوا أن يكون ذلك لتأثمهم عند البناء باثم ، أو ليس فى مالهم طهر ، أو فى العمل الذى أعدوه خبث ، أو أن فى النفوس شيئا ، عندئذ وقف المغيرة المخزومى ، ينصح لهم بعدم التماسد والتشاجر ، وأن يقتسموا ، ثم جددوا العزيمة ، « وقد جاء فى تاريخ الحافظ ابن كثير أنهم لما عزموا ذهبت الحية ، وتغيبت عنهم ، ورأوا أن ذلك من الله عز وجل » .

وان خبر الحية ان صح نقول اما أن تكون قد ركنت الى بعض أحجار الكعبة ويصح أن المولى جل جلاله سيرها اليهم لا من السماء ، ولكن من



مكان آخر ، ليفزعوا ، ولتتطهر قلوبهم من رجس الجاهلية عند بنائها ، فهى بيت الله الذى بناه بأمر نبيه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فلا بد أن يبنى بأطهار على الأقل فى ساعة بنائه ، وقد قاموا بتطهير أنفسهم ، وتطهير أموالهم ، وتولوا بأنفسهم اقامة البناء •

اقتسموا البناء أرباعا ، فكان الربع الأول الذى فيه شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وبنو مخزوم لهم ما بين الركن الأسود ، والركن اليمانى ومعهم بطون من قريش انضموا اليهم ، وظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى وبنى أسد بن عبد العزى وبنى عدى ، وهو الحطيم « (١) » •

وبعد أن قسموا هذا التقسيم ، وارتضته القلوب كان يجب أن يبتدىء العمل بالهدم أولا ، ثم البناء ثانيا ، ولكن لهيئة الكعبة فى نفوسهم ، ولعجزهم عن أن يعرفوا أهذه ارادة الله رب البيت وحاميه ، أم هى أمواؤهم الدافعة الى أن يفعلوا — هابوا أن يهدموا •

عند هذا التردد والتلكؤ تقدم الوليد المخزومى ، وحمل المعول ، وقال اتقدمكم ، وهو يقول : اللهم انا لا نريد الا الخير ، ثم هدم ناحية من الركنين ( الركن الأسود والركن اليمانى ) وهما حصّة بنى مخزوم ، ومع ذلك لم يتقدم كل ذى حصّة من حصته ليهدمها •

صبح الوليد معتزما من غداته متمما ما بدأ بمعوله ، فأخذ يهدم الناس معه ، كل يهدم ما فى حصته وأخذوا يهدمون ، حتى رأوا أساس البناء الذى وضعه خليل الله عليه الصلاة والسلام •

ومن مقتضى الفطرة التى لم يأت بها رسول أن تجرى أوهام كثيرة ، وأن تروى أخبار حول هذه الأوهام ، وأنا نضرب عن كل ذلك صفحا •

١١٦ — وأنهم قد أخذوا من بعد ذلك فى اقامته ، ويظهر أنه قد عاونهم فى الرسم والبناء رجل قبلى اسمه باقوم ، فهو الذى وضع هندسة البناء ، وكان مولى لبنى أمية •

وقد قام كل فريق بحصته فى البناء ، وقد اشترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان زميلا فى العمل لعنه العباس بن عبد المطلب ، وقد روى

الشيخان (البخارى ومسلم) فى ذلك عن جابر أنه « لما بنيت ذهب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اجعل ازارك على رقبتك يقيك من الحجارة ففعل فخر الى الأرض ، وطمحت عينه الى السماء ، ثم أفاق ، فقال ازارى ازارى ، فشد عليه ازاره ، فما روى بعد ذلك عريانا » .

هذا حديث صحيح ، روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سقناه لبيان أن محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) اشترك فى أشرف عمل قامت به قریش ، وهو فى شرح الشباب ، وحمل الحجارة ، وأنه لم يأخذه الترف قط ، وأنه لم يفكه فى نعيم المال ، فكانت حياته حياة الأقوياء ، وان الخبر يدل على أن الله تعالى كان يراعه ، وقد رياه على عينه ، فلما أخذ بنصيحة عمه العباس ، ووضع بعض ثوبه على رقبته ، انكشف بعض عورته ، فطمحت عينه الى السماء ، وأصابته غشية اتصال بالمال الأعلى ، وسترت عورته ، فقد كان فى حراسة الله سبحانه وتعالى ، وحياطته .

ولا نرد الخبر لما فيه من غرابة ، فقد رواه الشيخان البخارى ومسلم بسند صحيح ، وما يروى بسند صحيح لا يرد لمجرد غرابته على الحس والأسباب والمسببات ، انما يرد لوجود دليل يثبت أن ذلك مستحيل ، والأمر فى قدرة الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات ، ومأنح كل ما فى الوجود نعمة الوجود .

لقد أتموا بناء البيت الحرام ، وكان ارتفاعه الذى بنوه ثمانية عشر ذراعا وأخرجوا منه الحجر ، وهو ستة أذرع ، أو سبعة من ناحية الشام ، لأنهم قد قصرت نفقتهم ، فلم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد ابراهيم .

وقد يسأل سائل ، ان المفروض أن قریشا كانوا من أغنياء العرب ، وبجوارهم ثقيف ، وهم أغنياء ، وكان ممكن أن يعلنوا اكتتابا عاما يجمعون به ما يريدون ، فكيف تقصر بهم النفقة عن البناء .

والجواب عن ذلك أنهم لم يشركوا العرب فى بنائهم ليبقى لهم الاختصاص بسدائنه وبشرفه ، وبانشائه ، وفوق ذلك هم أرادوا ألا ينفقوا منه الا بمال مكسوب من طيب حلال ، وليس بمكسوب مما يجرى فيه كسب خبيث أو فيه شبهة خبيث قط ، ويظهر أن الطيب من المال عندهم لم يكن كثيرا ، اذ كثر فيهم الربا والميسر ، ومن الصعب اخراج الطيب ، من بين هذا كله .

ولقد جعلوا للكعبة بابا واحدا من ناحية الشرق ، ويقول ابن كثير :  
« جعلوه مرتقعا لئلا يدخل اليها كل أحد ، فيدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من  
شاءوا » .

وان النبي عليه الصلاة والسلام كان يريد أن يعيد البيت الى ما كان  
على بناء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لولا أنه يخشى عليه كثرة الهدم والبناء  
فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أن رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها : « ألم ترى أن قومك قصرت بهم النفقة ،  
ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ، وجعلت لها بابا شرقيا ، وبابا غربيا  
وأدخلت فيها الحجر » .

١١٧ — تم بناء البيت الحرام ، ولم يختلفوا في شيء عند اقامته ، لأن  
كل قسم منه اختصت به بطن من بطون قريش ، ولكن أمرا لا يقبل القسمة  
اختلفوا فيه ، وهو الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن الذى يضعه فى موضعه من  
هذه البنية .

تجادلوا فيمن يضعه ، وتخالفوا ، وكان الخلاف شديدا وكادت الدماء  
تسيل لتلغ فيها السيوف ، أراد بنو عبد الدار أن يضعوه ، بما أعطاهم من قبل  
قصى من سدانة البيت ، وقربوا جفنة مملوءة دما ، ثم تعاهدوا هم وبنو عدى  
ابن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى الدم المملوءة به الجفنة .

ومكثت قريش على تلك الحال التى تآزمت حلقاتها أربع ليال سويا .

ثم اجتمعوا بعدها فى المسجد الحرام ، وتشاوروا فى هداة ، وأخفيت  
جفان الدم أو جفان الموت ، وتناصفوا فى القول ، وأخفوا نوازع الشر ، أو  
استلوا من الأضغان ، وان القصد الطيب يكف فى كثير من الأحيان نوازع  
الشر ، فيفتح فى وسط الخصام ، نورا من نور الوئام ، وقد كانت الجلسة  
المهادئة سبيل ذلك ، ببركة بيت الله الحرام .

لقد وقف أسن قريش يدعوهم الى السلام وانهاء الخصام ، فقال :

« يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب  
هذا المسجد يقضى بينكم : فارتضوا ذلك ، وعلموا أنه توفيق الله تعالى عندما  
ظهر أول داخل ، فإذا هو محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم )  
فقال كبيرهم : هذا الأمين رضينا به حكما » .

وكان محمد ( صلى الله تعالى وسلم ) يسمى الأمين ، وقد اختص بهذا الاسم ، بحيث اذا أطلق لا ينصرف الا اليه ، وقد أشرنا الى ذلك ، وكلمنا مضى فى عمره الكريم زادوا استيثاقا من أمانته وصدقه وحكمته وعدالته •

لذلك طابت نفوسهم جميعا عندما علموا أنه سيكون الحكم بينهم الذى يرد القضب الى أجفانها •

انتهى اليهم وأخبروه الخبر ، فطابت نفسه وقرت عينه ، اذ قرت به القلوب المضطربة وقال : هلم الى ثوبا فأتى به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، حتى اذا بلغوا موضعه ، وضعه بيده الشريفة ، ثم بنى عليه » (١) •

هذه حكمة بالغة ، انحل بها الخلاف ، وانتهى الى وفاق من أن تمشق السيوف ، ويستعدوا للحتوف ، وهكذا كانت النفحة المباركة من محمد ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) وقد بدت بوادر النبوة ، وظهرت ارهاصاتُها •

١١٨ — قامت الكعبة الشريفة متجهة الى السماء ، واستمرت على ذلك فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يود أن يعيدها عليه الصلاة والسلام الى ما كانت عليه فى عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولكنه قدر أن قريشا قريبو عهد بكفر ، فلم يزعجهم •

وبعد عصر الراشدين ، ثم عهد معاوية ، ثم جاء عهد يزيد بن معاوية ، وخرج عليه الخارجون من أهل الايمان وكان ممن خرج عليه عبد الله ابن الزبير ، وقد قوى أمره بعد أن قتل الامام الحسين بن على ، تلك القتلة الفاجرة ، وقد بايع الكثيرون ابن الزبير •

ثم تجرد له عبد الملك بن مروان ، وكانت المغالية ، وحوصرت مكة التى كان بها ابن الزبير ، ورميت الكعبة بالمنجنيق ، وتهدمت ، فاتجه ابن الزبير الى اقامتها على قواعد ابراهيم ، فأعاد طولها ، وأدخل من الحجر الأذرع التى كانت قد نقصت منها لضيق المال الحلال الذى كان بيد قريش ، وجعل لها بابا آخر ، وكان قد سمع عن طريق خالته أم المؤمنين التى روت حديث النبى عليه الصلاة والسلام الذى ذكرناه آنفا •

(١) سيرة ابن هشام •

لم يستمر الأمر لابن الزبير ، بل قتل ، واستمكن الأمر للحجاج بن يوسف الثقفي المسلط من قبل عبد الملك ، فشاور عبد الملك فى الأمر الذى غيره عبد الله ابن الزبير فى بناء الكعبة ، واعادتها الى قواعد ابراهيم فكتب اليه : « أما ما زاده طولا ، فأقره ، وأما ما زاده فى الحجر ، فرده الى بناته ، وسد بابه الذى فتحه ، ففعل ذلك ، ويروى أن عبد الملك ندم على ما أذن ، ولعن الحجاج .

ولقد فكر المهدي فى أى يعيد البناء على قواعد ابراهيم فناشده الامام مالك ، وقال أخشى أن يصير ملعبة للملوك ، فترك الأمر .

### الخمس :

١١٩ — من هذا نرى أن قريشا كانت حريصة على البيت الحرام ، تعليه ، لأنها ترى فيه علوها وشرفها ، وشددت فى القيام عليه ، وابتدعوا فى ذلك بدعة تخالف ما كان عليه ابراهيم فى قيامه بمناسك الحج ، وعظموا الحرم تعظيما زائدا ، حتى لفرط تحمسهم له التزموا ألا يخرجوا من جواره ليلة عرفه ، ولذلك سموا الخمس .

كانوا يقولون نحن أبناء الحرم ، وقطان بيت الله ، فكانوا لا يقفون بعرفات ، مع علمهم أنها من مشاعر ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويقول فى ذلك الحافظ ابن كثير فى تعليل فعلهم . وتكميل الكلام فيه :

« حتى انهم لا يخرجون عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة ، وكانوا لا يدخرون من اللبن أقطا ولا سمنا ، ولا يسلون شحما وهم حرم ، ولا يدخلون بيتا من شعر ، ولا يستظلون ان استظلوا الا بيت من آدم ، وكانوا يمنعون الحبيج والعمار ما داموا محرمين — أن يأكلوا الا من طعام قريش ، ولا يطوفون الا فى ثياب قريش ، فان لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الخمس وهم قريش ، وما ولدوا . ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة طاف عريانا ، ولو كانت امرأة ؟؟ ولهذا كانت المرأة اذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها ، وتقول : « اليوم يبدو بعضه : أو كله ، وبعد هذا اليوم لا أحله » .

فان تكرم أحد ممن يجد ثوب أخمسى ، فطاف فى ثياب نفسه ، فعليه اذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك ، وليس له ولا لغيره أن يمسه ، وكانت العرب يسمى تلك الثياب « اللقى » (١) .

---

(١) البداية والنهاية ص ٣٠٥ .

١٢٠ — هذا بعض مما كان يجرى من قريش تعصبا للبيت ، فهم اعتبروا الحج عندهم هو زيارة البيت الحرام . وهذا من التعصب له ، حتى نسوا شريعة ابراهيم في الحج ، وهو اعتبار الحج عرفة ، والطواف ركنا من الأركان ، وليس له وقت محدود طول السنة .

وانه لمن ارهاصات النبوة أن محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل أن يبعث رسولا نبيا ، كان لا يتمسك بتقاليد قريش وأعمالها ، بل كان يقف بعرفة ، وأن ذلك بلا ريب توفيق من الله تعالى ، والهام الله تعالى له بأن يقيم الحج على ما كان يقيمه ابراهيم .

ولم يسر على ما سار عليه العرب ، بل كان يطوف بالبيت كما يطوف .

ويلاحظ أن الناحية التجارية في قريش قد بدت واضحة في أمرين :

أحدهما — ان الحجيج لا يأكلون من الطعام الا ما يكون من قريش ، فهو ترويج لتجارة قريش ، وكذلك الأمر في الثياب .

وثانيهما — ما كان يقام من المتاجر في الأسواق التي كانت تجاور مكة .

وانه بلا ريب كانت تلك التقاليد فيها فحش في العمل ، اذ كان بعض القبائل ، اذا لم يجدوا ثيابا من ثياب الخمس ، يطوفون عراة ، وفيهم النساء ، حتى انهن كن يستترن عوراتهن الخليطة بأيديهن .

وان هذه الأحكام يحسبون أنهم مأمورون بها ، ولقد أنكرها الاسلام ، فقد قال الله تعالى : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها : قل ان الله لا يأمر بالفحشاء ، اتقولون على الله ما لاتعلمون ، قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون ، فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

وإن محمداً ( عليه الصلاة والسلام ) من قبل أن ينزل جبريل عليه السلام ،  
كان ينفر من كل أرجاس الجاهلية ، ولو كانوا يدعون أن الله تعالى أمر بها •

لم يسجد لصنم قط ، ولم يرتكب فحشاء ولا لهوا ، ولم يتردد فيما كان  
يتردد فيه شباب الجاهلية • ولم يتناول خمر قط ، ولم يلعب ميسرا •

ولقد يستنكر في صمت المؤمن بالحق ، كل ما كانت تقع فيه قریش •

وقبل أن نتقدم للمبعث المصمدي ، وقد جاء أبانه ، وحان حينه ، إذ أنه  
( عليه الصلاة والسلام ) كان قد بلغ الخامسة والثلاثين ، وقارب البعث ،  
فقارب الأربعين ، وهى السن التى بعث فيها رحمة للعالمين •

وقبل أن نتقدم لمقام الرسالة المقدس ، والمبعث النبوى الأقدس ، يجب  
أن نتكلم فى أمرين :

أولهما : تكامل صفات الرسول ، وبيان ما كان عليه من خلق كامل ،  
هو مثال للأخلاق الانسانية العالمية ، فهو قبل أن يكون رسولا مبعوثا من الله  
سبحانه وتعالى ، كان كالملائكة فى أخلاقه ، بيد أنه كانت له ارادة ، وكان  
مكتمل الجسم الانسانى ، والحياة الانسانية ، وقد رباه الله سبحانه وتعالى  
ليكون النبى المختار الذى ولد فى الأميين ، وكان منهم •

ثانيهما : أحواله فى تأملاته ، وعبادته قبل الرسالة ، و « الله أعلم حيث  
يجعل رسالته » •





التَّكَاثُرُ الْإِنْسَانِي فِي مُحَمَّدٍ ﷺ



## التكامل الانساني في محمد

( صلى الله عليه وسلم )

١٢١ — نتقدم بهذا الباب من القول بين يدي المبعث المحمدي ،  
لنتعرف من اختاره الله تعالى من بين خلقه رسولا للعالمين ، وكيف قد أدبه  
الله تعالى بتأديبه الكريم ، وخلقه كاملا ، لأن رسالته دعوة الى الكمال ، فهو  
الكمال المطلق في التكوين البشري ، ونحن نريد أن نقسّم ما كان من خلق  
فطري ، لم يكسبه من الوحي الالهي ، وإن كان متطابقا مع ما جاء به الوحي ،  
وما أدبه به القرآن ، حتى كان خلقه المتين . وكان كما قالت عائشة رضي الله  
تعالى عنها « خلقه القرآن » ، وما كان خلقيا بمقتضى التكوين كان متفقا مع  
ما جاء به الوحي ، وما دعا الى خلقه ، وقاربوا فيه ، ولم يصلوا الى ما وصل  
اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض في مقدمة كلامه في أوصاف محمد  
ابن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) أن خصال الجمال والكمال في  
المبشر نوعان : ضروري دنيوي اقتضته الجبلة ، وضرورة الحياة الدنيا ،  
ومكتسب ديني ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب الى الله تعالى زلفى ، ثم هي  
على فئتين أيضا ، منها ما يتخلص لأحد الوصفين ، وما يتمازج ويتداخل .  
فأما الضروري المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار ، ولا اكتساب ، مثل ما كان  
في جبلة ( عليه الصلاة والسلام ) من كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقوة  
عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وكرم أرضه ، ويلحق به ما تدعوه  
ضرورة حياته اليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه .

وأما المكتسبة الأخروية ، فسائر الأخلاق العلية والفضائل الشرعية من  
الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر والشكر ، والعدل ، والزهد ، والصمت  
والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الخلق ، والمعاشرة وأخواتهما ، وهي التي  
جماعها حسن الخلق .

ونرى من هذا أن القاضي عياض قد قسم الأوصاف التي تحلى بها النبي  
( عليه الصلاة والسلام ) قسمين : أحدهما — كان بالفطرة الانسانية وهي كمال  
الفطرة ، ويلحق بها أوصافه الجسمية ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) — وثانيهما  
ما اكتسبه بمقتضى التعاليم الشرعية ، وذكر منها التواضع والحلم ، والصبر

والشكر ، وحسن المعاملة ، وبشكل عام ما يتعلق بحسن الأخلاق الذى هو جماع الفضائل الانسانية ، ويذكر أن من هذه الصفات المكتسبة بحكم الشرع الشريف والوحى اليه مما تلتقى فيه الفطرة المستقيمة مع الوحى ، فالوجود والتواضع والصبر والفصاحة ، والثانى ، وحسن التأنى للأمور ، والرفق فى القول والعمل ، ولين الجانب من غير ضعف ، والقول الحق من غير عنف ، كل هذه الصفات كانت فى محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كانت فيه بفطرته المستقيمة ، وبتهيئة الله تعالى ، قبل الرسالة ، اعدادا لهذا المنصب الخطير ، وهو رسالة الله تعالى الى خلقه .

وانا لنذكر فى هذا الباب من الكتاب ، ما كان فيه بمقتضى الطبع الانسانى السامى الذى فطره الله تعالى عليه وما كان من صفات تتعلق بالمعاملات ، والعلاقات الانسانية والمودة والرحمة والرفق ، والفصاحة ، وغيرها مما كانت مهية للرسالة ، وتحمل الأعباء ، والقيام بحق هذه الرسالة والدعوة اليها بما يزكيها وينميها ، واذا كانت قد استمرت فيه بعد البيعة ، فانها ثمرة الله فى غرسه ، وتناول الناس أكله ، واذا كنا سنشهد على هذه الصفات بما جاء من أقوال أصحابه من بعد البيعة ، فليس ذلك لأن البيعة هى التى أوجدتها ، بل لأنها الأقوال الناطقة المؤيدة لذلك ، فقد أوجدها فيه العلى القدير .

وقدمناه على الرسالة لأن الله تعالى أعدها فيه ليكون كاملا ، وليقوم بأعبائها .

## ١ - وفور عقله

١٢٢ — لم يتوافر العقل فى انسان كما توافر فى محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ولو لم ينزل عليه الوحى ويخاطب من السماء لكان عقله وحده كافيا لأن ينشئ دولة ، ويقيم مجتمعا طيبا فاضلا . ولكن أتم الله تعالى عليه نعمته ، فجعله نبيا مرسلا ، فاجتمع له الكسب الذاتى بالادراك بالفطرة الانسانية العالية المكتملة بالتكوين الانسانى والرسالة الالهية المهادية المرشدة ، وكانت الاولى مقدمة للثانية ، وما كانت احدهما لتغنى عن الأخرى فما كانت الرسالة تجيء لغير عقل كامل ، وفكر مدرك ، وشخصية كريمة اختارها الله تعالى لموضع رسالته وحمل أمانته . وما كانت الكفاية العقلية فى أسمى علوها بمغنية عن الرسالة ، لأن العقل لا يمكن أن يكون وحده كافيا فى تدبير الحاضر والقابل الى يوم الدين ، انما العقل يدبر ما يحيط به وهو من غير هداية الوحى لا يفكر الا فيما بين يديه ، ولا يخترق الحجب والأستار الى ما وراء

ما لديه ، فلا بد من علم الله يمد به القابل ، وهو عالم الغيب والشهادة ، فمهما تكن قوة العقل ، فانه لا يستطيع أن يصلح غير زمانه ، وكل شيء عند ربك بمقدار .

منذ نشأ محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) والعقل المكنم حليته العليا التي سما بها على الغلمان أترابه ، فمنذ استوى غلاما ، والعقل يزينه ، ولقد بدا ذلك لجده عبد المطلب الذي أخذه ليعوده أخلاق الرجال المكنمين .

ولما ذهب الى بيت عمه أبى طالب بعد وفاة جده القريب ، كان الغلام الرزين المكنم وسط أولاد أبى طالب ، لا يسبق الأيدي الى الطعام ، ولا يدخل فى زحمة الاعتراف ، بل يترث غير نهم ولا جشع ولا طامع ، بل الهادئ الرزين قد يكتفى بالقليل أو ما دونه ، حتى يتنبه اليه عمه الشفيق فيقرب اليه ما يبيد ، ويخصه بما يكفيه مؤنة المزامعة حتى اذا بلغ قدرا يستطيع فيه الاكتساب . عمل على رعى الأغنام ليأكل من عمل يده ، ولينال من خير الدنيا بمقدار ما قدم فيها من نفع غير مؤثّل ولا مقصر .

وعقله المدرك لمصيره بقابل حياته فى قابل عمره ، فهو يعد نفسه للتجارة عمل قومه ، ومكتسب أرزاقهم ومنشط قواهم ، فألح على عمه أبى طالب أن يأخذه معه الى الشام فى قافلة تجارة قريش ، ليكون على خبرة بالصفاق فى الأسواق ، وليتعلم المصادر والموارد ، وذلك وهو فى الثانية عشرة من عمره حتى اذا عاد من هذه الرحلة المباركة عاد وقد امتلأ عقله تجربة ، فيمارس التجارة صغرت بضاعته أو كبرت ، وهو على بينة من أمرها ، عليم بأسواقها ، والرائج منها والكاسد .

ولكمال عقله كان الشاب التاجر يحضر مجتمعات قريش ، فهو يحضر ندوتها فاحصا ما يقال فيها من حق يرضاه ، وباطل يجفوه ، ولا يقره ، ويحضر حلف الفضول ، ويرى لعقله الكامل المدرك أنه لا يسره به حمر النعم ، ولا يرى نصرة للحق أقوى منه ، ولو دعى به فى الاسلام بعد أن عم الحق ، لأجاب تكريما له واعلاء لقدره .

وهكذا نراه قد أوتى عقلا مدركا ، وعمل على تغذيته بالتجارب والاتصال بالمجتمع ليعرف خيره وشره ، ويعمل على علاج أدوائه ، أن واتاه الله تعالى بفضل من عنده .

واننا ونحن نتكلم على قوته العقلية النافذة الى الحقائق ، لا الى المظاهر  
نتعرض لنفوره من التقليد من غير دليل ، فهو قد نفر من عادات الجاهلية التي  
كانت تحرم وتحلل من غير بينة ولا علم قائم على الحقائق المقررة الثابتة •  
فلم تره يسجد لصنم قط ، لأن حكم العقل يتقاضاه ألا يسجد لمن لا يملك لنفسه  
نفعاً ولا ضراً ، ويكره ذكر الأصنام ، وعبادتها • فيستحلفه الراهب باللات  
والعزى فيقول الغلام ما كرهت شيئاً كما كرهتهما •

ويختلف مع تاجر ، فيستحلفه التاجر باللات والعزى ، فيمتنع ، فيسلم  
له التاجر بحقه من غير حلف لأمانته •

وأى عقل أكمل من أن يرى قومه ينحرفون عن إبراهيم في حجه ، ويذهب  
فرط حرصهم واعتزازهم بالبيت ألا يقفوا بعرفات فيجىء الرجل العاقل المكتمل  
محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ويتعرف مناسك إبراهيم ، فيقف  
بعرفات في ميقاته ، أن ذلك كله لا يكون إلا من رجل عاقل يعمل عقله في  
هداة من غير مجادلة ، لأن المجادلة تحدث المنازعة ، وحيث كانت المنازعة كان  
الريب ، وتبددت الحقائق بين المتنازعين •

لقد علمت قریش كلها بكمال عقله ، وقوة ادراكه ، فرضيت به حكماً ،  
ساعة أن احتدم الجدل ، وكادت السيوف أن تمتشق ، والمعارك أن تنصب ، فلما  
نادته القرعة أن أقدم ، وافصل بين الناس بالحق ، رضوا بحكمه ، لأنه  
سيكون حكم العقل والحق ، وأى شخص غير عاقل وحكيم كان يهتدى الى  
الحكم الذى يرضيهم جميعاً ، فيشركهم جميعاً فى فضل حمل الحجر الأسود  
الى موضعه من غير مشاحة ولا خصومة ولا تفاضل بينهم ، ويحمله هو بيده  
ابتداء فلا ينازعونه لفضل عقله ، ثم يحمله هو وحده انتهاء ويضعه فى  
موضعه بيديه الكريمتين ، فيرضون ما يفعل •

ولكمال عقله لم يخض مع الخائضين فى العصبية الجاهلية ، فلم ينطق  
بها ، ولم يجادل حولها ، وكان يحب الوثام والسلام ، ولا يحب الحرب  
والخصام ، ولذلك لم يشارك فى حرب الفجار ، الا بتفضيل السهام عن أعمامه  
حماية لهم ورحمة بهم ، بموجب الرحم الوصيلة ، لا بموجب الحرب التى أحلت  
فيها الحرمات والأشهر الحرم •

وأنه من المؤكد أن محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) كبح جماح  
هواه طول حياته قبل البعثة ، فلم يفعل ما يفعله الغلمان وهو غلام ، ولا ما يفعله  
الشبان فى باكورة شبابه ، ولا بعد أن صار رجلاً سوياً اكتملت أخلاقه كما  
اكتمل جسمه ، فكان القوى الذى يسيطر على أهوائه ، فلا ينحرف مع هوى ،

ولا تجمع به شهوة ، وانه اذا ضعف سلطان الهوى قوى سلطان الحق ، واذا قلت حدة الشهوة ، استقام حكم العقل ، فالعقل حكمه يناقض حكم الهوى والشهوة ، والعقل السيد هو الذى يسيطر على أهوائه وشهواته ويكون عقله هو المسيطر ، وما تضل العقول الا اذا داخلت النفوس الأهواء ، وعكرت صفاءه ، فمحمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كان أعقل قريش ، لأنه هو الذى لم يسيطر عليه هوى كسائر سادات مكة .

وقد قال القاضى عياض فى فضل عقله عليه الصلاة والسلام ، وأثاره فى الاسلام :

« وأما وفور عقله ، وذكاء لبه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة ، مع عجب شمائله . وبديع سيره ، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع ، دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتز فى رجحان عقله ، وثقوب فهمه ، لأول بديهة ، وهذا مما لا يحتاج الى تقريره لتحققه . » ولقد قال وهب بن منبه ، قرأت فى أحد وسبعين كتابا ، فوجدت فى جميعها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا ، وفى رواية أخرى ، فوجدت فى جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا الى انقضائها من العقل فى جنب عقله صلى الله تعالى عليه وسلم الا كحبة رمل من بين رمال الدنيا » (١) .

ويقول ابن كثير : « معلوم لكل ذى لب أن محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) من أعقل خلق الله تعالى ، بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق فى نفس الأمر » (٢) .

وان مظاهر عقله بدت واضحة بعد البعثة فى سياسة رعيته ، فقد كان الله يوحى اليه بالأحكام الشرعية ، وما يجب من الرفق بالرعية ، والأخذ على يد الظالم ، وحماية الحق من الباطل ، ويترك الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينفذ الحق فى رعيته ، بالمسلك الذى يسلكه مختارا ، مسددا ، فان تبين خطأ نبهه سبحانه وتعالى عليه اذا كان أمرا متصلا ببيان الشريعة وأحكامها .

(١) الشفاء الجزء الأول ص ٤٣ ، طبع الحلبي .

(٢) البداية والنهاية ج ٦ ص ٦٥ .

وأنه فى الأمر الذى تركه سبحانه وتعالى له بدا عقل النبى عليه الصلاة والسلام فى احكام التدبير وكياسة الحكيم .

اشتد أمر النفاق والمنافقين ، وكثرت أضرارهم ، فطلب عمر رضى الله تعالى عنه من محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) أن يقتلهم ، فقال عليه الصلاة والسلام « لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » ثم اشتد النفاق ، حتى هم أهل كل بيت فيه منافق أن يقتله ، فقال عليه الصلاة والسلام أين عمر لو قتلتم حين قتلهم لأرعدت لهم أنوف هى اليوم تريد قتلهم .

فبهذا العقل الحكيم استقبل رسالة ربه ، وبهذا العقل الحكيم أدار المدينة الفاضلة التى قامت على حكم الله تعالى وأمره ونهيه ، ونفذت فيها النظم الاسلامية .

## ٢ - بلاغته

١٢٣ — كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرشياً قد نشأ فى قريش ، وهى أفصح اللهجات العربية ، وكان يحضر أسواق مكة فى موسم الحج ، ويتذوق ما ينشد فيها من شعر ، وقد تفصح فى بنى سعد بهوازن ، وهوازن من أفصح العرب ، فالتقى فى بيانه لغة العقل والحضارة النسبية فى مكة المكرمة ، وسذاجة البداوة مع حلاوة اللفظ وسهولته فى لهجة أفصح أهل البادية .

ولذلك كان النبى محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) أفصح الناس منطقاً ، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، فهو اذا أرشد كانت ألفاظه كالجواهر تنثر بين الناس من غير بهرجة ، وفيها جوامع الكلم وفصل الخطاب .

واذا تحدث فى معاملات الناس وفى سمرهم الذى لا مجون فيه كان كلامه النمير العذب يسرى فى النفوس سريان النسيم العليل ، والماء العذب ينعش القلوب ، ويروى ظمأ النفوس .

وقد وصفت حديثه أم معبد بعد البعثة : فقالت : « اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، وكان منطقه خرزات نظم يتحدثون » .



هذا وصف لكلام النبی صلی الله تعالى عليه وسلم بعد أن بعثه الله تعالى ، وهو غاية ما كان منه قبل البعثة ، فحال ما قيل البعثة ابتداء ، وما بعدها هو الانتهاء ، وهو اصطفاء الله تعالى ليكون موضع رسالته ، ومبلغ وحيه ، كان يجمع بين الإيجاز والوضوح ، فألفاظه قليلة ، ومعانيه كثيرة من غير تعقيد ولا اعضاء ، بل هو السهل الذي لا توعر فيه ، ترى في كلامه عليه الصلاة والسلام جمال الألفاظ من غير تكلف ، وحلاوة اللفظ من غير تحسين ولا تزيين ، فهو الجمال الطبيعي الذي لا طراوة فيه ، ولا جفوة ، ولا خشونة •

وكان فيه معاني الإلهام ، وجملة الله تعالى بالصفاء ، لأنه خرج من نفس صافية ، وقلب مقع بالآيمان والصدق ، فكان صافيا كنفسه ، خاليا من الشوائب خلو نفسه منها •

وقد وصفه الجاحظ ، فقال : : الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصفة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصود في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإلهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أقصمه خطيب ، بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتبس أسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهزم ولا يلمز ، ولا يبطئ ، ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أتم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح في معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم » •

وأنه قد اجتمع له عليه الصلاة والسلام مع سلامة المعاني حسن اختيار الألفاظ المناسبة في الحال المناسبة من غير أن يقرع الأسماع ، بكلام له رنين ، بل بكلام يدخل على القلوب في أناة ورفق فينسب فيها انسياب النмир العذب ويكون ثمة تناسق بين المعنى الكريم ، واللفظ الجميل من غير اعنات للأفهام ، ولا ارهاق للأسماع •

وكان في منطقه حلاوة ، فيخرج اللفظ من لسان واضح بين ، تخرج الحروف من مخارجها ، وتقع في مواضعها ، والسامع مشدوه من حلاوة

الكلمة ، وحلاوة اللفظ ، والمعاني الأبيكار ، فى أسلوب لا توعر فيه ، ولا تكلف ، ولقد قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فى وصف كلامه « ما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسرد الكلام كسرركم هذا (١) ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه »

فكان كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم يكون بأناة ، غير مندفع فى القول ، ولا متابع له فى استعجال ، حتى أن عائشة رضى الله تعالى عنها تروى أن حديثه لو عد السامع حروفه عدا لأحصاها •

وان ذلك هو أفصح النطق ، وأبلغ الالتقاء ، ذلك لأن الامهال فى القول يجعل السامع يتذوق جمال الألفاظ ، ويتأمل المعانى ، ويستحفظ ما قال القائل ، ويتابعه فى أفكاره من غير اعنات لنفسه ، ولا ملال ، وان الملل يعترى السامع ، اذا فاتته تتبع المعانى ، وادراك المرامى والغايات •

١٢٤ — ومنطق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان خاليا من الفأفة والتمتمة ، وكل عيوب الكلام ، فى صوت هادىء عميق ، يجمله الصدق ، ويدخله فى مداخل النفس ، ويوجه الرشيد الى الحق • ونغمات صوته هادئة قوية فى صوت غير أجش ، ولا جفوة ، ولكن التقى فيه عمق النغم القطرى ، بجمال الصوت ، وجهارته فى غير ضجيج ، ولا صخب •

ولقد روى أن الحسن بن على أحد السبطين الكريمين قد سأل هند ابن أبى هالة ربيب النبى عليه الصلاة والسلام من خديجة أم المؤمنين وكان هند رجلا وصافا ، سألته حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : قلت صف لى منطقة ، قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، متواصل الأحزان ، دائم الفكر ليس له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (١) • ويتكلم بجوامع الكلم ، فضلا ، لا فضول فيه ، ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافى ولا المهين يعظم النعمة وان دقت ، لا يذم شيئا ، لم يكن يذم ، ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه ، اذا تعرض أحد للحق بشيء ، حتى ينتصر له ، اذا أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل

---

(١) السرد هو متابعة الكلام من غير تمهل ، بل على الولاء والاستعجال ، فلا يعطى السمع فرصة تذوق الألفاظ والمعانى •

(١) أى يستعمل جميع فمه عند الكلام ، فلا يتكلم بطرف اللسان ، بل يقبل على القول اقبال المهتم به •

بها فضرِبَ بابها مه اليمنى راحته اليسرى ، واذا غضب أعرض وأشاح ، واذا فرح غَضَ طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام » .

وانه مهما يقل الرواة فى بلاغة كلمه ، وفصاحة لفظه وجمال نطقه ، لا نصل الى حقيقة بلاغته ، فان المأثور الذى نقرؤه ، نجد فيه العلم المجتمع ، والعبارات التى يستطيعها كل مستمع ، يجد فيها نفاذ الالهام ، وتناسق الالفاظ ، وترى فيه الحكم ، وحسن المأخذ ، والجمع بين الأطراف فى لين ويسر من لفظ جاف ، ولا معنى مستخف ، بل كل الكلام فى معناه وخواطره ، وماخذه ، يدخل الى القلوب ، فيجد مساكنه ، وان المستشهد بقوله يردده أمام العامة ، فيلقفونه ، وأمام الخاصة فيهمضمونه ، يفهمه كل انسان مهما تكن طاقته ، لا يتخير غريبا لغرابته ولا لفظا لحلاوته ، ولكن كل ذلك يجيء فى رفق ، بل هى السليقة الكاملة تنطق ، والفصاحة الفطرية تتكلم ، وليس ذلك قولنا للمحبة فقط ، ولكن الحقيقة .

وحق علينا أن نقول مقالة الجاحظ بعد وصف كلامه ، وخشى على نفسه أن يقال انه انبعث من المحبة ، فقد قال ، ولعل من لم يتسع فى العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أننا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره ، كلا والذى حرم التزيد عند العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا الا من ضل سعيه .

كبرت كلمة من يقول اننا تجاوزنا الحد فى وصفنا لبلاغة خطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكمال تحديثه ، وبلوغه من البيان الانسانى أعلى مراتبه الذى لا يبلغ شأوه أحد ، بل هو الحق الذى لا امتراء فيه ، أننا لم نتجاوز الحد ، ولكن لم نبغفه ولم نصل اليه .

١٢٥ — وأنه من الحق علينا أن ننقل الى القارىء ما قاله القاضى عياض فى وصف فصاحة محمد عليه الصلاة والسلام وبلاغته ، فقد قال رضى الله تعالى عنه : « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببداائع الحكم ، وعلم السنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباير بها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ... ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ، وليس مع قريش والأنصار وأهل

الحجاز ، ونجد كلامه مع وطيفة الهندى وقطن بن حارثة العليمى والأشعث ابن قيس ، ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من أقبال حمير ، وملوك اليمن « (١) » .

وان هذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم كل لهجات العرب ، وقد أتاه ذلك من إقامته بمكة المكرمة التى كان يلتقى فيها بقبائل العرب ، فى موسم الحج ، مع حرص على تعرفها ، وذكاء مدرك لها ، وتحصيل واع لكل ما يسمع ، وحفظ لكل ما يجرى حوله .

ولقد ذكر بعض الرواة أنه كان يعرف ألفاظا كثيرة من الفارسية ، والرومانية ، وان لذلك شاهدا من كتبه للرومان ، فقد جاء فى ذلك الكتاب : « أسلم تسلم ، والا فعليك اثم البريسيين » ، وهذا لفظ روماني استعمل فى معناه الدقيق ، وهم العامة والزراع وغيرهم من الدهماء .

وان تعلمه لهجات العرب وفوارق لغاتهم يدل على أن الله تعالى كان يعده لهذه الرسالة الالهية العامة ، ولقد ساق القاضى عياض شواهد من كتبه عليه الصلاة والسلام الى همدان ، ووائل بن حجر ، ووازنها بكلام قريش فى الصدقات .

#### ثم يقول القاضى عياض فى الشفاء :

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المألوفة ، وحكمه الماثورة ، فقد ألفت فيها الكتب ، ومنها ما لا يوازى فصاحة ، ولا يبارى بلاغة كقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله : « الناس كأسنان المشط » . « والمرء مع من أحب » . « ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له » ، « الناس معادن » « وما هلك امرؤ عرف قدره » . « والمستشار مؤتمن » . « ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم » وقوله « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » وقوله : « ان أحبكم الى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألَفون ويؤلفون » . وقوله : « ولعله كان لا يتكلم بما لا يعنيه ، ولا ييخل بما لا يعنيه » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها » ، ونهيه عن قيل ، وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ومنع هات وهات ، وعقوق الأمهات ، وواد البنات » وقوله : « اتق الله حيثما كنتم ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن » . « وخير الأمور أوسطها » ، وقوله : « أحبب حبيبك هونا

---

(١) الشفاء ص ٤٤١ .

ما عسى أن يكون بغيبضك يوما ما » وقوله : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ، وقوله في بعض دعائه : « اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعتي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها الفتى ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم انى أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » . هذا ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته ، وخطبه ، وأدعيته ومخاطباته « (١) » .

ولقد ذكر من بعد ذلك القاضى عياض عهوده عليه الصلاة والسلام التى كان يعاهد بها القبائل ، والهدنات التى يهادن بها ، فانها بلغت من احكام المواثيق ، ودقة الشروط ما لا يصل اليها تحرير كاتب ، ولا توثيق معاهد ، فانها بلغت مرتبة لا يقاس عليها ، ولا تحاكى ، وسبق فيها سبقا بعيدا لا يقدر قدره .

ونذكر أن لمحمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) عبارات لم يسبق بها ، فقال رضى الله تعالى عنه .

وقد جمعت من كلماته التى لم يسبق اليها ، ولا قدر أحد أن يفرغ فى قلبه عليها ، كقوله : حمى الوطيس ، ومات حتف أنفه ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . السعيد من وعظ بغيره « (٢) » .

وهكذا يثبت القاضى عياض فصاحة الكلم النبوى ، والبلاغة الحمديّة بما ساق من عبارات جامعة ، ومعان رائعة ، والفاظ ينبثق منها النور ، وتضبط بها حقائق هذا الوجود .

١٢٦ — وأننا ان تركنا أقوال الذين شاهدوا وعايروا من صحابته والذين روى المنقول فى سيرته ، وعمدنا الى الأحاديث المدونة الصادقة النسبة ، والتي رواها العدول طبقة بعد طبقة ، وأردنا أن نتعرف نسق بيانه من عباراتها ، ومحكم معانيها من ألفاظها ، لوجدنا من بعض ما يتبين فى ذلك النسق :

( ١ ) أن اللفظ يجيء سهلا ، نجد فيه الجمال الطبعي ، نجد الألفاظ متناسقة يأخذ بعضها بحجز بعض ، مع الإيجاز ، واحكام المعنى ، والاتجاه

(١) الشفاء ج ١ ص ٤٦

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٦

الى مقصد القول ، وتصوره ، أحيانا بالحقيقة ، ويكون لها جمال كجمال الطبيعة ، اقرأ ان شئت قوله عليه الصلاة والسلام ، فى الدعوة الى القناعة ، والرضا بالقليل ، وعدم اللجاجة التى تؤدى • « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » وقوله فى الدعوة الى ضبط النفس : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وهكذا التعبير السهل العميق فى معناه يسرى فى كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل توجيهاته ، ولذلك سرعان ما تحفظ ، فهو كلام يقال ليحفظ •

(ب) وان من خصائص البلاغة النبوية أنها لا تعلق على العقول الفطرية ، فهى تدركها فى أيسر كلفة مع جلال المعنى وعمقه وقوة نفوذه فى النفوس ، والخاصة يجدون فيه علم ما لم يعلموا ، انظر الى قوله عليه الصلاة والسلام فى بيان وحدة الأمة الاسلامية وما ينبغى لتعاونها : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقرأ قوله عليه الصلاة والسلام فى المعاهدات التى تعهد ، والنفوس على أحقادها ولا تستل منها سخائما : « هدنة على دخن » فان كل انسان يفهم أن القلوب فاسدة ، وأن الصلح الظاهرى لا يصيب الأحقاد التى طويت عليها القلوب ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام فى فضل العمل ، وأن يكفى كل انسان مثونة نفسه ، ويستعد لمعونة غيره للاستعانة به « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله فى الأمر لا يختلف فيه : « ولا ينتطح فيه عزان » وقوله عليه الصلاة والسلام فى توزيع خيرات الله تعالى فى أرض الله ، كل أرض بحصتها من الرزق : « كل أرض بسمائها » وقوله فى الرفق بالنساء وقد سار السائق يسوق رجالهن بعنف : « رويدك رفقا بالقوارير » •

وان هذه التعابير جلها جديد فى العربية لم يسبق بها فى قول قائل ، وهى واضحة المعنى بيئة المقصد ، لا تعلق على العامة ، ولا تجفو عنها أذان الخاصة ، بل كل الناس يجد فيها علما لم يكونوا به عالمين •

(ج) أن كلامه عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم ، فيه حكمة ، وفيه الفاظ قليلة ومعان جديدة لم تكن معروفة • انظر الى قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد سئل : أنحاسب على ما تنطق به السنننا • فقد قال عليه الصلاة والسلام مجيبا ، « وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد السننهم » وقوله فى صلة الرحم عند المنايذة والقطيعة : « ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » ، ومثل قوله : « رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم » •

( د ) وأنه من الظواهر العامة فى كلامه عليه الصلاة والسلام أنه يخاطب العقل والوجدان من غير استكراه للألفاظ أو تكلف فى المعانى ، بل كل ذلك يجرى سهلا طيبا قيما ، فيه إرشاد وتوجيه ، اقرأ قوله عليه الصلاة والسلام يدعو المؤمنين الى أن يكونوا ايجابيين فى أقوالهم وأفعالهم ، لا يتبعون من غير تفكير : « لا يكن أحدكم امعة يقول ان أحسن الناس أحسنت وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس تحسنوا ، وان أساءوا فتجنبوا الاساءة » .

( هـ ) خلو كلامه عليه الصلاة والسلام من الصناعة البديعية ، فهو بديع فى ذاته من غير صناعة ، وقد يجىء أحيانا فى كلام الرسول بعض السجع ، ولكنه سجع غير مقصود ، بل هو من أحكام القول ، فمثلا قوله عليه الصلاة والسلام : « رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم » لا شك أن فيه سجما ، أو ما يقرب منه ، ولكن المتكلف غير موجود ، وان كل لفظ منه موضوع فى معناه ، لو أردت أن تغيره ما طأوعك المعنى ، فهل يمكن تغيير كلمة غنم مع ما فيها من ثروة فى المعانى بغيرها يؤدى مؤداها ، ويكون فى ايجازها ، ونسقتها ، وكذلك الأمر اذا أردت استبدال سلم مع ما يرمى اليه من سلامة العرض واللسان عن لغوه ، وتوفير العقل ، والابتعاد عن حاجة القول ، فهو عليه الصلاة والسلام ، لا يقول الا حكما ، ولا ينطق الا فضلا ، وتلك غاية قوله ، فان كانت حلية ، فهي الحلية التى لا تكلف فيها ، ولا استكراه فى نسقتها ، أو محاولة الصناعة التى تغطى الكلام الفطرى ، وتفشاه بفواش من ضجيج الأوزان .

وان الجمال الفطرى فى القول ، والحسن اللفظى من غير تحسين ، بل المسجع الذى يكون كسجع الحمام • يأتى من غير اعمال ولا قصد اليه ، حتى فى بيان الحقائق الشرعية ، ودقيق المعانى الفقهية ، ففى بيان الشروط الباطلة المقترنة بالعقود ، وأساس البطلان فيها ، يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله • ما كان من شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل ، وان كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله تعالى أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » .

الا ترى أنه كلام جميل جاء فى نسق محكم ، والحسن فيه باد من غير تحسين ، والجمال فيه بارز من غير تجميل ، وهو مع كل هذا فقه عميق ، يدرك مغزاه الفقهاء ، ويعرف معناه من لم يبلغوا فى الفقه شأوا .

وانه لو اوضح كل الوضوح أنه جاء عفو الخاطر ، ولم يكن باجهد فكر ،

وتجميع اللفاظ ، وتنسيق كلمات ، انما كان المعنى الجيد القاصد فى اللفظ المحكم الصور الواضح •

( و ) وانه أحيانا يجيء كلامه القصصى الذى يحكى قصة فى أسلوب تصويرى ، تنطق فيه حقائق القصة وأبواب العبرة فى كلام مرسل سهل ، يمكن القارئ أو السامع من أن يصل الى غايتها ، ويدرك معانى هدفها المصادق من غير اسراف فى اللفظ ، ولا نقص فى الأداء ، ولكن وفاء وكمال فى غير حشو ، ولا لغو ، واليك قصة أصحاب النار ، كما روى البخارى وغيره : « بينما ثلاثة نفر يمشون فأخذهم المطر ، فأووا الى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم • اللهم انه كان لى والمدان شيخان كبيران ، وامرأتى ، ولى صبية صفار أرعى عليهم ، فاذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدتى فسقيتها قبل بنى ، وانه نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب ، فقامت عند رؤوسهما ، أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الحببية قبلهما والحببية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا منها فرجة نرى منها السماء •

ففرج الله منها فرجة ، فرأوا منها السماء •

وقال الآخر اللهم انه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت فأبى ، حتى آتيتها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت لها مائة دينار فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجلها قالت يا عبد الله اتق الله ، ولا تفتح الخاتم الا بحقه ، فقامت عنها ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم •

وقال الثالث : اللهم انى كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز (١) ، فلما قضى • قال أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقته ، فرغب عنه ، فلم أزل أرزعه ،

(١) جاء فى القاموس المحيط الفرق بسكون الراء وفتحها وفتح الفاء ومكيال بالمدينة ثلاثة أو يسق ستة عشر رطلا ، وجمعه فرقان ، والخلاصة انه وعاء لكيل الحب من أرز وغيره •



حتى جمعت منه بقرا ورعاءها ، فقال اتق الله تعالى ، ولا تظلمنى حقى • قلت اذهب الى تلك البقر ورعائها ، فخذها ، فقال : أتتهزأ بى ، اتق الله ولا تستهزئ بى ، فقلت انى لا أستهزئ بك خذ لك البقر ورعاءها ، فأخذها فذهب •

فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فرج لنا ما بقى ، ففرج الله ما بقى •

واننا نقف عند القصة الصادقة ، فانا نجد العبارات السهلة المستقيمة ، ويجوارها التصوير للأفعال التى تنبعث من القلوب ، ويقصد بها فاعلها وجه الله تعالى ، والحديث واضح فيه مع صدق القصة العبر والمعانى التى ذكرها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومنها يبرز :

أولا : ان الأعمال بالنيات ، وان الله تعالى لا يقبل الا الطيب من الأعمال ، ولا يكون العمل طيبا الا اذا قصد به وجه الله ، وابتغاء ما عنده لا يريد جاهها ، ولا شرفا ولا مالا ، انما يريد الله تعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشئ ، لا يحبه الا لله » •

وثانيا : أن قدر الله تعالى يسير على نظام محكم فى علمه ، وبحكمة بالغة يقدرها ، وأنه سبحانه وتعالى ينزل الفرج ، لمن يتجه اليه ، وأنه يجيب دعوة المكروب ، لخير قدمه ، ولا خلاص قلبه ، وابتغاء ما عند ربه ، كما قال سبحانه وتعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » :

ويدل ثالثا : على أن الله سبحانه وتعالى يجازى المؤمن الفعّال الذى يتجه فيها الى العمل الايجابى الذى ينفع الناس ، وخصوصا الأقربين ، كما رأيت فى الخير الذى قدمه الرجل الأول ، من احسان الى أبويه ، وتقديمهما على أولاده الصبية الصغار ، وتركهم يتضاغون ، ولا يزعج أبويه ، وان ذلك هو الايثار ، لأن الأولاد قطعة منه ، فتقديمها لتقديم لنفسه ، فتقديمهم أثرة ، وتقديم أبويه ايثار ، فهو ممن ينطبق عليه قول الله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » •

ويدل رابعا : على أن الكف عن الشر بعد أن تتوافر دواعيه وتهجم أسبابه هو من الأعمال الايجابية التى يثاب عليها المرء ، فالفضيلة ايجابية ، وليست سلبية •

ويدل خامسا : على أن الوفاء بالحق فضيلة الاسلام ، وأنه ليس بقريب من الله من أكل حقوق غيره ، وأقرب الناس من أعطى كل ذى حق حقه ، وتدل

القصة فى ضمن ذلك على أن أجر العامل يجب أن يوفى ، وأن يعطى العامل أجره قبل أن يجف عرقه ، فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

( ز ) هذا وان احكام القول ليبيلغ فى الأخلاق والمعاهدات التى عقدها النبى عليه الصلاة والسلام أعلى البلاغة ، فهو يعقد المعاهدات ، لا يترك فيها حقا الا سجله فى عبارات واضحة مانعة من الجهالة التى تقضى الى نزاع فى فهمها ، ولا يترك فيها واجبا عليه الا دونه فى عبارات صريحة لا التواء فيها ولا تحيف ، بل هى صريحة كاملة الشروط ، لأن مقاطع الحقوق عند الشروط •

ولو أن ساسة هذا العصر درسوا مخلصين وثائق المعاهدات التى أملاها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأرادوا متجهين الى الحق أن يحرروا معاهدات خالصة لوجه الحق ، لا يجدون ثروة يأخذون منها الا معاهدات النبى الأسمى ، وسيكون لذلك فضل من الكلام عند التعرض لسياسته ان شاء الله سبحانه وتعالى •

### ٣ - الخلق الكامل

( ١ ) الرفق

١٢٧ — قال الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « **وانك لعلى خلق عظيم** » ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الامام أحمد فى مسنده : « **انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « **أدبى ربى فأحسن تأديبى** » •

وكمال الخلق لفظ قصير يتناول فى معناه كثيرا ، فهو يشمل حب الفضيلة والتمسك بها والقيام بحقها ، ويشمل حسن العشرة ولطف المودة ، ويشمل صلة الرحم والاحسان الى الجار القريب والبعيد ، ويشمل حب الناس والرفق بهم ، ويشمل التواضع ، وتوطىء الكنف لهم ، ويشمل البشر ، ولقاء الناس به ، ويشمل الأناة والحلم ، ومنع الجفوة ، ويشمل كظم النفس واجتناب الغيظ ، ويشمل الحياء واقراء السلام على من عرف ومن لم يعرف ، ويشمل الجود بما عنده ، والزهد فيما ليس عنده ، ويمنع الغلظ والفظاظة ، ويشمل العفو عن المسيء ، وإقالة عثرته ، ويشمل الرد على المسيء بالاحسان ، ويشمل تخليص القلب من الاحن ، ويشمل الاعراض عن الجاهلية ، وترك

المهاترة ، والمماراة والمجادلة ، ويشمل التيسير ، وترك التعسير ، والتبشير ، دون التنفير •

وفى الجملة الخلق الحسن يشمل تهذيب النفس ، وتربية الوجدان ، والتألف مع الناس ، والقرب اليهم ، وتوطىء الكنف لهم ، والتواضع ، والرفق بالضعفاء ، والقرب منهم ، والألم لآلامهم ، والسرور لسرورهم ، والاندماج فيهم من غير تأثر ، ولا تجانف لاثم •

وان الخلق الحسن يؤثر فى الدعوة الى الحق ، بما لا يؤثر البرهان وضروب الأقيسة •

وانه من أوصاف النبوة ، ولقد قال الله تعالى فى ثمرات الخلق الحمدي « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » •

#### (ب) العفو :

١٢٨ — ولقد هيا الله تعالى محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ليكون الهادى الى الحق ، والى صراط مستقيم ، فوهبه الخلق الكامل ، الذى يؤلف القلوب ، ويجمع النفوس ، الا من طغى واستكبر ، وأثر الهوى على الحق ، وكان قبل البعثة يحب العشير ، ويقرب الصديق ، ولا يعنت أحدا بعداوة ، بل كان المسالك الطاهر بينهم ، يعف عن قول الخنا وفعله ، ويبتعد عن الهوى وجموحه ، لا يعادى ، ولا يصخب ، ولا يفحش فى قول أو عمل ، وهو الصادق ، وهو الأمين ، وهو الذى يعين الكل ، ويغيث الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، يعفو عن ظلمه الا أن يكون فى ذلك انتهاك لحرمة من حرمت الله ، أو اعتداء على فضيلة •

وانذا كان المسيح عيسى ابن مريم قد كان خلقه السماحة يعفو عن المسيء كذلك خلق النبيين عامة ، وخلق محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، وكان ذلك ايجابيا ، وليس سلبيا ، يفعل الخير ويجتنب الشر ، وكان التاجر السمع الصبور ، حتى انه يروى بعض القرشيين انه بايع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ببيعة قبل البعثة ، وبقي شئ لم يأخذه من محمد ، فانتظره النبى عليه الصلاة والسلام ثلاث ليال ، وكان يذهب فيقيم فى مكانه الذى غادره فيه ، حتى لا يضل فلا يهتدى اليه ، فيضيع حقه الثابت له •

ولقد امتدت هذه الأخلاق الى ما بعد النبوة ، فكانت دعامة الدعوة ، فسار بسنة العفو عن الاساءة ، والاعراض عن الجاهلية استجابة لقوله سبحانه وتعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وقد كان ذلك الخلق يجذب الناس الى الايمان من غير دليل ولا برهان ، وان كان الحق واضحا فى ذاته ، وزاده وضوحا خلق النبى الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولنذكر واقعة كان العفو فيها داعية الاسلام .

تصدى غورث بن الحارث ليفتك برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نائم تحت شجرة قائلا ، والناس قائلون ، فلم ينتبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا وهو قائم ، والسيف مصلت على رأسه فى يد الرجل ، وهو يقول : من يمنعك منى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام بقلب مؤمن واسان صادق : « الله » ، فسقط السيف من يد الرجل . فأخذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : « من يمنعك منى » ، قال : كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه . فدنا قلب الرجل بعد نفور ، وصار داعية لحمد صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن كان يريد قتله ، فقد ذهب الرجل الى قومه يحببهم فى محمد ( عليه الصلاة والسلام ) ودينه ، يقول : « جئكم من عند خير الله » ، ولقد قال فى مجمل أخواله هند بن أبى هالة ، وهو ابن أم المؤمنين خديجة من غير النبى .

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يخن لسانه » ، الا بما يعينهم ويؤلفهم ولا ينفهم ، ويكرم كريم كل قوم ويولييه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يفعل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ، ولا يجوز ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده ، أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة (١) .

وقال هند هذا فى مجلسه : كان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه من جالسه ، أو قاوله فى حاجة ، صابره ، حتى يكون هو المنصرف . ومن سألته حاجة لم يرد الا بها أو بميسور القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، وصاروا عنده فى الحق سواء .

(١) البداية والنهاية ج ٦ س ٣٣ .

مجلسه مجلس حكم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تغشى فيه فلتاته ، متعادلين يتفاضلون بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب (١) .

ويقول : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا نشتهى ، ولا يوءس منه راجيه ولا يخيب فيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المرء والاكثر وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث . كان لا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه . اذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعون عنده ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقته ومسألته ، حتى ان أصحابه يستحلّمونه فى المنطق (٢) اذا رأيت طالب حاجة ، فارفدوه ، ولا يقبل الثناء الا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء أو قيام . » ويقول كان سكوته على أربع : الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر ، فأما تقديره ، ففى تسويته النظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره ، ففيما يبقى ويغنى ، وجمع له الحلم والصبر ، فكان لا يفضيه شيء ولا يستفزه .

#### (ج) اخلاقه خارقة للعادة :

١٢٩ — ولنقف وقفة فى تجزئة ذلك القول البليغ ، ودلالته على ما وراءه مما ينبغى أن تكون عليه أخلاق الداعى الى الحق ، وصاحب الرسالة التى حملها الله تعالى ، وأثر هذه فى الاجابة .

لقد قال بعض الكتاب معددا الخوارق التى صاحبت الدعوى المحمدية ، قال ان من أعظم الخوارق التى كانت لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم اخلاقه ، فكانت فى ذاتها أمرا خارقا للعادة بين بنى الانسان ، فهى أعلى من

١

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٣ .

(٢) الكتاب المذكور ، وابن الحرم معناها المامه بها ، ولا يغشى فلتاته لا تستر .

أخلاق الملائكة ، لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وليس فيه روحانية عيسى عليه السلام المجردة بل كانت فيه الروحانية الانسانية ، بما فى الانسان من مطالب الجسم ، وتجرد الروح ، فمحمد صلى الله عليه وسلم بين الناس الانسان الذى تتجلى فيه الانسانية الكاملة ، وفى طبعه روحانية ارادية ، فكل ما فيه من أخلاق المتقربة والارادة ، دخل فى تكوينه ، فهو ليس حصورا ، ولكنه عفيف لم يتدل الى خنا قط ، ففضيلته كف للشر ، وتجنب له ، والعفة من حصور ، ليست كالعفة ممن له شهوات تغالبه ، وأهواء تعانده ، وبمعركة بين القوتين تكون النصرة للعفة ، والغلب للفضيلة ، وما يكون الوصول اليه بغلاب يكون أعلى وأنفس ، مما يجيء رخيصا سهلا .

١ - وان من أول صفات محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكره ربيبه هند ، أنه يخزن لسانه ، أى يكون لسانه كأنه فى خزانة قد ستر لا يظهر الا لخير يرتجيه . فلا يشجع على نفرة ، بل أنه لا ينطق الا فيما يعنى الذين يخاطبهم ، ويفيدهم ، ويكون فيه تأليف لقلوبهم وتقريب لنفوسهم ، وتأنييس غريبتهم ، ويأمر باعطاء ذى الحق ، ولا يتكلم فى مرأ ، ولا يذم أحدا ولا يكثر فى قول ، خشية سقط اللسان ، لا يعيب الحرمات ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يشبع نعمة القول ، فاذا تكلم هو كان كلامه فصلا ، وكان قوله حكما .

وجملة القول فى ذلك أنه قد استولى على لسانه ، فلا يتكلم الا اذا لزم الكلام لرفع حق ، أو خفض باطل ، أو تأليف ، أو زرع مودة ، أو اسداء معروف ، فلسانه ليس خارجا على ارادته ، ولكنه مكملها ، ويسير تحت سلطاتها ، وارادته للحق .

٢ - والصفة الثانية من أخلاقه أنه يأتلف مع أصحابه ، ويمتزج احساسه الفاضل باحساسهم لينساب الى نفوسهم ، يكرم كريمهم ، ويرفع خسيسه صغيرهم ، حتى يحس بأنه منه ، ويوزع محبته بينهم ، ويعطى نفسه لكل واحد منهم حتى أنه يظن كل واحد منهم أنه موضع الرعاية منه ، واذا رأى أمرا حسنا أعلن حسنه ، وان رأى قبيحا نبه اليه فى رفق الهادى الأمين الذى يؤلف ، ولا ينفر ، ويقرب ، ولا يبعد ، لا يسكت عن باطل .

وهو بينهم اليقظ الذى لا يخفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لا يطوى نفسه لأحد على شر ، وينقذهم ، وكان حريصا يحذر من يتوهم منه شرا ، ويحترس منه من غير تقطيب وجه ، أو غلظة فى قول ، بل هو فى كل أحواله ،

الأليف المألوف • يفتح قلبه لهم ، ليقول خيارهم ما تنطوى عليه نفوسهم ، ويستحى غيرهم من أن يظهر خبيثة نفسه ، بل يبقى حبيسا لا يظهر ، وربما خبا فيزول ، ويستقيم أمره ، فان بعد الرذيلة عن النور والماء يذبلها ، بل يذهبها •

٣ - والصفة الثالثة المتواضع الكريم الذى لا ضعة فيه ولا ذلة ، فهو اذا دخل على جماعة جلس حيث ينتهى المجلس وحث أصحابه على ذلك ، ويتطامن لهم فى المجلس ؛ ويمسهم بجناح الرحمة ، ويسوى بينهم ، وبشره مستمر ، يلين جانبه لهم ، ويغض الطرف عما لا يحسن الا أن يكون فى السكوت ترك لواجب الارشاد ، وان أرشد ففى رفق يكتفى بالاشارة • فان لم يكف كان التعريض ، فان لم يكف كان التنبيه فى تعميم ، فاذا رأى بعض الناس يسئ ، لا يواجهه بالاساءة ، بل يقول ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ، ولا شك أنه اذا كان التوبيخ فيه معنى العموم كان اللطف ، وكان مع ذلك أقفل ، وأبلغ أثرا •

ولا يمزح الا قليلا ، وان مزح فبعبارة فيها حكمة ، ولا تخلو من بيان كقوله لعتمه صفية : « لا يدخل الجنة عجوز » فبكت ، فقال عليه الصلاة والسلام ، تكن « كواعب أترابا » ألا ترى فى هذا مداعبة لطيفة تخبر عن حال من أحوال الآخرة •

٤ - الصفة الرابعة بعده عن الغلظة والجفوة ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا عياب ، ولا متتبع للعيورات ولا صخاب ولا فحاش ، فلا يفحش فى القول ، وان كان صدقا ، فان النطق بهجر القول ، ولو كان وصفا صادقا لمن يرمى به ، فانه لا يصح النطق به الا اذا ترتب عليه ضياع حق أو نصر باطل ، فانه يذكر موضوعه ، ومن غير تخير للفاحش •

٥ - الصفة الخامسة : الامتناع عن الذم امتناعا مطلقا ، الا أن يضطره الحق اضطرابا ، فانه يتكلم بالكناية ، ولا يرتضى للعبارة سترا ، وإبعادا عن الفحش ، فلا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه ، وما يجلب خيرا للناس •

٦ - والصفة السادسة : التى يدل عليها هذا الكلام من ذكر أخلاقه ، أنه عليه الصلاة والسلام كان يلتزم السكوت كما أشرنا ، ولكن ليس سكوت المعى الحصر ، بل سكوت من يفكر فى القول قبل أن ينطق ، ومن يحذر من أن يشيع عنه ما لا يليق بمثله ، وهو يقدر ، وقد يكون سكوته حلما وعقلا ، واغضاء ، واعفاء عن يكون فى قوله سوء •

٧ - والصفة السابعة : أنه لا يغضب لشيء يتصل بذاته ، ولا يستغفره شيء يتعلق به ، بل لا يغضب الا لله أن تنتهك حرماته ، فإذا كان ذلك لا يسكت حتى يقام حد الله .

١٣ - هذا ما وصفه به هند بن أبى هالة ، وقد كان رجلا وصافا للرجال ، لا تفوته اللمحات ، ولا تختفى عليه النظرات ، وتكشف دخائل النفوس من العبارات ، وقد لخصنا لك بعض ما تنبىء عنه الكلمات .

ولننقل بعضا من قول من عاشروه وخالطوه ، لتعرف كيف كان عشيرا وفيا ، وذا خلق هنىء ، لا جفوة ، ولا جفاء .

لقد روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة ، وهى التى عاشرتة ، وهو يحمل أعباء الانسانية كلها ويخوض الحروب ويتنقل بين ميادينها - أنها قالت فى اخلاق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما ضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده خادما قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما خير بين شيئين الا كان أحبهما اليه أيسرهما الا أن يكون أثما ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى اليه ، حتى تنتهك حرمت الله ، فينتقم لله عز وجل .

ولقد وصف أبو هريرة صاحبه ، فقال :

كان يقبل جميعا ، ويدبر جميعا ، بأبى وأمى ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ولا صخابا فى الأسواق .

وان هذا الوصف لذلك الصحابى الجليل ، ينبىء عما كان عليه الصلاة والسلام من معاملة للناس ، وقد وصفه فى هذا بثلاث صفات :

أولا : أنه فى لقائه يقبل بنفسه كلها على من يلقاه ، فلا يلقاه لقاء جانبيا أو يكلمه بطرف من لسانه ، أو يستقبل استقبال المستهين ، بل هو واضح فى أقباله ، كما هو واضح فى أدباره ، فان تركه لا يتركه الا بعد أن يتم حديثه ، وعندئذ يتركه ، فلا يبقى حديثا لم يستمع اليه ، ولم يستمع اليه وهو يولى مدبرا .

والصفة الثانية - أنه لم يكن يجبه الناس بفحش ، أو بخروج القول عن جادته ، وقد أشرنا الى هذا فى وصف ربيبه هند بن أبى هالة .



الصفة الثالثة - أنه لا يصخب ، ولا يغاضب ، ولا يجادل فى الأسواق ،  
بل كان كل شيء فيه على سمت حسن وجلال .

وقد أشرنا الى أنه عليه الصلاة والسلام كان كما يستفاد من وصف ربيبه  
له متواضعا أبلغ ما يكون المتواضع ، ولقد خير عليه الصلاة والسلام بين أن  
يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا ، فاختر أن يكون نبيا عبدا .

هذا هو النبى صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الله تعالى رحمة  
للعالمين ، وقد بعثه فى قوم شمس ، فيهم عنجهية جاهلية وغلرسة نسبية ،  
يخير نبينهم المبعوث لهم بين جبروت الملك ، ورق العبد ، فيختار رق العبد ،  
لأنه يريد أن يقرب من النفوس ، لا أن يعلو عليها ، فالرشاد يجيء من القريب  
منهم ، ويبتعد عن يستعلى عليهم .

روى أبو أمامة رضى الله تعالى عنه قال : « خرج علينا رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم متوكئا على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما  
يقوم الأعاجم يعظم بعضا بعضا ، وقال : انما أنا عبد أكل ، كما يأكل العبد ،  
وأجلس كما يجلس العبد » .

وقد جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض : وفى حديث عمر رضى الله  
تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا تطرونى كما  
أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » . وعن  
أنس رضى الله عنه أن امرأة كان فى عقلها شيء ، جاءت ، فقالت : ان لى اليك  
حاجة . قال صلى الله عليه وسلم « اجلسى يا أم فلان فى أى طرق المدينة شئت  
اجلس اليك ، حتى ألقى حاجتك » (١) .

ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام فى أهله موطأ الكنف ،  
يعين أهله فى مهنة البيت ، ولا يستنكف ، يغسل ثوبه ويحلب شاته ، ويرقع  
ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل البعير ، ويعلف ناضحه ، ويأكل  
مع الخادم ، ويحمل بضاعته .

وكانت الأمة من اماء المدينة اذا احتاجت الى من يعينها من الرجال ،  
ولقيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعانها فى حاجتها ، حتى  
تقضيها ، ثم ينصرف عنها موقورا غير منقوص .

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٧٦ .

## هيئته :

١٣١ — ومع هذا التواضع الكريم غير الذليل ، كانت هيئته فى القلوب أشد ما تكون هيبة الرجل الذى اختاره الله تعالى رسولا للعالمين ، وما كان تواضعه الا لما يعلمه من فرط هيئته ، فيلطفها بذلك التواضع ، بل انهما نبعا من هيئة واحدة ، فهما متآخيتان ، بل انه لا يتواضع هذا التواضع من غير ان يتضع ، الا من يكون قويا فى نفسه ، لا يحس بأنه ينزل الى المهانة فيما يفعل ، وفيما يدع .

ولقد وصف الواصفون مجلس النبى عليه الصلاة والسلام بين صحابته بما يدل على عظيم مهابته ، وقوة وقاره ، وسمته ، فقد كان مجلسه عليه الصلاة والسلام يحفه الوقار ، لا يتكلمون الا اذا اذن فى القول ، فاذا صمت صمتوا ، لا يخرجون عن قوله ، ولا يبعدون عن ارادته . ولكن فى تواضع ، واطمئنان .

وقد كان أحيانا يحرص على أن ينزل ثم ينزل ليقرب منه الذين يحدثهم ، ويريد هدايتهم ، وأحيانا كان النساء يسترسلن فى القول فى مجلسه من غير أن يكون منه جفاف القول ، وهو قادر على أسكاتهم بنظراته ، ولكنه لا يرمضهن ، ولا يمنعهن .

وقد كان يرشد بعض النسوة ، فكن يتسابقن فى سؤاله ، فتصايعن عليه ، فدخل عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وهن يتصايعن فى تسابق الى السؤال ، فسكتن : فابتسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بدت سنه ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ، ما الذى أضحكك ؟ فقال الرسول الكريم الرؤوف الرحيم : هؤلاء النسوة كن يتصايعن على ، فلما رأيتهن سكتن ، فقال عمر : أى عدوات أنفسهن أتهيننى ولا تهين رسول الله . فقالت احداهن : ولكنك أفظ وأغلظ ، فأسكتها الرسول ، وقال القسوى المهيب ، نافيا الغلظة عن صاحبه : « لا ، ان الشيطان لا يسير فى فج يسير فيه عمر » .

ولم يكن عمر أشد هيبة من النبى بل النبى المهيب المحبوب ، ولكنه يتطامن ليصل الى القلوب ، وهو لا يترك هيئته ترهب ، ولكنها هيئته ما كانت الا لترشد ، فالارشاد غايته فى حاله مهيبا ومتواضعا .

وان أخبار هيئته فى مبدأ البعث لها صور ووقائع ، ولكن ما كان عليه الصلاة والسلام يسلط هذه الهيئة التى تفرض صاحبها الا نادرا ، لتكون

استجابة الدعوة عن الاقتناع المجرد الذى لا يدخله رهبة ولا ترغيب الا ما يكون من رضا الله تعالى يوم القيامة •

ولكن ان كانت المواجهة بينه وبين زعماء الشرك وجها لوجه ، ورأى فيهم استهزاء مقبها ، وانفرد بهم ، بين يأس الله تعالى عليهم ، وقوته وما وهبه الله تعالى من هبة ربانية ، ولنذكر من ذلك واقعتين •

احدهما - أنه يروى عمرو بن العاص أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يطوف بالببيت ، والملا من قريش جالسون فى فنائه ، فكلما مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غمزوا بالقول ، فيبدو ذلك فى وجهه ، وكرروا ذلك حتى أتم الطواف سبعا ، ثم التفت اليهم ، وقف وقال لهم فى قوة المؤمن ، وعزيمة الصادق ، وهيبة القائل : يا معشر قريش شاهت الوجوه ، وأرغم الله هذه المعاطس ؛ لقد جئتمكم بالذبح ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فراعهم قوله وأفزعهم ، فما كان منهم أحد الا كان يرفوه بأحسن القول ، ويقول اذهب أبا القاسم موفورا • ما علمنا عليك شرا قط •

ولا شك أن الهبة الانسانية التى منحها إياه رب العالمين كانت هى الفاصلة فى هذا ، وما كان للتهديد الذى ساقه عليه الصلاة والسلام له الأثر النفسى ، الا لصدوره عن مهيب قوى •

الثانية - أن أشد الناس طغيانا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن هشام الذى سماه التاريخ الاسلامى بحق أبا جهل فقد كان فاجرا ، لا شرف فى القول يقيده ، ولا خلق كريم يمنعه ، بل كان الحقد الدفين يدفعه ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام يصابره ليثير عطف الناس على الدعوة المحمدية ، يترك هذا الطاغوت فى اندفاعه الى الشر وصبره له • ولقد كان لبعض العرب دين عليه ، فمأطله ، ثم امتنع عن السداد أن يستعين ببعض زعماء مكة ممن هم على شاكلته ليستأدوه دينه ، فأحاله تهكما - على محمد ابن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم - فذهب اليه الرجل يستعين به ، فذهب النبى عليه الصلاة والسلام الى بيت أبى جهل الطاغية ، وطرق الباب ، فخرج اليه ، وفرائصه ترتعد ، من هول العزمة المحمدية ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام أد للرجل دينه ، فذل كبرياؤه كبرياء الجاهلية ، وأحضر المال وسدد الدين صاغرا ، وصار هو أضحوكة الجاهليين أشباهه •

وكان عليه الصلاة والسلام يخفف من جأش من تناله هيئته عليه الصلاة والسلام • دخل عليه رجل ، فأصابته من هيئته عليه الصلاة والسلام رعدة

فقال عليه الصلاة والسلام : « هون عليك ، فانى لست بملك ، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وروى أبو هريرة : دخلت السوق مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاشترى سراويل ، وقال للوزان زن وارجح أى ( أوف الميزان ) ، فيثب التاجر الى يد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده ، وقال هذا ما يفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، انما أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل . فذهبت لأحملها ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » .

وقليل من الناس من يلتقى فيه التواضع والهيبة ، وإن محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد وصل الى أسمى درجات الهيبة ، ونزل من التواضع الى درجة يقرب فيها من كل ذى حاجة وذى ضعف ، يأنس به الضعيف ويرجوه ذو الحاجة فى حاجته .

إن أكثر الذين يستكبرون . ممن يحسون بضعف فى نفوسهم ، ولا يجدون فى أنفسهم قدرة شخصية تفرض هيبتهم فيستعينون بالكبرياء وغمط الناس والتسامى عليهم ، ليعوضوا النقص ، ويخففوا الضعف ، أو يخلقوا هيبة صناعية : مصدرها مال ، أن ذهب فقد ذهبوا ، أو منصب يتعالون به إذا ألقوا عنه أصيبوا بالصغار والضياع ، أما ذو الشخصية المهيبة بتكوين الله تعالى ، وبما منحها الله تعالى من علم وفضيلة وقوة نفس . فانها لا تحتاج الى المهابة الصناعية والغطرسة والاستعلاء بها على الناس ، والاستهانة بهم ، واستصغار أمورهم .

والمهابة الفطرية التكوينية المستمدة من العلم والخلق والفضيلة هي والتواضع صنوان ينبعان من معين واحد ، فهما لا يفترقان ، لأن المهابة الفطرية ليست فى حاجة الى غذاء صناعى ، بل أن المهابة توجب التواضع ليكون التآلف والتكامل الجماعى .

### العفو والتسامح :

١٣٢ — ينبعان من قلب سليم وخلق كريم ، ولقد قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها فى خلق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « كان خلقه القرآن » ، فهو يأخذ بهديه . ويتبع منهاجه من غير عوج ، ولا التواء ، والله تعالى يأمره بقوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »

واستمع الى قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » •

وقد هياه الله تعالى قبل البعثة ، ليكون العفو عن هفوات الناس ، المتجاوز عن أخطائهم ، وان العفو والسماحة لا يسكنان الا قلبا خاليا من الأحقاد والأضغان ، ومن يعمل ليقود الخلق الى الحق لابد أن يكون نظره الى ما هو أمامه ولا ينظر الى الوراء ، والأحقاد والأضغان ، ومحاسبة كل امرئ على ما كان منه ، انما هي تشد صاحبها الى الوراء ، فلا يكون تفكيره الى ما يجب عليه القيام به في المستقبل ، بل يكون تفكيره في شفاء غيظ من أسقامه التي كانت في الماضي ، ومن يأتي برسالة داعيا الى الحق ، لا يكون دبري النفس يشغله الماضي عن الحاضر ، بل يكون عاملا للمستقبل •

محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، والذي خلقه ليحمل أقوى رسالة ، وأعظم هداية ، رباه ربه على الصفح الجميل ، ليكون قلبه متجها دائما الى ما هياه الله تعالى له ، من حمل الدعوة الى الحق ، متفرغا لها ، فما كان من احن يضعها دبر أذنه ، وما كان من واجب تفرغ له ليليلغ الرسالة على أكمل وجه ، فلا يشغل نفسه حقد ، ولا تملؤها احن ، فحسك الصدور يشغل عن العمل ، ويفسد الصلات ، ويقرى بالعداوة ، ونبي الله تعالى فوق أن يشغله صغن •

ولقد كان النبي عليه الصلاة والسلام كذلك قبل أن يبعثه الله تعالى ، فلم يعلم في تاريخ حياته أنه شغل نفسه بأحقاد الجاهلية وما كانت تبثه من عداوات ، بل انه في آخر الرسالة يعلن الصفح الكامل ، فيقول في قوة ذي العزم من الرسل ، « ألا ان دم الجاهلية موضوع ، وأول دم أبداً به دم عمى الحارث بن عبد المطلب » •

ولقد كان بعد البعثة حريصا على سد كل مسام الأحقاد والأضغان ، وذلك بمنع النميمة ، ولو كان ما ينقل صدقا ، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لا يبلغني أحد عن أحد شيئا ، اني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر (١) » •

ولحبته للعفو الكريم والصفح الكريم ما كان يوجه لوما على عمل عمل مادام يخص نفسه ، يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى

---

(١) البداية والنهاية ص ٦ ص ٣٨ •

عليه وسلم : « والله ما قال لى لشيء صنعته لم صنعت هكذا ، ولا لشيء لم أصنعه لم لم تصنع » .

ويقول ذلك العشير الذى خدمه فى السفر والحضر : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، أرسلنى لحاجة ، فقلت : - لا أذهب - وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخرجت حتى أمر على صبيان ، وهم يلعبون فى السوق : فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد قبض بقفاى من ورائى قال : فنظرت اليه وهو يضحك ، فقال يا أنيس ، ذهبت حيث أمرتك . فقلت نعم أنا أذهب يارسول الله » ومضى أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حيث أمره أو طلب اليه من حاجة (١) .

هذا خبر يبدو صغيرا فى مقام أخبار النبوة المحمدية ، ولكنه كبير فى مغزاه ، وفى معناه ، وقد بدت السماحة وسماحة الأخلاق . أولا - فى أنه عفا وسامح خادمه وهو يعانده ، ويرد قوله ظاهرا ، فما لاه ، ولا عتب عليه ، ولا احتسبها عليه ، ولكنه تركه لتقديره ، وقبل ألا يذهب الا مختارا غير مأمر .

وثانيا : تتبعه ليعرف ماذا أجدى الصفح الجميل ، وعلاج شماس النفوس بالتسامح والتساهل ، والاخاء من غير اعنات ولا استكراه فى اغلاق واغضاب ، أو مغاضبة .

وثالثا : لم يكف بالألا يغضب ، بل أنه يداعبه مع ذلك ، فيقبض عليه من تفاه ، ثم يناديه مداعبا ضاحكا يا أنيس ، يدلله بتصغيره ، وهو الذى عانده ، ورد ارادته .

ثم يقول معلنا انتصار السماحة والعفو ، وعدم المؤاخذه على ظواهر الأفعال « ذهبت حيث أمرتك » هذا كمال النبوة وخلق النبى الذى يدعو النفوس المشاردة فيروضها على الحق ، ويؤنسها فى عفو وسماحة ، وصفح جميل ، بل ان الإشارة لا تعلق قط ، حتى تكون أمر .

---

(١) الكتاب المذكور .

وقال أنس هذا « كنت أمشي مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذب بردائه جذبا شديدا ، حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبرته ، ثم قال : « يا محمد مر لي من مال الله تعالى الذي عندك ، فالتفت اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء » .

وان هذه السماحة ، وذلك العفو خلقه قبل البعثة ، وكان خلقه عندما اشتد الأذى ، فهو يعالج عنف قريش بالرفق في القول ، ويعالج الإيذاء بالصفح الجميل ، الذي لا يمن به ، ولكنه يهدي به من شاء الله تعالى ، ولو لم يكن العفو أساسا ، لطلب من الله تعالى كما قال تعالى عن نبيه نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، أنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض ، ولكل أمة رسول تكون أخلاقه على ما يكون سبيلا لهدايتها ولارشادها .

روى أنه لما كذبت قريش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالغت في الأذى ، ولما لجأ الى ثقيف في الطائف أغروا سفهاءهم . أتاه جبريل عليه السلام فقال له : « ان الله تعالى قد سمع تحول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم – فناداه ملك الجبال وسلم عليه . وقال مرني بما شئت ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ( الجبلين اللذين يحيطان بمكة المكرمة ) قال النبي السمع الكريم : « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » .

وذكر ابن المنكر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن يطيعك ، قال أوخر عن أمتي ، لعل الله تعالى أن يتوب عليهم » .

وان سماحته عليه الصلاة والسلام وعفوه ليبدو ان في عفوه عمن عادوه وأذوه وقاتلوه ، ولم يتركوا بابا من أبواب الأذى والقتل والقتال الا سلكوه ، وما تركوا كيذا الا كادوه له ، ثم آل الأمر الى أن ينتصر عليهم نصرا مؤزرا .

عندما فتح الله تعالى له مكة المكرمة ، نادى الملأ من قريش ، ولم يفكر فيما كانوا يصنعون به وبأهل الايمان ان كان لهم النصر ، ولكنه فكر فيما ينبغي لمثله معهم ، وتطبيب قلوبهم ، وإزالة الأحقاد من نفوسهم ، فقد قال لهم في ود راه في موضعه : ما تظنون أني فاعل بكم ، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، ما نظن الا خيرا ، قال أقول لكم ما قاله أخى يوسف لأخوته : « لا تثريب عليكم

اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وبذلك أنهى الأحقاد ، ووضعها دبر أذنه ليستقبلوا عهدا جديدا فى الاسلام .

ان الداعى بدعاية الحق ، يجب عليه أن يطهر نفسه من أمرين : أحدهما ادران التألم من الناس لأذى سبقوا به ، أو لحسك الصدور ، أو لفحش كان منهم ، فانه جاء لهدايتهم ، لا لمقابلة اساءة بمثلها ، ولا ليشغل نفسه بالנקمة بهم ، وان كانت حقا أو أخذ حق ، ولا علاج لذلك الا بأن يجعل نسيان الماضى ، والتسامح ، هو السبيل لهذا النسيان ، والعفو عما سلف من سيئات هو الذى يمكن الداعى من الخلاص الا من الحق .

ثانيهما : أن يبعد الأثرة عن نفسه ، فلا يفكر فى العمل لنفسه ، وذلك يقتضى الايثار ، والفناء فى دعوته التى يدعو اليها ، وان تطهير النفس من الأثرة ، انما يكون بتغليب ترك الحقوق اذا لم يكن فى تركها اقامة لباطل ، أو خفض لحق ، أو سكوت عن حق عام ، فالداعى ينسى حقوقه الشخصية ، بل يهملها من غير تهاون ، ولا يترك حقا عاما ، ولا أمرا من موجبات دعايته ، فان تساهل فى حقوقه ، فلكى يتفرغ ب كله للحقوق العامة .

واذا كان ذلك ما ينبغى أن يكون عليه دعاة الحق ، والناصرين له من الناس ، فكيف يكون الشأن ممن هو رسول لرب العالمين ، انه ينسى حقوق نفسه ، فيعفو عنها ، ويذكر حقوق الناس ، فلا يفرط فى أى جزء منها .

ولقد قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فى وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « لم يكن فاحشا ، ولا متفحشا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » .

وفى الجملة ما كان يحمل الا الخير ، وينفى عن نفسه كل ما يثيرها على أحد ، فلا يكون منه الا النفع ، ولا يحمل نفسه عناء البغض والكراهة الا أن يكون لله .

## حياءه :

١٣٢ — الحياء صفة نفسية يظهر اثرها فى العمل على الا يفاجىء الشخص الناس بما ينفرهم ، أو بما لا يألون ، لا يظهر منه ما يخالف الفضيلة ، فلا يعلن رذيلة ، ولا أمرا لا يتلقاه الناس بالقبول ، ويعمل على ارضاء النفس



الجماعية ما لم يكن اثما ، وهناك صفات تلتبس مع الحياء ، أو يبدو بآدى  
الرأى أنها تعارضه •

فقد ظن بعض الناس أن الحياء ضعف نفسى ، وأنه قد يكون السكوت فيه  
نوع من الرياء ، وذلك باطل ، لأن الحياء الحقيقى ليس ضعفا ، ولا ينشأ عن  
ضعف ، إنما ينشأ عن الكمال ، لأن من عنده الحياء لا يحب أن يظهر منه الا  
ما هو كامل فى ذاته ، ولا يظهر منه ما هو مردول فى ذاته أو يعده الناس  
مردولا ، وذلك ليس ضعفا ، ولكنه نقاء وصفاء للمجتمع من أن ترنقه مظاهر  
الانحلال من القيود الاجتماعية ، والتحلل من الروابط الانسانية التى تربط  
الأحاد ربطا نفسيا •

والشجاعة والحياء يتلاقيان ، بل إن تلاقيهما هو ذروة الكمال ، فإن  
قول الحق فى موضعه ، وفى وقته المناسب يتلاءم مع الحياء ، والسكوت عن  
النطق بالحق فى وقت الحاجة اليه ، لا يعد حياء ، بل انه استخفاء ، والحياء  
حماية للفضيلة ، وتضييق على الرذيلة من أن تظهر ، وإذا كان للحياء أثر فى  
شجاعة قول الحق ، فانه يحمل القائل على الدعوة اليه فى رفق من غير  
عنف ، فيكون أجدى ، وأشد تثبيتا ، وأهدى سبيلا ، وإن اقتضى الحق مجاهرة  
به تأخذ وصف القوة ، لا يمنعها الحياء •

ولا يظن أحد أن فى الحياء رياء ، إنما الحياء ألا تنطق الا بالحق ،  
أو لا تغمطه ، أو تغمض العين على الباطل ، إنما الحياء يمكن صاحبه من أن  
يسوس الحق سياسة المستمسك من غير هواده إلا أن تكون رفقا •

ولقد ذكر القاضى عياض فى الشفاء فى بيان الحياء : وأما الحياء  
والاغضاء ، فالحياء رقة تعتري وجه الانسان ، عند فعل يتوقع كراهيته ، أو ما  
يكون تركه خيرا من فعله ، والاغضاء التغافل عما يكره الانسان بطبيعته ،  
وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن  
المعورات اغضاء • قال الله تعالى : « أن ذلكم كان يؤذى النبى ، فيستحيى  
مئكم • » الآية ••• عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : « كان  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها » (١) •

• وإن مظاهر حياء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تبدو فى عامة أحواله ،  
نذكر بعضا منها يدل على سائرها •

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٦٨ •

( ١ ) أن بعض أصحابه كانوا لفرط كرمه يتناولون الطعام ، ثم يأخذون في الحديث ، فكان هذا يؤذى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم وقد يكون منه اضطراب في بيته ، وإقلاق لراحة أهله ، وضيق في ذات نفسه ، ولكن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستحي من أن يأمرهم بالخروج ، أو يطلبه اليهم ، أو يشير به بأي نوع من أنواع الإشارة ، حتى تولى الله تعالى تعليم المؤمنين الأدب في هذا المقام ، وأعطى رسوله من أن يخالف قانون حياته ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ، إلى طعام غير ناظرين إياه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا » .

(ب) ومن مظاهر حياته ، وعدم المجابهة من غير ضياع للحق ، أنه إذا كان قد بلغه عن أحد ما يكرهه ، لا يجابهه بأنه فعل ما يكره في الشرع ، ولا يجبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان يقول : « ما بال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا » . فينهى عن العمل ويستنكره ولا يسمى فاعله .

وإن ذلك فوق أنه مظهر من مظاهر الحياء ، فانه أولا يجعل النهي عاما ، والاستنكار شاملا لكل من يحتمل أن يقع منه هذا العمل ، وفوق ذلك إن ذلك التعميم على قبح الفعل في ذاته من غير تعلقه بشخص بعينه ، فالاستنكار للفعل من غير نظر إلى فاعله ، ومع كل هذا فإن ذلك هو الحكمة ، لأن المجابهة للفعل فيه خزيه ، وقد يجر تكرار اللوم إلى المجاهرة والاستمرار ، وإن تكرار الخزي أعانة للشيطان ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقوم قالوا لمحدود في شرب خمر ، أخذك الله ، فقال لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تعينوا عليه للشيطان » .

(ج) ومن مظاهر حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن الفعل إذا كان يندر وقوعه ، فإذا وقع لا يجابه صاحبه بالنهي ، بل يحث أصحابه على أن ينهبوه ، دخل عليه مرة رجل عليه ثياب معصفرة زاهية تبهر الأنظار مما رأى أنه لا يليق أن يكون لبسة الكاملين ، فلم ينهبه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل بعد أن خرج أمر بعض صحابته أن ينهبه ، وقد دفع إلى ذلك حياء النبي عليه الصلاة والسلام أولا - والرفق بالرجل من مرارة الاعلان ثانيا ، ومنعه من أن يقع عليه خزي ثالثا .

(د) ومن مظاهر حياته ، ولطف مودته عليه الصلاة والسلام انه كان اذا لقي الرجل بوجه لا يتجه بصفحة وجهه الى جانب آخر ، حتى يكون محدثه هو الذى ينصرف عنه .

روى أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه كان اذا استقبل احدا بوجه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه .

وروى أنس أيضا أنه كان اذا صافح الرجل أو صافحه لا ينزع يده منه ، حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ، واذا أراد رجل أن يسر اليه حديثا فى أذنه ، فيحنى رأسه له ، ويستمر حانئا رأسه ، حتى يكون الرجل هو الذى ينحيه .

وقد يقول قائل ما للاحياء والشمائى النبوية التى من شأنها أن تسهل دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه أدب شخصى ليس له صلة بالدعاية أو تبليغ الرسالة !!؟

ونقول ان خلق الداعى يجذب الى موضوع الدعوة ، فلو كان الداعى فحاشا ، أو صخابا ، أو يغلب عليه أن يلوم وتقرع عباراته لنفر منه الناس ، وما استجاب له الا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة ، بمقدار ما يهمهم لبها .

واذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس ، ويوجهها نحو الحق ، فان الحياء أشد الأخلاق اجتذابا للنفوس ، فان الحياء ، يجعل صاحبه لا يفجأ الناس بما لا يسرهم ، بل يجىء اليهم من جانب ما يألون ، فلا تنفر النفوس ، ولا تنشعب عن الحق ، وان عنف الداعى ، وتفحش قوله يعوق دعوته ، ويكون استنقاله مؤديا الى رده .

واذا كان مع الحياء لين فى الطبع من غير ضعف ، وقوة فى الحق وصل اليه فى مداخل سهلة لينة ، ولقد قال فى وصفه على بن أبى طالب كان أوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة .

ولقد كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف المعشر مع الحياء ، والاستمساك بالحق مزيجا من أخلاق كريمة ، جعله لا يترك التنبيه الى الحق فى رفق ، وجعله يصل الى ما يريد من اغياله فى القلوب .

ذكر بعض الذين أدركوه قصة تدل على جمع النبى عليه الصلاة والسلام بين لطف العشرة ، والحياء ، والتأديب اللطيف .

قال ذلك العربى ، وهو ابن جبير : نزلت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مر الظهر ، فخرجت من جناني ، فاذا نسوة يتحدثن ، فأعجبني ، فرجعت ، فأخرجت حلة حبرة فلبستها ، ثم جلست اليهن ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قبته ، فقال يا أبا عبد الله ما يجلسك اليهن ، فهبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله ، جمل لي شروء أبتغي له قيدا ، قال فمضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبعته ، فألقى رداءه ٠٠٠٠ ودخل الأراك ففضى حاجته وتوضأ ، ثم جاء فقال يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك ، ثم ارتحلنا ، فجعل لا يلحقني فى منزل الا قال لى السلام عليك يا عبد الله : ما فعل شراد جملك ٠

فتعجلت الى المدينة ، فاجتنبت المسجد ، ومجالسة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلو المسجد ، فجعلت أصلى ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعض حجره ، فجاء صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جاء فجلس ، فطولت رجاء أن يذهب ، ويدعنى ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : طول يا أبا عبد الله ما شئت فلست بقائم حتى تنصرف ٠

فقلت والله لأعتذرت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأبردن صدره ، قال فانصرف ، فقال السلام عليك يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك ، فقلت يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما شرد ذلك منذ أسلمت ، فقال عليه الصلاة والسلام رحمك الله مرتين أو ثلاثا ، ثم أمسك عنى فلم يعد (١) ٠

انظر أيها القارئ الكريم للتأديب النبوى لأصحابه من غير أن يكون فحشا ، وفى حياء المؤمن ، وأدب الهدى المحدث ، لقد لاحظ رجلا يرى جمعا من النسوة يعجبهن ، فيلبس أحسن ثيابه ، ويجلس اليهن ، فيسأله فيكذب ، فيراه يخطئ خطئين - أولهما - أن يخرق حجاب الحياء فيجلس فى مجلس النساء ، وذلك خدش لحيائهن ، وتهجم عليهن ، واختراق لحجاب الحياء فى ذات نفسه ، ثم يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويلج النبى عليه ، ويلومه على ما كان منه ٠ بل انه يوهمه ابتداء أنه صدقه فى كذبه ، ويومئ من طرف خفى الى أنه لم يقل الحقيقة ٠ فيكرر له ما اعتذره به وقتا بعد آخر بآثاء ، وذلك ليحمله على التوبة والاستغفار ، انه يريده على التوبة عن أصل ما ارتكب ثم عن الكذب ، فأخذ يكرر السؤال فى شبه مداعبة ، وهو

---

(١) الوفا بأخبار المصطفى لابن الجوزى ج ٣ ص ٤٤٩ ٠

يقصد اللوم ، انه ما انتهى من تكرار القول • وهو يعرف مداه من القلب ، حتى أقر بما ارتكب ، وبأنه قد كذب على الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والاقرار بالذنب أول أبواب التوبة ، وقد ندم على ما فعل بدليل تهريبه من مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

### جوده عليه الصلاة والسلام :

١٣٤ — الجود اذا لم يقصد به التفاخر ، كان بابا من أبواب الخير الذى يكون بالعتاء لذى الحاجة الذى لا يمتن فيه ولا يستكثر ، بل يبذل سدا لحاجة محتاج ، أو لاعانة مستعين ، أو ليتصدق يرجو ما عند الله تعالى ، لا يرجو من الناس جزاء ولا شكورا ، وهو بهذا خلق جماعى يربط المودة بين احاد الجماعة • ولقد عد الحكماء أن الفضائل أربعة جعلوا منها الحكمة والشجاعة ، والعفة والسخاء ، فهو فضيلة عامة ، لا تصدر الا عن يحس بحق الجماعة عليه •

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جوادا يعطى ما فى يده ولو كان فى حاجة اليه ، فهو علم المؤمنين أن يؤثروا على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة •

ولقد ذكر ابن عباس فقال : « كان أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون فى شهر رمضان ، وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » •

فالجود صفة ملازمة له تعلق ولا تنزل ، تعلق فى رمضان ، ويسمو علوها فى العشر الأخيرة من رمضان عندما يذاكره جبريل القرآن •

وقد كان الجواد خلقه قبل البعث ، كما استمر من بعد البعث ، اذ كل شيء فيه قد ازداد خيرا ، ولقد قالت له خديجة رضى الله عنها : « انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم » •

وقد جاء فى كتاب الشفاء ، رد على هوازن سباياها ، وكانت ستة آلاف ، وأعطى اليه العباس من الذهب ما لم يطق حمليه ، وحمل اليه تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها فقسما •

فكان من كرمه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يوزع كل ما يجيء اليه من غنائم ، ولا يبقى منها لنفسه شيئا ، الا ما يكفيه •

وما كان يرد طالب حاجة فقط ، حتى كان يبلغ به الجود ( أن يجود بالموجود كله ) بل انه اذا لم يكن الموجود حمل عبء الدين ليسد الحاجات . جاءه رجل يسأله حاجة ، فقال ما عندى شيء ، ولكن ابتع على ، فاذا جاءنا شيء قضينا . ولقد قال عمر رضى الله تعالى عنه ، وقد رأى محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتحمل ثمن البياعات ، ليؤديه اذا لم يكن معه - قال له : « ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه ، فكره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صاحبه ووزيره عمر الفاروق ذلك ، لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه وبين سجيته التى فطره الله تعالى عليها ، والتى جعلته فوق الكرماء والأجواد .

ولقد لاحظ ذلك أنصارى كان فى حضرة الرسول وصاحبه فقال : يا رسول الله ، أنفق ولا تخش من ذى العرش اقلا لا ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ان كره ، وعرف البشر فى وجهه ، وقال بهذا أمرت . وذكر الخبر الترمذى .

ولقد كان جوده من فرط اعتماده على الله تعالى مع اتخاذ الأسباب ، ولأنه يؤثر على نفسه ، ولأنه حمل نفسه سد حاجة أى محتاج ، فهو جود من قبيل تحمل الأعباء ، لا من قبيل السخاء المجرد ، لقد قال عليه الصلاة والسلام ، وصدق فعله قوله « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك عيالا فالى وعلى » .

فمال الناس لأنفسهم الا ما يفرض من زكوات عليهم ، وأما الذين لا يستطيعون أن يعملوا أنفسهم ، فهم يكونون فى عياله ، وعليه وحده تحمل أعبائهم ، ذلك أن الفقراء عيال الله ، ويحملهم رسول الله .

يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . « كان رسول الله لا يدخر شيئا » .

وعن أبى هريرة أن رجلا جاء يسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مع الرسول مال فاستلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وان جود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليزيد ، حتى انه يخلع ثيابه لمن يطلبها ، فقد روى الطبرانى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رأى صاحب بز ، فاشتري منه قميصا بأربعة دراهم ، فخرج وهو عليه فاذا رجل من الأنصار ، يقول يا رسول الله اكسنى قميصا ، كساك الله تعالى من ثياب الجنة ، فنزع القميص فكساه اياه ، ثم رجع الى صاحب الحانوت ، فاشتري منه قميصا بأربعة دراهم ، وبقي معه درهمان ، فاذا بجارية فى الطريق تبكى ، فقال ما يبكيك فقالت يا رسول الله دفع الى اهلى درهمين

أشترى بهما دقيقا فهلكا ، فدفع اليها رسول الله الدرهمين الباقيين ثم انقلب ،  
فإذا هي تبكى ، فدعاها ، فقال لها ما يبكيك ، وقد أخذت الدرهمين . فقالت  
أخاف أن يضربوني فمضى معها الى أهلها ، فسلم فعرفوا صوته ٠٠٠ ثم قالوا  
ما أشخصك بأبينا وأمنا ، فقال اشفقت هذه الجارية أن تضربوها ، فقال  
صاحبها هي حرة لوجه الله تعالى لمشاك معها ، فبشرهم رسول الله بالخير  
والجنة .

ولقد كانت عشرة دراهم مباركة ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم  
بركتها فقال : « لقد بارك الله تعالى في العشرة كسا الله نبيه قميصا ، ورجلا  
من الأنصار قميصا ، وأعتق الله تعالى منها رقبة ، وأحمد الله هو الذي رزقنا  
بقدرته (١) » .

وكان عليه الصلاة والسلام ينفق ماله ، ويحرض الناس على الانفاق ،  
وكان في كرمه كثير الاعتماد على الله تعالى في رزقه ، فهو يقول لبلال « أنفق  
بلالا ، ولا تخش من ذي العرش اقلالا » ويقول عليه الصلاة والسلام « ما من  
يوم يصبح الا ومكان يقول أحدهما اللهم أعط منقفا خلفا ، ويقول الآخر اللهم  
أعط ممسكا تلفا » .

وان ذلك الكرم لم يكن بعد البعثة الحمديّة ، بل كان قبلها . ويقول في  
ذلك ابن كثير :

« ثم كان قبل البعثة ، وبعدها ، وقبل هجرته ملجأ الفقراء والأيتام ،  
والضعفاء والمساكين » .

وهنا نقول ان جود محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليس جود من  
يعرض عن المال فلا يطلبه ، أو جودا من يجرد نفسه من أسباب الحياة ، فلا يترك  
المال اذا جاء ، بل يطلبه من أسبابه الحلال ، الطيبة التي لا خبث فيه قط ، ولكن  
ليمر على يده مرورا ، ليصل الى الضعفاء واليتامى والأرامل والمساكين ،  
فهو يعبر من يده الطاهرة الأمانة اليهم .

لقد كان تاجرا يكسب من التجارة لنفسه ، ولزوجه الطاهرة الأمانة  
خديجة وتدر عليه الدر الوفير ، وكان يستخدم كل خبرته التجارية التي أفادها

---

(١) راجع البداية والنهاية ج ٦ ص ٦٥ ، وقد ذكر أن في بعض رواته  
من يضعفه بعض الرواة .

من بيئة مكة التجارية ، ولكنه ما كان يفعل ذلك لنفسه ولا لزوجة ، ولكن ليعطى هو وهى الفقراء والضعفاء كسبهما الطيب الذى لا خبث فيه •

لقد ذكر عن عيسى عليه السلام الزهادة فى المال ، وأنه لم يعمل على كسبه ، بل تجرد منه ، ومحمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) فقد كان يعيش ويكسب ويتجر فى صدر حياته ليحصل على المال ، وينفق ما حصل عليه على الضعفاء ، فهو قد سخر نفسه عاملا •••

وفى كل فضل ، ولكن زهادة محمد صلى الله عليه وسلم ايجابية ، اذ أنها تكسب المال من الكسب الطيب ، وذلك الكسب فيه نفع عام ، لأنه اما زرع يأكل منه الانسان ، واما عمل وكدح ينمى ثروة الجماعة ، واما نقل خيرات الأرض التى يفيض من اقليم الى اقليم آخر بالتجارة ، وفى ذلك نفع عظيم ، ثم ان الكسب لا يبقى يد فى الجواد ، بل يفيض به على غيره ، فهى زهادة ايجابية كادحة عاملة •

### الشفقة والرافة والرحمة :

١٣٥ — وصف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه رعوف رحيم ، والرافة والشفقة متقاربتان فى المؤدى ، وقد قال تعالى فى ذلك الوصف : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رعوف رحيم ، وقال تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » •

ونحن فيما كتبنا من بحوث تتصل بهذا المقام قررنا أن الرحمة تكون آثارها عامة ، وقد أشار الى ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر من الحث على الرحمة ، فقال بعض أصحابه : « يارسول الله أكثر من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا • فقال عليه الصلاة والسلام « ما هذا أريد ، إنما أريد الرحمة بالكافة » •

والشفقة وأختها الرأفة تكون فى النواحي الخاصة ، والنبى عليه الصلاة والسلام كان فيه الرحمة بالكافة ، وكان فيه الرأفة الخاصة ما لم تتعارض الرحمة بالكافة ، وذلك يكون فى الرأفة بالآثمين الظالمين الذين يرتكبون ما يوجب حدا من حدود الله ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رافة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » •



وانه عليه الصلاة والسلام كان يعالج النفوس الشاردة بالرافة التي تؤنس هذه النفوس ، فتقرب بعدها ، وتستأنس بعد جفوتها •

ويروى فى ذلك أن أعرابيا جاء يطلب منه شيئا ، فأعطاه ، ثم قال له أحسنت اليك ، قال الأعرابى ولا أجملت ، فغضب الحاضرون من المسلمين ، وقاموا اليه ، فأشار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم أن كفوا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ودخل منزله ، وأرسل صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرجل ، وزاد شيئا ، ثم قال أحسنت اليك ، قال نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا ، فقال عليه الصلاة والسلام : انك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى من ذلك شيء ، فان أحببت ، فقل ما قلت بين يدي ، حتى يذهب ما فى صدورهم عليك ، قال نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى بذلك ، قال الأعرابى ، نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا • فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدها الا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين نائقتى ، فانى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت اليه ، واستناخت ، وشدد عليها رحلها ، واستوى عليهم • وانى لو تركتكم ، حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » (١) •

ان ذلك الحديث ، ينبىء عن حكمة الدعوة والارشاد والهداية الى الحق يقرب الشارد ، ولا يعاقبه ، يدينه الى الحق ، ولا يهلكه ، وانه يسوس النفوس ويتجه الى الجادة من غير عنف •

وفيه الشفقة الكاملة ، وأنها علاج النفوس ، وليس العنف علاجا ، ولكنه قمع فى غلظة ، وقد يؤدى الى الاصرار على الشر ، والامتناع عن الخروج عن دائرته •

وفى ذلك كمال التبليغ للرسالة الالهية ، وتعليم الراعى كيف يسوس الرعية ، ويأخذها الى مواطن الحق ، وحمايته •

وان شفقته الشخصية على المتصلين به لتبدو فى معاملته لأهله من أزواج وأقارب سواء أكانوا أقربين أم كانوا غير ذلك ممن لهم رحم موصولة •

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٧٢ •

ولقد امتنع عليه النوم عندما أسر عمه العباس بن عبد المطلب فى غزوة بدر ، فكان يبكى لأنينه ، وهنا فى هذه القضية ، يبدو أمران يظهران متناقضين – أولهما – أنه لأن عمه وحبيبه العباس قد أسر ، ويذوق مرارة الأسر يشفق عليه ، ويشدد الأسى عليه – وثانيهما – العدالة المقررة الثابتة التى تسوى بين الناس فى النتائج ، اذا تساوا فى الأسباب الموجبة لهذه النتائج المؤدية اليها ، وان الجمع بين دواعى الشفقة ، وموجبات العدل عسير على غير محمد ( عليه الصلاة والسلام ) .

وان الشفقة ودواعيها ، والحرص على الواجب والعدل ، ليتجلى فى أمر زوج ابنته ، فانه كان أسيرا فى غزوة ، فلم يعفه من واجب الفداء ، ورفض أن يفك أساره الا بفداء ، فأرسلت زوجه زينب بنت محمد عليه الصلاة والسلام فترسل زوجه الى أبيها تفدى زوجها بحلية عندها كانت أهبتها اليها فى عرسها أمها خديجة أعز النساء على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، عندئذ التقت أمور كلها تؤثر فى القلب الشفيق فى الرجل العادل ، ففيه الشفقة على ابنته ، وفيه الذكري ، لأوفى النساء له وأبرهن به ، وأحناهن عليه ، وأعزهن عنده ، وفيه ما يجب عليه من عدل غير مفرق بين أسير وأسير ، فهنا التكليف الشاق ، والاحساس القوى ، فمحمد يبكى من فرط ما جاش فى نفسه من ذكري ، وما يدعوه الواجب ، فيجمع أصحاب الحق فى الفداء ، وهم الغزاة المجاهدون ، ويعرض عليهم النظر فى واجبه ، والرفق باحساسه ، وما هو بالذى يفرض عليهم الرأى .

ف يكون الرأى من أصحاب الحق فيه أن يعيدوا الحلية الى صاحبته .

وهنا نجد محمدا عليه الصلاة والسلام يجمع بين شفقة الأبوة ، وذكرى الزوج البارة ، الحانية العطوف ، والواجب العادل الذى عليه أن يؤديه .

وان شفقته الأبوية التى لا تتعارض مع الواجب ، أو لا يعارضها واجب من العدالة ، والتسوية بين الناس لتبدو فى شفقته ، على ابن زينب ، وهو يحتضر ، فقد أرسلت الى أبيها نبي هذه الأمة ، ولكن الرجل الشفيق خشى من ضعف الشفقة أن يرى حفيده يحتضر ، فأرسل اليها عليه الصلاة والسلام يقول لها « ان الله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى ، فلنحتسب لنعتبر ، ولكنها تصر على أن يحضر ، وتقسم عليه ، فقام اليها النبى ، وقام معه من بحضرته من صاحبته ، فوضعه عليه الصلاة والسلام فى حجره ، ونفسه تخرج ، ففاضت عين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فقال له سعد ابن

أبى وقاص : « ما هذا يا رسول الله ، قال الرسول : هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء » .

ولقد كانت الشفقة مع القيام بالواجب ، تتجلى فى موت ولده ابراهيم الذى وهبه الله تعالى على الكبير ، ثم استرد الوديعة ، فما روى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حزن الأبوة ، كما روى فى وفاة ابراهيم ، اذ بكى من عبه ما أصيب به ، وكان ثقيلًا ، ولما رأى أسامة بن زيد محمداً صلى الله عليه وسلم يبكى صرخ ، فنهاه صلى الله عليه وسلم وقال له يا أسامة : « البكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان » .

ولقد كان وهو يبكى يقول : « الموت حق ، وان القلب ليحزن ، والعين لتدمع ، وانا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » وفى هذا اليوم كسفت الشمس ، فقال المحبون ، ان الشمس كسفت لابراهيم ، ولكن نبى العقيدة الصحيحة البعيدة عن الأوهام ، نسي حزنه ، أو غلب واجبه على حزنه ، كما هو شأنه دائماً . فوقف خطيباً ، وقال صلوات الله وسلامه عليه :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان موت أحد ، ولا لحياة أحد » .

وأم الناس ، وصلى بهم صلاة الكسوف .

وهكذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الشفيق الرفيق الودود المحب دائماً ، ولكن عاطفته الانسانية لا تتغلب على واجبه ، بل الواجب أولى ، وأحرى بأن يؤثره على غيره .

وان شفقته تعم ، فتكون رحمة ، لا تختص بالآحاد ، بل فهو أحياناً يغضب ولا يغضب الا للحق ، ولكن قلبه التقى الخالى . من كل سوء بالناس ، تغلب عليه الرحمة العامة دائماً ، فيقول فى ضراعة لربه الرحيم :

« اللهم انى بشر من البشر ، أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل دعوت عليه ، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة ، وصلاة وطهوراً ، وقربة تقربه اليك ، يوم القيامة » .

وان مظاهر حياته كلها شفقة ، فامرأة فى عقلها شيء يقف معها فى جانب من الطريق يستمع الى حاجتها ، ويلقى فى قلبها الطمأنينة .

وجارية يضيع منها ثمن دقيق ، فيدفعه لها ، وتبكي خشية أن يضر بها .

مالكوها ، فيسير معها اليهم ليمنعهم من ضربها ، وأحد السبطين يركب على ظهره ، وهو ساجد ، فيطيل السجود ، حتى لا يزعجه ، ويستمر مرتحلا ظهر جده الرءوف الرحيم ، حتى يتركه •

وكان يسمع بكاء الطفل وهو يصلى فيخفف فى صلاته ، ليكون بجوار الطفل من يرحم بكاءه ، وهكذا • وقد يقول قائل : ان شفقة النبی عليه الصلاة والسلام أمر ثابت ، وهل لهذه الشفقة صلة بالرسالة ، ولايته لأمر المؤمنين •

ان شفقة المسيح عليه السلام كانت لروحانيته ، وأنه لم يكن منشئ دولة •

ونقول فى الاجابة عن ذلك : ان عيسى عليه السلام كان صاحب رسالة ، وكان من مقتضى هذه الرسالة أن يكون بالذين يدعوهم رءوفا ، فالشفقة من مقتضيات الرسالة والدعوة فان الدعوة من الشفيق الرفيق تكون مستجابة من القلوب الطيبة المؤمنة المطمئنة ؟ ان الرحمة هى التى تجذب الناس الى الداعى ، وليست القسوة ، ان النفوس التى تدعى الى الحق منها ما يفتح الله قلبه للحق بقوة ايمان الداعى وشفقته ، واجتذابه اليه بالحق ، ومنهم من يحتاج الى البينات والأدلة ، وهؤلاء هم أهل البرهان والدليل ، ومع الأنبياء معجزاتهم ، ومنهم من يكون على قلوبهم غشاوة ، وهؤلاء يدعون بالبرهان والحق ، وتكرر الدعوة اليهم فان اعتدوا رد كيدهم فى نحركم •

وان من مقتضى الولاية الشفقة ، ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الولاية الرفق بالرعية ، ودعا لهم ان رفقوا بها ، وأشفقوا ولم يرمضوهم بقسوة أو ظلم أو استكراه ، أو اضعاف للنفوس ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام فى ذلك : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم ، فارفق به ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فاشق عليهم فاشقق عليه •

ولقد أدرك هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بهدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واتخاذ له قدوة فكان لا يولى الا من يشعر منه بأنه يكون فى ولايته شفيقا رحيفا الا اذا وجب حد ، فانه لا شفقة ، والرحمة بالكافة تقتضى اقامته •

ولقد دخل على عمر رضى الله عنه رجل ، وكان عمر قد اعتزم أن يوليه ولاية ، فرأى عمر يقبل بعض ولده ، فقال الرجل أو تقبل ولدك يا أمير المؤمنين ، قال نعم ، وأنت لا تقبل ولدك ، قال : لا ، فقال الفاروق ، وأنا لا أوليك ؛ من لم يرحم ولده لا يرحم رعيته •

## صدقه وامانته وعفته « صلى الله عليه وسلم » :

ان حديث صدق الرسول عليه الصلاة والسلام يعد من نافلة القول فى هذا المقام ، وكذلك أمانته وعفته ، فهو الصادق الذى عرف بالصدق من منذ أن وعى الى أن قبضه الله تعالى اليه ، فما عرفت عليه كذبة قط فى حياته كلها صلى الله تعالى عليه وسلم •

وان الكذب لم يكن من أخلاق كبراء العرب ، فان الحرية التى كانت لهم بمقتضى قيامهم فى بلاد لا يسيطر فيها طاغ يتحكم فى عقولهم ونفوسهم ، وألسنتهم وتفكيرهم ، ولم يكن عندهم الملق الذى يجعلهم يدهنون فى القول رجاء خير يبتغونه ، وانه حيث يحكم الملك العضوض – وتسيطر أهواء الحكام توجد صفتان متلازمتان ، احدهما النفاق ، وثانيتها الكذب ، لأن النفاق فى ذاته كذب ، والكذب لازمة من لوازمه ، ولذا أثر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان » ولم يظهر فى العرب نفاق أو كذب الا ما كان يصاقب حواضر البلاد التى يحكمها ملوك أو أمراء كالملوك أو حكام مستبدون بشكل عام ؛ كأراضى العرب التى كانت تجاور النعمان ، أو الغساسنة فى الشام ، فانه يجوز أن يكون فيها النفاق والكذب والملق ، ووراءهما خيانة الأمانات •

وان التاريخ ليروى أن أبا سفيان ، وقد كان زعيم الشرك فى الوقت الذى جرى فيه حديث بينه وبين هرقل ملك الروم عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد سأله عن نسبه الكريم ، فقال انه من أوسطنا نسبا ، وعمن يتبعونه ، وعن أسئلة كثيرة تتعلق بأخلاق النبى عليه الصلاة والسلام ، أجابه بالصدق غير مائن فيما يقول ، ولقد قال ، وهو محقق من أثر الحقائق التى ذكرها لهرقل : « لولا أنى أخشى أن يحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » •

فعرب مكة والمدينة ووسط الصحراء لم يكن الكذب سائغا بينهم •

وكذلك النفاق ، ولم يعرف النفاق فى أوساط المسلمين الذين استجابوا الا من اليهود ، ومن يجاورونهم من مشركى المدينة ، فقد ظهر فيهم النفاق مقترنا بقوة المسلمين •

اذن لم يكن غريبا أن يكون محمد صلى الله تعالى عليه وسلم صادقا بين الصادقين •

ولكن صدق محمد صلى الله عليه وسلم ليس كصدق غيره من أهل مكة المكرمة ومن حولها ، ولكنه صدق من أعده الله تعالى ليكون رسولا للعالمين ، فأخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت من ارهاصات النبوة ، فلم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم صادق القول فقط ، بل كان صادق القول ، وصادق الحس ، وصادق النفس ، ونقصد بصدق الحس بأن يكون نظره الى الأشياء والأشخاص صادقا في وصفها ، مستبطننا من وراء الظاهر ، ما يعرف حقائق استبطنتها ، ثم صادق في النظر الى نفسه ، فيعرف مواضع الخير ، فيفعلها ، ويعرف مواضع الشر فيجتنبها ، وهو صادق في مقاصده ، وصادق في غاياته ، يخلص في ادراك الحقائق ، والاتجاه اليها اتجاها مستقيما لاعوج فيه ، فيستقيم ادراكه ، ويصدق في كل أمر يتصل بالقلب والضمير .

ولأن الايمان أساسه الاخلاص في العمل والقول والاذعان ، لا يتصور ايمان مع كذب ، ولقد سئل من بعد نبوته ، أيكون المؤمن جبانا ، فقال عليه الصلاة والسلام يجوز ، وسئل أيكون بخيلا قال يكون بخيلا ، وسئل أيكون المؤمن كذابا : قال لا يكون المؤمن كذابا ، ان الكذب والاخلاص في الاتجاه والقول والعمل نقيضان لا يجتمعان .

وأما الأمانة فحسبنا أن نعلم أن ذلك أمر رآته قريش كلها ، وأمنت به ، حتى سمي بالأمين ، كان يعرف بالأمانة ، وينادي بالأمين ، وان الأمانة والصدق صنوان متلازمان ، فلا أمانة من غير صدق ، والصدق يقتضي كل الفضائل ، والكذب عش الرذائل .

وعفة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كانت صيانة من الله تعالى صانه عن أن يلهو ، ولا يمكن أن تكون الشهوات وانحرافها ، الا ومعها اللهو بكل ضروبه ، وقد صانه الله لا عن الأهواء والشهوات المنحرفة ، بل صانه عن مقدماتها ، وعن أخذ أسبابها ، فصانه عن اللهو ولو كان بريئا .

وقد ذكرنا من قبل كيف انساق وهو غلام الى الرغبة في أن يحضر عرسا فيه لهو ، فانه عندما ذهب اليه ضرب الله سبحانه وتعالى على ذاته بنعاس أصابه من غير غم ، وما استيقظ من نعاسه حتى أيقظته الشمس في ضحاها ، وكذلك كان الأمر في ليلة أخرى ، حين استوى عوده ، وكانت له ارادة مسيطرة على نفسه ، كان عزوفه عن اللهو بارادة مهدية مدركة ، ولم يكن بنوم يصيبه الله تعالى به ، ولذلك استعصم ، ولم يحدث منه قط ما يكون انسياقا وراء هوى جامع ، أو شهوة مسيطرة . حتى كان الزواج ، فكان الحلال الذي لا مرية فيه .

## الموفاء ورعاية العهد :

١٣٦ — انه يستدل على سجايا الرجل بمقدار رعايته لمن كان لهم به صلة وممن كانوا معه على عشرة طيبة ، فيوفى بحق هذه العشرة ، يرعاها حق رعايتها ، يصلها ولا يقطعها ، يذكرها ولا ينكرها ، فالوفاء خلة الرجل الكريم ، وبمقدار وفائه يكون مقدار ما آتاه الله تعالى من خلق سمح ، ونفس مؤمنة بالخير ، معترفة به لأهله .

وان وفاء النبی صلی الله تعالى عليه وسلم لمن مضى من معاصريه يسترعى أنظار من قرأوا سيرته الطاهرة :

(١) وأوضح مثل ، وفاؤه لأُم المؤمنين خديجة ، يود صديقاتها ، ويصل صلاتها يذكرها بالخير والاعتراف بالجميل ، حيث جاء ذكرها ، حتى ان أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : « ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمع صلي الله تعالى عليه وسلم يذكرها ، وان كان ليذبح الشاة ، فيهديها الى خلأئها . استأذنت عليه أختها فارتاح اليها ودخلت عليه امرأة ، فبش لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال انها كانت تاتينا أيام خديجة » .

وان الوفاء لحسن العهد من الايمان ، وناهيك بأعظم من فى الوجود . فلا بد انه كان أوفاهم ، ومما يتصل بوفائه لزوجه البارة خديجة أن عائشة من كثرة ثنائه عليها قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بذلك الله خيرا منها ، فقال عليه الصلاة والسلام : الا والله ما أبدلنى خيرا منها . . . . . أمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، واستثنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وكان لفرط وفائه كان اذا رأى أحدا من أولادها من غيره فاض عليه بالعطف والحنان ، اذ قد سمع صوت ابنها هالة قد جاء اليه ، فخرج اليه مناديا فى لهفة فرح : هالة ، هالة . . . وأكرمه ، وبألف فى اكرامه .

(ب) ومن أوضح وفائه عليه الصلاة والسلام وعرفانه للجميل ما روى عن أبى قتادة أنه لما جاء وفد النجاشى ملك الحبشة الذى آوى أهل الهجرة الى

الحبشة وأكرمهم - قام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه نكفيك يا رسول الله خدمتهم • فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الوفى العارف للجميل : « انهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأحب أن أكافئهم •

نعم ان محمدا عليه الصلاة والسلام يجازى الاحسان بمثله ، والا ضاع العرف بين الناس ، وهو أسوتهم •

(ج) ومن كريم وفائه ، ولطف مودته وعدم نسيان من ارتبط معهم برباط من مودة وعشرة ، مهما يتباعد زمانها ، فان الكريم لا ينسى عشرة من عاشرهم ضغفوا أو علوا ، قدم عهدهم ، أو قرب ، وقد وجد أختا له من الرضاع أسمها الشيماء من سبايا هوازن ، فتعرفت له ، فلما عرفها بسط لها رداءه ، وقال لها ان أحببت أقمى عندى مكرمة محببة ، أو متعتك ورجعت الى قومك ، فاختارت قومها • فأرسلها •

وعن عمرو بن السائب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان جالسا يوما ، فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه ، فقعده عليه ، ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام صلى الله تعالى عليه وسلم فأجلسه بين يديه •

(د) وانه ليوفى حتى لمن فرح بولادته ، فقد كانت جارية لأبى لهب قد أرضعت النبي عليه الصلاة والسلام فى أول ولادته ، وخرجت فبشرت أبا لهب بالولادة ، واعتقها أبو لهب لهذه البشارة • فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يبعث اليها بصلة مستمرة موصولة ما كانت حية ، فلما ماتت سأل عمن بقى من ذوى قرابتها ، فقليل لا أحد •

ولقد كان فى جملة أخلاقه أنه يصل رحمه ، ولو لم يكونوا له نصراء وأولياء ، فهو لا يصل رحمه مكافئا ، ولكن يصلهم راحما ، وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام قال عن بعض ذوى رحمه : « ليسوا لى بأولياء غير أن لهم رحما سألها ببالها » (١) •

---

(١) الشفاء ج ١٨ ص ٧٤ ، ٧٥ •



## العبادة

### عبادته قبل البعثة :

١٣٧ — تحير إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى تعرف ربه الذى يستحق العبادة وحده ، ولا يشركه فى العبادة وثن ، ولا شجر ، ولا شيء من المخلوقات ، وحكى الله تعالى حيرته فى كتابه الكريم ، اذ حكى عنه أنه ابتداء أنكر أن تكون الأصنام آلهة ، واستنكر على أبيه عبادتها ، وقال تعالى فى قصته : « واذ قال إبراهيم لأبيه أزر اتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال يا قوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » \*

ونرى من هذا أن الخليل عليه السلام ابتداء فى الخروج من الضلال الذى كان فى قومه ، فبين أن الوثن لا يصلح ربا لأنه لا يضر ولا ينفع ، وقام لديه الدليل بإزالة ما يعلق بها من أوهام ، فحطمها ، وتأكد بتحطيمها أنها لم تضره ، وأنها لا قوة فيها ، لا ظاهرة ، ولا باطنة .

ثم أخذ يختبر الآلهة التى كانت شائعة بين أقوامه ، فجاء الى النجوم ، وكان من سكان العراق الذين عرفهم ممن كان يعبد النجوم ، فاتجه الى النجوم يعرف سر كنهها عساه يجد قوة فيها تسوغ تألهها ، فوجدها تأفل ، فليس لها بقاء ذاتى مستمر . ومثلها لا تصلح للآلوهية ، ثم اتجه الى القمر باعتباره كوكبا كبيرا ، فوجده مثل سائر الكواكب ، ثم اتجه الى الشمس ، وكان المصريون يزعمون أن فيها آلهتهم ؛ وقد زار مصر ، ولكن وجدها لا تصلح للآلوهية ، لأنها أفلت ، وهكذا نراه متحيرا ، حتى هداه ربه ، فكان أبا الأنبياء ، فمن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بعده ، وذكرهم القرآن الكريم ، ثم كانت الهداية بعد الحيرة ، والاطمئنان واليقين ، بعد الشك المحير .

ونبينا محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) خطا خطوة إبراهيم الأولى ، وهى انكار عبادة الأوثان فقد أنكرها ابتداء ، ولم يعترف لها بوجود ، فما سجد لصنم قط ، وما قدس صنما قط ، وإذا استقسمه أحد ، لا يقسم بها ، ولما أراد بحيرى الراهب أن يسحلفه بالملات رده ، وقال انه

يكره ذكرها ، وما كره ذكر شيء كما كره ذكرها ، فأدرك محمد ( عليه الصلاة والسلام ) حفيد إبراهيم ما أدركه إبراهيم ، وعلم بالعقل السليم ، وقطرة الله تعالى ما علمه جده الأكبر إبراهيم •

ولكن الخطوات الأخرى التى خطاها إبراهيم فى معرفة ربه لم يخطها فلم يخط خطوة تعرف الله فى النجوم ولا فى الشمس ، بل وقف عند عبادة الله ، وإدراك عظيم قدرة الله سبحانه ، واستحقاقه وحده للعبادة •

والسبب فى أن محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) لم يخط الخطوات التى خطاها خليل الله إبراهيم ، أن إبراهيم رأى فعلا من عبد مع الأوثان الكواكب ، وعبد الشمس ، ولم يكن فى الأقوام الذين بعث فيهم من يذكرهم الله كثيرا ، ولو على انحراف فى الاعتقاد ، أما العرب ، فكانوا يعرفون الله تعالى ببقايا ديانة إبراهيم ، وكانوا يذكرهم الله فى الحج بغية إبراهيم فى العبادة ، فهم يعرفون الله على انحراف ، ولم يكونوا يجهلونه ، بل كانوا فى مناسك الحج يذكرهم الله كثيرا ، فى تلبيتهم ووقوفهم فى مناسكه ، والضلال فى إشراكهم بالله ، بينما الظاهر من تاريخ الكلدان ، والمصريين ، أنهم ما كانوا يذكرهم الله تعالى فى عبادة قط ، فلما نشأ محمد ( عليه الصلاة والسلام ) فى قوم يعرفون الله ويشركون معه فى العبادة أوثانهم ، ترك ما ابتدعوه ، وأنكره ، وبألف فى إنكاره ، وأبقى من بقايا إبراهيم الاعتراف بالله ، ثم كان إيمانه بربوبيته وحده ، واستحقاقه وحده للعبادة والالوهية •

وقد يقول قائل : « أن الله تعالى وصفه بأنه كان ضالا فهدى ، أن قال تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى » فان هذا يدل على أنه كان ضالا فى العبادة ، ومن يعرف الله تعالى لا يضل فى عبادته • ونقول فى الجواب عن ذلك : أن محمدا بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) كان يعرف الله تعالى ، ويؤمن به ، ويكفر بالأوثان ، وينكر أن تكون مستحقة لأى نوع من التقديس لها ، كما رأى جده الأكبر إبراهيم أنها لا تضر ولا تنفع • ولكنه كان حائرا فى الطريقة التى يعبد الله تعالى بها ، فهو متجه باستقامة نفسه وقلبه الى الله تعالى ، وعبادته وحده ، ويريد أن يقوم بحق الله ، وكانت ديانة إبراهيم قد جهلت ، ولا يعرف من طريقها الا قليلا ، فكان لابد من أن تصيبه حيرة ، حتى يهديه الله تعالى الى شيء مما بقى من دين إبراهيم ، وهذا هو مؤدى قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا » •

١٣٩ — وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ عابدا منذ ادرك سن التمييز ، فكان عقله فى الله تعالى يفكر كيف يعبد ، ثم يجد فى التفكير فى خلق الله تعالى عباده ، واذا كان ابراهيم عليه السلام قد اراه الله تعالى ملكوت السموات والارض ليصل الى ادراك ربه ، فقد كان محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم منذ كان غلاما زكيا يرى فى خلق السموات والارض والشمس والقمر ، والنجوم المسخرات بين السماء والارض عبادة ، لا ينظر الى السماء وابراجها وزينتها ، والشمس وضحاها ، والليل اذا يغشاها ، لا ينظر الى كل ذلك على أنها مناظر جميلة ، وزينات باهرة ، بل ينظر فى دلالتها على الخالق ، ولا ينظر اليها متعرفا سر الاضاءة فى الشمس ، وانما يتعرف منها سر الدلالة على المنىء ، والارض والماء والزرع ، والشجر والثمار كل ذلك كان يستغرق تفكيره لا ليعلم كيف خلق ، ولكن ليعلم من الذى خلق ، وكلما أمعن بفكره تعرفا للخالق ، واستدللا عليه ازداد ايمانا به ، وطلبا لرضوانه ، واطمئنانا لنفسه .

اتجه الى معرفة الخالق ، وما يرضيه عاكفا على ذلك عكوف العابد فى صومعته ، لا يطلب الا ارضاء ربه ، ولكنه لم يعلم ما يرضيه ، ولا ما يكون نسكا له الا ما توارثه العرب من حج البيت ومناسكه التى بقيت من عصر ابراهيم عليه السلام ، ونزهت نفسه وقلبه ولسانه ، حتى صار ربانيا بفطرته المستقيمة وقلبه السليم .

وكانت كل أعماله لارضاء الله تعالى ، فهو يخالق الناس بخلق حسن ، لا يكذب ، ويتصدق ويقدم للناس الخير ، لأنهم عيال الله ، وقد صار كل شيء فيه لله تعالى ، وقد صار قلبه المعلق بالله تعالى الخاضع الخانع ، لا يرى فى الوجود الا الله تعالى ، ولا يحسب أنه الا القانت له ، الخاضع ، ولكنه يجهل الشكل الذى يرتضيه لعبادته ، فصار كلمه لعبادته ، قلبا ولسانا وعملا وخلقاً .

وزهد فى الاختلاط كان يريه من الناس افكا من عبادة للأوثان ، ومن خمر يعاقرونها ، وميسر يلعبونه ، وخصومات يفجرون فيها ، وشحناء ليست من شأنه ، ومجادلات ليست من غايته ، وشعر يتبعه الغاؤون ، والكبر الأثيم الذى لا أثم فوقه ، تقديسهم للأحجار ، واتجاههم الى تقديسها بدل تقديس الديان ، كل هذا زهد فى الاختلاط .

ولذلك كان محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل أن يبعث عزوقا عن أن يغشى مجالس قريش فى سمرها ، أو ما يزجون به فراغهم ، الا أن

يكون جدا يوجب الخلق الكريم مشاركتهم فيه ، كما شاركهم فى بناء الكعبة المكرمة ، وكما كان يحضر فى ندوتهم اذا جد الجد ، وكما حضر حلف الفضول •

والسبب فى عزوفه عنهم أنه يبتعد عن مواضع يعزب فيها عن ذكر الله ويبتعد عن التفكير فى ذاته تعالت عن الشبيه ، وتنزهت عن المثل ، وأنه يريد أن ينصرف الفكر فيه ، والتفكر فى ذاته وارضائه ، خير من عبادة الحركات والمظاهر ، فكانت حياته كلها لله تعالى •

ما كان يخرج من خلوته الا لاسداء معروف ، أو اطعام مسكين ، أو اغاشة ملهوف ، أو لاقراء ضيف عز عليه اقراء ، وان ذلك كله عبادة ، لأنه ما يقصد الا وجه الله تعالى ، وارضاءه لله تعالى ، وأى عبادة أعلى من ذلك شأننا •

كل شئ فى الوجود يذكره بالله ، فكلما رأى الخلق كان منه ما يدل على الخالق • كلما رأى النعم فى الوجود تذكر الخالق •

ولقد دعا بعد بعثته الى التفكير فى الله تعالى ، فكان يقول « تفكروا فى آلاء الله » أى فى نعمه « وحكى عن ربه أنه قال : « كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق • فبى عرفوتى » •

ولقد كان محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) يعلن أن التفكير فى الله والآله وخلق أسس العبادة ، وأنه لا عبادة من غير معرفة الله سبحانه وتعالى ، ولقد قال على بن أبى طالب صلى رسول الله ، وحبيبه المجتبى : « سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن سنته ( أى طريقته ) فقال المعرفة رأس مالى ، والنحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة بالله كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهد خلتي ، وقرعة عيني فى الصلاة » ورويت زيادة وهى وثمرة فؤادى فى ذكره ، وعملى لأجل أمتى ، وشوقى الى ربى عز وجل « (١) •

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٨٦ •

• ١٤ — قد كان من أحوال محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) الاعتزال الا فى مكرمة تؤثر ، أو صلة رحم ، أو اغاثة ملهوف ، أو تحمل للكل ، فعندئذ يتصل بالناس لينفعهم ، ويتقرب منهم ولا ينقطع حتى وهو فى عزلته ، لأنه ما جاء لخيرهم فهى عزلة يسكن فيها الى الله تعالى خالق الناس •

وكلما كانت تتقدم به السن تزداد عزلته ، ويزداد تفكيره فى ارضاء الله تعالى ، وتعرف صفاته ، والوصول الى عمل ما يرضيه ، ويرى فيه ما تقر به عينه ، وتطمئن اليه نفسه ، ولا يريد غير الله •

وقد صارت العزلة خلوة يخلو فيها للعبادة ، فقد ذكر الرواة أنه كان يتحنث ( أى يتعبد ) فى غار حراء ، الليالى ذوات العدد ، واستمر يزداد فى الخلوة والعبادة ، وقال الرواة كان يتعبد شهرا كل عام ، حتى كانت البعثة ، وهو فى خلوته فى غار حراء •

وكان عليه الصلاة والسلام يتزود لذلك ، ويمكث فيه الشهر للعبادة ، وذكر الله تعالى •

وقد تكلم العلماء فى المنهاج الذى كان عليه الصلاة والسلام يتبعه فى عبادته ، أكان على شريعة من الشرائع السماوية السابقة •

جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه :

اختلف العلماء فى تعبد ( عليه الصلاة والسلام ) قبل البعثة ، هل كان على شرع أم لا ، وما ذلك الشرع ، ف قيل شرع نوح ، وقيل شرع إبراهيم ، وهو الأقوى ، وقيل موسى ، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به (١) •

هذا ما قاله ابن كثير ، وقيل أن نأخذه مأخذ التسليم مع تردد الأقوال بين نوح وإبراهيم وموسى ننبه الى أمرين من الضرورى التنبيه اليهما فى هذا المقام :

أولهما — أن الثابت من سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ومن تقرير القرآن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه

لم يكن على علم يكتب الديانات القديمة ، فلم يعرف التوراة ، ولا الانجيل ، وان كانت فيهما إشارات برسول يأتى من بعدهما اسمه أحمد ، ولم يكن بمكة المكرمة التى كانت محل إقامته مدارس للاهوت الموسوى أو المسيحى .

ولما ذكر القرآن أخبار اليهود والأنبياء السابقين قالوا يعلمه بشر هو شخص رومى ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » وبذلك يثبت أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن على علم بالشرائع السابقة ، وذلك هو الحق ، وهو يتفق مع اعجاز القرآن فى أنه أتى بالصادق من أخبار السابقين بوحي من الله تعالى ، اذ لم يكن عنده علم بها .

ثانيهما - أنه كان بمكة المكرمة نفر قليل أنكروا عبادة الأوثان ، ولم يعبدوها ، وسموا حنفاء ، وقالوا أنهم كانوا يتعبدون على بقايا من ديانة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولذلك سموا حنفاء . وروى أن النبی صلى الله عليه وسلم كان يتحنف فى غار حراء - بدل يتحنث - وانا نسوق ذلك لبيان أنه كانت هناك بقايا من ديانة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقد بقى منها بيقين بقية فى الحج وبقاء جزء ، قد ينبىء عن امكان تعرف ما جهل .

وانا لذلك نقرر أنه عرفت عقيدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وربما تعرفت بعض الشرائع التفصيلية عنده من أركان الصلاة ونحوها . وانا مع تقديرنا لهذا نرجح أن عبادة النبی عليه الصلاة والسلام كانت بالهام من الله تعالى من غير وحى ، وقد كان دائم التفكير دائم الخشوع دائم التأمل فى الكون ، فهو ابتداء بالعبادة الفكرية ، وربما عرف بعضا من صلاة ابراهيم ، كما عرفت بعض مناسكه .

هذا وان محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) كانت رؤياه صادقة كل الصدق ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ان أول الوحى كان بالرؤيا الصادقة ، فكان اذا رأى رؤيا جاءت مثل فلق الصبح ، أى أنها تكون واضحة ، فعمله فى وسط تعرفه لصلاة ابراهيم جاءت رؤيا بها مثل فلق الصبح .

ومهما يكن من الروايات ، فان الثابت المؤكد ، أنه كان يتحنف فى غار حراء الليلالى ذوات العدد ، وكان يتزود بالزاد لخلوته هذه ، وكانت الالهامات تفيض عليه فى المدة التى كانت قبل البعثة ، وأنه كان يرى الرؤيا مثل فلق الصبح ، وأنه منذ بلغ سن ادراك المعانى الدينية كان دائم التفكير والتدبر لمعرفة الله تعالى ومحاولة رضائه ، ونرجح بهذا أنه كان يتعبد على ديانة

إبراهيم ، وأنه وصل الى بعض أجزائها بالالهام وبالزُّبيا الصادقة وبالتعرف ،  
وانا نستبعد كل الاستبعاد أنه أخذ من التوراة والانجيل ، فما كان له علم بهما •

### عبادته بعد البعثة :

١٤١ — هذه صورة صادقة أو مقربة من عبادته عليه الصلاة والسلام  
قبل البعثة ، وهي تدل على أنه كان قواما لله تعالى طالبا مرضاته ، وإذا كان  
لم يعرف شريعة إبراهيم على وجه الكمال ، فقد عرف ما يكفيهِ لأن يكون عابدا  
يطلب رضا الله تعالى ، وقد صفت نفسه فأدركت ، وخلص قلبه فآلهم • وعلم  
أن ملة إبراهيم كانت الفطرة المستقيمة والحنيفية السمحة ، فاختارها ، وسلك  
سبيلها •

فالعبادة المتجهة الى الله تعالى كانت في قلبه ونفسه ، وكيانه وخلقه ،  
قبل أن ينزل عليه كتاب هاد ، قد أذهب حيرته ، ووجد الكتاب ينير له السبيل ،  
ويفصل الأحكام ، ولا شك أنها تكون أهدى بعد هذا التنزيل ، وإن العبادة  
في الجاهلية قبل البعثة كانت في قلبه بذرة صالحة نمت لأنها كانت في أرض  
طاهرة خصبة ، ولم يكن لها سقى ولا رعى ، ومع ذلك أنت أكلها ، فبعد البعثة  
المحمدية جاءها السقى والرعى فأزريت ونمت ، وازدهرت في قلب مخلص  
مدرك ، وصار قريبا من الله تعالى بقلبه الطيب المخلص ، وبمعرفة شرعه  
تعالى ، وباتصال الوحي به دوما من غير انقطاع ، فكان بذلك أعبد خلق الله  
تعالى ، وكلما ازداد علما بالله وشرعه ، ازداد عبادة ، وخوفا من الله ، وارضاء  
له ، ولقد روى أبو ذر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « انى  
أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطنئت السماء ، وحق لها أن تطنط ،  
ما فيها موضع أربعة أصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو  
تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا » • رواه الترمذى •

ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها عن عبادة  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت الصديقة بنت الصديق : « كان  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصوم ، حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر  
حتى نقول لا يصوم ، وكان لا تشاء تراه من الليل قائما الا رأيته ، ولا تشاء  
تراه نائما الا رأيته » ، وقد روى في الصحيحين البخارى ومسلم أن  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه ، فقليل له : اليس  
الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال عليه الصلاة والسلام : أفلا  
أكون عبدا شكورا • • ولقد ثبت في الصحيحين عن أبى الدرداء أنه قال خرجنا  
مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، في شهر رمضان في حر شديد ،

وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعبد الله بن رواحة .  
وفى الصحيحين أيضا عن علقمة قال : سألت عائشة هل كان رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم يخص شيئا من الأيام ، قالت : لا ، وكان عمله  
ديمة وأيكم يستطيع ما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يستطيعه .

ومعنى الديمة فى الحديث أنه يحب الدوام على العبادة ، ولا يحب  
الانقطاع عنها ، وكان هو يستديم العبادة ، ولو كان فيها ما يشق ، ولكنه  
لا يطلب من المؤمنين الا الاستدامة فى العبادة ، وان قلت ، ولذا يقول عليه  
الصلاة والسلام : « أحب الأعمال الى الله أدومها ، وان قل » .

وذلك لأن استدامة العبادة ولو قليلة يجعل المؤمن فى ذكر دائم لله تعالى ،  
لا يغيب عنه سبحانه ، فهو فى قلبه دائما ، ويتحقق فيه قوله صلى الله تعالى  
عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » ومن ذلك  
قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الله تعالى يحب الديمة من الأعمال » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو المؤمنين الى التخفيف من  
الصلاة ، والقراءة ، وأن يصلوا بصلاة أضعفهم ، حتى لا يكون فى الصلاة  
ارهاق ، ورأى بعض أصحابه يصلون بالناس فأطال القراءة ، مما شق على  
الناس ، فقال : « فتان أنت » لأن التطويل يؤدى الى فتنة من لا طاقة لهم على  
الاطالة .

ولكنه عليه الصلاة والسلام فى قيامه الليل كان يختار لنفسه الأشق ،  
لأنه عليه الصلاة والسلام يطبق ما لا يطيقه عامة المؤمنين ، فيختار لهم ما لا  
يشق عليهم ، ولقد قال عوف بن مالك : « كنت مع رسول الله صلى الله تعالى  
عليه وسلم ، فاستاك ، ثم توضأ ، ثم قام يصلى ، فقامت معه ، فاستفتح  
بالبقرة ، فلا يمر بأية رحمة ، الا وقف فسأل ، ولا يمر بأية عذاب الا وقف  
فتعوز ، ثم ركع ، فمكث بقدر قيامه ، يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت ،  
والكبرياء والعظمة ، ثم سجد ، وقال مثل ذلك » (١) .

وهكذا نرى عبادته عليه الصلاة والسلام فيها ذكر دائم ، وتلاوة للقرآن  
دائمة ، وكان يحرض أصحابه على أن يقرأوا وهو يسمع ، فاذا ذكروه بأن  
القرآن نزل على قلبه ، قال لهم انه يحب أن يسمعه من غيره .



ومع دوامه على العبادة التي وصفها القرآن ، ودعا إليها ، وبينها عليه الصلاة والسلام ، كان إذا سكت عن القيام بصلاة ، أو ارشاد عام ، دائم التفكير في آلاء الله ، والتأمل في خلقه ، ليدرك عظمته ، وكمال سلطانه ، فلم ينقطع عن عبادة التفكير التي ابتدأ بها قبل أن يوحى إليه ، ولقد قال هند ابن أبي هالة ابن خديجة : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة » وكان كثير الاستغفار ، لأن الاستغفار عبادة في ذاته ، لأنه احساس بوجوب اللجوء الى الله ، وفيه احساس بقصور ما يؤدي العابد من العبادة ، واستصغار العمل احساس بالحاجة الى الله والقرب منه ، وعظمته ، وجلاله ، وشعور بأن عمله مهما يكن كبيرا صغير بالنسبة لله تعالى ، ومن يستكثر حسناته ، كأنه يمن على الله تعالى في هذه العبادة ، وأن الشعور بالاستغفار واللجوء اليه بعد عن المن ، وأن الصوفية يمتثلون الاستكثار ولو من الطائعين ، ومنهم من يفضل المعصية التي تحدث ذلا وطلبا للاستغفار على الطاعة التي يصحبها الاستكثار ، ويقول حكيمهم : « ان معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت ذلا » ويقول أيضا في هذا المعنى : « ان معصية أورثت ذلا وانكسارا خيرا من طاعة أورثت ذلا وافتخارا » .

ولقد كان سيد العابدين يحصن عبادته بالاستغفار ، حتى لا يكون منه من الاستكثار ، صلى الله تعالى عليه وسلم .

## الزاهد

### قبل البعثة :

١٤٢ — نشأ محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) يتيما فقيرا ، واجه الحياة بيئته وفقره ، ماتت أمه بالأيواء ، بعد أن ولد يتيما من أبيه فأودع جده عبد المطلب فكفله بالرعاية ، ولم يكن في سن من يتحمل المتبعة ، ويقدر لمستقبله وأن كان يحس بالفقر ، وإذا كان جده قد كلأه ، وكفاه حاجته ، وأغدق عليه بما يستطيع من خير ، وأفاض عليه بمحبته التي تغذى عاطفته ، ويجعله يعيش موادا غير مبالغ ، ولكنه عاش معه أمدا قصيرا ، أن توفي بعد سنتين من كفالته .

وبعد ذلك أخذ يواجه الحياة مع ضعف الصغر ، ومع الفقر المعجز ، ذلك أن عمه أبا طالب الذي آلت اليه كفالته كان ذا عيال ، وكان مقترنا عليه في رزقه ، وأن هذا الغلام الذي يعلو عقله على سنه ، واحساسه قوى يدرك

ما حوله قد أدرك ما عليه حال عمه كافله ورفيقه وحبيبه ، الذى أفاض عليه بمحبة غدت نفسه ، فكان لابد أن يعمل عملا أن لم يغنه عن عمه ، فإنه يعينه الى حد •

اتجه ابتداء الى رعى الغنم الذى تعودوه ورآه وهو فى بنى سعد ، فرعى الغنم لبعض اهل مكة على أجرة يأخذها من لبنها ، قراريط معلومة كخمس ما قدر أو نحو ذلك ، وبها يستعين ويعين •

ثم كان من بعد ذلك يتجر فى قليل من المال ، أو فى مال غيره حتى اشتهرت امانته ، ثم اتجر فى مال خديجة ، وضاعفت له الأجر لما اشتهر به من أمانة وصدق ، ولأن الربح تضاعف على يديه •

ثم كان الزواج ، وكان المال الوفير ، ولكنه لم يكن جماعا للمال كانزا له ، فلم يعرف أنه تكونت له ثروة قط تقدر رأس مال ، بل كان ينفق ما يدخر فى أوجه الخير ، من صلة رحم ، وإعانة محتاج ، وإغاثة ملهوف ، ومشاركة لذوى الحاجات فى شدائدهم ومعاونتهم على نوائب الدهر •

وبذلك يضرب محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) الأمثال فى الزهد الإيجابى ، وليس الزهد السلبي الذى هو زهد المحرومين ، بل زهده هو زهد القادرين الذين يتخذون أسباب الكسب الطيب ، ثم يزهدون فى ادخار المال إلا لحاجة بعد جمعه • وبذلك سار قبل البعثة ، على ما بعثه الله تعالى من بعد ذلك بالنسبة للمال •

وبذلك نرى محمد بن عبد الله ( صلى الله عليه وسلم ) لا ينسى العمل الصالح فى طلب الرزق الحلال وفيرا ، ولكنه لا يلهو به ولا يلعب ، ولا يكتنز الذهب والفضة ، ولا يتفاخر بالخيال المسومة والأنعام والحرث ، ولكنه ينفقها فى مصارفها من غير عبث ولا استعلاء ، ولا تكاثر •

وإذا قيل أنه لم تعرف له أبواب النفقات فى حياته قبل البعثة نجيب عن ذلك بأن الكريم ينفق سرا ، ولا ينفق علنا ، وأن ذلك القدر المجمل عرف من ناحيتين : - أحدهما - قول خديجة أم المؤمنين فى خطابها له مطمئنة : « أنك تحمل الكل وتقوى الضعيف ، وتعين على نوائب الدهر ، وتغيث الملهوف » وحسبنا ذلك لبيان هذا الاجمال •

الثانية - أنه لم يعرف له مدخر قط مع الاستقامة ، والبعد عن الزخارف ، مع كثرة الكسب ، وما يدر عليه من مال خديجة أجرا له على استغلاله فى التجارة •

وانه بهذا يتبين أن زهده قبل البعثة هو زهده من بعدها ، طلب الكسب الحلال ، لا ليدخر ويستكثر ، بل لينفق منه فى مكارم الأخلاق ، واعانة الضعفاء ، فهو يطلب ليعطى ، ويكثر ليطعم غيره ، وهو لا ينفق على نفسه وعلى أهله الا القليل بالمعروف من غير خصاصة واضحة ، ولا حرمان ظاهر ، بل يتناول الحلال ويكتفى بأقله ، ولا يحرم مما هو طيب حلال ، وكذلك كانت الحال بعد أن بعثه الله تعالى نبيا .

١٤٣ — أن زهد محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) الذى وصل اليه بفطرته السليمة فى وسط الجاهلية هو أعلى درجات الزهد ، ولنستعرض بعض كلام الصوفية فى الزهد الصوفى لتتعرف مقام زهد محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل أن ينزل كتاب يرشده ويهديه ، لقد قال ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : « للزاهد فى الدنيا علامتان علامة فى فقدها ( أى أسباب الشهوات ) وعلامة فى وجودها ، فالعلامة التى فى وجودها الانصراف عنها ، والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها ، فالإيثار شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان » .

وزهد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) قبل البعثة ، كان أعلى من إيثار غيره بها عند وجودها ، والراحة من فقدها ، لأنه كان زهد العامل للحصول على أسباب اللذائذ ، فإذا حصل عليها لا يختص بها ، بل يؤثر غيره بها ، ولا يتأتى زهد فقدها ، لأنه لا ينتظرها وجودا وفقدا ، ولكن يعمل لوجودها لينفق على الفقراء وليمتع غيره ، فهو زهد إيجابى عامل . كما نوهنا ، فليس زهد الحرمان الذى جاء من فلسفة الهند ، ولكنه زهد الكاسب الذى يكسب لغيره . ويبقى لنفسه القليل الذى يقيم أوده ، ويمكنه من استمرار الكسب لغيره .

ولقد رتب الامام أحمد رضى الله تبارك وتعالى عنه مراتب الزهد أدنى مراتبه ترك الحرمان ، والمرتبة الثانية ترك فضول الحل ، بل يفطم نفسه عن بعضه ، فهو يمنع عن نفسه بعض الحلال من غير تحريم ، ولكن ليعودها احتمال الحرمان أن لم يجد بعض الحلال ، فهو تهذيب وتربية . والمرتبة الثالثة وهى العليا الا يشغل نفسه عن ذكر الله تعالى بالاشتغال بالدنيا ، واستغراقها لنفسه ، وهو زهد العارفين .

ومحمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل البعثة كان زهده أعلى من ذلك ، لأنه كان مشغولا بذكره دائما فى كل عمل يعمل ، وكل عبادة يؤديها ، وكل فكرة يتفكر بها ، وما كان يعمل لتمود ثمرة عمله على نفسه ، بل لتعود على نفع غيره ، فهو العابد فى كل حياته ، ولا يعمل الا لله ، وإذا كان شغل

النفوس بذكر الله تعالى هو زهد العارفين ، فزهد محمد صلى الله عليه وسلم  
أعلى منه •

### زهد بعد البعثة :

١٤٤ — كان زهد محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم )  
امتدادا لزهد قبل البعثة ، ولكنه بعد البعثة أخذ صورة أجل وأعظم ، لأنه حمل  
أعباء الرسالة ، فكان زهدا فى الاستعلاء بالسلطان ، وزهدا معروفا عند  
كافة المؤمنين ، ليكون أسوة حسنة فيما يطبقونه من زهد عليه الصلاة  
والسلام ، وكان زهد العامل الذى يعمل فى كل ميادين الحياة ، لا زهد من يعكف  
فى الصوامع ، وكان يبيت ذلك فى المؤمنين ويدعو اليه •

ولعل أظهر مظهر للزهد رفضه أن يكون ملكا كداوود وسليمان وبعض  
الأنبياء ، فقد روى ابن عباس أن الله تعالى أرسل الى نبيه ملكا من الملائكة  
معه جبريل ، فقال الملك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله  
يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا ، وبين أن تكون ملكا نبيا ، فقال رسول الله عليه  
الصلاة والسلام ، بل أكون عبدا نبيا ( رواه البخارى ) •

وكانت أوامر القرآن تدعو الى الزهد فى الحرام ومنعه عن أمتعته كلها ،  
ولكن الخطاب كان موجها ابتداء اليه عليه الصلاة والسلام ، ولقد جاء فى كتاب  
البداية والنهاية لابن كثير :

« قال الله تعالى : ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة  
الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » ، وقال تعالى : « واصبر  
نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم  
تريد زيناة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه  
وكان أمره فرطا » وقال تعالى : « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ، ولم يرد الا  
الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم » وقال تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من  
المثاني والقرآن العظيم ، لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا  
تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين » والآيات كثيرة ... (١)

وان هذه النصوص كلها الخطاب فيها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم  
وسلم ، ولكنه موجه الى كل المؤمنين ، ولا يختص به وحده ، وهو يدل على

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٤٨ •

أمرين : أولهما : الامتناع عن الحرام ، وهذا زهد العوام ولذلك طوّل به الناس جميعا . وثانيهما : أن الامتناع عن الحرام لا يكون بمجرد الامتناع المادى الواقعى ، بل انه لابد من البعد النفسى وتجنب أسبابه ، ولذلك كان النهى متجها الى الأسباب النفسية ، فقال تعالى كلماته : « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » وكأن الدعوة الى ملازمة الذين ينصرفون عن الشهوات الى الله سبحانه وتعالى والاتجاه اليه ، والا يخالط الذين يجترعون الشهوات فقال تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه » فعشرة الذين يتجهون الى الله تعالى فى غدوهم ورواحهم ، وفى غدوتهم وعشيتهم تربى فى النفس معنى الاستبعاد عن الحرام والاتجاه اليه سبحانه وتعالى .

واننا نجد زهد محمد ( عليه الصلاة والسلام ) يشتد كلما تمكن من المال ، وكلما اتسع سلطانه - وكلما كثرت تكليفاته وكلما أقدم على الشدائد ، لأنه يرى أن تحمل مصائب الحرب وشدائدها انما يكون ابتداء بتربية للنفس وحملها على ترك اللذائذ ، أو القدرة على تركها ، وما كان يدعو أمته بذلك بلسان القول ، بل كان يدعو بلسان الفعل ولسان الفعل فى هذه الحال أجدى فانه لا يصح أن تكون الدعوة الى التقشف آتية ممن يرفل فى الدمقس والحريز ، ان تكون حاله مناقضة لقاله ، فلا يسمع له قول ، ولا يقبل منه كلام .

١٤٥ — ان النبى عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة كان يحمل كل ضعفاء المؤمنين ، فما يكون له من كسب من تجارته فى مال أم المؤمنين خديجة ، ينفقه على الضعفاء من المؤمنين ، وهم أول من اتبع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد امتنع المشركون عن اطعام الضعفاء وخصوصا الذين يؤمنون ، بل أرهقوهم عذابا وعسفا وهوانا ، وكان يواسيهم بالعطاء وطلب الصبر ، والفرج القريب ان شاء الله تعالى ، لا يألو جهدا الا بذله ، وهو يكتفى بالقليل من العيش الذى يقيم أوده ، ليتحمل عبء الدعوة ، والقيام بحقها .

ولما هاجر الى المدينة ، وانشغل بالاسلام عن التجارة التى كانت المرتزق له ، ويظهر من مجرى التاريخ أنه قد أنهاها قبل الهجرة ، وربما يكون قد صفاها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضى الله تبارك وتعالى عنها ، وصار رزقه من بيت المال الذى يعمل فيه ، ان هو العامل الأول ، وله الاستيلاء على خمس الغنائم بمقتضى الولاية العامة الاسلامية كما قال تعالى : « واعلموا انما غنمتم من شيء ، فان لله خمسة ، وللرسول ولذى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .، والله على كل شيء قدير » .

عندما صارت نفقته من بيت المال ، أو من الغنائم ، وإنها لتكون بأشق جهد يبذله وأعظمه علا زهده عليه الصلاة والسلام فى المال والعيش الرغيد ، ولولا قيام الأود ، وأنه لا بد من لقيمات يقمن صلبه ، لزهد حتى فى اللقمة القفار .

كان عليه الصلاة والسلام ينام على الحصير ، حتى يؤثر فى بدنه الكريم ، ويروى عن ابن مسعود أنه قال : « أنه عليه الصلاة والسلام نام على حصير ، فأثر الحصير بجلده ، فجعلت إمسه ، وأقول ألا أذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيه تنام عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « مالى للدنيا ، ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت ظل شجرة ، ثم راح وتركها » .

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوسد بحشية من ليف ، ورأه عمر بن الخطاب ، وهو على مثل هذه الحال ، فبكى ، فقال له النبى الزاهد : وما يبكيك ؟ فقال عمر : ومالى لا أبكى ، وكسرى وقصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا ، وأنت على هذه الحال التى أرى ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم : يا عمر ، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ، قال بلى ، قال هو كذلك .

## قوت الزاهد :

١٤٦ — فى الصحيحين البخارى ومسلم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » هذه دعوة محمد عليه الصلاة والسلام الى ربه ، ولا ندرى أى دعوة الاستجابة لها توفير القوت لآل محمد عليه الصلاة والسلام ، أم هى دعوة للاقتصار على القوت الضرورى ، وتحمل آل محمد عليه الصلاة والسلام ذلك ، والصبر عليه والرضا به ، والقناعة الراضية الكافية التى لا يطلب معها غيرها ؟ أجيب أن الاستجابة تكون بهما ، أى بتوفير القوت الضرورى وأن يلقي الله تعالى فى قلوب آل محمد عليه الصلاة والسلام من الأزواج الطاهرات ، ومن يلوذ به من أسرته الرضا به ، والصبر عليه وأن تكون الأسرة كلها فى زهد ربه ، تحتل ما يحتمل ، وتصبر على ما يصبر ، لتكون أسوة لغيرها ، ولكيلا يكون من بعضهن من يطعم فى المال الذى يساق ، ويكون تصرف رب هذه الأسرة الزاهد كذلك .

ولقد كان كذلك ، فقد روى الامام أحمد أن أبا هريرة يقول : « ما شبع نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة ، حتى فارق الدنيا » أى أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يرى أن من التمتع

أن يأكل من خبز القمح ثلاثة أيام متتالية ، بل كان الشعير غالب طعامه عليه الصلاة والسلام ، وقد يكون معه التمر •

ولقد قالت أم المؤمنين عائشة : « ما شبع آل محمد عليه الصلاة والسلام من خبز ، حتى قبض ، وما رفع من مائدته كسرة قط » • ومن هذا الخبر يستفاد أنه ما كان يقدم له على مائدته الا ما يكفى بلا زيادة تفضل عنه •

ولقد كان لا ينغى عن الخبز نخالته ، بل كان يأكله من غير نخل ، فقد قالت الصديقة بنت الصديق : « والذي بعث محمداً بالحق : ما رأى من خلا ، ولا أكل خبزاً منخولاً قط منذ بعثه الله تعالى عز وجل ، الى أن قبضه » •

وما كانوا يأدمون الطعام دائماً ، بل كانوا يأكلون فى كثير من الأحيان الخبز قفارا غير مأدوم ، وقد قالت أم المؤمنين عائشة : فيما رواه الشيخان البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير أنها قالت : « ان كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد ناراً ، انما هما الأسودان التمر والماء ، الا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون الى رسول الله بلبن منائحهم ، فيشرب ، ويسقينا من ذلك اللبن » •

وهكذا نجد استجابة الله تعالى لرسوله الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل رزقه وآله قوتا ، ولكنه من أدنى القوت ليكون قدوة للمسلمين ، وليكون غذاء لفقرائهم ، ولكيلا ترمض نفس بحرمان ، ولكيلا يأسوا على ما يفوتهم من وفرة الرزق ، وأسباب النعيم والعيش الرفاع ، فى هذه الحياة •

ولكن يلاحظ أنه لم يحرم على نفسه صنفا من فاكهة ، أو طعاما من اطعمة أهل الترفه والنعيم ، بل يقبل كل الحلال ، ولكنه يكتفى بالأدنى دائما فاطما النفس عن أهوائها وملذها ، تقوية لها ، ولتكون الارادة الحاكمة بسلطان العقل هى المسيطرة ، ولا تكون النفس أمة ذلولا للأهواء والشهوات بل تكون سيده مطاعة ، حاكمة عليها غير محكومة بها •

١٤٧ — ومع هذه الزهادة التى التزمها ، وأخذ نفسه بها ما كان يدعو الناس اليها ، لأنهم لا يطيقونها ، ولأنه الذى أمر المؤمنين بالا يفعلوا الا ما يطيقون غير مسرفين على أنفسهم ، اذ يقول : « ان هذا الدين لن يشاده احد الا غلبه ولكن سدودا وقاربوا » • فهو عليه الصلاة والسلام يأخذ نفسه بزه لا يأخذ به غيره لكيلا يرمض فقير بفقر ، ولا ذو قل بقل •

ولقد روى أبو داود فى سننه أن سائلا سأل بلالا مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائلا : حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : ما كان له شئ من ذلك الا انا الذى كنت الى ذلك منه منذ بعثه الله تعالى الى أن توفى ، فكان اذا آتاه المسلم فراه عائلا يأمرنى فأنتطق ، فأشتري له البردة ، والشئ فأكسوه وأطعمه ، حتى اعترضنى رجل من المشركين ، فقال لى : « ان عندى سعة ، فلا تقترض الا منى ففعلت ، فلما كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة ، فاذا المشرك فى عصاوبة من التجار ، فلما رانى قال لى : « يا حبشى » قلت : يا لبيه ، فتجهمنى ، وقال قولا عظيما غليظا ، وقال أتدرى كم بينك وبين الشهر ! قلت قريب • قال ان بينك وبينه أربع ليال ، فأخذك بالذى لى عليك ، فانى لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ، ولا من كرامة صاحبك ، وانما أعطيتك لتصير لى عبدا ، فأذكرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك • قال بلال فأخذنى فى نفسى ما يأخذ انفس الناس ، فانطلقت ، فناديت بالصلاة حتى اذا صليت العتمة ، ورجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى اهله ، فاستأذنت عليه فأذن لى فقلت يارسول الله بأبى أنت وأمى ، ان المشرك الذى ذكرت لك ائى كنت أتدين منه قال كذا وكذا ، وليس ما يقضى عنى ولا عندى وهو فاضى ، فأذن لى ان آتى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يقضى به عنى ، فخرجت حتى أتيت منزلى ، فجعلت سيفى وحرابى ورمحى ونعلى عند رأسى ، فاستقبلت وجهى الأفق ، فكلما نمت انتبعت ، فاذا رأيت رجلا نمت حتى اتسق عمود الصبح الأول ، فأردت أن أنتطق ، فاذا انسان يدعونى ، يا بلال أجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانطلقت حتى أتته ، فاذا أربع ركائب عليهن أحمالهن ، فأتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام فاستأذنت ، فقال لى رسول الله : أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك فحمدت الله وقال : ألم تمر على الركائب المناخات الأربع قلت بلى ، قال : قل ، فان لك رقابهن وما عليهن فاذا عليها كسوة وطعام أهدهن اليه صاحب فدك ، فاقبضهن اليك ، ثم اقض دينك ، ففعلت فخططت أحمالهن ، ثم علقتهن ثم عمدت الى تأدية صلاة الصبح ، حتى اذا صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرجت الى البقيع ، فجعلت أصبغى فى أذنى فقلت : من كان يطلب من رسول الله عليه الصلاة والسلام ديناً ، فليحضر فمازلت أبيع وأقضى ، وأعرض حتى لم يبق على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دين فى الأرض حتى فضل عندى أوقيتان ، أو أوقية ونصف ، ثم انطلقت الى المسجد ، وقد ذهب عامة النهار ، فاذا رسول الله عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد وحده ، فسلمت



عليه ، فقال لى : ما فعل الله قبلك ؟ قلت : قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلم يبق شيء . قال فضل شيء قلت نعم ديناراً ، قال : انظر أن تريحنى منهما ، فليست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما ، فلم يأتنا أحد ، وظل فى المسجد حتى اليوم التالى ، حتى اذا كان آخر النهار جاء راكباً ، فانطلقت بهما فكسوتهما ، وأطعمتهما . حتى اذا صلى العتمة دعانى ، فقال : ما فعل الله تعالى قبلك ، قلت قد أراحك الله تعالى منهما - فكبر وحمد الله تعالى شفقاً من أن يدركه الموت . وعنده ذلك ، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته » (١) .

١٤٨ — سقنا هذا الخبر مع طوله ، لأنه يدل أولاً : على زهادة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم المطلقة التى لا يدخر فيها فى بيته . ويدل ثانياً : على أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يحمل أعباء العائلين من صحابته ، يعينهم حتى يبعد عنهم ذل الحاجة ، ويحميهم من رق الدين ، ويدل ثالثاً على أنه اذا لم يستطع أن يعطى أمرهم بأن يستدينوا عليه .

ويروى فى ذلك الترمذى بسنده أن رجلاً جاء الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأله أن يعطيه . فقال : ما عندى ما أعطيك ، ولكن اذهب فاتبع على شيئاً ، فاذا جاءنى شيء قضيت ، فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه فكرة النبى عليه الصلاة والسلام قول عمر . فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ، ولا تخش من ذى العرش اقلاقاً ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف لتبسم فى وجهه لقول الأنصارى .

١٤٩ — ولقد كان ما يجرى على النبى عليه الصلاة والسلام يجرى على نسائه ، فيتحملن راضيات فى أكثر الأحيان .

ويروى أن امرأة من الأنصار دخلت على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها - فرأت على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عباءة فانطلقت لتبعث الى بفراش حشوه الصوف ، فدخل عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فقال ما هذا يا عائشة قلت يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك ، فذهبت ، وبعثت بهذا ، فقال رديه ، فلم أرده ، وأعجبني أن يكون فى بيتى ، حتى قال ذلك ثلاث مرات قالت فقبال رديه يا عائشة فو الله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة .

(١) تاريخ الحافظ لابن كثير نقلاً عن الشماثل لأبى داود ص ٥٦ ج ٦ .

ولم يكن عليه الصلاة والسلام يدخر لغده شيئاً يسارع اليه الفساد ، وقد روى الامام احمد انه اهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فاطمى خادمه طائراً ، والظاهر انه اكل هو طائراً ، وبقي طائر ، فلما جاء الغد آتى به فقال لأنس خادمه : « ألم أنهك أن تبقى شيئاً لغد » •

ولما أفاء الله على رسوله نخل بنى النضير ، كان يدخر منها فكان يعزل لأهله من تمرها ، ما يكفى سنة ، ثم يكون الباقي مما ينفق فى الخيل والجمال مما يعد للحرب ، وفى السلاح الباقي ، صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكان عليه الصلاة والسلام لا يدخر ذهباً ولا فضة ، حتى انه كان وهو مريض مرض الموت عنده سبعة دنائير أو ستة ، فما زال بأهله حتى تخلص منها • وروى انه كان له فى مرض موته قطعة ذهب صغيرة عبروا عنها بأنها ذهبية ، فتصدق بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى يخرج من الدنيا ، وليس له شيء ، ولا عليه شيء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « نحن معشر الأنبياء لا نورث » •

• ١٥ — كان آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أزواجه يحملهن ما يحتمل ، لأنهن آله ، والسعة عليهن قد تعود بالسعة عليه ، فسدا للذريعة كن يتحملن ما يتحمل •

ولكن يظهر أنهن طالبته مرة بما ليس عنده ، وضاق بهن ذرعاً ، فآلى عليهن بأن حلف الا يدخل عليهن شهراً واعتزل عنهن ، وسكن عليه من داره ، فدخل عليه عمر ، وإذا هو مضطجع على حصير ، قد أثر فى جسمه عليه الصلاة والسلام ، فهملت عينا عمر ، فقال عليه الصلاة والسلام مالك ، فقال أنت صفوة الله تعالى من خلقه وكسرى وقيصر فيما هما عليه ، فجلس عليه الصلاة والسلام محمراً وجهه فقال : « أو فى شك أنت ، يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة » •

وقد عتب الله تعالى على نبيه أن حرم عليه أزواجه شهراً ، فقال تعالى : يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك ، والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم ، وإذا أسرى النبى الى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبات به وأظهره الله عليه ، عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من أنباك هذا قال نبأنى العليم الخبير ،

ان تتويا الى الله فقد صفت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه ، فان الله هو مولاہ ، وجبريل ، وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا مكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكارا » •

ولقد كانت شكواهن من ان محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد اخذهن بما اخذ به نفسه ، وان كان اخف ولكنه فى كلتا الحالتين دعا ربه ان يكون رزق آل محمد صلى الله عليه وسلم قوتا ، لا يتجاوزہ الى رافع الحياة وفاكهها ، ولذلك حلف بما حلف تاديبا وتجربة ، ومحبة ايضا ، وبعد ان مضى الشهر الذى حلف الا يقربهن فيه ، لم يعد اليهن الا بعد تخيير صريح يقبلن فيه ان يكون رزقهن قوتا لا نعيم فيه ، الا بالحلل ، وبين ان يسرحن بالمعروف ، وذلك بأمر صريح من الله سبحانه وتعالى ان قال سبحانه :

« يا ايها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين امتعن ، وأسرحن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله اعد للمحسنات مكن اجرا عظيما ، يا نساء النبى من يات منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت مكن لله ورسوله وتعمل صالحا ، نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما • يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقنتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلاة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » •

نفذ محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر ربه بالتخيير ليخترن ، وابتدا بأحب نسائه اليه ابنة صديقه وصفيه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، عائشة ، فقال لها انى ذاكر أمرا ، فلا عليك ان تعجلى حتى تستأمرى أبويك ، وتلا عليها هذه الآيات فقالت : افى هذا استأمر أبواى ، فانى اختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وكذلك قال سائر أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وبذلك اخترن عيشة النبى عليه الصلاة والسلام الزاهدة ، فكن جديرات بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وسيد الزاهدين •

## الصابر المصابر

١٥١ — ان نشأة محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) الأولى من شأنها أن تربي فيه خصلة الصبر ، وحاله في شبابه الباكر تربي فيه الصبر واستمساكه بالفضائل في وسط الرذائل التي كانت تكثر في قومه لا يقوى عليه الا بالصبر وضبط النفس ، واجتنابه للأهواء والشهوات التي كانت تسيطر في مكة ، لا يقوى عليه الا الصابر الذي يجمع دواعي الشهوات بين جنبيه ، ويقدها عن متابعة الأهواء ومنازع الشيطان ، ان ضبط النفس اقوى مظاهر الصبر ، والناظر الى حياة محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) يراه منذ نشأته الى بلوغه سن الشباب ، الى اكتمال رجولته يرى فيه اصرارا على خلق واحد ، وعقيدة واحدة ، يتزلزل كل شيء حوله ، ولا يتزلزل ، ولا يكون ذلك الا من صبور .

لا تغريه جده ، ولا يجزعه فقر ، لا يدفعه التكاثر حول تقديس الأوثان الى الميل نحوها ، ولا يحرضه التقليد للأقوياء على أن يخضع لصنم أو يقوله بسلطان ، بل يدافع الاعتقاد في الأصنام ، يدافعه في نفسه ، ويدافعه في مجتمعه ويدافعه في كل مظاهر حياته ، غير متجانب لاثم ، ولا راض عمن يخضعون به .

ان كل ذلك يحتاج الى ضبط نفس ، وضبط فكر ، واستقامة نظر ، وصبر عميق يتغلغل في أطواء النفس ، وثنايا الفؤاد وكل هذا لا يكون الا من صابر مصابر ، يغالب الأحداث بالصبر ، ويغالب الأعداء بعدم الفزع ، ان الصبر أقسام يختلف كل قسم باختلاف موضوعه ، والصدمات التي يلقاها الصبور .

أولها — الصبر على النوازل تنزل به ، ومن نوازله نازلة الفقر ، لاترمض نفسه به ، ولا يذل ، ولا يخنع لذل الحاجة ، بل يرضى بالقليل صابرا ساعيا جادا في جلد ، ودأب . حتى يمنع الفقر من أن يتسرب لنفسه بالاحساس بالذل ، أو بأن تذهب قوى النفس شعاعا من الاحتياج ، وان ذلك النوع من الصبر كان في النبي ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ، فما ظهر منه ذل الاحتياج ، بل كان حتى عندما تمد موائد الطعام ، لا يكون أول من يمد ولا أكثر الغلمان تزاما فيه ، ولا تسابقا اليه ، بل كان حريصا على ألا يفعل ، ولو فاتته الطعام .

القسم الثانى : الصبر على الحرمان من الأهواء والشهوات وقمعها ، وعلى دفع الخواطر الفاسدة ، وعلى مقاومة ما تدعو اليه أحوال عبدة الأوثان لتحريم أمور حلال كتحرير السائبة والوصيلة والحام وكاستباحة المختنقة والموقوذة والنطيحة ، وما كان منه شرب الخمر ، وملاعبة بالميسر ، واستقسام بالأنلام ، فكل ذلك امتنع عنه محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ، قبل أن يبعثه الله تعالى ، وذلك من تحصين نفسه بالصبر ، وما منحه الله تعالى من قوة احتمال .

القسم الثالث : من الصبر هو على ما ينزل من نوازل ، وقد جاء مجمد ( صلى الله عليه وسلم ) فى الحياة ليكون صبوراً وشكوراً .

أول ما أدرك الحياة مميزاً ماتت أمه وحملته حاضنته الحبشية الى جده ، ثم لم يلبث أن فقد الجد ، وقد بلغ سن التمييز الذى يعرف الحامى ، وانتقل الى بيت عمه ، وكان محدود الرزق كثير العيال ، فتعلم كيف يكون الصبر حيث التزاحم ، فما كان يمد يده فى زحمة الغلمان على الطعام .

ثم كان الصابر فى رعى الغنم ، ثم كان الصابر فى كسب القوت ، وهكذا كان الصبر عدته التى يعدها لنوائب الدهر ، وملامات الزمان ، وأخذ يحمل وحده أعباء حياته جلداً صبوراً .

وإذا كان قد صابر النوازل والقل واحتمل ، فقد احتمل نعمة الكثير من المال كما احتمل القل ، فلم يطغ إذا جاءه المال الوفور عندما اتجر فى مال خديجة التى صارت من بعد زوجه وأم المؤمنين ، فاحتمل النعمة كما احتمل النعمة ، وضبط نفسه فى نعمته ؛ كما ضبطها فى نقمته ، فلم يكن فى الأولى جازعاً ؛ ولم يكن فى الثانية فرحاً فخوراً . وقد بين الله تعالى فى كتابه أن الذى لا ييأس فى الحرمان ؛ ولا يطغى عند الجدة هو المؤمن الصابر ، فقد قال سبحانه : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ؛ ثم نزعناها منه ، انه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

والصبر فى هذا المقام أجل أنواع الصبر ، لأنه هو الذى يكون فى أعظم الرجال الذين أوتوا القدرة على تحمل الأعباء . لا يأثرون ويبطرون فى سرائهم فيكونوا صابرين ، ولا يجزعون ويهلعون فى شدائهم فيذلوا .

وكذلك كان محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل أن يبعثه الله تعالى نبياً ، فكان مهيتاً لأعظم رسالة فى الوجود .

١٥٢ — بهذا الخلق الصابر يختار الله تعالى محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ليكون رسوله الذي يدعو الناس الى التوحيد فى وسط قوم صلاب شداد غلاظ ، فالدعوة فيهم تحتاج الى عزم الأمور ، والصبر من عزم الأمور ، بل ان عزم الأمور يحتاج الى صبر شاق مرير ، لا يتحملة الا اولو العزم من الرجال ، واولو العزم من الرسل ، كما قال تعالى مخاطبا محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) الصبور ، والمكاره تحيط به احاطة الدائرة بقطر : « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ ، فهل يهلك الا القوم الفاسقون » .

كان لا بد بعد البعثة من أن يكون علاج الأمور كلها بالصبر ، صبر على المشركين فى أوامهم ، وصبر عليهم فى دعوتهم منه الى الحق ، وقد أصروا على الباطل ، وصبر على سفهائهم ، وصبر على أذاهم المستمر ، الذى أقدم عليه ذور الحقد والعصبية ، ولم يستنكره كبرائهم ، وصبر فى الدعوة الى الاسلام ، وما يكاد طريقها ، ويعرقل سيرها . ولذلك جعل الله تعالى أقوى أوصاف المؤمنين الصبر ، فقال تعالى : « ويشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » ، ولقد كان النبى عليه الصلاة والسلام الصابر حقا وصدقا ودعا الى الصبر ، فقد أثر عنه أنه قال ما من أحد تصيبه مصيبة ، فيقول انا لله وانا اليه راجعون ؛ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيرا منها ، الا أجاره الله تعالى فى مصيبتى واخلف له خيرا منها .

وان فضيلة الصبر الجميل ، وهو الصبر من غير تملل بل فى ثبات جاش واطمئنان قلب وتحمل ، هى قوة لصاحبه فوق أن فيها تفويضا لله تعالى مع العمل من غير تخاذل ، فالمفوض الصابر يؤمن بقدرة الله تعالى حق الايمان ، وأنه المغير ، ولذلك طلب الرسول الصابر صلى الله تعالى عليه وسلم ممن يصاب أن يدعو الله تعالى ، ويفوض اليه أمره فان ذلك يعطيه جلدا واحتمالا ، ولقد قال ابن القيم فى علاج النفس بحملها على الصبر بالتفويض .

« وهذه الكلمة أى التى قالها محمد ( عليه الصلاة والسلام ) فى العلاج بالصبر ، وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه فى عاجلته وآجلته فانها تتضمن أمرين عظيمين اذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبتيه ( أحدهما ) أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة وقد جعله عند العبد عارية ، فاذا أخذ منه ، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير ، وأيضا فانه محفوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعده ، وملك العبد له منحة معارة فى زمن

يسير ، وأيضا فانه أليس أوجده من عدمه حتى يكون ملكه حقيقة ، وألا هو الذى يحفظه من الآفات بعد وجوده ، وألا يبقى عليه وجوده ، أفليس له فيه تأثير ، ولا ملك حقيقى ، وأيضا فانه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهى ، وتصرف الملاك ، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه الا ما وافق أمر مالكة الحقيقى ٠ ، ٠

والثانى : أن مصير العبد ومرجعه الى الله تعالى مولاه الحق ، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويحىء ربه فردا ، كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن بالحسنات والسيئات ، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله ونهايته ، فكيف يفرح بوجود أو يأسى على مفقود ، ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء ، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطاه لم يكن ليصيبه ، قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، أن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » (١) ٠

١٥٣ — كان محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) صبورا ، ابلغ ما يكون الصبور ، فقد كان قبل البعثة فى المنشط والمكره ، والصابر فى الفقر والغنى ، والصابر فى العجز والمقدرة ، ثم كان بعد البعثة الصابر فى أداء الرسالة ، وتبليغها والدعوة اليها ، صابر المشركين عند الدعوة ، صابر قومه الذين جفوه ، ونكروه وهم يعرفونه ، وكذبوه ، وهو الصادق الأمين ورموه بالسحر وكذبا ، والجنون افتراء ، وقالوا ما قالوا فيه وفى رسالته ، وقد وسع صبره كل افتراءهم ، فما وهن فى دعوته ، ولا يتس من اجابته ، وكان يرضى فى أن يصدع بأمر ربه وهو يصبر على انكارهم من غير أن ييأس من إيمانهم ، ويدعو عليهم ، فلم يقل كما قال نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك أن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » بل قال : « أن قومى لا يعلمون » وقال : « انى أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله » ، ولكل نبي من أنبياء الله تعالى فضل وقد فضل بعض النبيين على بعض ٠

ولقد آذوه ، وآذوا أصحابه ، وهو المقادر على أن يقمعهم ، أو يدعو عليهم بالقتل ، ويسخط عليهم ، وانزال غضب الله تعالى عليهم ، بل انه كان يتلقى كل ذلك بالرجاء والاطمئنان الى أنه مبلغ رسالة ربه ، غير وان ولا مقصر ، مدركا أن الله تعالى بالغ أمره ، وأن العاقبة للمتقين ٠

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد ٠

كان طاغيتهم يلقي عليه فرث الجُزور ، وهو يصلى ، فما يغضب ، ولا يثور ، لأن الغضب يفقد الحق قوته ، والثورة تطيش حولها أحلام من يدعوهم ، وهو حريص على أن يترك لهم حرية الاختيار ، وتقدير الأمر فى أناة ، وهداة مدركة ، والغضب يدفع الى الملاحاة والمنازعة ، وهو يريد أن يثزع من قلوبهم سخيمة الحقد الملاحى ، بل يضع فى قلوبهم قوة الحقيقة تسرى فى قلوبهم ، وتنساب فى نفوسهم ، وهم مطمئنون من جانبه غير منزعجين •

يصبر عليه الصلاة والسلام صبر الطبيب يعالج المريض ، وقد هاج هياجه ، وأرغى زبده ، فيأخذه فى حكمة ، عالما أن المقاومة من المرض ذاته ، وأن غايته معافاة المريض ، فليصبر ، حتى يصل الى هذه الغاية غير منزعج ، ولا مخاصم ، ولا معاند •

ولقد صبر عليه الصلاة والسلام على استهزائهم وعلى سخريتهم ، وهو أخذ نفسه بأنهم كلما سخروا منه زادت عنايته بالدعوة ، وزادت قوته فى الاحتمال ورغبته فى المصابرة ، غير متحمل ولا يائس ، فان الصبر يبعد اليأس ويقرب الرجاء ، ويهدى للتى هى أقوم ، ويوقظ الضمائر ان كانت فيها قوة الحياة ، وان الصبر للذى تشمس نفسه يكون كالسقى والرعى يحيى ولا يميت ، والملاحاة تشغل النفس عن الحق ، وتوجب انحياز كل الى جانبه ، فلا يرى الا ما عنده ، ويعمى عما فى الجانب الآخر ، فتكون النظرة الجانبية ، والنظرة الجانبية لا تصيب صاحبها •

وصبر عليه الصلاة والسلام على الأذى ينزل بجسمه ، وبأهله ، ألم تراه صبر على الحرمان هو وبنو هاشم عندما قاطعتهم قريش ثلاث سنين دأبا • لا قوا فيها العنف من قومهم ، فما أسلموا محمدا عليه الصلاة والسلام لأعدائه •

فكان صبر محمد ( عليه الصلاة والسلام ) صبرين ، صبر الداعى الى الحق يحمل فى أثناؤه ما يلقى من جفوة قاطعة لما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وصبرا على أذى القريب المواصل الذى يرى أنه كان سببا فى أنه ذاق آله وأحاباه مرارة الحرمان والمقطوعة •

وصبر عليه الصلاة والسلام يوم ذهب الى ثقيف يطلب منهم الايمان ، فأنزوه ، وأغروا به سفهاءهم وغلمانهم يقذفونه بالحجارة حتى أسالوا دمه الكريم ، وكان الصابر الكريم عندما عرض عليه جبريل أو ملك الجبال أن يطبق الأخشبيين عليهم ، فطلب من ربه أن يستأنى بهم ، ويقرر فى اطمئنان الصابر أنه لا يبغى الا رضاه ، فيقول لربه • ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى •



١٥٤ — ولما رأى الأذى الشديد ينزل ببعض من أسلموا ، أذن لهم في الهجرة الى الحبشة ، وهو المقيم الصابر ، لا يتخلى عن دعوته ، ولا يفر بمن يدعونه ، بل يصابريهم ، ويلقباهم بالرفق ، ولطف المعاملة ، وان لم يقابلوه بمثلها ، بل يجافونه ويعادونه .

واذا كان قد خرج من مكة المكرمة مهاجرا ، فليس ذلك لأجل الخوف ، أو نفاذ الصبر ، بل لأن الدعوة استوجبت الهجرة بعد أن استمكن لها في يثرب ، وهو إذ يخرج كان صابرا ، إذ أنه يخرج من مكة المكرمة ، وهي أحب أرض الله إليه ، ولولا أن أهلها لم يستجيبوا وأذوه ما خرج منها ، فكان الصابر في خروجه ، ولم يكن خروجه جزعا وفرارا .

ولما هاجر كان المجاهد الصبور ، ولقد صابر وصبر في ثلاثة ميادين من الجهاد .

صابر في محاربة الأهواء والشهوات ، وسمى ذلك الجهاد الأكبر ، ودعا المؤمنين الى متابعتة فيه .

وصابر في ميدان الحرب ، فكان المجاهد الثابت الذي لا تزلزله قوة ، ولا يذهب تفكيره شعاعا ولو تألب عليه العرب جميعا ، كما في غزوة الأحزاب ، وقد جاء المشركون من الخارج واليهود من الداخل ، « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا » ، ونجد النبي عليه الصلاة والسلام كان في هذه المعركة ، الصابر ، المصابر ، الذي لم يذهب ساعة من نهار الرجاء منه ، وإن كانت الشديدة قد بلغت أقصاها .

وصابر صلى الله تعالى عليه وسلم في المداخل طوائف ثلاثا فأخذ بالرفق الضعفاء ، فكان يبيث فيهم روح الايمان ، وكان الضعف يبدو أحيانا منهم في وقت يحتاج فيه الى الجلد وقوة العزيمة ، والثبات في البأساء والضراء ، وحين البأس .

وصابر المنافقين الذين كانوا يظهرن الايمان ، ويبطنون الكفر ، ويلقون بالبأس والهزيمة ، ويدعون الى التردد في صفوف المؤمنين ، ويستجيب لهم بعض الضعفاء من المؤمنين ، ويصبر عليه الصلاة والسلام على ما يثيرونه حول شخصه وآله ، كما خبوا ووضعوا في الحديث الذي

أشاعوه عن أم المؤمنين عائشة • ويشير عمر بقتل كبيرهم ، فإيرده محمد عليه الصلاة والسلام بأنه لا يريد أن يتحدث الناس أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه ، ويستمر صابرا حتى ينهى الشر نفسه ، كما تموت بعض الحشرات بسمها •

وكان اليهود فى المدينة ، فكان يصابهم حتى ينكشف فسادهم ، فإذا انكشف أخذهم ببعض ذنوبهم صابرا مصابرا ، وأن الصبر فى الشدائد ، هو صبر العاقى المدرك بأن غايات الأمور لا تدرك إلا بالصبر المبرر ، وكان إذا ادلهم الأمر لا يجزع ، ولا يفزع ، بل يتأنى للآمر ، ويصطبر لها ، معالجا أمرها فى أناة وحكمة ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى ، فإذا دهمه الأمر ، لا ينزعج ولا يضطرب ، ولا يذهب لبه وتفكيره ، بل يسيطر على نفسه ، ويدبر الأمر من غير هلع ولا جزع ، وكان يرى أن الصبر من الإيمان •

وإن الشدائد النفسية تحتاج الى الصبر أكثر من الشدائد المادية ، وانظر الى موقفه الصابر ، عندما أشاعوا قالة السوء عن حبه أم المؤمنين عائشة ، فقد تلقى الخبر ، وساوره الظن ، وبدأ فى بعض عمله ، وفى ملامح وجهه ، ولكنه كان المثل الكامل فى الثبات ، وتقدير الأمر ، ودعا بعض خاصته للاستشارة فى هذا الأفك ، وليتعرف مقدار الحق فيه ، فمنهم من نفى الوقوع وأكد النفى كعمر رضى الله عنه ، ومنهم من دعا الى التحرى بسؤال جاريته ، وهو على ، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى هداة الصابر أن ذلك هو الأسلم والأحزم ، فسلكه ، فانتتهى الى البراءة ، وما كان ذلك ليكون إلا من صبور حكيم متدبر يغلب العقل والفكر فى وقت تطيش فيه الأفهام ، وتجيش فيه العواطف ، ولكن النفس نفس محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسيطر عليها الحكمة دائما •

وإن صبر النبى صلى الله عليه وسلم فى البأساء والضراء وحين البأس ، كان صبر من يتوقع البلاء قبل أن يقع ، فعبد نفسه لقوة الاحتمال ، وقد أخبره الله تعالى بما سينزل به وبالمؤمنين ليصبروا فقال تعالى : « ولنبليوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » •

ولقد قال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » •

وقال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

فكان الصبر الاختيارى من غير شكوى ولا اثنين عدته فى تبليغ رسالة ربه ، وقد تربى عليها قبل البعثة ، وكان قوته بعدها .

## العادل

١٥٥ — الأمانة والعدل صنوان متلازمان ، فلا يمكن أن يكون الأمين غير عادل ، ولا أن يكون العادل غير أمين ، لأن الأمانة مراعاة الانسان لحق غيره ، لا ينكره ولا يجحده ، والعدالة ، تبتدىء من انتصاف الانسان من نفسه ، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى طلب أداء الأمانات بالعدالة فى الحكم ، فقال تعالى : « أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، أن الله نعماً يعظمكم به ، أن الله كان سميعاً بصيراً » .

ولقد اشتهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بالأمانة ، حتى صار اسمه « الأمين » ولما حكموا أول من يدخل البيت فى أمر الحجر الأسود ، وكان هو الداخل الأول ارتضوه حكماً ، وفرحوا به ، وقالوا انه الأمين ، وكان فى معاملاته كلها عدلاً ، لا يغبن ، ولا يخدع ، وكان ينتصف من نفسه فى كل ما يتعلق به ، كان ذلك قبل البعثة .

أهدت اليه أم المؤمنين خديجة قبل البعثة زيد بن حارثة ، فكان مولى له ، ولما عرفه أهله ، وجاءوا اليه يريدون أن يفتدوه بثمنه ، أعطاهم الرجل العدل ، الحق فى أخذه ، ولم يمارهم فى حقهم ، بل انه زاد فى العدل الاحسان ، فقال خذوه من غير ثمن اذا أراد الذهاب معكم ، ولكن زيدا رفض أن يترك محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يبقى فى قريه مولى ، ولم يقبل الذهاب مع أسرته ، وهنا يتحرك العدل مرة أخرى فى قلب محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ، فيتخذه له ولداً ، وقد كان ذلك سائغاً عند العرب ، كما كان سائغاً عند الرومان ، ويلحق المتبنى بنسب من تبناه ، فكان يقال له زيد ابن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان مقتضى

هذا الألفاق قرشياً ، وتزوج على أنه قرشى ، حتى نزل من بعد البعثة تحريم التبني ، وعدم الحاق الدعى بنسب من تبناه ، وكان قد أراد محمد بن عبد الله العادل ( عليه الصلاة والسلام ) أن يعوضه عن ترك أسرته بذلك التعويض الكريم .

ولقد كان الخصماء يتحاكمون اليه عليه الصلاة والسلام قبل بعثته ، فقد روى أن الربيع بن خيثم كان يتحاكم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجاهلية قبل الاسلام ، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة والاستقامة ، وكونه لا ينطق الا بالحق ، ولا يتجه الى غيره ، ولا يرضى بالباطل أبدا .

### بعد البعثة :

١٥٦ — لقد كان عليه الصلاة والسلام يوزع الغنائم ، فيعطى كل ذى حق حقه ، لا يلتفت الى ما وراء ذلك ، فلا غاية يطلبها الا تحقيق العدل وأرادته ، يعطى الرجل من الغنيمة بمقدار جهاده ، وقد يعطى من يريد تأليف قلبه ، وقد أسلم على حرف ، فهو يعطى لعاعة من المال لمن يريد أن يتألفه ، كما كان يعطى بعض القرشيين الذين أسلموا عند الفتح تأليفا لقلوبهم وليستمرروا على دينهم الذى دخلوه طوعا من غير اكراه ، ولكن لكثرة معاندتهم من قبل تألفهم النبى ببعض من الصدقات .

ولقد حدث أن قال بعض الذين فى قلوبهم ضعف ايمان للرسول عليه الصلاة والسلام : عدل ، فرد عليه النبى ( عليه الصلاة والسلام ) « ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى » ولنذكر الخبر ، كما فى كتب الحديث ، فقد روى قتادة أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بالاسلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقسم الغنائم ، فقال : « يا محمد ، والله لئن أمرك الله أن تعدل ما عدلت ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام ويلك ، فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ، ثم قال نبى الله ، احذروا هذا وأشباهه ، فان فى أمتى أشباه هذا يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، فان خرجوا فاقتلوهم ، ثم اذا خرجوا فاقتلوهم » وروى مثل هذا فى الصحيحين مسلم والبخارى .

وان هذا الكلام يدل على عدالة النبى عليه الصلاة والسلام المطلقة ، فقد سمع القول من المعترض من غير أن يمنعه من الاعتراض ، ولكن بين له أنه العادل ، وأنه سيكون أرهاق من بعده ، فمن عدل كعدله نجا ، ومن لم يعدل فقد انحرف الى الهاوية .

ويدل ثانيا على أن أمثال هذا ممن يرون العدل غير عدل ويحكمون بهواهم ، أو بنظرهم بادی الرأى سيكونون شوكة فى جنب الحكم الاسلامى ، وأن سلامة الحكم فى ردعهم ولو بالقتل وتكراره ، وذلك عقابهم اذا خرجوا على الحاكم العدل والا لا يقتلوا ، كما قال على « من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأصابه » .

ثم ان النبى عليه الصلاة والسلام أردف فى هذه الواقعة ما يؤكد عدله المطلق القائم على أمانته ، فقال : « والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ، ولا أمنعكم انما أنا خازن » .

وان النبى العادل كان ينفذ الحق فى نفسه ، ان ظن أنه اعتدى ، كان يقسم الغنائم مرة ، وبعض أعراب المسلمين يلاحيه ، فردّه بعود فى يده ، فشكا الألم فأعطاه الرسول الأمين العادل ، ليقص منه ، فعفا الرجل ، واستحيا أن يفعل .

ولقد كان يخشى لفرط احساسه بالعدالة ، وألا يلقي الله خالصا من حقوق العباد ، فقام ، وهو مريض مرض الموت ، وقد بلغ به الاعياء أشده وقال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت منه مالا ، فهذا مالى ، فليأخذ منه ، ولا يخش الشعناء فانها ليست من شائى ، الا وان أحبكم الى من أخذ منى حقا ، ان كان له ، أو حللى ، فلقيت ربى وأنا طيب النفس » .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام ينهى عن الظلم بكل ضروبه ، واكل أموال الناس ، وينهى عن معاونة الظالمين بكل أسباب المعاونة ، وأنه يشدد فى ذلك ، فهو يقول : « اتقوا دعوة المظلوم ، فانه ليس بينها وبين الله حجاب » وقال عليه الصلاة والسلام : « من مشى مع ظالم فقد سعى الى النار » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، ونهى المحكومين عن أن يسكتوا عن ظلم الحاكمين ، لأنه معاونة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة الا اذا رأوا ولم ينكروا » وأوجب حمل الظالم على العدل ، وحث على ذلك فى قوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم » .

وان هذه الأحاديث تدل على أمرين عظيمين : - أولهما - شدة تمسك النبي عليه الصلاة والسلام بالعدل والدعوة إليه والتشدد فيه ، والاستمسك به ، لأنه كمال في ذاته ، ويدل على استقامة النفس ، حاكما كان أو محكوما ، فهو الكمال المطلق ان كان - وثانيهما - أنه يدعو الى العدل الجماعى ، لأنه هو الذى يستقيم به أمر الجماعة ، فلا يظلم الرجل أهله ، ولا يظلم الزوج زوجته ، ولا القريب قريبه ، ولا الرئيس مرءوسه ، ولا الحاكم محكوميه ، ولا المولى مولاه ، وأنه عليه الصلاة والسلام يقول فى حديث قدسى عن ربه : « يا عبادى انى كتبت العدل على نفسى فلا تظالموا » .

١٥٧ — ولقد كان عليه الصلاة والسلام يتولى الفصل فى خصومات المسلمين فى خاصها وعامها ، ويأتى فى فصله بحكم الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكانت أقضيته تقصد القضاء بحكم الله تعالى ، وتنفيذ ما أمر الله تعالى به من أمر وما نهى عنه ، وكانت أحكامه عادلة ، لا يحابى قويا ، ولا يهضم حق ضعيف .

ولما سرقت فاطمة المخزومية ، وأهم قریشا أن يقطع محمد صلى الله عليه وسلم يدها ، ذهب اليه حبه أسامة بن زيد فتشفع له فى ألا يقيم الحد عليها بقطع يدها ، فنهره عليه الصلاة والسلام قائلا له مستنكرا : أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم وقف خطيبا يقول :

« ما بال أناس يشفعون فى حد من حدود الله ، انما اهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف قطعوه ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعن يدها » .

فكان العدل الذى لا يمارى ولا يحابى فى حكم من أحكام الله تعالى .

وكان عليه الصلاة والسلام ينظر فى الأمر عند الاختصاص الى لب القضية ، فيتعرف المعتدى ، فيحكم عليه ، ولا ينظر فقط الى المظهر ، ويروى فى الصحيحين « البخارى ومسلم » أن رجلا عض يد رجل آخر ، فنزع العضوض يده من فم الآخر ، فوقعت ثناياه ، فاخصموا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن الذى رفع الأمر من عض أخاه ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام ، منحيا باللائمة على العاض مهدرا دية أسنانه : « يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك » .

وهو بهذا ينظر نظر الأريب الى موضوع القضية ، ليتعرف موضوع الاعتداء ، ومن الذى كان السبب ، ثم فيه اشارة الى من دفع عن نفسه الظلم ، وتعين عليه ألا يدفع الظلم الا بالذى ينزل بالآخر ، فهو برىء مما يترتب على فعله ، والمتسبب هو الذى يبوء بالاثم ولو كان هو الذى نزل به الأذى .

وكان عليه الصلاة والسلام يلاحظ فى قضائه ثلاثة أمور :

أولها - العدل بين الناس والمساواة بينهم فى تنفيذ أحكام الله تعالى لا فرق بين أمير وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ، بل الجميع أمام القانون سواء ؟ وفى المأثور « الناس سواسية كأسنان المشط » .

ثانيها - أنه يلاحظ الأثر الاجتماعى لحكمه ، فهو يفلظ العقاب على من يكثر فساده ، حماية للجماعة المسلمة من شره .

ثالثها - أنه لفرط ايمانه بالعدل يخشى أن يقع منه ظلم لأحد ، بسبب من يدلون بالحجة فى فصاحة منهم وعجز غيرهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام وهو العدل الأمين ! انكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من الآخر ، فمن قضيت له بحق أخيه ، فانما اقتطع له قطعة من النار » .

وفى الحق ان النبى عليه الصلاة والسلام كان عدلا فى ذات نفسه ، وعدلا فى كل ما يقوم به ، وعدلا فى أحكامه ، ويغلب المساواة فى كل شيء حتى فى الهدايا يهدى اليه باعتباره كبير المؤمنين ، ويقول فى ذلك ابن القيم فى زاد المعاد فى هدى خير العباد . وقد جاء فى صحيح البخارى أن النبى عليه الصلاة والسلام أهديت اليه اقبية من ديباج مزررة بالذهب ، فقسمها فى ناس من أصحابه ، وعزل منها واحدا لمخرمة بن نوفل ، فجاء ومعه المسور ابنه ، فاستقبله ، وقال يا أبا المسور خبأت لك هذا .

وهكذا نرى العدل يعم ولا يخص ، وانه كما ثبت من تاريخه قبل البعثة وبعدها لم يظلم ، ولم يضيع حقاً لأحد ، بل كان الحريص على حق غيره الحفيظ عليه .

وكان يعوض من يهدى من أصحابه ان تمكن من التعويض ، ويهادى من يهاديه ، لأن الهدية محبة ، وهو عليه الصلاة والسلام يبادل المحبة بالمحبة فهو عادل حتى فيما تبعته العاطفة ، ويدعو اليه الود .

## الشجاع

١٥٨ — يذكر بعض العلماء الشجاعة بأنها منبعثة من القوة الغضبية ، ولكنها خاضعة لحكم العقل ، والحكمة ، والمعرفة ، وهى السبيل الى دفع الأذى والنفع للجماعة ، وليست مرادفة للتهور ، وإن كان منبعثهما واحدا ، وهى القوة الغضبية الدافعة عن النفس فى موقف للتعرض للأذى ، بيد أن التهور اندفاع غير محكوم بالعقل والحكمة ، ولا خاضع للمعرفة ، أما الشجاعة فأنها لا تصدر الا عن تفكير سليم ، ودواعى الحكمة المستقيمة .

وليست الشجاعة منافية للحذر ، بل انه مسيطر عليها ، فهو يدفعها ، وهو يحكمها ، وقد يكون الخوف مع الشجاعة ، لأن الشجاع يتردد قبل أن يقدم فيوازن بين العمل ونتائجه ، والأقدام وغاياته ، وهل يتعين الضرب بالسيف ، وإن ذلك كله قد يصحبه ، فليس الشجاع هو الذى لا يخاف قط ، إنما الشجاع من يتغلب على بواعث ، ويتقدم فى تدبير محكم ، وصبر وقوة احتمال ، ولا تتصور الشجاعة الا مع التدبير والصبر والاحكام وتعرف الغايات والمقاصد .

والشجاعة قد تكون معنوية ، وليس لها مظهر حسى ، وقد تكون حسية بدافع معنوى ، ورغبة فى رفع حق ، وخفض باطل ، والنبى عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان المثل الكامل للشجاعة المعنوية ، التى لا تهاب المخالفة فى الحق ، فقريش كلها كانت تسجد للصنم ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يسجد للصنم قط ، وكان يجابه بذلك قريشا ، ولا يبالى ، وكانوا يحلفون باللات والعزى ومناة الثالثة الى آخر الأسماء التى سموها ، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وكان هو يرد من يطلب منه الحلف بها ، فيقول انه يكرهها وما يكون ذلك الا من شجاع قوى الايمان بما يعتقد ويؤمن فيختلف مع بائع فى الثمن ، فيطلب منه الحلف باللات والعزى ، فيرد محمد ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ردا قويا ، بأنه يكره هذه الأسماء ، فيقبل الرجل قوله من غير يمين لروعة ايمانه وشجاعته فى هذا الايمان .

وأنه فى رحلته الى الشام وهو فى الخامسة والعشرين كان شجاعا فى نفسه وفكره وقلبه عندما منع رجال القافلة التى أعطته زمامها من أن يسابقوا رجال قافلة أخرى ، واجه من معه بذلك المنع غير هياب ولا وجل ، ثم خالف طريق الأخرى ، وسار فى طريق أخرى ليمر بقبر أمه بالأبواء ، ويستعبر عليه العبرات ، إذ كان لأول مرة زاره ، وكان فى وعى عند موتها ، إذ كان فى السادسة من عمره ، ومع ذلك وصل قبل القافلة ، وكان قد اختار الطريق



الذى ظنه من معه وعرا ، وظنه هو مسلوكا ، وكان مستقيما ، لأنه وصل قبل القافلة المصرة من غير مسابقة •

وان هذا الخبر فى ذاته يدل على قدرة تدبير للأمور ، وتعرف لأقرب الوصول الى الهدف ، ويدل على رفق بمن معه ، والابتعاد عن المسابقات غير المثمرة الا التعب ، وعلى كمال الرفق بمن فى صحبته ، كما يدل على شجاعة نادرة ، وقوة احتمال كاملة •

ولقد كان شجاعا فى أقصى درجات الشجاعة عندما قبل أن يكون الحكم بين قبائل العرب فى وضع الحجر الأسود ، فقد تقدم وهو يعلم أن الحاكم لا يرضى كل من يحكمونه ، ولكنه بتوفيق الله تعالى أرضاهم جميعا •

وهكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام شجاعا قبل البعثة يقول الحق ولا يخشى لومة لائم ، يجاهر به غير مستهين بمن يقاومه ، بل راض بأن ينطق بالحق ، وحسبه ذلك وكفى •

#### بعد البعثة :

١٥٩ — بعد أن بعثه الله تعالى بدت شجاعته كاملة ، والبعثة من أول أدوارها ، وفى أثنائها ، وفى نهايتها تحتاج الى شجاعة ، وعندما التقى عليه الصلاة والسلام بورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، قال له : « ما أتى أحد بمثل ما أتيت به الا عودى » ولقاء أعداء الفكرة يحتاج الى شجاعة وثبات جأش ، وقوة احتمال ، « والله أعلم حيث يجعل رسالته » فما يختار رسولا خوارا ، ولا رسولا ضجرا ، ولا رسولا يفتريه اليأس فى أول الصدمة ، بل يستمر مصابرا مستعدا للصدمات ، واحدة بعد أخرى ، وأحيانا تجيء متكاثفة غير متفرقة ، بل مجتمعة صلبة غير متكسرة ، فكان لا يتلقاها الا شجاع النفس ذو العزيمة الصادقة فى هدأة المؤمن والقلب •

لقد كان أبو جهل يرعد ويبرق ، ويعمل فى إيذاء مستمر ، عسى أن يجبن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن دعوة الحق المستمرة غير اللوائية ، بل كلما اشتدت وسائل الإيذاء وتعددت وتجمعت ، ازداد عليه الصلاة والسلام عملا ، ما هاب وما مل ، بل كان يصدع بالحق فى اطمئنان وشجاعة •

ولقد كان من أعدائه ذو البطش الشديد فما هابه ولا خافه ، وان رفق اليه فى القول ، فذلك شأنه والواجب عليه ، ليقرب من القلوب ولكى لا يكون قظا غليظ القلب ، فينفذ الناس من حوله •

وعندما أقبل على المسلمين عمر بن الخطاب وكان جبارا مرهوبا في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وهو لا يزال على الشرك فزع المسلمون الا رجلين - أحدهما - حمل سيفه ليقبله به ان أراد شرا وهو أسد الله تعالى وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ومحمد بن عبد الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فما فزع ، بل رجا ، وما اضطرب بل اطمأن ، فقال أدخلوه ، فدخل والنبي الأمين ثابت مطمئن هادئ هدوء المؤمن الشجاع ، فلبب عمر ، بقوة ، حتى استكان ثم دعاه الى الاسلام ، فأسلم .

ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان شجاعا يستمر في دعوته ، وهو يعلم أن الملائكة ياتمون به ليقبلوه . فما وهن لا تثمارهم ولأذى ينزل به ، وبضعفاء صحابته .

وكان الشجاع الثابت ، وهو مهاجر ، وقد آوى الى غار ثور ، والقوم قد أحاطوا به حاملين سيوفهم ، بل كان الشجاع ، وهو يقول لصاحبه الخائف على النبي صلى الله عليه وسلم لما عساه يصيبه : « لاتحزن ان الله معنا » .

وعندما لاقى اليهود في يثرب ، وهو يعلم مكاييد اليهود واذاهم ، ومكرهم الخبيث الذي لا يمتنعون فيه عن الغدر ، وقد هموا به ، وأرادوا قتله غيلة برمي حجر عليه من عل ، وبدس السم في طعامه ، وما جبن ، ولا سكت عن الدعوة ، بل استمر يدعوهم الى الحق « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

وان الشجاعة المعنوية بين المنافقين كانت سياسته ، فهو يصدع بالحق بينهم ، كما صدع به بين أصحابه ، فهو في معاملة المنافقين يسوسهم يريد عمر أن يقتل عبد الله بن أبي ، فيمنعه في قوة غير آبه لاعتراضه ومكانة عمر في أهل الايمان ، ويقول له مرشدا ، « لا أقتلهم حتى لا يتحدث العرب أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يقتل أصحابه » . وكان أبعد نظرا من عمر ، لأنه بعد ذلك يرم أهل كل منافق به واستأذنوا النبي عليه الصلاة والسلام في قتل من فيه من أهل النفاق ، حتى طلب ابن عبد الله بن أبي من النبي عليه الصلاة والسلام أن يأذن له بقتله ، فلم يأذن ، وقال : « أين عمر ، لو قتلتم يوم طلب عمر أن أقتلهم ، لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم » .

وكان عليه الصلاة والسلام شجاعا كريما ، عندما قبل أن يكتب صلح الحديبية ، كما أملى المشركون ، وقد اشتد الأمر على المؤمنين ، لما قالوا من يخرج من المشركين مسلما بغير رضا وليه ردوه ، ومن خرج من عند محمد صلى الله عليه وسلم مرتدا الى مكة المكرمة لا يرده ، وغضب عمر وكثرة

من المؤمنين ، وقال قائلهم ، لماذا نقبل الدنية في ديننا ، واشتد غضبهم عندما جاء أحد المسلمين من قريش مكبلا بالحديد فردّه •

كان شجاعا وهو يعلم أنهم على خطأ المخلصين ، وردهم ، ثم تبين بعد ذلك ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام من حكمة ، عندما طلبوا هم عدم التمسك بهذا الشرط ، والغائه ، لأنه لم يرتد أحد من المسلمين ، ومن خرجوا مسلمين من قريش ، ولم يقبلهم ترصدوا المشركين في متاجرهم ، فأذاقوهم الويل والثبور ، وقتلوا منهم ، واستولوا على غنائم كثيرة من أموالهم على ما سنبين ان شاء الله تعالى •

### شجاعة النبي عليه الصلاة والسلام في ميدان القتال :

١٦٠ — كتب القتال على محمد عليه الصلاة والسلام ومن معه ، وهو كره لهم ، لأن الدعوة الاسلامية لا بد أن تأخذ طريقها ، وأن ترد الاعتداء حتى يكون الدين لله ، وتستقيم القلوب ، ولا تكون الفتنة ، والاكراه على ترك الهداية ، والوقوع في الفواية ، بعد أن من الله تعالى عليهم بالحق ، والايامن وما كان أهل الايمان ليستخذوا ويستكينوا ويهنوا عن نصرته ، ولذلك أذن لهم في القتال ، كما قال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » •

كان لا بد من القتال جهادا في سبيل الله ، ولنصرة الحق ، وكان لا بد أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام الموجه له في كل ميادينه ، والموجه له في كل نواحيه وضرويه ، وما كان محمد عليه الصلاة والسلام القائد الذي يحارب بغيره ، فيوجه الى الميدان ، ولا يتوجه هو اليه ، بل كان يتجه هو اليه ليكون القدوة الحسنة في كل أمر يدعو اليه ، لا يرضن بنفسه ، ولا يستأثر بالراحة ، ويترك غيره يعمل ، بل يكون في أول العاملين المتقين •

وكان على رأس المجاهدين ، جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض ما نصه : « قد حضر عليه الصلاة والسلام المواقف الصعبة ، وفر الكماة الأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ، ولا يتزحزح ،

وما من شجاع الا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواء عليه الصلاة والسلام » (١) .

ولقد فهم بعض الناس من قوله تعالى : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرّض المؤمنين » أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مأمور بأن يقاتل المشركين اذا واجهوه ولو كان وحده ، وذلك الأمر الخاص به الذى كلفه ، وقد فهمه أولئك المفسرون من قوله تعالى : « لا تكلف الا نفسك » .

ومهما تكن دلالة ذلك النص فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حمل عبء الجهاد ودخول الميدان بنفسه من غير ضن بها وكان أصبر أصحابه فى الجهاد ، فما فر قط من صفوف القتال ، وما يختاره فى موضع أمن ، ولو تولى عنه كل من حوله .

ولقد روى عن فارس الاسلام على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : « انا كنا اذا حمى البأس ، واحمرت الحديق اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس بأسا » .

فكان عليه الصلاة والسلام هو العلم الذى يهتدى به فى الميدان أشجع المجاهدين وأصبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول عبد الله بن عمر الذى شاهد الحرب ، ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أراضى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الشجاع الرضى الكريم الصبور ، الذى يقف فى الهيجاء ، ويحمل سيفه ، ليجيب كل هيلة .

وانه عليه الصلاة والسلام كان قوى الاحتمال مع شجاعة ، ورباطة جأش ، لقد جرح فى يوم أحد ، واشتدت جراحه ، وأنزفت دمه ، ومع ذلك داوم على الحرب ، ولم يهن ولم يستكن .

ولقد أريد قتله عليه الصلاة والسلام فى هيجاء أحد ، واضطرابها ، فجاء أبى بن خلف يريد قتله ، وقد أعد لذلك عدته منذ بدر الكبرى ، ان كان فى الأسرى ، فلما كان أحد ، ولم يكن للمسلمين جاء وقد ادرع بالحديد ،

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٦٦ .

لا يرى منه الا عينه ، حتى لا يصيبه سيف أو رمح ، وهو يقول أين محمد (صلى الله عليه وسلم) لا نجوت أن نجا محمد ، فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنزف من دمه ما أنزف ، خلوا طريقه ، وتناول الحرية من الحارث ابن الصمة ، وحملها ، وانتفض بها انتفاضة تطايروا تطاير الشعراء عن ظهر البعير اذا انتفض ، فطعنه عليه الصلاة والسلام فى عنقه طعنة تدأ دأمنها من فرسه مرارا ، وقيل بل كسر ضلعا من أضلاعه ، فرجع الى قريش يقول : قتلنى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهم يقولون لا بأس عليك • فقال لو كان يجمع الناس لقتلهم ، أليس قد قال أنا أقتلك ، والله لو بصق على لقتلنى ، فمات فى سرف فى قفولهم الى مكة المكرمة (١) • وانه فى حرب هوازن ثبت وحده ، وذلك كاف لبيان مدى شجاعته وصبره •

١٦١ — هذه شجاعته عليه الصلاة والسلام فى الجهاد بالسيف ، وقد ذكرنا شجاعته المعنوية فى السلم ، وكيف كان لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يلاحظ فى أفعاله للمبيئة وتقاليدها ، ولو كانت مستنكرة ، ولو كان منشأ هذه التقاليد أنهم لا يعقلون شيئا ، ولا يهتدون ، بل ما يكون معروفا يعرفه ، وما يكون نكرا ينكره ، وهو فى ذلك قبل البعثة وبعدها على حال واحدة ، ولا يهاب الرجال ، بل يهاب الله تعالى وحده ، ويرفق بالرجال ما كان الرفق سبيلا للهداية ، فهو الهادى المرشد الداعى الى الحق فى كل أحواله •

وهو يستجيب لداعى النجدة ، حيث تكون الاستجابة واجبة ، والنجدة لازمة ، وحيث يكون ملهوف يغاث ، لقد فزع أهل المدينة ، وتصايحوا لمخوف ألم ، فانطلق ناس قبل الصوت • يتعرفون مكان الاستغاثة ، وكل يعتقد أنه الذى سبق ، ولكنهم وجدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد سبقهم الى الصوت ، ولقوه قافلا وقد سبقهم ، وقد سارع الى الصوت على فرس لأبى طلحة ركبه النبى صلى الله عليه وسلم الشجاع القوى الأمين ، والفرس عار ، لا سرج عليه ، وقد سبق عليه الصلاة والسلام والسيف فى عنقه ، وقال لهم ، وهو راجع : « لن تراعوا » •

وهكذا كانت شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاملة فى كل ضروب الشجاعة •

(١) الشفاء ص ٦٨ ج ١ •

وإذا كان الحق يتكلم ، ولا يجمع ، وفى الميدان يتقدم كل الصفوف ، ولا يجمع ، وفى النجدة هو المسبق الى مواطن الاغاثة فهو فى كل أحواله الشجاع ، ولكن فى غير خيلاء ، ولا مفاخرة ، ولا استعلاء ، بل هو فى هذه الداعى الى الحق ، والى صراط مستقيم .

وقد روى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « فضلت الناس بشدة البطش ، والمراد البطش بالظالم ، وأخذته بالقوة بعد ألا تجدى الموعظة ، ويخرج من طور الجاحد المجرى الى طور المعتدى الأثيم ، الذى يحاول أن يفتن الناس فى دينهم والفتنة أشد من القتل .

## الرجل

١٦٢ — ان سمات الرجال الخلقية والعقلية ينبىء عنها أو تؤمىء إليها صفاتهم الجسمية ، فأولئك الشواذ فى تكوينهم النفسى أو العقلى يبسود شذوذهم فى أجسامهم بضمور واضح مثلاً فى عضلات الوجوه ، أو اعرجاج فى بعض أجزاء جسامهم ، أو اضطراب فى عيونهم ، أو انحراف فى بعض الملامح ، وان ذلك يتضح كاملاً ، لأهل العلم بالاغصاب ، والنفوس ، والمتتبعين للمرضى من الشواذ .

وان اعتدال الجسم ، وتناسب أجزائه يدل فى الجملة على استقامة العقول والنفوس ، وان المزاج النفسى يصحبه غالباً مزاج جسمى كامل ، متناسق فى تركيبه الظاهر والداخل . فالعناصر المؤثرة كلها متناسقة منسجمة انسجاماً لا شذوذ فيه ، ويكون معه انسجام نفسى كامل ، وعقل كامل وخلق كامل .

ولقد وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم النبیین فى حديث المعراج بما يدل على كمالهم الجسمى . وهو كمال فيه جمال . لا يكون ما يسوغ النفرة منهم أبداً . فقد روى سعيد بن المسبب . أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصف لأصحابه ابراهيم وموسى وعيسى . فقال : « أما ابراهيم فلم أر رجلاً قط أشبه بصاحبكم . ولا صاحبكم أشبه به منه . وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقنى كأنه من رجال شنودة (١) . وأما عيسى

(١) المضرب الخفيف اللحم ، والجعد المنكسر الشعر ، والأقنى المرتفع قصبه الأنف ، وشنودة قبيلة من الأزد ، والأدم ذو الحمرة المشرب بسمرة .

ابن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل سبط الشعر • كثير خيلان الوجه ،  
كأنه خرج من ديماس • تخال رأسه نقطة ماء • وليس به ماء ، أشبه رجالكم  
به عروة بن مسعود » •

وان هذه الأوصاف لأولئك الأنبياء الثلاثة • وهم من أولى العزم من  
الرسل ، تدل على كمال التناسق الجسمي فيهم مع اختلاف في الأوصاف  
الجزئية • واتفاقهم في أصل التنسيق ، وقد روى الدارقطني من حديث  
أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن النبي عليه  
الصلاة والسلام قال : « ما بعث الله تعالى نبيا الا حسن الوجه حسن الصوت •  
وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا » ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) •

لم يكن بدعا من الأنبياء أن يكون كل ما عليه محمد ( صلى الله تعالى  
عليه وسلم ) من الخلق والتكوين مسترعيا للأنظار ، هو جميل في جسمه ،  
كما هو جميل في خلقه ، وانه عندما تحدى قريشا بالقرآن الكريم ، وعاب  
آلهتهم ، وبين بطلان عبادتها ، ورأوا أبا طالب عمه فكلموه • وهو يحميه  
دونهم • أتوا بفتى نهد هو أجمل قريش في زعمهم ، ليكون ولدا لأبى طالب ،  
ويسلم لهم محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ليقتلوه ، فرفض  
تلك المساومة على ابن أخيه ، وقال في تهكم لاذع « تعطوني ولدكم أغذوه  
لكم ، واعطيكم ولدى تقتلونه » وهذا الخبر يدل على أن محمد بن عبد الله  
( صلى الله تعالى عليه وسلم ) قد بلغ الكمال الجسمي ، اذ سواه الله تعالى فأحسن  
خلقه •

ولا شك أن ذلك التناسق الجسمي له أثره في الدعوة ، والاستجابة لها  
اذ كان مصحوبا بأشراق روحى ، وانه مما يروى في ذلك أنه بعد أن  
تجاوبت الدعوة المحمدية في الأصداء ، وعرفت في أرجاء الجزيرة العربية ،  
وشاع خبر المكذبين وهم الكثرة ، كالشأن في كل دعوة جديدة تجيء على  
لسان رجل يأتيهم بجديد لم يألّفوه ، في هذه الأثناء قابل أعرابى محمد  
ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) فراعته منظره ، وأشراق وجهه ، وتألّل  
النور في جبينه ، فسأله من أنت ؟ فقال محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى  
عليه وسلم ) ، فقال الرجل فى ايمان مدرك : أأنت الذى تقول عنه قريش انه كذاب !!  
فقال الرسول الكريم : نعم • فقال الرجل ليس هذا بوجه كذاب ، ما الذى تدعو  
اليه ؟ فذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة الاسلام ، فأعلن الأعرابى  
ايمانه •

ولقد أكثر الواصفون لتكوين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء  
من طرق أنه كان فيه جمال يتلأأ وجهه اشراقا ، ونختار من هذه الروايات

وصفين جامعين : أحدهما وصف هند بن خديجة رضى الله تعالى عنه ، وكان رجلا وصافا فيه دقة ملاحظة ، وإدراك للصفات ؛ - وثانيهما - أم معبد ، ولنختر هذين الخبرين ففيهما الغناء •

١٦٣ — حديث هند بن أبى هالة ربيب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رواه الحسن بن على رضى الله عنهما ، فقد قال الحسن أول سيدى شباب أهل الجنة •

سألت خالى هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان وصافا ، وأنا أرجو أن يصف لى شيئا منه أتعلق به ، فقال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخما مفخما يتلألا وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر (١) أطول من الربوع (٢) وأقصر من الشذب (٣) ، عظيم الهامة ، رجل (٤) الشعر ، ان انفردت عقيقه (٥) فرق ؛ والا لا يجاوز شعره شحمة أذنه ، ذا وفرة • أزه (٦) اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى (٧) العرنيين ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع (٨) الفم أشنب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة معتدل الخلق بإديا متماسكا ، سواء البطن والصدر ، فسيح الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراويس أبذر المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرقة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة شثن الكفين (٩)

(١) وخيلا جمع خال ، وهو شام الوجه الذى يعطيه حسنا ، فى الماء السائل •

(٢) أى أنه ربيعة من الرجال أقرب الى الطويل منه الى القصير •

(٣) الشذب البائن الطول •

(٤) الشعر الرجل المرسل أنه مشط •

(٥) العقيقة شعر الرأس •

(٦) الأزهر النير •

(٧) الأقنى السائل الأنف •

(٨) الضليع الواسع والمشنب رواق الأسنان ، والمسربة ، خيط الشعر بين

الصدر والسرقة ، وسواء معناه سوى •

(٩) شثن الكفين والقدمين ، أى أنهما ذواتا لحم ، فليسا معروقين •

والزنندان عظما الذراعين ، سائل الأطراف ، أى أن أطرافه عليه الصلاة والسلام

خزمة لا تعرج ، بل انها مستقيمة ، ورحب الراحة أى واسع اليد •



والقدين ، سائل الأطراف سبط العضب خمسان (١) الأخصيين ، مسبح القدمين ، ينبو عنهما الماء • اذ زال ثقلها (٢) ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية ، اذا مشى كأنما ينحط من صلب ، واذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام •

وان هذا يدل على الجمال والكمال ، جمال الرجولة ، وكمال الانسان ، فكل ما فيه يسترعى الأنظار ، ولا تنصرف عنه ، ولذلك من لقيه ممن هو خالى الذهن ، لا يتجه اليه بحقد أو حسد ، أو ضغن يلتفت اليه ، ويجد فيه مثلا كاملا للرجل ، ومكانة عالية فى الخلق ، والاشعار بالموده ، فهو لا يتقدم مباهايا ، ولا يسبق معتزا ، ولكن يسير وراءه متواضعا ، متطامنا ، ويلقى السلام على كل من يلقاه اشعارا له بالموده والمحبة ، حتى لا تسبق الجهامة ، والمنافرة ، فهو جميل التكوين والتنسيق فى جسمه مرضى اللقاء ، بل محبوب اللقاء فى خلقه ، وما قام بينه وبين أحد فى الجاهلية عدا ، ولا كانت شحنا بينه وبين أحد منهم ، ولا ملاحاة فى عصبية أو ما يشبهها من المشادات الجاهلية ، بل كان الأليف المألوف ، القريب الى النفوس خصوصا النفوس المستقيمة التى لا التواء فيها ، ولا منافرة •

وذلك فوق ما خصه الله تعالى به من جاذبية شديدة تعلن الطيبة ، وتكشف عن خبيثة نفسه الطاهرة المسالمة التى لا تنافر ولا تغاضب ، ولا تصخب •

ولنقرأ وصفا ، لامرأة مر عليها عابرا فى هجرته من مكة الى المدينة ، فقد قالت واصفة له • وقد سئلت عنه أم معبد :

لقد مر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، ومولاه عامر بن فهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط الديلمى ، فسألوها هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا ، وقالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القري ، وكانوا محملين ، فنظر عليه الصلاة والسلام الى شاة فى كسر خيمتها ، فقال ما هذه الشاة

---

(١) خمسان الأخصيين ، الأخص وسط القدم الذى ينزل الى الأرض ، ولا تمسه ، وخمصانها أنه طويل ، أى أنهما متباعدان •  
(٢) التقلع ، رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ ، التزام طريقة الشيء ، والقصد فيه ، والهنون الرفق •

يا أم معبد ، فقالت : نحلها (١) الجهد ، فقال عليه الصلاة والسلام أتأذنين لى أن أحلبها ، فقالت ان كان بها حلب فاحلبها ، فدعا بالشاة فمسحها ، وذكر اسم الله ، فكان فى حلبة منها ما كفاهم أجمعين ، ثم حلبها ، وترك عندها اناءها ملآن • فلما جاء بعلمها استنكر اللبن ، وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ، ولا حلوبة فى البيت والشاء عازب !!

فقالت : لا والله مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، فقال صفيه ، فوالله انى لأراه صاحب قریش الذى تطلب !!

فقالت : رأيت رجلا ، ظاهر الوضاعة (٢) حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعب ثلجة ، ولم تزر به صعلة ، قسيم وسيم ، فى عينيه دمع ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أحور أكحل ، أزج أقرن فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقته خرزات نظم يتحدرن أبهى الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلامهم وأحسنهم من قريب ، ربعة لا تشنوه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين (٣) ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، وان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره محفود ، محشود ، لا عابس ولا مفند (٤) •

١٦٤ — هذا وصف من رأوه ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولها : جمال تكوينه الجسمانى ، وكمال التنسيق بين أعضائه ، حتى انه لو أراد مصورا أن يضع سورة لرجل مكتمل الجسم ، منسق الخلق ، ما وجد خيرا من هذه الصورة التى يصورها من رأوها ، وكان لها روعة عند كل من رأوها ، يستوى فى ذلك من خالفه وعائده ، ومن أطاعه وصدقه ، فهى صفات لها أثرها عند الناظر اليه ، وهى تزيد الموافق تصديقا ، وتثير الحقد

(١) المحل الجذب ، ونحل يعنى ضعف وهزل •

(٢) الوضاعة الجمال ، وأبلغ الوجه معناه مشرق ، والثلجة كبر البطن ، والصعلة صغر الرأس ، والقسيم والوسيم من سلامة التكوين ، والدعج شدة سواد حبة العين ، والوطف طول رمش العينين ، والصحل بحة يسيرة تجعل للصوت تأثيرا •

(٣) غصنان هما الاثنان اللذان يحيطان به أبو بكر ، والدليل •

(٤) محفود أى مخدوم ، ومحشود معناه أن من معه يحيطون به ، ومعنى

غير مقند لا يجابهه غيره بالتخطئة والمخالفة •

والحسد ، ومحبة الأذى عند من يعانده استكبارا ، فان المكابر يزداد اعناتا ، كلما رأى عوامل التأييد لنقيض رأيه تزداد وضوحا واعلاما ، وخصوصا اذا كان صدقا ثابتا بالمعينة ، وليست خبرا يقبل الانكار .

وان قريشا كانت تعلم فيه ذلك التكوين ، ولذلك لما أرادت أن تعوض أبا طالب عن ابن أخيه قدمت له أنهد فتى فى قريش ، ولكن أئى يكون من محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم نور الانسانية ورسولها .

— الأمر الثانى — أن قلبه الطاهر كان يشع على وجهه بالنور ، فهو ان يمشى يحف به النور الذى أضفاه الله تعالى عليه بتطهير قلبه ، وتنوير نفسه بالخير ، فكان كما قالت أم معبد « وضاء الجبين متلألئا بالنور ، من غير استكبار ولا استعلاء ، بل كان بين الناس متطامن النفس ، وان اليهم ، وهى فيهم كأحدهم ، لولا فضل الرسالة ، وما جعله الله تعالى له من مكان ليصل القول الطيب الى أئمه » .

الأمر الثالث — شدة جاذبيته صلى الله تعالى عليه وسلم مع الهية التى تفرض قولها على الناس ، ومع كمال المحبة واستشراف النفس المحبة اليه ، أو النفس الخالية من ضغن أو حقد ، أو أعنات فى المخالفة ، فان النفس التى تكون على هذه الشاكلة توجد فيها مقاومة للتأثير النفسى الذى يتجه الى البراءة ، وانها تكون مدنسة بالشر قد سكنها الشيطان وغلبت عليها وسأوسه ، فالقلب لا يصدق ، ويكون ممن جحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ، ولقد كان المشركون يعرفون قوة تأثيره بشخصه ، فوق ما معه من حق وبيانات تثبت صدق ما يأتى ، ولذلك كانوا يسبقون الى قبائل العرب ينفرونهم ، لكيلا يؤثر فيهم بشخصه وقوله ، وبيانات الله تعالى التى أجراها على يديه ، ونزل بها الوحي الالهى .

ومع كبر ما صنعوا ، لم ينفر الناس من الاستماع اليه ، والانعطاف ، لأن الحق بين ، والحجة قائمة ، والداعى تنجذب اليه النفوس ، وتصفى اليه أفئدة طلاب الحق الذى لا يمتارون فيه ان وجه اليهم ودعوا اليه .

١٦٥ — وكان كل شئ فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعلن قوته وجماله وكماله ، فكان فى شكله الشاب وقد تجاوز الستين من عمره ، لم يكن فيه شيب . بل كان أسود الشعر ، حتى عد الذين خالطوه من صحب ، وخدم شعرات شبيهة فذكروا أنه لم يشب فى لحيته ورأسه الا عشرون شعرة وعدها خادمه أنس رضى الله عنه بأنها احدى عشرة ، حتى انه كان يوصف بالشباب . وقد تجاوز الستين فى أصح الروايات عن سنه ، واذا كان تغيير

فى بعض شعره ظن خضاباً فإنه لم يكن خضاباً ، وإنما كان من كثرة ما يضمخ به شعره من مسك ، فقد كان يحب الطيب ، وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « حُبب الى من دنياكم ثلاثة : النساء ، والطيب ، وجعلت قرّة عيني فى الصلاة » .

ونرى أنه عليه الصلاة والسلام جعل الصلاة من الدنيا ، إذ وصفها مما حُبب اليه من شئون الدنيا ، لأن الصلاة مع جانبها الروحاني ، ومع أن فيها ذكر الله تعالى ، هي تصلح الدنيا ، لأن الصلاة تربي الضمير ، وترهف الوجدان ، فتنتهي عن الفحشاء والمنكر ، وبذلك تصلح شئون الدنيا والآخرة .

وإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصاً على الطيب يتطيب به دائماً ، حتى أنه كان ينبعث عرف الطيب فى مجلسه ، ولقائه ، وفى مظاهر حسه ، وكان إذا مس رأس طفل استمر العرف الطيب فى رأسه ، وأنه ليعرف أن الرسول مر فلمس طفلاً بالريح الطيب .

ولا شك أن العرف الطيب تستروح به النفس ، ويقبل معها الجليس ، وتتجذب اليها النفوس ، وإن الرائحة الكريهة تنفر ، وتبعد .

وكان عليه الصلاة والسلام يعنى بالنظافة فى المظهر ، كما عنى بتطهير المخبر ، كان يعنى بنظافة الحس ، كما عنى بنظافة النفس ، ولنترك الكلمة للقاضى عياض يبين ذلك . فقد قال :

وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرفه ، ونزاهته عن الأقدار ، وعورات الجسد ، فقد خصه الله تعالى بخصائص لم توجد فى غيره ، ثم تممها بنظافة البشرة وخصال الفطرة وقال : « بنى الدين على النظافة » . عن أنس ( خادم رسول الله ) ما شممت عنبراً قط ، ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وعن جابر بن سمرة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح خده قال فوجدت ليدته برداً وريحاً ، كأنما أخرجها من جونة عطار قال غيره مسحها بطيب ، أو لم يمسه . . . يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصبى ، فيعرف من بين الصبيان بريحتها ، ونام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى دار أنس ، فعرق ، فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه ، فسألها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقالت نجعله فى طيبنا ، وهو من أطيب الطيب . وذكر البخارى فى تاريخه الكبير عن جابر : لم يكن النبی عليه الصلاة والسلام يمر فى طريق ، فيتبعه أحد ، الا عرف أنه سلكه من طيبه ، وذكر

اسحق بن راهويه أن تلك كانت رائحته بلا طيب ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى المزني عن جابر : « أردفني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلفه ، فالتقمت خاتم النبوة بقمي ، فكان ينم على مسكا (١) » .

وهنا ننظر نظرة فيما رواه اسحق بن راهويه ، أو ذكره من غير رواية ، وهو أن رائحته عليه الصلاة والسلام التي كانت طيبة كانت من غير تطيب ، وأن ذلك بلا ريب جائز وممكن ، فليست أمرا مستحيلا في العقل ولا في الشرع ، فقد اختصه الله تعالى بخواص ليست في كل الناس ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ولكن ثبت بالرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يتضمخ بالطيب ، وليس ذلك مما يعيبه ، بل هو من المستحسن ، وثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول : أنه فيما حجب. اليه من شئون الدنيا الطيب .

ومهما يكن فإن محمدا عليه الصلاة والسلام كان حريصا على أن يكون ريحه طيبا ، لكيلا يكون منه ما ينفر جليسه ، بل يجذبه ويحببه .

## خاتم النبوة :

١٦٦ — هذه الصفات الجسدية كلها صفات كمال وجمال ، وقد يشاركه بعض الناس في بعضها ، ولكن لا يشاركونه في كلها . فليده صلى الله تعالى عليه وسلم صفة جسمية لا يشاركه فيها أحد ، وهو جزء بارز بين كتفيه ، وهو من نوع جسمه ، وأن كان بارزا فيه ، ويظهر من مجموع الروايات أنه كان صغيرا بحيث لا يظهر من وراء الثوب نائتا نقوءا واضحا ، فقليل أنه كبيضة الحمام ، وقيل أنه كالتفاحة ، ولا بد أن يكون كالتفاحة الصغيرة ، وقد قال سلمان الفارسي ، أتيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة ، وقد تكاثرت الروايات في ذلك ، حتى بلغ الخبر في ذلك حد المشهور المستفيض ، وكأنه وصف جسدي معلم للرسالة ، لا يمارى فيه من رآه ، والله تعالى آيات في خلقه .

(١) الشفاء ج ١ ص ٤٠ .

## تقدمة صفات النبی « صلى الله تعالى عليه وسلم »

١٦٧ — المنهاج الذى يسلكه الكتاب فى السيرة العطرة ، سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتبوا صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى آخر سيرته الطاهرة ، فلا يكتبوها قبل البعثة المباركة ، ولكن يكتبونها بعد أن بلغ الرسالة ، ومضى الى لقائه الكريم .

ونحن قد اخترنا أن نكتب تلك الصفات قبل تكليفه أداء الرسالة ، لأننا رأينا — ونرجو من الله التوفيق — أن نكتبها قبل البعثة ، ليعلم القارئ من الذى كلفه الله أداء الرسالة ، ومن الذى اختاره ليكون بشيرا ونذيرا للناس كافة عربهم وعجمهم ، وليعلم الناس أنه لم يكن فى مجموع صفاته وكماله كسائر الناس ، وإن كان من الناس ، وأنه ليس بكل واحد من البشر مجموع أخلاقه وتكوينه ؛ وإن كان منهم ، فهو من الناس ، ولكنه فى أعلى كمال الناس ، وإذا كان ليس من الملائكة ، فهو أعلى من الملائكة ، وأليق بالرسالة ، وأجدر بها من الخلق أجمعين .

وأنه بعد معرفة هذه الصفات وتعرفها ، وانفراده بها من بين جيله ، بل من بين الأجيال كلها ، لا يستطيع أحد أن يقول : لماذا اختاره ربه دون عمرو بن هشام ( أبى جهل ) أو دون عمر بن الخطاب وهو من الأبرار ، أو دون الصديق ، وهو من الأطهار ، أو دون على ، وهو من الأشداء الأبدال ، لا يستطيع أحد أن يسأل لم اختيار دون هؤلاء أو غيرهم ، لأن هذه الصفات الخلقية والجسمية لم تكن لأحد من هؤلاء ، ولا من غيرهم ، ولم يكن ذلك الاشرار المتألهى الوضاء فى واحد منهم ولا من غيرهم ، ولم يعرف لأحد من الناس الا أكمل الأخلاق محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) .

وإذا كانت تلك الصفات ، وما آتاه الله تعالى من فضل ، وما اختصه من رحمة هى التى جعلته مستأهلا لأن يحمل أمانة الرسالة دون غيره ، فإنها تكون مقدمة للرسالة ، ولا تكون نتيجة لها ، والمقدمة بمقتضى المنطق والعقل تسبق النتيجة ، وتمهد لها ، والتمهيد لا يكون بعد المقصد ، بل أنه يرشح له ، وينيره ، ويهdy إليه .

وقد يقول قائل : أنك فى سبيل بيان صفاته الكريمة قد أثيت بأخبار عنها من بعد بعثه ، واستشهدت له بعد إرساله رحمة للعالمين ، وبذلك تقع فيما خالفته ، وهو أنك ذكرت الصفات بعد البعثة ، وموضعها قبلها على ما ذكرت من منطق !!

ونقول فى الاجابة عن ذلك : « اننا استعنا بالأخبار التى وردت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الرسالة لأنها وضحت صفاته قبل الرسالة ، ولأنها ذكرها من شاهد وعين من بعد الرسالة ، وهذه الصفات التى عاينها الذين آمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، صفات ذاتية ، لم تجيء بالرسالة ، ولكنها كانت قائمة بذاته الطاهرة من قبلها ، فما وصفه الجسدى حادثا بعد الرسالة ، ولكنه كان من قبلها ، واستمر بعدها ، وما كان ما اتصف به من الأمانة والصدق ، والعفة ، والحلم ، والعفو ، بأخلاق عرضت له ، ولكنها كانت ككل الملكات الذاتية لا تكون عارضة ، ولكن تكون مستكنة تامة ، وإن أخبار النبى عليه الصلاة والسلام ما كانت لتقوم عليها البينات النيرة الواضحة قبل الرسالة ، وهو لم يكن له أصحاب يتبعون سيرته ، ويدونون خليقته ، ويهتدون بما كان عليه ، وما كان من الممكن أن يتكشف للناس أمر هذه السجيا إلا بعد أن يختلط بهم ، ويتقدم للدعوة لربه ، ويلتقى بالقبائل ، ويقرب المرافقين ويدينهم ، ويوجههم ويهديهم ويصبر للمخالفين ، ولا يلاحقهم ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويوطئ أكنافه لهم ، وهو ليس فظا ولا غليظ القلب ، فالأخبار التى استشهدنا بها لاثبات صفاته ، وما كان عليه من خلق ذاتى ، ما كانت الرسالة منشئة لها ، ولكنها كاشفة الغطاء عنها معرفة لها ، وهى ذاتية قد هيأته لأن يكون المبعوث رحمة للعالمين ، « يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

## البشارات بالنبى المنتظر

١٦٨ — كان العالم يموج بفتن مادية ، فالحرب كانت قائمة على قدم وساق بين الفرس والرومان ، ومن قبل عصر نبوة عيسى انسابت الجيوش اليونانية بقيادة الاسكندر المقدونى وراء فارس ، حتى وصلت الى الصين ، وقد كان العصر من بعد عيسى عصر الاضطهاد الدينى ، اضطهد النصارى ابتداء ، ومكث اضطهادهم زهاء ثلاثة قرون لقوا فيها من الرومان واليهود أشد ما يلاقى ذو اعتقاد فى اعتقاده ، وذو إيمان فى إيمانه ، حتى ان نيرون أحد امبراطرة الرومان كان يطليهم بالقار ، ويشعل النار فيهم ، ويسير فى مركبه تحيط به تلك المشاعل الانسانية لهؤلاء المؤمنين الصادقين فى إيمانهم الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، وقبلوا العذاب الهون ، وتوقصوه ، ورفضوا أن يغيروا فى سبيل دنيا يصيبونها ، أو دفع عذاب ليتقوه .

وكانت مصر من أول البلاد التى دخلت فى النصرانية الأولى ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ، ولذلك كانوا أشد البلاد تعرضا لأذى الرومان الذى كان سلطانهم مفروضا عليها وعلى الشام ، وجاء اليهم العذاب الشديد فى عهد

دقلدياتوس ، وذبحت فيهم مذابح سجلها التاريخ ، وأرخ بها التاريخ القبطى مسجلا تلك المذابح ، يذكر الرومان بما يعود عليهم بالخزى والعار ، ويذكر المصريين الأولين بالافتخار ، ويذكر المتأخرين من الأقباط بالاعتبار .

ولما دخل قسطنطين امبراطور روما فى النصرانية فى الثلث الأول من القرن الرابع كان ذلك سبيلا لسيطرة الانحراف فيها ، وانتقل الاضطهاد من النصارى الى اليهود ، فأذيقوا من العذاب أكثسا ، وشربوا منه ، ثم جاء من بعد ذلك لون آخر من الاضطهاد ، ذلك أن كنيسة روما خالفت كنيسة مصر فى بعض جزئيات عقائد النصرانية بعد أن انحرفت من الوحدانية الى التثليث انقلب الاضطهاد الى داخل النصارى أنفسهم ، فكان منهم الملكانيون الذين تتمثل فيهم عقيدة روما ، واليعقوبيون الذين تتمثل فيهم عقيدة المصريين .

وكان ذلك الاضطراب فى العقيدة النصرانية التى حرقت ، ثم انتهأه الى أمر غير معقول فى ذاته ، من قيل ان المسيح ابن الله ، وأنه نزل الى السموات العلا حيث الله أبوه ، وتجسد الى الأرض لتغفر خطيئة آدم لعصيانه ربه وأكله من الشجرة ، فكان غريبا أن يكون تكفيرا للمعصية الأولى بالأكل بمعصية أشد وأوغل ، وهو قتلهم ولد الله فى زعمهم ، والعقل لا يعلم ولا يدرك أن معصية أشد فى حق الله تكون تكفيرا لمعصية أقل ، بل خطأ جاء تضليلا من عدو أثيم .

ومن غرائب تلك العقيدة أنها تحاول الجمع بين الوحدانية والتثليث فيصعب التصوير ، ولكن مع ذلك يصدقون على ريب من مفكريهم ، وتسليم من عوامهم .

١٦٩ — والعرب كانوا فى حيرة أشد ، وان كانت حياتهم لا تمكنهم من التأملات فى العقائد ، ولعلمهم لو تأملوا ، ولم يغلب الاتباع ، وقولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون » لكانوا قادرين على الوصول الى الصواب ، أو على الأقل منهم من يصل ، كما فعل الحنفاء ، وانهم كانوا قبل البعث عددا محدودا .

لقد كانت حياتهم مضطربة بين توحيد جزئى ، ووثنية جانبية ، لقد كانوا يتبعون ابراهيم ، ويعتقدون أن الله وحده هو خالق الكون ومنشئه ومدبره ، فاعترفوا بذلك بوحدانية الخلق والتكوين ، ولكن مع ذلك أشركوا معه فى العبادة أحجارا لا تنفع ولا تضر ، يزعمون أن العبادة لها تجعل منها شفعاء يشفعون .



ثم كانت البشائر بأن نبيا سيبعث كان يتردد فى البلاد العربية ، كان  
يجرى على السنة بعض العرب ، كما يروى عن قس بن ساعدة الايادى انه  
ذكر فى احدى خطبه أن نبيا قد أدركهم زمانه ، وأن أوانه •

وان البلاد العربية ، وخصوصا الحجاز كانت يتجاوب فيها ذكر احتمال  
رسول مبعوث ، تذاكره كثيرون ممن كانت لهم دراسات للديانات ، مثل  
ما جاء على لسان قس بن ساعدة الأنف الذكر ، ولعله يومئ الى أن له صلة  
بالنصرانية وخصوصا أنه ثبت فى القرآن ، أن التبشير بالنبي محمد الأمى  
عليه الصلاة والسلام مذكور فى التوراة والانجيل ، كما قال الله تعالى :  
« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة  
والانجيل » •

وقال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء  
بيتهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم  
من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل » •

وقال تعالى : « واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم  
جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أقررتم وأخذتم  
على ذلكم اصرى ، قالوا اقررتنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » •

وقال تعالى فى بشارة عيسى عليه السلام بمحمد النبى الأمين ( صلى  
الله تعالى عليه وسلم ) : « واذا قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول  
الله اليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة ، ومبشرا برسول ياتى من بعدى  
اسمه أحمد » •

وهكذا نجد النصوص القرآنية الكثيرة التى جاء فيها أن محمدا عليه  
الصلاة والسلام ذكر فى التوراة والانجيل ، وقد أشرنا الى ذكره فى كل  
الديانات القديمة قبل تحريفها ، حتى البراهمة والزرادشية قبل التغيير والتبديل  
فيها •

• ويهمنى أن نعرف ذكر التوراة لمحمد عليه الصلاة والسلام •

• ١٧ — وقد وجدنا النصوص فى التوراة حتى بعد تحريفها ، وبعد  
أن نسوا حظا مما ذكروا به تومئ أو تشير بأشارة واضحة تكاد تكون عبارة  
لا اشارة — مبشرة بنبى الله تعالى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ،  
واليك ذلك النص الذى يكاد يكون صريحا ، ولكنه نص فى دلالته ، سواء أكان  
بالاشارة أم بالعبارة :

« جاء الله من سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران ( أى مكة المكرمة ) وقد فسر ابن ظفر من كتاب المسلمين فى السيرة الطاهرة ، معنى النص فقال مجيئه من سينا تكليمه لموسى ، وأشراقه من ساعير - وهى جبال فلسطين انزاله الانجيل على عيسى ، وبالقرب من هذه الجبال قرية الناصرة ، حيث ولد عيسى عليه الصلاة والسلام ، واستعلن من جبال فاران وهى جبال مكة ، انزال القرآن (١) » .

ونرى من هذا أن الرموز كانت للأماكن ، وبتبيين الرسل الذين بعثوا فيها ، ومجيء الرب بالبداية هو مجيء رسالاته ، فان الله تعالى لا ينزل بذاته انما تنزل هدايته ، ويجيء أمره ونهيه على السنة رسله ، وقد ذكرت أماكن ثلاثة هى سينا ، وقد جاء من طريقها كلم الله تعالى موسى عليه السلام ومجيء رساله الله تعالى الى فلسطين حيث ولد سيدنا عيسى عليه السلام بالناصرة ، ومن فلسطين أنبعث نور رسالته عليه السلام ، ومجيء رسالة الله من فاران حيث مكة المكرمة زاد الله تعالى نبيها تشريفا وتعظيما ، كانت هى ما نزل على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول صاحب كتاب خير البشر فى بيان تبشير التوراة بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام :

قرأت فى ترجمة للتوراة لموسى عليه السلام ، جاء فيه ، والله ربك مقيم نبيا من أخوتك ، فاستمع له كالذى سمعت ربك فى حوريب يوم الاجتماع حين قلت : « لا أعود أسمع صوت الله ربى لئلا أموت ، فقال الله تعالى لى . نعم ما قالوا . وسألتهم لهم نبيا من أخوتهم ، واجعل كلامى فى فمه ، فيقول لكم كل شيء ، أمره به وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمى فانى أنتقم منه » .

ونلاحظ هنا أنه ذكر أن الرسول سيكون من أخوة بنى اسرائيل ، لامنهم ، ولا تكون هذه الأخوة الا من بنى اسماعيل ، أخى اسحاق الأكبر ، فان هؤلاء هم الذين يقال لهم أخوة ، وعيسى ومن قبله داود ، وسليمان وغيرهما ، لا يقال لهم أخوة بنى اسرائيل انما يقال عنهم أبناء اسرائيل ، لأنهم من يعقوب بن اسحاق ، ويقول صاحب كتاب ، خير البشر « قوله أجعل كلامى فى فمه ، واضح فى أن المقصود به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،

---

(١) خبر البشر ، لابن ظفر ص ٩ .

لأن معناه أن الله تعالى يوحى إليه بكلامه (أى الله) فينطق به ، أى يوحى إليه بالقرآن فينطق به « (١) » .

١٧١ — وإذا كانت هذه الاشارات الواضحة فى التوراة ، فان فى الانجيل مثلها ، بل ما هو أكثر وضوحا منها ، فقد ورد التبشير ، البارقليط فى الانجيل ، وان الترجمة الحرفية لهذه الكلمة العبرية هى أحمد ، فهو مطابقة من حيث المعنى التبشير بأحمد ، وقد جاء القرآن الكريم بالذى بشر به عيسى عليه السلام اسمه أحمد ، اذ قال سبحانه : « ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » وقد جاء فى الاناجيل على لسان عيسى عليه السلام : « ان أحببتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا اطلب الى أبى فيعطيك بارقليط آخر يكون معكم الدهر كله » .

فهذا النص يبين أن الله تعالى سيبعث من بعده رسولا هو أحمد ، يقوم بتبليغ رسالة ربه ، كما يقوم عيسى عليه السلام ، وأن شريعته باقية مع الدهر ، أى أنها خالدة لا شريعة بعدها ، وأن صاحبها هو خاتم النبيين .

والتعبير بالأب من تحريف النصرانى لمعنى الله بعد أن غيروا وبدلوا فهو مأخوذ من الانجيل بعد أن حرفت الديانة عن موضعها ، ومع ذلك فان كثيرين كانوا يفسرون البنوة بأنها بنوة النعمة والمحبة ، كما يقول اليهود « نحن أبناء الله وأحبؤه » .

وقد جاء فى الأناجيل بعد تحريف الديانة النصرانية « ان هذا القول الذى سمعتموه ليس هو لى بل للأب الذى أرسلنى لكم بهذا ، وأنا معكم ، فأما البارقليط روح القدس الذى يرسل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شيء ، ويذكركم جميع ما أقول لكم » .

ولعل الغرابة فى أن تسمى رسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام أنها باسم المسيح ، وأنها محرفة بلا ريب ، ومهما يكن فليس المراد بالاسمية أن تكون دعوة محمد صلى الله عليه وسلم صورة كاملة لدعوة المسيح ، انما المراد الموافقة فيما يكون دعوة للمسيح بالوحدانية ، وأن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، هى ما كان يدعو اليه ، وما يتفق مع قوله ، كما قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ، ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه » ،

(١) راجع السيرة العطرة — للأستاذ عبد العزيز خير الدين ، وخير البشر لابن ظفر ص ١١ .

كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » وروى أن عيسى عليه السلام قال فى البارقليط الذى أرسل اليكم من عند أبى روح الحق الذى يخرج من الأب فهو يشهد لى ، وأنتم تشهدون لى أيضا لكيونتمكم معنى من أول أمرى » وهذا صريح فى أن محمدا عليه الصلاة والسلام يشهد الكتاب الذى أنزل عليه وهو القرآن بأنه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل ، وقد سمي القرآن بحق روح الحق ، وقد سمي كذلك كما قال الله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا (١) » •

وجاء فى الأناجيل أيضا : « البارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه يسمع ما يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب (٢) » •

وان فى هذا النص وصفا للنبي عليه الصلاة والسلام بعينه من بين الرسل ، وذلك الوصف هو قوله : « ويسوسهم بالحق ، ولاشك أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لم تقتصر على بيان الحقائق الالهية التى بعث بها عليه الصلاة والسلام ، بل ساس الناس لتطبيقها ، فأنشأ دولة ، وطبق النظم القرآنية تطبيقا دقيقا سليما ، وان هذه صفة كاملة لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعمله •

وان كلمة البارقليط التى جاءت فى هذه النصوص قال علماء العبرية ان ترجمتها الحرفية كما أسلفنا أحمد ، وهى فى معناها الذى يعرف السر ، والحكمة ، وهو قد بلغ أقصى الحمد لهذا •

١٧٢ — ولقد نقل بعض الكتاب الفضلاء (٣) عبارات من كتب العهد القديم ، عن الزبور ، الذى جاء به داود عليه السلام ، وأشعيا ، وشمعون ، وحزقيال •

(١) ومما جاء فى مزامير داود « اللهم اجعل جاعل السنة يحيا » •

وجاء فيه ، « انه اذا جاءت الرحمة على شفقتك من أجل ذلك أبارك عليك الى الأبد ، فتقلد السيف ، فان بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق ، فان شرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، والأمم يخرون تحتك » •

(١) راجع السيرة العطرة ونهاية الأرب ج ١٦ ص ١١٠ ، وخير البشر •

(٢) نهاية الأرب ، والسيرة العطرة •

(٣) هو ابن ظفر فى كتابه خير البشر — ص ١٤ ، ٩٦ •

ولاشك أن دلالة هذه النصوص على التبشير بمحمد عليه الصلاة والسلام وليست هذه الإشارة بيّنة ، كبيانها في النقول السابقة عن توراة موسى ، وانجيل عيسى عليهما السلام ، ولكنها قد تدل بالافتضاء ، لا بالإشارة المجردة ، لأن الذى أحيا السنة وهى عبادة الله تعالى وحده ، اذ هى الطريقة القويمة هو محمد عليه الصلاة والسلام ، بعد أن حرفت النصرانية ، الى انحراف التثليث .

وفى النص كانت الدلالة بالتضمنين أيضا ، اذ وصف فيه من يباركه الله تعالى بأن شريعته تقرن بهيئة يمينه ، وان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام تأمر بدفع الباطل بما تحمله اليمين وهو السيف ، ولم تكن شريعة عيسى عليه السلام كذلك ، انما كان يغلب التسامح ، ولم يحمل سيفاً ، ولم يدع الحواريين الى حمل السيف ، بل الذى حمل السيف نبي الله داوود ، ووضع الباطل تحت الأقدام ، وخر الجبابرة تحت الشريعة الاسلامية فى عهده ، وعهد الحواريين من أصحابه هو محمد عليه الصلاة والسلام .

ولقد جاء فى الزبور عبارة لعلها أصرح من هذه العبارة فى سلطان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا نصها « فاذا جاز من البحر الى البحر ، ومن عند الأنهار الى منقطع البر ، وخر أهل الجزائر على وجوههم كبهم ولحس أعداؤه التراب ، وجاءته الملوك بالقرايين ، ودانت له الأمم بالطاعة ، لأنه يخلص الضعيف المغلوب البائس ، ويقوى الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرحم المساكين ، ويصلى ، ويبارك عليه فى كل وقت ، ويدوم ذكره الى الأبد » .

وقد كان ذلك الكلام عن رجل يجىء فى المستقبل ولا شك أن هذه الأعمال لم يعملها من داوود وسليمان الا محمد سيد البشر عليه الصلاة والسلام ، فهو ذكر هنا عليه الصلاة والسلام بالوصف ، لا بالاسم كما جاء فى الانجيل .

١٧٣ — وجاء فى كتاب أشعيا عليه السلام قوله : « عبدى الذى سرت به نفسى أنزل عليه وحى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العمور ، والأذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطى أحدا مشقح (١) بحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض تفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكررونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل الى الهوى ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبه الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، على كتفيه علامة النبوة » .

---

(١) المشقح فى بنية العبرانيين الحمد .

ويلاحظ على هذه البشارة أن الوصف فيها يكاد يكون عينيا ، لا فى شريعته فقط بل فى أخلاقه وسيرته عليه الصلاة والسلام ، فهو يذكر أعمال النبى عليه الصلاة والسلام ، وسجاياه ، كأنه رآها ، ثم يصف جسمه فيذكر علامة النبوة بين كتفيه ، وهو خاتم النبوة الذى ذكرناه آنفا •

ثم هو يذكر الاسم النبوى بما يقرب من البارقليط ، فهو يقول مشقح ، ومعناها محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أن معنى البارقليط أحمد وكلاهما من أسمائه عليه الصلاة والسلام •

وجاء فى كتاب شمعون « جاء الله تعالى بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته •

وهنا تعيين له بالمكان ، فجبال فاران هى جبال مكة ، ولم يكن بعد إبراهيم فى مكة المكرمة وبين جبالها سوى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو تعريف ليس بالاسم ولا بالوصف ، ولكن بتعريف المكان • « ما كان يروج بين العرب من أخبار نبى يرسل » •

١٧٤ — راجت فى البلاد العربية ، وخصوصا حول مكة المكرمة والمدينة المنورة أقوال تذكر أن نبيا يبعث فى هذا الزمان ، وروج ذلك النصارى الذين كانوا منيئين فى الجزيرة العربية ، ويقيم كثيرون منها فى أطرافها ، وكانوا يتناقلونها من الشام فى رحلتهم اليها تجارا ، اذ يرون الرهبان منبئين فى الأديرة ، ويلتقون بهم الفينة بعد الفينة •

واليهود فى المدينة كانوا يذكرون ذلك متحدين به الوثنيين الذين يجاورونهم ، وكانوا يستفتحون به المشركين ، زاعمين أنه سينصره عليهم ، ويؤيد دينهم الذى يذكرون ذلك أخذه من اشارات كتبهم • التى كانت مفسرة عندهم ، حتى صارت علما توارثوه عن أسلافهم ، وهو فى مطوى التركة التى أخذوها عنهم ، ومع أن اليهود عرفوا بأنهم يكتمون ما أنزل الله تعالى عليهم ، ليكون العلم حكرا عليهم ، ويمكنهم من أن يكذبوا على الناس مدعين أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه ، مع هذا يتناثر من أقوالهم ما يدل على أن نبيا من أبناء عمهم اسماعيل عليه السلام سيبعث •

وإذا كانت الأثرة هى التى حملتهم على كتمان ما أنزل الله تعالى عن غيرهم ، فالأثرة أيضا هى التى حملتهم على التحدث بخبر النبى المنتظر المكتوب عندهم فى التوراة ، لأنهم كانوا فى حرب مع الأوس والخزرج الذين يجاورونهم ، فكانوا يذكرون أمر النبى لهم ، لا ليعلموا الحقائق ، ولكن ليتغلبوا عليهم بما يسمى فى عصرنا الحرب النفسية التى تقارن الحرب المادية ،

لينالوا الفوز والغلب ، وليتم لهم التعالى عليهم ، وعلان الاستهانة بهم  
ولانذارهم بأن المستقبل معهم ، وفى ذلك ابقاء بالربح .

وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذكرهم لمن كانوا يجاورونهم أمر النبى  
المنتظر ، فقال الله تعالى : « وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ، فلما  
جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعة الله على الكافرين ، بسما اشتروا به أنفسهم  
أن يكفروا بما أنزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباعوا بغضب  
على غضب ، وللكافرين عذاب مهين » .

ولقد كانت نجران مملوءة بالنصارى ، ويظهر أنهم لم يكونوا كنصارى  
أوربا فى الماضى أو الحاضر ، بل كانت فيهم بقية من نصرانية المسيح ، ولقد  
كانوا بعد البعث المسمى أقرب الى المسلمين من اليهود والمشرى ، فقد قال  
تعالى فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا  
ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم  
قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى  
أعيثهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا ، فاكتبنا مع  
الشاهدين ، ومالنا لا تؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا  
ربنا مع القوم الصالحين » .

كان ينبعث من بين هؤلاء صوت قوى يخبر بأن نبيا قد آن أوانه ،  
والناس يعيشون فى زمانه ، ويظهر أنهم كانوا من بقايا الموحدين الذين  
لم يثلثوا ، فانه على تعاقب الأزمان كان ثمة موحدون ، وأن كانوا قرنا بعد  
قرن ، أن عبارات القرآن الكريم تنبئ عن ذلك فى قصة النصارى الذين حكم  
سبحانه بأنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجوار العداوة المستحكمة التى  
أعلنها المشركون ، واليهود الذين كانوا أعداء للناس جميعا .

وانه ليروى التاريخ فى أخباره المتضافرة ، والسيرة الطيبة الطاهرة ،  
أنه لما كان اضطهاد المشركين للمؤمنين عقب مجاهرة النبى عليه الصلاة  
والسلام بدعوة الحق كانت الهجرة الى الحبشة . وقد لقى المسلمون ترحابا ،  
واكراما من ملكهم :

ولقد ثبت أن النجاشى ملكهم كان موحدا ، وأنه يرى فى عيسى ابن مريم  
وأمه ، ما نص عليه القرآن الكريم ، وأنهما لم يكونا الهين من دون الله .

١٧٥ — ولقد سرت فكرة التنبؤ برسول قريب زمانه الى قريش  
وما حول مكة المكرمة ، ولقد وجد أربعة من قريش أنكروا تأثيرا الأوثان  
بالنفع والضرر ، واستنكروا عبادتها وثبت أن هؤلاء الأربعة ، منهم ورقة  
ابن نوفل وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

وقد خلصوا نجيا من عبادة الأوثان ، وقد قال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ، ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شيء » •

وقد دخل المسيحية اثنان منهم هما ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث وقد قصد الى قيصر فتنصر ، وكانت له منزلة حسنة عنده •

وأما عبد الله بن ججش ، فقد بقى محيراً ملتبساً عليه ، حتى جاء الاسلام •

وزيد بن عمرو بن نفيل برم بمكة المكرمة وأهلها ، وأخذ يتنقل في بلاد العرب متعرفاً دين إبراهيم ، وأخيراً أخذ ينتظر النبي كما أخبره بعض النصارى ، وفي سيرة ابن هشام ما نصه :

« خرج ( أي زيد بن عمرو ) يطلب دين إبراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأخبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام كله ، حتى انتهى الى راهب بميعة من أرض البلقاء (١) كان ينتهي اليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون ، فسأل عن الحنيفة ، دين إبراهيم ، فقال انك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أطل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفة ، فالحق بها ، فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه ، وقد كان شام اليهودية والنصرانية ، فلم يرض شيئاً منهما ، فخرج سريعا حين قال له الراهب ما قال يريد مكة المكرمة ، حتى اذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه •

وقد رثاه رفيقه ورقة بن نوفل (٢) بقصيدة جاء فيها :

رشدت وأنعمت ابن عمرو انما تجنبت تنورا من النار حاميا  
يدنيك ريا ليس ريا كمثلته وتركك أوثان الطواغي كما هيا  
وادراكك السدين طلبت ولم تك عن توحيد ربك ساهيا  
فأصبحت في دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيا

---

(١) الميعة : المرتفع من الأرض ، والبلقاء كورة بجوار دمشق •

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٢ •



هذا بعض رثاء ورقة بن نوفل فى القصيدة المنسوبة اليه فى أصح الروايات ، وهى تدل على أن ورقة وصاحبه كانا مع انكارهما للوثنية يؤمنان بالبعث ويوم القيامة •

١٧٦ — وان ورقة بعد أن دخل فى النصرانية ، وعلم علمها ، وأسرار كتبها ، ودرس الأديان ، ووازن بين حقائقها كان يعرف أن الزمان الذى كان يعيش فيه هو زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه حكم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو النبى المنتظر ، واستبطاً ظهوره •

• وقد روى فى ذلك ابن اسحاق أن خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة ابن نوفل الذى كان نصرانيا وكان قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطورا الذى ذكر أن أوصاف النبى عليه الصلاة والسلام تبين أنه النبى المنتظر ، فقال لها ورقة لئن كان هذا حقا يا خديجة ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كان لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه ، فجعل ورقة يستبطىء الأمر ، ويقول : حتى متى •

وقد قال فى ذلك قصيدة جاء فيها :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا لهم طالما ما بعث النشيجا  
ووصف من خديجة بعد وصف فقد طال أنتظارى يا خديجا  
سطن المكتين على رجائى حديثك أن أرى منه خروجا  
ويظهر فى البلاد ضياء نور يقوم به البرية أن تموجا  
فيلقى من يحاربه خسارا ويلقى من يسأله فلوجا  
فياليتنى اذا ما كان ذاكم شهدت وكنت أولهم ولوجا (١)

هذا كلام ورقة عندما خبرته ابنة عمه خديجة عن حال محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ، وكان ذلك عقب اخبار ميسرة غلامها عندما صاحبه فى رحلته الى الشام فى التجارة فى مال خديجة ، وكان ذلك قبل ان يتم الزواج بينهما ، بل كان والزواج يساور فكرتها ؛ ولم يمتد الى تفكيره هو الا من بعد ذلك •

(١) البداية والنهاية ج ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ •

## علم النبوة عند سلمان الفارسي قبل أن يلقي :

١٧٧ — وان ما تضافرت الصحاح عليه فى قصة اسلام سلمان الفارسي ، وكيف علم بأمر بعث النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يلقاه ، وكان أن لقيه لا غاية له الا أن يعرفه بالأوصاف التى ذكرت له قبل أن يلقاه ، بل قبل أن يبعث صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخلاصة القصة كما جاءت فى الصحاح أن سلمان رضى الله تبارك وتعالى عنه كان فارسيا من أهالى أصبهان ، وكان أبوه دهقان القرية ، وكان أثيرا عند أبيه حريصا عليه ، وقد درس المجوسية حتى كان خادما نارها الذى يوقدها ، ولا يتركها ، وكان أبوه ذا ضيعة عظيمة . . . ويقول رضى الله عنه : « فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري ما أمر الناس ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبته صلاتهم ، ورغبت فى أمرهم ، وقلت هذا والله خير من الدين الذى نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى ، فلم أذهب إليها ثم قلت لهم أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت الى أبى وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال لى بنى أين كنت . فقلت له يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيته من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس . قال . يا بنى ، ليس فى ذلك الدين خير ، ودينك ودين آبائك خير منه ، قلت له كلا والله انه لخير من ديننا . قال فخافنى فى رجلى قيذا ، ثم حبسنى فى بيته » ويظهر أن سلمان استطاع أن يخلص نجيا من قيده ، فقد قال : « بعثت الى النصارى ، فقلت لهم اذا قدم عليكم ركب من الشام ، تجار من النصارى ، فأخبرونى بهم اذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة الى بلادهم فأذنونى بهم ، فلما أرادوا الرجعة ألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم ، حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت من أفضل أهل الدين علما ؟ قالوا الأسقف فى الكنيسة . فجئت اليه فقلت له انى قد رغبت فى هذا الدين فأحببت أن أكون معك ، أخدمك فى كنيستك وأتعلم منك وأصلى معك فدخلت ويذكر سلمان أنه كان رجل سوء يأمر بالصدقة ويرغب فيها ، ثم يكتنز ما يجمعه لنفسه ولا يعطيه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من الذهب ، وأنه ييغضه بغضا شديدا لصنعه ، ولما مات واجتمع النصارى ليدفنوه ذكر لهم سلمان ما صنع ، ودلهم على مكان كنزه ، فصلبوه ، ورموه بالحجارة . »

انتقل من بعد ذلك سلمان الى خدمة أسقف صالح ، كان يداب على

(١) الدهقان هو شيخها العارف بأمورها وأمور زراعتها .

العبادة ليلا ونهارا ، فأقام معه زمنا طويلا ، ولما حضرته الوفاة استوصاه سلمان وقال له : « الى من توصى بى ، وبم تأمرنى ؟ قال بنى والله ما أعلم أحدا على ما كنت عليه فقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجلا بالموصل فالحق به » .

لحق سلمان بصاحبه بالموصل ، فوجده على خير عظيم ، ولما حضرته الوفاة قال له : « الى من توصى بى وبم تأمرنى : قال : يا بنى والله ما أعلم رجلا على ما كنا عليه الا رجلا بنصيبين (١) » .

ولما ذهب الى رجل نصيبين وحضرته الوفاة دله على رجل بعمورية سافر اليه ، ووجده خير رجل وأقام عنده خير اقامة ، واتجه الى الاكتساب فاكسب بقرات وغنما ، ولما حضرته الوفاة قال له بمن توصى بى وبم تأمرنى . « فقال أى بنى ، والله ما أعلم أحدا أصلح على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك أن تأمنه ولكنه أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة الى أرض بين حرتين (٢) بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فأفعل » .

وقد شد سلمان رحيله الى وادى القرى ، ثم الى المدينة ، اذ مر به نفر من تجار كلب ، فقال لهم احملونى الى أرض العرب ، وأعطيكم بقراتى وغنيمتى هذه ، فرضوا بهذه الصفقة ، ولكنهم مكروا به وغدروا فما ان بلغوا به وادى القرى حتى ظلموه ، وباعوه على أنه عبد من رجل يهودى ، ولكنه أسلم نفسه لربه الذى طوف فى الآفاق يبتغى الدين الحق الذى يريد أن يعبد الله تعالى على مقتضى شريعته ، وترك العيش الرافغ فى ظل أبيه ، وسار فى المهامه والقفار طالبا الهداية .

رأى النخلات التى وصفها له أسقف عمورية ، وفرح اذ بيع من اليهودى الذى اشتراه الى عم له من بنى قريظة ، فحمله الى المدينة .

وفى هذه الأثناء حيث كان يقيم هو بالمدينة كان محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه الله تعالى نبيا ، وما كان يعلم سلمان رضى الله تعالى عنه من أمر ذلك شيئا ، لأنه شغله الرق عن أن يتتبع أخبار من بشرت به الكتب ، ونقله الأساقفة ، وتحدث به الرهبان .

---

(١) مدينة فى طريق القوافل من الموصل الى الشام .  
(٢) الحرة أرض ذات حجارة سود من أثر احتراق بركانى .

وقد هاجر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينما هو فى رأس عذق (١) لما لكه يعمل به بعض العمل ، اذ أقبل ابن عم لهذا المالك ، فوقف عليه يسب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، ويقول : « والله انهم الآن لاجتمعون بقاء على رجل قدم عليهم من مكة المكرمة اليوم ، يزعمون أنه نبي » (٢) .

ويستمر سلمان فى قصته ، فيذكر أنه أصابته رعدة حماسة للذهاب الى قباء حيث سمع أن المجتمعين بقاء فيهم من يقول انه نبي ، وقد بين له أسقف عمورية أن مهاجر النبي المنتظر سيكون بهذه الأرض ، فأخذ الأهبة ، وذهب الى قباء ومعه مال قليل وهنا يلتقى العيان بالخبر ، لقد أخبر فى غيبة محمد ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) أنه نبي وسلك الفياقى والقفار ليلقاء وهو يعلم بنبئه ، وجرى الحديث بينهما . يختبر به حاله ، لقد رأى المكان ، كما أخبر الأسقف ، ولم يبق الا أن يختبر ، لقد قيل انه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وان بين كتفيه خاتما .

عند اللقاء قال سلمان : « انه قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غريباء ذرو حاجة ، وهذا شيء كان عندى للصدقة ، فرائتكم أحق بها من غيركم » .

لم يأكل منها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لأصحابه كلوا وأمسك يده « وبهذا تبين الوصف الذى علمه من قبل ، وقال سلمان فى نفسه : هذا واحدة » فأراد أن يختبر أيقبل الهدية ليتكامل الوصف .

جمع شيئاً مما يهدى ، وتحول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وجاءه ، وقال له : « انى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمك بها » فأكل منها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأكل معه أصحابه .

قال سلمان فى نفسه هذه الثانية :

وسلمان علم من وصف أسقف عمورية ، أن بين كتفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبوة ، فأراد أن يعرفه ولم يبق الا ذلك ليستوثق من تحقق الخبر مع الخبر .

(١) العذق هو النخلة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٩ .

يقول رضى الله عنه : « سلمت عليه ( أى على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ) ثم استدرت أنظر الى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ، فلما رأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام استديرته عرف أنى أستثبت من شئ ، وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره • فنظرت الى الخاتم فعرفته فأقبلت عليه أقبلته ، وأبكى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تحول ، فتحولت ، فجلست بين يديه » (١) •

كان سلمان فى الرق ، فشغله عن أن يلازم النبى عليه الصلاة والسلام ، حتى انه لم يستطع أن يحضر غزوة بدر ، وأشار عليه النبى من بعد بأن يعقد عقد مكاتبه مع مالك رقبته ، أى يتعهد له بمال أو منفعة يقدمها فى نظير عتقه ، وعاونته الصحابة فى تنفيذ عقده ، وصار من بعد حرا •

١٧٨ — سقنا ذلك الخبر بعد اختصاره ، وهو مع الاختصار طويل ، سقناه لأمرين •

أولهما - كيف يرضى طالب الحق بالتعب فى سبيل طلبه ، هذا شاب صغير يكاد يكون غلاما ، يعيش فى ظل أبيه فى عيش ، رافع ، وهناءة من الرزق يرى كنيسة فيها عباد لا يعبدون النار الذى كان سادنا لها ، فتستويه عبادتهم ، فيتقدم لأبيه برغبته فى أن يكون نصرانيا فيكبله أبوه بالحديد ، فلا ينثنى ، ويجتهد فى أن يفك أغلاله ، ويلحق بهم فيكون له ما يريد ، ثم يحمل نفسه عناء الانتقال من اقليم الى اقليم حتى يصل الى الحق الذى يريده ويصاب بالرق فيصبر ، ولا ينثنى عن غايته ، ويقبل أن يعيش مظلوما فى قيد الرق صابرا محتسبا ، حتى يصل الى غايته ، وهو التقاؤه بمن يطلبه حتى وجده ، وكان العون من الله فى فك رقبته ، انه العابد الصابر حقا ، من يوم فك قيود أبيه ، فقد فك معها قيود عقله ، ونفسه ، وصار ديانا لله سبحانه وتعالى ، لا يبغى الا رضاه ، وإذا كان غادر أباه فقد انتهى الى حضن رسول الحق فاحتضنه هو ، وقال عليه الصلاة والسلام : سلمان منا آل البيت •

الأمر الثانى : وهو الجوهرى فى القضية أن أمر نبى منتظر كان معروفا بين العرب فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو المقصد الأصلى من سوق القصة مع طولها ، فالعرب كانت أسباب العلم برسالة النبى صلى الله عليه وسلم معلومة عندهم علمها طلابها ، والذين صفت نفوسهم وجهلها الأكثرون لعدم الاتجاه الى تعرفها ، ولم يكن عندهم الاتجاه الدينى ليعرفوا ما لم يعرفوا

(١) الكتاب المذكور ص ٢٢٠ •

من شئون الدين فى قابل حياتهم ، حتى جاءهم البشير النذير يقرع بالحجة القاطعة مسامعهم ، ليكون من بعد ذلك العقاب أو الثواب ، قال تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » •

### يهود تخبر عن النبى ( صلى الله عليه وسلم ) المنتظر :

١٧٩ — قد ذكرنا فيما مضى اشارة الى أن اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا من الوثنيين بنبى مرسل يكون لهم ، ويكون على الوثنيين ، ينصر اليهود ، ذكرنا بالاشارة ، ولكن فى هذا المقام لا تغنى الاشارة عن العبارة ، فلا بد من أن نذكر بعض الايضاح ليتبين الباحثون من معرفة أن العصر كانت فيه البيانات الكافية التى تبين أن رسولا من قبل الله تعالى وشيك أن يظهره الله تعالى بينهم مصحوبا بحجته ، مبينا بآياته ودعوته •

• ولم يكن ذكر النبى عليه الصلاة والسلام لمن عاصروه من الأوس والخزرج فقط ، بل كان من قبل أن تقع الحروب بين اليهود وبينهم •

فقد ثبت فى التاريخ أن تبعا أبا كريب اليمنى جاء الى يثرب وأحنقه أن بعض أهلها قتل رجلا من رجاله ، فقاتلهم ، وبينما تبع على ذلك من قاتلهم اذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بنى قريظة ، وهما عالمان بأصول الديانة اليهودية ومصادرها ، والمخبوء من وثائقها ، وقالوا له : •

« أيها الملك لا تفعل ، فانك ان أبييت الا ما تريد ، حيل بينك وبينها ، ولم تأمن عليك العقوبة » فقال لهما : ولم ذلك : قالا : « هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش تكون داره وقراره » (١) •

ولقد كانت أخبار اليهود بنبى يجرى يشيع فى يثرب ، وينتقل الى أهلها طبقة بعد طبقة ، وكان من أسباب مسارعة الأنصار للاستجابة للنبى عليه الصلاة والسلام ، وكان لهم بذلك علم بالكتاب أتى اليهم من اليهود ، وقد ذكر قتادة عن رجال قومه ، والسبب فى مسارعتهم الى اجابة النبى عليه الصلاة والسلام الى النصرة والايمان فقال :

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٦٤ •

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١١ •

« ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله ، وهداة لنا لما كنا نسمع عن رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأوثان ، وكان عندهم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا انه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عاد وارم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أجبناه حين دعانا الى الله تعالى ، وعرفنا مما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم اليه ، فأمننا به وكفروا » (١) .

ولم يكن اليهود يذكرين خبر النبى عليه الصلاة والسلام مقتصرين على الخبر ، بل يذكر مع ذلك الايمان باليوم الآخر ، والجزاء بالنعيم المقيم ، أو بالجحيم ، ويظهر أنهم لم يكونوا من الذين ينكرون البعث ، ففيهم من يصدق به ، ومنهم من يكفر به .

ولقد ذكر ذلك بعض من الأنصار ، وهو سلمة بن سلام ، فقال :

« كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل ، فخرج علينا من بيته ، حتى وقف على بنى عبد الأشهل ؛ فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان . والجنة والنار ، فقالوا له ويحك ، أو ترى هذا كائنا : أن الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيها بأعمالهم !! قال نعم ، والذى يحلف به . . . فقالوا له : ويحك ، فما آية ذلك ! قال نبى مبعوث نحو هذه البلاد ، وأشار بيده الى مكة المكرمة واليمن ، فقالوا ومتى نراه ، قال سلمة فنظر الى وأنا من أحدثهم سنا فقال : « ان يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه » .

قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار ، حتى بعث الله محمدا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وهو حى بين أظهرنا ، فأمننا به ، وكفروا به بغيا وحسدا » .

ولقد عرف بعض اليهود وصف النبى عليه الصلاة والسلام وفيه انه يسبق حلمه جهله ، فهو لا يحمق .

ولقد روى عن عبد الله بن سلام الصحابى انه قال : لما أراد الله تعالى هدى زيد بن سمية ، قال لم يبق شيء من علامات النبوة الا عرفتها فى وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين ، لم أخبرهما منه ،

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١١ .

يسبق حلمه جهله ، ولا تزيد شدة الجهل عليه الا حلما ، فكنت أتلطف له ، لأن أخالطه ، فأعرف حلمه وجهله » فذكر قصة اسلافه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا فى ثمرة • قال فلما حل الأجل أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، وهو فى جنازة مع أصحابه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ، وقلت يا محمد : ألا تقضىنى حقى ، فوالله علمتكم يا بنى عبد المطلب لطل ، فنظر الى عمر ، وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير ، ثم قال : يا عدو الله أقول لرسول الله عليه الصلاة والسلام ما أسمع ، وتفعل ما أرى ، فوالذى بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفى رأسك ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينظر الى عمر فى سكون وتؤدة ، وتبسم ثم قال أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك يا عمر : أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقه وزد عشرين صاعا من تمر ، فأسلم » •

١٨٠ — هذه نقول تاريخية ثابتة تبين أن العصر الذى بعث فيه عليه الصلاة والسلام كان عصرا يدور فيه حول نبي يرسل ، وقد كان لهذا الكلام مصدران :

أولهما — ما كان يحاوله الذين أرادوا احياء دين ابراهيم عليه السلام ، فقد كان بعض من أهل مكة المكرمة يؤمنون بضرورة احياء ملة ابراهيم الحنيفية السمحة ، وقد وجدوا بفطرتهم ان الله لا يدع ذرية ابراهيم بورا لا هادى يهديهم ، ولا مرشد يرشدهم ، وقد رأيت من خرجوا على أقوامهم ، واطمأن بعضهم الى النصرانية فدخلوها ، وبعضهم أخذ يطوف فى الأرض يبحث عن عقائد سليمة لا تدخلها الوثنية ، ومات شهيدا فى طلب الحقيقة ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم من بعد بعثته أن الله تعالى سيبعثه أمة وحده ، فرضى الله تعالى عنه •

ثانيهما — الكتب السابقة ، وأقوال الأخبار والرهبان ، وعلماء الأخبار من اليهود والنصارى ، فبحيرا الراهب كان قد لقي محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) غلاما ، وطبق الأوصاف التى لديه ، ونسطورا الراهب قد لقيه وهو شاب ، وكانت أخبار اللقائين تذيع وتشيع عند العرب ، وفوق ذلك كان نصارى نجران وغيرهم يذكرون للناس ترقبهم لنبي منتظر ، كانت أوصافه لديهم وكان محمد أكثر ذكرا ، لا أنهم يريدون اعلان حقيقة ، أو ابتغاء هداية ، بل شفاء غيظهم ، واطفاء نار حقدهم أو التمدى فيه ، فقد كانوا يعلنون ذلك عندما تحز فى أجسامهم سيوف الوثنيين ، فيذكرون خبره ، ويقولون سنقتلكم معه ، كما قتل عاد وادم •



بهذا انتشر خبر مجيء النبی علیه الصلاة والسلام ، وتوقع المفكرون  
مجيئه وأن زمانه قد حان ، فجاء مصدقا لما بين يديه من الكتب التي لم تحرف ،  
ورحمة للعالمين ، وهاديا للحق ، ونصيرا له ، وقد أيدته الله تعالى بالحجة  
الباهرة •

### أخبار الكهان :

١٨١ — تذكر كتب السيرة أن الكهان قد بشروا بالنبي صلى الله تعالى  
عليه وسلم ، وقد كان في نيتنا أن نعرض عن ذلك الكلام ، لأنه فتح لباب  
الأوهام في سيرة سيد الأنام ، نبي الحق والعقل وبعث المدارك نحو الحقيقة ،  
من غير أن يسيطر عليها وهم ، أو يتغلغل فيها خرافة ليست قائمة على حكم  
العقل ، أو الخبر الصادق المنقول بأسناد صحيحة •

ولأن هذه الأخبار عن الكهان ليست ثابتة بسند صحيح يطمأن اليه ،  
ولأنه لم يثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان يلجأ الى الكهان ،  
أو يطمئن الى أقوالهم ، ولأنه اذا كان الكهان قد قالوا شيئا في البشارة بالنبي  
صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت صادقة ، فان ذلك قد يكونون علموه من  
الكتب السابقة أو أصحابها ، وقد كانوا قبل البعثة علماء العرب ، وربما  
يكونون قد أخذوا يثبتون ما عندهم في شكل الكهانة ، وفي سجع الكهان الذي  
نهى عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد بعثته •

كنا نؤينا ترك الكلام في الكهانة ، لأن الضرر في ذكرها أكبر من  
نفعها •

ولكننا حملنا على الكتابة فيها ٠٠ أولا - لأن بعض كتاب السيرة من  
المحدثين تعرضوا لها مصدقين ، وأن المستشرقين قد اتخذوها ذريعة لربط  
الدعوة المحمدية بالكهان ، وللربط بين القرآن المنزل رحمة للعالمين وسجعهم ،  
ولأن بعض الكتّابيين توهم تبعاً لهم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان  
يديم السماع للكهان قبل البعثة فوجب التصدي •

١٨٢ — ونبتدىء من الكلام في أخبار الكهان بخبر نسب الى سيف  
ابن ذى يزن الحميري ، وقيل انه من هواتف الجان فقد جاء في كتاب  
هواتف الجان ، واليها تنسب كهانة الكهان ، جاء في هذا الكتاب ما نصه

بعد أن التقى بعبد المطلب : « أيهم المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم (١) ؟ قال نعم : قال ابن منى ، فأدناه ثم أقبل عليه وعلى القوم : قال « مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستنما سهلا ، وملكا مرتجلا ، يعطى عطاء جزلا قد سمع الملك مقاتلكم ، وعرب قرابتكم ، قبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء اذا ظعنتم » .

بعد هذا مكثوا شهرا لا يصلون اليه ، ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه انتباهه ، فأرسل الى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال : « يا عبد الله انى مفض اليك من سر علمى ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه ، فأطلعتك طليعة ، فليكن عندك مطويا ، حتى يأذن الله تعالى فيه ، فان الله تعالى بالغ أمره . ابى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا ، واحتجناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ورهطك كافة ولك خاصة » .

فقال عبد المطلب مثلك سر وبر ، فما هو فداؤك أهل لو بر زمرا بعد زمرا

قال سيف بن ذى يزن ساجعا سجع الكهان ا « اذا ولد بتهامة غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الامامة وله به الزعامة الى يوم القيامة » .

قال عبد المطلب - أبيت اللعن - لقد أتيت بخبر ما أب به وافده ، ولولا هيبة الملك واجلاله واعظامه لسألته من بشارته إياى ما ازداد به سرورا .

قال ابن ذى يزن ، : « هذا حينه الذى يولد فيه ، أوقد ولد اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد تاه مرارا ؛ والله باعته جهارا ، وجاعل منا أنصارا يعزيهم أوليائه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس من عرض ، ويستبج بهم كراثهم الأرض ، يكسر الأوثان، ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

قال عبد المطلب عز جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك ، فهذا بخارى ، فهل الملك سار لى بافصاح ، فقد أوضح لى بعض الايضاح .

(١) لأن أم عبد المطلب من بنى النجار وأصلهم من اليمن - الزحل كثير العطاء .

قال ابن ذى يزن « والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النقب ، انك يا عبد المطلب لجدّه غير كذب » •

فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ارفع رأسك ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك •

قال عبد المطلب : كان لى ابن ، وكنت به معجبا ، وعليه رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه ، أمنة بنت وهب •

فجاءت بغلام سمّيته محمدا ، ذات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه •

قال ابن ذى يزن : « ان الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود ، فانهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فانى لست آمن أن تدخل عليهم النفاسة من أن تكون لكم الرئاسة ، فيطلبون الغوائل ، وينصبون له الحبال ، فهم فاعلون أو أبناءهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه ، لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فانى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق أن يثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك اليك عن غير تقصير لمن معك » (١) •

١٨٣ — هذا كتاب ما فيه بلا ريب حق من حيث البشارة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولعله ان صدقت النسبة الى سيف بن ذى يزن يكون مصدره ما وصل اليه من علم ، فقد كان نصرانيا متعرفا ، ولم يكن وثنيا أميا ولا يمكننا أن نقول ان ابن ذى يزن من الكهان ، وان وجد الموضوع فى كتاب هواتف الجان ، ويقال ان الكهان كانوا يخاطبون بهواتف الجان ، ونقول ان فيه سجع الكهان ، وان لم يستفرقه ، بل كان فيه بعضه ، ولعل هذا من صنيع الكهان ، وقد أرادوا أن يجعلوه من الكهان بعبارات السجع فيه أولا ، وجعله فى كتاب هواتف الجان ثانيا •

وفى الواقع ان الحديث كما ذكر ممن له علم بالكتاب وكان مستفيضاً مشهوراً •

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٣٣٠ •

ومن ذلك ما روى بالاسناد الصحيحة عن بعض المضربين قال :

شارفنا الشام ، ونزلنا على غدير به شجرات ، فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال : « ان هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد ، فقلنا نعم : نحن قوم من مضر ، قال من أى مضر ؟ قلنا من خندف • قال أما انه سيبيث وشيكا نبي خاتم النبيين ، فسارعوا اليه ، وخذوا بحظكم منه ترشدوا ، فقلنا ما اسمه ؟ قال اسمه محمد ( صلى الله عليه وسلم ) » (١) •

وانه بلا ريب نرى هذا الخبر الذى سقناه يتلاقى مع خبر ابن دى يزن ، بيد أنه لا سجع فيه ، ولا ينسب الى هواتف الجان بل ينسب لراهب من الرهبان نسبه الى ما عندهم من كتب ، لا الى هواتف من الجان •

١٨٤ — فنحن اذا وجدنا فى عبارات الكهان ما يرمى الى ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس من هواتف الجان ، أو من علم الكهان وليس مصدره الكهانة ، ولكنهم علموه مما جرى على السنة الرهبان ، وما تنطق به كتبهم ؟ وما عرف من علم •

ومن ذلك مثلا قول سطيح الكاهن : اذا كثرت التلاوة ، وخاضت بحيرة ساوة ، وجاء صاحب الهراوة ، مع غيره •

وقال ابن كثير انه يعنى النبي عليه الصلاة والسلام ، ونرى أولا — أن النبي ما جاء بالهراوة بل جاء يرد اعتداء الباطل على الحق بالسيف لا بالهراوة • وثانيا — أنه على فرض أن المراد النبي عليه الصلاة والسلام فذلك مما شاع بين العرب من أنه سيكون نبي منتظر ، وأن أهل الكتاب يذكرونه بينهم خاصة ، ويعلنونه عند الاقتضاء للعامة ؟ سواء فى ذلك اليهود والنصارى وان كان اعلان النصر أوضح وأبين ، واليهود يعلنونه عند الشديدة تنزل بهم فى حروبهم مع الوثنيين ، يعلنون مجيء النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء فى كتبهم تثبيتا لأنفسهم وتخذيلا لخصومهم وتعلقا بالرجاء ، وتشفيا من الأعداء بالمستقبل ، فكان السبق لأعدائهم ، والتخلف لهم ، فكان به المال لغيرهم والحال عليهم ، وهم الأخسرون دائما ان شاء الله •

---

(١) الكتاب المذكور ص ٣٣١ •



والشهور ، وفى كل احواله كان كثير التأمل ، يدرس الخالق من خلقه ،  
والنشىء مما أنشأه •

ولكن كتاب الفرنجة يدعون أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان قبل  
البعثة يتتبع أخبار اليهود ، ويستمع الى ما يتحدث به أحبار اليهود ، ورهبان  
النصارى ، وانهم يرمون بهذا الى أمرين :

أحدهما : اثبات أن محمدا عليه الصلاة والسلام ما وصل الى ترك  
الأوثان الا بتعاليم اليهود والنصارى ، وأنه ما وصل اليها بمنطقة وفطرته ،  
وبقيا ديانة ابراهيم عليه السلام ، وكأنهم يريدون أن يصوروا ما كان دون  
زيد بن نفيل وورقة بن نوفل ، وقد ثبت أنه كان يكره اللات والعزى وهو فى  
الثانية عشرة من عمره ، وقد ثبت ذلك فى أخبار بحيرا الراهب •

وثانيهما : ادعاء أن القرآن الكريم أخذ أخبار النبيين وقصصهم من  
التوراة والانجيل ، وأن العلم بهذا علم تلق ، وليس بوحى من الله تعالى ، مع  
انه من الثابت أن قصص الأنبياء فى القرآن هو الصادق الذى لا يمتري فيه ،  
وغيره فيه الفساد والضلال كخبر سكر لوط ، ومواقعة ابنتيه وكزنى داوود  
بامرأة قائد جيشه فهى أكاذيب ليست فى القرآن الكريم •

وقد تبعهم بعض المغترين بهم من الكتاب عن نية حسنة ، ولم يدركوا  
خبينة نفوسهم ، وخبث تفكيرهم •

الا فليتركهم ، واستنباطهم ، وليتبعوا أخبار النبى عليه الصلاة والسلام  
من كتب السيرة الدقيقة البعيدة عن الأوهام ، وليتركوا اتباع الاستنباط  
الفاسد ، من غير خبر تاريخى يؤيده ، ولا سند صادق يزكيه •

وليعلموا أن النبى عليه الصلاة والسلام كان بعيدا عن الأحبار والرهبان ،  
وما كان يصدق كهانة الكهان ، ونهى بعد البعثة عن الاستماع الى الكهان ،  
وكان يستنكر سجع الكهان ، ويستنكر تصرف من يحاكيهم •

الْبُعْثَةُ الْمَحْمَدِيَّةُ





## التجلى الأعظم

١٨٦ — كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين ملتزما أمرين :

أولهما — أنه لم يكن صاحب لهو ولا عبث ، كان كذلك غلاما ، ثم شاديا ، ثم من بعد ذلك عاكفا زاهدا ، منصرفا عن الناس إلا ما يوجبه حق المجتمع عليه ، من عطاء يقدمه لمحتاج ، أو معاونة لمستعين ، أو اغاثة للمهوف ، أو حمل لكل ، أو قرى لضعيف ، أو صلة لرحم ، وغير ذلك . فكان المحتمل للواجبات ، المعتزل ، الذى يؤثر العزلة عن الاندماج فى غمار الناس ، حتى لا يصيبه شيء مما يخبثون به ، لأنه الطاهر الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكانت حياته الأولى مرشحة لحياته الثانية ، وآية على أنه ذلك الرجل الذى يستنكر المنكر ، ولا يفاحش أو يخاصم أو يجادل آية على أنه الرسول المنتظر ، والنبي المرتقب ، وهو فى أحواله فى اختلائه واجتماعه — الأليف المحبوب ، الذى قدرته قريش كلها حق قدره .

الأمر الثانى — أنه قد اتخذ منسكا ينسك فيه وهو غار حراء ، بعد أن أكثر من العبادة ، والعكوف على عبادة الله ، وقد رأى قريشا يعكفون على أصنام لهم .

وان الظاهر من حال قريش الذين استمروا عبادة الأوثان أنه لم يكن فيهم غير الحنفاء — من يتفكرون فى عبادة ، أو يختلون ليعبدوا أوثانهم ، فان ذلك لم يثبت تاريخيا ، ولم تذكر واقعة له تنبئ عن ذلك ، وان ما يحيط بهم ، مما يثبت من حالهم يدل على أنهم لم يعملوا التفكير فى أمر عبادة ، بل كانوا يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم من غير تفكير ولا تدبر ، ولو أن بعضهم كان يعمد الى الاختلاء والاعتزال لكان كثيرون منهم يخرجون عن عبادة الأوثان الى عبادة الديان ، إذ أن تأملا يسيرا كان يخرجهم من الظلمات الى النور ، ومن ضلال الوثنية الى هداية الوجدانية ، ولكنهم قوم ماديون ، يقولون « أن هي إلا حياقتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » ، ويقولون : « ما يهلكنا إلا الدهر ، وما نحن بمبعوثين » .

واذا كان قد جرى على بعض الأقاليم أن الاختلاء للعبادة كان نسيكا عندهم يعبدون فيه الأوثان وينفردون لذلك ، فانما هو كلام من قوم لا يريدون

بالاسلام الا خبالا ، ولا يريدون بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم علوا ،  
ولا يذكرون فيه قول الحق خالصا ، بل يموهون فيه ويلبسون الحق  
بالباطل .

١٨٧ — كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يجتهد فى العبادة ،  
ومن وقت أن اطمأن الى رزقه ، ونظم تجارته فى مال خديجة بأن يعمل غيره  
تحت اشرافه ، ولم يكن ثمة حاجة الى خروجه بنفسه للتجارة ، فلم يذكر أنه  
خرج بنفسه ، بعد خروجه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

وكلما تقدمت به سن الشباب ازداد نسكا واختلاء وانصرافا عن الملاذ  
والشهوات فى غير تحريم الحلال ، أو ابعاد لطيب من طيبات ، بل كان يأكل  
ويشرب فى غير سرف ولا مخيلة ، كما بين فى شريعته التى أرسل بها رحمة  
للعالمين .

وقد اتخذ لنفسه شهرا من أشهر السنة يختلى فيه بغار حراء ، وكان  
حراء نسكا للعرب فى جاهليتهم ، كما جاء فى البداية والنهاية لابن كثير ، فقد  
قال « وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج الى حراء فى كل عام  
شهرا ينسك فيه ، وكان من نسك قريش فى الجاهلية » (١) أى أنه كان من  
الأماكن التى تعتبرها قريش من النسك فى الجاهلية ، ولعلمهم كانوا يضيفونها  
الى نسك الحج ، وقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم أن هذا خير مكان  
لعبادته ، لأنه لا يطرق طول العام ، ولم يكن كالبيت الحرام ، إذ يطاف بالكعبة  
المشرفة فيه كل يوم ، ويظهر أنه يمضى الزمان قد هجر اتخاذه نسكا ، ولعله  
كان مما أضيف الى مناسك من غير شريعة ابراهيم عليه السلام ، وليس يحث  
هذا ذا جداء فى موضوعنا .

جاءت الصحاح بأنه كان عليه الصلاة والسلام يتحنث ( أى يتعبد على  
الحنيفية السمحة ) الليالى ذوات العدد ، وكان يتخذ دائما شهر رمضان من  
كل عام يتزود لذلك ، ويبتدىء بالذهاب الى البيت الحرام يطوف به ، ويتصدق  
بالصدقات العظيمة ويطعم الطعام ، ثم يذهب الى غار فى جبل حراء ، لم يكن  
فى سفحه ، بل كان أعلى من ذلك . ولا يصل اليه قاصده الا بمرتقى صعب ،  
وليس بالسهل ، وللناظر اليه الآن لا يجد الوصول اليه بغير شق النفس مما يدل  
على أن الله تعالى قد أعطى محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) بسطة

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥

فى الجسم ، وقوة احتمال ، ورغبة صادقة فى العبادة ، لا يقوى عليها الا اولو العزم من العباد .

حتى اذا أتم الشهر وهو رمضان عاد الى بيته ، وقبل أن يأوى اليه يمر بالببيت الحرام ، فيطوف ، ويتصدق بما بقى معه من زاد ، ويطعم الطعام مما بقى له ، ثم يأوى الى خديجة زوجته الطاهرة .

وان السياق فى كل الصباح من أخبار السيرة يستفاد منها أنه كان يتزود بالزاد ، ويذهب منفرداً ليتم له الاعتكاف بعيداً عن الأهل والصحاب ، ولا يكون الا فى حضرة الحبيب الذى لا شريك له وهو الله سبحانه وتعالى .

هذا هو المستفاد من معنى الاختلاء والاعتكاف ، ولأنه كان يصرح بأنه يغدو صادراً عن أهله فى الشهر ، ويعود دائماً الى أهله بعد أن ينقضى الشهر .

ولكن روى عن ابن اسحاق فى سيرته عبارة تفيد أنه كان يذهب الى الغار بأهله ، واليك عبارة ابن اسحاق « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره للكعبة الشريفة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله تعالى من ذلك ، ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله » (١) ، وان هذا الكلام يدل على أن الايحاء . وهو أن الليلة التى كانت فيها البعثة النبوية لم يكن أهله معه ، وفيما قبل ذلك كان يكون أهله معه ، إذ أنه يصرح بأنه كان يخرج لجواره ومعه أهله ، ولكن لا تجد هذه العبارة فى غيرها ما نقله ابن اسحاق بل أن معنى الاختلاء والاعتكاف ربما لا يكون متناسقاً مع وجود أهله معه ، إذ أن الاعتكاف للعبادة يقتضى الابتعاد عن الأهل ، والاتجاه الى الله تعالى وحده .

ولهذا نحن نميل الى رد ما قاله ابن اسحاق ، وان لم يكن ثمة ما يسوغ لنا أن نقول انه ربما كان يذهب مع أهله ولا يبقون معه ، بل يذهبون فى صحبتته ، ثم يتركونه من بعد فى وحدته وعبادته .

---

(١) سيرة ابن هشام نقلا عن ابن اسحاق ج ١ ص ٢٣٦ .

١٨٨ — والآن نسوق الخبر ، كما جاء فى صحيح البخارى وغيره  
من صحاح السنة •

يروى البخارى عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاء الحق وهو فى غار حراء » (١) •

وهذه الرواية التى ساقها البخارى عن حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرب الروايات ، وهى أرجحها وأصدقها ، وهى تدل على أمور ثلاثة :

أولها - أن الوحي جاء اليه وهو فى غار حراء ، ولم يكن معه أهله ، وأنه كان يتزود ، ولم تذكر أنه كان يصاحبه أهله •

وثانيها - أنه كانت تصفو نفسه وروحه ، وتخلص لله •

وثالثها - أن صفاء النفس أدى الى صدق رؤياه •

وهنا يثار أمران :

أولهما - من أى وقت ابتدأت ملازمة الخلوة شهرا من كل عام •

ثانيهما - بأى شئ ابتداء الوحي ، ونزول الروح القدس عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، أكانت مواجهته له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرؤيا الصادقة أم المشاهدة فى الصحو ، لا فى المنام ، لذلك موضع من البيان ، نوجزه ولا نفضله •

أما أولهما - وهو من أى وقت ابتدأت خلوته صلى الله تعالى عليه وسلم • فانا نقول فى ذلك أنه من المتفق عليه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ وهو متجه الى ربه لا يعبد سواه ، وأنه التزم أن يكون عابدا من وقت أن بلغ سنا يدرك فيها معنى العبادة ، ويعرف فيها حق الخالق على المخلوق ، وقد كان يعبد الله تعالى بالتأمل فى خلقه ، والتدبر فى ملكوته واهتدى اليه ، وان لم يهتد ابتداء الى طريق عبادته ، فان ذلك فوق طاقة

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢ •

العقول ، ولابد فيه من المنقول ، وقد أشرنا الى أنه كان يحاول معرفة ديانة ابراهيم التي كانت بقاياها فى البلاد العربية ، وخصوصا فى مكة المكرمة ، حيث بيت الله الحرام الذى هو أول بيت وضع للناس ، وبناء ابراهيم بمكة مباركا هدى للعالمين » فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا » •

ورجحنا فى صدر كلامنا أن يكون قد وصل بالصفاء النفسى ، وربما بالرؤيا الصادقة الى صلاة ابراهيم ، فلا عبادة من غير صلاة ، فما دامت هناك عبادة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، صارت رتيبة له ، فلا بد أن يكون قد اهتدى لصلاة ابراهيم •

وانه اذا كان قد سار فى طريق التأمل والعبادة ، وفى وسط ذلك الديجور المظلم من عبادة الأوثان ، لابد أن يختلى محمد ( صلى الله عليه وسلم ) عنهم لينصرف الى ربه ، ولكيلا يكون فى قلبه غيره ، ولكي يعبد ، كأنه يراه ، وقد وصل بقلبه المشرق الى درجة الاحسان ، فالاختلاء اذن كان أمرا لابد منه ، ليكون لله وحده •

ولكن ذلك النظام الرتيب الذى التزمه ، بأن يعبد الله منفردا بعبادته طول العام ، ثم يختلى خلوة العابد شهرا من كل عام ، هو شهر رمضان ، فى أى وقت ابتداء ؟ الظاهر من عبارات الصحاح من الأخبار أن ذلك لم يكن فقط عام البعث المحمدى ، بل ذلك العام اختتم بأن الحق نزل عليه ، وجاءه روح القدس رسولا من عند ربه ، فلا بد أن يكون قبل ذلك النظام الرتيب ، ونحسب أنه قبله بأعوام ، لا نستطيع أن نحسب بها ، وان كان يتسابق الى عقولنا ، أنها مدة لا تقل عن خمس سنين ، من وقت تمام بناء البيت الحرام ، ووضع الحجر الأسود بيده الكريمة ، « وان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » •

١٨٩ — بقى أن ننظر فى الأمر الثانى ، وهو باى شيء ابتداء الوحي ، لقد قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها « ان الوحي ابتداء بالرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى الرؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح » وان ذلك لا يدل على أن ابتداء أنباء الله تعالى لمحمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كان بالرؤيا الصادقة ، ولكنه يدل على أن ابتداء الاشراف الالهى ، والاتصال الربانى كان بالرؤيا الصادقة ، والرؤيا الصادقة ، وان كانت جزءا من الالهام الالهى ، وليست هى الوحي الذى يقام عليه التكليف بالنسبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من الوحي » فليست هى بالنسبة للنبي عليه الصلاة والسلام هى الوحي ، وان كانت بالنسبة لإبراهيم عليه السلام كانت وحيا كاملا ،

وبالبناء عليها هم بأن يذبح ولده اسماعيل عليه السلام ، حتى فداه رب العالمين ، كما قال تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » فكانت الرؤيا إنباء •

ان المقزر لدى المؤرخين للسيرة الطاهرة أن الوحي ابتداء بخطاب روح القدس جبريل عليه السلام ، ولكن جاء في سيرة ابن اسحاق أن أول خطاب لجبريل لحمد عليه الصلاة والسلام كان برؤيا صادقة في المنام ، ثم صحا يحفظها عليه الصلاة والسلام •

فقد جاء في سيرة ابن هشام : « وجاء جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءني وأنا نائم بنمط (١) من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ • قلت ما اقرأ • قال : ففتني به ، حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال اقرأ فقلت ماذا اقرأ ، ففتني به • حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال اقرأ قال فقلت ماذا اقرأ ما أقول ذلك الا اقتداء لى أن يعود لى بمثل ما صنع بى • فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » قال فقرأتها ، ثم انتهت فانصرف عنى وهبت من نومي ، فكأنما كتبت فى قلبى كتابا ، فخرجت حتى اذا كنت فى وسط الجبل ، سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، فرفعت رأسى الى السماء أنظر فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال فوفقت أنظر اليه ، وما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف عنه وجهى فى أفاق السماء فلا أنظر فى ناحية فيها الا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى ، وما أرجع ورأى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكان ، ورجعوا اليها وأنا فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى • »

وانه لا شك ثمة فرق جوهري فى الخبرين :

١٩٠ — فالخبر الذى جاءت به الصحاح يفيد بأن الالتقاء بالأمين جبريل عليه السلام كانت فى صحو لا فى منام ، والثانى يفيد أن الالتقاء كان فى المنام ، لا فى الصحو ، وأن كانت رؤيا كأنها الصحو ، لأنه بعد أن استفاد من نومه تذكر كل ما قال لم ينس منه حرفا واحدا ، فكان وحيا بلا ريب ، والاختلاف بين الخبرين فى الرواية لا فى أصل المعنى ، فهما متلاقيان غير متخالفين •

ومع هذا التلاقى فى المعنى ، فان هناك ثمة اختلافا فى الواقعة ، وكانت فى نوم ، أم كانت فى يقظة ، وأن الكثيرين من العلماء قالوا ما دام المعنى

---

(١) النمط وعاء •

واحدًا في الروايتين وليستا متعارضتين ، فان التوفيق يكون بتكرار الواقعة ، وقعت في النوم ، ووقعت في اليقظة ، فهي قد ابتدأت اللقاءات بين محمد صلى الله عليه وسلم وروح القدس في المنام ، ثم كانت في اليقظة والمنام ، كان تمهيدا للمجاهرة في اليقظة •

وقد وفق ذلك التوفيق ابن كثير في البداية والنهاية وبناء على أن قول أم المؤمنين في رواية للبخاري أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة ، فقد قال :

« فقول أم المؤمنين عائشة أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، يقوى ما ذكره ابن اسحاق ، ابن يسار عن عبيد بن عمر الليثي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ، فقلت ما أقرأ ، ففتنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني وذكر نحو حديث عائشة سواء ، فكان هذا كالتوطئة ، لما يأتى بعده من اليقظة ، وقد جاء مصرحا بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ، ثم جاءه الملك في اليقظة •

وقد جاء في كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني أن ذلك شأن الأنبياء جميعا يأتهم الوحي ابتداء في المنام ، حتى إذا تهيئوا للقاء الوحي عيانا ، جاء اليهم • فقد نقل عن علقمة بن قيس أنه قال : « أن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام ، حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحي » (١) •

وهكذا ننهي الى حقيقة ثابتة متفقة مع مجموع النقول ، وتتلاقى مع العقول ، وهو أن الالتقاء بالروح بالقدس ابتداء في المنام ، ثم لما ألف محمد ( عليه الصلاة والسلام ) الرؤيا المنامية الصادقة ، ويظهر أنها في وضوحها وجلالتها تشبه رؤية اليقظة إذ كانت تجيء مثل فلق الصبح كما أخبرت أم المؤمنين عائشة ، حتى إذا كان الأئس بروح القدس ، وامتلاء النفس بالروحانية كانت المشاهدة في اليقظة ، لأن ذلك مقام خطير عظيم ، لا تقوى عليه النفوس إلا بعد أن تصقل صقلا روحيا •

وقد يقول قائل ان كلام أم المؤمنين عائشة يستفاد منه أن الميل الى الاختلاء للعبادة كان بعد الرؤيا الصادقة ، وقد يوهم ما قلنا ، بأن الصفاء النفسي بالعبادة قد سبق الرؤيا الصادقة •

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨ •

ونقول فى الاجابة عن ذلك بأن الصفاء الروحى كان فى قلب النبى عليه الصلاة والسلام من يوم مولده ، وهو فى المهد صبيا ؛ فاذا كان عيسى عليه السلام تكلم فى المهد صبيا ، فان محمدا عليه الصلاة والسلام قد أدرك فى المهد صبيا ، وان الصفاء الروحى قد لازمه طول حياته ، فقد كان فى صفاء ولايد أن يستمر الى شبابه الباكر ، ثم الى ما بعده ، فالرؤيا الصادقة كانت من ارهاصات الرسالة ، وكانت من الوحي ، ثم كانت فى المرحلة الأخيرة منها ، وحيا بما يراه من خطاب الوحي بالأمين جبريل ، وهى ما ذكره ابن اسحق \*

واذا كان لنا أن نستفيد من تقديم الرؤيا الصادقة على الخلاء ، فكان تحبيب الخلاء له ثمرة لرؤيا صادقة تكررت حتى كان منه الاختلاء بنفسه \*

ولقد قلنا من قبل انه كان يتعرف البقية من ديانة ابراهيم ليصلى ، ونحن فى هذا الموضوع من بحثنا عثرنا على الضوء الذى نهتدى به فى تعرفه للصلاة على ديانة ابراهيم ، وظننا من قبل احتمال أن يكون ذلك بالرؤيا الصادقة ، وظننا ذلك ظنا ، وآلآن ندركه راجحا رجحانا يقرب من اليقين ، فضلى الله تعالى على محمد العابد صبيا وكهلا ، ومن الصالحين \*

### التقى بالروح القدس :

١٩١ — روح القدس هو جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى : « وأيدناه بروح القدس » ، وكما قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » \*

لقد جاء اليه جبريل عليه السلام ، وهو فى غار حراء (١) يتعبد الله تعالى ، حيث علا قلبه الى المقام القدسى ، فارتفع من الأرض ، الى ملكوت

(١) غار حراء كهف صغير بأعلى حراء ، وحراء جبل فى الشمال الشرقى من مكة ، يبعد عنها بما يقرب من ثلاثة أميال ، وهذا ليس بذى زرع ولا غرس ، بل هو مملوء بالصخور لا عمران فيه ولا يأوى الناس اليه ، ولا تستأثسون به ، يمشى الماشى فى طريق مدعثر ، لا يصل اليه الا فى مقدار من الزمن قد يسير فى طريق غير معبد الى نحو الساعتين ، فاذا وصل الى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع الى الغار الا فيما يقرب من ساعة ، واذا ارتفع وجدده موحشا يحس فيه الداخل برهبة ، وهو أعلى الجبل ، فيزداد المقبل عليه عزلة عن

=



الله تعالى ، فصارت نفسه صالحة لتلقى نور السماء ، فنزل رسول أمين من رب العالمين ، الى رسول الخلق أجمعين ليحمل رسالة ربه ، ويبلغها للعالمين ، من رب غفور ، وقد توالى النزول •

ولكن متى ابتداء ؟ قالوا انه فى الأربعين من عمر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أشد العمر ، وهى سن النضج فى الروح ، وفى البدن ، وفى العقل ، فهى سن القدرة على الاحتمال ، وقد قال الله تعالى فى هذه السن « حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه » واذ قد بلغ محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم هذه السن ، فقد أوزعه الله سبحانه وتعالى اليه ، وجعله له خالصا ، وقد تهيأ لذلك ، وأنشأة صفوة خلقه ، وجعله نبيا رسولا •

كان الالتقاء بالروح القدس على مرتين أولاها تمهيد لأخراها ، كانت الأولى ، وهى كاملة ، وان كانت فى منام هو كالصحو ، اذ لا يقل عنه وضوحا ، وقد تلقى فيه أول القرآن الكريم قوعى ما وعى ، وحفظ آيات ربه الأولى ، ولما ذهب عنه النوم الصافى كان يحفظ كل ما حفظ ، لا ينسى منه شيئا •

ولما رأى الوجود ببصره ، كما كان فيه ببصيرته التقى بالذى رآه فى منامه ، رآه وهو شهيد ، وقد استأنس بالرؤيا الذى صدقها ، وخاطبه مرة أخرى فى عالم الشهادة ، ولولا أنه قد استأنس به ابتداء فى الرؤيا الصادقة ، لعظمت المشقة عليه ، وهنا فى المرة أدرك أنه ينادى بالرسالة من قبل الله تعالى ، وأنه شرفه بها ، وكان عليه الصلاة والسلام فى هذين اللقاءين محفوفاً بالنور القدسى ، وان كان شديدا على النفس البشرية التى عاشت فى الأرض ، ولو كانت بصفائها متطلعة الى النور الربانى الذى يملأ أطوارها ، ويحيط بثنائياها •

=

الناس ، بل عن الأرض وما فيها ، ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله ، قد ضيق الله ما بينهما ، وإذا تجاوزهما ، ودخل الغار أحس بأنه قد صار معزولا عن العالم عزلة كاملة •

وان اختيار محمد بن عبد الله ذلك المكان ، لأن فيه العزلة الكاملة عن الناس ، والوحشة من كل شيء الا الأنس بالله وحده ، وكان اختياره بالهام الله تعالى ليكون مقدمة جهاده ، ويعيش فيه حياتين ، أولاها – رهبة ، والثانية صعبة ، وان كانت نهايتهما سعيدة •

وفى هذا اللقاء النورانى نزل أول القرآن الكريم ، وكانت ليلته ليلة القدر الذى فرق فيها الأمر وأبرم برسالة محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال سبحانه وتعالى : « أنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » على كلام فى ذلك سنتصدى لبيانه •

ويقول الرواة ان ذلك كان فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان بعد أربعين سنة من عام الفيل ، وقيل انها كانت الرابعة والعشرين من ذلك الشهر المبارك ، ومهما يكن اختلاف الرواة فى تعيينها فانها كانت فى رمضان كما قال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس ، وبيانات من الهدى والفرقان » على كلام فى ذلك أيضا •

### قلق الزوجة الصالحة :

١٩٣ — بالهام المرأة الصالحة الذكية القلب ، الطاهرة النفس أحست خديجة زوج محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بما فيه زوجها من مشقه ، فانزعجت عليه على غير عادة ، وقد ألفت منه الغيبة فى شهر رمضان ، وكانت هى التى تزوده بزاد الماده ، والله تعالى يزوده بزاد التقوى ، انزعجت ، فأخذت تسأل عنه ، وهى تعلم أنه فى غار حراء ، لأنها أحست أنه فى جهاد روحى ، جهاد من ينزع من الأرض ، ليتصل بالسماء •

وبينا هى قلقة مضطربة لغيبته على غير عادة إذ هو مقبل قد تغير لونه ، يرجف فؤاده ، فزال قلقها ، وان استعربت حاله — وقالت :

يا أبا القاسم ، أين كنت ، فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك ، حتى بلغوا مكة المكرمة ، ورجعوا لى •

وقد حدثها بما رأى فى رؤياه ، وما شاهد فى عيانه ، وفؤاده يرجف وهو يقول : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب منه الروح ، وهو يقول « خَشِيت على نفسى » •

وعندئذ جاء دور الزوجة الرفيقة الصالحة فى القول ، فقالت بمنطق الفطرة ، وهو أن من أحسن لا يجازى إلا احسانا ، كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصديق الحديث وتقرى الضيف ، وتحمل الكل

وتكسب المعلوم ، وتعين على نوائب الدهر • رأت فى زوجها الأمين الطاهر كل هذا ، وباحساس الفطرة ، رأت أنه لا يمكن أن يكون ثمر الطيب الا طيبا • ويقول ابن اسحاق ، انها قالت بعد أن علمت الخير ، وقالت ما قالت : أبشر يا بن عم ، واثبت فوالذى نفس خديجة بيده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » وما قالت ذلك الا وقد تواردت الأخبار بأن نبيا سيعت فى هذا الزمان •

### الى ورقة بن نوفل :

١٩٣ — لا أدرى أهي فرحة بما توقعته من خير عظيم يجىء لزوجها ونور عميم ينبثق من بيتها ، أم هي فرحة اللقاء دائما يدفع الى الحركة ، ومهما يكن فقد وجدت منها رغبة الى العمل فى الموضوع الذى طرأ ، وتوقعته منه أن يغير مجرى حياتها ، قامت فجمعت ثيابها ، ثم انطلقت مع محمد ابن عبد الله ( عليه أفضل السلام وأتم السلام ) الى ورقة بن نوفل ، وكان من الحنفاء الذين هجروا عبادة الأوثان واختاروا أن يعبدوا الله •

واختار النصرانية ، اذ كان يعرف العبرانية ، فدرسها منها ، ودرس التوراة ، فعلم الديانتين من الينابيع الأصلية ، ويظهر أنه علمها ديانة وحدانية لا ديانة تثليث ، لأنه دخل عليها ، ولأن نصرانية الشرق التى كانت فى العراق وأطراف الجزيرة العربية كانت تتبع نسطورس الذى أنكر أن يكون المسيح الها أو ابن الله ، اذ كان يعتقد أن عبارة الابن التى وردت فى بعض كتبهم أضلتهم ، وان ماضى حياته ما كانت تسمح لنا أن نقول انه مثلث ، لأنه ترك عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع ، فكيف يعتنق تثليثا غير متصور فى العقل •

لقد بلغ علم الرجل بالعبرية أنه كان يكتب بها ويقرأ ويدرس ، فكان على علم بالبشارات التى جاءت فى التوراة والانجيل بالنبى عليه الصلاة والسلام • وهى تبشر برسول اسمه أحمد •

وقد بلغ الشيخوخة فنضج فكره ، وقد جاءت اليه ابنة عمه خديجة بنت خويلد • وكان بصره قد كف ، قالت خديجة فى هذا اللقاء بابن عم اسمع من ابن أخيك فأخبر النبى عليه الصلاة والسلام ورقة بما رأى وعان : قال ورقة : هذا الناموس الذى كان ينزل على موسى ، ياليتنى كنت فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا ، اذ يخرجك قومك ، قال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم متعجبا ، كيف ينطق بالحق ، ويخرجوه ؟ قال : « أو مخرجى هم »

وتلك هى براءة الفطرة ، قبل أن يمرسه الله تعالى بشدائد الدعوة ، وقبل أن يلقى الباطل فى طفواته بالحق فى نوره •

قال ورقة الذى علم أخبار النبیین ، وما لقوا من بأساء وضراء وشدائد : « نعم ( أى هم مخرجوك ) لم يأت أحد بمثل ما جئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك هذا أنصرك نصراً مؤزراً » •

ان هذه كلمة ورقة ، وهى ثمرة الدراسة المبينة لتجارب الأنبياء •

وهنا قد يسأل سائل لماذا ذكرنا موسى عليه السلام ، وهو التوراة ، ولم يذكر الانجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام ، والجواب عن ذلك أن التوراة كانت فيها شريعة قائمة عمل بها النبیین من بعد موسى عليه السلام ، وجاء عيسى لحيائها بعد أن أهمل اليهود تعاليمها ، ولم يطبقوها لغلظ رقابهم ، فجاء عيسى لاعلان حقائقها ، وروى عنه أنه قال : « جئت لحياء الناموس » ، ولقد جاء النص فى كتب النصارى أنه يؤخذ بشريعة التوراة ، ما لم يجىء نص فى الانجيل يخالفها •

ولم يكتب الله تعالى للشيخ ورقة بن نوفل أن يحضر المعركة التى قامت بين الحق والباطل ، فلم يلبث أن توفى ولم يحضر الدعوة المحمدية ، اذ أنه قد مكث مدة ، حتى أمر محمد صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة ، وأن يصدق بما يؤمر •

### فترة غياب روح القدس :

١٩٤ — علم النبى عليه الصلاة والسلام أنه يحمل تكليفا كبيرا ، وأنها منزلة كبيرة يعلو فيها بانسانيته ، فأصبح المرهوب محبوبا مرغوبا ، بعد أن خشى من لقاء روح القدس ، جبريل عليه السلام. صار يتمنى أن يلقاه ، ليلقى أمر الله تعالى ، ويستجيب له ، ويحمل الأمانة التى اختاره الله تعالى لها •

لقد كان يتوقع أنه سيراه بعد أن يعود الى الغار ، لكنه لم يجىء اليه وفتر عنه ، فظن فى نفسه الظنون ، ولعله ظن أن ما اعتراه من خوف فى اللقاء الأول نحى تكليفه القيام برسالة ، ولقد كان حريصا على الاستجابة للدعوة الى الحق ، والحريص على القيام بأمر يستعجله ، ويستطبع غيابه ، ولعله خشى أن يكون ما أخبره به العالم الخبير ورقة بن نوفل لم يصادف الحق ، ولعله تكون الرؤيا التى رآها ، والمشاهدة التى عاينها تشبه مايدعى

للكهان ، وهى أمر ييغضه ، ويستنكره • لعل هذه الخواطر وغيرها ألقته ، فاستبطأ الوحي ، وتمناه ، وعلم أنه لا يستقر مرة الا اذا عاد الوحي اليه ، شق ذلك الانقطاع على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خشية على النعمة التى توقع أن ينعم الله تعالى به عليها •

ويقول فى ذلك ابن اسحاق « ثم فتر الوحي فترة من ذلك ، حتى شق عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فأحزنه » •

ذكر البخارى فى صحيحه أنه كان يذهب الى غار حراء ينتظر حيث ينزل عليه الروح القدس ( جبريل ) ويقول فى ذلك « ثم فتر الوحي ، حتى حزن النبي عليه الصلاة والسلام فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رعوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذورة جبل لكى يلقى نفسه تبدى له جبريل ، فقال يا محمد ، انك رسول الله حقا ، فيسكن جأشه ، وتقر نفسه فيرجع ، فاذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فاذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فقال مثل ذلك » وهكذا حتى انتهت فترة الانقطاع •

وقد جاء فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري ، فاذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجئيت منه فرقا حتى هويت الى الأرض ، فجئت أهلى فقلت زملونى » فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر والرجز فاهجر » ثم حمى الوحي وتتابع (١) •

وان هذا يدل على أن الفترة التى انقطع فيها جبريل عن محمد ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) شوقا لأن يعود الوحي ، وان شوقه الى تلقى الوحي بعد هذه الفترة جعله محبوبا مرهوبا ، أو على الأقل لا يكون فزع منه ، كفزعه الأول الذى كان عقب الرؤيا بالمعينة لجبريل. عليه السلام •

### مدة الفترة :

١٩٥ — لقد اختلفت الروايات فى مدة الفترة التى انقطع فيها ، ما بين رواية تذكرها طويلة ، وأخرى تذكرها قصيرة • فقد جاء فى المواهب

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٦ •

المدنية بلغت ثلاث سنين ، ولا شك أن هذه مدة طويلة نستبعدا ، وإن كانت قد ذكرت في كتب من كتب السيرة ، والسبب في استبعادنا لها - أنها لا تتفق مع كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان في مشقة شديدة من تلك الغيبة حتى أنه كان يرتفع الى شواهد الجبال ليتردى من أعلاها ، وكان يتكرر ذلك ، وإن الله تعالى أجل من أن يلقي بمن اختاره رحمة للعالمين يعيش في ذلك القلق والاضطراب تلك المدة الطويلة من غير أن يعرف له غاية ينتهي عندها ، وفوق ذلك ، فإن الاستعداد لأمر خطير لا يستمر تلك المدة الطويلة ، بل هي قد تحمل على النسيان بين اللقاءين ، وإن المصادر الأصلية ، والأحاديث لم تذكرها ، فلم يذكرها ابن اسحاق ، ولم يروها البخاري .

ولقد قال السهيلي ان المدة سنتان ونصف ، وقيل انها سنتان ، وقيل فيها مدد مختلفة أقلها ثلاثة أيام وأكثرها أربعون ، وقد روى أن ابن اسحاق جزم بأن الذين قالوا ثلاث سنين أو سنتين قولهم وهم .

وإن الذين قالوا انها ثلاث سنين استندوا الى ما جاء في تاريخ الامام احمد ، ويعقوب بن سفيان عن الشعبي أنه قال : « الفترة وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنين ، وكان يعلمه الكلمة » .

وهذه رواية لا نحسب أنها عالية مما يوجب الريب ، فأولا : تذكر انها أن اسرافيل هو الذي كان يعلمه في مدة ثلاث السنين ، ولم يثبت ذلك ، بل الثابت أنه من أول تلقى نور السماء اتصل به جبريل الأمين روح القدس ، وثانيا : أن الشعبي تابعي ولم يذكر من الذي نقل له هذا من الصحابة ، وقد أنكره كثير من الرواة ، فقد قال الواقدي أنه لم يكن من الملائكة من قام بالاتصال بالنبي عليه الصلاة والسلام الا جبريل عليه السلام .

وفي الجملة انه بعد ذلك البيان نرى أن تقدير مدة الفترة بالمسنيين أيا كان مقدارها غير معقول ولا مقبول ، وليس له سند صحيح حتى يكون منقولاً ، حجته النقل . وإنما الذي نعتقد أن المدة لابد أن تكون في دائرة الأشهر ، ولعلها خمسة أشهر وبعض ، على ما نشير من بعد .

١٩٣ — الى هنا ذكرنا اللقاء الأول للوحي النبوي ، الذي أفاض الله به تعالى على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا تنتهي من هذا الجزء ، وننتقل الى ابتداء التبليغ ، والقيام بعبد الدعوة ، والجهاد في سبيلها ، من وقت أن صدع بأمرها ، قبل أن نحقق الأمر ، في ثلاثة أمور تحدثت العلماء في أمرها .

أولها : الشهر الذى نزل فيه الوحي ، أهو رمضان ، وهو ماذكرته كتب السيرة وما رجحناه وانتهينا اليه ، وسقنا سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام الطاهرة عليه ، وكان يصح ألا نذكر سواء ، ولكن لم نرد أن نترك أمرا اختلف فيه العلماء من غير تمحيص ، وبيان الصادق منها ، وقد قيل انه ربيع الأول ، وقيل انه رجب ، فلا بد من ازالة الشبهة من حول الحق الصريح .

ثانيها : أول نزول القرآن الكريم ، أهى آية : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق » أم هى قوله تعالى : « ياأيها المدثر قم فأنذر » . وسننتهى ان شاء الله تعالى بالتوفيق .

ثالثها : أنواع الوحي الذى خطب به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

### الشهر الذى نزل فيه الوحي :

١٩٧ — جاء فى كتاب ( زاد المعاد فى هدى خير العباد ، للامام ابن القيم ما نصه :

« لما كمل له أربعون أشرق على أنوار النبوة ، وأكرمه الله تعالى برسالته ، وبعثه الى خلقه ، واختصه بكرامته ، وجعله أمينه بينه وبين عباده ، ولا خلاف أن مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوم الاثنين ، واختلف فى شهر المبعث ، فقيل لثمان ماضين من ربيع الأول سنة احدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرين ، وقيل بل كان ذلك فى رمضان ؛ واحتج هؤلاء بقوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس » قالوا أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته وأنزل عليه القرآن فى رمضان جملة واحدة فى ليلة القدر الى بيت العزة ، ثم أنزل منجما بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة ٠٠٠ » .

وان هذا الكلام يستفاد منه بصريح اللفظ أن النبى عليه الصلاة والسلام بعث فى سنة ٤١ من عام الفيل عند الأكثرين ، واذا كان النبى عليه الصلاة والسلام قد ولد باتفاق المؤرخين فى عام الفيل ، فيكون النبى عليه الصلاة والسلام قد بعث بعد أن بلغ الأربعين وتجاوزها بسنة ، ولكن يظهر أن أنوار النبوة كما قال ابن القيم أشرقت عليه قبل أن يبلغ الحادية والأربعين ، وتكون أنوار النبوة سابقة على المبعث ، ببضعة أشهر ، إذ أن كلامه يقيد بصريحه أن أنوار النبوة جاءت فى الأربعين ، لا بعد مرور سنة الأربعين كاملة .

والمشهور الذى عليه الجمهور هو أنه بعث فى سنة الأربعين فى رمضان فى اليوم السابع والعشرين من رمضان ، وهذا هو المشهور ، وهو الراجح ، وقيل فى السابع ، وقيل فى الرابعة والعشرين •

واننا نستطيع التوفيق بين هذه الروايات ، فنقول :

ان أول مجيء الوحي كان فى السابعة والعشرين من رمضان سنة ٤٠ ، ولكن التكليف بالتبليغ كان فى شهر ربيع فى الثامن من ربيع ، ويكون الفارق الزمنى بين الأمرين هو خمسة أشهر ( شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، وسبعة أيام من ربيع ) ، أى خمسة أشهر وبعض الشهر ، وان ذلك يهدينا الى مدة الفترة التى انقطع فيها الوحي النبوى ، والتى كانت شاقة ، وقد جاء هذا بالإشارة لا بالعبرة فى شرح المواهب اللدنية ، فقد جاء فيها ما نصه : « وجمع بين النقلين » أى النقل بأنه بعث فى رمضان ، والنقل الذى يقول انه فى ربيع ، بما ما فى ذلك حديث عائشة « أول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصادقة » فيكون نبىء فى الربيع بالرؤيا الصادقة ، ثم أتاه جبريل فى رمضان (١) •

ونرى أن صاحب المواهب نقل عن ابن حجر فى فتح البارى ذلك التوفيق ، ولكننا نوافق فى أصل التوفيق ، ونخالفه فى استنباطه فى النزول بالرؤيا الصادقة كان فى ربيع سنة ٤١ ونزول جبريل كان فى رمضان سنة ٤١ أيضا ، وذلك لأن الذين قالوا ان النزول كان فى رمضان ، قالوا وقد بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأربعين لا الحادية والأربعين ، وللتوفيق الكامل نقول انه كان فى رمضان سنة ٤٠ كانت الرؤيا الصادقة ، التى أعقبها لقاء جبريل ، وقد ذكره بما رأى وكان تصديقه بالمعينة فتر الوحي من بعد ذلك فترة شقت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان نزول القرآن الكريم وتتابعه ، وهذا يعطينا بيان مدة الفتر ، الذى ذكرناه ظلنا ، ونراه الآن رواية صادقة ، وأنه ملتقى الروايات التى يبدو فيها تضارب ، ولكنه يتكشف بهذا أنه لا تضارب ، بل تلاق بين النصوص •

### أول ما نزل من القرآن الكريم :

١٩٨ — ان السياق الذى ذكرناه آنفا وهو الذى أجمع عليه رواية السيرة ، أن جبريل روح القدس عليه السلام خاطب محمد بن عبد الله ( صلى

---

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٧ •



الله تعالى عليه وسلم ) بعد رؤياه الصادقة بما جاء فى وحى الرؤية تماما ، فقال له اقرأ ، فقال لا اقرأ ٠ الى آخر المذاكرة الروحية بينهما ، التى انتهت بأن نقل عن ربه قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ٠٠٠ » ٠

واذا كانت هذه من القرآن الكريم ، ومن ينكر ذلك فعليه أن يتوب ، فانها بلا ريب أول القرآن الكريم نزولا ، واذا كنا قد انتهينا الى أن أول القرآن الكريم نزولا كان فى رمضان ، وأن أول الوحي كان فى رمضان ، فرمضان شهر القرآن الكريم ، كما هو شهر الوحي ، وكما قال الله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ٠

هذه حقائق سائغة ، لا ريب فيها ، ولا اختلاف ، ولا تأثير ريبا ولا خلافا ٠

ولكن الروايات تجيء بما يفيد ظاهرها المعارضة بينها وبين ذلك الحق الصادق الذى لا ريب فيه ، ولا مجال للريب فيه ، ولنذكر بعض هذه الروايات لنبين أنه لا تعارض فى حقيقة الأمر ٠

لقد ثبت فى الصحيحين البخارى ومسلم عن يحيى بن أبى كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن أى القرآن أنزل قبل غيره فقال : « يا أيها المدثر » فقلت : « واقرأ باسم ربك » ، فقال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انى جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جوارى نزلت ، فاستبطنت الوادى ، فنوديت فنظرت من بين يدى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى ، فلم أر شيئا ، ثم نظرت الى السماء ، فاذا هو على العرش فى الهواء ، فأخذتنى رعدة ، أو قال وحشة ، فأتيت خديجة ، فأمرتهم فدثرونى فأنزل « يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر » وفى رواية أخرى ما يشير بأن هذه الآية ليست الأولى ، وليس ما فيها أن رؤية جبريل روح القدس الأولى ، فقد قالت : فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض (١) فجنيت منه فرقا - الخ ، وهو ذكر لما تضمنه الضمير فى الرواية الأولى التى تقول : « فاذا هو على العرش فى الهواء » ٠

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٧ ٠

وان هذا يفيد بلا ويب أن الوحي جاء ابتداء في غار حراء ، وفيها نزل :  
« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ثم جاء ثانيا وليس أولا كما توهم أبو سلمة ، فى نزول الوحي « يأيها المدثر » \*

وان نظرة فاحصة تبين لنا أن أول القرآن الكريم نزولا هو اقرأ ، كما هو الأصل الذى لا مرأى فيه ، ولكن فتر الوحي فترة هى خمسة أشهر وبعض الشهر ، ثم جاء فيها الوحي : « يأيها المدثر قم فأنذر ٠٠٠ » وقد انتهينا الى أن الفترة ابتدأت بعد أن نزل قوله تعالى « اقرأ » فى رمضان من سنة ٤٠ هـ ، وانتهت الفترة فى ربيع سنة ٤١ هـ من عام الفيل \*

والحق أن الروايات غير متضاربة للمتأمل البصير ، فان أول ما نزل بالقرآن الكريم لم يكن فيه الأمر بالتبليغ ، بل كان فيه اللقاء بروح القدس ، والاعلام بالقرآن الكريم ، وبمغزاه الأول ، وهو تعليم الخلق ، وبيان الحق ، وأنه كتاب الله تعالى يقرأ باسمه ويعرف به ذكره ، أما تكليف القيام بالتبليغ ، فقد جاء فى قوله تعالى : « يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر » \*

والى هذا أشار ابن كثير ، فقال فى الرواية التى جاءت فى البخارى عن عبد الرحمن بن أبى سلمة : « لا ينفى هذا تقدم احياء جبريل اليه أولا : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ٠٠٠ » ثم التقى به جبريل بعد نزول قوله تعالى : « يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وتكبك فطحر ، والرجز فاهجر » ، ثم حمى الوحي وتتابع - أى تدارك شيئا بعد شيء - وقام حينئذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أداء الرسالة أتم القيام ، وشمر عن ساق العزم ، ودعا الى الله تعالى القريب والبعيد ، والأحرار والعبيد ، فأمن به حينئذ كل لبيب نجيب سعيد ، واستمر على مخالفته وعصيانته كل جبار عنيد \*

### مراتب الوحي وشكله :

١٩٩ — نتكلم فى هذا الجزء عن البحث عن الوحي الذى كان ينزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والذى ابتداء بالرؤيا الصادقة وتتابع ، وجاء شيئا فشيئا ، حتى تم القرآن الكريم نزولا ، فى مدى ثلاث وعشرين سنة كاملة \*

لقد جاء النص القرآنى يطرق خطاب الله تعالى لأتبيائه ، فقال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا » \*

ولا شك أن هذه طرق لحصر خطاب الله تعالى لمن يختارهم من خلقه لخطابه ، فمن أى كان الخطاب لمحمد بن عبد الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونجيب فى هذا المكان ؛ لأننا فى مقام أول نزول الوحي ، فلنسر فى مداه الى نهايته •

يذكر ابن القيم فى كتابه ( زاد المعاد ) أن للوحي سبع مراتب ، فلنعرج على كل واحدة بكلمة موضحة فى ايجاز ، وربما نجد المقسم لا يشمل ذلك العدد ، لأن بعضها يدخل فى بعضه ، فالحدود فى الأقسام غير فاصلة •

**المرتبة الأولى الرؤيا الصادقة :** وقد كانت تلك المرتبة قائمة عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان البعث المسمى كانت الرؤيا الصادقة هى أول ما نزل به القرآن الكريم ، كما جاء فى سيرة ابن اسحاق ، ثم تأكدت الرؤيا بمخاطبة روح القدس جبريل عليه السلام ، فكانت مصدقة بالخطاب •

وقد كانت هذه الرؤيا توجب التكليف أحيانا ، كما جاء فى قصة خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام فى قصة الفداء ، اذ قال تعالى حكاية عن قول ابراهيم : « رب هب لى من الصالحين ، وبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى ، قال يا بنى ائى ارى فى المنام ائى اذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا ائى افع ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما ، وتله للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجى المحسنين ، وفديناه بذبح عظيم » •

ونرى من هذا أن خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام ، فهم من هذه الرؤيا تكليفه ذبح ابنه ، فقبل التكليف صابرا ، محتملا ، وهو ابنه البكر ، واستجابة دعوته عليه السلام ، وكان ذلك البلاء المبين حقا ، فقد استجاب للمطلب ابراهيم ، وقبل الاستجابة اسماعيل صابرا ، فكانا من المحسنين ، ونعم الصابرون •

**والمرتبة الثانية ،** عبر عنها ابن القيم بأنها ( ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه ، وهذا التعبير يستفاد منه أن الملك هو الوسط بين الله ورسوله ، فهو ينفث فى روح الرسول ، بأمر الله تعالى ، فكان بذلك وحيا ، وكان بطريق الملك ، ولقد مثل له ابن القيم بقوله عليه السلام : « ان روح القدس نفث فى روعى لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها » فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، والفرق بين الوحي بهذا المعنى والوحي بقاء جبريل روح القدس ، أن لقاء جبريل عيانا فى حال المخاطبة ، انما فى هذه الحال ، فاللقاء فى النفس وفى القلب والعقل ، وربما نعد حينئذ أن يكون هذا من ارسال رسول ، ولو كان

بالهام الله تعالى المجرد ، وهو ما نميل اليه اذا استيقن الرسول أن ذلك الهام من الله تعالى ، فانه كلام الله تعالى بالوحى المجرد من غير توسط رسول •

**الموتبة الثالثة :** مخاطبة الملك ، حتى كان يتمثل رجلا ، فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول له ، فقد كان يأتيه متمثلا فى رجل يظنه النبى صلى الله عليه وسلم من الانس لا من الملائكة • فقد كان يأتيه فى صورة دحية الكلبي ، كما روى ذلك النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر ، ولقد قيل ان مجيء جبريل على صورة لدحية الكلبي كان بعد بدر ، ويقول ابن القيم وكان دحية رجلا وسيما ، اذ قدم لتجارة خرجت الظعن (١) لتراه ، وان مجيء جبريل فى صورة رجل ، ليس معناه أن جبريل الأمين نزع من روحانيته ، أو ذهب عنه الروحانية ، انما هو لا يزال روحا ، والذي ظهر به هو ظهور للروح فى صورة جسدية ، ومعانى الملك لا تزال ثابتة قائمة ، ولا يوجد ما يمنع عقلا أن تظهر الروح فى صورة انسان له جسد •

ودحية لا شأن له فى هذا التغير الصورى ، بل هو حى فى جسده يأكل ويشرب ، ويمارس الحياة الانسانية كاملة •

وكون روح القدس جبريل يظهر فى جسد لا يقتضى أن يتحول الجسد الى ملك ، ولا أن يتحول الملك اليه ، وهى روح ليست حيوانية ، ولا ثمرة للحياة الانسانية ، حتى اذا تركت الجسد لا تفارقه الحياة ، لأنها ليست أمرا عضويا ولكنها روح ملك تفيض فى جسم يخلقه ، أو تظهر فى جسم يخلقه الله تعالى ، وهو الخلاق العليم ، فاذا غاب الملك غاب معه الجسد الانسانى •

**الموتبة الرابعة :** أنه كان روح القدس جبريل يأتيه مخاطبا له مثل صلصلة الجرس ، ويقول ابن القيم كان أشده عليه ، ويقول فى وصفه ابن القيم : « فيلتبس به الملك ، حتى ان جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى ان راحلته لتبرك به الى الأرض ، اذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحى مرة كذلك ، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فتقلبت عليه ، حتى كادت ترضها » •

وقد روى البخارى عن زيدا : أرسل الله على رسوله ، وفخذه على فخذى ، فتقلت على ، حتى خفت أن ترض فخذى • وقد جاء فى الصحيحين والموطأ عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يأتيك الوحى ، قال أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدها

---

(١) الظعن بضم الظاء والمعين جمع ظعينة ، وهى المرأة الجميلة •

على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجسلا ،  
ليكلمنى ، فأعى ما يقول • قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الملك فى اليوم  
الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وأن جبينه ليتفصد عرقا (١) •

ولا نريد أن نحاول توضيح هذه المرتبة ، فان تلك مراتب روحية لا تسمو  
الى ادراك حقيقتها ، ولكن نحاول أن نتصورها فقط ، من غير تعرفها كاملا ،  
فلا يعرفها الا من عالجها ، ولم يعالجها الا المصطفون الأخيار الأبرار •

ان الذى فهمناه من ذكر فى هذه الحال أن روح القدس الطاهر يختلط  
بالنبي عليه الصلاة والسلام ويمزج روحه وجسده ، ويخاطبه بصوت قوى  
صارخ ، فيه عنف كعنف صلصلة الجرس ، يسمعه عليه الصلاة والسلام ،  
ولا يسمعه غيره ، ويحس فى نفسه ، ولا يحس غيره ، ويكلمه بكلام مفهوم ،  
وان كان فى صوت قوى ، وكل ما فيه من خطاب قوى ، ويكون باختلاطه بروح  
النبي ، وبممازجته جسمه محدثا ثقلا جسميا ضاغطا على ما يكون رسول  
الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالسا عليه ، وان الرسول ليعرف ما يقول ،  
ويحفظه ويحبه ولا يجهله ، حتى ان انفصل عنه لا ينفصل الا وقد وعى كل  
ما أراد أن يبلغه عن الله تعالت قدرته ، وعظمت منتته •

وقد روى العسقلانى فى المواهب أحاديث موضحة وشاهدة لهذه المرتبة  
من الوحي •

ومنها روى الطبرانى عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب الوحي لرسول  
الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان اذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة ، وعرق  
عرقا شديدا مثل الجمان (٢) ، ثم سرى عنه وكنت أكتب ، وهو يملئ على  
وربما وضع فخذيه على فخذى حال الكتابة ، فما أفرغ حتى تكاد رجلى تنكسر ،  
حتى أقول لا أمشى على رجلى ، ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد أن ينكسر  
عضد ناqqته (٣) •

وذكرت الناقة هنا لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، خطب خطبة الوداع فى  
عرفة وهو واقف ، ونزلت آية « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ،  
ورضيت لكم الاسلام ديناً » فى هذا اليوم ، وكان راكبا على الناقة •

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٩ •

(٢) الجمان : صغار اللؤلؤ ، والبرجاء الحمى •

(٣) كان الكلام فى نزول آية : « اليوم أكملت لكم دينكم » لا فى سورة

المائدة •

**المرتبة الخامسة :** قال فيها ابن القيم « أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى اليه ما شاء أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى فى سورة النجم .

يشير الى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى » فيفسر ابن القيم تلك الرؤية الروحية بأنها رؤية جبريل بحقيقته ، وهى فيما أحسب رؤية بنور البصيرة ، وبقوة الروح ، لا بنور البصر ، ولا بشكل جسمى ، لأن جبريل روح ، فكيف يراه الا أن يكون محسوسا ، وبذلك لا تفترق هذه الحال عن الرؤية المشخصة مع أنها غيرها .

ولقد قال عبد الله بن مسعود أنه قال : لم ير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل على صورته التى خلق عليها الا مرتين ، أما واحدة فانه سأل أن يريه نفسه ، فسد الأفق ، وأما الأخرى فليلة الاسراء عند سدره المنتهى .

**المرتبة السادسة :** ما أوحاه الله تعالى اليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها . ومؤدى كلام ابن القيم أن هذه المرتبة من الوحى هى التلقى عن الله سبحانه وتعالى مباشرة ، لا بطريق الرؤيا الصادقة فى المنام ، ولا بطريق ملك ، على أى حال من الأحوال كان الملك ، بل عن الله تعالى ، ولا يقتضى ذلك رؤية ، لأنه قد يكون الله يكلم العبد المختار للرسالة من عباده من وراء حجاب ، ليكون الكلام مع الله تعالى من غير رؤية لذاته العلوية ، فقد سئل عليه الصلاة والسلام : هل رأيت ربك ، « فقال انه نور ، فأنى أراه » وان هذا التفسير الذى اخترناه يتلاقى مع المرتبة السابعة التى سنذكرها ، وإذا أردنا التمييز فأننا نقول ان هذه هى من الله مباشرة من غير توسط ، وهو ما كان ليلة المعراج ، فالذى نتصور على مقدار ما يقرر ابن القيم ، أنه ليس بكلام تكلمه رب العالمين ، ولكن وحى مباشر .

**المرتبة السابعة :** هى الكلام من وراء حجاب ، وقد قال فيها ابن القيم : « كلام الله اليه ( أى الى الرسول صلى الله عليه وسلم ) بلا واسطة ملك ، فكلم الله تعالى موسى بن عمران ، وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن الكريم ،

وثبوتها لنبيينا صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث الاسراء ، وبهذا التفسير يتبين أن السابعة داخله فى السادسة ، وليست كل واحدة منهما مرتبة قائمة بذاتها (١) .

وفى الحق ان هذه المراتب متداخلة ، وال مراتب كلها مذكورة فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب » .

## دعوة الحق

• ٢ — بعد أن فطر الوحى نحو ستة أشهر أو دون ذلك ، قليلا جاء التكليف بالتبليغ ، وتحمل عبء الرسالة الالهية الى الخلق أجمعين ناداه ربه بالأمر بأن يرفع من ثيابه ما كان يجر ، ولا يكتفى بالتعب فى غار حراء ، وان كان ذلك كافيا لتهديب نفسه ، وتصفية روحه ، وأن يكون متصلا بربه خفية وتضرعا ، فانه لا يكفى لرسول أمين ، بل لابد أن يتكلم عن ربه أمام العالمين ، وتكون معه العبادتان • العبادة الفردية بتهديب ذاته وتقوية روحه ، وتوجيه نفسه الى الله وحده الذى لا يغيب عنه شئ فى السماء ولا فى الأرض ، والعبادة الجماعية بأن يتقدم لدعوة الحق ودعوة الناس الى الانصراف لعبادة الله وحده ، واصلاح الخلق ، والسير بهم فى المحبة الواضحة التى ليلها كنهارها ، وهذه غاية الرسالة الكبرى التى حملها خاتم النبيين محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) .

أمره الله تعالى بعد أن ناداه النداء المؤكد : « ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » •

تضمنت هذه الآيات الكريمات ، الانذار بالعذاب الشديد ان استمروا ، وبالدعوة الى عبادة الله تعالى ، وتطهير الثياب ظاهرا وباطنا ، وبترك الفساد وهجر الشر ، وعبادة الله تعالى هى السبيل لدفع الشر ، ومنع الأذى ، وفى الجملة هذه الآيات التى تعد أول طلب لتبليغ الدعوة تشتمل على ثلاثة أمور هى خلاصة الدعوة المحمدية ، أو ترمز لكل نواحيها التكليفية • أولها - الايمان بالعقاب والحساب ، وقد أشار اليه سبحانه وتعالى بالأمر بالانذار ففيه إشارة الى اليوم الآخر وما يكون فيه من حساب وجزاء ان خيرا فخير ، وان شرا

(١) المراتب مذكورة فى زاد المعاد ج ١ ص ٢٥ ، وفى المواهب اللدنية وشرحها ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها •

قشر ، والأمر الثانى تربية النفس الانسانية بالعبادة والصبر ، وتطهير القلوب بالخلوص لله سبحانه وتعالى ، وتكبيره وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وقد أشار الى ذلك بقوله تعالى « **وربك فكبر ، وثيابك فطهر** » ، والأمر الثالث - امانة الأذى عن الجماعة التى يعيش فيها ، ونفعها ، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله : « **والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر** » .

وبذلك يتبين أن الآيات الكريمة رمزت الى خلاصة الحقائق الاسلامية التى يقيم عليها الاسلام ، وهى الوحدةانية والايمان باليوم الآخر وتطهير النفوس ودفع الفساد ، وجلب النفع .

## مراتب الدعوة :

١ • ٢ — ذكر ابن القيم فى زاد المعاد أن مراتب الدعوة خمس مراتب :

**الأولى النبوة :** فلا يدعو الى الحق الذى نزل من عند الله تعالى الانبى وقد اعتبرها ابن القيم المرتبة الأولى ، ونحن لا نعتبرها كذلك ، انما نعتبرها كيان الدعوة ، فلا دعوة الى الايمان برسالة الا من نبى مرسل ، فهى دعامة ، وليست مرتبة يبتدأ بها ، بل هى الأصل ولب الدعوة .

**المرتبة الثانية :** انذار العشيرة الأقربين ، وقد أمر الله تعالى بذلك فقال سبحانه « **وانذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** » وقد بدأ النبى عليه الصلاة والسلام دعوة عشيرته ، فدعا بنى عبد مناف وقال لهم ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى قالوا ما علمنا منك كذبا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **انى رسول الله اليكم بين يدى عذاب شديد ، وانها للجنة أبدا وللنار أبدا أو كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم** » .

**والمرتبة الثالثة :** انذار قومه ، وقد سلك محمد عليه الصلاة والسلام ، ذلك المنهاج الذى انتقل فيه من الحيز الضيق الى ما هو أوسع ، ثم الى ما هو أعم ، فانتقل من انذار عشيرته الأقربين الى قومه من قريش قريتهم وبعيدهم .

وقد أئذر عليه الصلاة والسلام فى هذه المرتبة سكان مكة المكرمة وما حولها .

**المرتبة الرابعة :** عبر عنها ابن القيم بقوله ، انذار قوم ما اتاهم من نذير من قبله الا كانوا به مؤمنين ، وهؤلاء هم العرب فى الجزيرة العربية قاصيهم



ودانيهم ، سكان المدر منهم وسكان الوبر ، وبذا عمت دعوة كل من ينطق بالعربية ، من غير تفرقة بين قريب وبعيد .

**والمرتبة الخامسة :** تبليغ الدعوة الى غير العرب من الرومان والفرس والشام ومصر والحبشة برسل أرسلهم ويكتب كتبها ، ثم بث الدعاة ، وجهز الجيوش التي تدافع من هجموا أو حاولوا الهجوم ، أو حاجزوا بين الاسلام ودعوته ، وحالوا بين الشعوب ومعرفته ، فكان الجهاد ليثبت الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، ومن بعد ذلك يختارون عن بيعة ، فقد قال تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

وقد سلك النبي عليه الصلاة والسلام تلك المراتب ، وان كانت التفرقة بين المرتبة الثانية والثالثة دقيقة إذ لا تكادان تنفصلان ، والمرتبة الأولى لا تعد مرتبة للدعوة ، ولكنها مرتبة التهيئة لها ، ولعله يريد منها ما كان من نزول قوله تعالى : « اقرا باسم ربك الذي خلق » الى آخر الآيات الكريمات ، التي نزلت في أول لقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بروح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام ، الى نهاية الفترة التي قدرناها بما دون ستة الأشهر وتنتهي عند نزول قوله تعالى : « يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر وثيابك فطهر » .

٢٠٢ — وقد كانت الدعوة من بعد ذلك خفية ، يلتقى بالأولياء والأصدقاء المقربين ، والصفوة المختارة من الصحب الأبرار ، وهذه هي المرتبة الثانية .

وانما كانت الدعوة ابتداء خفية لتكون خلية الاسلام ، وان الخلايا يكون بذر البذور فيها بالكتمان لأن الجهر يبدها قبل أن تتكون حتى ينمو عودها ويتكون سوقها .

فكل فكرة جديدة لابد أن يلتقى حولها قلوب مؤمنة بها ويتولى من بعد ذلك اعلانها والمجاهرة بها ، ثم لابد من تكوين من يتقدمون الدعوة ، ومثل الدعوة الخفية ، كمثل تكون الجنين في بطن أمه ، فانه لا يظهر للوجود حيا حياة كاملة ، صالحا لأن يقاوم دواعي الفناء ، والأخذ من عناصر البقاء والتغذى بكل أسباب القوة ، فكذا الدعوة الى كل فكرة ، تقتضى التدبير الخفى ، ثم الاعلان الجلى .

ولذلك كانت الدعوة الأولى ، ثم كانت المراتب التى تليها •

ولقد يقول الرواة ان الاستخفاء كان نحو ثلاث ، كانوا يستخفون بها فى العبادة والمذاكرة ، وقالوا انها كانت فى دار الأرقم بن أبى الأرقم •

ولكن يجب أن نعلم أن الإستخفاء فى هذه الفترة ليس الاستخفاء بالدعوة ، فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يعلن ما جاء به من نذير ، وما فى جعبته من تبشير ، ولكن الذى يستخفى به هو إقامة العبادة التى دعا اليها رب العالمين ، ولذلك كان إضطهاد المؤمنين من الضعفاء واضطهاد النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يسلم حمزة وعمر ، وخروج المسلمين صفوفًا معلنين الاسلام مجابهين المشركين متحدين قوة الشرك بقوة الله تعالى وقوة الحق ، والصبر المستعذب ، وان كان مريرا •

ثم من بعد ذلك كانت المجاهرة الكاملة التى تشق الصفوف المشركة بنور الحق ، واشراق الاخلاص ، إذ أمر الله تعالى أمرا جازما قاطعا إذ قال تعالت كلماته « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » •

وقد أخذ عليه الصلاة والسلام من بعد نزول هذه الآية يجاهر المشركين ، ويجادلهم بالقرآن الكريم ، ويصابرهم فى اطمئنان المؤمن بالحق فيما يدعو اليه ، يجادلهم بالقرآن الكريم يتلوه عليهم ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ، وهم يتهددون وينذرونه وأهله ، ويقاطعون بنى هاشم ، الى آخر ما سنقرر من بعد •

وبنى هاشم ماعدا أبالهـب ومعهـم بنو المطلب يسـيرون معه صفـا واحدا ابتداء للقرابة عند الأكثرين منهم ولأجل الحق عند غيرهم •

حتى اذا مات أبو طالب الذى عالى الصوت باسم القرابة والمحبة ، أخذ محمد عليه الصلاة والسلام يدعو القبائل فى مواسم الحج ، وفى وفودها ، حتى اذا صار للاسلام الكلمة العليا فى الجزيرة العربية فاضت الوحداية بالنور على من وراء البلاد العربية الى الأقاليم التى تصاقبها اقليما بعد اقليم •

## أول من أسلم

٣٠٢ — اتجه محمد عليه الصلاة والسلام الى تكوين الخلية الأولى للإسلام ، فاتجه الى الذين يعاشرونه ابتداء ، وكان يعاشره ثلاثة : أولهم أم المؤمنين خديجة ، السكن ، والمواسية ، والحانية ، والرقيقة ، وأم أولاده ، والرفيقة الرعوم ، والثاني على بن أبي طالب ، وقد كان في كلاءة النبي عليه الصلاة والسلام وكفالته ، وهو له المؤدب والمربي ، ذلك أن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال ، وعند ابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام فضل يسار ومال من عمله في التجارة في مال خديجة ، وعند العباس عمه مال وفير ، إذ كان من أثرياء قريش .

ولقوة احساس محمد صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه وما عنده من مودة في القريبى ذكر حال عمه للعباس واقتراح أن يأخذ كل منهما ولدا من أولاد أبي طالب يكفله ، فكان من نصيب محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على كرم الله وجهه ، وعندما جاءت الدعوة الإسلامية ، ونزل الوحي الالهي كان على في العاشرة .

وثالث الثلاثة زيد بن حارثة بن شرحبيل ، وكان عربيا من بنى كلب .

كان الرق قد جرى عليه بالطريقة الجاهلية ، إذ قد أخذته جماعة من الفرسان وهو ابن ثمانى سنوات ، وباعوه في سوق من الأسواق ، وآل أمره الى خديجة أم المؤمنين ، ثم وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان عبدا له على مقتضى ما كان عليه الناس ابان ذاك .

وقد جزع أبوه عليه جزعا شديدا ، وبكى لفقده ، وقد قال في ذلك شعرا جاء فيه :

بكيت على زيد وما أدري ما فعل  
أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدري وإنى لسائل  
أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل

- ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة  
فحسبك من الدنيا رجوعك لى بجل (١)
- تذكرنيه الشمس عند طلوعها  
وتعرض ذكراه اذا غربها أفل (٢)
- وان هبت الأرواح هيجن ذكره  
فيا طول ما حزنى عليه وما وجل
- سأعمل نص العيش فى الأرض جاها  
ولا أسأ المتطواف أو تسأم الابل (٣)
- حياتى أو تاتى على منيتى  
فكل امرئ فان وان غره الأمل (٤)

أخذ يبحث عنه فى طول بلاد العرب ، حتى عثر عليه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة ، ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عدو الرق بفطرته لم يرد أن يحتجته عنده غير مختار ، فخير به بين أبيه والمقام عنده ، وقال : ان شئت فأقم عندى ، وإن شئت فانطلق مع أبيك .

ولكن الشاب قد اختار له ، فاختر أن يقيم مع محمد صلى الله عليه وسلم وهو يلمح نور النبوة عن الحرية مع أبيه وأله ، ولكن أباه أخذ يلومه ، فقال له : « يا زيد تختار العبودية على أبيك وأمك » فقال ابن الكريم ، « انى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدا » .

عند ذلك الوفاء أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده ، وقام الى الملا من قريش ، فقال : اشهدوا أن هذا ابنى وارثا ومورثا .

رأى أبوه ذلك فطابت نفسه ، وكان يدعى زيد ابن محمد ، فلما اختفى التبنى وقال تعالى فى المتبينين : « ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آبائهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم » .

- 
- (١) بجل بمعنى حسم أى حسم الشعر وأنهاه ،  
(٢) الأرواح جمع ريح ، والموجل الخوف .  
(٣) النص السير الكثير الشديد .  
(٤) الشعر فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٨ .

## الاسلام فى بيت النبوة :

٤٠٢ — كان أول الاسلام فى بيت النبوة ، وأول الدعوة كانت فى بيت محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد كان الذين يكونونه ، وبلغوا حد الادراك المميز للحقائق الدينية فى الجملة ، هم هؤلاء الثلاثة خديجة بنت خويلد الزوجة الطاهرة الوفية الأمينة الحانية على زوجها وثانيهم على بن أبى طالب الذى كان غلاما ، وهو الذى رباه النبى عليه الصلاة والسلام ، وثالثهم المولى المخلص الذى أزال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عنه الرق ، ورفعته الى شرفه من ذؤابة قريش ، حتى كان يقال زيد ابن محمد حتى ألقى الله تعالى التبنى ، ولكنه ألقاه وزيد شريف بالاسلام والايمان ، وشريف بحريته واحترام نسبه الأسمى ، الذى لم يرتق برق .

لقد آمنت خديجة منذ أن التقى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بروح القدس ، جبريل عليه السلام ، وعاد اليها يرجف فؤاده ، وأخبرها ورقة بن نوفل بمكانة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه رسول هذا الزمان ، وأنه لا نبي بعده .

آمنت به منذ الابتداء ، وكان ايمانها أمنا وسلاما ، فقد كانت هى السكن الذى يأوى الى ما فيه من رحمة وسط عنف المعارضة ، وشدة المقاومة ، وكما قال ابن هشام فى سيرته : « وأزرتة على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله تعالى بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، الا فرج الله تعالى عنه بها اذا رجع اليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدقته وتهون عليه أمر الناس » رضى الله تبارك وتعالى عنها .

وانها بذلك صارت لها منزلة فوق منزلة نساء الأنبياء أجمعين ، بل صارت لها منزلة فى الذروة بين نساء العالمين حتى صارت الثالثة بين فضليات النساء فى الخليقة ، وهى مريم العذراء التى خاطبتها الملائكة من السماء ، وبضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبضعتها ، فاطمة الزهراء .

وقد أرسل الله تعالى لها تحية طيبة مباركة من السماء ، فقد أمر الله تعالى نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأن الله تعالى يقرئها السلام ، وروى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بأن يبشر خديجة ببيت من قصب ( والقصب هو اللؤلؤ المجوف ) لا صخب فيه ولا نصب .

انها أقامت بيتا للنبي عليه الصلاة والسلام فيه الهدوء والبركة والأمن والسلام يلقي في خارجه غبار الصخب ، وعناء النصب ، فكتب الله تعالى لها بيتا فيه الراحة التامة ، وفيه الرونق ، وفيه الجمال ، فيلتقي فيه جمال المنظر ، بلطف الهدوء بعد اللغوب .

ولقد أحست بمنزلتها عند الله تعالى ، وخصوصا عندما أقرأها السلام بذاته الكريمة فقد ردت التحية فقالت مقالة المؤمنة : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » فالتقى الايمان الصادق ، بالتنزيه لله ، فجعلت الرد على جبريل ، أما الله فهو السلام ، وهو واهب السلام ، فتعالت ذاتها ، ويقول في التعليق على ردها شارح المواهب اللدنية « هذا من وفور فقهها ، حيث جعلت مكان رد السلام على الله تعالى الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق ، وما لا يليق ومع كون هذا ادراكا سليما أقول انه احساس عميق وايمان صادق بالله .

### اسلام على :

٢٠٥ — كان على رضى الله تعالى عنه في العاشرة من عمره ، وقد تجاوز سن التمييز الأولى ، وصار له ادراك في المعاني الدينية . وذلك هو نظر علماء الاسلام من بعد . اذ أنهم اتفقوا على صحة اسلام الصبي المميز . واعتبار اسلامه وان اختلفوا في اعتبار رده اذا تقرر اسلامه ابتداء . أو بوراثته للاسلام .

كان على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه في سن التمييز عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام . وفيه ذكاء يسبق به أقرانه ومن في سنه ، وهو فوق ذلك في مهبط الوحي ، ومنزل النبوة ، وما لا يصل اليه بالادراك يصل اليه بالحاكاة والقدرة الصالحة ، وقبس النبوة يهديه . ونورها يسطع فيما حوله .

ولقد قالوا انه ابتداء نور الهداية باتخاذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة يقلدها ويحاكيها ، ويتبع آثارها ، ويتقفى مسالكه صلى الله تعالى عليه وسلم .

قال ابن اسحق : « ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة المكرمة . وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر

قومه فيصليان الصلوات فيها ، فاذا أمسيا رجعا ، فمكتا كذلك ما شاء الله تعالى أن يمكتا •

ولكن عين أبي طالب كانت تتلفت حول ابنه وابن أخيه وحبيبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك رمقتهما - وهما يصليان ، فاتجه الى محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال له : يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به • فقال : أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم بعثني الله به رسولا الى العباد ، وأنت أي عم : أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابني اليه وأعانتني عليه •

دعاه محمد عليه الصلاة والسلام الى أمرين : الايمان بهذا الدين • وثانيهما اعانة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • وقد أجابه في الثانية ولم يجبه في الأولى فقد قال له : أي ابن أخي ، اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي • وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك شيء تكرهه •

هذا ما كان بينه وبين ابن أخيه • وهو ينبيء عن نخوة كريمة • وتعصب لما كان عليه أباه تعصبا غير حسن في ذاته • ولا من مثله في كبر عقله ، وقوة نفسه • ولكن ذلك ما أراد الله تعالى لحكمة ، ليرى الناس مثلا من أقوياء الرجال ، يكون عظيما في ذاته ، ويكون مع ذلك مشركا ، فهو عال في نفسه ، ليس كبيرا في اعتقاده •

أما ما كان من أمره مع ابنه ، فقد اتجه اليه يقول له : « أي بني ما هذا الدين الذي أتت عليه • فقال له يا أبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته » •

وهنا نجد أبا طالب الحر الكبير في نفسه في معاملة ابنه ، كما رأيناه مع ابن أخيه ، فقد قال غير مضيق ولا متزمت ، ولا ضائق الصدر ، أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه •

وروى ابن اسحاق مع ما ذكر رواية فيها زيادة اذ قال :

« ان علي بن أبي طالب رضى الله تبارك وتعالى عنه جاء بعد ذلك بيوم أو يومين وهما يصليان أي خديجة والرسول فقال أيا محمد ما هذا ! قال ( النبي عليه الصلاة والسلام ) دين الله تعالى الذي اصطفى لنفسه بعث به رسله ، فادعوك الى الله تعالى وحده لا شريك له ، والى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى ، فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاصد

أمرا حتى أحدث به أبا طالب ، فكره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال عليه الصلاة والسلام له : « يا على إذا لم تسلم ، فاكتم . فمكث على تلك الليلة ، ثم إن الله أوقع فى قلب على الاسلام ، فأصبح غاديا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى جاءه ، فقال : « ماذا عرضت على يا محمد فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد ، ففعل على ذلك وأسلم ، ويروى أنه كتم إيمانه عن أبى طالب ، ولكنه لما علم قال له : « وآزر ابن عمك وانصره » .

هذه زيادة ذكرها ابن اسحاق فى رواية أخرى ، وهى لا تتعارض مع الرواية الأولى ، ولكن تزيد عليها ، فمؤداها أن على بن أبى طالب ، كشأن من يكون فى سنه رأى أن يعرض الأمر على أبيه كالثشان فى كل أمر ذى شأن يعرضه الصبى على أبويه قبل أن يقدم عليه ، ثم وقع فى قلبه الايمان بما جاء به ابن عمه ، طيب النفس رضى ، وكان أن تبعه فى صلاته فى شعاب مكة المكرمة .

### اول أسرة فى الاسلام :

٢٠٦ — أسلم من بعد ذلك أو مقارنا لذلك مقارنة زمنية « زيد ابن حارثة ، وهو اختار محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام على أبيه واختار أن يعيش فى كنف محمد عليه الصلاة والسلام رقيقا ، على أن يعيش فى أسرته حرا طليقا ، فلا بد أن يكون من أول الناس اسلاما ، فانضم الى الأسرة النبوية غير متلكىء ، ولا متلعثم ، ولا مضطرب ، بل دخل مسرعا ، غير متلوم .

اجتمع شمل الأسرة الكريمة على الايمان ، ولزم محمد صلى الله عليه وسلم فى صلاته أم المؤمنين خديجة ، وصفيه المجتبى على بن أبى طالب ، ولقد جاء تاجر زائرا مكة المكرمة ، ولنترك له الكلمة يقص ما رأى :

عن يحيى بن عفيف قال : « جئت زمن الجاهلية الى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب . فلما طلعت الشمس وحلقت فى السماء وأنا أنظر الى الكعبة . أقبل شاب ، فرمى ببصره الى السماء . ثم استقبل الكعبة . فقام يستقبلها . فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه . فلم يلبث حتى جاءت امرأة . فقامت خلفهما . فرقع الشاب . وركع الغلام والمرأة . فرقع الشاب فرقع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجدا . فسجدا معه . فقلت : يا عباس . أمر عظيم . فقال أتدرى من هذا ! فقلت : لا . فقال : هذا محمد بن عبد الله



ابن عبد المطلب ابن أخى • أتدرى من هذا الغلام ؟ قلت : لا • قال : هذا على ابن أبى طالب • أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما ؟ قلت : لا أدرى ! قال : هذه خديجة زوج ابن أخى • وهذا حدثنى أن ربك رب السموات والأرض أمر بهذا الذى تراهم عليه • وأيم الله • ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة ، وكانوا الثلاثة المطهرين السابقين الى الاسلام • ومعهم زيد بن حارثة فكان الرابع •

ويلحظ فى هذه الأخبار الصادقة أن أولئك أسلموا من غير أن يطالبوا بدليل ، بل كانوا المصدقين لما عرفوا من الحق فى ذاته • فأى قلب خال من شوائب الهوى والغرض • يسوى بين الايمان بحجر لا ينفع ولا يضر • والايمان بالواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى ليس بوالد ولا ولد ، ثم مع ذلك الحق الذى يدرك بأدنى تأمل من قلب سليم – ما عرف به الداعى من خلق صادق • وفضل كبير ، وعقل مدرك سليم ، ثم لا يكون فى كلامه ارتياب مرتاب •

فالذى دفع الى ايمان تلك الأسرة الطيبة ادراك للحق فى ذاته ، وايمان بصدق ربها ، ومن بعد ذلك صفاء فى نفوس أهلها ، وأنى يكون قلب أصفى من قلب أم المؤمنين خديجة ، وعلى بن أبى طالب •

## النور يشرق من بيت النبوة

٢٠٧ — فاض النور من بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانبتق البثق الكبير خارج البيت ، ولكنه لم يكن بعيدا عن محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد ذهب يضىء قلوب أصدقائه ، والذين وصلت نفوسهم بنفسه ، وإن لم يكونوا له أقرباء قرابة بعيدة أو قريبة ، ولكنهم كانوا من قبيله وقومه ، ثم كانت آية الله الكبرى أن عارضه أقرباؤه الأذنون ، كأبى لهب ، ولم يتبع دينه أو لم يظهره حتى أحباؤه من ذوى قرياء كأبى طالب الذى رباها ، وكان حبيباً الى نفسه ، وعمه العباس وغيره •

وكانت تلك آية كبيرة تدل على نزاهة الاسلام من أن تقيمه عصبية ، أو يتبع للعصبية ، إنما هو دين الله جاء لمحو العصبية الجاهلية ، ولم تكن عموم دعوته فيها أى استجابة لعصبية ، أو موالة قبلية كما سيتبين ذلك فى القصص النبوى ، فلا يقال أن أسرة كانت تطمع فى السلطان • فاستعانت بسلطانها لنبوة كانت فيها • وخصوصا أن بنى هاشم كانت فيهم رياسات

بالكعبة الشريفة توارثوها كابرا عن كابر ، وكان آخرهم أبو طالب الذى عاصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وإذا كان بنو هاشم لم يكونوا أول الناس اسلاما ، فقد كانوا بلا ريب أولهم نصرة ، وكانوا نصراء النبى عليه الصلاة والسلام عصبية لا اسلاما ، اذ كان ذلك عادة العرب يعيش كل شخص فى حماية عصبية . لا يسلمونه ، ويعدون تسليمه ذلا ، والتهاون فى نصرته قهرا وهوانا ، وخصوصا أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان معتدى عليه . وليس معتديا . والايذاء ينصب عليه انصيايا . . .

ومن أجل ثبوت أن معاونتهم له فى شدته كانت عصبية ، أنهم لم يؤازروه بعد أن صار قويا ، بل أن العباس عمه ، وهو الذى كان يعد كبير بنى هاشم بعد أبى طالب خرج مقاتلا فى جيش المشركين فى بدر لجيش محمد عليه الصلاة والسلام ابن أخيه ، وأسر من بين من أسر من المشركين ، ولم يخرج محمد عليه الصلاة والسلام ، الا بفدية أفتدى بها نفسه .

#### اسلام أبى بكر :

٨٠٢ — لا نريد أن نخوض فى أوليته ، وسبقه فى الاسلام على ابن أبى طالب رضى الله عنه أو سبق على عليه . فتلك مسألة طائفية يثيرها الطائفيون فى الاسلام . فالشيعة يعدون عليا أسبق والأمويون والناصبون (١) يخالفون ومالنا أن نخوض فى ذلك . وكل فريق يذكر أن معه من الصحابة فريقا .

وانما الذى نقرره أن كليهما أسبق الذكور الى الاسلام ، أبو بكر وهو رجل مكتمل يقارب الأربعين . وعلى فى العاشرة من عمره . لم يبلغ حد المراهقة ، ولكنه كان مميزا فاهما ، أسلم متذكرا متدبرا مدركا ، وقد ذكرنا أن فقهاء المسلمين يعتبرون اسلام الصبى المميز صحيحا وإن اختلفوا فى اعتبار رده مستحقة للعقاب .

بأمر أبو بكر بالاسلام عندما علم بالبعثة المحمدية ، واسمه عتيق ، أو عبد الكعبة المكرمة ، وسماء النبى عليه الصلاة والسلام عبد الله . وقالوا أن أمه كان لا يعيش لها أولاد ذكور ، فلما رزقته وعاش سمته عتيقا لأنه عتق من

---

(١) الناصبية والناصبون الذين يناصبون عليا وأولاده العداوة .

الموت ، وقيل سمته عبد الكعبة « المكربة » لأنها نذرت أن تسميه عبد الكعبة . ثم اختار له صديقه محمد ( عليه الصلاة والسلام ) أن يكون عبد الله .

وكان يمتاز من بين قريش ، بأنه عالم بالأنساب ، فكان نسبة العرب ، وكان له علم بأخبار الأولين ، وكان تاجرا معروفا بالأمانة والصدق ، وإن لم يكن كمعرفة محمد ( عليه الصلاة والسلام ) بذلك ، ولعل الأمانة قد سرت من صديقه محمد عليه الصلاة والسلام فقد كانا صديقين وتربين لتوافق مشاريعهما في الجملة ، وإن كان أبو بكر لم تكن عنده نزاهة محمد عليه الصلاة والسلام حبيبه وخليفه في البعد عن الأوثان ، فالفرق بينهما كالفرق بين من يصنعه الله تعالى على عينه ليكون رسولا نبيا ، وبين من خلقه الله تعالى صاحباً برا تقياً .

كانت الصحبة تجعلهما كالتعاشرين في كمال الخلق ، حتى أنه عندما بدت ارهاصات النبوة ، وابتدأ البيعت ، كانت تسأله خديجة عن صاحبه إذا غاب وهو يحضر إليها عندما تقلق عليه ، وتقول له : « يا عتيق أين ذهب »

يقول الرواة ان أبا بكر أسلم قبل أن يطلب اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ أنه قد كان يتوقع ظهور نبوة صديقه محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنه قد سمع كلام ورقة ، وعلم من خديجة حديثه لها ، وكان يوما عند حكيم بن حزام ، إذ جاءت مولاة له ، فقالت ان عمك خديجة تقول في هذا اليوم ان زوجها نبي مرسل مثل موسى ، عندئذ أدرك أبو بكر أن ما توقعه قد وقع ، وأن النور أشع ، ولم يبق الا أن يستضيء به ويعيشو اليه ، فأنسل الى النبي عليه الصلاة والسلام ، فأسلم إذ طلب اليه النبي عليه الصلاة والسلام ، وما كان طلبا لجاهل . بل كان طلبا ممن عرف ولم ينكر واستسلم وأذعن لله تعالى (١) .

ولذلك روى ابن اسحق في سيرته أنه بلغه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما دعوت أحدا الى الاسلام ، الا كانت عنده كبرة ، ونظر وتردد الا ما كان من أبي بكر ما عكم (٢) عنه حين ذكرت » .

فنفس أبي بكر كانت سائغة الى الاسلام قبل دعوته ، لما رأى من ارهاصات النبوة ، ولما علم من كلام ورقة ، ولأنه كان الصديق الوفى والحبيب الولي لمحمد عليه الصلاة والسلام .

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) عكم عنه : أى تردد وفكر وانتظر .

ولقد كان لاشراق نفسه ، ولصفو فؤاده الى الحق ، والاتجاه اليه انه كان يرى الرؤى التى يكون تأويلها تبشيريه بالايمان .

جاء فى الروض الأنف « من أسباب توفيق الله له ( أى لأبى بكر ) أنه رأى القمر نزل مكة المكرمة ، ثم تفرق على جميع منازلها وبيوتها ، فدخل فى كل بيت منه شعبة ، ثم كان جمعه فى حجره ، فقصها على بعض الكتائبين ، فعبّر بها له بأن النبى المنتظر الذى قد أظل زمانه يتبعه فيكون أسعد الناس به ، فلما دعاها صلى الله تعالى عليه وسلم أجاب » .

دخل أبو بكر فى الاسلام فاستأنس به النبى عليه الصلاة والسلام بأبلغ مما كان واشتدت بينهما الصّحة ، فبعد أن كانت الصّحة مبنية على مجرد الاستئناس النفس والخلقى ، صارت الأنسة بالايمان بالله وحده ، وبالمؤازرة فى شدائد الحياة ، واتخذ محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) من مكانة أبى بكر ، وأنس الناس ومكانته عندهم قوة لدعوة الحق يدعو بها ، فوق ما كان له هو عليه الصلاة والسلام من قوة نفس ، ومكانة عند الله وعند الناس .

### تتابع المخلصين :

٢٠٩ — باسلام أبى بكر تجاوز الاسلام حجرات بيته ، لقد كان فيها مقصورا على اسلام الثلاثة الذين يعاشرون النبى عليه الصلاة والسلام وهم زوجة الكريمة ، وربيبه الأمين على ، وعشيرته الوفى زيد ، ولسنا نذكر فى ذلك ترتيبا ، وان كنا نؤكد فى غير تلبث ولا موارد أن أولهم باجماع المسلمين الطاهرة التى أزرت النبى عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، ووقت انبلاج فجر البعثة ، وبعد الأمر بالتبليغ ، وكان فضلها عند الله عظيما .

بعد اسلام أبى بكر تتابع الاسلام فى نفر ممن لهم بالنبى عليه الصلاة والسلام مودة سابقة ، أولهم بالصدىق صداقة ، وكان فيهم استعداد ، كان أول من أسلم بعد بيت النبوة وأبى بكر عثمان بن عفان ، وقد كانت له بالصدىق صداقة ، وله بالنبى محبة ، ويريد أن يتصل به بنسب ، كان يريد أن يكون له صهر ، فانه عندما بلغه أن محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) أنكح ابنته رقية عتبة أصابته حسرة ، ولنترك له الكلمة . فهو يقول :

كنت بفناء الكعبة فقل ان محمدا صلى الله عليه وسلم أنكح عتبة ابنته رقية فدخلتنى حسرة ألا أكون قد سبقته اليها فانصرفت الى منزلى ، لأجد سعدى بنت كريض ، فأخبرتني أن الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم . . .

وقال انها حثته على اتباعه ، وان لم تكن قد ذكرت لمحمد صلى الله عليه وسلم اسلامها . ثم قال : « وكان لى مجلس من الصديق ، فأصبت فيه وحده ، ( فحثه الصديق على الايمان ) قال ومر النبى عليه الصلاة والسلام ومعه على ، فقام أبو بكر فسار ، فقعد النبى صلى الله عليه وسلم . ثم أقبل على ، فقال أحب الله تعالى الى جنته ، فانى رسول الله تعالى اليك والى جميع خلقه ، فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية . »

وكان زواجه برقية الأمنية التى كان يتمناها من قبل ، وأصابته حسرة لسبق عتبة بن أبى لهب اليها ، وذلك لأن أبا لهب بلغت به الجاهلية العمياء أن حمل ابنه على تطليق رقية عندما دعا محمد صلى الله عليه وسلم عشيرته للاسلام فوجد عثمان طلبته قد هياها الله تعالى له ، فاجتمع عنده الخير العظيم بالاسلام ، ثم بالصر ، ثم برقية ، فكان ذلك خيرا عظيما .

ثم أسلم من بعد ذلك الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن عبيد الله بدعوة أبى بكر . اذ كان ذا قرابة به ، ويظهر أن أولئك جميعا كانوا بدعاء أبى بكر ، لأنه كان محببا فى قومه ، وقد ذهبوا جميعا الى النبى عليه الصلاة والسلام ، وأعلنوا اسلامهم ومؤازرتهم .

وأسلم من بعد هؤلاء أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله ابن عبد الأسد ، وهو زوج أم سلمة التى تزوجها النبى عليه الصلاة والسلام بعد موته ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيد بن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل الذى كان أبوه من الحنفيين الذين نفروا من عبادة الأوثان ، وزوجه فاطمة ابنة الخطاب ، وهكذا أخذ الجمع يكثر واحدا بعد آخر .

وكانوا يستخفون فى صلاتهم ، وقبل أن نسير فى بقية درجات الدعوة والاستجابة نسارع الى الصلاة نبين وقت فرضيتها .

## فرضية الصلاة

٢١ — عندما نزل قوله تعالى : « ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » . كان التكليف لتبليغ الرسالة والدعوة الى أمر الله ودينه ، ولا دين بغير صلاة ، بل لا بد لكل دين من صلاة ، لأنه لا بد لكل دين من عبادة ، ولا عبادة من غير الصلاة ، فهى عمود الدين ، وركنه الركين .

ولذلك اقترن التبليغ بفرضية الصلاة اقترانا زمنيا ، لأن الصلاة مقترنة بكل دين اقترانا عمليا .

ولقد قال الرواة ان الصلاة فرضت ركعتين بمجرد البعثة المحمدية ، وكانت تصلى مرتين ، أولاها في الصباح ، والثانية في المساء ، وفرضت ركعتين في كل منهما ، ولقد قال في ذلك المزي من أصحاب الشافعي رضى الله عنه ، ان الصلاة كانت مفروضة قبل الاسراء ، كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، ويشهد لهذا قول الله تعالى : « وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » .

ولقد قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها فيما رواه ابن أختها عروة بن الزبير ، فرضت الصلاة ركعتين ، ركعتين ، ثم أيد الله تعالى أنها في الحضر أربعاً وأقرها على فرضها في السفر ركعتين ، وبهذا يتبين أن الصلاة كانت مفروضة من أول الاسلام ، وظاهر المروي أنها فرضت ركعتين ، وفي وقتين اثنتين وهما في العشي والإبكار ، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها .

هذا هو المفروض على الكافة ممن يسلمون ، أما التطوع فبإيه مفتوح والنبي مأمور بكثرة الصلاة ، وقد قال تعالى مشيراً الى طلب الصلاة الكثيرة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « يأيها المزمّل قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، انا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ، ان ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً ، ان لك في النهار سبحة طويلاً » .

وذكر الزواة أن جبريل روح القدس هو الذي علم النبي عليه الصلاة والسلام الوضوء ، فقد ذكروا أن جبريل عليه السلام نزل عليه ، وهو بأعلى مكة المكرمة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي ، فتبع الماء ، فتوضأ جبريل ، وعلم النبي عليه الصلاة والسلام بذلك الوضوء قبل الصلاة .

وقد روى كتاب السيرة ذلك الخبر بسند غير متصل ، ولكن روى متصلاً عن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه .

وبهذا يتبين أن الوضوء فرض لكل صلاة ، وكانت فرضيته وهو عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة ، وقد استمر من بعد ذلك ، وكان والصلاة ركعتان مرتين واستمر وقد صارت أربعاً في الظهر والعصر والعشاء ، وثلاثاً في المغرب وركعتان في الصبح ، وذلك غير السنن على ما هو مبين في فقه العبادات .

ولكن ذكر العلماء أمرا لا جدوى فيه من حيث العمل ، وهو أن فرضية الصلوات المكتوبة والتي فرضت في المعراج قبل الهجرة بسنة على ما سنحقق ان شاء الله تعالى ، فقالوا أن الصلوات المكتوبة قد نسخت الاكتفاء بصلاتين ، وأن ذلك ثابت بعمل النبي عليه الصلاة والسلام عملا متواترا ، وأنعتقد عليه الاجماع ، وصار معلوما من الدين بالضرورة بحيث من ينكره يكون كافرا •

وقد أشار القرآن الكريم الى مواقيت هذه الصلوات الخمس ، فقد قال تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » ، وقد قالوا ان الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، ولا يمنع أن يراد الصلاة المثلى •

وقال تعالى مشيرا الى اوقات الصلوات كلها : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » •

فقد أتى بصلاة الصبح مشيرا بقوله تعالى : « حين تصبحون » وبصلاة العصر مشيرا بقوله تعالى : « وحين تمسون » وبصلاة المغرب والعشاء مشيرا بقوله تعالى « وعشيا » فهما العشاءان ، حتى قال بعض الفقهاء ان وقت المغرب والعشاء واحد ، يصلى أسبقهما أولا ، وثانيهما آخرًا ، وأتى بصلاة الظهر بعبارة تكاد تكون صريحة وهي قوله تعالى : « وحين تظهرون » •

## وأنذر عشيرتك الأقربين

واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين

٢١١ — دخل عدد من كبار قريش ، وان كان قليلا ، ولكن تسامع الناس بالدعوة المحمدية التي جاءت برسالة المهية ، حتى كان علمها قد سرى سريان النور الى داخل البيوت ، حتى قيل ما من بيت من بيوت قريش الا علم بالاسلام ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يخاطب من السماء ، فالأخبار في خفاء وقد تعلم ، وان لم يكن دعا اليها ، ولم يحرك ذلك عنادا ، ولا خصاما ونزالا ، لأنها ما أصابت اهتماما الا ممن كان لهم صفاء نفسى لم يعكره تعصب ، أو لجاجة في عناد ، فكان الأمر بين متبع وان كان عدده قليلا ، وغير مهم ، وان كان كانوا الاكثرين •

وفى هذه الأثناء دخل الضعفاء ، وهم دائما نفوسهم أصفى وأكثر انصافا ، وادراكا ، لأنهم يحسون بالظلم ، ويرجون التغيير ، فإذا جاء نور

يكونون أول من يعيشوا إليه ، ويذهب في استجابة ضارعة ، مع رجاء الانقاذ ولو في المال ، فما كانت حالهم صالحة لأن تبقى ، ولا يمكن أن يرضى الحق بقاؤها ، لأن حالهم شقاء ولا يزيدهم شقاء إذا كان الخير مرجوا ، وتغيير الباطل مأمولا ، فصادق يفتح باب الأمل ويغلق باب اليأس ، يكون في رجاء التغيير سلوان وأن كانت الحال مؤلة أسيفة •

لذلك دخل الضعفاء والعبيد في الاسلام أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه وخباب بن الارت ، وبلال الحبشي وغيرهم كثير ، والدعوة بينهم ، يستطيعون سماعها ، ويصدقون الاستجابة لها ويستعذبون كل عذاب في سبيلها •

وكانت الاستجابة للدعوة لا تعتمد على معجزة ولا دليل يتحدى به ، بل يرون الحق سائفا ، وهو يدعو الى نفسه وما نزل من القرآن الكريم يستجيبون له ، لأنهم يرونه الحق الواضح ، وفي الداعي وهو محمد صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين ، وإنما يقدم الدليل للمرتاب ، ويوضح إذا كان الحق يحتاج الى مقدمات ونتائج ، فإن النبي هو الأمين ، وأن الذي يسمعون هو القرآن الكريم ، وأن الذين استجابوا من الكبراء هم فضلاء الجماعة وأماؤها •

والدعوة تسرى سريان الماء العذب في خفاء العشب الأخضر ، والزهر الأنضر ، ولكن لا بد أن تستعلن ليعلمها القريب ، وتكشف في وضوح النهار المشرق ، ويسرى علمها ، فالخفاء مهما يكن لا يخلو من ابهام •

ولذلك لما سرت الدعوة المختفية المتريبة في خلية نمائها ، طلب الله تعالى الى رسوله أن يعلنها ، فقال أمرا له : « وأندر عشيرتك الأقربين ، وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل اتى برىء بما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم » •

تقدم النبي محمد عليه الصلاة والسلام وجمع نبي هاشم وبنى عبدمناف ، وغيرهم من بطون قريش ، جمعهم في الصفا ، وقال لهم : أرايتم لو أخبركم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ، قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا ، ثم ساق لهم ما يدعوهم اليه ، ولنترك الكلمة لرواية البخاري في صحيحه : عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد قال لما نزلت الآيات : « وأندر عشيرتك الأقربين ، وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » سعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادى ، يا بنى فهر ، يا بنى عدى لبطون قريش - حتى اجتمعوا فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا ، لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي صلى الله



تعالى عليه وسلم : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ، قالوا ما جربنا عليك كذبا ، قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ، فتنزل قوله تعالى : « قبت يدا أبي لهب » ، وهذا يدل على أن كبير المعارضة في تلك الدعوة المباركة هو أبو لهب عم النبي عليه الصلاة والسلام ، لكيلا يعلم الناس أنها عصبية أسرة أو بطن من قبيلة ، إنما هي رسالة الله تعالى إلى خلقه .

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتک الأقربين » الآيات وقف وقال يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا صافية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مال ، لا أغني عنك من الله شيئا . وهذا الحديث مخرج على شرط البخاري ، وروى مثله الامام أحمد في مسنده .

٢١٢ — ولقد جاء في التاريخ الكبير لابن الأثير : لما أنزل الله تعالى على رسوله « وأنذر عشيرتک الأقربين » اشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم وضاق ذرعا ، فجلس في بيته كالمريض ، فأتته عماته يعدنه ، فقال ما اشتكت شيئا ، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي ، فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم ، فانه غير مجيبك .

فدعاهم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين .

فبادرهم أبو لهب فقال : هؤلاء عمومتك ، وبنو عمك ، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك فحبسك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك بطون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم في هذا المجلس ، وإن هذا من حكمة البيان ، فقد بادر أبو لهب بخلق جو عنيف من الاعتراض الشديد ، والانداز والوعيد ، وبذلك يشجع كل معارض ، ولو كان في الأصل مترددا ، فزال التردد إلى حال معترضة ، ولذا أجمل قوله إلى مجلس آخر ، حتى يزول غبار الاعتراض الذي أثاره أبو لهب .

ويقول ابن الأثير دعاهم مرة ثانية ، ووقف فقال :

« الحمد لله أحمدته وأستعينه ، وأثق به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ثم قال : « ان المرأى لا يكذب أهله ، والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وانها للجنة أبدا ، أو للنار أبدا » .

وفى هذه المرة لم يبادر أبو لهب ، بل بادر أبو طالب حبيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وان لم يتبع ، فقال غير موافق ، ولكن يعاون ، وغير متبع ولكن من غير معاداة .

قال أبو طالب : « ما أحب الينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقا لحديثك !! ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وانما أنا أحدهم ، غير انى أسرعهم الى ما تحب فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأنفك » . غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

ولم يسكت أبو لهب ، ( والباطل لجوج دائما ) بل قال هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم .

فقال أبو طالب ( مصرا ) والله لنمنعنه ما بقينا .

### بين أبى طالب وأبى لهب :

٢١٣ — ان موقف أبى طالب لا يحتاج الى تعليل : لأنه موقف الشفيق على من كفه ومن رياه ، فقد كان كافله بعد جده عبد المطلب واختاره عبد المطلب دون بقية بنييه ، ولم يكن أسنهم ، فكان بمنع للنبي مستجيبا لداعى الشفقة والمحبة ، ومستجيبا لوصية أبيه بأن يحفظه ويحوطه ، فقام بحقها ، حتى بعد أن صار محمد صلى الله عليه وسلم شابا سويا قويا ، ووجد أن الحياطة تكبر بكبر الوصى به فتكون معاونة بعد أن كانت وصاية ، وتكون مدافعة بعد أن كانت رعاية .

انما الذى يحتاج الى تعليل هو موقف أبى لهب فما أعلن ما توجيه القرابة بل ما توجيه العصبية التى جعله مع محمد صلى الله عليه وسلم عصبته وقريبه المقرب ، وأن عليه أن يحميه ، لم يفعل ذلك ، ولم يسكت

مفوضا الأمر الى أبى طالب أخيه ، كما سكت حمزة والعباس ، ولم يكونا قد دخلا فى الاسلام ، لم يفعل ذلك أبو لهب .

ولعلنا لو أشرنا قليلا الى طبيعته ، وما أحيط به لسهل علينا تفسير موقفه ، أو أدركنا فعله لهذا الموقف الذى عادى محمدا عليه الصلاة والسلام وخالف قرابته مسلمهم وكافرهم على سواء .

لقد كان عبد العزى ( أبو لهب ) طبيعة غير طبيعة اخوته ، فاخوته يطلبون السيادة والمشرق والعزة بالخلق العربى الصميم ، وهو يطلب المال والدنيا ، وفيه أثره ، وحب الذات ، ومن يكون كذلك يميل دائما الى الابتعاد عما يثير المتاعب ، ويؤثر فى المال ويوجد اضطرابا ، وبذلكائه الشديد أدرك أن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام تقدمه لمتاعب لمن يعتنقها أو يحميها ، فقاومها ، وشدد فى المقاومة ، وطبيعته المادية جعلته لا يفكر فى أى أمر معنوى ، ولا فى رجاء لنصرتها ، وطبيعة الأثرة فيه جعلته لا يفكر فى احساس غيره ، ولا فى معاونته من يحتاج الى معاونة طويلة مديدة من أسرته .

وتلك الطبيعة التى لا تريد الا استقرارا لأجل المال ، وما يتصل به من منع تكره تغيير ما كان عليه الآباء ، بل ترغب فى أن تسير الحياة نمطية ، لا تغيير فيها ولا اضطراب .

ولعل هذه الطبيعة هى التى جعلته لا يخرج مع قريش فى غزوة بدر الكبرى ، وخرج العباس وأن كان كارها محرجا ، وهناك عامل ثان ، فوق ذلك العامل النفسى ، وهو زوجه أم جميل الأموية أخت أبى سفيان ، فقد كانت عاملا مذكيا لتلك الطبيعة المعاندة ، كانت تكره رسول الله محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتكره زوجه أم المؤمنين خديجة ، والتقى كرههما فى قرن واحد من يوم زواجهما الميمون الطاهر ، ولا ندري أكان الزواج هو السبب أم كان غيره .

وبهذه الكراهة كانت تحرضه ، وتؤججه اذ تصورت أن نيران العداوة قد تطفئها القرابة ، وعلو شأن محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته وجهاده ، وذكر اسمه فى كل بلدان العرب ، وتجاوز ذلك الى البلدان المصاغبة ، كالرومان والشام ومصر .

ولقد كانت تتردد أخت أبى سفيان فى أن تقرض الشعر ذما للنبي

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتسميه مذمما ولا تسميه محمدا ، فقد قالت  
فى ذلك :

مذمما قلينا ، ودينه أبينا ، وأمره عصينا

ولقد تلقى شعرها هذا بالاستضحاح ، وعد ذلك ليس شتما له ، لأنها لم  
تذكر اسمه فى شتمها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « انظروا كيف يصرف  
الله تعالى عنى شتمهم ولعنهم ، يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما ، وأنا محمد » ،  
وكان فيها مع ذلك صفة السفهيات من النساء ، انها كانت توشى بالنميمة ،  
فتوقد نيران العداوة ، وقد قال الله تبارك وتعالى فيها : « ثبت يدا أبى لهب  
وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة  
الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » \*

هذا هو أبو لهب ، وهذا هو السر فى عداوته للحق ، ولحمد عليه  
الصلاة والسلام مع قرب رحمه ، ومع أنه سر لولادته وقت أن ولد \*

٣١٤ — هذا أبو لهب ، وذلك موقفه من دعوة النبى صلى الله تعالى  
عليه وسلم التى كرهته فيه بعد ود ، أو أن شئت فقل محبته له فى صباه حتى  
بدا ما يتخالف فيه الطبعان ، طبع العم المادى ، وطبع ابن أخيه الروحى الذى  
لا يحرص على المال \*

أما أبو طالب ، فلم يكن عدوا لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام ،  
وعباراته تومئ بأنه لا يعاندها ، وما عند أبى لهب من صفات تناقضها ،  
صفات أبى طالب توافقها فى أصلها ، فأبو طالب لم يكن أثرا يحب المال ،  
بل كان فيما يبدو من خلق يجعله يميل الى الايثار بالمحبة ، فآثر التعب على  
الراحة فى مناصرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينما أبو لهب يؤثر  
الدعة والاستقرار على أى صورة كانت ، كان أبو طالب شيخ البطحاء لا يؤثر  
الدعة والاستقرار مع الضيم ، بل يقاوم الضيم راضيا بملاقاة أسباب الارغام  
بقلب صابر قوى \*

وبينما كان أبو لهب محبا للمال مؤثرا له على كل شئ من أسباب  
الحياة الكريمة كان أبو طالب يكتفى من المال بالقليل من غير أن يبذل مروءته  
فى سبيل طلبه ، فالمرءة عنده أولى بالطلب من الاستكثار من المال ، ولذلك  
كان محدودا ، ولم يكن محدودا ، ولكل هذا قبل أبو طالب أن يكون لـمحمد  
عليه الصلاة والسلام نصيرا ، لأن الشفقة والمروءة ، والمناصرة العربية  
الكريمة تقاضته ، فاستجاب لسجيته له ، وما وهن ولا استكان ، ولا ولى ، بل  
استمر مناصرا فى كل الشدائد ، حتى قبضه الله تعالى \*

وليست الغرابة فى نصرته للنبي عليه الصلاة والسلام ، انما الغرابة فى انه لم يدخل فيما يدعو اليه !! ذلك تقدير العزيز العليم ، وقد ذكرنا من قبل أن ذلك دفع لوهم يقوله بعض الواهمين ، ان دعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت عصبية جاهلية •

ولقد ذكر ابن كثير أنه لو أسلم كما كان يظهر من لحن قوله أنه يميل الى الاسلام ، اذ يقول :

لولا الملامة أو حذار سببة لوجدتني سمحا بذلك مبينا

لو أسلم لكان المشركون له أعداء كما عادوا محمدا عليه الصلاة والسلام ، وقد كان عندهم من قبل ذلك الأمين المحبوب الذى يسمع قوله ويطمأن الى حكمه ، ولكن أراد الله تعالى أن يبقى على دين قومه ، لى يكون ردا للنبي وعصدا فى وسط المدلهمات ، وقال ابن كثير فى ذلك : « وكان رسول الله أحب خلق الله تعالى اليه ( أى الى أبى طالب ) ، وكان يحنو عليه ، ويحسن اليه ، ويدافع عنه ، ويحامي ، ويخالف قومه فى ذلك مع أنه على دينهم ، وعلى خلتهم ، الا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبا طبيعيا لا شرعيا ، وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله من الحماية ، اذ لو أسلم أبو طالب ، لما كان له عند مشركى قريش وجاهة ، ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولا اجترءوا عليه ، ولدوا أيديهم والسنتهم بالسوء اليه ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، وقد قسم خلقه أنواعا وأجناسا (١) •

٢١٥ — كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ابتداء سرية يدعو من يعرف من أصدقائه وأوليائه الذين كانوا كنفه ، ثم يدعو كل من ذاق بشاشة الاسلام وخالطت نفسه من أصدقائه وأحبابه ، فكانت تصغى اليه الأفئدة طالبة الحق ، بقوة المحبة للخل الوفى ، وللحق البدى ، من دعوة علنية ، ولكن الأمر النوراني لا يخفى طويلا ، فعلم وان كان فى أضيق دائرة •

٢١٦ — وكان لابد أن يتولى النبي عليه الصلاة والسلام الاعلان ، والجهر ، وكما بدا بدعوة أهل بيت النبوة ، الذين أشرق الوحي عليه ، وهو

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٤١ •

بينهم ، فقد أخذ بأمر الله تعالى يعلنه بين ذوى قرابته يؤمن من يؤمن ، ويكفر من يكفر .

ولعله يبدو بآدى الرأى واضحا جليا أن أكثرهم قد رد من عشيرته ، ولم يستجب الا بعض نساء العشيرة الطاهرة كصفية ، وفاطمة امرأة أبى طالب ، وكان من هذه العشيرة أول من جاهر بالعداوة ، وهو قريبه القريب عمه أبو لهب ، وفى هذا دليل مادى على أن الدعوة ما كانت من انبعاث قبلى ، بل كانت استجابة لدعاء ربانى .

كان اعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، اعلانا للعرب أجمعين ، فقد كانت بأعلى الصفا ، وتسامع بها الناس ، وإذا كان الخطاب للعشيرة خاصة ، فقد كان الاعلام لقريش ، ثم اظهرا للنبي بعث رحمة للعالمين ، تسامعت به الركبان ، وتذاكر فى دعوته الذين يغشون مكة المكرمة من غير أهلها ، وبذلك انتشرت الدعوة المحمدية بتبليغ رسالة ربه الذى كلف رسالة ربه فى غير معاندة للمشركين . ولا مجابهة لهم ، ولا تحد ملتهم .

ولقد كانت تسير فى استخفاء ، كما يسرى الماء العذب فى أرض مغطاة بالأعشاب ، ولكنه يثمر ، وينبت ، وينمى ولو كان مستخفيا ، وكان الذين ارتضوا الاسلام دينا يستخفون بعبادتهم ولا يظهرونها ، ويذهبون الى شعاب مكة المكرمة يصلون فيها ، وما عرف أنهم كانوا يذهبون الى الكعبة الشريفة مجاهدين متحدين ، ولكن كانوا يستخفون بهذه العبادة .

ولقد روى اسلام كثيرين فى ذلك وهم عليّة الصحابة الذين بنيت دعوة الاسلام عليهم ، وكانوا الدعامة الأولى فى قواعد البلاغ المحمدى .

## فاصدع بما تؤمر

٢١٧ — نزل فى تدرج الدعوة قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، انا كفييناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر ، فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فكانت هذه الآيات الكريمة دعوة الى أن تبلغ الدعوة أقصى مراتبها ، وأبعد تكليفاتها اثرا فى التكليف ، وتأثيرا فى النفوس .

ومن كتاب السيرة من يرى أن التكليف الكامل بدعوة الناس أجمعين قد ابتدأ من نزول قوله تعالى : « وأندّر عشيرتك الأقربين » ومن هؤلاء ابن كثير ، فقد قال في نزول هذه الآيات الكريمات ما نصه « بعنوان أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بإبلاغ الرسالة • قال الله تعالى : « وأندّر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل اني برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم ، الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ، انه هو السميع العليم » وقال تعالى : « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » وقال تعالى : « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » أى ان الذى فرض عليك ، وأوجب عليك تبليغ القرآن لرادك الى دار الآخرة ليسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدا (١) •

ونرى من هذا التقرير أن الامام الحافظ بن كثير لا يرى أن ثمة تدرجا فى الدعوة ، وانه من وقت أن أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بانذار عشيرته الأقربين كانت الدعوة عامة ، وأن الاختصار فى الآية على ذكر العشيرة الأقربين لا يفيد قصر الدعوة فى هذه الآية عليهم ، بل يفيد الابتداء بهم ، أو مواجهتهم ، مع مخاطبة غيرهم ، ولا يفيد قصر الدعوة عليهم ، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بها الأحمر والأبيض والأسود والعبيد والأحرار •

ونحن نوافق على عموم الرسالة المحمدية ، وانها ليست بمقصورة على قرابة قريبة أو بعيدة ، ولكن هذا تدرج فى الدعوة والخطاب ، وان ذلك يتضمن دعوة غيره من المكلفين ، بلا فرق بين قريب وبعيد ، فالجميع مكلفون بالاستجابة من غير تفريق ، ونحسب أن قوله تعالى : « وأندّر عشيرتك » الخطاب فيها مقصور على العشيرة ، ولذلك لم يدع محمد عليه الصلاة والسلام الى الاجتماع بهم للذى كان فى الصفا غيرهم ، وليس من المعقول أن يكلف العامة بخطاب طائفة من الخاصة ، بل لابد من توجيه الخطاب اليه ، فجاء فى قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » الى آخر الآيات •

ويزكى هذا ما جاء عن ابن اسحاق ، فقد جاء ما نصه : ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ثلاث سنين من البعثة أن يصدع بما أمر ، وأن يصبر على اذى المشركين ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، واستخفوا بصلاتهم من

قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر يصلون في شعاب مكة المكرمة ، اذ ظهر عليهم بعض المشركين ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه ، فكان أول دم أريق في الاسلام (١) .

وقد قال ابن اسحاق في موضع قبل هذا :

دخل الناس في الاسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة المكرمة ، وتحدث به ، ثم ان الله عز وجل أمر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصدع بما جاء به ، وأن يبادي الناس بأمره ، وكانت المدة بين ما أخفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واستقر بها الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه - ثلاث سنين فيما بلغنى من مبعثه ، ثم قال تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .

ومن ذلك نستطيع أن نقول ان الدعوة المحمدية في مدة ثلاث السنين تدرجت في ثلاث مراحل ، أشار اليها من قبل الامام ابن القيم في زاد المعاد اذ ابتدأت الدعوة من النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن بيت النبوة سرت الى من يتصل بهم من أصدقاء وخلان ، فكان من النبي عليه الصلاة والسلام الى صديقه الأول أبي بكر عتيق بن أبي قحافة ، ومن عتيق سرت الى أصدقائه كعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، ومن بيت النبوة سرت الى صفية والزبير ، وغيرهم من عشيرة النبي عليه الصلاة والسلام وأقربائه الأديين ، وهذه هي مرتبة الدعوة الأولى التي أشار اليها ابن القيم في ترتيب مراتب الدعوة .

ثم كانت المرتبة الثالثة من بعد ذلك ، وهي مرتبة الدعوة العامة في قريش ومجاہتهم بدعوة الحق ، من غير أن تكون مقصورة على بيت النبوة ، أو على أقرباء النبي عليه الصلاة والسلام .

وهي في كل مرتبة لا تقف عند الحدود التي ابتدأت فيها ، بل تسرى الى غيرها ، سريان النور الى الظلام ، وفي مرتبة العشيرة الأقربين خرجت الى قريش كلها ، فما كان يدعو عشيرته من آل عبد المطلب وبنى هاشم في كن مستور من الأرض ، بل كان يدعوهم جهره في غير موارد .

---

(١) سيرة ابن هشام طبع الحلبي ج ١ ص ٢٦٣ .



٢١٨ — وقد يسأل سائل ، ما الدليل الذى كان يسوقه النبى فى هذه الدعوة ، فقد كان الذى نزل من القرآن الكريم قليلا ، وتوالى نزوله بعد ذلك ، ولم يذكر أن أحدا جادل حول القرآن الكريم ، أو طلب دليلا واستدل به ، فما الذى كان يهديهم الى الاتباع من غير أن تعرف دليلا قدام ، وبرهانا أقيم .

والجواب عن ذلك أن الاستجابة كانت للحق فى ذاته ، ولما عرف من تاريخ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذ كان الصادق الذى لم يعرف كذبة قط ، والأمين الذى لم يقترب عمل له بريئة قط ، والصفى فى نفسه ، والمحسوب لمكارمه ، والعادل الذى لم يعرف فيه انحراف فكرى ، بل هو المدرك المستقيم الإدراك فى كل معاملاته ، وكل ما اتصل به من أعمال .

ثم كان هذا القرآن الكريم الذى ابتداء يتلوه عليهم ببيانه الذى فاق كل بيان ، وعلا عن أن يتسامى إليه أى انسان ، وأن اشراق نفوس هؤلاء ، وحيرتهم فى الأوثان ، إذ يرون الأوثان تفقد قوتها فى نفوسهم ، وتتهار مكانتها فى قلوبهم ، وبقياء الأديان السماوية تتورد على عقولهم ، وبعض سنن إبراهيم ومآثره يزاولونها فى حجبهم ، وينسبته اليهم يعتزون ويفخرون ولم تسبق الى نفوسهم نزعة حسد ، أو حقد ، أو منافسة مقيئة ، مما عوق غيرهم .

كانت نفوس الذين اتبعوا الرسول والذين آمنوا معه نفوسا صافية ، وما علاها من غبار الوثنية زال وشيكا ، فكان الحق وحده هو الذى لمع نوره وجذبه اليهم ، فوق ما كان ، مع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من بينات . ولقد قسم الباحثون فى أخلاق الناس القلوب عند تلقى الحق ، الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : القريب الى الهداية هو من يقتنع بالحق بمجرد بيانه ، فبيانه وحده يهديهم الى سواء الصراط ، ولا يحتاجون الى دليل غير سراج الحق المزهى ، وأولئك هم الذين ينظرون الى الحق ، وقد خلت قلوبهم من هوى اللذات والشهوات ، فأشرقته بالحكمة وصفت ، فدخل نور الهدى فنطقوا به ، وعملوا به ، وساروا على منهاجه ، وأولئك لا يطالبون حامل الحق الداعى اليه ببرهان يقدمه ، فالحق وحده يحمل فى نفسه دليل صدقه ، إذ اشرأبت اليه النفوس ، ومن هذا القسم أولئك الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى أول الدعوة .

القسم الثانى : قوم امتلأت عقولهم بمعلومات سابقة ، أو اختلطت فى نفوسهم نوازع الحق ، ونوازع الباطل ، وفيهم ادراك يميزون به بين الحق

والباطل ، وأولئك يحتاجون الى دليل ، لينفوا به خبث الفكر الذى خالط قلوبهم ، وأثر فى نفوسهم ، فالبرهان يعينهم ، وينير السبيل لهم ، وذات الحق لا يكفى بيانه لكى يستولى عليهم ، ويسيرهم الى الهدى ، فلا بد من دليل يرجح نوازع الهداية على غيره .

والقسم الثالث قسم غلبت عليه الضلالة ، وغلبت عليه شقوته ، فلا يتبع الحق لذات الحق ، ولا يزهر فى قلبه ، وليس له بصيرة مخلصه فى طلب الحق ، وفى الوقت ذاته قد طمس على بصيرته ، فحتم على قلبه ، وكان على ادراكه غشاوة ، وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين جعلهم الله أعداء للحق ، وهؤلاء يكون موقفهم معادة أصحابه ، وموقف أصحابه مدافعتهم ، فلا تكون العلاقة الا ممانعة ، يمنعون الحق من أن ينتشر ، ويمنعهم هؤلاء ليدفعوا الأذى ، ولذلك لا يكون بينهم الا السيف .

ولقد قال الغزالي أن قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، أن الله قوى عزيز » .

وكان المؤمنون الأولون خديجة وأبو بكر وعلى وزيد ، وعثمان والزبير ومن معهم من السابقين الأولين من الصنف الأول ، ثم جاء بعدهم ، من خاطبهم القرآن الكريم بالاعجاز وتحداهم ، فمنهم من اهتدى وأبصر ، ومنهم من ضل وغوى ، فكان المعتدى الأثيم . وكان الجهاد ، فكانوا أهل السيف ، وما كان لصاحب دعوة خالدة أن يترك الشر يسيطر ، والحق يستخذى .

## استجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه

٢١٩ — استجاب محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه ، وبعد أن كان يدعو من يدعو فى مناجاة ، ثم اقتضت الدعوة العلنية على عشيرته الأقربين ، بعدئذ أخذ يدعو كل من يلقاه ، وأخذ يغشى الأسواق التى حول مكة المكرمة يدعو الى دينه ، وتبليغ رسالة ربه ، غير مدخر جهداً فى الدعوة الى الحق والوحدانية بعبادة الله تعالى وحده ، لا شريك له ، ويقول فى ذلك ابن كثير :

« المقصود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمر يدعو الى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يردعه عن ذلك

رأى ، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتبع الناس فى أُنديتهم ، ومجامعهم ومحافلهم ، وفى المواسم ومواقف الحج ، يدعو من لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوى ، وغنى وفقير ، جميع الخلق فى ذلك شرع سواء ، وتسلب عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء » (١) .

وكان أشدهم اغلاظا عليه عمه عبد العزى ( أبو لهب ) ، وثانيهم عمرو ابن هشام الذى لقبه التاريخ الاسلامى بحق بلقب أبى جهل ، أما الأول فلم يكن منه أذى بدنى أو قولى للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن مبالغة فى مقاومة دعوته ، ولا يكتفى بالقعود عن حمايته ، وأما ثانيهما فقد كان فاجرا فكانت معاندته للنبي عليه الصلاة والسلام فجورا فى القول والعمل ، وللضعفاء اعناتا وبغيا ، وسنخسه بالقول فى حركة الاضطهاد ، والبواعث التى دفعته الى هذا الموقف الذى جره الى ذلك البغى المرذول الذى لا يقع من كريم .

وأبو لهب كان موقفه موقف محاربة الدعوة ، فكان يتبع محمدا عليه الصلاة والسلام فى التقائه بالقبائل العربية فى موسم الحج ، فكلما ذهب الى محفل أو ندى يدعو فيه ناكره ، ودعا السامعين الى ألا يستجيبوا .

روى الامام أحمد عن أبى الزناد عن أبيه ، قال أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق ذى المجاز ، وهو يقول : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه يقول : انه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه ، فقالوا هذا عمه أبو لهب » .

روى البيهقى مثل ذلك مع بعض الزيادة عن ربيعة هذا الذى ذكرناه أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذى المجاز وهو يتبع الناس فى منازلهم يدعوهم الى الله ، ووراءه رجل أحول تقذ وجنتاه ، وهو يقول : « أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم ، قلت من هذا قيل أبو لهب عمه » .

ونرى من هذا أن أبا لهب قبل أن يكون هو المشبب ، ولعله اختار ذلك لنفسه أو اختاره المعارضون للدعوة المحمدية ، فيكون ادعى الى تصديقه ، ان هو قريبه القريب ، فمع أنه أقرب رحما كذبه ، فهذا ترشيح لصدقه عليه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٠ .

الصلاة والسلام . وأنساه الحقد والضلال ، أن الحق ذاته له نور ساطع ، لا يحاجز دونه هذا وأشباهه ، ولكنه الأفق يتولد من ضيق العطن ، وغلبه الهوى ، وسيطرة المآرب المادة .

ومهما يكن فقد حمل محمد عليه الصلاة والسلام عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » وتقدم بمن هداهم الله تعالى به من صحب كرام اشتروا الهدى بالضلال ، والحق بالباطل ، واشترى منهم أنفسهم ، فكانوا السابقين ، ولنشر بكلمة الى من سبقوا ، وان كانوا عددا قليلا .

## السابقون السابقون

٢٢ — أشرنا الى سبق الأربعة الكرام خديجة أم المؤمنين ، سكن الرسول التي جعلت بيته روضة الاطمئنان ، ويسكن اليها بعد معاناة عداوة الأعداء ، والمناضلة في سبيل الله تعالى ، فيجد المواساة ، ويجد القلب الحبيب الودود ، وما أكرم الوداد ، ان يذهب ببرحاء العداء ، ويجعل الروح والريحان ، بعد ملاقة الكذب والبهتان .

ثم ذكرنا أبا بكر الصديق الولي الوفي ، والصديق الذي خلص قلبه لله تعالى ، واذا كان ابراهيم أبو الأنبياء خليل الله ، فالصديق كبير المصدقين خليل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أشرنا الى أنه ما عتم ان أسلم ، بل انه سعى الى الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام عندما علم من حكيم بن حزام ما جرى بين النبي عليه الصلاة والسلام وورقة بن نوفل وزوجه خديجة من مذاكرة في أمر الرسالة المحمدية .

وذكرنا اسلام على بن أبي طالب الذي صدق ابن عمه بعد تفكير وهو ابن عشر سنين ، وكان قد هم باستشارة أبيه ، ولكنه فكر وقدر وحده فعاد الى ابن عمه يعلمه بايمانه ، فكان المؤمن باقتناع مع الصغر وغضاضة الالهاب .

وذكرنا ايمان زيد بن حارثة الذي اثر جوار محمد عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث على أن يعود الى أبيه وأمه حرا ، فاختر الرق مع محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم على الحرية مع أبيه ، فجعله محمد صلى الله عليه وسلم الكريم ابنا له وحرا ، فكان وارثا ومورثا .

ثم ان اسلام أبى بكر جعل بعض أصدقائه ومن يألّفونه يستأنسون بالاسلام ، فقد كان ألّوفا محبوبا ، قال فيه محمد بن اسحاق : « كان أبو بكر مألّفا لقومه ، محبا سهلا ، وكان أنسب قریش لقریش ، وأعلم قریش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألّفونه لغير واحد من الأمر • لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو الى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه ، فأسلم على يديه فيما بلغنى الزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وطلحة ابن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهم أجمعين » (١) •

وقد قدم هؤلاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخذ أبو بكر بيث الدعوة لأصدقائه وخلائه ، وعارفه ، ثم ذهب بطائفة أخرى الى النبي عليه الصلاة والسلام منهم عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلم بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم •

أخذ العدد ينمى بفضل الله ، وأخلاص صفوة مختارة ممن صفت نفوسهم ، واستقامت قلوبهم حتى بلغ العدد ثمانية وثلاثين ، ومنهم نساء دخل الاسلام قلوبهن ، ومنهن أم جميل أخت عمر بن الخطاب ، وزوجها زيد بن نفيل كان من السابقين الأولين •

وقد أراد أبو بكر أن يخرج المسلمون مجاهدين بالدعوة الى الاسلام قبل أن يتكاثر الجمع ، ولكن محمدا عليه الصلاة والسلام صاحب الدعوة والتبليغ رأى التريث ، حتى يكون الجمع أوفر وأكثر عددا ، لانه مع العدد غزاة الكثرة النسبية ، وأن كانوا فى الحقيقة عددا قليلا ، ولكن الصديق مازال بمحمد عليه الصلاة والسلام حتى قبل أن يخرجوا من الاستخفاء الى الاعلان ، ويظهر أن الدعوة قد أعلنت بانذار العشيرة الأقربين ، وتذاكر الناس أمرها ، ولكن يندر فيهم من يتقبلها ، ويكثر فيهم من يعارضها ، ومنهم من لم يعرف لهم موافقة ولا مناوأة •

ومهما يكن فقد خرج أبو بكر ، ومحمد عليه الصلاة والسلام قام بعمل جليل قبل ذلك الخروج فقد أنبعث كل رجل الى عشيرته يدعو الى الاسلام فيها ، وخرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الى المسجد الحرام ، ثم قام أبو بكر خطيبا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) سيرة ابن هشام ، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ •

جالس • وقال ابن كثير فى روايته ما نصه : كان أول خطيب دعا الى الله والى رسوله ( أى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ) ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين فضربوه فى نواحي المسجد ضربا شديدا ، ووطىء أبو بكر ، وضرب ضربا شديدا (١) •

٢٢١ — بعد ذلك ، وخصوصا بعد اعلان الاسلام فى مخاطبة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب عند الصفا ، أخذ الاسلام ينتشر انتشار الضوء فى الظلام ، فأسلم بنو مضعون من أولاد كعب بن لؤى ، وأسلم عبيدة ابن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن نوفل ، وامراته فاطمة ، أخت عمر ابن الخطاب ، وعمير بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود الهذيلى ، وأسماء بنت أبى بكر — وهكذا غيرهم من أهل مكة الأحرار ، وإن لم يكونوا ذوى مال وذوى رئاسة •

ومن الضعفاء ، وقد كانوا أسبق الى الاسلام عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق ، وهو مولى الأسد اشتراه أبو بكر رضى الله عنه •

ومنهم صهيب بن سنان ، ويقال انه مولى عبد الله بن جدعان ، ويقال انه رومى ، ونسب الى الروم ، لأنه كان أسيرا فى أرض الروم •

ومنهم بلال الحبشى ، وكان مولى لبعض المشركين عذبه ، حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه •

ومنهم ياسر وعمار ابنه ، وأمه ، وقد كان ياسر من عرب قحطان من مذحج ، وعمار ابنه كان مولى لبنى مخزوم ، لأن أمه سمية كانت مولاة لهم ، فولدته على الرق ، والمولود على الرق يتبع أمه فى رقها ، ولا يتبع أباه فى حريته ، وكذلك كان نظام الرومان فى الرق الذى سرى الى العرب •

ومنهم خباب بن الأرت ، وغيره من الضعفاء الذين سارعوا الى الاسلام وقد سارعوا الى خير الدنيا وخير الآخرة ، وإذا كانوا قد أودوا ابتداء ، فقد نالوا الخير انتهاء ، وكما قال الله تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » •

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ س ٣٠ •

وقد دخل الاسلام بيوتا كثيرة فما من بيت الا علم بأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا كان العدد قليلا في ذاته ، فانه ما خلا بيت من بيوت مكة المكرمة من مسلم ، أو من قلب مال اليه ، وأحس أهل الشرك بأن دولة الأوثان تؤتى من قواعدها ، وأن الأحجار أخذت تفقد سيطرتها • ومن استمر متمسكا فعن أرب يريده باسمها ، لا عن إيمان بها ، فإنه كان يكفى أن يدعو محمد صلى الله عليه وسلم الى الحى القيوم الذى لا شريك له ، حتى تزايلت الأوثان عن مكانتها ، وما هو الا تفكير يسير حتى زالت الأوهام ، وصارت أحجارا لا تتجاوز أنها أحجار ، ومن تمسك بها فهو غير مؤمن أو سادر فى غلوائه •

### الاسلام يخرج الى القبائل :

٢٢٢ - من وقت أن أمر الله نبيه بأن يصعد بأمر به ، وقد أخذ يلتقى بالجموع ، فيغشى الأسواق داعيا ، ويدخل النوادي صادعا بأمر ربه ، ويقف فى مناسك الحج داعيا القبائل عندما يجد سميعا ، والآحاد يذاكرهم ، يسألونه فيجيبهم بما يوحى به الله تعالى فى سماحة صاحب الدعوة ، وبإشراق نور النبوة حتى أصبح حديث القبائل التى تدف الى بيت الله تعالى حبيجا أو معتمرين ، أو تجارا مضاربين ، ووجد من بين القبائل من صغت أفئدتهم الى الاسلام ، يستمعون دعوته ، ويؤمنون بوحدانيته مدعنين ، ولعل من أدلة وصول الدعوة الى القبائل اسلام أبى ذر الغفارى ، واسلام ضماد من أزد شنوءة •

روى البيهقى فى اسلام أبى ذر الغفارى أنه قال ( أبى ذر ) أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فرأيت الاستبشار فى وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

ويظهر أن ذلك نتيجة لوقائع سابقة من مقتضاها أن خبر الاسلام سرى الى بنى غفار ، وأن دعوة النبى عليه الصلاة والسلام قومه قد وصلت اليهم فبعثت أبى ذر على البحث عنها ، حتى عرف صدق النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يجيء اليه •

قد روى البخارى بإسناده عن ابن عباس قال : « لما بلغ أبى ذر مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأخيه اركب الى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتية الخبر من السماء ، فاسمع

من قوله ، ثم أتتني ، فانطلق الآخر حتى قدمه وسمع من كلامه ، ثم رجع الى أبي ذر ، فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاما ما هو بالشعر ، فقال ما شفيتني فأتى المسجد ، والتمس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فاضطجع ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم احتمل قريته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي حتى أمسى ، فعاد الى مضجعه ، فمر به على فقال : أما أن للرجل أن يعلم منزله فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث ، فعاد على مثل ذلك فأقام معه ، فقال ألا تحدثني بالذي أقدمك • قال ان أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني قلت فأخبره • • • قال فانه حق ، وأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فاني ان رأيت شيئا أخاف عليك قمت كائن أريق الماء ، وان مضيت فاتبعني ، حتى تدخل مدخلي ، ففعل فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل معه ، وسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتوك أمرى » فقال والذي بعثك بالحق لأصرحن بها بين ظهرانهم ، فخرج حتى أتى فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فضربوه ، حتى أضجعوه (١) •

فاتى العباس ، فأكب عليه ، فقال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنها طريق تجارتكم الى الشام ، فأنقذه منهم ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه ، وأثاروا عليه فأكب العباس ثانيا •

ومن هذا نرى أن الاسلام قد أخذ يذيع نبؤه خارج مكة المكرمة ، ويقول الرواة ان غفار أسلمت تابعة أبا ذر ، ولم يكن أمر الاسلام ليصل فقط الى من هم على مقربة من مكة المكرمة ، بل وصل خبره الى أزد شنوءة فأسلم رجل منهم اسمه ضماد كما أشرنا •

وضماد هذا كان رجلا يقول للعرب أنه يرقى من به مس من جنون أو سحر ، فيشفى ، فأراد سفهاء مكة المكرمة ، أن يحسنوا النكاية بمحمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاء سفهاء من مكة المكرمة ، ودعوه ليمرضوا عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالوا له انه مجنون •

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٣٤ •



جاء ضماد فقال أين هذا الرجل الذى تقولون عنه انه مجنون لعل الله تعالى أن يشفيه على يدى •

لقى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال له انى أرقى من هذه الرياح ، وان الله يشفى على يدى من شاء فلهم الى •

فقال محمد صلى الله عليه وسلم : « ان الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له » ثلاث مرات •

قال ضماد متأثرا وقد فتح الله قلبه للإيمان «والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فلهم يدك أبايعك على الاسلام ، فبايعه على الاسلام • ويرى أنه عندما سمع كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال له أعد على كلماتك هؤلاء فقد بلغن السحر » •

تلك كانت أحوال من يدخلون فى الاسلام ، كانوا فرادى ولم يكونوا جماعات الا ما قيل عن بنى غفار ، وكانوا قليلا ولكنهم كانوا يزيدون ولا ينقصون ، وكانوا من بيوت مختلفة ، وشعب متفرقة ، وتجاوزوا حجاز مكة المكرمة فماذا تصنع قريش ؟

## المنافاة

٢٢٣ — توقع ورقة بن نوفل معركة تقوم بين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وقومه بسبب ما أوحى الله تعالى والقيام بأداء الرسالة التى كلفه ربه أن يقوم بها ، لأنه ما من أحد جاء قومه بمثل ما جاء الا عودى ، وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم كريما عند قومه ، حبيبا اليهم يألونه ، ويثقون به الثقة المطلقة ، حتى خاطبهم بما آتاه الله تعالى ، فانقلب أكثر من بمكة المكرمة مخالفين ، ثم مناوئين لدعوته ، مستنكرين لها ابتداء ، ومقاومين ومعادين ، ومضطهدين فى الجملة لمن اتبعوه •

وذلك لأنهم فوجئوا بهذه الدعوة الى الحق ، ولم يكونوا متوقعين لها ، ومن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، والمفاجأة بتغيير أمر مألوف تولد الانكار ما لم يكن ثمة أمر متوقع يقع •

وان أمر رسول الله يجيىء فى بنى ابراهيم وكان ذكره خارج مكة المكرمة ، ولم يكن يتردد كثيرا بين أهلها ، وأهلها قوم ماديون ، لا يعينهم الا أمر التجارة ، وأمر الحج ، ولعل الحج لا يعينهم الا لما يعلنون به من شرف بين العرب ، واستعلاء عليهم ، وشعور بأن العرب لهم تبع ، وهم السادة فى بلاد تصعب السيادة فيها ، وبين أقوام لا يعترفون برياسة الا ما يكون من قبل ذلك البيت المعظم ، الذى كرمه الله تعالى ، وجعله حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شىء .

ولا يهمهم من جوار البيت الا ذلك الشرف الذى يكتسبونه من الجوار وأنه محل تجارة العرب ، كما هو محل نسكهم ، وأمنهم ، اذ الناس فى خوف وتقاتل ، فكانوا بالاقامة فى البيت آمنين من ناحية المال اذ هو سبيل تجارتهم ، وهو مأمنهم ، كما قال الله تعالى : « لا يلاف قريش ، ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وأمنهم من خوف » .

واذا كانت المفاجأة التى لم يكونوا متوقعين لها قد دفعتهم الى المبادرة بالانكار ، فقد ساروا فى طريقه ، وانتقلوا من الانكار الى الاستنكار ، وهو مرتبة أعلى من الانكار المجرد ، لأن الانكار المجرد أمر سلبي ، قد يجيىء من بعده الايمان اذا جاء الدليل ، أما الاستنكار فهو عمل ايجابى معناه أنه ينكر الحق ، ويستنكر الدعوة اليه ، ثم اندفعوا من بعد الاستنكار إلى المناوأة ، وكل ذلك من المفاجأة ، وقد تدفع المناوأة الى الجحود ، ويدفع الجحود الى الكفر ثم الايذاء .

٢٢٤ — والدعوة المحمدية التى فوجئوا بها هى تغيير لما هم عليه ، ألفوا عبادة الأوثان من غير ايمان قوى بها ، ولكن كانت عباراتهم تتلوى بتقديسها يتوهمون فيها أوهاما ، وبسيطرة هذه الأوهام يشركونها فى عبادة الله تعالى ، وهم يعلمون أن الله تعالى خالق السموات والأرض .

والذين يميلون الى المال ، ومجرد الاستعلاء بين الناس لا يحبون التغيير بل يحبون الحياة الرتيبة السهلة التى لا تبدل فيها ، ولا انقلاب ولا تقلب فى المذاهب والأفكار ، وليس فيهم شاغل بهذا ، ولذلك كان جوابهم عندما يدعوهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ما أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ، ويحكى سبحانه وتعالى عنهم فيقول تعالت كلماته : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » .

ألفوا الشرك ، ولم يألّفوا التوحيد ، ولو كان الحق ساطعا ، والبرهان قائما ، واستمسكوا بالأصنام ، وهم لا يؤمنون بها ، يحطمونها ويعبدونها ، ويغيرون حجرا بحجر ، وإن كانت الأسماء لا تتغير ، ولكنهم لا يتركونها الى غير ما يألّفون ، ولقد توقعوا ما عرفوا من أخلاق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ومن معاملاته أنه سيدعوهم الى تحريم الخمر ، وهم يعاقرونها ، لأنه لم يذقها في الجاهلية ، وقد جاء القرآن الكريم بأنها ليست رزقا حسنا « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » فجعل الرزق الحسن مقابلا للسكر ، فكانت اشارة الى قبحه ، والربا كان جزءا من تجارتهم ، وعلموا من تجارة محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا يزاوله ولا يرتضيه ، والقرآن الكريم يتلى بينهم بالاشارة الى تحريمه ، اذ يقول سبحانه : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » \*

فدل هذا بصريح العبارة أن هذا الدين الجديد الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام عليهم سيزعج الربويين الذين يستقلون أموالهم بالربا ، يدفعونه ديناً ويأكلون من ثمرات تجارة غيرهم ربا ، وكان فيهم كبراء أثروا من هذا الباب ، وحسبوه كالبيع ، وقالوا « إنما البيع مثل الربا » \*

وهكذا حسبوا أن ذلك الدين سيقرب عامة أمورهم ، فعاجلوه بالانكار ، ولقد صور هذا الحال جعفر بن أبي طالب في حديثه مع النجاشي ، واليك القصة كما جاءت في الصحاح في المجاورة بين مهاجرة الحبشة ، ولسانهم الناطق جعفر \*

### قال النجاشي :

« ما دينكم ؟ أنصاري أنتم ؟ قالوا : لا . قال : أفيهود أنتم ؟ قالوا لا ، فعلى دين قومكم ؟ قالوا : لا ، قال : فما دينكم ؟ قالوا الاسلام . قال : فما الاسلام ؟ قالوا : نعبد الله لا نشرك به شيئا . قال من جاءكم بهذا ؟ قالوا جاءنا به رجل من أنفسنا ، قد عرفنا وجهه ونسبه ، بعثه الله تعالى الينا كما بعث الرسل الى من قبلنا ، فأمرنا بالبر والصدق والوفاء وأداء الأمانة ، ونهانا أن نعبد الأوثان ، وأمرنا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فصدقناه وعرفنا كلام الله تعالى ، وعلمنا أن الذي جاء به هو من عند الله ، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا ، وعادوا النبي الصادق وكذبوه ، وأرادوا قتله ، وأرادونا على عبادات الأوثان ، ففررنا اليك بديننا ودمائنا من قومنا ، » \*

هذا الكلام يصور بعض التصوير التغيير الذى رأوه فى عاداتهم ،  
فتجردوا لمناواته ، وأخذ الطريق عليه ان استطاعوا •

٢٢٥ — ومما دفع الى مبادرتهم بالانكار غرابة الأمر فى ذاته  
عليهم ، ما كانوا يؤمنون بأن هناك يوما آخر يحاسب فيه المحسن على احسانه  
والمسئ على اساءته ، وأنها للجنة أبدا أو للنار أبدا ، ولقد أكد ذلك النبى  
صلى الله تعالى عليه وسلم عندما وقف لينذر قومه بعد أن أمره ربه ، فقد  
جاء فى تلك الخطبة تأكيد لليوم الآخر ، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أنهم  
عنه غافلون « والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون  
بالاحسان احسانا ، وبالشر شرا ، وانها للجنة أبدا أو للنار أبدا ، وانكم لأول  
من أنذر بين يدي عذاب شديد » •

. ان المشركين من العرب كانوا قوما ماديين لا يؤمنون الا بالحس ، يعرفون  
الله ، ولكن يصورون حجارة ليعبدوها فلا يعبدونه سبحانه ، وهو غيب عنهم ،  
فكان كل هذا غريبا ، ومن يستغرب من غير دليل ، ينكر ، ثم يستنكر من غير دليل  
أيضا ، ولقد حكى الله تعالى عنهم فى انكار اليوم الآخر وما يكون : « وان تعجب  
فعجب قولهم ، انذا كنا ترابا ، اننا لفي خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ،  
وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » •

ويقول سبحانه وتعالى فى استغرابهم الخلق من جديد : « وضرب لنا  
مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول  
مرة وهو بكل خلق عليم » •

ولجهلهم بالنبوات اثار عجبهم ، والغرابة فى نفوسهم أن جاءهم بالرسالة  
عن الله تعالى رجل منهم يدعو الى الله سبحانه ، ولو كانوا يعلمون أن الرسول  
لا يكون الا رجلا يمشى بين الناس ما اثار عجبهم لكونه رجلا ، ولقد قال قائلهم  
فى الدعوة الى التمسك بالحجارة : « وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على  
الهنك ، أن هذا لشئ يراد ، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، ان هذا الا اختلاق ،  
أنزل عليه الذكر من بيتنا ، بل هم فى شك من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب » ،  
وهكذا كانت من أسباب غرابتهم بشرية الرسول ، لأنهم أميون لم يعرفوا  
الرسالة ، ولم يدركوها من قبل •

ولقد قال الله تعالى عنهم : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى  
فى الأسواق ، لو أنزل الميه ملك ، فيكون معه نذيرا ، أو يلقى اليه كنز ، أو تكون  
له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون أن تتبعون الا رجلا مسحورا » •

فجهلهم بالنبوات والرسائل ، وعدم وجود أنبياء بينهم علموا منهم رسالات الله تعالى الى خلقه ، وأن الرسل قوم من البشر ، جعلهم يستغريون أن يكون الرسول بشرا سويا يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، وإذا كان الأمر غريبا عليهم ، فقد كان حقا عليهم أن يتعرفوا الحقائق لتزول الغرابة عنهم ، ويستأنسوا بنور النبوة ، ولكنهم عاندوا فلج بهم العناد ، فكان منهم الجحود والكفران .

٢٢٦ — وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الدعوة التي تسوى بين الغنى والفقير ، وتوجب حقا للفقير فى مال الغنى — قد مس كبرياءهم وهن مراكزهم هذا عنيفا ، وأحسوا بالأرض تميد من تحتهم إذ أن ذوى الأنساب منهم يستعلون بأنسابهم ، ويحسبون أنهم الأشراف وحدهم ، والناس دونهم ، وهم الأعلون وغيرهم الأدنى ، فكان لابد أن يقاوموا ذلك الداعى الجديد الذى يقول بلسان المقال ولسان الفعال « لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، وأن الجنة لمن أطاع ، ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصى ، ولو كان شريفا قرشيا » فهو يأخذ بنواصى الأقوياء ليضعها بجوار رءوس الضعفاء ، وقد لحوا ذلك فى أتباعه ، فقد رأوا أبا بكر نسيابة العرب ومألف قریش ، يكون بجوار بلال وعبيد أبى بكر نفسه ، لا يفرق بينهما الا فضل الايمان ، فهو مقياس الشرف والضعف ، والاكابر والاصغار .

بلا شك هذه مبادئ اجتماعية لا يقبلها شرفاء مكة المكرمة ورؤساؤها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لابد منفعها ، لأنه كان ينفذها قبل أن يكون نبيا رسولا ، فكيف لا ينفذها ، وقد نزل الوحي عليه ، وجعلها هو نظاما واجب الاتباع ، من لم ينفذه ان لم يعاقب اليوم ، فالنار الموقدة تلتقاه يوم القيامة ، ويلقى به فى السعير .

وقد قوى هذا أن الضعفاء أقبلوا على ما يدعوا اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم غير نافرين منه ، بل كانوا مستجيبين أشد الاستجابة ، وابتدأ الأقوياء الذين دخلوا فى الاسلام يعاملون الرقيق ، كما يعاملون الأحرار .

اذن لابد من مقاومة ذلك التيار الذى جاء مع الدعوة ، ولا يتركونه ، حتى ينمو ، ويستغلظ سوقه ، ويكسبون قوة تقوض ما تحت أيدي قریش من شرف وهمى ، وسلطان استمدوه من ذلك الشرف الواهن فى بنيانه .

ثم انهم كانوا الرؤساء الأعلون ، ولهم شبه سلطان ، وانه اذا ذاع دين محمد عليه الصلاة والسلام ، وصار السلطان للحق وحده ، وحكمت المساواة ، وذهبت المنازعات القبلية ، فمحمد ذو السلطان ، ويسلب كل ما لهم

من سلطان ، وما بنوه من مجد طريف وتالد ينهدم بين أيديهم ، لأنهم يبنون سلطانهم على أنهم ذرية اسماعيل وضئىء ابراهيم وها هو ذا يدعو الى ديانة ابراهيم ، ويقول فى غير عوجاء ولا لوجاء ، هذه ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ، فأنى يكون لهم من بعد ذلك ، لابد اذن من اقتلاع دعوة محمد عليه الصلاة والسلام من جذورها ، والقضاء عليها فى مهدها •

ثم ان بعض الكبراء منهم كانوا ينفسون على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ويتساءلون لماذا كانت له تلك المنزلة علينا ، ونحن أولى بها منه •

وقد ذكر ذلك الوليد بن المغيرة ، وادعى أنه أولى بالنبوة وأنه أكثر مالا وأعز نفرا ، ومثل ذلك عروة بن مسعود الثقفى ، ونزل فيهما قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارض عليها يظهرن ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » •

٢٢٧ — وفوق ما ذكرنا كله — العصبية العربية الجاهلية التى كانت مستمكة فى النفس العربية يتوارثونها جيلا بعد جيل ، فالعرب تنفس على قريش مكانتها ، وقريش تنفس على بنى قصى ما لهم من مكانة • وبنو قصى وغيرهم ينفسون على بنى عبد مناف ، وبنو أمية ينفسون على بنى هاشم رياستهم للعرب ، وكونهم فى المكانة العليا من سدانة البيت والقيام عليه ، فهاشم ورث الرياسة من عبد مناف ، وعبد المطلب أخذها عن هاشم ، وأبو طالب ورثها عن عبد المطلب •

فالدعوة الاسلامية تعرضت لعداوة من عادوا قصىا ، وتعرضت لمن عادوا عبد مناف ، ثم تعرضت لمن كانوا أعداء لبنى هاشم ، ومن كل هؤلاء تكونت المقاومة ، ولعل أمثل صورة لهذه العداوات مجتمعة هو عمرو بن هشام الذى اشتهر فى الاسلام باسم أبى جهل ، وهو به جدير • فقد كان فرعون هذه الأمة ، وان لم يكن فرعون فى مثل سفهه وحنقه ورعونته •

لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبى جهل فناداه بكنيته أبى الحكم قائلا له : « هلم الى الله والى رسوله أدعوك الى ، فقال أبو جهل :

يا محمد ، هل أنت منته عن سب آلهتنا ، هل تريد الا أن نشهد أنك قد بلغت ،  
فنحن نشهد أنك قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقوله حق لاتبعتك » \*

مناقشة هادئة ، كلها حكمة من محمد عليه الصلاة والسلام ، ان الله  
يناديه بكنيته يا أبا الحكم ، وهى عجرة من جانب عمرو بن هشام ( أبى جهل )  
فبينما النبى عليه الصلاة والسلام يناديه بكنيته ، لا يناديه بمثلها ، بل يقول  
فى جفوة يا محمد \*

وليس هذا هو المهم ، انما المهم أنه قال لمحدثه بعد انصراف النبى  
صلى الله تعالى عليه وسلم \*

« والله انى لأعلم أن ما يقول حق ، لكن يمنعنى شيء ، ان بنى قصى  
قالوا : فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية : فقلنا نعم ، ثم  
قالوا : فينا الندوة ، فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا نعم ، ثم أطعموا  
وأطعمنا ، حتى اذا تحاكت الركب قالوا منا نبى ، والله لا أقبل » (١) \*

كانت قبائل قريش تأخذ على بنى قصى أنهم جمعوا فى أيديهم الحجابة  
للبيت الحرام ، والقيام على شئونه ، وذلك شرف ليس فوقه شرف ، وسقاية  
الحجيج ، وذلك يذيع ذكرهم ويعلن اسمهم ، والندوة ، وهى شورى العرب ،  
فكانوا بذلك رؤساءهم وهم الذين يحملون لواء قريش ، وهذا كله اشارة  
للعرب عليهم ، ثم انحدرت هذه المنافسة الى معاداة الحق الذى يأتى به أولاد  
قصى ، وبنو هاشم على رأسهم ، وقد ورثوا عنه بعض ما أخذه من قريش \*

واذا كانت قريش كلها تنفس على بنى قصى ما أخذوا أو يحسدونهم  
فبنو عبد مناف ، كانوا من بينهم يختصمون بالحق عليهم لأنهم الذين ورثوا  
شرف قصى ، وما كان معه ، ولقد ظهر ذلك على لسان فرعون هذه الأمة  
أبى جهل \*

لقد سمعوا القرآن الكريم سرا ، وكانوا هم الأعداء الذين قد أصيبوا  
بلدد الخصومة ، ثم تذاكروا بعد السماع وقد تأثروا ، وقد قال أحدهم  
لأبى جهل : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال حانقا : « ماذا  
سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا  
فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تحاذينا على الركب ، وكنا كقرى رهان ،

---

(١) البداية ج ٣ ص ٦٥ \*

قالوا منا نبي يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدق (١) .

وإذا كان أبو جهل يمثل أعنف وأحمق معارضة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو فى معارضته أوضح صورة للعصبية الجاهلية ، التى تضع على البصائر غشاوة ، فتعمى عن الحق ، ولا تدركه ، بل تدركه ، ولا تدعن له ، وترضى بالردىء الوبىء عن الحق الصادق المرىء .

٢٢٨ — نسوق هذه الأمور ، لا لنبرر بها ذلك الموقف الجاهلى الذى وقفه أعداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو ان شئت فقل خصومه الذين حاربوه وأعنتوه فى الخصومة والمعاندة ، ثم عادوه ، وكانوا شياطين الانس الذين ذكروا فى القرآن الكريم على أن الله تعالى يجعل لكل نبي يبعثه عددا من شياطين الانس ، ليكتب الله تعالى له ثواب الجهاد والمصابرة .

ولكن سقناه لنعلل الوقائع بأقرب أسبابها ، ولكى تزول كل غرابة فى معاداتهم للحق ، وقد بدا وضحه ، وليعرف الباحث البواعث الحقيقية لتلك اللجاجة فى العداوة التى ذهبت بهم الى الايذاء ، وأسرفوا بها فى القول ، وأثاروا نيران البغضاء ، والمواقع أن البغضاء للدين كانت مستكنة فى نفوسهم ، واستيقظت بقوة دعوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

وان اسناد الأمور لأسبابها لا يعد تبريرا لها ، ولكن يكون تبينا للوقائع ، وان الأسباب فى ذاتها اثم ، والاثم لا يولد الا اثما ، واللجاجة لا تولد الا فجورا واثاما .

لقد يعجب الناس كيف يمارى أولئك وفيهم عقل فى الوحدةانية ، ويجادلون فى الله تعالى وهم يعلمونه ، وهو شديد الحال ، كيف يقف أمثال الوليد بن المغيرة وهو من أذكىاء العرب ، والنضير بن الحارث موقف المعارضة ، وفيهم ادراك سليم ، ولكن عميت عليهم الأمور بسبب ما ذكرنا فكانوا فى حيرة بين ماض ألفوه ، وألفوا معه الدعة والمال والجاه والسيطرة ، وحاضر قد أدركوه ، ورأوا نور الحق الذى ساروا فيه ، ولكن ما ان يبرق عليهم نوره ويمشوا فيه ، حتى تكون غاشية المال ، وغاشية الجاه ، وغاشية الاستعلاء ، وغاشية التعصب القبلى المردى .

ومنهم من كان يرد النور الى قلبه رويدا رويدا ، فكان فى وسط ذلك الأتون من العداوة نور يهدى الى التى هى أحسن ، والله عليم بذات الصدور

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٦ طبعة الحلبي .



## تلقى الناس للدعوة

٢٢٩ — تلقى الناس فى مكة المكرمة دعوة النبى عليه الصلاة والسلام بعد أن أعلنها على الصفا ، مخاطبا عشيرته الأقربين أولا ، ثم مخاطبا العرب أجمعين ثانيا ، حين صدع بأمر ربه ، تلقوها مشدوهين لغربة الجديد ، فقسم صفى قلبه اليها ، وأولئك السابقون الأولون الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل دعوته ، ومعاونة النبى عليه الصلاة والسلام فى تبليغ رسالته ، ونشرها فى الأرض ومجاورتها الأقطار من بعده .

وكان من هؤلاء الضعفاء الذين حرموا السلطان ومتعة الحياة ، ورأوا فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم أملا مرجى فى الآخرة وإن لم يكونوا فى حال مرضية البقاء ، بل هى مرجوة الانهاء ، فأوجد فيها الاسلام الأمل فى انهاءها ، فسارعوا اليها ، وذاقوا العذاب فى سبيلها ، فصبروا من غير انزعاج أو ارتداد ، بل مضوا فى الطريق حاملين البؤس والبأساء ، فى جلد وصبر وإيمان ، وقد مكن الله تعالى لهم ، ووفاهم صبرهم « وانما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

والقسم الثانى أعلن العداوة للنبى منذ ابتدائها ، وشنوا غارة على الذين يؤمنون ، وعلى رأس هؤلاء أبو لهب عم النبى عليه الصلاة والسلام ، ومن هؤلاء من ذهبت غلوائهم فى العداوة ، ولجأتهم فى الخصومة الى أيداء المؤمنين ، وتعذيب الضعفاء من العبيد والفقراء ، ومن لا حول لهم ولا طول من عشيرة تحميمهم ، وعزة من النفر يدافعون عنهم ، وكثير ممن دخلوا فى الاسلام كانوا على ذلك النحو ، إذ لم يجدوا جوارا من أحد يدفع عنهم الأذى وعلى رأس المؤذنين أبو جهل .

والقسم الثالث وسط بين هؤلاء ، فلم يعتنق الاسلام ، ولم يكن من السابقين الأولين ، بل وقف وقفة المنتظر ، أو وقفة من رد الدعوة من غير معاداة ، ولا مناوأة ، وكان من هؤلاء أكثر بنى هاشم ، وبعض بنى أمية ، وبعض القرشيين ، وكان فى كل عشيرة بعض من هؤلاء ، كما كان فى كل عشيرة بعض ممن أسلم .

ومن هذا القسم من كان يشرح الله تعالى صدره للاسلام ، فيدخل فى صفوف المسلمين مجاهدا صابرا ، متحملا الأذى ، وأقله السخرية والاستهزاء ، فقد كان الاسلام ينمو من هؤلاء ، بل إنه كان ينمو أيضا من المعذبين المؤذنين ، وحسبنا عمر بن الخطاب ، كان من المؤذنين ، حتى هم فيما يقول الرواة بقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن تداركته رحمة الله تعالى ،

فشرح الله تعالى صدره للسلام ، فكان له عزا ، وكتب الله تعالى الحق على قلبه ولسانه .

أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ، ولا ينى عن دعوته ، ولا يلين ولا يخفف من دعوته الاعراض مهما يكن مقدار المعرضين ولا الأذى ينزل به ويكبراء صحابته ، ولا الاضطهاد يشتد على ضعفاء أتباعه ، ولكنه يأسى ويحزن على ما ينزل بهم ويواسيهم ويدعوهم الى الصبر ، ويصبر هو ليتأسوا به ، ويعينهم بالمال ان احتاجوا ، ويعينهم كبار الذين آمنوا على فك رقابهم .

وكما ازداد عدد المؤمنين ، ازداد الأذى وازدادت المعارضة ، فانه كلما قوى الحق ونما أهله ، يئس المخالفون من أن يطفئوا نور الله تعالى الذى انبثق فى مكة المكرمة ، ولكن بوادى اليأس كانت تزيده حجة ولجاجة فى الباطل ، وكل يسير فى طريق التمسك بالباطل ، ففريق الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون سوط عذاب يستمرون فى غيهم يعمهون ، والذين ارتضوا المعارضة من غير اىذاء ، والمقاومة من غير اعنات لمن جاءوا بالدين الجديد ، ساروا فى طريقهم ومنهاتهم ، يدعون النبي عليه الصلاة والسلام لأن يكف عن دعوته ، ويجادلونه ، ويعرضون عليه ما يروونه مغريا بالاعراض عن دعوته ، على حسب تفكيرهم ، وعلى مقتضى ما يسول لهم شيطان المادة .

٢٣ — ويذكر الآخرون من الرواة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يلقي منهم مسالة ، ودفاعا عن عقائدهم بالتى هى أحسن ، أو عدم اهتمام بعضهم بمقاومته عندما كان يدعو من غير أن يذكر آلهتهم بسوء ، أو يسفه أحلامهم ، وأحلام آبائهم ، فلما أخذ يسب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، انتقلوا الى مقاومة عنيفة ، أخذت صورة الايذاء فى بعضهم والاستنكار المرير من بعض آخر ، ثم تطورت الأمور الى العداوة والاغراء بالبغضاء وقطع الأرحام الموصولة .

وفى الحق اننا لا نرى فارقا زمنيا ، بل نجد أن دعوة التوحيد وتحريم عبادة الأوثان ، والاشراك بالله ابتدأت منذ جاء عليه الصلاة والسلام ومنذ أعلن عشيرته باستنكار عبادة الأصنام ، فقال عقب الانذار بالبراءة منهم ان عصوا ، فقال الله تعالى : « واتذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم » .

وجاء مثل ذلك عند الأمر بالجهر بالدعوة ، وإعلان قريش خاصة والعرب عامة ، إذ قال الله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، انما كفيئناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله اله آخر ، فسوف يعلمون » •

وإذا كنا لانجد فارقا زمنيا يحد ما بين الدعوتين ، وإذا كانت الآيات التي نزلت في أول الدعوة بمكة المكرمة تتشابه في معانيها من ناحية الأوثان مع الآيات التي نزلت في آخر مقامه عليه الصلاة والسلام بمكة المكرمة ، فإن من الحق علينا أن نقول اننا لا نجد تفريقا بين حال لم تذكر فيها أوثانهم بسوء ، وحال قد ذكرت فيها بسوء •

وان الذى نجده أو نظنه ظنا أن مقاومتهم ابتدأت بحال دهشة مما فوجئوا به ، وتساؤل فيما بينهم ، ما شأن هذا الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام وهم بين من علم أن محمدا عليه الصلاة والسلام دعا الى هذه الدعوة ، وبين متشكك في نسبة القول اليه ، وبينما هم يتساءلون كانت الدعوة تسرى في الأوساط ، وتجد لها من بينهم مصدقين ما بين سادة وعبيد ، وأشراف وضعاف ، فتنبهوا حينئذ للمقاومة ، لأمر وجدوه جدا لا هزل فيه ، وقويا لا ضعف يعتريه ، وإذا كان الذين يتبعونه قليلا ، فهم يزيدون وسيكونون كثيرا ، ولا بد أن يأخذوا الأهبة لدافعة هذا الواقع ، وهو لا يزال نبئا ، قبل أن يستغلظ سوقه •

٢٣١ — وعلى ذلك نقرر أن المقاومة كانت تتزايد في الشدة كلما تزايدت الدعوة عموما ، وتكاثر المستجيبون لها ، فهم كلما رأوها تنمى ولو قليلا يحسون بالخطر شديدا ، وكلما أحسوا بالخطر ازدادوا لاجاة وعنفًا ، لأنهم يرون الخطر على سيادتهم ، ونظمهم الاجتماعية ، والأرض تنهار من تحتهم شيئا فشيئا ، فتزداد المقاومة بصورها المختلفة ، وكل يعمل على شاكلته ، وعلى الطريقة التي يرضاها خلقه ، ففريق بالأيذاء ، وفريق بالاستهزاء ، وفريق بالشكوى لأبى طالب حاميه ، ويتلاقى الجميع على أمر يكون متلاقيا مع كل طبائعهم ••• وهكذا •

وان اعتراضهم أخذ ثلاث صور ، الصورة الأولى محاولة حمل النبى عليه الصلاة والسلام على ترك الدعوة التي يقوم بها ، وينشر الاسلام عن طريقها ويحارب الوثنية بكل ضروبها •

الصورة الثانية - المجادلة ومحاولة إحراج النبى عليه الصلاة والسلام بمطالب هى غير معقولة في ذاتها ، بقصد تعجيزه ، وإظهار عجزه أمام الناس أجمعين عسى أن يكون في ذلك صد الناس عنه •

الصورة الثالثة - الايذاء فى صورته المختلفة ، بالاىذاء الفعلى الآحادى للنبي عليه الصلاة والسلام خاصة ، وللذين يؤمنون من الناس ، ولم يخلص منهم كبرائهم ، ووقع شديد على ضعفائهم ، ثم كان من ذلك ايذاء جماعى ، أنزل من قريش كلها على بنى هاشم كلهم واخوانهم بنى المطلب ، وقد تلقوا جميعا مقاطعة قريش لهم ، ولم يقبل دنية الافتراق عن أسرته الا أبو لهب ، أما الباقر فحملوه صابرين مشاركين معاونين ، واستوى فى ذلك مؤمنو بنى هاشم وبنى المطلب على سواء •

وقد لوحظ أن الايذاء كان يجعل الايمان يذيع وينمو ، لأن الناس تنفطر نفوسهم لألم المتألمين ، ويدفع حمية الذين لهم صلة بمن يؤذون ، فتدفع المروءة الى مشاركتهم فى سبب الايذاء تحديا ومقاومة لذلك الشر ، فقد دفع الايذاء للنبي عليه الصلاة والسلام حمزة بن عبد المطلب لأن يعلن اسلامه ، ثم يعلن ايمانه ، كما سنبين ان شاء الله تعالى فى اسلام حمزة •

وقد يكون اندفاع المؤذى فى ايذائه مفرطاً فيه دافعاً لأن ينفطر قلبه ، فيجد سبيلاً للايمان ، كما كان الشأن فى ايمان عمر بن الخطاب ، فقد كان الدم الذى انبثق من شج أخته ايذاء لها على ايمانها سبباً فى أن فتح الله تعالى قلبه لأنه استمع الى الآيات التى تتلى ، فرحمه الله تعالت كلمائمه بأن فتح صدره للايمان فأمن •

وكان الايذاء سبباً فى الهجرة الى الحبشة ، وفى الهجرة اليها شاع اسم الاسلام فى ربوعها وان لم يتبعه الا ملكها • وسنذكر بعون الله تعالى تلك الصور المختلفة للمقاومة بعد أن نتكلم فى درجات الدعوة ؛ والجهر بها •

## الذين استجابوا لله والرسول

٢٣٢ — سرى الاسلام الى النفوس من أول نزوله ، واذا كان الذين سارعوا الى الدخول فيه عددا قليلا ، فذلك شأن كل دعوة تعتمد على الحق المجرد ، فانها تدخل فى قلوب الجماعات فى ريث من غير تعجل ، ولا انسياس من غير تفكر وتدبر ، ولكنها ان كانت صارت كالجبال •

وقد يقول قائل ان دعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت ثورة فكرية واعتقادية واجتماعية واقتصادية وانسانية بشكل عام ، ومن شأن الثورات أن تجتذب الجماهير فتندفع فى نصرتها والأخذ بها ، ونقول فى الاجابة عن ذلك ان ما أتى محمد عليه الصلاة والسلام كان فى نتيجته وغايته أعظم ثورة

انسانية رآها التاريخ الانساني ، فى نتيجتها وثمراتها وغاياتها ، لا فى وقائعها وأشكالها ، فان الثورات الجامحة انفعالات للجماهير ، تكون كانهال  
الأشخاص لا تلبث أن تنطفئ ، اذ ذلك شأن الانفعالات دائما ، لا فرق بين أن  
تكون فى الآحاد وأن تكون فى الجماعات ، واعتبر ذلك بالثورات الأوروبية ،  
فأعظمها مظهرا الثورة الفرنسية ، انفلتت بها فرنسا انفعالة شديدة ، ثم لم  
تلبث حتى أخذت تأكل نفسها ، وكثرت ثورات زعمائها على أنفسهم جماعة  
بعد جماعة حتى رسبت فى آخر الأمر فى حكم يشبه حكم القياصرة ، كما كان  
فى عهد نابليون الذى نال الكمثرى فيها بعد أن نضجت .

أما دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت نابعة من أحكام المنطق  
وأحكام العقل ، والامداد الالهى بروح القدس ، وما كانت انفعالة ، بل كانت  
نفوسا مطمئنة راضية مرضية آمنت بالحق وأخذت به ، دخلها الايمان ولم  
يخرج منها . وهذا يكون من شأنه الدوام والاستقرار فى النفوس التى يدخلها ،  
فاذا أشرق فيها فهو اشرق لا ينطفئ ، فلا يشبه نار الهش من الاضطراب الذى  
ينطفئ بأقل الرياح ، بل يشبه الماء العميق البعيد الغور الذى لا تهزه الرياح ،  
فلا تعبت به الأهواء .

لذلك كان الذين يدخلون قليلا قليلا من غير طفرة ، وانتقال انفعالى .

٢٣٣ — ولقد اختبرت قلوبهم من أول دخولهم — لقد ابتدأ الاسلام  
يسرى كالنور فى الظلام ، فأشرقت به قلوب مؤمنة ، فدخلها واستقر بها فى  
وسط لاجاة الشرك وعوجاء أهله ، أسلم قوم مؤمنون ، ولكن منعوا من أن  
يقيموا شعائر دينهم ، فكانوا ابتداء لا يصلون فى المسجد الحرام ، بل كانوا  
يذهبون للصلاة فى شعاب مكة المكرمة مستخفين بدينهم ، لا يجهرون بقراءة  
القرآن الكريم بين ظهرائهم ، ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل  
ذلك ، ومكانته بين قريش مكانته ، وجاء أبو جهل الذى اشتهر بذلك الاسم فى  
الاسلام واستحقه بعمله ، وقال فى تبجح ظاهر للنبى عليه الصلاة والسلام :  
« ألم أنهك يا محمد عن الصلاة هنا ، فلم يلتفت اليه النبى عليه الصلاة والسلام ،  
لأنه يعلم أن أدب الاسلام أنه اذا مر باللعو مر كريما ولم يلتفت .

وكان المسلمون الأولون لا يستطيعون أن يجتمعوا ليتعلموا من الرسول  
دينهم ، بل كانوا يجتمعون خفية فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، قالوا انه يجتمع  
فى هذا البيت الطاهر نحو تسعة وثلاثين كانوا هم المجتمعين عندما أسلم عمر  
رضى الله تبارك وتعالى عليه وليس معنى ذلك أن الذين أسلموا كانوا هذا العدد  
فقط ، فقد كان ثمة عبيد آمنوا ، وكانوا فى مهنة مالكي رقابهم ، ومنهم من كان  
يعذب العذاب الأليم ليفتن عن دينه ، ويكره على الخروج منه .

ومن المؤمنين من كان يؤمن ، ويخفى إيمانه عن أهله : أبيه وأمه وأخيه فرارا بدينه من أن يفن بملام أو تعذيب ، فقد كان أهل كل بيت كان فيه من دخل فى الاسلام ، يأخذ ذلك المسلم بالتأنيب واللوم الزاجر ، ثم ينتقل الأمر من اللوم الى التعذيب ، ان استرسلوا فى غوايتهم ، ولم يكن ما يمنعه من رحم شفيقة ، أو قوة عزيمة ممن منحه الله تعالى الايمان ، واعتصم ببرد اليقين .

ولم يكن المسلمون يجهرون بقراءة القرآن الكريم خوف الأذى الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت دعوته وتبليغ رسالة ربه توجيان عليه أن يجهر مهما يكن الأذى الذى ينزل به . فان الله تعالى عاصمه من الناس ، وما كانت قريش تستطيع دفعه ، بل انهم كانوا يتناهون فيما بينهم ألا يسمعه ، ولكنهم يذهبون خفية ليسمعه ، يذهب كل واحد مختفيا عن جماعته ، ثم يلتقون فى الاستماع اليه ، وقد تناهوا ، ولكن كل واحد خالف ما اتفق عليه معهم ، ويحسب أنه المخالف وحده ، واذا هم جميعا مختلفون ، واذا هم جميعا ناقضون لما اتفقوا :

ويذكر الرواة أن أول من جهر بالقرآن الكريم بعد النبى عليه الصلاة والسلام ، يروى ابن اسحاق عن عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام أنه قال : كان أول من جهر بالقرآن الكريم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعه ؟ قال عبد الله بن مسعود : أنا أسمعهم ، قالوا انا نخشاهم عليك ، انما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من العدم اذا أرادوه . فقال دعونى ، فان الله تعالى سيمنعنى ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى انديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ رافعا صوته .

« بسم الله الرحمن الرحيم : الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان » ثم استقبلها يقرؤها . قال فتأملوه فجعلوا يقولون ماذا قلل ابن أم عبد ، ثم قالوا انه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا اليه ، فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ ، حتى بلغ منها ما شاء الله تعالى أن يبلغ ، ثم انصرف الى أصحابه ، وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له هذا الذى خشينا عليك ، فقال ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأعاودنهم بمثلها غدا ، قالوا حسبك حسبك قد أسمعتم ما يكرهون .

## ٢٣٤ — وان هذا كله يدل على ثلاثة أمور :

أولها : الاستخفاء بالعبادة الا ما كان من أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان حريصا على أن يجهر بصلاته ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وأن يجهر بالقرآن الكريم ما وسعه ذلك ، غير ممتنع ، ولا متردد ، لأن الأمر جاء اليه بذلك ، وهو يبلغ الرسالة ، ويظهر أن المشركين ، وان كانوا يتضايقون من ذلك ، لم يكونوا يمنعونهم ، وان حاولوا المنع لم يجدوا مستجيبا لما يدعون ، فكانوا يعمدون الى الاستهزاء به أنا وايدائه أنا ؛ والاعراض عنه دائما ، وفي كل وقت ، لأنهم قد جعلوا في قلوبهم وقرا ، فلا يستمعون وقد كان المشركون يشهدون في أذانهم .

الأمر الثاني : أن الأذى الذي كانوا ينزلونه بالمؤمنين لم ينهه من عزمهم ، ولم يضعف أنفسهم ، فهذا عبد الله بن مسعود يضربونه ، فيستمر في قراءته ، وهم يستمرون في ضربه حتى يبلغ ما شاء الله تعالى أن يبلغه ، غير ملق اهتماما الى ضربهم .

وان حال الايذاء في اثناء قراءته يصور حال المؤمنين مع ايذاء الكافرين ، ومع الايمان استمروا في الايذاء ، واستمر الاسلام في ازدياد .

الأمر الثالث : أن المشركين كانوا يسمعون القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وسلم يتميز غيظهم ، وان كان الغيظ ثابتا ، اذ يتبعه ايذاء أحيانا ، ولكنهم يتميزون غيظا عندما يسمعون من غيره ، لأنهم بذلك يعلمون سرعان الدعوة ، وزيادة الاتباع حيناً بعد حين ، فليس غيظهم فقط من سماع القرآن الكريم ، بل أنه منه ، ومن نمو عدد المستجيبين ، فالأمر اذا كان يزيد ولو بقدر ضئيل يبشر أصحابه ببلوغ الغاية ، وينذر أعداءه بالعاقبة المريعة .

## اسلام حمزة

٢٣٥ — ويلاحظ أن الأذى لم يمنع الاستجابة للدعوة ، بل زيادتها ، ومن المؤمنين الذين كان لهم في الاسلام قدم ثابتة من كان الايذاء هو السبب الواضح في اسلامهم .

ولنذكر في هذا المقام اسلام حمزة بن عبد المطلب ، ولنذكر قصته كاملة كما رواها ابن اسحاق :

قال ابن اسحاق : « حدثني رجل من أسلم كان واعية أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الصفا فأذاه وشتمه ، ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن تسمع ذلك ٠٠٠ فلم يلبث أن أقبل حمزة متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ، ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يظوف بالبيت ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش الا وقف ، وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش . وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة ( التي سمعت سب أبي جهل ) قالت له يا أبا عمار ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالسا ، فأذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامة . فخرج يسعى ؛ ولم يقف على أحد عامدا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك على أن استطعت ، فقام رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمار ، فاني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، وتم حمزة على اسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » (١) .

وفيما ذكره ابن اسحاق هنا ما يوهم بأنه أعلن اسلامه ، وكان ذلك الاعلان هو دخوله في الايمان ، ولكن ذكر في البداية عن ابن اسحاق أيضا أن حمزة اذ أعلن ذلك أنه اتبع محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ما كان ينطق بها الا عن حمية العصبية ، ولكنه فكر بعد ذلك في مخرج منها ، أو سير في طريق الايمان ، ولتنقل لك حديثه في نفسه كما جاء على لسانه ، وكما نقل ابن اسحاق :

« أقبل حمزة على نفسه ، وقال ما صنعت ، اللهم ان كان خيرا ، فاجعل تصديقه في قلبي ، والا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجا . فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان ، حتى أصبح ، ففدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا بن أخي ، اني قد وقعت في أمر ولا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلي على ما لا أدرى ما هو !! أرشد أم هو غي شديد ، فحدثني حديثا ، فقد اشتبهت يا بن أخي أن تحدثني ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه



وسلم ، فذكره ووعظه ، وخوفه وبشره • فألقى الله تعالى فى قلبه الايمان بما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : أشهد أنك الصادق ، فأظهر يا بن أخى دينك ، فوالله ما أحب أن لى ما أظلمته السماء وانى على دينى الأول ، فكان حمزة ممن أعز به الدين • وروى البيهقى مثل ذلك (١) •

ويظهر من هذا الكلام ، وما قبله أن حمزة رضى الله تبارك وتعالى عنه كانت له نزعة دينية كانت على الباطل ، ثم كانت على الحق • كان فى جاهليته ، اذا جاء من صيده وقنصه لا يغشى ناديا الا اذا طاف بالبيت ، والمتدين فى طبعه ان رأى وضح الحق سار فيه ولصدق ادراكه عندما أعلن الاسلام فى غضبة عنيفة قوية ، أراد أن يمعن النظر فيما عرض له من حال ؟ أخرج منها ، وما السبيل أم يعضى ، فاحترته حيرة ، كانت هادية موجهة ، ان هداه الله تعالى الى الاسلام •

## اسلام عمر

٢٣٦ — كان الاسلام ينمو ويزيد ، واذا كان قد ابتداء بالضعفاء ، وقل فيه الكبراء فقد أخذ عدد الأقوياء يكبر ، وان كان العدد فى ذاته لا يزال قليلا ، قد دخل أقوياء ، يرفعون العباء قليلا عن الضعفاء •

دخل أولا حمزة ، ولأول مرة فى تاريخ الاسلام يضرب أبو جهل فوق رأسه حتى يشج ، ويثور له بعض قبيله ، فيتصدى لهم رجل قوى الشكيمة عزيز الجانب ، حتى يتعلم أبو جهل الحكمة ساعة من زمان ، فيدعوهم الى أن يتركوا حمزة ، ولعله دعاهم الى أن يقوا أنفسهم شر ضربات حمزة •

لم يذكر كتاب السيرة تاريخ اسلام حمزة ، وان ادعى بعضهم أنه كان قريبا من اسلام عمر أى أن اسلام عمر كان بعده بقليل ، واسلام عمر كان فى السنة السادسة من البعثة ! لأنه كان بعد الهجرة الى الحبشة • وان كتاب السيرة كانوا يعنون بذكر الوقائع بروايات صحيحة ، وان كانوا لا يذكرون تاريخها الا اذا اقترنت بواقعة مشهورة ، كما اقترنت واقعة خروج المؤمنين هاربين بدينهم الى الحبشة بايمان عمر بن الخطاب •

كان عمر فاروق الاسلام شديدا على المسلمين قتل اسلامه ، لا يجد سبيلا

(١) البداية ج ٣ س ٣٣ •

لايذائهم الا سلكه ، ولكنه فى طبيعته ادراك صحيح ان ضل يرشده ، وفيه طبع رحيم ان قسا ، فظهر الألم يؤذيه ذلك كما يؤذى من نزل به •

ولعل أقوى حادثة هزته ، أنه رأى المؤمنين يهاجرون فرارا بدينهم من ايدائهم هو وأشباهه ، فلفتته هذه الهجرة عما كان فيه من غى ، وما عليه المؤمنون من رشاد •

روى ابن اسحاق عن بعض اللاتى أخذن الأهبة للهجرة وهى أم عبد الله ابن خثمة أنه رآها عمر بن الخطاب ، فسألها عن مخزجها • فقال أسفا : انه للانطلاق يا أم عبد الله • قالت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله ، أذيتونا ، وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا ، فقال صحبتكم الله ، قالت ورأيت والله فيه رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أخذنا فيما رأى خروجنا ، فجاء عامر ابنها ، فقالت له : لو رأيت عمرا آنفا ورقته ، وحزنه علينا ، قال أطمعت فى اسلامه قلت نعم ، قال لا يسلم الا اذا أسلم حمار الخطاب ، وما قال ذلك الا ياسا لما كان يرى من غلظته •

ومن هنا يستفاد أن عمر رضى الله عنه كلما رأى فريقا من قومه يخرج فرارا بدينه من ظلمهم يناله ألم ، والعدالة فى طبعه ، وان كان التعصب لما عليه أبواؤه وأجداده فى جنب منه •

ويظهر أن ذلك الألم من خروج بعض قومه مقهورين لم يمنعه من انزال بعض الأذى لمن يعلم اسلامه من أهل بيته وذوى قرابته ، ولقد هزته أخرى ففتحت قلبه للإسلام ؟

وخلصته أن فاطمة بنت الخطاب أخته قد أسلمت هى وزوجها ، وأخفيا اسلامهما خشية بطشه ، وبتش ذوى قرباهما ، وقد أسلم أيضا نعيم بن عبد الله ، وكان ثلاثتهم يستخفون ، ويتلون القرآن الكريم فى منزل سعيد بن زيد زوج فاطمة ، وكان خباب بن الارت يجىء اليها ويقرؤها القرآن الكريم ، فخرج عمر متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورهطا من أصحابه ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، فلقية بعض قريش ، فقال له أين تريد يا عمر ؟ فقال له : أريد محمدا هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلها فأقتله ، فقال له والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم • قال وأى أهل بيتى ، قال أختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله تابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما •

ولا تناقض بين هذين خبر أم عبد الله ، لأنه عندما رق للذين يهاجرون لم يكن رقه رغبة للإسلام ، ولكن كان ألما لفراق قومه ، وسولت له نفسه غير المؤمنة ، بأن محمدا صلى الله عليه وسلم سبب ذلك الفراق ، وكان يتنازعه حال من الإيمان ، ووسوسة من الكفر •

ذهب عمر الى أخته ، وكان يستخفى فى بيتها ثلاثة صاحبها الذى آمن وزوجها ، وخاب يعلم الجميع القرآن الكريم ، ومعه صحيفة فيها سورة طه ، فلما سمعوا صوت عمر ، تغيب خباب فى مخدع لهم ، أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال ما هذه الهيمنة التى سمعت ؟ قال له ما سمعت شيئا ، قال بلى والله لقد أخبرت أنكما اتبعتما محمدا على دينه ، وبطش بخنثه سعيد بن زيد ، فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها ، فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وخنثه نعم قد أسلمنا ، وأمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتم تقرأونها أنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتبا • فلما قال ذلك قالت له أخته : انا نخشاك عليها !! قال لا تخافى ، وحلف بالهتة ليردنها اذا قرأها • فلما قال ذلك طمعت أخته فى اسلامه ، فقالت له يا أختى انك نجس على شركك ، وانه لا يمسه الا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة فقرأها ، فلما قرأ منها صدرا قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له يا عمر ، والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانى سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فوالله الله يا عمر • • • • فقال عمر عند ذلك : فدلنى يا خباب على محمد صلى الله عليه وسلم حتى آتية فأسلم • فقال له خباب هو فى بيت عند الصفا فى نفر من أصحابه •

فأخذ عمر سيفه فتوحشه ، ثم ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه معه فضرِب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر من خلل الباب ، فراه متوحشا سيفه ، فرجع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فزع ، فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف •

فقال حمزه بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ائذن - له ، فأذن له الرجل ، ونهض اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،

حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته أو بمجمع رداءه ، ثم جبذة جبذة شديدة وقال ما جاء بك يا بن الخطاب ، فوالله ما أدرى حتى ينزل الله بك قارعة •

فقال عمر يا رسول الله جئت لك لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن عمر قد أسلم •

وانك لترى أن عمر بن الخطاب جاء اسلامه من نبع قلب يؤمن بالعدل ، ويؤمن بالرحم ، وان كان قد غشاهما غشاء من مألوف الجاهلية وما كان عليه قومه ، دفعته عصبية قبل أن يدرك الاسلام لأن يناوىء محمد بن عبدالله ، اذ أنه توهم أن ذلك يفرق كلمتهم ، ويذهب بمكانتهم عند العرب ، وهو في هذا مخطيء ، فتفرق بسبب نور الحق بين مؤمن وكافر خبر من اجماع على باطل ، وذلك ما خفى على عمر ابتداء ، واشفق على الذين يخرجون من أرضهم من قومه ، ثم كان التنبيه القارع عندما رأى الدم يسيل من أخته ، فزالته عنه الغشاوة ، فكان عمر الشقيق العادل المدرك ان أزال الله تعالى عنه غشاوة الباطل •

## بين عهدين

٢٣٧ — كان اسلام حمزة ، ومن بعده اسلام عمر ابتداء عهد جديد للاسلام كان المسلمون في الأول مستضعفين يرامون بالسوء ، ولا يدفعون للمسيئة بمثلها ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ، ولا يرقب فيهم أعداؤهم ذماما ، ولا مراعاة لحسن جوار ، أو لودعة ، أو لقربى ، بل يسومونهم العذاب ، ويريدونهم على الهوان من غير أن يتوقعوا دفعا ، وذوو المروءات من المشركين أن تابوا عن الأذى فلأنهم لا يريدون أن يرتكبوا نذالة في ايذاء عبد أو ضعيف ، أو من لا يملك ردا •

ولما أسلم حمزة ابتداء كبير الأندال فيهم أبو جهل يحسن بالضربات تقمع رأسه ، وبالدم يسيل منه ، فان تخفف له نصراء من قومه خشى من المعركة ، وأن يكون ابتداءؤها هزبا وهو يخاف نهايتها ، كشأن كل من يكون ناقص المروءة ، يستعدى على الضعفاء ، ويخاف الأقوياء •

فلما أسلم عمر ، كانت الكارثة على الشرك ، وتكامل كيان العهد الجديد عهد الاعتزاز بالاسلام • واستعلنه بعد استخفائه • ووقوف المسلمين صفوفا مجتمعين ، بعد أن كانوا فرادى متفرقين •

التقى عمر عند اسلامه فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم فى الصفا ، وعدد المسلمين تقارب الأربعين ، فقام عمر رضى الله عنه ، فقال يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق ، ويظهروا دينهم ، وهم على الباطل •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انا قليل وقد رأيت ما لقينا •

قال عمر ، والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه أنادى بالكفر ، الا أظهرت فيه الايمان ، ثم خرج فطاف بالببيت ، ثم مر بقريش ، وهى تنتظره ، وقد تسامعوا باسلامه ، فقال أبو جهل : يزعم فلان أنك صبوت ، فقال جاهرا ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، فوثب المشركون اليه يريدون أن يصرعوه ، وكان على رأسهم عتبة بن ربيعة الذى كان البا على المسلمين ، وكان قد صرع أبا بكر وضربه ، حتى أثخنه ، فكأنه كان طلبة عمر ، فوثب عمر عليه ، وصرعه ، وبرك عليه كما يبرك البكر الراعى وجعل يضربه ، وأدخل أصبعه فى عينيه ، فجعل عتبة يصيح ، فتنحى الناس ، فقام عمر عنه ، فاشتفى للمسلمين عامة ولأبى بكر خاصة •

وكان عمر رضى الله تعالى عنه حفيا بالآ يضرب إلا إشراف قريش ليعرفوا حرارة الضربات فصك وجوههم صك الجندل ، فما كان فى هذه المعركة التى أثارها يدنو منه شريف الا أخذ به بالضرب الشديد حتى أعجز الناس ، ثم أتبع المجالس التى كان يجلس فيها ، فيظهر الايمان (١) ، فيلاقونه ويذيقهم من أساءاتهم كؤوسا •

عاد الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه المسلمون يدعوه الى أن يظهروا مجتمعين ، وألا يبقوا متفرقين ، فجمعوا وخرجوا ليصلوا فى الكعبة الشريفة مجتمعين ، وساروا على صفين على رأس أحدهما حمزة أسد الله وسيد الشهداء ، وعلى رأس الثانى عمر رضى الله تبارك وتعالى عنهم •

وتحدوا بجموعهم قريشا أن تمنعهم ، ولم يجدوا جوابا لهذا التحدى العملى ، لأن أبا جهل داعية الشر تذكر قوس حمزة تقمع رأسه ، وتذكر عتبة ابن ربيعة صرع عمر ، ووضع أصابعه فى عينيه •

ظهر الاسلام ، فظهر النور ، وسارت الركبان ، بما اعتز به الاسلام ، وانخذل الشرك ، وتحول الاضطهاد من الأحاد الى الجماعات على ما سنبين

(١) البداية ج ٣ ص ٣١ ، ٧٩ •

فى الاضطهاد ، الذى نؤجل الكلام فيه ، لأنه استمر طول مدة الدعوة فى مكة المكرمة ، وانتهى بالهجرة •

واخذ المشركون أن يسلكوا ثلاثة مسالك مع الاضطهاد :

اولها : محاولة استمالة النبى عليه الصلاة والسلام ليمنعوه من الجهر بدعوته •

وثانيها : مجادلته لاجازته أو اظهار ضعفه فى زعمه •

وثالثها : الشكوى منه لعمه أبى طالب •

## محاولة كفه عنهم بالاستمالة

٢٣٨ — يئس الكفار من النبى عليه الصلاة والسلام ، اذوا أنصاره فثبتوا ، وأذوه وتهكموا به فما نالوا ، وكلما زادوا اىذاء سرى الايمان فى القلوب ، فبايذائهم للنبى صلى الله عليه وسلم هدى الله حمزة للايمان فكان البا عليهم ، وبسبب اىذاء عمر لختنه وأخته ، ولرؤيته المؤمنين يهاجرون رق قلبه ، فآمن ، وكان ايمانه كارثة كثر الله سبحانه وتعالى بها الشرك وأهله ، فكان القوة الفارقة بين استخفاء المسلمين ، وإعلان الاسلام ، والمجاهرة بالعبادة ، وإظهار صوت الحق يزن فى جوف المسجد الحرام •

وإذا كانوا هم يؤذون فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسالم ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا يقطع ، ولا يكف عن الدعوة ، بل انه يآلم لألمهم ، ويواسيهم فى أزماتهم •

حتى انه نزل بأهل مكة المكرمة قحط ، فدعا صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بانزال المطر ، فنزل ، ويظهر أن ذلك كان فى الفترة التى عاشها النبى عليه الصلاة والسلام بين أهل مكة المكرمة بعد وفاة أبى طالب الى أن هاجر ، ولذلك روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن استجابت دعوته ود لو كان أبو طالب حيا ، رجاء ايمانه ، ورجاء أن يعلم أن دينه أى محمدا صلى الله عليه

وسلم خير لقومه • ويروى أن هذا الاستقاء كان ومحمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، فقال لو أدرك أبو طالب هذا الاستقاء ونصره (١) •

ولقد كان من المشركين من يعترهم ما يفيد قبول ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أو على الأقل عدم المبادرة بتكذيبه والتريث في ذلك ، حتى ينظر أئتم دعوته ، وتستجاب ، أم تضعف وترد •

قال النضر بن الحارث : « يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا - أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ، والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم • وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه • وقلتم مجنون وما هو بمجنون ، فما هو

---

(١) المذكور في رؤية أبي طالب لاستسقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه رآه في حياة عبد المطلب ، روى أن رقية بنت أبي أصفى بن هاشم قالت : « تتابعنت على قريش سنو جذب ، قد أقحلت الظلف ، وأرقت العظم ، فبينما أنا راقدة اللهم ••• إذا أنا بهاتف يصرخ بصوت صحل : يا معشر قريش ان هذا النبي المبعوث منكم ، هذا ابان نجومه ، فجها بالحيا والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلا طولا أبيض أشم العرنين ••• ألا فليحضر هو وولده ، وليدلف اليه من كل بطن رجل ••• وليمسوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعا ، وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، فليدع الرجل وليؤمن القوم ••• قالت فأصبحت مذعورة قد قف جلدئ ووله عقلى واقتصصت رؤياى ••• فقالوا هو شبيه الحمد : وعبد المطلب ، فتتابعنت عنده قريش ، وانفض اليه الناس من كل بطن رجل فمسوا واستلموا وطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ، وطفق القوم يدقون حوله ما ان يدرك سعيهم • مهلة ، حتى قرؤا بذروة الجبل ، واستكفوا جنابيه فقام عبد المطلب ، فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع ، ثم قال : « اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسئول غير مبخل وهذه عداؤك واماؤك •• يشكون اليك سنتهم ، فاسمعن اللهم وأمطرن عليهم غيثا مغدقا ، فما راموا حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادئ بنجيجه » هذا ما جاء في الروض الأنف ، والله أعلم بصدق الرواية •

بخنقه ، ولا رسو سنه ، ولا تخليطه يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم » (١) •

### لقاء أهل مكة المكرمة به لاستمالاته :

٢٣٩ — عن جابر بن عبد الله فقالوا انظروا اعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ، فقالوا فيما بينهم ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة ، فندبوه لذلك ، وقالوا له أنت يا أبا الوليد ، وكان بينهم سيديا حليما ، ويروى أنه هو الذى عرض عليهم أن يذهب للقاء النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لهم : يامعشر قريش : ألا أقوم الى هذا الرجل ، فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، وكيف عنا :

قالوا : بلى يا أبا الوليد •

وسواء أكان هو الذى انتدب لهذا أم ندبوه فقد ذهب الى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعرض عليه ما يظنه كافا له عن متابعة الدعوة الى الحق •

قال عتبة : يا بن أخى ، انك منا حيث قد علمت من الشطر فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرقت به جماعتهم ، وسفحت به أحلامهم ، وعبت ألهمهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضا •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع •

قال ربيعة : يا بن أخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا •

وان كنت تريد شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك •

وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا •

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٩ •



وان كان هذا الذى ياتيك رثيا تراه ، لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يتداوى منه •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن فرغ عتبة : « أفرغت يا أبا الوليد » قال : نعم •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اسمع منى • قال أفعل ، فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » ومضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرؤها مرتلا تاليا •

لما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليها ليسمع منها ، حتى انتهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى آية السجدة فى السورة ، فسجدها ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت • قال الرسول فأنت وذاك •

ثم قام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلسوا اليه قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد •

قال عتبة : ورائى أنى والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله : ما هو بالشعر ولا بالكهانة : يا معشر قريش أطيعونى ، واجعلوها لى : خلوا بين هذا الرجل وما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ؛ وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزمكم • وكنتم أسعد الناس به •

قالوا غير مجيبين نصيحته : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه •

قال الناصح ، وكان فى ذلك الوقت أمينا فى نصحه : « هذا رأى ، فاصنعوا ما بدا لكم » (١) •

• ٢٤ — أعجزهم الايذاء المستمر عن أن يحولوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن الايمان ، بل أن التعذيب الشديد ، والايلام المستمر كان يزيد المؤمنين ايمانا ، واستمساکا بما يعتقدون ، وترتب على الايذاء أن آمن

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٦٤ •

مثل حمزة وعمر كما ذكرنا ، وأخذ المؤمنون يردون الايذاء بمثله • فعرف أبو جهل كيف يكون شج الرأس من القوى العادل لمثله الفاجر ، والمهم عمر رضى الله عنه القوى ، كيف يكون المضرب للشرير المعصى •

أخذوا يجربون من ذلك طريق العلاج باللين ، وعرض ما يحسبون أنه يقرب النبي اليهم من غير أن يتقربوا هم من الايمان ، عرضوا عليهم ما يلين أمثالهم ، وما هو منطقهم ، عرضوا عليه الشرف فيهم ليكون السيد المطاع ، وعرضوا عليه الملك ليكون ملكهم ، وعرضوا عليه الأموال ليكون أكثرهم مالا ، فلما رفض كل هذا ، ولا يحسبون أن يرفضه الا من يكون قد أيف عقله ، وذلك بمنطقهم المادى الذى لا يحسبون العلو فيه الا بالمال والسيادة والملك ، عرضوا عليه أن يعرضوه على نطس الأطباء ليعالجوه ولكنه بدل أن يجيب بلا أو نعم ، تلا عليهم القرآن الكريم ليعلموا أن ما عنده خير مما يقدمون ، بل لا يعد ما يقدمونه شيئا مذكورا بجوار ما عنده وهو خير وأبقى •

ضاقت ذرعا بمحمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، وزيادتهم أنا بعد أن ، عالجوه بالاضطهاد فما أجدى ، وعالجوه برشوة المال والسيادة فما أجدى فإذا هم صانعون ، لم يبق الا أن يدخلوا معه فى جدل ليبين عجزه أمام الناس ، فلا يزيد أتباعه •

## جدلهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم

٢٤١ — أعادوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عرض ما عرضه عتبه ، ولكنهم فى هذه المرة يعرضونه مجتمعين توثيقا لأرادتهم ، ورغبة فى الأعداء ثم يجادلونه بعد الرقض •

اجتمع الملائ من المعاندين له عليه الصلاة والسلام من بطون مختلفة ، فكلما تكامل جمع منهم قال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه •

فبعثوا اليه أن اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك •

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا ، وهو يظن أنه قد بدأ لهم فى أمره بدم ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم •

قالوا يا محمد انا قد بعثنا اليك لنعذر فيك ، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقى من قبيل الا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتىك رثيا من الجن ، فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا فى طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما بى ما تقولون ، ماجئتمكم بما جئت أموالكم ، والشرف فيكم ؛ ولا الملك عليكم ، ولكن بعثى الله اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ، ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ماجئتمكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة • وان تردوا على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم » •

قالوا يا محمد ، فان كنت غير قابل ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا ، ولا أقل مالا ولا أشد عيشا ، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ؛ وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فان فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك ؛ وعرفنا منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا ، كما تقول •

مؤدى هذا الكلام أنهم يطلبون آيات أخرى ، والله عليم بالقلوب ، فقد جاء عيسى لأمثالهم بما هو أشد من ذلك ، من احياء الموتى وإبراء الأكهم ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يختار أنبياءه وهو أعلم بمن يؤيد رسالته •

قال لهم رسول الله رادا عليهم قولهم ، وما بهذا بعثت ، انما جئتمكم من عند الله بما بعثنى به ، فقد بلغتمكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على ، أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم •

قالوا فان لم تفعل هذا فخذ لنفسك ، فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك نبتغى ؛ فانك تقوم فى الأسواق ، وتلتمس المعاش ، كما نلتمس ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم •

قال لهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربّه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ، ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا ، فان تقبلوا ما جئتكم فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر حتى يحكم الله بيننا •

قالوا فأسقط علينا كسفا من السماء ، كما زعمت أن ربك ان شاء فعل ، فانا لا نؤمن بك الا أن تفعل •

قال لهم الرسول الصادق الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم : « ذلك الى ربى ان شاء فعل بكم ذلك » •

قالوا يا محمد ما علم ربك أننا سنجلس معك ونسألك عما سألناك ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم اليك ، ويعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا اذا لم نقبل ما جئتنا به ، فقد بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليماة يُقال له الرحمن ، وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا ، حتى نهلك أو تهلكنا •

وقال قائل منهم نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله ، وقال قائل منهم : « لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا » •

تقاولوا طالبين آيات حسية ، ومستعجلين العذاب ، ثم قال عبد الله ابن أبى أمية ابن المغيرة ابن عمة عاتكة بنت عبد المطلب « يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا ، فلم تقبله ، ثم سألك أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألك أن تعجل ما تخوفهم من العذاب ، فوالله لا أومن لك أبدا ، حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى منه وأنا أنظر ، حتى تأتيتها وتأتى معك بنسخة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول : « وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك » (١) •

٢٤٢ — طلبوا ما طلبوا لا ليؤمنوا ، ولكن ليخرجوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليعلنوا قوة جدالهم ، وهم قوم خصمون كما قال الله تعالى ، ولعل الذى يفضح حقيقة نياتهم قول الهاشمى ابن عاتكة بنت عبد المطلب : وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك ، فكأنه يصرح بأن التكذيب سابق

(١) راجع ابن جرير فى تفسير سورة الاسراء ، وابن كثير كذلك ، وراجع سيرة ابن هشام ، والبداية والنهاية لابن كثير •

للدليل ، وانه راكز فى النفوس لا يخرج منها ، حتى بعد تلك الآيات التى طلبوها ، فلو استجيب ما زادوا الا اعناتا ، وكانوا كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

ومطالبهم التى قدمت كانت للتعنت لا طلبا للدليل ، فان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق واضح فى ذاته ، تبعه مؤمنون لما فيه من الحق ، وقد صحبه الدليل الذى يثبت أنه من عند الله قرآنا غير ذى عوج يهدى الضال ، ويرشد السارى فى الظلام ، وهو المصباح المزهر ، الذى يعجز العرب وغير العرب عن أن يأتوا بمثله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله . ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

وخلاصة هذه المطالب أنهم :

١ - يطلبون أدلة مادية ، طلبوا منه أن يوسع عليهم أرضهم ، وأن يبعث أمواتهم .

٢ - وطلبوا أن يبعث لهم ملكا يشهد لنبوته .

٣ - وطلبوا منه أن يجعل أرضهم القاحلة جنات ، وفيها كنوز ، وفيها قصور من ذهب وفضة ، واتهموه كذبا بأنه يعلمه رجل من اليمامة .

٤ - وطلبوا أن يسقط عليهم من السماء كسفا .

٥ - وطلبوا منه أن يحضر سلما يرقى فيه الى السماء ، وأن ينزل ومعه كتاب فى قرطاس .

طلبوا ذلك لا ليؤمنوا ولكن ليحرجوه عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا طلاب ايمان ما طلبوا أن ينزل عليهم كسفا من السماء ، لأن ذلك يبيدهم ، ولا ايمان بعد هذا الانزال .

ولقد كان صادقا عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عمته عاتكة بعد أن طلب ما طلب أنه لم يعد بالايमान أن جاء بما طلب ، بل ختم القول بأنه لا يظن أنه سيصدق أن جاء .

وان النبی علیه الصلاة والسلام لم يطلب إلى الله تعالى أن يجيبهم فيما طلبوا ، بل رد طلبهم لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم ان أجیبوا ولم يؤمنوا ، فإلهلاك كما هلك عاد وثمود ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن شريعته باقية خالدة ، وأن لها معجزة خالدة باقية بخلودها ، فلا تناسبها معجزة تحدث ثم تنتهي .

وقد حدثوا أنهم لما سألوا النبي عليه الصلاة والسلام تلك الأسئلة وطلبوا تلك المطالب أوحى « ان شئت أن تستأني بهم وان شئت أن تؤتيهم الذي سألوا ، فإن كذبوا هلكوا كما هلك من قبلهم » فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « بل أؤتاني بهم » .

ولقد روى أنهم قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن لك ، قال عليه الصلاة والسلام وتفعلون ذلك ، قالوا نعم ، فدعا ، فأتى جبريل فقال : « ان ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك ان شئت أصبح الصفا لهم ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وان شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة ، قال الرؤوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه بل التوبة والرحمة » .

وان مطالبهم والرد عليها قد سجلها القرآن الكريم فقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« وقالوا لمن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي باله والملككة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً » .

وقد أشار سبحانه وتعالى الى هذه المطالب فى آيات أخرى ، وبين أنهم لو جاءتهم لا يؤمنون ، فقال تعالى كلماته : « وما تأتئهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالصق لما جاءهم فسوف يأتئهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، ولو نزلنا عليهم كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبدى ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ي نظرون ، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، ولليستنا عليهم ما يلبسون » .

طلبوا كل هذا لا ليؤمنوا ، فقد سبق القول بالكفر ، وإذا سبق الاعتقاد الباطل في أمر ، فإن كل الاتجاهات لاثبات هذا البطلان ، بالسلب إذا لم يأت لهم الدليل الذى يريدونه ، وبالإيجاب بالانكار وعدم الاقرار ، فإن التعنت لا تزيده قوة الدليل الا اصرارا ، وكثرة الأدلة الالجاجة فى الانكار .

وان الله تعالى قد اختار لهم القرآن دليلا ، ليعطيهم فرصة للتفكير ، وهو يخاطبهم فى آن الدعوة ، وقد تتولد التوبة والغفران . أما الأدلة الحسية ، فإنها تجيء دفعة ، فاما العقاب واما الايمان ، وفى الماضى عبرة فما جاءت آية من نوع ما يطلبون الا كانت النتيجة هلاكا ولم تكن اذعانا ، لأنهم ما كانوا ليزيدوا بالحق ، بل قد سبق الكذب ، وقد قال تعالى يشير الى ذلك : « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون ، وأتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات الا تخويفا » .

٢٤٣ — ما كانت هذه الأسئلة ، الا لظهار النبى عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز ، وإذا ظهر عجزه فى زعمهم اتخذوا من ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه ، وللقوف ضد ينبوع الايمان الذى يسرى ، ولا ينقطع ، ولكن هل تحقق ما أرادوا ، لقد ثبت بذلك صدقه ، وأنه لا يريد الا الحق ، والاتباع يزدون ولا ينقصون ولا يرتد أحد ، بل يزدادون ايمانا . وانهم يحيلون موضع الجدل آيات ، والقضية توحيد أو تعدد . فهل يجادلون فى الله ، وهو شديد الحال .

## الاستعانة بأهل الكتاب

٢٤٤ — سبق المشركون الى الانكار ، فكذبوا بالحق لما جاءهم ، وسدوا مداخل الايمان الى قلوبهم ، والناس رجلان رجل يدرك الحق بعقله وقلبه فيدركه بمجرد سماعه ، وهذا يطلب الدليل ليطمئن قلبه ، وليزداد ايمانا ، فالدليل لا ينشئ الايمان فى قلبه ولكنه يزيده تثبيتا — هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا » .

وآخر يسارع الى الكفر ، ويسابق بالانكار ، فيكون قلبه أغلف قد سدت مداخل الايمان ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » ، وأولئك لا يطلبون الدليل ليسيروا فى نوره ، بل يطلبونه ليعجزوا من يخاصمهم ، ويحرف بهم القول ، وانظر ما قاله تعالى فى شأن عتاة المشركين الذين كانوا يقاومون النبى عليه الصلاة

والسلام ، فهو يقول تعالت كلماته : « واذا قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم ، وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » \*

أحس المشركون بعد المطالب التي قدموها أن أحدا لم يفقد الثقة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل كانت دليلا على حمقهم ، وانهاؤهم في هاوية من التفكير ليس معها رشاد ، ان كيف الدليل الذي لو نفذ لمااتوا قبل أن يستجيبوا ، كانزال مطر من حجارة أو عذاب اليم \*

عجزوا عن الاستدلال الذي كشف جهالتهم ، تعمدوا الى الاستدلال الاضافى بالاستعانة بأهل الكتاب عساهم أن يعينوهم ، على وقف التيار العذب الذي يدخل به الناس في الايمان \*

٢٤٥ — روى عن ابن عباس رضى الله عنهما — أن قريشا بعث النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط الى أحبار يهود بالمدينة فقالوا سلوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله : انهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء \*

خرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالوا انكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا \*

فقال لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وان لم يفعل فهو رجل متقول ، فروا فيه رأيكم :

(أ) سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب \*

(ب) وسلوه عن رجل طواف : طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه \*

(ج) وسلوه عن الروح ما هي \*

فان أخبركم بذلك فاتبعوه ، وان لم يخبركم ، فانه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم \*



فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا :

يا معشر قريش قد جئناكم بما يفصل ما بينكم وبين محمد : قد أمرنا  
أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبراهم بها ، فجاءوا رسول الله صلى الله تعالى  
عليه وسلم فسألوه عما أمر أحبار يهود •

ويظهر أنهم ظنوا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيردهم  
بتكرار دعوة الحق لهم كما فعل أول الأمر • ولكن خاب ظنهم • فقد أمهلهم ،  
ولم يرددهم ، لأن ذلك مما يمكن أن تشمل معجزته الكبرى ، وهى القرآن الكريم ،  
ولذا وعدهم بالاجابة ان أجלוه ، لأنه يتكلم من عند الله ، فلا علم له الا من عند  
الله العلى القدير • فقال لهم : أخبركم غدا بما سألتهم عنه ، ولم يستثن أى لم  
يعلق الاجابة على مشيئة الله تعالى •

انصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمس عشرة  
ليلة ، لا يحدث له فى ذلك وحى ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أُرِجف أهل مكة المكرمة  
وقالوا وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها لا يخبرنا فيها  
بشيء مما سألناه ، وحتى أحزن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكث  
الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة المكرمة : ثم جاء جبريل •

لماذا تأخر الوحى هذه المدة ، ونجيب عن ذلك بجوابين :

أولهما : أنه لم يستثن عندما قرر أنه سيجيب غدا ، فلم يقل ان شاء الله  
تعالى : « ولا تقولن لشيء ائنى فاعل ذلك غدا الا ان شاء » •

وثانيهما : أن مجيء الاجابة بعد طول انتظارها ، وارجاقهم نحوها ،  
واشاعتهم عجز محمد عليه الصلاة والسلام عن الاجابة ، تكون للاجابة فائدة  
أنها تكون أوقع ، اذ تكون فى وقت الحاجة اليها ، فيكون فيها فضل تمكين فى  
النفس ، ويكون التحدى أشد تثبيتا فى النفس وأقوى لتكذيبهم ورد كيدهم فى  
نحرهم ، اذ يكونون قد تقاولوا فى ذلك ، فيكون ردهم قد علمه كل من أشاعوا  
بين يديه عجز محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتكون دعوة التصديق للنبي  
عليه الصلاة والسلام •

وفوق ما تقدم فى الأمرين ان التأخير يدل على أن محمدا عليه الصلاة  
والسلام لا يأتى بهذا الكتاب من عنده ، وانما يأتيه عن الله تعالى علام الغيوب  
الذى يعلم ما خلق وهو السميع البصير •

٢٤٦ — أجيئوا عن الأسئلة الثلاثة — أجيئوا عن السؤال الأول بأن أولئك الفتية هم أهل الكهف الذين ذكروا في السورة التي سميت بأسمائهم — ولننقل جزءاً من هذه السورة ، فقد قال تعالت كلماته :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهبي لنا من أمرنا رشداً ، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أَى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، أنهم فتية آمنوا بربهم وزيادتهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه الها لقد قلنا إذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، وإن اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله من يهد الله المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ۝ ١٠٠ » إلى آخر القصة التي تختم بقوله تعالى :

« واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك ، لا مبدل لكلماته ، ولن تجد من دونه ملتحدا ۝ »

هذه اجابة السؤال الأول ، وهو شطر من سورة الكهف ، وتلاوته تسمعهم القرآن الكريم ، واسماعهم القرآن الكريم في ذاته دعوة إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم ، وبتلاوته يدركوا معنى الاعجاز ۝

وأما الاجابة عن السؤال الثانى ، وهو الرجل الطواف ، فقد جاءت في آخر سورة الكهف ، إذ يقول تعالت كلماته « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، أنا مكنا له فى الأرض ، وآتيناه من كل شىء سببا ، فأتبع سببا ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس ، وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، قلنا يا ذا القرنين أما أن تعذب ، وأما أن تتخذ فيهم حسنا ۝ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا ۝ وأما من آمن وعمل صالحا ، فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لا يكادون يفقهون قولا » إلى آخر القصة التي تختم بقوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور ، فجمعناهم جمعا ۝ »

وكانت الاجابة عن السؤال الثالث فى سورة الاسراء بقوله تعالى :

« ويسألك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » •

جاءت الردود آيات تتلى ويسمعها كل الذين أرجفوا بعجز محمد صلى الله عليه وسلم فى تحديهم ، فقرءوها ، أو سمعوها ، فكانت تتلى فيهم فى ضمن ما يتلوه النبى عليه الصلاة والسلام عليهم ، ولا شك أن لذلك أثرا قويا فيهم • وفيمن علم أمر الحاجة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى مقدمه ما سرى فيهم من روح القرآن الكريم ودلائل اعجازه ، فهل آمنوا ؟ من المؤكد زادوا ايمانا بعد ذلك •

## اسماعهم القرآن الكريم

٢٤٧ — عندما ذهب عتبة بن ربيعة يتودد للنبي صلى الله عليه وسلم باسم قريش ، وعرض عليه السيادة فيهم ، أو الملك ، أو المال الوفير ، أو أن يحضروا له طيبا يعالجه من الرئى ان كان عنده رئى ، فقرأ عليه النبي عليه الصلاة والسلام بعد مجاوبة ترد ما يعرضون قوله تعالى : « حم تنزيل من الرحمن الرحيم ••• » الى آخر الآيات ، فأتى أصحابه ، فقال لهم : « يا قوم أطيعون فى هذا الأمر اليوم ، واعصوني فيما بعد ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ، ما سمعت أننأى كلاما مثله وما دريت ما أرد عليه » •

كان المشركون حريصين على أن يستمعوا للقرآن الكريم بعد أن عرفوا تأثيره ، لا ليؤمنوا ، ولكن ليعرفوه ، وليعدوا العدة ، ولأن بعضهم مع عناده ، وجحوده وأصراره كان يخاف تهديده وانذاره ، بل كان يخاف مجرد تهديد من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

يروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأبى جهل « يا أبا الحكم فوالله لتضحكن قليلا ولتبكين كثيرا » فأخذ التهديد قلبه المتحجر ولأنه لحظة من الزمان ، فقال متلطفًا مع النبي صلى الله عليه وسلم : « بئسما تعدنى يا بن أخى من نبوتك » •

ونراه أحسن الخطاب بذكر رابطة وثيقة من القرب فى القبيلة ، وذلك ما لم يؤلف من قبل •

كان كبراء قريش يجذبهم القرآن الكريم لاستماعه ، وإن لم يؤمنوا ، لقد سمعه الوليد بن المغيرة ، فقال لقريش فى وصفه « ان له لحلاوة ، وإن عليه

لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ما يقول هذا بشر « ولقد نفى أن يكون شعرا ، ودفعته لجأته في الإنكار إلى أن يقول إنه سحر ، وإن لم يرض بذلك الموصف للقرآن الكريم ابتداء » .

وإذا كان المؤمنون قد جذبهم القرآن الكريم ومحبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإخلاصهم ، وإشراق قلوبهم بالإيمان ، فالمشركون لعلمهم ببليغ القول ، وشغفهم به ، قد شغفهم القرآن الكريم ، ولكن حالت بينهم وبين الإيمان ظلمات اعترت قلوبهم ، « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » .

ولقد شغفوا بسماع القرآن الكريم ، لا فرق بين صغير وكبير ، والصغير يؤمن والمتعنت لا يزيده السماع إلا كفرا وإعنا ، فإن قوة الدليل تملأ قلب المخلص إيمانا ، وقلب الحقود الحسود كفرانا ، ولجاجة ، وكلما لج في عناده زاد بغضا لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، والمستجيبين لها .

٢٤٨ — ولقد روى ابن اسحاق عن ابن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل عمرو بن هشام والأخنس بن شريق بن وهب الثقفي حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يصلى من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو راكم بعض سفهائكم ، لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا كان الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود .

وقد تعاهدوا على ذلك ، وقد قال الله فيهم : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

وكانوا بعد سماع القرآن الكريم يتذاكرون فيما بينهم ما سمعوا ، فقد سأل الأخنس بن شريق الثقفي أبا سفيان عن رأيه فيما سمع ، فقال : « أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . وقال الأخنس ، وأنا كذلك ، وذهب الأخنس من عند

أبى سفيان ، وأتى أبى جهل فقال ياأبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال ماذا سمعت : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا ، فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تجاوزنا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحي من السماء فمن ندرك مثل هذا ؟ والله لا نؤمن أبدا ، ولا نصدقه • وقد نقلنا ذلك الجزء من قول أبى جهل •

٢٤٩ — والمقصود من ذلك الخبر أنهم كانوا ينجذبون نحو سماع القرآن الكريم ، كما يتجه الى السماع والتلاوة المؤمنون ، بيد أن الفرق بينهما ، كالفرق بين من يستمع طالبا الحق مدعنا له ، ومن يطلب غير الحق ، ولكن يجذبه اليه حلاوته وطلاوته •

ولذلك ما كانوا يؤمنون ، وكأن الله تعالى مقلب القلوب جذبهم اليه ليعرفوا البينات ، والأدلة القائمة ليهتدوا ، فان كفروا من بعد ذلك فعن بيثة وسماع ، ومعرفة بالدليل ، ثم الاعراض •

وقد كان الاعراض شأن من كتب عليهم الضلال ، ولا معذرة لهم لأنهم اشتروا الضلالة ، ورغبوا عن الهداية ، ومع أنهم كانوا يتهافتون على سماعه فى جنح الليل البهيم ، وكلما تواعدوا الا يفعلوا نكثوا فى عهودهم كان النبى عليه الصلاة والسلام اذا تلا عليهم القرآن الكريم جهارا ، نهارا استهزءوا ، ولم ينصتوا خشية أن يكثر أتباع النبى عليه الصلاة والسلام ، وكانت دعوته شجا فى عيونهم ، وغصة فى حلوهم •

قال ابن اسحاق كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا تلا عليهم القرآن الكريم ودعاهم اليه ، قالوا يهزءون ، قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه ، وفى أذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون •

فحكى الله تعالى عنهم قولهم : « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ؛ وجعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه ، وفى أذانهم وقرا ، واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ، نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك ، واذا هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعبدنا قل الذى فطركم أول مرة » •

وهذه الآيات الكريمة مع ما ذكر من حرص عتاة الكفار على سماع القرآن الكريم يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن القرآن الكريم كان يجذبهم الى الاستماع اليه ، لما فيه من بلاغة تجذب أهل البيان لاستماعه وتعرف منزلته ، وبهذا يدركون الفرق بين كلامهم وكلامه ، ويذكرون الفرق بين البيان البشرى ، وكلام رب العالمين حجة الله تعالى البالغة الى يوم الدين ، وإذا كانت الآيات الحسية تبهرهم وتقرع أسماعهم ، فيراها أكثرهم بينة ، فكذلك تلك الآية المعنوية تجذب قلوبهم وتسترعى أسماعهم ، فيعلم بها الذين لم يدخل الايمان قلوبهم ، وبذلك تقوم الحجة ، وتقوم البينة ، ولا حجة لهم فى الجهل ، ولا فى الاعتذار .

ثانيها : أنهم مع عدم المطالبة بأن يأتوا بمثله قد أحسوا بالعجز عن أن يأتوا بمثله ، كما رأوا فيه من بيان لا يصلون اليها ، وروعة بلاغة لم يستمعوا اليها ، حتى يقول قائلهم ، وقد استمر على كفره وضلاله : « انه يعلو ولا يعلا عليه ، ما يقول هذا بشر ، فهم أذعنوا لبلاغته ، ولم يذعنوا لدعوته ، فاستحبوا الكفر على الايمان ، مع قيام الدلائل » .

ثالثها : ان انكارهم سبق الرغبة فى طلب الحقيقة ، ومن كان كذلك لا يهديه دليل ، ولا تقنعه حجة ، لأنه حينئذ لا يطلب حقا ، فلا يحاول أن يتعرف الطريق الذى يتأدى به الى الايمان ، لأن من سلك طريقا معوجا غير موصل الى المطلوب للحق ، لا يصل اليه ، وكلما أمعن فيه بعد عن الهداية وكلما أوغل ازداد نكرا ، ومهما يناديه رائد الحق لا يستمع اليه ، لأنه بعد عنه ، وان يسمع لا يكون جواب من قلبه .

ومن سلك الطريق المستقيم وصل الى الحق ، لأن الأمارات والظواهر هادية قائمة ، والطريق المستقيم هو الاخلاص فى طلب الحق غير مربد قلبه بهوى أو شهوة ، أو أثبة ماحقة للخير مغلفة على النفس أبوابه .

## الايذاء والفتنة

٢٥٠ — منذ جاءت الدعوة المحمدية ، وقد حاول أهل العصبية الجاهلية الذين ينفون على البيت الهاشمى مكانته ، والذين من دأبهم أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله ، والذين ألفوا رجس الجاهلية من عبادات ، وتحريم الطيبات من الرزق ، وقد حاول كل أولئك مجتمعين ومنفردين الوقوف فى وجهها ، وهى تنمو وتزيد ، تسعى قدما . ولا تتأخر . وإذا كان السير بطيئا ،

فهو متواصل من غير وئاء ولا قصور ، وكلما انبلج نوره واتسعت دائرته ، ظنوا أنها دعوة قابلة للانطفاء ، فحاولوا اطفاءها ، بالحيلة والعرض الذى يشبه الرشوة ، فما أجدى ذلك فتىلا ، وحاولوا الاعجاز بالجدل فارتدوا على أدبارهم خاسئين وقامت الحجة عليهم ، حاولوا أن يهوشوا على القرآن الكريم وهو يتلى ، وتعاهدوا أن يلغوا فى القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم يتلو .

حاولوا كل هذا ، ولم يجد شيء منه ؛ والاسلام سائر فى طريقه ، وان كانت العقبات ، فهي لا تعوق السير ، وان أبطأته ؛ رلم يجدوا سبيلا الا الى أمرين :

أحدهما : الايذاء المستمر لمن لا حول له ولا قوة ، ولن أثر السلام والعافية ، وهذب قلبه الايمان فاعتقد أن الايمان يوجب عليه الصبر على البلاء ، ولا يقاوم السيئة بمثلها ولو قدر عليها ، وعلى رأس هذا الفريق صاحب الرسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه صديقه أبو بكر ، ومع هؤلاء العبيد والفقراء الذين لا يملكون سطوة ولا عشيرة لهم .

ثانيهما : الاستعانة بمن يحسبون أن له سلطانا أدبيا على محمد عليه الصلاة والسلام وهو أبو طالب ، لأنه عمه الذى كفله صغيرا وهو رأس بنى هاشم وهو الذى يحميه كبيرا .

فلما لم يجدوا واحدا من الأمرين زادوا فى الايذاء وجعلوه جماعيا ، ولم يجعلوه أحاديا فقط ، ووجدوا بنى هاشم مؤمنهم وكافرهم مع محمد عليه الصلاة والسلام يحميه بأئفة العشيرة ، الا من كتب الله تعالى عليه أن يكون لها فى جهنم وهو أبو لهب ، فقد كفر بالله ، وكفر بالقراة ، وكفر بالحمية ، حمية العشيرة والنصرة ، وأسلم ابن أخيه ، فضل ضلالا بعيدا .

### ايذاء الضعفاء :

٢٥١ — قال ابن اسحاق : انهم عدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب ، وبرمضاء مكة المكرمة اذا اشتد الحر ، ممن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يقتل من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يثبت ويعصمه الله تعالى منهم .

وقد كان المؤمنون الصادقون يعينون العبيد من المؤمنين الذين سارعوا الى الايمان فى أول الدعوة ، ويعينون الفقراء ليصابروا الذين يؤذونهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعل كل ما كان يملكه من مال هو وزوجه خديجة لهؤلاء الضعفاء ، وابتدأ محمد عليه الصلاة والسلام يخرج من المال والنشب ، لكيلا يحاجزه عن الدعوة حاجز ، وليكون ما عنده عون لأهل الايمان المستضعفين منهم .

اذن لقي العبيد أشد العنت عندما اعتنقوا دين الحرية .

### بلال رضى الله عنه وأخوانه :

٢٥٢ — كان من أول الناس اسلاما بلال بن رباح ، كان رقيقا عند أمية بن خلف ، كان يخرج به عند الظهيرة فى الحر الشديد فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة المكرمة . ثم يأمر بالمصخرة العظيمة فتوضع على صدره ؛ ثم يقول له لا تزال على ذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتبعد اللات والعزى ، فيحتمل البلاء على أن يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يعود الى الشرك ، فيقول ملهوقا : أحد - أحد - ؛ وتأويلها الله أحد . يلفظها فى عجلة لشدة البلاء ، وللمسارعة بإثبات الصبر ، وعدم الاستجابة لما يطلبونه ، ولو لاقى أشق البلاء .

ولكن ذا المروءة المؤمن مر عليه وهو فى هذا العذاب ، فكان له غوثا - وهو أبو بكر الصديق ، عتيق النار ومعتق أهل الايمان . فقال لأمية : ألا تتقى الله تعالى فى هذا المسكين ، حتى متى ؟

قال أمية : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

قال الرجل الكريم أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيك به .

قال أمية : قد قبلت ، وحسب أن صفقته رابحة ، لأنه أخذ عبدا قويا هو أملك لعنانه .

وأخذ أبو بكر بلالا فرحا بما أعطاه الله تعالى وأعتقه ، وكان مؤذن الاسلام من بعد .

وقد أعتق أبو بكر مع بلال ستة آخرين . فكانت المدة سبعة .



وهؤلاء الذين من الله تعالى عليهم بالحرية فداء لهم من العذاب على يد  
أبى بكر صديق هذه الأمة .

عامر بن فهيرة الذى كان فى الجهاد فى غزوة بدر وغزوة أحد ،  
وأم عبيس ، وزنبرة النهديّة وبنّتها ؛ وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار فمر  
بهما وقد بعثتهما سيدهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا .  
فقال أبو بكر رضى الله عنه حلى ( أى تحلى من يمينك ) .

فقال له حل أنت ، أفسدتهما ، فأعتقهما .

قال : فبكم هما ؟

قالت بكذا وكذا . قال أبو بكر قد أخذتهما ، وهما حرتان ، أرجعا  
اليها طحينها .

قالتا رضى الله عنهما : أونفرغ منه يا أبا بكر ، ثم نرده اليها ؟ قال  
الصديق : وذلك لكما أن شئتما .

ومر بجارية وكان عمر فى أيام شركه يعذبها لتترك الاسلام ، فيضربها  
حتى يمل . فتركها ملالة لا شفقة . فابتاعها أبو بكر وأعتقها (١) .

ولما كثر عتقاؤه ومعاونته للضعفاء . قال له أبو قحافة أبوه ، وكان  
لا يزال على الشرك يا بنى : انى أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك اذ فعلت  
ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمتعونك ، ويقومون دونك .

قال أبو بكر رضى الله عنه : يا أبت انما أريد ما أريد الله عز وجل .

ويروى أنه نزلت فيه هذه الآيات : « فأما من أعطى واتقى وصدق  
بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى  
فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله اذا تردى ، ان علينا للهدى ، وان لنا  
للآخرة والأولى فانذرتم نارا تلقى ، لا يصلها الا الأشقى الذى كذب وتولى ،  
وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى  
الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » .

(١) أخبار عتق هؤلاء بعمل الصدق أخذناه من سيرة ابن هشام ج ١  
ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .

## آل ياسر رضى الله عنهم وغيرهم :

٢٥٣ — هو بيت أسلم كله ، وآمن بالله سبحانه وتعالى وفيه ضعف من المال والجاه وناله ضعف الرق • فرأس الأسرة ياسر ، وهو أبو عمار ، عذب ، وأمه سمية ، عذبت ؛ وذهب الفجور بأبى جهل الى أن يضربها برمح فى بطنها فماتت • فكانت أول شهيد فى الاسلام مات فداء لدينه •

وحمل عمار أشد العذاب ، وقبله طيبا راضيا ، ولقد مر به النبى عليه الصلاة والسلام وهو يبذب ، فقال صبرا أبا اليقظان • ثم قال اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بن ياسر •

وكان آل مخزوم يعذبونهم اذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة المكرمة ، وقد مر النبى عليه الصلاة والسلام بهم ، وهم يعذبون • فقال عليه الصلاة والسلام صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة •

ولقد كانوا أحيانا ينالون منهم حتى يفتنوه عن دينهم ، فينطقون بكلمة الكفر تحت ضغط العذاب ، ولقد شددوا العذاب على عمار ، وما تركوه حتى نال من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فبين له عليه الصلاة والسلام أن لا مؤاخذه على من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان •

ولقد ذكر سعيد بن جبير أنه سأل عبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعذرون به فى ترك دينهم ، قال : نعم انهم كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضرب الذى نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة • وحتى يقولوا له اللات والعزى الهان من دون الله • فيقول نعم افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم •

ويقول ابن كثير : « وفى مثل هذا أنزل الله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ، الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ، ذلك يأنهم استحَبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم المغفلون ، لا جرم أنهم فى الآخرة

هم الخاسرون » فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الاهانة والعذاب البليغ ، أجازنا الله تعالى من ذلك بسنوله وقوته ، (١) .

### التهديد بالتشنيع :

٣٥٤ — تفننوا فى الايذاء ، فمن لم يكن له من يحميه من أهل وعشيرة يؤذون بالتعذيب ، والضرب الشديد ، ولقد بلغت النذالة بأبى جهل اللعين أن يضرب امرأة بالرمح فى موضع عفتها ، حتى ماتت ، من غير أى تحرج من أدب انساني ، أو عروبة نبيلة ، هذا شأن من لم تكن له عشيرة تذود عنه ، أو تمنعه .

ومن كان له عشيرة أخذوه بالتشنيع عليه ، وكان يتولى ذلك أبو جهل سفههم . وشيخ أراذلهم ، وقد حكى ابن اسحاق فى سيرته ذلك ، فقال : « كان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال قريش اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وقال له تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك ، وان كان تاجرا قال ، والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به » (٢) .

ولقد كان الكافرون من كبرائهم اذا أسلم واحد منهم ، لم يمنعوا أمثال أبى جهل من لومهم . وان كانوا يمنعونه وأشباؤه من قتلهم ، حتى لا تأخذهم معرة عصبية جاهلية .

لقد أسلم رجال ، فأراد بنو مخزوم قبيل أبى جهل ، أن يلوموهم على الطريقة التى أشرنا اليها من تسفيه أحلامهم ولكنهم خشوا شر قومهم فاستأذنوهم وأذنوا ، قالوا انا أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذى أحدثوا ، فانا نأمن بذلك غيرهم .

قالوا ذلك لهشام بن الوليد حين أسلم أخوه فى النفر الذين أشرنا اليهم ، فقال لهم : هذا لكم فعليكم به فعاتبوه ، وإياكم ونفسه ، احذروا على

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ .

نفسه ، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن به أشرفكم رجلا ، فقالوا فى أنفسهم اللهم اللعنة ، فوالله لو أصيب فى أيدينا لقتل أشرفنا رجلا ، فتركوه ، ونزعوا عنه « (١) » .

ومن كان له دين لا يعطونه ، ويمطلونه اذا أسلم ، بل لا يؤدون الدين .

ومن هؤلاء خباب بن الارت ، كانوا يعذبونه ، وينزلون به الأذى لأنه لم يكن ذا عشيرة تحميه ، ومع ذلك كانوا يحاربونه فى صناعته ، فلا يعطونه أجر ما صنع .

روى البخارى عن خباب بن الارت قال « كنت رجلا قينا (٢) » . فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت أتقاضاه ، فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفر بمحمد ، حتى تموت ثم تبعث ، قال فانى اذا مت ثم بعثت جئتني ولى ثم مال وولد . فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : « أفرايت الذى كفر بآياتنا ، وقال لأوتين مالا وولدا اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ، ونثره ما يقدر ويأتينا فردا » .

#### مصابرة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم :

٢٥٥ — كان النبی علیه الصلاة والسلام يلقي فى قلوبهم ببيان أن الايمان يوجب تحمل المشاق ، وأن ثواب الآخرة ثمنه تحمل ما يقتضيه الحق فى الدنيا ، وبيان أن الله تعالى ناصر عباده المؤمنين بعد أن يبلو إيمانهم ويظهر صبرهم .

روى البخارى عن خباب بن الارت أنه قال : « أتيت النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو متوسد ببردة وهو فى ظل الكعبة الشريفة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت ألا تدعو الله ؛ فقعد ؛ وهو محمر وجهه . فقال : قد كان من قبلکم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من

(١) الكتاب المذكور .

(٢) القين الحداد .

صنعاء الى حضرموت ، ما يخاف الا الله عز وجل ٠٠٠ ولكنكم تستعجلون » .

شكا المؤمنون الى النبي عليه الصلاة والسلام من حر الرمضاء ، واستنصروا فطالبهم النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، فلا ايمان من غير صبر ، وكأنه ينبئهم بما أنبأ القرآن الكريم من بعد ، وهو أن الجنة جزاء الصبر ، وأنه لا بد من الابتلاء : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب » .

هذا ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لو دعا عليهم لاجتثهم الله تعالى من فوق الأرض ، وما وجدت للإسلام أحدا تحمل دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام من بعدهم ، ولذلك كانت اجابة النبي عليه الصلاة والسلام لما أخبره بأن الله يطبق عليهم الأخشيين ( جبلى مكة ) قال خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام : « انى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى » وقد حقق الله تعالى رجاءه ، فكان منهم من يعبد الله تعالى ، بل كان منهم من حمل السيف مجاهدا فى سبيل الله ، وكان من أصلابهم من حملوا النور ، الى مشارق الأرض ومغاربها .

### الاذى ينزل بشخص النبي عليه الصلاة والسلام :

٢٥٦ — لقد كان لأذى الضعفاء أنين ، وشكوى ، وسمع النبي عليه الصلاة والسلام أنينهم ، فكان له ألما ممضا ، وشكرا اليه فأشكاهم بالصبر وبشرهم بالجنة ، وما كان ليكون نبي الرحمة اذا لم يذق من الكأس الدهاق من الآلام التى يتجرعونها ، وما كان ليدعو الى المساواة فى السراء والضراء ، اذا لم يشاركهم فيها .

كان بنو هاشم يمنعون من أن يقتل ، ولكنهم ما كانوا يمنعون من أن يسفه ويستهزأ به ويؤذى بغير القتل ، بل كان يتجرأ على ذلك سفهاؤهم من أمثال أبى جهل ، بل من أمثال عمه أبى لهب الذى سلب ابنه اللعين ابن اللعين من أن يتغل فى وجه النبي عليه الصلاة والسلام فى حضرة كبير البطحاء أبى طالب الكريم ابن الكريم .

وانه يروى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير عن عمرو بن العاص ، قال : « بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة الشريفة

ان أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه ، حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلا قوله تعالى : « اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبيانات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » .

بل ان أبا جهل لعنه الله ليرمى فرث الجذور عليه ، وهو يصلى صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والنبي ساجد فتجىء فاطمة الزهراء وهى صغيرة ، فتلقيه عن ظهر أبيها وهى تلعنهم .

وان الفجر ليصل بأبى جهل اللعين الى أن يهم بقتل النبي عليه الصلاة والسلام غير عابىء بأن يتحرك بنو هاشم للأخذ بثأره ، وأنه لن ينجو من يد أبى طالب وسيف الله حمزة ، فيجتمعوا فى ثأره ، وان تفرقوا فى اتباعه فى دينه ، ولكنه الحقد الدفين يعمى ويصم ، فلا يفكر الأحمق فى مغبة عمله ، ولكن يفكر فقط فى شفاء غيظ نفسه الذى لا يكظمه .

حدث ابن اسحاق بسنده أن أبا جهل شيخ السفهاء من قريش وقف بينهم يقول :

يا معشر قريش ، ان محمدا قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أعلامنا ، وسب آلهتنا ؛ وانى أعاهد الله لأجلس له غدا بججر ؛ فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أبو جهل لعنه الله أخذ حجرا ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . . . فقام يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أئديتهم . فلما سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده . . . وقام اليه رجال من قريش فقالوا ما بك يا أبا الحكم ، قال : قمت لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الابل ، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ؛ فهم أن يأكلنى « (١) » .

(١) الهامة الرأس والقصرة الرقية - راجع الخبر فى البداية والنهاية

لابن كثير ج ٣ ص ٤٣ .

وقد روى مثل ذلك البيهقي والامام أحمد • وان كان ماروى عن أحمد موجزا عن ذلك •

### مهابة محمد عليه الصلاة والسلام :

٢٥٧ — هذا بعض ايداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من المشركين ، دع استهزأهم اذا سار أو تكلم ، ودع رميهم له بأنه ساحر ومجنون ، ودع معاندتهم له ، وهو يدعو القبائل الى الاسلام ، فهل كان ذلك سببه أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن المهيب ، وأنه كان الهزيل الذى يجترأ عليه ؟ •

والجواب عن ذلك أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان المهيب فى شخصه ، والقوى فى ذات نفسه ، والذى آتاه الله تعالى القوة الانسانية الكاملة ، فهو المهاب والمحبوب الذى لم يرد أن يكون مرهوبا ، وان أراد الرهبة كانت ، والله تعالى يعصمه من الناس ، ولكن الحمقى والسفهاء يغترون بالكرماء ، وكان محمد عليه الصلاة والسلام كريما ، ولم يرد أن يكون مخوفا مفزعا ، بل أراد أن يكون أليفا قريبا دانيا ، ليستطيع أن يتألف الناس ولا يرهيبهم •

وقد كان عليه الصلاة والسلام يفرض الرهبة فى قلوب المشركين ان كان لذلك موضع ، ولنذكر موضعين كانت فيهما مهابة الرسول فاصلة ، قاطعة حاسمة :

أولهما : ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه قال : « رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سقه أحلامنا وشتم آبائنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا منه على أمر عظيم • فبينما هم فى ذلك ، اذ طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبل بمشى ، حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت فغمزوه ببعض القول فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت فى وجهه ، فمر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها فقال لهم : أسمعون معشر قريش ، أما الذى نفسى بيده لقد حنتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكنما على رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرقوه ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول •

ان هذا الذى أفرعهم عزمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذتهم الدهشة ، وأرعبتهم الهيبة ، وإذا كانوا بعد ذلك تكاتفوا واعتزموا أن يؤذوه فى مكانه هذا ، فان هذا لا يمنع تأثير مهابته فيهم ، وما استطاعوا لها ردا الا بعد طول مؤامرة ومجاوبة ، واصرار على مقاومة الهيبة ، ولو أرادها فى الثانية لكان أفرع لهم ، وأروع ، ولكنه كان يميل الى اللين دائما .

**الثانى :** ما كان فى قصة الاراشى ، فقد قدم رجل من اراشى بابل له الى مكة المكرمة ، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها ، فأقبل الاراشى ، حتى وقف ينادى فى قريش ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالس فى ناحية المسجد ، فقال الاراشى : « يامعشر قريش من رجل يعدنى على أبى الحكم بن هشام ، فانى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى » .

فقال من بالمجلس من قريش مستهزئين بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ترى ذلك الجالس ، مشيرين الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما يعلمون من عداوة أبى جهل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اذهب اليه فهو يعديك عليه » .

أقبل الاراشى حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فذكر له ذلك ، فقام محمد صلى الله عليه وسلم العظيم معتزما انصاف الغريب ، ولا سلطان معه الا شخصه ، وعون الله تعالى .

فلما رأى المجلس القرشى المشرك قالوا لرجل ممن معهم اتبعه فانظر ماذا يصنع .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى جاء الى دار أبى جهل ، فطرق الباب طرقة من اعتزم أن يملأ ارادته على هذا الطاغوت الفاجر .

قال من هذا ؟ قال محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، فاخرج .

خرج اليه وما فى وجهه قطرة دم ، وقد انتقع لونه .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعزمة مرهبة مثل أبى جهل : أعط هذا الرجل حقه .

قال الطاغوت المتخاضل : لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، فدخل فخرج اليه بحقه ، فدفعه اليه .



انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أحق الله الحق ، بهيبة محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقال للاراشى الحق لشأنك • أقبل الاراشى على المجلس الذى وقف يدعو ناديه لينصروه ، فقال عن النبى عليه الصلاة والسلام جزاه الله خيرا فقد أخذت الذى لى •

وقال الرجل الذى أرسلوه مراقبا للواقعة : « رأيت عجبا ، والله ما هو الا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه » •

جاء أبو جهل فقالوا له : « ويلك مالك ، فوالله ما رأينا مثل ما صنعت ، فقال ويحكم ، والله ما ان طرق على بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، ثم خرجت اليه ، وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته وأنيابه لفحل قط ، فوالله لو أبيت لأكلنى » •

**لماذا لم يرهبهم صلى الله عليه وسلم بهيبته :**

٢٥٨ — لقد كان المشركون يريدون بأذاهم المؤمنين ، ويختصون من لهم حلم ومروءة ، ولا عنف فيهم ، ولا يتوقعون مقاومة كأبى بكر وعثمان وجعفر بن أبى طالب ، وعلى رأس هؤلاء محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وينالون الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة يقاومون بها •

ولكن لم يعرف أنهم نالوا من عنده قوة بطش ، ويذيقهم الكأس أكؤسا ، فلم يعرف أنهم نالوا بالأذى حمزة بن عبد المطلب ، لأنهم يتوقعون منه المساومة ، ولا يأمنون مغبتها ، فقد علم ذلك أبو جهل اللئيم بموضعها من رأسه ، ولم ينالوا بالأذى عمر بن الخطاب الذى شوه وجوههم ، وأرغم معاطسهم ، وطاح بهم مجتمعين ، ولم ينالوا بالأذى لذلك ، فقد كانوا يخافونه ويرهبونه •

وما كان محمد عليه الصلاة والسلام ، دون عمر مهابة ، بل أعلى من ذلك كثيرا ، ولا دون حمزة قوة نفس ، ولا قوة بدن ولكنهم نالوا منه ، فلماذا لم يستخدم مهابته وقوة نفسه وشخصه ، مثل ما أجازة لعمر وعنه حمزة ، اذن لارعوى مثل أبى جهل فى نذالته ، ولكنه لم يفعل ، وتحمل الأذى فى سبيل الدعوة ولم يهرب ولم يفزع ، بل رضى بالبلاء ينزل به وبأصحابه الضعفاء •

وان ذلك هو عمل النبوة ، انه عليه الصلاة والسلام ما جاء مسيطرا ، ولكن جاء مبلغا ، وما جاء متحكما • ولكن جاء داعيا مقنعا ، فلو استخدم

هيئته وأظهر الرهبة لتبعه الناس خائفين غير مقتنعين بذات الحجة ، ولبدأ النفاق فى الذين يجيبون دعوته ، وليس الدين بقائم على المنافقين غير المؤمنين •

ان الرسول الأمين يريد مؤمنين يدخلون فى الاسلام رغبا لا رهبا ، ولا يكون عن خوف أيا كانت صورة الخوف • ان الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاء ليحمله الذين شاهدوا وعينوا الى الأخلاف من بعده ، لأنه دين الخليقة كلها لا دين جيل من أجيالها ، فلا بد أن يحمله مؤمنون لا مجرد تابعين • ولا يكون ذلك الا اذا كان الايمان القوى الذى يصير صاحبه ويصابر فى خضرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وينزل به البلاء فى حضرته فيحس عليه الصلاة والسلام بقوة احتمالهم ، ليطمئن من بعده بقوة التبليغ بالرسالة فى مشارق الأرض ومغاربها •

ان الذين يدخلون فى الاسلام بهيبة النبى عليه الصلاة والسلام سرعان ما يتركونه اذا غاب عنهم ، واعتبر ذلك بحال المؤمنين فى المدينة فانه لم يكن فيهم نفاق ، حتى صار لأهل الايمان قوة يسيطرون بها ، فكان النفاق ، والذين دخلوا فى الاسلام تابعين غير مؤمنين ايمان الصابرين المصابرين •

وكان من المسلمين بالاتباع بالايمان المجاهد الصابر ، وكان منهم الأعراب الذين ساروا مع القوى ، وقال فيهم الله تعالى : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » وهم الذين ارتدوا بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم ، ان الله تعالى أمر رسوله بالدعوة بالحكمة ، فقال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » وان ذلك يقتضى أن يكون موطئا الكنف وديعا فى دعوته متطامنا لمن يخاطبهم ، ليس فظا ولا غليظ القلب ، ولا مرهبا ولا مفزعا •

وان تطامن النبى عليه الصلاة والسلام كما جرى عليه الأقوياء الذين يؤذون الحق اذا بدا وضحه المبين ، قد قرب اليه الضعفاء وبهم كانت الدعوة الاولى وقوة الحق من غير سيطرة ولا تحكم •

وان تطامن النبى عليه الصلاة والسلام والاعتداء عليه قرب بعض الأقوياء ولم يبعدهم • ألم تر أن كثيرين كانوا يسلمون لأنهم يرون أن محمدا عليه الصلاة والسلام بماضيه الكريم ، وحاضره العظيم ما كان يسمح لأحد أن يؤذيه الا لطيب نفس ، فيكون الايذاء جاذبا للأنظار مستترعيا للذين يعرفون ما ينبغى أن يعامل به الأحرار ، فيدعهم ذلك الى التفكير فى الذى

يدعو اليه من غير تمييز لهم ، ويكفى ذلك للدخول فى الاسلام مناصرا غير محارب ولا جامل .

من أجل ذلك ولأن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يثبتها وينشرها ويذيعها اختار لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يتأتى للأمور ببسر وبرفق من غير عنف أو رهبة ، ولو كان بقوة النفس لا بقوة السيف .

## الهجرة الى الحبشة

٢٥٩ — عدد الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وتابعوه فى الصبر على الأذى يزيد ويكثر ، ولم يقتصر على الضعفاء . بل دخل فيهم أشراف من مكة المكرمة ، وبتزايد العدد يتزايد الاضطهاد ويكثر ويتنوع . فمن أذى بالأيدي والسياط ، واللقاء فى الرمضاء فى الحرور ، ومن أفعال لا تصدر الا عن السفهاء الأذال . كما فعل أبو جهل مع النبي عليه الصلاة والسلام وغيره ، ومن استهزاء وسخرية ، ومن منع من العبادة . ويجدون فى ذوى الكرامات مرتعا خصيبا للنيل من كراماتهم .

أصبح الأذى عاما ولا مناص من التخلص منه ، وهم بمكة المكرمة وما حولها فلا بد من الهجرة « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » والى أى أرض يهاجرون .

لا بد من أرض تتوافر فيها الحرية ، وتكون بعيدة عن سطوة مكة ومن فيها من قريش . ولهم مكانة فى القبائل ، وتكون تحت سلطان حاكم فيه طيبة لا يؤذى ولا يمكن أحدا من الأذى . حتى يكونوا فى بعد عن الاضطهاد واحتماله .

وذلك فى أرض الحبشة . فهى بعيدة عن سطوة قريش . وهى لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من قبائل . وفيها حاكم طيب عرف بذلك واشتهر ، فأشار النبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة اليه . وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه وقد رأى البلاء ينزل بهم . وهو لا يقدر على منعه عنهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

كانت أول زمرة من الهجرة الى الحبشة فى السنة الخامسة من مبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولا شك أن الهجرة لها ثمرة أخرى غير دفع الأذى ، والاعتصام منه ومنع الفتنة التي أزهقوا بها عسرا ، وهذه الثمرة هي التعريف بالاسلام ، وبالمبادئ الاسلامية ، فقد وقف جعفر بن أبى طالب المتحدث باسم المهاجرين أمام النجاشي يبين الحقائق الاسلامية ، وما يدعو اليه دين الوحدانية من صلة الأرحام ، والحث على مكارم الأخلاق ، وما يمنعه من فساد الجاهلية والعصبية المغرقة . وقد نقلنا ذلك من قبل .

وهناك ثمرة أخرى أن الهجرة الى الحبشة تعرف النصارى بالاسلام ، وما قاله فى عيسى عليه السلام . فهي تزرع الاسلام فى أرض غير أرض مكة وتباينها ، كما أن الهجرة من بعد ذلك الى المدينة كان فيها تعريف اليهود بالاسلام ودعوتهم اليه . فأسلم من أسلم وكفر وقاوم وعاند من كفر : « من اهتدى فلفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها » .

وقد هاجروا زمرا ، وكان فى أول زمرة عثمان بن عفان ومعه رقية بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والتي تزوجها ذو النورين عثمان بن عفان بعد أن تركها وأختها ابنا أبى لهب اللعين ، وكانت عدة الزمرة الأولى نحو عشرة من الرجال والنساء ، ثم توالى الهجرة بعد ذلك .

ويقول ابن اسحاق : كان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين سوى ابنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين » .

وقد ناقش هذا الرقم ابن كثير ، وانتهى الى أن الشك فى كون الزائد عن الثمانين ثلاثة ، وروى عن الامام أحمد عن ابن مسعود أنه قال : « بعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نبلغ نحو من ثمانين (١) » .

٢٦٠ — وأبو بكر لم يكن من الذين هاجروا ، ولكن قدر الله تعالى شرف الهجرة فى صحبة أكرم خلق الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه كما روى ابن اسحاق والبخارى عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت « حين ضاقت عليه ( أبى بكر ) مكة ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى تظاهر قريش على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة فأذن له ، فخرج رضى الله تعالى عنه مهاجرا الى الحبشة ، حتى إذا سار من مكة يوما — أو يومين —

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٦٩ .

لقيه ابن الدغنة أخو بنى الحارث بن أبي بكر ، وهو سيد الأحابيش ، فقال  
الى أين يا أبا بكر ؟ قال أخرجنى قومى ، وأذنونى وضيقوا على . قال ولم ؟  
فوالله انك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب  
المعدوم ، أرجع فانك فى جوارى . فرجع معه ، حتى اذا دخل مكة قام معه ابن  
الدغنة ، فقال : يا معشر قريش انى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرض له  
أحد الا بخير . فكفوا عنه .

أقام أبو بكر فى منزله ، وكان له مسجد عند باب داره فكان يصلى  
فيه ، وكان رفيقا ، اذا قرأ القرآن الكريم استبكى ، فيقف عليه الصبيان ، والمعيد  
والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فيمشى رجال قريش الى ابن الدغنة ،  
فقالوا يا بن الدغنة : انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، انه رجل اذا صلى  
وقرأ ما جاء به محمد يرق ، وله هيبة ، ونحن نتخوف منه على صبياننا  
ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم ، فاته فمره بأن يدخل بيته فليصنع ما شاء .

فمشى ابن الدغنة اليه ، فقال يا أبا بكر انى لم أجرك لتؤذى قومك ، وقد  
كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .  
قال أبو بكر وأرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله . قال فاردد على جوارى .  
قال : قد رددته عليك . فقام ابن الدغنة . فقال يا معشر قريش : ان ابن  
أبى قحافة قد رد على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم « (١) » .

رضى أبو بكر بالبقاء فى العذاب أو الايذاء ، وهو يصلى مجاهرا بصلاته  
أمام داره ، أو فى فنائها غير معتمد الا على الله تعالى ، ورضى بأن يكون  
قريبا من النبى متعرضا لما يتعرض له عليه الصلاة والسلام ، مطمئنا الى  
الأذى راضيا بذلك الجوار الكريم .

#### متابعة الأولياء ومتابعة الأعداء :

٢٦١ — سافر أولئك المهاجرون الى أرض الحبشة فرارا بدينهم من  
أن يفتنوا فيه ، وفرارا بأنفسهم من المهانة والاستهزاء والسخرية ، فوجدوا  
حاکما طيبا ، أكرم مثواهم ، وتركهم فى أرضه أحرارا مطمئنين ، ولقد رقى  
أبو طالب لفراق ابنه جعفر ، وما نزل بالمسلمين من أبناء مكة حتى فروا ،  
فأرسل الى النجاشى يوصيه بهم .

(١) روى هذا الخبر البخارى فى صحيحه .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل اليه كتابا يشير فيه الى البر بهم ويأمر بالاسلام معا ، وهذا نص كتابه عليه الصلاة والسلام كما جاء فى رواية البيهقى :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشى الأصم ملك الحبشة :

سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح (١) الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحسنة فحملت بعيسى ، فخلق الله من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه .

وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى ، فانى رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمى جعفرا ، ومعه نفر من المسلمين ، فاذا جاءوك فآقرهم ، ودع التجبر ، وانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى والاسلام على من اتبع الهدى » .

هذا كتاب فيه متابعة لأمرين :

أولهما - أنه يدعو الى الاسلام ، فهو يتابع دعوته حيث تجد المناسبة والمرجل المناسب ، وقد وجد فيه قلبا مفتوحا يدخل فيه الحق مزدلفا ، لأن العادل يستمع الى الحق ، وهو يكون ممن يستمعون الى الحق فيتبعون أحسنه ، وقد استجاب لدعائه ، وأمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، وقد أجاب دعوة النبي عليه الصلاة والسلام الى الاسلام وكتب اليه عليه الصلاة والسلام للسلام يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم الى محمد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) من النجاشى الأصم بن أبجر سلام عليك يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، لا اله الا هو الذى هدانى الى الاسلام فقد بلغنى كتابك يا رسول الله ، فيما ذكرت فيه من أمر عيسى ، فو رب السماء والأرض ان عيسى ( عليه السلام ) ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقرينا ابن عمك وأصحابه ، فاشهد أنك رسول الله صادقا ومصداقا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين وأرسلت اليك بأريحا بن الأصم

---

(١) كان خلفه بنفخة من روح القدس جبريل ، وولد بكلمته .

ابن أبجر ، فانى لا أملك الا نفسى ، وان شئت أن أتيك فعلت يا رسول الله ، فانى أشهد أن ما تقول حق » .

ونرى من هذا أنه أرسل ابنه فى وفد من الحبشة للالتقاء بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وبيان الخضوع لطاعة الله ورسوله .

الأمر الثانى - هو متابعتة العطف على الذين هاجروا ، فقد دعاه عليه الصلاة والسلام الى الاحسان اليهم فى اقامتهم وألا يرهقهم بتجبر ذوى السلطان .

وانه لفرط محبته عليه الصلاة والسلام للذين هاجروا ، ولا حساسه بوجوب الوفاء ، وشكر من يستحق الثناء ، والمقابلة الحسنة بمثلها على الأقل فان النبى عليه الصلاة والسلام عندما جاء الوفد الذى بعثه ، كان عليه الصلاة والسلام يقوم بخدمته بنفسه ، فقد روى البيهقى بسنده عن أبى أمامة قال : « قدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام يخدمهم عليه الصلاة والسلام ، فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله ، فقال انهم كانوا لأصحابى مكرمين ، وانى أحب أن أكافئهم » .

٢٦٢ — هذه متابعة لأصحابه الذين هاجروا الى النجاشى ، وهى متابعة الرحيم الحانى الذى يريد الاطمئنان على أصحابه الذين هاجروا الى تلك الأرض النائية ، وما زال بملكهم حتى صار فى صفهم ، وطابت اقامتهم ، وكرمهم تكريم الأخوة ، لا تكريم العادل فقط .

هذه متابعة الأولياء ، أما متابعة الأعداء ، فقد كانت على النقيض من ذلك ، لم يكتفوا بأن أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، بل أرادوا النكاية بهم ، وأن يجعلوا المهجر يلفظهم ، كما لفظوهم لأنهم رأوهم ينشرون الاسلام ويمدون ظلاله الوارفة ، فدفعتهم العصبية الجاهلية لأن يفسدوا عليهم طيب الاقامة ، والقرار ، واستقامة أمورهم ، فأرسلوا من يحاول افساد النجاشى عليهم .

قال ابن اسحاق : لما رأيت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد استقروا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جليدين الى النجاشى فيردهم عليهم ، ليفتنوهم فى دينهم ، ويخرجوهم من الأرض التى

اطمأنوا بها ، وأمنوا فيها ، فأرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص (١) ، وأرسلوا معهم هدايا يدفعونها للنجاشي ليغروه بها .

ولقد أزعج المهاجرين الأبرار . روى عن أم سلمة أنها قالت : لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي أمينا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين ، وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة . فجمعوا أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص ، أمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما ادفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما الى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم . فخرجنا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار (٢) .

لقد نفذ الرسولان ما أوصاهما به قومهم ، وقدموا لكل بطريق هديته وذكروا عند اعطاء كل واحد هديته ، أنه جاء اليهم غلمان من سفهاءهم في زعمهم ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم ، فإذا تكلم الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فوعدهم البطارقة بما طلبوا .

مهدوا للقاء الملك ذلك التمهيد القائم على رشوة البطارقة ، ثم التقوا بالنجاشي ، وقدموا هداياهم قبل أن يتكلموا ، ثم تكلموا في غيبة المهاجرين ، فقالوا :

« أيها الملك انه قد ضوى (٣) الى بلدك منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم اليهم ، فهم أعلى (٣) بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٤ .

(٢) ضوى معناها لجأ .

(٣) أي أبصرهم .



عندئذ تكلم البطارقة ، وحركت الهدايا لهواتهم ، فقالوا : صدقا ،  
أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما ،  
ليرداهم الى بلادهم •

أحس النجاشي بالحملة الباطلة ، فرد الكيد ردا حاسما وقال : لا أسلمهم  
اليهم ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ،  
حتى ادعواهم فأسألهم عما يقول هذا في أمرهم ، فان كانوا كما يقولون  
أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ،  
وأحسننت جوارهم ما جاوروني •

ذلك هو القول الحق من حاكم عادل ، ثم أرسل الى أصحاب رسول الله  
ليواجههم الرجال ، جاءوا ، ودعا الأساقفة •

قال لهم : ما هذا الدين الذي فارقتم به فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في  
ديني ( وكان لا يزال نصرانيا ) ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

فرد عليه جعفر بن أبي طالب قائلا : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد  
الأصنام ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي  
منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه ،  
وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبد ، ونخلع ما كنا نعبد نحن  
وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة  
وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن  
الفواحش وقول الزور • فعدد عليه أمور الاسلام • ثم قال : فصدقناه وأمنا  
به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدا لله وحده ، فلم نشرك به شيئا  
وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا  
وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان • وأن نستحل ما كنا نستحل  
من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا  
خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا  
نظلم عندك •

قال النجاشي – متعرفا دارسا – : هل معك مما جاء به عن الله شيء (١) •

قال له جعفر نعم • فقال له النجاشي هات ما عندك • فقرأ عليه صدرا من  
كهيص •

(١) الخبر بطوله روته أم المؤمنين أم سلمة ، وقد تصرفنا في بعض  
الكلمات تصرفا لا يخرج الخبر عن الفاظه •

تأثر النجاشي من وضوح الحقائق بين يديه ، وكان فيما قرأه خبر زكريا وما وهبه الله تعالى من يحيى ، ثم جاء فى حمل مريم إذ جاء الملك ، وقال لها انى رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ٠٠٠ ثم ولادة عيسى عليه السلام ٠٠ ان النجاشي كان مؤمنا يدرك الحق اذا ألقى عليه ، وكان عدلا . وكان صادق النظر لايمانه وعدله . فبكى من فرط تأثره ، وادراكه الحق حتى اخضلت لحيته ، وقالوا ان أساقفته وافقته ابتداء حين سمعوا ما تلى عليهم .

قال النجاشي : انه والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم قال للثنتين اللذين بعثهما القرشيون ، انطلقا ، فوالله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون .

٢٦٣ — هذه هى الجولة الأولى فى الكيد الذى يكيد الباطل لأهل الحق ، وقد كانت النتيجة احقاق الحق ، ولكن عمرو بن العاص لا يقف عند الهزيمة الأولى فى الكيد ، فهو واسع الباع فيه ، فكانت المجاورة بينه وبين صاحبه الذى هو أنقى نفسا .

قال عمرو لصاحبه : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم .

فقال له صاحبه : لا تفعل ، فان لهم أرحاما ، وان كانوا قد خالفونا .

قال عمرو الماكر : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

جاء الغد ، والتقى عمرو بالنجاشي ، ومعه صاحبه عبد الله بن ربيعة .

قال عمرو : أيها الملك ، أنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل اليهم ، فسلمهم عما يقولون فيه . فأرسل اليهم وقد وقعوا فى حيرة وخوف ، فقال بعضهم ما تقولون فى عيسى بن مريم ، ولكن الذين تحملوا أذى قومهم على استعداد لأن يتحملوا غيره ، ولذا قالوا مصممين : نقول والله ما قال نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا على النجاشي قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قال جعفر : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول .

عندما سمع النجاشي هذا ضرب بيده على الأرض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود .

والبطارقة حاضرون فتنافروا حوله حين قال ما قال : فقال وإن نخرتم والله .

ثم التفت الى المسلمين من أصحاب محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ما معناه : اذهبوا فأنتم الآمنون ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى أذيت رجلا منكم .

انتصر النجاشى الهمام للحق وأهله - ودخل فى الاسلام - كما تدل على ذلك مكاتبتة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى نقلناها من قبل ، وقد رد على قريش هديتها ، كما رد مكيدتها فى قومها وعشيرتها .

ولكن الهدية فعلت فعلها فى البطارقة ، ويظهر أنهم بعد اسلامه تأمروا مع بعض رجال الحبشة ، فخرج عليه رجل منهم فكان المسلمون فى فزع ، وتقول السيدة أم المؤمنين أم سلمة : « فوالله ما علمنا حزنا أحزننا قط كان أشد علينا من حزن حزنائه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى ، فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرفه » .

٢٦٤ — استقام الأمر للمهاجرين فى الحبشة ، ولم يذكر التاريخ وقد أخرجت أم سلمة والزبير بن العوام الذى كان من المهاجرين ، وقد عاد الزبير يحمل البشرى بانتصار النجاشى على خصمه ، ففرح المهاجرون فرحة ما فرحوا مثلها .

أكانوا يتولون عملا فيها أم كانوا فى ضيافة النجاشى ، لم يذكر التاريخ شيئا من ذلك ، لأن مؤرخى السيرة النبوية الطاهرة ما كانوا يعنون الا بحال المسلمين . وحال الاسلام ، وتحمل المسلمين للأذى فى سبيل عقيدتهم ، يفصلون فى ذلك ما يشاء طالب الحقيقة أن يعرفه ، ولكنهم ما كانوا يعنون بالأعمال المادية من صناعة ومكاسب ! ولكن أردنا أن نعرف ما طواه التاريخ ولم يذكره ، نتعرفه من صور الرجال الذين هاجروا ، فلا بد أن نتصور من صورهم أحوالهم .

لقد كان من بينهم ذو النورين عثمان التقى الطاهر ، وهو مع ذلك التاجر الماهر ، وقد خرج ومعه بعض ماله غالبا ، وما كان ليترك عمله فى التجارة حتى تاكل النفقة ماله ، ولم يثبت فى التاريخ أنهم كانوا فى ضيافة النجاشى ، لأنهم كانوا يتزايدون فى الهجرة ولا ينقصون ، وإذا كان لابد من فرض فى هذا ، فهو أننا نتصور أنه كان يعينهم ليتمكنوا من أعمالهم الكاسية التى تسدر عليهم ما يكفيهم بالمعروف من غير اسراف ، ولا تقتير .

ونتصور حينئذ أمرين نفرضهما فرضا :

أولهما - أن يكونوا قد قاموا بما يكسبهم القوت ، ولا يعيشون كلا على غيرهم فليس ذلك من مكارم الأخلاق فى الاسلام .

ثانيهما - أن نفرض التعاون الكامل بينهم ، يعين غنيهم فقيرهم ، والقادر منهم العاجز ، وإذا كانت المؤاخاة قد نظمت العلاقات بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج بما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن التعاون أو المؤاخاة الطبيعية فرضت نفسها فى أرض الحبشة بحكم الاغتراب أولا ، وبحكم الحاجة اليه ثانيا ، وبحكم الخلق الاسلامى الذى يوجب التراحم والتعاطف ثالثا ، وقد كان التعاطف امتدادا لما كان فى مكة من حماية ضعفاء المسلمين من أقويائهم ، كما كان يفعل أبو بكر من شراء العبيد المسلمين واعتاقهم من غير من ولا أذى .

### خديعة :

٢٦٥ — خديعة أو انخداع على حسب تقدير الأسباب .

لقد فشل الرسولان اللذان ذهبا الى النجاشى ليحرضاه بالهدية الرشوية ، وبالقول المعسول ، وبالايقاع المفسد فى أن يحمله على اخراج من حلوا فى داره ، واستظلوا بعدالته ، وخرجوا مذمومين مدحورين .

ولكن أحدهما عمرو بن العاص داهية قریش وماكرها ، أشاع الشائعات بأن قريشا آمنتم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن هذه الشائعات تجاوبت أصدائها ، حتى وصلت الى المؤمنين فى هجرتهم بالحبشة ، فاطمأن الى صدقها بعض المهاجرين ، وظاهر القلب ينخدع ، وقد خدع ابليس من قبل أبانا آدم الطاهر .

عاد من عاد منهم حاسبين صدق الاشاعة ، وكانت عدتهم نحو ثلاثة وثلاثين ، ولكنهم ما أن شارقوا مكة حتى وجدوا الأذى والاستهزاء والسخرية تستقبلهم ، فمنهم من دخل فى حوار بعض كبراء المشركين ، ومنهم من استقبل الأذى صابرا ، ومنهم من حبسه ذوو قرابته .

واستطاع الماكرون بذلك أن يعيدوا بعض المهاجرين اليهم ليتحكموا فيهم ، ولكن لم تتم بغيتهم ، لأنه بقيت الكثرة فى أرض الحبشة لم تغتر بهذه الاشاعة الكاذبة التى دفعتها فرية خبيثة ماكرة .

وقد يقول قائل : هل لك من سند يؤيد فرض الاشاعة ، وخصوصا أنه تذكر أسباب لهذه الاشاعة غير ما ذكرت وبينت ، وهى قصة المشركين مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما مجد اللات والعزى كما يزعمون وكما جاء فى صحيح البخارى .

ونحن نجيب عن ذلك بما تقتضيه الفروض التاريخية من تعليل لأسباب الوقائع باقترانها بالوقائع الزمنية التى قارنتها ، لقد كانت تلك الشائعة الغربية وكانت فى أعقاب واقعة حقيقية ثبتت ، وهى طرد النجاشى الرسولين اللذين جاءا ليحملاه على الايقاع بالمؤمنين ليخرجهم ، ويستمكنوا من رقابهم ، وحریاتهم ، وليفتنوه عن دينهم ، ويفسدوا رجال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعقل بلا ريب يربط بروابط منطقية بين الأمرين ، كما اقترنا فى الزمن .

ولا يمكننا أن نفرض السبب الذى يذكره مؤرخو السيرة ، وهو سجود النبى عليه الصلاة والسلام للات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ولا بد أن نعرج عليه بالقول ، ولو كانت الرواية فى كتب الحديث ، ونبين استحالة قبوله .

جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه فى بيان سبب الاشاعة :

« كان له سبب ، وهو ما ثبت فى الصحيح وغيره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حبس يوما مع المشركين ، وأنزل الله تعالى عليه : ( والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ) يقرؤها عليهم ، حتى ختمها وسجد ، وسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والانس ، وكان لذلك سبب ذكره المفسرون عند قوله تعالى : ( وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ) وذكروا قصة الغرائق ، وقد أحببنا الاضراب عن ذكرها صفحا . لئلا يسمعها من لا يضعها فى مواضعها . الا أن أصل القصة فى الصحيح . قال البخارى : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : سجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس » . انفرد به البخارى دون مسلم ، وقال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبى اسحاق سمعت الأسود عن عبد الله قال قرأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنجم بمكة ، فسجد فيها وسجد من معه غير

شيخ أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه الى جبهته ، وقال يكفيني هذا ...  
رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وروى مثله أحمد في سنده « (١) » .

اننا نقرر أن تلك القصة مكذوبة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك لما يأتي :

أولا : أن مقتضاه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يقرأ قوله تعالى : « أفرايتم آيات والمعزى ومناة الثالثة الأخرى » زاد بتأثير الشيطان تلك الغرائيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى ، فلما أتم السورة تلاوة ووصل الى قوله تعالى : « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوه » سجد سجدة التلاوة فسجدوا معه .

وذلك باطل بلا ريب ومستحيل أن يقع لأن الشيطان لا يتسلط على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي شأن التنزيل والقرآن الكريم ، والا جاء الشك الباطل في شأن القرآن الكريم ، وجوز الفاسقون على مقتضاه أن يكون القرآن قد اعتراه التغيير والتبديل ، والزيادة ، وتجوز أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مبلغ الرسالة قد اعتراه خرف ، وابتعاد عن مؤداه ، وذلك باطل فما يؤدي اليه باطل بلا ريب .

وثانيا : أن هذه الأخبار لم يستند فيها القول الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن كلها مرسلات ، فلا يلتفت اليها .

وثالثا : أن الذين يقولون هذا القول يسندونه الى تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا نمتى الى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان في أمنيته ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » فزعموا أنه ألقى في أمنيته صلى الله تعالى عليه وسلم زيادة تلك الغرائيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى « ثم نسخت تلك الزيادة التي ألقاها الشيطان في أمنيته وأحكم الآيات ، وذلك من شأنه أن يشكك في أصل القرآن الكريم ، ويبني عليه المفترون قوتهم أن في القرآن الكريم زيادة ونقصا ، وذلك قول قائله كافر ، لأنه ينكر ما جاء به القرآن الكريم من أنه محفوظ الى يوم القيامة تصديقا لقوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » .

وقد يقول قائل ، وكيف نفسرقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ، ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته » ٠٠٠ نقول ان التمنى هو ما يتعلق بما يتمناه الانسان بمقتضى غريزته ، فالأنبياء ليسوا معصومين بمجرد غريزتهم من التمنى ، ولكن الشيطان يجيء من جهة الأمانى ، ويزين الأهواء ويحسنها ، فينسخ الله تعالى أى يزيله من قلب النبي عليه الصلاة والسلام ويحكم سبحانه وتعالى آياته الظاهرة والباطنة على النبوة والرسالة والحق ، وبذلك تنزه قلوبهم ٠

وقد يقال وماذا نصنع فى الروايات التى قد رويت عن البخارى كما ذكر ابن الأثير ، ونحن نقول انها رواية أمر يستحيل على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم الأمين ، ومثل هذه الرواية ترد مهما يكن الراوى ، أنقول ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سحر ، وزاد فى القرآن الكريم ما يكون شركا ، والرواية مهما تكن رواية آحاد ، ولو طبقنا قاعدة الشافعى الذى يقرر فيها أن من ينكر حديث خبر الآحاد ، أو خبر الخاصة لا يقال له تب أى لا يكفر ، فكان المؤدى أن نكون بين أمرين أحدهما أن ننكره ولا نكفر ، والثانى أن نقول ما يشكك فى الرسالة والقرآن الكريم فنكفر ! ان الاحتياط لدينا ، ولقرآن ربنا ، وعصمة نبينا أن ننكر نسبة تلك الأخبار لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحتها ، ونؤمن بالقرآن الكريم والنبى عليه الصلاة والسلام بل أن نؤمن بالله تعالى ٠

واننا ننتهى من هذا الى أن نقرر أن سبب اشاعة اسلام أهل مكة المكرمة ليس هو تلك الرواية غير الصادقة التى تفتن الناس عن دينهم ، وتشككهم فى القرآن الكريم والنبى صلى الله عليه وسلم ٠

انما السبب مما استنبطناه من سياق التاريخ وارتباط وقائعه واقتترانها وهو اشاعة اسلام أهل مكة المكرمة ليعود الذين فروا بدينهم ، فينالهم المشركون بأيديهم والسنتهم ٠

## النبي صلى الله عليه وسلم يناضل ويصابر

### فى مكة المكرمة

٢٦٦ — نعود الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنرى جهاده بالمصابرة ولنرى ما تفعله قريش معه ، ومع بنى هاشم الذين أبت مروءتهم أن يسلموا محمدا لقريش يؤذونه أو يقتلونه أو يحبسونه ، وأبو طالب كبيرهم واقف كالطود يحمى محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويأبى أن يتركه ، وخديجة فى البيت تواسيه ، فيعود اليها مكدودا من قومه ، ويخرج من عندها مجددا عزمه ، وقد خلع وعثاء النضال ليجدد النضال ، ويتقدم ثابت القدم قوى الارادة ، وقد تزود منها ومن عمه بزاز اليناس بالتأييد ، ومن الله تعالى بالنصرة .

وقريش قد بالغت فى الايذاء ولكنها تحس بأن الأرض تמיד من تحتها وقد ازداد عنادها وازدادت لجأجتها وعنفوانها كلما رأوا دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تجد مستجيبا ، وخصوصا أن بعض الأقوياء ذوى الشكيمة قد دخلوا فى الدين الجديد ، فقد دخل عمر فى السنة التى كانت فيها الهجرة الى الحبشة .

وهم فى هذه الشديدة التى وضعوا أنفسهم فيها عدوانا وظلما أرادوا أن يسكتوا محمدا عليه الصلاة والسلام عن طريق عمه الذى لا يزال على دينهم وهو شيخ البطحاء ، ولهم عليه حق الرعاية ، كما لابن أخيه عليه حق الحماية .

### لقاؤهم بأبى طالب :

٢٦٧ — دبروا أمرهم ، وجمعوا ممن لهم مكانة فيهم وفدا ذهب الى أبى طالب بعد أن رأوا أنه لا يجيبهم فرادى فأرادوا أن يذهبوا اليه جماعة ، والرسول سائر فى طريقه ، لا يعوقه عائق من أذى أو استهزاء أو سفاهة حمقاهم ، فهو ماض فى الطريق الذى رسمه الله تعالى له يدعو بالتى هى أحسن ، من غير أن ينكص على عقبيه ، لذلك تركوه مليا فلم يجادلوه ، وإن كان الأذى مستمرا ؟



ذهب وفدهم الى أبى طالب ، فقال قائلهم :

يا أبا طالب ، ان ابن أخيك قد سب آلهمنا ، وعاب ديننا ، وسفه وضلل أحلامنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخرى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه •

فقال لهم أبو طالب الكيس قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه •

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماض على ما هو عليه ، يظهر دين الله تعالى من غير مواناة ولا تقصير ، والمسلمون يزدون ، ولا يقلون والأمر قد خرج الى القبائل والى الحبشة •

ازداد غيظهم ، واشتد الأمر عليهم بسبب حقدهم ، وتضاغنوا فيما بينهم ، وتذامروا ، وتحاضوا على وجوب ايذائهم ، ورأى أهل الروية منهم أن يذهبوا الى أبى طالب مرة أخرى ، ولكن بوجه أعنف ، ولبسان أجف •

اجتمعوا فقال قائلهم : « يا أبا طالب ان لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وانا قد استأثيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهمنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين •

فى هذه المرة كان التهديد لأبى طالب باعلان عداوتهم ، وقد أزالوا كل المحجز فى القول ، ولم يراعوا سناً ولا شيخوخة ، ولا شرف منزلة كما ذكروا فى الأولى ، ولا شك أن تغير لهجة القول كان له أثر فى نفس أبى طالب ، وأحس بضيق فى الأمر ، وان لم يتبرم من حماية حبيبه ابن أخيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه أراد أن يعرض عليه ما أصابه من ضيق ، ويشركه فى أمر قومه الذى تفاقم ، فقال له :

يا بن أخى ان قومك قد جاءونى ، فقالوا كذا وكذا فأبى على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق •

لم تضعف عزيمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤيد من الله تعالى والذى لا يرجو النصر الا منه ، وان كان يرغب فى أن يشعر بأنه فى عزة من أهله ، تألم ، لا خوفاً من الأذى ، ولكن لظنه تخلف عمه الحبيب عن نصرته ، وهو فى ميدان الجهاد والمناضلة اذ ظن أنه خاذه ومسلمه ، وعلم أنه ضعف عن نصرته •

عندئذ قال مقالة أولى العزم من الرسل : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ثم استعبر فبكى ثم قام ، وما كان استعباره ضعفا ، ولكن لأنه يرجو من عمه وحبيبه ألا يسلمه ولا يخذله •

أدرك أبو طالب الكريم أنه أسرف على ابن أخيه في ذكر ما كان من قول وفد قريش ، وأنه كرثه بذلك • فلما ولى ناداه : أقبل يا بن أخي ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو طالب العظيم اذهب يا بن أخي ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا •

تواردت الأخبار على قريش ، وعلموا أنه لا سبيل لأن يصلوا إلى محمد عليه الصلاة والسلام ليقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه وأبو طالب مانعه ، ولكن حيلهم لم تنته ، والرغبة ولو آثمة لا تسكت عند الصدام ، ففكروا ، وانتهوا إلى أمر غريب ، وإن لم يكن ظاهر الغرابة عند العرب في جاهليتهم •

ذلك أن التبنى بكل ضرويه كان أمرا معروفا عند العرب ، أخذوه من جيرانهم الرومان ، فكان من الممكن تبادل الأبناء ، ويمكن تبادل الاخوة ، وأبناء الاخوة في نظرهم •

ذهبوا إلى أبي طالب يعرضون عليه أن يسلمهم ابن أخيه في نظير أن يعطوه فتى من قريش يكون ابن أخيه بدل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن المحبة سلعة تقبل المبادلة ، والانتقال من شخص ليحل محله شخص آخر •

قال قائلهم لأبي طالب الجليل : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش ، وأجمله ، فخذ ، فلك عقله ونصره (١) ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامنا ، ونقتله ، فانما هو رجل برجل •

لا شك أنها فكرة سخيفة يعطيهم ابن أخيه ليقتلوه ، ويأخذ ولدهم ليحميه ، ولقد سارع إليهم الرجل العظيم ليبدى سخفها •

قال لهم أبو طالب : والله لبئس ما تسومونني ، اتعطون ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيك ابن أخى لتقتلوه ، هذا والله ما لا يكون أبدا •

---

(١) العقل يدفع الدية أى يدفع عنك الدية ، وتدفع عنه ، وينصرك وتنصره •

قال المطعم بن عدى من بنى عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص . فقال أبو طالب للمطعم لائما أو عاتبا : يا مطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ، ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك .

وان القوم قد اشتدوا فى ذلك ، وكما قال ابن كثير : حقب الأمر ، وحميت الحرب ، وتناذب القوم ، ونادى بعضهم بعضا (١) .

٢٦٨ — لقد صار أبو طالب فى أمر مرير ، وشدة من قومه ، وهو لا يريد أن يتخلى عن ابن أخيه مهما تكن الأحوال ، ومهما تكن الشديدة ، فشيوخ البطحاء ابن عبد المطلب يتحمل كل شئ فى سبيل مروءته وهمته ، وعزمته الهاشمية ، ولقد أدنى ذلك مؤقتا أبا لهب الى أخيه رحمة به وشفقة عليه ، فغضب على قريش لأنها أخرجت شيخها ، وجعلته من الأمر فى عسر ، وخصوصا أنه أراد أن يجعل ابن اخته أبا سلمة فى جواره ، كما أن محمدا فى حمايته ، فقالوا يا أبا طالب : أنت منعت ابن أخيك محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) فمالك ولصاحبك ( أى أبى سلمة ) تمنعه ، فقال : انه استجار بى ، وهو ابن أختى ، وان أنا ان لم أمنع ابن أختى لا أمنع ابن أختى .

أخذت الحمية أبا لهب من طول المضايقة لأخيه فقال مهددا :

يا معشر قريش ، أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه ، حتى يبلغ ما أراد .

كان أبو لهب فى صفهم ، وخشوا أن ينحاز الى محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كما انحاز أخ له من قبل فدخل فى الاسلام وهو حمزة بسبب ما فعله أبو جهل مع محمد عليه الصلاة والسلام .

ولذا سارعوا الى ارضائه فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ، وكان لهم ولها وناصرا .

بهذه الوقفة القوية طمع أبو طالب أن يكون معه فى نصرته لمحمد عليه الصلاة والسلام ، لتكون الأسرة كلها فى حماية أفضلها وأكرمها ، ولكن هذه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٨ .

الوثبة كانت ومضة برق لم تزل أن انطفأت ، أو كانت كقدر من الماء لا يكفى لانطفاء الحقد والغيط ، واستمر أبو لهب فى لهب ، فقد استمر فى عداوته للنبي عليه الصلاة والسلام ، ومولاته لأعدائه يشترك فى قتلهم وايدائهم ، لا تحركه مروءة ، ولا شفقة على ابن أخيه ، ولا أخيه الشيخ .

## المقاطعة

٢٦٩ — برمت قريش بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبرمت ببني هاشم الذين يحمونه ، ويدافعونهم عن نفسه أن ينالوا منها ، وخصوصا أبا طالب الذى ضاعت عنده الحيل والتهديدات ، وهو مرتفع شامخ كالطود تنسال عنده التهديدات ، ولا تقف عنده ، لا يضعف ولا يهن ، ولا يصيبه خور فى عزيمته .

ولما وصل بهم الأمر الى هذا الحد ، اعتزموا المشطط ، وأن يركبوا مركبا صعبا ، وهو قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يبالون أبا طالب ، وبني هاشم معه .

علم أبو طالب بما بيتوا وما دبوا فنادى بنى عبد مناف أن يناصروه فى منع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يجبه من بنى عبد مناف الا بنو المطلب الذين كانوا مع بنى هاشم جاهلية واسلاما ، وبني هاشم مع أبى طالب الا أبا لهب الذى أبى الا أن يكون مع قريش فى غلوائها وفيما أرادت بابن أخيه ، ولنترك الكلمة لما روى عن الزهرى :

« أن المشركين اشتدوا على المسلمين أشد ما كانوا ، حتى بلغ المسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، وجمعت قريش فى مكرها أن يقتلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علانية . فلما رأى أبو طالب جمع بنى المطلب وهاشم ، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شعبيهم ، وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله . فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله إيمانا وبقينا . فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش . فاجمعوا الا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وكتبوا فى مكرهم صحيفة ، وعهودا ومواثيق ، الا يقبلوا من بنى هاشم صلحا أبدا ، ولا يأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل » .

« لبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركوا لهم طعاما يقدم مكة المكرمة ، ولا بيعا الا بادروهم اليه فاشبتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » •

« وكان أبو طالب اذا اخذ الناس مضاجعهم - أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد به مكرا واغتialا له » •

« وكان أحيانا يأمر أحد بنيه أو اخوته أو بنى عمه ، فاضطجعوا على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه » •

وهكذا كان العم العظيم يحتاط للغيلة أن يصيبوا بها محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فينيمه فى منامته ، متعرضا للغيلة بدله وهو الشيخ القانى ويغير مكان الرسول من وقت لآخر ، فيجعل مكانه بعض بنيه هو أو اخوته أو بنى عمه من بنى المطلب أو غيره ، وبدون ذلك كان يفى للعصبية ، ولكنها الشفقة والمحبة والرافة التى ألقاها الله تعالى فى قلب أبى طالب العظيم •

اشتد البلاء على المؤمنين ، وبنى هاشم وبنى المطلب ، حتى كان الأطفال يتضاغون من شدة الجوع ، وقد كانت المقاطعة كما روى ابن اسحاق كاملة ، فقد كانت تشمل المناكحة ، لا ينكحونهم ، ولا ينكحون منهم •

**الأرضة تمنع اسم الله تعالى من مواليقهم :**

٢٧٠ — مكث بنو هاشم وبنى المطلب وعلى رأسهم أبو طالب ، والنبنى عليه الصلاة والسلام معهم فى هذه القطيعة ثلاث سنين دأبا ، وهم يرون صبيانهم يعرضهم الجوع ، ولكن الكبار لا يذهب بهم الفزع ، فيستجيروا لأنفسهم أو أن يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فألقى الله تعالى بالصبر فى قلب المؤمن والكافر معا •

ولقد أظهر الله تعالى آياته فى أمرين :

أولهما : أن الأرضة جاءت وأكلت كل كلمة فيها اسم الله تعالى أو صفاته التى عاهدوا الله تعالى عليه أن تكون القطيعة دائمة ، وكان الله تعالى ألهم الأرضة أن تعلمهم أن اسم الله تعالى لا يصح أن يكون فى وثيقة ظلم وفسق

عن أمر ربهم ، وقد أطلع الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم الصادق المصدق على ما فعلته الأرضة بالهام من رب العالمين ، تعالت قدرته ، وعظمت منته •

الأمر الثانى : أنه تشققت الرحمة من قلوب هؤلاء الذين تعاهدوا على الظلم والعدوان ، كما تتفجر الأنهار من بعض الأحجار ، فانه على رأس السنين الثلاث التى مرت ببني هاشم تلام رجال من بطون قريش ، من بنى عبد مناف ، وقصى ، ورجال من قريش ، قد ولدوا من نساء من بنى هاشم ، رأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم على نقض الصحيفة ، والبراءة مما جاء فيها ، وقيل انها كانت معلقة بسقف البيت •

بيننا هذا التفكير قد سيطر على الملأ من قريش قد ذهب أبو طالب اليهم يخبرهم بأن الأرضة أخلت من صحيفتهم اسم الله ، وأبقت فيها الظلم والفسق الذى دونوه ، وتعاهدوا عليه •

انطلق الرجل العظيم أبو طالب ، ومعه العصبة من بنى عبد المطلب ، فقال فى جمع حافل من قريش :

قد حدثت أمور بينكم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها فعله أن يكون بيننا وبينكم صلح •

فطمعوا أن يسلم بنو هاشم محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأتوا بالصحيفة معجبين بها ، لا يشكون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيدفع اليهم ، فوضعوها بين أيديهم ، وقال قائلهم :

قد أن لكم أن تقبلوا وترجعوا الى أمر يجمع قومكم ، فانما قطع بيننا وبينكم رجل واحد ، جعلتموه خطرا لهلكة قومكم •

فقال أبو طالب انما أتيتكم لأعطيكم أمرا لكم فيه نصف ، ان ابن أخى أخبرنى ، ولم يكذبنى أن الله برىء من هذه الصحيفة ، ومحا كل اسم هو له فيها ، وترك غدركم ، وقضيتكم ايانا • وتظاهركم علينا بالظلم ، فان كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال ، فأفيقوا ، فوالله لا نسلمه أبدا ، حتى يموت من عندنا آخرنا ، وان كان الذى قاله باطلا رفعناه اليكم ، فقتلتموه أو استحييتم •

قالوا رضينا بالذى تقول ، وكأنهم فهموا أن النتيجة أن يسلمهم لوثوقهم من صحيفتهم •

فتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال الصادق المصدق ، وسنبيين بعض الصحيفة من البيان ، ومن دعا اليه ولم يذعنوا للحق اذ جاءتهم بيناته ، بل أصروا على الكفر والعناد ، وقالوا مقالة الكفر ، وقالوا ان هذا الا سحر من صاحبكم وارتكسوا ، وعادوا بشر مما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فزادتهم الآية كفرا •

فقال قائل للنفر من بنى عبد المطلب الذين كانوا فى صحبة أبى طالب : ان غيرنا أولى بالكذب والسحر ، فكيف ترون ، فانا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب الى الجبوت والسحر ، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم ، وهى فى أيديكم ، طمس ما كان فيها من الحنث ، وما كان من اسم الله ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟

كانت كلمات أبى طالب ومن معه من أسرته ان لم تكن قد شفت قلوبهم لقبول الحق ، فقد شقت صفوفهم التى كانت مجمعة على الباطل • فظهر النفر من بنى قصى وبنى عبد مناف ، وغيرهما وكانوا قد تلاوموا من قبل على الصحيفة وأمرها ، وفيهم من كانت الصحيفة عنده ، وجأهروا بما فى نفوسهم وقالوا حاسمين قاطعين ، غير مترددين ، ولا ناكسين • قالوا فى حزم ، نحن براء مما فى هذه الصحيفة •

وقال أبو جهل الخبيث فى ذات نفسه ، والضال فى فكره وعقله ، وهذا أمر قضى بليل (١) •

٢٧١ — وان النتيجة التى تستخلص من هذه القصة أن قريشاً بلغت بهم لجاجة الكفر أن يحاولوا قتل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يندفعوا فى ذلك ، لا ينظرون فيه الى عاقبة من تصدى بنى هاشم لهم ، للأخذ بثأره منهم ، ولعله كان قد ابتدأ التفكير عندهم فى تفرق دمه فى القبائل ، بحيث يضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يكون لبنى هاشم قبل بالثأر فيقبلوا وتتم الراحة لهم فى زعمهم ، اذ يستأصلون الدعوة من جذورها ، اذ يقتلونها صاحبها ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يستقبل ذلك التدبير اللئيم استقبال من يستعين بالله ، ولا يستعين بغيره •

ولكن عمه العظيم يحمل العبء ، ويتحمل الأذى ، ويحاول وقاء محمد عليه الصلاة والسلام بكل الأسباب ، حتى انه ينيمه فى مضجعه متحملاً

١ (١) أخذ ملخص القصة من كتاب سيرة ابن هشام ، ج ١ ومن كتاب البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤ ، ٨٥ وما فيها •

ما وراء ذلك ويستعد لفدائه بنفسه ، وهو لا يزال على دينهم • ولم يخرج  
الى الدين الجديد ، وان كان يظهر أنه فى دخيلة نفسه كان يعتقد صحته وقد  
بدا ذلك فى بعض شعره •

وانه يبدو من نهاية القصة أنه كان فى قریش من تألم من الأمر الذى  
نزل باخوانهم ، ولعله كان فيهم ميل لتصديق محمد عليه الصلاة والسلام  
ولذلك دخل الأكثرون منهم من بعد فى الاسلام •

وان نهاية الخبر تدل على أن بعض قریش ، وان دخلوا فى الحلف  
طائعين كانوا لنتائج كارهين ، فلم يستطيعوا تحمل نتائج ما عقدوا عليه  
حلفهم بعد أن رأوه واقعا ، وأنهم كانوا يرونه تهديدا ، ولا يرونه أمرا صالحا  
للتفاد ، وقد عظم عليهم عندما رأوه نافذا •

ولقد كان منهم من يرسل الطعام سرا ، ومن يعلم ذلك من ذوى الصلة  
منهم لا يستنكره •

يروى فى ذلك أن حكيم بن حزام بن خويلد ، ابن أخى خديجة ذهب  
ومعه غلام يحمل قمحا يريد عمته خديجة بنت خويلد وهى عند رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم فى الشعب ، فتعلق به أبو جهل ، وقال أتذهب الى  
بنى هاشم ، والله لا تذهب أنت وطعامك ، حتى أفضحك بمكة •

عندما قال أبو جهل ذلك تعرض له أبو البختري بن هشام بن الحارث  
ابن أسد وقال له مالك وله فقال يحمل الطعام الى بنى هاشم • فقال له  
أبو البختري منكرا عليه فعله : طعام كان لعمته عنده بعثت به اليه أتمنعه رجل  
يأتيها بطعامها ، خل سبيل الرجل •

أبى أبو جهل أن يخلى سبيل حكيم بن حزام ، وتلاعنا ، وقال كل من  
صاحبه •

لم يكن لأبى جهل أن يعامل الا بالضرب ، فأخذ أبو البختري لحي بعير ،  
فضربه وشجه ، ووطئه وطلا شديدا •

وحمزة بن عبد المطلب يرى ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم وبنى هاشم فيشمتون بهم ، وهكذا كانت الأطعمة  
تذهب اليهم وكان من كتاب الصحيفة من لم يرض بتنفيذها وكان يرجو  
انهاها ، ولكن ذلك لم يمنع المشقة الشديدة التى لقيها بنو هاشم وبنو المطلب  
من قومهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم أشدهم مشقة واحتمالا •



## الرسول صلى الله عليه وسلم مستمر فى دعوته

٢٧٢ — اذا كانت المقاطعة قد ضيقت على الرسول عليه الصلاة والسلام وأسرتة أسباب العيش السهل ، وضيق عليهم السبل فى الرزق ، فانها لم تمنعه من دعوته ، فهو قائم بالليل والاقامة فى ضيق الرزق ، ولكنه ليس برما ولا متمللا ، مادام يستجيب لأمر الله تعالى « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » فأعرض عنهم واستمر فى دعايته ، والله تعالى يمدده بالعون والتأييد بنصره ، فهو فى أنس من ربه ، وإن كان فى وحشة من قومه ، ولكن شعاره دائما : « اللهم اغفر لقومى ، فانهم لا يعلمون » « وانى أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى » \* والجدل مستمر بينه وبين أحادهم يدعوهم الى الحق ، فيصدون بالباطل .

ولقد وصل التهافت بأبى جهل أن يكفر بملته كلها ، فيسب الله تعالى ، وفى ديانتهم أن الله هو خالق السموات والأرض وأن كانوا يشركون الأنداد معه ، لقد قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لتتركن سب الهتنا أو لنسبن الهك » ولأن أبا جهل ومن على شاكلته لا دين لهم الا العصبية الجاهلية ، ولا يؤمنون بشيء لا يتوقع منه أن يسب الله تعالى ولكنه سبه فنزل النهى عن سب الأحجار والأوثان ، وتكون الدعوة الى التوحيد المجرد ، وبطلان عبادة الأوثان ، فقال تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » .

ولقد كان منهم من يحسب أنه يحاكي القرآن الكريم ، فبأتى بقصص من أخبار الفرس وحروبهم يسلى الناس عن القرآن الكريم ويبعدهم ، ثم يقول للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا قوم والله ما محمد بأحسن حديثا منى ، وما حديثه الا أساطير الأولين أكتبها ، كما أكتبها ، فيحكى عنهم رب العالمين قولهم ، ويرده عليهم بالقرآن الكريم يتلى ، فيقول الله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين ، أكتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزلناه الذى يعلم السر فى السموات والأرض انه كان غفورا رحيمًا ، وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » .

هم يكذبون القرآن الكريم ، ويعبثون بحقائقه ، وهم الذين يفرون من سماعه ، فاذا تهكموا عليه انتظروا ما يقال فى تهكمهم فيههم القرآن الكريم على مسامعهم ، ولا يستطيعون منه فرارا ، ولا ينفكون عن سماعه .

ومنهم من كان يحسب أنه يناقض معانى القرآن الكريم بحقائق من الأديان السابقة أو بما حسبه كذلك . ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجلس بينهم ، ويتلقى مجادلتهم ، ويدعوهم بالتى هى أحسن ، غير مدخر بابا من أبواب الإقناع بالحق الا سلكه ، يروى ابن اسحاق فى السيرة ما يأتى :

جلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما بلغنا يوما مع الوليد ابن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث ، حتى جلس معهم ، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا قوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير ، وهم لا يسمعون » .

ثم قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزبيرى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبيرى : أما والله لو وجدته فخصمته ، فسلوا محمدا أكل من نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيزا ، والنصارى تعبد عيسى ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول ابن الزبيرى ، ورأوا أنه قد احتج وخصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم الحكيم : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده فى النار . فنزل قوله تعالى : « ان الذين سبقوا لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيستها ، وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون » أى عيسى وعزير ومن عبد من الأبحار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى . ونزل فيما يذكر أنهم يعبدون الملائكة ، وأنها بنات الله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعلمون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم انى آله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » .

وقال تعالى فى اعجاب المشركين بقول ابن الزبيرى : « ولما ضرب ابن مريم مثلا ، اذا قومك منه يصدون ، وقالوا آلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون » .

٢٧٣ — ان هذه الأخبار التي كان فى القرآن الكريم رد عليها ، تدل على أمور ثلاثة :

أولها : أن هؤلاء كانوا يجادلون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم كانوا يستعينون بما عند غيرهم من علوم ، كانوا يذهبون الى اليهود يستعينون بهم يسألونهم أن يدلوا بشيء يحتجون به على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد لقنوههم الأسئلة عن أهل الكهف وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، ونزل القرآن الكريم بما فيه اشباع النفوس طالبة الحق المريدة له ، ولكنهم لم يؤمنوا ، بل أصروا اصرارا ، وأنفضوا رءوسهم علوا واستكبارا .

وهاهم أولاء الآن يدرسون أخبارا من الديانات ، مع أنهم أميون ، لم يكن لهم كتاب يقرءونه ولا علم دونوه ، ومع ذلك حاولوا أن يعرفوا شيئا مما عند اليهود والنصارى ، لا ليؤمنوا به ، أو ليستعينوا به لمعرفة الحق والوصول اليه ، بل ليجادلوا ويختصموا النبى عليه الصلاة والسلام ، ولذلك كشف الله تعالى حالهم . يقول تعالت كلماته مبينا أنهم لا يريدون ايمانا بل يريدون اعناتا ، فقال تعالى : « وقالوا آللهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك الا جدلا ، بل هم قوم خصمون » أى يريدون أن يلتمسوا الحجة من أى ناحية .

ثانيها : أنهم كانوا يعتقدون فى ذات أنفسهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم على الحق ، وأن القرآن الكريم هو الذى لا يحاكى ، ولكنهم يمارون فى الحق بعد ظهوره ، ولذلك ما كانوا يسكتون ، عند افحامهم ، أو افحام بعضهم بل انهم اذا افحموا بحثوا عما هو اشد لاجاة ، وأقوى حاجة فى الظاهر ، ولذلك لما افحم النضر بن الحارث بين أيديهم لم يسلموا بالحق ، وقد بدت بيناته ، بل قالوا معاندين وما قام وما قعد ، حتى جاء ابن الزبيرى ، فأتى بما يظنه مفحما لحمد عليه الصلاة والسلام ، بل كان سبيلا لمعرفة الحق ، أن أرادوا رشادا ، ولكن ما أرادوه .

ثالثها : أنه فى أثناء الحصار والمقاطعة والقطيعة ، ما ونى محمد عليه الصلاة والسلام عن دعوته حتى يؤسوا هم ، ولم ييأس هو ومن مفسه من المؤمنين الأشداء الأقوياء ، ولو كانوا المعذبين المضطهدين .

وانه فى أثناء ذلك ما ونى ، وما ضعف ، ولا استكان ، ولا وهنت نفسه .

وان ابن اسحق قد أتى بأخبار كثيرة عن النبى عليه الصلاة والسلام مع قومه ، وقد أفرغوا من الأذى كل ما فى جعبتهم من سهام مريشة ، ممزقة جارحة ، ولقد قال ابن كثير فى تاريخه بعد ذكر أخبار المجادلة :

كل هذه القصص ذكرها ابن اسحاق معترضا بها بين تعاقد قريش على بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وكتابتهم عليهم الصحيفة الظالمة ، وحصرهم اياهم فى الشعب ، وبين نقض الصحيفة ، وما كان من أمرها وهى أمور مناسبة لهذا الوقت ، ولهذا قال الشافعى رحمه الله تعالى : « من أراد المغازى فهو عيال على ابن اسحاق » .

اذن ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ، مواصل دعوته ، صاعد بأمر ربه لا يننى ولا يقصر ، فما نهضت من عزمته المقاطعة ، ولا ارادة الجوع والعري ، بل استمر ، وهو يقول فى قوة وعزم : « أنا النذير العريان » .

واذا كانت قريش قد بلغت أقصى الايذاء ، وانتقلت من الايذاء الاحادى الى الايذاء الجماعى ، ومن ايذاء المؤمنين وحدهم ، الى ايذائهم مع من يوالونهم من اقارب ، وأولياء ونصراء ، اذا كانت قد بلغت ذلك ، فمحمد عليه الصلاة والسلام لم يعبأ ، لأنه مؤيد من رب العالمين .

## سعى فى نقض الصحيفة

٣٧٤ — أقصى درجات الشدة قد يفضى الى نوع من الشفقة ، فان المظلوم الصابر الداعى الى الحق الذى لا يوجد سبب لانزال الظلم الصارخ به قد يفتح يناابيع من الشفقة ، وقد تنفتح هذه اليناابيع من نفس الظالم أو من باشر الظلم .

لقد ظلمت قريش أبناء عمومتها من نبي هاشم وبنى المطلب الذين ارتضوا أن يقاسموا بنى عمومته من ذرية هاشم ضراءهم ، لأنه كان ينالهم شرفهم ، فالزموا أنفسهم بمقاسمتهم الضر ، كما انتفعوا من شرف هذه العمومة .

واننا لا نفرض أن قريشا كلها قد أجمعت على القطيعة من مداخل شعورها ، فما انقطعت كل المودات ، وما زالت كل الصلات ، واذا كان قد دعا داع فى وقت المباغضة ، والمخالفة والحفاظ المخطيء على ما كان عليه الآباء ، فاستجابوا أو جلهم تحت تأثير الحمية الوثنية حمية الجاهلية ، فليس معنى ذلك أنهم صغت قلوبهم جميعا الى الداعى الأثيم ، بل ربما أجاب من أجاب بخلاف من القول ، أو تحت تأثير فورة قد تتبدد ، ويبقى الصافى بعدها أو فى حال نسيان لأصل المدة الموصولة ، والمحبة الرابطة ، وان اختلفت النحلة ، وتباعد الاعتقاد ، فالصلات تقرب البعيد ، وتمنع الجفوة المستمرة .

وان تلك القطيعة فطرت قلوبا مشفقة نحو الاسلام ، وأوضحت ظلم الباطل لأهل الحق ، وأنهم اذا أعياهم البرهان ، بالغوا فى الاعنات ، وان الناس فى البلاد العربية اذ يتسامعون بهذه القطيعة سيتعرفون سببها ، ويتذكرون أمرها ، ويحكمون بالشطط على مرتكبيها ، فتشيع حقيقة الاسلام ويفشو بين الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينى عن بيان ، وتلاوة القرآن الكريم المشرق بنوره وحججه ، وشرف نسبته الى الله تعالى الذى يخاطب به الخليفة وينادى به الفطرة المستقيمة •

لذلك لابد من نقض الصحيفة ، لأنها لم تؤد الى غرض مقصود ، ولو كان مثل غرض أبى جهل ، ولم تمنع الدعوة من أن تذيب بين العرب الأذنين منهم والبعيدين عنهم ، فكلما كانت محاولة كتم الدعوة ، كان بزوغها وظهورها ، وانبثاق معينها ، واشراق نورها •

٢٧٥ — أشرنا الى أنه يبدو من حقائق الأمور ، ودخائل النفوس ، وبعض مظاهرها أنه لم تكن الموافقة على القطيعة الجماعية كاملة ، واذا كانت بظاهر من العمل ، فالقلوب لا تؤيدها ، ولا تعاضدها •

وقد قصصنا عليك أيها القارئ الكريم قصة حكيم بن حزام الذى كان يذهب بالبئر الى عمته خديجة وزوجها الطاهر ومن معه من بنى هاشم واعترض أبى جهل عليه ، وتصدى أبى البختري لأبى جهل يلومه على أن منع حكيم من أن يوصل القمح لعمته ، فتلاحيا ، وأخذ أبو البختري لحا بغير وأعمله فى رأس أبى جهل حتى شجحه •

ويظهر أنه كان يقع ذلك من القرشيين ، انعطافا على المظلومين ، واكراما للقراية ، ويقول فى ذلك ابن اسحاق : « ولم يبل أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن الحارث ••• وكان ذا شرف فى قومه ، فكان فيما بلغنى يأتى بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب — ليلا قد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ قم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضربه على جنبه فدخل الشعب ، ثم يأتى به قد أوقره ، فيفعل مثل ذلك » •

وهكذا يتكرر منه العمل ، ويتكرر منه التزويد ، وهذا لا يدل على خيانة عهد ، فليس للأئمة عهد يراعى ، ولكنه كان استجابة لصلبة القراية ، واحساسا بظلم تلك المفعلة التى فعلها قومه •

واذا كان لهشام هذا ذلك المشرف الذى كان يعاون به المحاصرين من قومه ، فانه صاحب الفضل الأول فى ترتيب نقض الصحيفة ، من جانب

المشركين ، وقد ذكرنا من قبل كيف أخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن الأرضة أكلت ما فيه اسم الله وعهده ، وأبقت لهم اثمهم البغيض ، وكيف انتهت بنقضها ، ولكن الآن نبين كيف ابتداء الانتقاص فى جموعهم •

تولى هذا العمل ابتداء هشام بن عمرو بن الحارث ، ولنذكر ترتيبه الحكيم ، كما جاء فى البداية والنهاية •

مشى هشام الى زهير بن أمية بن المغيرة ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : أقدر رضىت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما انى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ( أى أبى جهل ) ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ، ما أجابك اليه أبدا •

قال زهير : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمتم فى نقضها •

قال هشام : لقد وجدت رجلا • قال من هو ؟ قال أنا ، قال هشام : ابغنا ثالثا •

ذهب هشام الكريم الى المطعم بن عدى ، فقال يامطعم أقدر رضىت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ، أما والله لئن أمكنتهم من هذا لتجدينهم اليها منكم سراعا • قال : ويحك فماذا أصنع انما أنا رجل واحد • قال قد وجدت ثانيا ، قال فمن هو ؟ قال أنا ، قال ابغنا ثالثا • قال قد فعلت • قال من هو ؟ قال زهير بن أبى أمية ، قال ابغنا رابعا • فذهب هشام الى أبى البخترى ( صاحب اللها التى ضرب بها أبى جهل ) ابن هشام ، فقال نحو ما قال للمطعم بن عدى ، فقال وهل تجد أحدا يعين على هذا ؟ قال نعم • قال من هو ؟ قال زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى وأنا معك • قال ابغنا خامسا •

ذهب هشام الى زمعة بن الأسود • فكلمه وذكر له قرايتهم وحققهم • فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعو اليه من أحد • قال نعم •

اجتمع أولئك الخمسة الكرام ، واتعدوا بأعلى مكة • وتعاقدوا على الدعوة لنقض الصحيفة ، ووقف زهير ، فكان أول المتكلمين كما كان أول الداعين •

طاف بالبيت سبعا ثم قال وقد أقبل على الناس : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلکی لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة •

قال أبو جهل : والله لا تشق •

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها ، حين كتبت •

قال أبو البختري : صدق زمعة ما نرضى ما كتب فيها ولا نقر به •

قال المطعم بن عدی : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبأ إلى الله منها ، ومما كتب فيها •

قال أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل تشوور فيه غير هذا المكان •

٢٧٦ — من هذا الكلام يستفاد أن كبار الذين لا ضغن عندهم على بنی هاشم ، وإن لم يذعنوا لدعوة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكونوا راضين بهذه القطیعة ، التي لم يكن لها جدوى الا اشارة العطف على محمد عليه الصلاة والسلام وعشيرته ودعوته وإنما كانوا مورطين •

ولقد جرت هذه المناقشة وأبو طالب العظيم مستمع وجالس فی ناحية من المسجد ، كأن القول لا يهمه ، وكأنه المعنى بالأذى هو وعشير من أمثال اللئيم أبی جهل ، والمعنى بالمودعة من كرام قومه •

ولكنه عندما وجد القوم قد اعتزم خيارهم الأمر ، وأرادوا قطعها ، قال لهم مقالة الحق التي أخبره بها النبی صلى الله تعالى عليه وسلم •

يا معشر قريش ان ابن أخی قد أخبرني بأن الأرضة أكلت الظلم والقطیعة والبهتان ، ولم تدع فيها اسما لله الا أثبتته فهل إلى صحيفتكم ، فان كانت كما قال ، فانتهاوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عندها ، وإن كان كاذبا دفعت اليكم ابن أخی •

عندئذ نقضت قريش الصحيفة رغم أنف أبی جهل وأشباهه •

## نقض الصحيفة فعلا

٢٧٧ — نقضت الصحيفة المشئومة ، ولا شك أنه فى وسط الجاهلية العمياء وجد بصر رجح داعى المروءة ، وصلة الرحم ، وأكثرهم كانوا ذوى نسب أو صهر بنى هاشم أو قرب نسب من البطون ، أو سبب الأنكحة ، ومنهم من حركتهم المروءة والنخوة ، واحترام الأرومة ، وترجيح الشرف مع اختلاف الدين على الضعف بسببه ، وقاوموا نذالة أبى جهل ، ودقوا أنفه ، وقال قائلهم لو كان فيهم ذو رحم بأبى جهل ما ارتضى تلك القطيعة •

وقد قدر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لذوى المروءات مروءتهم ، وأكثرهم دخل فى الاسلام وحسن اسلامه ، وكان خيرا فى جاهليته وخيرا فى اسلامه فاجتمعت له الحسينان ، ونال الشرفين شرف الهمة والمروءة وشرف الايمان •

ومنهم من لم يدخل فى الاسلام ، ولكن محمدا عليه الصلاة والسلام عرف له مروءته ، وقدرها له ، حق قدرها •

ومن هؤلاء أبو البختري فهو الذى ضرب أبا جهل بلحا البعير ووطئه وطأ شديدا عندما منع حكيم بن حزم من توصيل القمح لخديجة وزوجها خاصة وبني هاشم عامة •

وأبو البختري هذا كان أحد الخمسة الذين نادوا حول الكعبة الشريفة بوجوب خرق الصحيفة ونقض ما فيها ، وأصر على ذلك اصرارا جعل أبا جهل وأشباهه يخرجون مذمومين مدحوريين •

عرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تلك السابقة المكرمة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لا ينسى السابقات المكرمات ، واعتزام أن يجزيه على موقفه الجزاء الموفور ، فالوفاء خلق محمد عليه الصلاة والسلام ، وخلق الاسلام •

ولقد كان يتمنى عليه الصلاة والسلام أن يسلم ، ليكون كاخوانه الذين أسلموا ، ونالوا الحسينيين ولكنه لم يسلم ، بل استمر على شركه ، وبلغه عليه الصلاة والسلام أنه خرج مقاتلا فى صفوف المشركين فى غزوة بدر الكبرى ، فأوصى المسلمين ألا يقتله أحد منهم اذا لقيه وتمكن منه • فلقية أحد المجاهدين ومعه صاحب له من المشركين ، فذكر له وصية النبى عليه الصلاة



والسلام ، فدفعته مروءته أيضا الى الا ينفرد بالنجاة ، ويقتل صاحبه ، فقال  
اما نقتل معا ، واما أن ننجو معا ، فالجاهدين قتلهما معا ، وليته لم يفعل .

انى أحسب أنه خالف وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو أمر ألا  
يتعرض له وألا يقتله وما كان ثمة من مانع من أن ينجهما ، بل انى أحسب أنه  
كان من المستحسن أن ينجيهما . لأن الاسلام ينهى عن القتل الا للضرورة وقد  
كانت مندرجة ، ونحسب أنه لو عاش لكان من المؤمنين ، فخير قريش فى  
الجاهلية خيارهم فى الاسلام ان آمنوا ، وان فى نفسى حسكة تشك قلبى اذا  
تذكرت أن أبا البخترى قتلته السيوف الاسلامية بغير ارادة النبي صلى الله  
تعالى عليه وسلم .

### انطلاق الدعوة الاسلامية :

٢٧٨ — كانت تلك القطيعة التى أحدثتها النفس الوثنية الحانقة  
سببا فى ذبوع الاسلام ، وأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

فقد رأى العرب مقاطعة قريش لذوابتها من بنى هاشم ، وهم يجيئون الى  
مكة المكرمة حاجين ومعتمرين ومتجرين يغشون الأسواق ويجدون سادة  
العرب ممنوعين من غشيانها ، والدعوة الى مقاطعتهم قائمة على قدم وساق ،  
فلا بد أن يسألوا لم كان هذا ، وأن يتعرفوا دعوة الحق ، وما ينادى به محمد  
عليه الصلاة والسلام ، فتصل الى أسماعهم ، فمنهم من يؤمن ، ومنهم من  
يستمر فى ضلاله .

ولذلك كانت هذه المقاطعة سببا فى أن تسامع العرب بالاسلام ودعوته  
وأن تصل الدعوة المحمدية الى القبائل فى أماكنهم ، فمن اهتدى فقد اهتدى  
لنفسه ، ودعا غيره بالهداية ، ومن لم يؤمن تحدث مع غيره بما كفر به ، فتكون  
الدعوة قد علم بها من ارتضاها ، ومن لم يرتضاها ، لقد حملها جميعهم ، ورب  
حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه .

جاء الناس الى مكة المكرمة يستمعون الى النبي صلى الله عليه وسلم ،  
ممن صفت قلوبهم للايمان ، وقريش لهم بالمرصاد يحاولون أن يصدوهم عن  
سبيل الله تعالى ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وأولئك الذين وضع الله تعالى فى قلوبهم الميل الى الاسلام يسيرون الى  
الحق لا يعوقهم عائق ، ولا يردهم راد ، ولنذكر لك قصة رجل حاول أن يدخل  
فى الاسلام بناء على ما سمع فى القبائل من أخبار محمد عليه الصلاة والسلام

ودعوته الى الوحدةانية ، وما معه من كتاب أوحى به يتلوه عليهم ، ويرونه عجباً لم يكونوا قد سمعوا مثله ، ولا قريباً منه ، وقريش تترصد الرجل وأمثاله الذين يجيئون الى الرسول يستمعون اليه ، وتحاول تنفيرهم منه ، فلا ينفرون ، بل يزدون رغبة وامعانا في الطلب .

وهذا الرجل الطفيل بن عمرو الدوسي ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قبيلة دوس ، وكان قد قدم مكة المكرمة ، فاجتمع به كبراء المشركين من قريش ، وحذروه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهروه أن يجتمع به ويستمع اليه .

وما زالوا به حتى اقتنع بالآ يستمع ، وحشاً أذنه قطناً لكيلا يسمع ، ولكنه غدا الى الكعبة الشريفة ، فرأى على البغته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحاول لما أوصاه رجال قريش ألا يسمع ، ولكنه بما وهب الله تعالى رسوله الأمين من طيبة طاهرة تجذب اليه القلوب الصافية أبى إلا أن يسمع بعض ما يقرأ به عليه الصلاة والسلام ، ولنترك الكلمة للرجل ليخبر عن نفسه ، فالقول قوله في شأنها ، والاخبار عنها ، قال رضى الله عنه : قلت في نفسي ، واثكل أمي ، والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، وان كان فيبها تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فدخلت عليه ، فقلت يا محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ان قومك قالوا الى كذا وكذا . فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سدوا أذنى بكرسف ( قطن ) لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله تعالى إلا أن يسمعنى قولك فسمعت قولاً حسناً ، فاعرض على أمرك . فعرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ، وتلا على القرآن الكريم ، فلا والله ما سمعت قولاً أحسن منه ، ولا أمراً أعدل ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق .

وكان الطفيل هذا رجلاً مسموع الكلمة فى قومه شريفاً بينهم لم يعرف بقول الزور ولا الباطل فدعاهم الى الاسلام ، فأسلموا طائعين ، وكانت دوس على الاسلام الى أن جاء عصر الجهاد بالسيف ، فجاهدت مع المجاهدين حاربت المشركين فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وحاربت المرتدين من بعده ، وكان لها قدم ثابتة فى الاسلام .

ولم يجد منع قريش ، فالنور لا يقع فى قبضة أحد ، بل انه يسرى شعاعاً مضيئاً هادياً مهما تكن الظلمات المتكاثفة ، هذا الرجل الأول الذى جعلناه مثلاً لشيوع أمر الرسالة المحمدية بعد القطيعة وفى أثنائها ، فكان كل ما عمل ضد

محمد عليه الصلاة والسلام ، وما قام به يكون فى نتيجته خيرا لدعوة التوحيد ، ونداء الحق المبين .

من هذه القصة وأشباهاها ، وانها لكثيرة تجد ان الاسلام أخذ يسرى الى الجزيرة العربية قاصيها ودانيها ، والنبى عليه الصلاة والسلام قطب دعوة التوحيد مقيم فى مكة المكرمة مثنوى العرب أجمعين ، لا يسكت ولا ينى ، بل يستمر فى دعوة الحق ، يستمع اليه الضعفاء وبعض الأقوياء ويقوم بينهم بصلواته يجهر بها ولا يخافت ، والمشركون يستهزئون ظاهرا ، وهم مأخوذون بها باطنا ، يقدر حملتها على الشرك الذى يستمسكون به ويلاحون عنه بظاهر من عصبية ، وحقدا وحسدا ، لا ايمانا و يقينا ، ولكنهم قوم فى ذات أنفسهم مترددون ، والمترددون يثير حنقهم وغضبهم المستيقنون المؤمنون ، وكذلك كانت المعركة بين حق لائح مبين ، وباطل متردد فى ذاته .

## عام الحزن

٢٧٩ — هذه تسمية رسول الله صلى الله عليه وسلم للعام الذى توفى فيه شيخ البطحاء أبو طالب بن عبد المطلب ، وأم المؤمنين خديجة رضى الله تعالى عنها ، وقد كانت أبر زوج لأكرم زوج ، فسمى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك العام عام الحزن ، لأنه فقد فيه حبيبين ، ولم ير بعد موتهما من يعوضه عنهما من ذوى قرابته وصهره •

فقد كانا يواسيانه ، ويشدان أزره ، ويمنعان عنه الأذى أن يؤثر فى نفسه ، ويرى فيهما المثابة الى الاطمئنان والسكن ، فأبو طالب ينصره ، ويذود عنه ، ويتحمل الأذى فى سبيل مرضاته ، ويعمل على أن تقر عينه دائماً ، وقريش تضايق العم الشيخ فيتحمل ضيق قومه على أن يكون منه ما يجعل ابن أخيه فى ضيق ، ويتحمل الملامة هو على أن توجه ملامة لابن أخيه ، وأشهد ويشهد كل قارئ لسيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما وجد أب أحنى على ولده من أبى طالب على ابن أخيه ، وهو يخالفه فيما يدعو اليه ، ولا يستجيب لما ينادى به ، كما يقولون خشية سبة قريش ، وإن ذلك الأمر يعلمه الله تعالى ، وهو فى جملة يتعلق بالدعوة المحمدية الموحدة ، وتخفيف الأذى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن آمن معه •

ونحسب أن أبا طالب لو آمن بالدعوة المحمدية كما آمن حمزه ، وعلى عثمان ، وغيرهم من بنى عبد مناف ما استطاع أن يذود عن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ، كما زاد عنهم ، ولا أن يصد قريشاً كما صدهم ، إذ أنهم يدخلونه فى ضمن من يناوئون ، وحينئذ يفقد سلطانه الكامل على البطحاء إذ ينكرون سيادته ، فلا يستطيع أن يكفكف حديثهم ، ولا أن يكون الدرع الواقية ، كما كان الأمر فى ذلك ، وهو على دينهم ظاهراً ، أما الباطن فعلمه عند الله تعالى •

ولو أن لنا أن نأخذ بالقرائن أو بالأمارات على ما يستكن فى القلوب ، لقلنا انه مؤمن ، وليس بكافر ، ولكن يعارض هذه الظواهر أنه دعى الى الايمان بالقول فلم يستجب ، ومهما يكن فهو فى الحالين عظيم حتى فى شركه •

هذه اشارات الى ما كان من أبى طالب فى حمايته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى انه عليه الصلاة والسلام ليقول : ان قريشاً ما نالت منى فى حياة أبى طالب ما نالته من بعده •

وأما خديجة أم المؤمنين ، والزوجة الحانية كالأم أو أشد ، فقد كانت السكن إذا ادلهمت الأمور ، ولقى من مناواة قومه أشد ما يلقى داع الى الحق ، يشد الكفر وتشدد العداوة ، ثم يعود الى بيته مجهوداً مشنوءاً ، فيلقى الزوج البرة ، ولسان حالها يقول له ، كما قالت أولاً : « والله لا يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر ، فيطمئن فؤاده وتسكن جوارحه ، وتقر نفسه الجائشة » .

وان عاطفة الزوج المخلصة تلهمها بأطيب القول وأحكمه في أشد الأوقات التي تتصافر فيها أسباب الضيق النفسى والقلق ، وهى بحق التي تسمى السكن ، وكما قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

هذا العام كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، كما يحقق الرواة ، وهو قبل فرض الصلوات الخمس ، كما يقول المحققون ، وهو بناء على ذلك قبل الاسراء والمعراج ، ولذلك ذكرنا عام الحزن قبلهما ، للترتيب الزمنى أولاً - ولأن الاسراء والمعراج ، كانا لمواساة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم وأنسه بربه ، ولأنهما فيما يظهر لنا فيهما اذهاب للوحشة التي نالت قلب الرسول عليه الصلاة والسلام الكريم بفقد حبيبين \* فبين الله تعالى بهذا الاسراء أن الله هو الحبيب الأعظم ، وهو الحامى وحده ولا حماية لأحد تقارب أو تدانى حمايته .

وان الأكثرين ممن كتبوا فى السيرة النبوية يقدسون الكلام فى الاسراء والمعراج ، لأن فيهما تكميلاً لبيان الفرائض الاسلامية التي تتعلق بالتوحيد وهى الصلاة .

ويقول فى ذلك ابن كثير فى تاريخه الكبير : « قال البيهقى ، وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، عام خرجوا من الشعب ، وان خديجة توفيت قبل أبى طالب بخمس وثلاثين ليلة : وروى عن الزهرى أنه قال : توفيت خديجة بمكة المكرمة قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة وقيل قبل أن تفرض الصلاة ١٠٠ قلت مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، وكان الأنسب أن نذكر وفاة أبى طالب وخديجة قبل الاسراء كما ذكر البيهقى وغير واحد .

## أبو طالب ، وإيمانه

٢٨٠ — مما لا شك فيه ، ولا يمارى فيه مؤمن أن أبا طالب كان له موقف فى الدعوة الإسلامية ، وهو موقف من يحمى الحق ويدافع عنه ، ويتحمل الضيق فى سبيله ، وقد رضى أن يعيش ممنوعا ، هو وبنو هاشم وبنو المطلب ، مضيقا عليهم فى الرزق ، وكل أسباب الحياة ، وذلك عندما قاطعه قومه هو وبنو هاشم ، ومن انضم اليهم من بنى عبد مناف ، واستوى فى ذلك مؤمنهم وكافرهم ، وعلى رأسهم كبيرهم أبو طالب ، وقد كان المحرك لهم .

وكما كان منه هذا الموقف المشرف الرافع للحق لم يدخل فى دين الله ، أو على الأقل لم يدخل فى دين الله ظاهرا ، واستمر على ذلك ، لا يدخل فيما يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يمتنع عن الدفاع .

والقارىء لسيرته يعتقد أن ذلك مجرد العصبية الجاهلية ، ولفرط محبته لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن المحبة كانت هى الدافع لا للعصبية وحدها .

فما كان ليرضى أن يفضب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أن يكون منه ما لا تقر به عين حبيبه وابن أخيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وهنا يرد سؤال وهو ، أمات أبو طالب بعد هذا البلاء فى حماية الدعوة الإسلامية على الشرك ، ولم يخالط الايمان بشاشة قلبه ؟ .

يقول اخواننا الشيعة انه مات مؤمنا ، وأن الله تعالى أجرى على لسانه كلمة الحق ، لا اله الا الله محمد رسول الله . ولهم فى ذلك روايات أسندت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول جماعة أهل السنة ، ومعهم الكثرة الكاثرة من علماء الفقه والحديث انه مات على الشرك ، وأنه من أهل النار ، وأن الله تعالى يخفف عنه عذاب جهنم ، فيكون فى ضحضاح من النار .

ويردون كلام الأولين بأنه من فرط التشيع لعلى ، فقد جرهم هذا التشيع لعلى الى أن يحكموا بإيمان أبيه أبى طالب ، ثم يذكرون ضعفا فى اسناد الأخبار التى روت اسلامه ، ونطقه بالشهادتين ، ويذكرون أن الأخبار

الصالح ذكرت أنه ما نطق بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ،  
ويذكرون أنه في الخبر الذي صح عندهم عن النبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم ذكر أنه يكون في ضحضاح من النار ، وأن ذلك استجابة لدعوة النبي  
صلى الله تعالى عليه وسلم بالتخفيف عنه • لما كان له من مناصرة له عليه  
الصلاة والسلام •

وأنه من الحق علينا أن نذكر أمره عندما حضرته الوفاة •

٢٨١ — ونقول ان كتب الصالح من السنة كما تذكر أن النبي صلى  
الله تعالى عليه وسلم كان في خوف من نتيجة مرضه ، كان مشركو قريش  
في فزع من موته ، لأنه كما كان حاميا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان  
كهفا لقريش يشكون أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، ليرجو أن  
يخفف عنهم ، ولنترك كلمة للمؤرخ المحدث الحافظ بن كثير في كتابه البداية  
والنهاية (١) •

« قال ابن اسحاق : ولما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله قالت  
قريش بعضها لبعض : ان حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في القبائل  
فانطلقوا بنا الى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعظه ، فانا والله  
لا نأمن أن يبتزونا أمرنا • قال ابن اسحاق ، وحدثنا العباس عن عبد الله  
ابن معبد ، عن بعض أهله عن ابن عباس قال : لما مشوا الى أبي طالب وكلموه ،  
وهم أشرف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعمرو بن هشام  
( أبو جهل ) وأممية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرفهم  
فقالوا :

يا أبا طالب ، انك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا  
عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه ، فخذ لنا ، وخذ له منا ،  
ليكف عنا ، ولنكف عنه ، وليدعنا وديننا ، ولندعه ودينه •

فبعث اليه أبو طالب فجاءه ، فقال يا بن أخى ، هؤلاء أشرف قومك قد  
اجتمعوا اليك ، ليعطوك وليأخذوا • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه  
وسلم : يا عم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها  
العجم • فقال عمرو بن هشام ( أبو جهل ) : نعم وأبيك وعشر كلمات • ثم

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٧ - بتصرف قليل فيه تقديم وتأخير  
مناسب ، ليتسق المنقول •

قال : تقولون لا اله الا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه • فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا يا محمد ، تريد أن تجعل الآلهة الها واحدا • ان أمرك لعجب ، ثم قال بعضهم لبعض ، انه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا •

فقال أبو طالب : والله يا بن أخى ما رأيته سألته شططا ، فطمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، فجعل يقول له : « أى عم ، فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » فلما رأى حرص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يا بن أخى ، والله لولا مخافة السبة عليك ، وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى قتلها جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها الا لأسرك بها ، فلما تقارب من أبى طالب الموت • نظر العباس اليه يحرك شفتيه ، فأصغى اليه بأذنه •••

قال العباس : يا بن أخى ، لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لم أسمع » (١) •

هذا الخبر ، يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن قريشا ترى فى بقاء أبى طالب ضمانا لأمنهم ، واتصالهم بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم للتأثير فيه بعمه شيخ مكة المكرمة •

ثانيها : عظم محبة أبى طالب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان أنه ينطق بها محبة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

ثالثها : أن الرواية تدل على أنه يصدق دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك من ناحيتين :

أولاهما : أنه قال : « ما رأيته سألته شططا » أى أنه سألهم معقولا ، وهو : لا اله الا الله •

والثانية : أنها تدل على أن أبا طالب نطق بكلمة الايمان ، كما قال العباس ، وقد رد الذين أنكروا ايمان أبى طالب :



أولا : بأن السند فيه تجهيل ، لأنه قال عن بعض أهله ، فلم يعرف من الراوى ، وما حاله .

وثانيا : بأن الامام أحمد روى هذا السياق ، ولم يذكر كلمة العباس ، وكذلك الترمذى والنسائى وابن جرير .

وروى البخارى فى سياق هذا الخبر أن عمرو بن هشام ( أبا جهل ) وعبد الله بن أمية ، عندما سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمه أن يقول لا اله الا الله ، قال له : يا أبا طالب أترغب عن ملة : عبد المطلب ، فلم يزالا يكلمانه ، حتى قال آخر ما تكلم به : « على ملة عبد المطلب » .

وهكذا غيرها من روايات الصحاح تدل على أنه لم يقبلها ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » .

٢٨٢ — وان الذى ننتهى اليه أن هناك أمورا ثلاثة ، تحققت منها اثنتان ، والثالثة موضع نظر :

الأولى : أن أبا طالب حامى على الاسلام ، بالدفاع عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالدفاع عن المسلمين ، وما قاله من المدح للدعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والثناء عليها ، وما أظهره له ولأصحابه من المودة والمحبة والشفقة فى أشعاره ، وما تضمنه كلامه من العيب والتنقيص لمن خالف وكذبه بتلك العبارات الفصيحة البليغة الهاشمية المطليبية التى لا تدانى ولا تسامى ، ولا يمكن عربيا مقاربتها ولا معارضتها ، وهى فى ذلك كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد (١) .

الثانية - ثبت أنه عندما حضرته الوفاة كان يزكى مطالب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ما عرف عنه بعد الدعوة المحمدية أن زكى الأوثان قط ، ولا فضل تقديسهم عن دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه تحمل الأذى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويضاف الى ذلك هذه المحبة الظاهرة ، والشفقة الظاهرة التى كانت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

الثالثة - النطق بكلمة « لا اله الا الله محمد رسول الله » فقد جاءت رواية بأنه نطق بها ، وقالها ، وهذه رويت عن العباس ، وتناول بعضهم على مقامه ، فقال أنه قالها قبل أن يسلم ، وكان القائل يرمى العباس بالكذب ، قبل الاسلام ، ومعاذ الله أن يكذب العباس بن عبد المطلب ، ولو قبل اسلامه ،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٢٦ .

لأنه من ذؤابة قريش وأشرفهم ، والعربى لا يكذب ، وانظر الى ما رواه البخارى عن محادثة هرقل ملك الروم مع أبى سفيان ، فقد صدقه القول عن النبى عليه الصلاة والسلام وبينهما عداوة قال : « لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » فهل يعد العباس أقل من أبى سفيان شرفا وهمة ؟ كلا انه القرشى الهاشمى ، وعم النبى عليه الصلاة والسلام قبل الاسلام وبعده .

٢٨٣ — واننا ننتهى من هذا العرض الذى تحرينا فيه صدق التلخيص أن أبا طالب لم يكن مكذبا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مقاوما معاندا ، فهل كان من المسلمين ؟

ويقول ابن كثير فى هذا : « وهو فى هذا كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد ، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه ، وفرق بين علم القلب وتصديقه » (١) .

وكأنه بهذا يشبهه بعلم اليهود بالنبى صلى الله عليه وسلم اذ كانوا كما قال الله تبارك وتعالى عنهم : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لم يذعنوا لما يقتضى علمهم ، فهم يعلمون ولا يذعنون » .

وانى أسمح لنفسي أن أخالف الحافظ بن كثير فى قوله هذا ، أو انطباقه على أبى طالب ، وأحسبه هو قد وجد فارقا بين معرفته لله تعالى ولدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام واليهود ، وأقول ان علم أبى طالب قد صحبه ما يدل على التصديق والاذعان ، فهو علم مقترن باليقين والاذعان ، كما دلت عباراته ، وكما دافع عن الاسلام ، فاذا كان ثمة نقص بالنسبة لأبى طالب فهو أنه لم ينطق بموجب التصديق والاذعان ، وانى لذلك أقول انه لا يمكن أن يكون مشركا قط .

أولا : لأنه استنكر أقوال قريش وأيد دعوة التوحيد .

وثانيا : لأنه دافع عن التوحيد وأهله ، وتلقى الأذى كما تلقى المؤمنون الصادقون .

وثالثا : لأنه صرح بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد .

وان وجد من يتردد فى ادخاله فى زمرة المسلمين ، ولو كانوا ضعافا ، فأننا لا نتردد فى اخراجه من زمرة المشركين ، واذا كان قد نسب اليه ، أنه قال وهو فى سكرات الموت : على ملة عبد المطلب استجابة لأحد الأشياخ من

(١) الكتاب المذكور .

قريش ، فاتا لا نحسب أن هذه الكلمة تعارض كل ما كان منه من دفاع عن الاسلام ، وتصريحات كثيرة له بأن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام صادقة راشدة ، قالها وهو صحيح معافى \* ونختم كلامنا فى هذا بما قاله الحافظ بن كثير فى أبى طالب فقد قال رضى الله عنه :

« أبو طالب كان يصد الناس عن أذية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعن أصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال ، ونفس ومال ، ولكن مع هذا لم يقدر الله تعالى له الايمان ، لما له تعالى فى ذلك من الحكمة العظيمة ، والحجة القاطعة البالغة الدافعة التى يجب الايمان بها والتسليم لها ، ولولا ما نهانا الله تعالى عنه من الاستغفار للمشركين ، لاستغفرنا لأبى طالب وترحمنا عليه » (١) :

ونحن نقول فيما استنبطنا ، انه ليس بمشرك قط ، لأن المشرك من يعبد الأصنام ، ويشركها مع الله تعالى ، وأفعاله وأقواله ، ومواقفه تدل على أنه يرى عبادة الأصنام ويرأها أمرا باطلا ، ولذلك أميل الى أن أستغفر له ، ان كنت من أهل هذا المقام ، وأرى أنه ليس بكافر أصلا ، والله سبحانه وتعالى هو العليم بذات الصدور ، وما تخفى الأنفس \*

## خديجة رضى الله عنها

٢٨٤ — كانت خديجة هى الفقيد الثانية التى أدخل موتها الحزن فى قلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قطعة من نفسها ، وهى التى أذهبت عنه الرعب يوم جاءها يرجف فؤاده من أول لقاء بالوحي الالهى ، وهى التى كانت تأسو جراح قلبه ، كلما لقي من قومه صدودا وأذى ، وهى التى شاركتة فى حمل ضرائه ، وكانت لها المنزلة الأولى بين نسائه \*

ولمكانتها فى نفسه لم يتزوج فى حياتها غيرها قط معها ، ولكن تزوج من بعدها ، وعدد الأزواج ، وكان الحل لمقاصد ، ليس منها الشهوة ، بل ليؤلف بينه وبين قبائل العرب وليولى أصحابه المحبة ، ويدنيههم منه وليؤوى أزواج من يموتون من أصحابه \* أو يقتلون ، ويتركون أزواجهم من غير عائل يعولهم ليتحقق بالعمل قوله عليه الصلاة والسلام : « من ترك مالا فلو رثته ، ومن ترك ضياعا ، فالى ، وعلى » \*

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٦ — الكتاب المذكور ص ١٢٧ \*

وانها لعظم منزلتها من النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى الاسلام ،  
بشرت ببيت فى الجنة من قصب :

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : « أتى جبريل الى رسول  
الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت بائنا ،  
فيه ادم - أو طعام أو شراب - فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ،  
ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » والقصب  
المراد به اللؤلؤ .

وقد قال السهيلي « انما بشرها ببيت فى الجنة من قصب يعنى قصب  
اللؤلؤ ، لأنها حازت قصب السبق الى الايمان ، ولا صخب فيه ولا نصب ،  
لأنها لم ترفع صوتها على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم تتعبه فى الدهر ،  
فلم تصخب عليه يوما ، ولا آذته أبدا » .

ولقد كان يذكرها دائما بالخير ، يحب من كانت تحبه ، ويواد من كانت  
توده ، حتى كان ذكرها الدائم يثير غيرة بعض نساءه ، حتى لقد قالت أم المؤمنين  
عائشة : « ما غرت من امرأة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما غرت من  
خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره الله تعالى أن يبشرها ببيت فى الجنة  
من قصب ، وان كان ليذبح الشاة فيهدى فى خلائلها منها ما يسعهن (١) » .

وكان مع ذكرها يكرم ذكرها ، ومن يذكره بها ، ولقد استأذنت عليه  
هالة بنت خويلد أختها ، فعرف استئذان خديجة ، فارتاح ، فقال : « اللهم  
هالة » .

وروى الامام أحمد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « كان النبى  
صلى الله تعالى عليه وسلم اذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء فغرت  
يوما ، فقلت : « ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدين ، قد أبدلك الله خيرا منها ،  
قال ما أبدلنى خيرا منها ، وقد آمنت بى ان كفر بى الناس ، وصدقتنى ان كذبتنى  
الناس ، وآستنى بمالها ، ان حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها ان حرمنى  
أولاد النساء » .

وواضح أن ذلك قبل أن يهب الله تعالى له ابراهيم من مارية القبطية .

واننا نرى من هذا الكلام كله مكانة أم المؤمنين خديجة فى نفس النبى  
صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكيف كانت المراسى ، اذا ادلهمت الأمور ،

واشتد البلاء ، وكيف كانت المؤنس اذا استوحش من الناس ، وكيف كانت الهداة والسكن اذا ارتاع من هول ما يفعل الناس ، فكان حقا عليه الصلاة والسلام أن يسمى عام وفاتها ووفاة عمه الكريم عام الحزن ، وقد فقد فيه الحبيبين ، الحامى المكافح ، والمؤنس المواسى .

وقد مات أبو طالب قبل خديجة على أصح الروايات ، وقيل كانت وفاته قبلها بثلاث ليال ، ويذكر بعض الرواة أن وفاتها كانت قبل وفاته بنحو من خمس وثلاثين ليلة ، وأن الراجح أن وفاته كانت قبل وفاتها ، ومهما يكن الأمر فى المقدم والمؤخر ، فان وفاتهما أورثت حزنا شديدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

## ما كان بعد موت ابي طالب

٢٨٥ — قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ما نالت منى قريش شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب » ولقد لزم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحبيبين ، الحامى المكافح ، والمؤنس المواسى .

ثم لما خرج وياشر الدعوة وبلغ رسالة ربه ، كلبت عليه قريش ، حتى كانوا يؤذونه فى بيته ، فكان جيرانه جيران سوء ، ومنهم أبو جهل ، والحكم ابن أبى العاص بن أمية ، وعقبة بن معيط وعدى بن الحمراء ، وابن الأصداء الهزلى ، وكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى .

وقد روى مسلم عن ابن مسعود قال . « بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل . أيكم يقوم الى سلا (١) جزور بنى فلان ، فيأخذ فيضعه بين كتفى محمد اذا سجد ، فانبعث أشقى القوم . فأخذه ، فلما سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا نائم أنظر والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه . حتى ذهب انسان فأخبر فاطمة ، فجاءت ، وهى جويرية فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، رفع رأسه ، ثم دعا عليهم ، وكان اذا دعا ، دعا ثلاثا وإذا سأل ، سأل ثلاثا ، ثم قال . اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فلما

(١) السبلا ، ما بر خلاص الناقة ، وهى الجزور .

سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال : اللهم بأبي جهل ابن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمّية ابن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، فوالذي بعث محمدا « عليه الصلاة والسلام » بالحق ، لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر » \*  
اشتد أذى قريش للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن أكثر الأذى الذى نال شخص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بعد وفاة أبي طالب \*

ولقد قال ابن كثير فى ذلك :

« وعندى أن غالب ما روى مما تقدم من طرحهم سلا الجوزور بين كتفيه ، وهو يصلى كما رواه ابن مسعود \* \* وكذلك ما أخبر به عبد الله بن عمرو ابن العاص من خنقهم له صلى الله تعالى عليه وسلم خنقا شديدا وكذلك عزم أبى جهل \* \* لعنه الله على أن يطاء عنقه وهو يصلى فحيل بينه وبين ذلك ، وما أشبه ذلك - ذلك كله كان بعد وفاة أبى طالب والله أعلم ، فذكره هاهنا أشبه وأنسب » \*

وان هذا الكلام له وجهته ، وعلى ذلك نذكر أن أذى المشركين أخذ دورين \*

**الدور الأول :** ما كان قبل وفاة أبى طالب ، وقد كان أذى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بالاستهزاء والسخرية والسب ، ولا ينالون منه بغير السنتهم ، ويقوم بذلك سفهاؤهم كأبى الحكم بن هشام ( أبى جهل ) وعقبة ابن أبى معيط ، وغيرهما من سفهاء القوم \*

وكان مع ذلك التعذيب والايذاء البدنى للضعفاء ، وغير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى الى الهجرة الى الحبشة مرتين ، وكان فيهم كبراء كجعفر بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، ولعل هجرتهم كانت لأذى القول والسخرية والاستهزاء \*

**الدور الثانى :** كان بعد وفاة أبى طالب ، وهنا اشتد الأذى ، وكان الاعتداء بالقول والفعل حتى اضطرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أن يطلب الجوار ليدخل مكة المكرمة ، فأجاره مطعم بن عدى \*

وإذا كان قد فقد حماية أبى طالب ، فقد عوضه الله تعالى بحمايته \*

## حماية الله تعالى

٢٨٦ — روى البخارى بسنده عن ابن عباس ، قال : « مر أبو جهل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلى ، فقال ألم أنك أن تصلى يا محمد لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا منى ، فانتهره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنزل قوله الله تعالى : « فليدع ناديه سندعو الزبانية » ، والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب . »

وروى ابن جرير الطبرى بسنده عن أبى هريرة : هل يعفر محمد عليه الصلاة والسلام وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم : قال فواللأت والعزى عندما رأيته يصلى كذلك لأطان على رقبته ، ولأعفرن وجهه بالتراب ، فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلى ليطا على رقبته ، فما فجئهم منه الا وهو ينكض على عقبه ، ويتقى بيديه فليل له : مالك !! قال ان بينى وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة » .

ولقد حدث عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه جرت بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومشركى مكة المكرمة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يدعوهم الى الله تعالى ، ويبين لهم أن الأحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها لا تغنى من الله تعالى شيئا ، ثم غادر مكانهم ، فقام أبو جهل بن هشام فقال :

« يا معشر قريش ، ان قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم أبائنا ، وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا ، وانى اعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ، فاذا سجد فى صلاته ، فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . »

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا ، ثم جلس لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينتظر ، وغدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت قبلته للشام ، فكان اذا صلى ، صلى بين الركنتين الأسود واليماني ، فجعل الكعبة الشريفة بينه وبين الشام فقام يصلى .

وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون . فلما سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتمل ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا ممتقعا لونه ، مرعوبا ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يديه .

رأى رجال قريش الذين غدوا ليروا ما يفعل وما كان به ، فقالوا له ما بك يا أبا الحكم !! فقال : قمت اليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الابل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم أن يأكلنى » \*

هذه أخبار رواة ثقات بأسناد صحيحة قوية ، وإذا كان فى بعض أسنادها ضعف فالقوى يرفع الضعيف وحسبنا رواية القوى \*

ونحن نرجح ما رآه ابن كثير من أن ذلك بعد وفاة أبى طالب ، وإن كتب السيرة والأحاديث التى رويت بأسناد صحيحة لا تذكر زمان الوقائع ، ولكن تعنى بصدق الوقائع بروايتها عن ثقات أثبات ، وإذا كان الزمان غير ثابت ، فمن حق المؤرخ الفاحص أن يذكر الأحداث مرتبطة بما يناسبها ، وهو الوقت الذى خلا فيه النبى صلى الله عليه وسلم من نصرة النسب القريب الذى ألهمه الله تعالى المحبة والذود عن نبيه ، ولو كان فى أكثر حياته لم يعلن اتباع النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا قبضه الله تعالى اليه ، كانت النصرة لله تعالى وحده الذى لم يضيع عبده ورسوله ساعة من زمان \*

## المهابة مع المحبة

٢٨٧ — كانت حماية الله تعالى لرسالته التى بلغها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قد اقترنت بما أفاض الله عليه من مهابة كانت تظهر فى أوقاتها حيث كان الأذى يشتد ، والاستهزاء يكثر ، فيذكرهم الله تعالى بأنه لم يترك نبيه لسخريتهم واستهزائهم ، فتظهر المهابة الرادعة القاطعة فى وسط سخريتهم ، وتناولهم على مقام النبوة \*

ولنذكر فى ذلك واقعتين تبينت فيهما مهابة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التى ألقاها الله تعالى عليه مع محبته ورحمته \*

الأولى : قصة الأراشى ، وخلاصتها كما روى محمد بن اسحاق بسنده عن عبد الملك بن أبى سفيان الثقفى قال : قدم رجل من أراش بابل له الى مكة المكرمة ، فابتاعها أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها ، فأقبل الأراشى حتى وقف على نادى قريش ، ورسول الله عليه الصلاة والسلام جالس فى ناحية المسجد فقال :

يا معشر قريش هل من رجل يعدينى على أبى الحكم بن هشام ، فانى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ؟



فقال أهل المجلس ترى ذلك ويشيرون الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يهزمون به لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة ، اذهب اليه فهو يعديك عليه .

فأقبل الاراشى ، حتى وقف على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر ذلك له . فقام معه ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه . فقال من هذا ؟ قال محمد فاخرج ، فخرج اليه ، وما فى وجهه قطرة دم ، وقد امتنع لونه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أعط الرجل حقه . قال لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، فدخل ، فخرج اليه بحقه فدفعه اليه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للرجل : ارحل لشأنك ، فأقبل الاراشى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيرا ، قد أخذت الذى لى .

جاءوا الى الرجل الذى بعثوه معه فقالوا ويحك ماذا رأيت ؟ قال عجا من العجب ، والله ما هو أن ضرب عليه بابه ، فخرج وما معه روحه ، فقال أعط هذا الرجل حقه ، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج اليه حقه ، فدخل فأخرج اليه حقه .

لم يلبث أن جاء أبو جهل الى المجلس ، فقالوا : ويلك ، والله ما رأينا مثل ما صنعت . فقال ويحكم ، والله ما هو أن ضرب على بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، فخرجت اليه ، وأن فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ، فوالله لئن أبيت لأكلنى .

وان هذه الواقعة تدل أولا على هيبة النبى صلى الله عليه وسلم يستعين بها اذا أراد فى اقامة حق وخفض باطل ، ولا يستعين بها فى الدعوة الى الله تعالى دائما ، حتى يكون دائما رعوفا رحيفا ، والرافة تلين القلوب ، والهيبة اذا استخدمت باستمرار أرهقتها ، وأرهبتها ، والرسالة تستدعى تأليف القلوب دائما واللين دائما ، ولقد قال الله تعالى « فيما رحمة من الله انت لهم ، ولو كنت قضا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وتدل ثانيا : على أن أشد الناس سفها ، وتهجما على الناس ، واستهانة بحقوقهم ، وهو فى وسط الجموع هو أشدهم خوفا ، وهلعا وفزعا اذا انفرد فهو جبان رعديد ، اذا لاقى خصمه وجها لوجه ، وانك لترى الذين يبالغون فى الايذاء من الحكام وغيرهم أشدهم فزعا ، اذا أحسوا بأنهم مرام مقصود ، وانفردوا . فالتهمج من فرط الاندفاع ، وهو لا يتنافى مع المجبن ، بل انه يلزمه اذا لاقى الأقوياء .

هذه هي الواقعة الأولى التي أردناها • أما الواقعة الثانية : فهي ما رواه البيهقي بسنده عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيت من قريش قريشا أصابت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما كانت تظهره من عداوة ؟ فقال رأيتهم ، وقد اجتمع أشرفهم يوما في الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط : سقه أحلامنا ، وشتم أباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا معه على أمر عظيم •

قال : فبينما هم في ذلك طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن • ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتها في وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها • فقال : « أتستمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح » •

فأخذت للقوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنه على رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرفؤه ، حتى انه ليقول : « أنصرف أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول » •

انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان الغد اجتمعوا في الحجر ، وأنا معهم ( أي عبد الله بن عمرو ) قال بعضهم لبعض : ذكرت ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى اذا بدأكم بما تكرهون تركتموه •

فبينما هم على ذلك طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول : كذا ، وكذا ، لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « نعم أنا الذي أقول ذلك » ولقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع رداءه ، وقام أبو بكر دونه ويقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » ثم انصرفوا عنه ، فان ذلك لأكبر ما رأيت قريشا بلغت منه قط (١) •

وان هذه الواقعة تدل أيضا على هيبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطاقته النفسية ، ولا ينافي هذه الهيبة ما ارتكبوه بعد ذلك من أثم ، فان الهيبة تفرض نفسها عند أول الصدمة ، ولا تتنافى مع التدبير لمقاومتها ، فقد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٦ •

لقوة فى المرة الأولى • وواجههم بما يكف ألسنتهم عن الغمز والاستهزاء ،  
ويلقى فى قلوبهم الرعب ، فاثمر ذلك فى نفوسهم ، ولما استرجعوا أنفاسهم ،  
واستردوا تفكيرهم الأثم بعد الصدمة التى أوجدتها الهيبة دبروا أمرهم ، ثم  
كانت تلك الحركة التى أخذ فيها بعضهم بمجامع رداؤه ، وإن ذلك لا ينافى  
الهيبة التى كانت للنبي صلى الله عليه وسلم عندما يعتزم القول والقاء  
المجابهة فى القلب •

ولننزل عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم الى من دونه •

فقد كان عمر رضى الله عنه من ذوى الهيبة ، ولم تمنع هيبة تدبير  
اغتياله ، وعلى كان على قدر من الهيبة عظيم ، بل كان المهوب المروء ، ولذلك  
لما دبروا قتله • انتدب له اثنان أنفسيهما ، وغذى السيف بالسهم شهرا ومع  
ذلك لم تمنع هذه الهيبة ، وتلك الرهبة ، التدبير والاقدام •

وهكذا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حماه ربه من قريش بما  
منع به شر الأشرار ، وبما منحه الله تعالى من قوة نفس ، وعزم صدق •

## محمد عليه الصلاة والسلام فى الطائف

٢٨٨ — ذاق محمد صلى الله عليه وسلم ما ذاق من أهل مكة المكرمة  
من صد عن سبيل الله ومقاومة ، وإيذاء له ولأصحابه ، وقد بلغ الدعوة فيهم ،  
وكلبوا عليه ، ولكن دعوته عامة ، وليست لقريش وحدهم بل هى للناس  
أجمعين ، وقد علمها أهل مكة المكرمة ، وقاوموها ما استطاعوا الى ذلك  
سبيلا ، والله فى ذلك حكمة ، ولو كانوا أول من يطيعه لقليل انهم يريدون بذلك  
السلطان على الناس •

لقد اتجه النبي صلى الله عليه وسلم فى سبيل توسيع نطاق الدعوة الى  
الطائف التى تقرب من مكة المكرمة ، ولها من القوة والسلطان والثروة من  
الثمار والتجارة ما لمكة المكرمة ، وربما يرى فيهم نصرة لم يرها من قريش •

وله فى الطائف نوع رحم ، لأنه رضع فى بنى سعد ، وهم قرييون من  
الطائف ، ففيهم مراضعه ، وحواضنه ، وذلك فوق القرب النسبى ، فقد كان  
بينها وبين مكة المكرمة نحو ١٢٠ ( عشرين ومائة ) ميل ، ، وذلك ليس ببعيد  
فى الشقة فى عرف أهل البلاد الصحراوية •

ذهب الى الطائف في اخريات شوال من السنة العاشرة ، ذهب الى الطائف ليس لمجرد اشتداد قربه منه كما تذكر كتب السيرة ، ولكن ذلك قد يكون بعض الأسباب ، وليس اقواها ، وانما لذلك ، ولأنه اعتراه ما يشبه اليأس من ايمان قريش ، أو من بقى منهم ، وما كان له أن يضرب في حديد بارد ، أو أن يقصر دعوته عليهم ، وقد غلب عليهم الجدل بالباطل من غير أن يتجهوا الى الاقتناع ، فلا يشغل نفسه بهم ، واتجه الى بلد غير بعيد ، وهو الطائف ، يرجو منهم الاتباع ، ومن وراء الاتباع النصرة .

ذهب صلى الله عليه وسلم الى الطائف سعيا على قدميه مع أن المسافة كما قلنا تبلغ نحو عشرين ومائة ميل ، ولم يكن معه الا مولاة زيد بن حارثة الذي اعتقه من قبل ، وقد صار له حبيبا ودودا ، فلم يكن له خادما ، بل كان معينا ، وقد ذهب راجلا كما ذكر ، قيل لأنه لم يرد أن يعلم أحد بذهابه ، وقد يكون ذلك بعض السبب ، ولكن نقول انه كان يجاهد في سبيل الدعوة ، ويبلغ به الجهد والجهاد أقصاهما .

قال ابن اسحاق في سيرته بسنده لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم أخوة ثلاثة . عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب بن عمرو بن عمير ، وابن عوف بن عقدة بن عوف بن ثقيف « (١) » .

التقى بهؤلاء الذين كانوا يعدون من أشرافهم ، لمكانة أبيهم في ثقيف .

وقد كانت هذه الرحلة النبوية الى ثقيف غير محققة الاستجابة ، ولكنها كانت جهادا في سبيل الدعوة من صاحبها . ولنذكر لك المجاوبة التي كانت بين النبي عليه الصلاة والسلام ومن تحدث اليهم من أولاد عمرو بن عمير .

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أولاد عمرو بن عمير . فدعاهم الى الله تعالى . وبما جاءهم له من نصرته عليه الصلاة والسلام . والقيام معه على من خالفه من قومه ، فأجابوه بنكر من القول .

قال أحدهم : وهو يمرط ثياب الكعبة الشريفة ، ( أي أنه ينزع كساء الكعبة ) ان كان الله تعالى أرسل النبي (صلى الله تعالى عليه وسلم) ينزع ثياب الكعبة الشريفة وكأنه يسخر بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ويعلق على

ارسل النبي ( صلى الله عليه وسلم ) من الله تعالى أن ينزع هو ثياب الكعبة الشريفة ، وذلك مستحيل لقدسيته .

وقال الثاني : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !! وكأنه يستنكر أن يكون هو الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال الثالث : لئن كنت رسولا من الله ، كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك ، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغي لى أن أكلمك .

كان الرد كله تهكما واستهزاء ، فرأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا استجابة منهم ، ويئس منهم وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى .

وإذا كانوا غير مستجيبين لدعوة الله تعالى فإنه قد يكون فيهم مرة . فرأى عليه الصلاة والسلام أن يخفوا مجيئه اليهم ، وكره أن يبلغ قومه فيدثرهم أى يثيرهم ، ولكنهم للؤمهم لم يخفوا أمره ، بل أعلنوه ، بل أغروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبونهم ويتصيحون به ، حتى اجتمع الناس عليه .

وقد روى موسى بن عقبة أنه قعد له أهل الطائف صفيين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما الا رضخوهما بالحجارة ، حتى أدموه ، فمضى ، وهما يسيلان دما « (١) » .

عاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الرحلة الشاقة لقوم لئام ، لم يذوقوا معنى المروءة ، ولم يعرفوا للكرامة الانسانية فى أى صورة من الصور الأدمية .

أشد البلاء ما يثير عطف العدو للددود ، وقد أثار ما فعل أولئك اللئام عطف ابني ربيعة عتبة وشيبة اللذين اشتركا من قبل فى اىذاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فقد كان لهما بستان قريب من الطائف ، قد آوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى ظل شجرة من أشجاره .

لقد تحركت الرحم فى ابني ربيعة ، فبعثا غلاما لهما يقال له عداس بقطف من العنب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليتبلغ به ، وذلك من الكرم القرشى .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٦ .

## عداس والنبي صلى الله عليه وسلم :

٢٨٩ — كان عداس نصرانيا ، فذهب بالقطف الذى كان فى طبق ، وقدمه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فابتدأ صلى الله تعالى عليه وسلم أكله بقوله : « باسم الله » فنظر اليه عداس ، وتفحص فى وجهه ثم قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن أى البلاد أنت عداس وما دينك ؟ قال نصرانى ، ومن أهل نيتوى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلك أخى ، كان نبيا وأنا نبي .

أكب عداس بن مالك على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

رأى ابنا ربيعة ما كان من الفتى النصرانى . فلم يلن ذلك قلبهما للإسلام ، فقال أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك .

لما عاد اليهما عداس قالوا له : ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ !

قال : يا سيدى ، ما فى الأرض شئ خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه الا نبي .

قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فدينك خير من دينه .

كانت العاطفة الكريمة ، ومعها ذلك الضلال المبين ، وان كان الحق واضحا ، جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فكان الطغيان ، وكان الكفران وكان الضلال .

## دعاء ، وعفو ، وأجارة :

٣٩٠ — أحس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالجفوة ، ومراة الأذى من هؤلاء اللؤماء ، وبما أرادوا له من مهانة ، فلم يجد مثابة

الا فى أن يلجأ الى ربه ضارعا ، فقال دعاءه لربه وكان بعد أن غادر ابنى  
ربيعه ، ورأى ما رأى من عداس بن مالك ، واطمان قال :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس  
يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ، الى  
بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى ، أن لم يكن بك غضب على فلا أبالى  
ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ،  
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك  
لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » •

دعاء منبعث من نفس مكلومة ولكنها راضية ، لأنها تقوم بأعظم دعوة  
فى الوجود ، فيهون فى سبيلها كل أمر مهما يكن عنيفا ، وكل شديدة مهما  
تكن بالغة ، فهو يقبل ما قدره الله تعالى وما يرضاه ، ولا يهمه الا غضب الله  
تعالى عليه ومادونه يهون •

استجاب الله تعالى لدعائه عليه الصلاة والسلام ، وبين له أنه معه ،  
وقد ثبت فى الصحيحين أن أم المؤمنين عائشة حدثت أنها قالت لرسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟  
قال ما لقيت من قومك ••••• اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل •• فلم يجبنى  
الى ما أردت ، فانطلقت ، وأنا مهموم ، فلم أستفق الا وأنا بقرن الثعالب ،  
فرفعت رأسى ، فاذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت ، فاذا فيها جبريل عليه  
السلام فنادانى ، فقال • « ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك ،  
وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، ثم نادانى ملك الجبال ، فسلم  
على ، ثم قال يا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، قد بعثنى الله ، ان الله قد سمع  
قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال قد بعثنى اليك ربك لتأمرنى ما شئت ، ان  
شئت فاطبق عليهم الأخشبين ( جبلين بمكة المكرمة ) فقال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله » (١) •

استجاب الله تعالى لدعاء نبيه ، وقد ذكر فى دعائه ضعف قوته ، فبين  
الله تعالى بأنه يضع فى يده كل القوى ، وأنه لا يمكن أن يهون عند الناس ،  
والله تعالى معه ، وأنه لم يتركه لعدو ، ولا ولى ، بل ان أمره عليه الصلاة  
والسلام الى الله سبحانه • وهو القاهر فوق عباده • فمن كان مع الله تعالى  
لا يهون أبدا •

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٧ •

## سماع الحق له :

٢٩١ — كان النبی صلی الله تعالى علیه وسلم حفياً بأن يتبع الناس دعوة الحق ، ويؤمنوا بالله ورسوله ويتركوا عبادة الأوثان ، وكما قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم : « لعلك يا خضع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » ولقد شكّا أن قومه لا يتبعون ، وأن غيرهم كمثّلهم ، فبين الله تعالى أنه إذا كان الذين اتبعوه من قومه عدداً قليلاً ، فإن له أتباعاً من الحق ، فبين الله تعالى أن بعض الجن قد استمعوا ، واستجابوا ولم يكفروا فقال تعالى مخبراً عن سماعهم فيما يروى الرواة بعد خروجه من الطائف ، وما نزل به ، قال الله سبحانه وتعالى : « وإن صرنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب اليم ، ومن لا يجب داعي الله ، فليس بمعجز في الأرض ، وليس من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين » \*

وقال الله تعالى في سورة الجن : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرشاد فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحداً وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهنّا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن نقول الانس والجن على الله كذبا ، وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » \*

والجن كما تدل ظواهر القرآن الكريم وما روى من أخبار عن النبي صلی الله تعالى علیه وسلم جنس يقابل الانسان ، فليس الجن من الأناسي ، ولا يتفق مع القرآن الكريم قول من يقول أنهم طائفة من الناس غيبوا في الأرض ، أو بعدوا فيها ، ولقد أخطأ وجانب الصواب من يقول أنهم الانصار فذلك كلام باطل بالبداهة ، ولكن تبع الغربيين بعض الذين ليس لهم استقلال فكري أمام ما يقوله الغربيون ، وليسست عندهم طاقة يستطيعون بها تمييز ما هو حق وما هو باطل ، وما هو خطأ وما هو صواب .

ان كل عبارات القرآن الكريم تصرح بأنهم جنس مقابل للانسان ، وآيات الكتاب الكريم في ذلك كثيرة ، من ذلك قوله الله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ، يا معشر الجن ، قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ، ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ، قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، ان ربك حكيم عليم ، وكذلك تولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ، يا معشر الجن والانس ، ألم يأتكم رسل منكم



يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، وقالوا شهدنا على أنفسنا  
وغرثهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » \*

وان هذه الآيات الكريكات تدل بصريحها على أن الجن جنس ، والانسان  
جنس آخر \*

ويقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل  
هذا القرآن لا ياتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » \*

واقرا قوله الله تعالى : « يا معشر الجن والانس ، ان استطعتم ان تنفذوا  
من اقطار السموات والارض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان » \*

واننا نأخذ من صريح هذه النصوص اختلاف الجنسين ، فليس الانسان  
من الجن ، ولا الجن من الانسان ، وان الواجب أن نأخذ بظواهر الالفاظ  
الا اذا قام الدليل على أن الكلام على ظاهره مناقض لحقيقة شرعية قد علمت  
من الدين بالضرورة ، أو أمر عقلي مستحيل مخالفته \*

وأولئك الذين يريدون أن يخرجوا لفظ الجن عن ظاهره في القرآن  
الكريم هم من أولئك الذين لا يفكرون في غير المحسوس ، فلا يؤمنون الا  
بالمادة ، ولا يؤمنون بالغيب ، وهو الركن الأول للإيمان ، ولذلك كان أول  
وصف للمؤمنين هو الايمان بالغيب ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى : « الذين  
يؤمنون بالغيب » وفيصل التفرقة بين الايمان والزندقة الايمان بالغيب \*

وبعد ذلك نتساءل ما حقيقة الجن ؟ والجواب عن ذلك أننا نميل الى ما  
يقرره المسلمون \* وهو أن الجن من نار ، واعتمدوا في ذلك على نص القرآن  
الكريم ، لا على الأوهام ، وذلك لأن الله تعالى قال عن ابليس اللعين « كان من  
الجن ففسق عن أمر ربه » ولما أبى واستكبر ولم يسجد لآدم ، قال فيما حكى  
الله سبحانه وتعالى عنه : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين »  
وبالتقاء النصين الكريمين يثبت أن ابليس بصريح اللفظ كان من الجن ، وأن  
الجن خلق من نار \*

هذا ما يدل عليه صريح القرآن الكريم \*

وان سماع الجن وايمان بعضهم تسلية للنبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم ، اذ فيه بيان أنه اذا كان قد بطؤت الاجابة في الانسان فقد سارعت  
الجن الى الاجابة « فلا تأس على القوم الفاسقين » \*

## فى جوار المطعم بن عدى

٢٩٢ — كان لابد أن يعود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة المكرمة مهبط الوحي ، ومجتمع العرب فى موسم الحج ، لأن الخطة التى رسمها وابتدأ بها فى الطائف تقتضى العودة الى مكة المكرمة ، وتلك الخطة أن يتصل بالقبائل العربية فى أثناء اجتماع وفود القبائل فى الحج الى بيت الله الحرام .

هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالرجوع الى مكة المكرمة ، وهو عند حراء ، وكان معه زيد بن حارثة الذى صحبه فى هذه السفرة فخشى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب بالألا يرجع الا فى جوار أحد من سادة مكة المكرمة المشركين ، حتى لا يضار .

فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند مشورته ، فأرسل الى الأخنس بن شريق أن يجيره بمكة المكرمة . فقال انه حليف قريش لا يجير على صحيحها .

ثم بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الى سهيل بن عمرو ليجيره ، فقال : ان بنى عامر بن عامر بن لؤى لا تجير على كعب بن لؤى .

ثم بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الى المطعم بن عدى ليجيره ، فقال للرسول نعم ، قل له فليأت ، فذهب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبات عنده تلك الليلة .

ثم لما أصبح الصبح خرج معه وبنوه ستة — أو سبعة — على اختلاف الرواية — متقلدو السيوف جميعا ، فدخلوا المسجد ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : طف . واحتبى هو وأولاده بحبائل سيوفهم فى المطاف .

كان ذلك اعلانا قويا بهذا الجوار الكريم ، فجاء أبو سفيان بن أمية ابن عبد مناف ، وأقبل على مطعم بن عدى فقال أمجير أم تابع ؟ قال : بل مجير ، فقال اذن لا تخف •

وكان أبا سفيان بهذا السؤال يشير الى أنه ان كان تابعا فهو حرب مع النبي عليه الصلاة والسلام ينال أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن كان مجيرا فانه تحفظ ذمته ، لأنه منهم ، ولا يفرضون فيه العداوة أو الخصومة •

ومن هذا تعرف حكمة الله تعالى في أن أبا طالب لم يعلن اسلامه مع حمايته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه لو أعلن الاسلام لحاربوه مع من آذوا من أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين لم يرفعوا فيهم الا ولا ذمة •

## انشقاق القمر

٢٩٣ — قلنا ان الأمور التي كانت بعد الدعاء المحمدي كانت استجابة لهذا الدعاء وابعاداً للوحشة عن قلبه الطاهر ، فمجىء تلك الجبال كان لاشعاره عليه الصلاة والسلام بالقوة ، وقد شكا ضعف قوته ، وسماع الجن للقرآن الكريم وإيمان بعضهم كان لا يناسه عليه الصلاة والسلام بكثرة الاتباع ، ثم كان تسهيل الجوار ليدخل مكة المكرمة ويكمل دعوته ، فيه اثبات سعة الحيلة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، هداه الله تعالى اليها لكي يذهب بقله حيلته التي شكها رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكانت من بعد ذلك الآيات الحسية ، التي كان منها انشقاق القمر ، والاسراء والمعراج . لبيان أن الله تعالى لم يتركه « ما ودعك ربك وما قلى » .

وقد ذكرنا أن كتاب السيرة لم يذكروا الأخبار مرتبة بترتيب الوقائع ، وقد ذكروا انشقاق القمر بعد الاسراء والمعراج ، ونحن قد رجحنا كما رجح ابن كثير أن الاسراء كان بعد وفاة أبي طالب وخديجة أم المؤمنين رضى الله عنهما ، إذ أنها توفيت قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، والصلوات لم تفرض خمسا الا فى المعراج .

وقد ذكر بعد المعراج انشقاق القمر ، وإن المناسبة تزكى ذلك الترتيب فإن ذلك تقوية للاستدلال على صحة الرسالة ، وإن كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي تحدى بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعده عليه الصلاة والسلام المعجزة .

ولندخل من بعد للموضوع ، وهو انشقاق القمر . لقد قال الله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ، ويقول فى ذلك ابن كثير : « وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك فى زمنه عليه الصلاة والسلام ، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر أن شاء الله تعالى . وبه الثقة وعليه التكلان ، ويذكر من بعد ذلك الحافظ الحجة ابن كثير الأخبار الصحاح الواردة فى ذلك .

وقبل أن نختر من هذه الصحاح ما نراه أوضح من غيره دلالة ، نقول ان انشقاق القمر ثبت بلفظ الماضى مما يدل على حكاية الواقع ، لا ذكر المتوقع ، فإن اللفظ القرآنى يؤخذ بظاهره ما لم توجد قرينة من حقيقة ثبتت بالاجماع

والعلم الضروري ، أو من قضايا العقل المبتوثة التي لا مجال للريب فيها ، أما تأويل القرآن الكريم ، وإخراجه عن ظاهره باستبعاد بعض ذوى العقول المأقونة أو المتأثرة بالمألوف بين الناس ، وتنكر ما عداه ، ولا تعلم أن هناك قوة مغيرة محدثة مدشنة هي قدرة الله تعالى وإرادته التي توجب الإيمان بالله تعالى فعال لما يريد ، مختار فيما يفعل ، وأنه وحده خالق كل شيء ، خلق الأسباب والمسببات ، لا توجب إرادته أسبابا عادية « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » •

وعلى ذلك نقرر أنه وقع فى الماضى فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن قول الله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » عبر عن انشقاق القمر بلفظ الماضى الدال على الوقوع فى زمن مضى ، وتخريجها على أن الماضى أريد به المضارع ، وأنه سينشق ، تخريج للفظ بغير ظاهره الذى دل عليه القرآن الكريم بظاهره لابد له من مسوغ يوجب ذلك التخريج ، ويكون قرينة دالة على أن اللفظ أريد به غير ظاهره •

٢٩٤ — هذا ما يدل عليه ظاهر القرآن الكريم ، وهو فى ذاته حجة دالة على الوقوع لا يحتاج الى حجة أخرى تؤيده فهو يؤيد غيره ، ولا يستمد التأييد من غيره ، ولكن السنة تبين لنا كيف وقع لا أصل الوقوع ، فنحن نرجع الى السنة لبيان شكل الوقوع •

لقد ذكر الحافظ ابن كثير أن الوقوع ، أو شكل الوقوع يثبت بعدة طرق عن كثيرين من الصحابة ، فروى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجبير بن مطعم ، وحذيفة ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم أجمعين •

روى البخارى ومسلم أن أهل مكة المكرمة سألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم آية فانشق القمر ، فانشق القمر بمكة المكرمة مرتين ، وفى رواية لمسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة المكرمة سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين ، رواه البخارى ، وزادت روايته حتى رأوا حراء بينهما •

وبذلك تفسر كلمة مرتين بأنه صار فرقتين •

وروى الامام أحمد عن جبير بن مطعم : قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا سحرنا محمد ، وقالوا ان كان سحرنا ، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم •

وروى البخارى عن ابن عباس ، قال ان القمر انشق فى زمان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قال البخارى قد مضى ذلك كان قبل الهجرة ، انشق القمر ، حتى رأوا شقيه •

ويقول ابن عباس فيما روى عنه أبو نعيم بسنده : « اجتمع المشركون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام ، والعاص بن وائل ، والعاص بن هشام ••• ونظرائهم فقالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين ، نصفاً على أبى قبيس ، ونصفاً على قيقعان ، فقال لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تؤمنون ؟ قالوا نعم ، فسأل الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا وكانت ليلة بدر ، فأمسى القمر قد شق نصفاً على أبى قبيس ، ونصفاً على قيقعان » •

وهكذا تضافرت الروايات ، وهذا بعضها يدل على أن القمر شق ، وكان شقين ، وكان القمر بدرا ، وعينت بعض الروايات أنه كان فى الليلة الرابعة عشرة ، وليس لأحد أن يشك فى هذه الروايات التى يسند بعضها بعضاً ، حتى ادعى ابن كثير أن أخبار انشقاق القمر فى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت حد التواتر ، وأنه لم يعد ثمة مسأغ لمستريب ، ولا مجال للتكذيب ، وخصوصاً أن الأصل ثابت بظاهر القرآن الكريم ، والأحاديث مبينة لشكل الوقوع ، لا لأصل الانشقاق ، فانه ثابت بالقرآن الكريم الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن الذين ينكرون يستغربون ثم يؤولون ، ان كان للايمان بالقرآن الكريم بقية فى قلوبهم •

٢٩٥ — ان الذين يستغربون ، ثم ينكرون ، ويؤولون ان كانوا مسلمين يردون أن ذلك لو حصل وهو أمر كوني لكان مرثياً فى كل بقاع العالم • ولم يختص العرب برؤيته ، بل تعم ولا تخص ، وقد ردد ذلك النصارى من كتاب المشرقيات ونقله عنهم الذين يتعرفون أمور الاسلام من هؤلاء •

ونقول لعلماء الغرب الذين يشككون فى القرآن الكريم • لقد صدقتم ما هو أشد من ذلك غرابة ، فان الأناجيل التى يصدقونها ، ويؤمنون بكل ما فيها يقولون فى ميلاد المسيح عليه السلام انه علم ميلاده عند المجوس بنجم أعلمه ، وأتاهم جاءوا من بلادهم ، والنجم يسير أمامهم ، حتى علموا مكانه عن طريق النجوم ، فهل كان الناس قدروا ذلك ، كما تطالبون المسلمين بأن يثبتوا أن الناس جميعاً قد رأوا انشقاق القمر ، والا فهم فى حل من أن يكذبوا القرآن الكريم : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذباً » •

ومع ذلك فأننا نقبل الاعتراض ، وإن كانوا غير مخلصين ، ولا مؤمنين بما يقولون • ونقول في رده أن العرب المشركين عندما رأوا القمر قد انشق ، لم يؤمنوا وقالوا سحرنا محمد — وحكى الله تعالى عنهم ذلك ، فقد قال الله تعالى في واقعة انشقاق القمر : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر » •

وبعضهم أراد أن يتعرف ، وانتهى تعرفه بأن الناس الذين علموا أمره من غير المقيمين قد رأوه منشقا • فقد روى الامام أحمد ، والشيخان البخاري ومسلم عن ابن مسعود : قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة ، فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم •

وروى البيهقي مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود أيضا ، فقد قال : انشق القمر بمكة المكرمة حتى صار فرقتين ، فقال كفار قريش لأهل مكة المكرمة : هذا سحر سحرهم به ابن أبي كبشة ، انظروا السفار ، أن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم ، فهو سحر سحرهم به ، قال فسئل السفار ومن قدموا من كل جهة ، فقالوا رأينا •

من هذه الصحاح يتبين أن الرؤية كانت عامة ، ولم تكن مختصة باقليم ولا ببلد ، وقد تحرى أهل الفحص والنظر فراؤا أن قد روى في كل الأماكن التي كانت تجاورهم • أو أتى فيهم السفر بخبره ، فدل هذا على أن الرؤية كانت عامة ، والقرآن الكريم صادق وأخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صادقة من كل الوجوه ولا سبيل لانكارهم بتوهم متوهم ، أو استغراب مستغرب ، فأمارات الصدق قائمة بينة ، ولا يرد الأمر البين بتوهم واهم ، أو استغراب مستغرب ، أو انكار كافر جحد •

وفوق ذلك ، فانه جاءت الأخبار بأن انشقاق القمر قد روى في الهند ، قال المؤرخ ابن كثير :

ومع ذلك فقد شوهد ذلك في كثير من بقاع الأرض • ويقال : انه أرخ بذلك في بعض بلاد الهند • وبنى بناء في تلك الليلة ، وأرخ بليلة انشقاق القمر (١) •

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٢٠

## الاسراء والمعراج

٢٩٦ — كان الاسراء فى السنة التى كانت قبل الهجرة ، وروى البيهقى عن ابن شهاب الزهري أنه كان فى السنة التى قبل الهجرة ، وروى الحاكم أن الاسراء كان قبل الهجرة بستة عشر شهرا .

واختلف على ذلك فى الشهر الذى أسرى به فيه ، فالسدى قال انه فى نى القعدة ، والمزهرى قال فى ربيع الأول .

وروى عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بعث ، وفيه عرج الى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات .

وفى رواية أن الاسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من شهر رجب ، ويقول ابن كثير : « وقد اختاره الحافظ بن سرور المقدسى ، وقد أورد حديثا لا يصح سنده كما ذكرنا فى فضائل شهر رجب ، وأن الاسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من رجب والله أعلم . ومن الناس من يزعم أن الاسراء كان فى أول ليلة جمعة من شهر رجب ، وهى ليلة الرغائب التى أحدثت فيها الصلاة المشهورة ، ولا أصل لذلك ، والله أعلم .

وقد جاء فى نهاية الأرب أن الاسراء كان فى ليلة السبت ، ليلة سبع عشرة من رمضان ، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ، وقد أسرى صلى الله تعالى عليه وسلم به وسنه احدى وخمسون سنة وتسعة أشهر ١١

وننتهى من هذا الى أن علماء السيرة النبوية مختلفون فى تعيين اليوم الذى كان فيه الاسراء ، ولكن الواقعة ثابتة . وقد اتفقوا على أنها كانت بعد ذهاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الطائف ، وردهم له الرد المنكر ، وأن كونها فى ليلة السابع والعشرين من رجب ثبتت بخبر لم يصح سنده فى نظر الحافظ المحدث ابن كثير ، وقال من بعد ذكره : والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد وجدنا الناس قبلوا ذلك التاريخ ، أو تلقوه بالقبول ، وما يتلقاه الناس بالقبول ليس لنا أن نرده ، بل نقبله ، ولكن من غير قطع ومن غير جزم ويقين .



واتفقت الروايات أيضا على أن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة على الأقل ، ويظهر أنها كانت في السنة التي قبل الهجرة في ثلثها الأول أو الأخير والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومن سياق التاريخ ومناسبات الحوادث نرى أن الاسراء كان بعد انشقاق القمر .

٢٩٧ — وهنا قد يسأل السائل ما المناسبة لمسألة الاسراء والمعراج ، وتعيين الله تعالى لزمانها ، والله سبحانه وتعالى حكيم عليم ، يضع الأمور بموازينها وفي أوقاتها ، وأجلها المعلوم ، ولنا أن نتعرف حكمة الله تعالى من غير أن نقطع بأن هذا هو مراد الله تعالى ، فهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة في السماء أو في الأرض .

ونجيب عن هذا التساؤل بما قررنا ، وهو أن الله سبحانه وتعالى استجاب لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم في ضراسته بالدعاء الذي دعا ربه غيب خروجه من الطائف ، شكوا ضعف قوته ، فأمدده الله تعالى بالقوة ، وقلة الحيلة فأمدده بحسن التدبير لدخول مكة المكرمة أمنا مطمئنا ، وأيده بأية حسية من نوع ما يطلبون ، وإذا كانوا لم يستجيبوا لداعى الله تعالى ، فلأن المعاند لا يقنعه الدليل ، ولو كان حسيا ، فقالوا سحرنا ، مع أن انشقاق القمر رآته الركبان في أسفارها ، ثم كان من بعد ذلك الأنس بلقاء الله تعالى في المعراج ، سواء أقلنا أن لقاءه بالله تعالى ، كان بالروح في الرؤيا ، أم كان بما هو أكثر من الرؤيا (١) ٩٠

لقد أحس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشة بعد وفاة الحبيبين ، خديجة العطوف ، وأبو طالب الشفيق . فقال الله تعالى له بالفعل أنس الله أكبر ، ورحمته أعظم ، وحياطته أكرم ، وأن عنايته بك وبرسالتك هي التي ستبلغك أمرك ، وتحقق لك شأوك ، وتصل بك الى غايتك ، وهو المهيم الرءوف الرحيم ، لذلك كان الاسراء ، ومن بعده عروجه الى السماء .

٢٩٨ — والآن ننتقل الى الآيات الكريمة التي صرحت بالاسراء ، ثم كانت الإشارة الواضحة الى المعراج ، قال الله تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من

(١) السيرة العطرة للأستاذ عبد العزيز خير الدين ، ونهاية الأرب ج ١٦ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

آياتنا • انه هو السميع البصير » • ففى هذا النص الاسراء صريحا ، وكانت  
الاشارة الى المعراج بقوله تعالى : « لفرية من آياتنا » •

وقال الله تعالى : « واذا قلنا لك : ان ربك أحاط بالناس ، وما جعلنا الرؤيا  
التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ، ونخوفهم فما  
يزيدهم الا طغيانا كبيرا » فقد ذكر المفسرون أن الرؤيا هى المعراج •

وقال الله تعالى فى سورة النجم : « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم  
وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ،  
ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو  
أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب المقوّد ما رأى ، أفتمارونه على  
ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى  
السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » •  
ولقد قرر المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى المعراج ، وان ذلك لواضح ، واذا  
كانت العبارات السابقة لم تصرح بالعروج الى السموات العلاء فان الاشارات  
واضحة تكاد تكون صريحا ، والاشارات الواضحة فى قوة الدلالة تكون  
كالألفاظ الصريحة •

وقد قال بعض علماء السيرة ان الاسراء بالنبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم ابتداء من شعب أبى طالب ، وان كان السند فى ذلك صحيحا ، فانه يشير  
الى أن أبا طالب قد مات ، وأن مهمته قد انتهت ، وأن الله تعالى وهو الباقي  
الدائم • الأول والآخر والظاهر والباطن به تكون النصرة الدائمة المتجددة فى  
الشدائد — ولكن الثابت فى البخارى أنه ابتداء من الحطيم بالمسجد الحرام •

### الاسراء بالجسم :

٢٩٩ — ان ظاهر الآية القرآنية التى أثبتت الاسراء وهى قوله تعالى :  
« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام » أن الاسراء كان بالجسد  
والروح ، وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال أسرى بعبده ، والعبد هو الروح  
والجسد ، ومادام الظاهر لا دليل يناقضه من عقل أو نقل ، فانه يجب الأخذ به ،  
فانه من المقررات أن الألفاظ تفسر بظاهرها الا اذا لم يمكن حملها على الظاهر  
لمعارض ، ولا معارض •

وفوق ذلك فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أعلن خبر الاسراء بين قريش ففتن بعض الذين أسلموا وارتد من ارتد ، ويقول فى ذلك ابن كثير فيما رواه عن قتادة « انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة المكرمة ، فأصبح يخبر قريشا بذلك ، فذكر أنه كذبه أكثر الناس • وارتدت طائفة بعد اسلامها ، وبادر الصديق الى التصديق ، وذكر أن الصديق سألته عن صفة بيت المقدس ، وقال انى لأصدقته فى خبر السماء بكرة وعشيا ، أفلا أصدقته فى بيت المقدس ، فيومئذ سمي أبو بكر الصديق •

وانه روى أنه عند مروره صلى الله تعالى عليه وسلم على غير لقريش فند بعير لهم نافرا ، فأرشدتهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكانه ، وقد أخبروا أهل مكة المكرمة بذلك (١) •

وانه روى أن أهل مكة المكرمة الذين ردوا القول استوصفوه عيرا لهم فوصفها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى اخبارهم ، والاستدلال على صدقه : « وآية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بواذى كذا وكذا ، فأنفرهم حسن الدابة (٢) فندلهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا متوجه الى الشام ، ثم أقبلت ، حتى اذا كنت بصحنان مررت بعير بنى فلان • فوجدت القوم نياما ، ولهم اناء فيه ماء ، قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه ، وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم (٣) البيضاء يقدمهم جبل أورق عليه غرارتان ، احدهما سوداء ، والأخرى برقاء ، فابتدر القوم الثنية • وسألوه عن الاناء وعن العير فأخبروهم ، كما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وان هذا كله يدل على أن الاسراء كان بالروح والجسد ، فانه تلاقى مع المارين بين مكة المكرمة والشام وأخبر عن التلاقى ، وصدق خبره عليه الصلاة والسلام ، واذا كانت بعض هذه الروايات فى اسنادها كلام ، فان بعضها يقوى الآخر ، ونص القرآن الكريم ظاهر فى تأييد الدعوى ، بل لا يدل على غيرها حتى يقوم الدليل •

ولو كان الاسراء بالروح أو الرؤيا الصادقة ما كانت ثمة غرابة تمنع التصديق ، ولبادر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باخبارهم الى أن ذلك رؤيا فى المنام ، أو هذا وحى أوحى به اليه •

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢٤٤ •

(٢) هى البراق الذى سنذكر الروايات عنه من بعد •

(٣) هو مكان •

ولقد كان بجوار هذا القول الذى تنطق به الآية الكريمة قول آخر ،  
روى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها الصديق  
رضى الله عنه وروى أيضا عن معاوية بن أبى سفيان ، وقد كان أبان ذلك هو  
وأبوه من المكذبين الذين يناوئون الدعوة ، ولكن لعله نقل عن غيره ممن  
شاهدوا ، وعاینوا ، كما نقلت عائشة عن غيرها ، وما كانت فى ذلك إلا بان  
قد زفت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد كان معاوية مسلما من بعد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن  
أبيها الصديق ، واحتج بقول عائشة هذا ، وقد أثر عن النبى صلى الله تعالى  
عليه وسلم أنه أمر بأن يؤخذ الدين عن عائشة .

ولكن الخبر عنها يحمل فى نفسه ما يوهم عدم صدقه عنها ، ففيه :  
أنها قالت : « لم تفقد بدنه » وأن ذلك يوهم أنها كانت معه فى مبيت واحد ،  
مع اجماع المؤرخين والمحدثين على أنه لم يبين بها الا فى المدينة .

وقد استدل أصحاب هذا القول بما روى الحسن البصرى عن أن قول  
الله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك الا فتنة للناس » وقالوا ان الرؤيا  
هى ما كان فى ليلة المعراج ، والرؤيا هى ما يكون فى المنام ، كما حكى عن  
سيدنا يعقوب : أنه قال لابنه يوسف بعد أن قص عليه ما رآه فى المنام :  
« لا تقصص رؤياك على اخوتك » .

وجاء فى كتاب البصائر للفيروزباده : « الرؤيا ما رأيته فى منامك ،  
والجمع رؤى كهدي ، وقد تخفف الهمزة من الرؤيا ، فيقال بالواو » (١) وهذا  
وغيره نصوص صريحة فى أن الرؤيا منامية .

ولكن أهى كانت فى الاسراء أم كانت فى المعراج ؟ ان رواية الحسن  
رضى الله عنه تقول : هى ما كان فى ليلة المعراج ، نعم ان الليلة كانت واحدة ،  
ولكن النص على ليلة المعراج يدل على أن كلام الحسن ومن معه فى المعراج  
لا فى الاسراء .

ويستدل أصحاب هذا القول ، وهو أن الاسراء كان بالروح بحديث  
البخارى عن أنس بن مالك قال : ليلة أسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٣ ص ١٧٧ .

وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبيل أن يوحى إليه ، وهو نائم فى المسجد الحرام . فقال أولهم أيهم هو ، قال أوسطهم هذا ، وهو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم . فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ، ولم يكلموه حتى احتملوا فوضعوه عند زمزم ، فتولاه منهم جبريل . . . . . والحديث طويل وقال فى آخره واستيقظ وهو فى المسجد الحرام ، ويرى صاحب الروض الأنف أنه نص لا إشكال فيه .

ونرى أن فيه اشكالا ، لأنه نص فيه على أنه كان قبل أن يوحى إليه ، ونرى أنه لم يتعرض لذكر الاسراء والمعراج ، ولعلها كانت اذا صحت الرواية فى موضوع آخر .

ويرى صاحب الروض الأنف أن الأدلة قد تعارضت بالنسبة للاسراء وأنه يوفق بينها بأن الاسراء كان مرتين : احدهما بالروح والاخرى بالجسد والروح .

ونحن نرى أن الأدلة لم تتعارض ، بل الأدلة على أن الاسراء كان بالجسد والروح هى التى لا ريب فيها ، ولا يمكن أن يعارض الضعيف القوى .

ولذا نرى أن الاسراء كان بالجسد والروح ، ولا نجد فيما استدل به ما يدل على أنه كان بالروح فقط ، وأن الآية : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس » لا نرى أن موضوعها هو الاسراء ، بل ان موضوعها هو المعراج .

ولا غرابة فى أن ينقل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة الى بيت المقدس وأن يعود به فى ليلة واحدة ، فان هذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى ، لأن المسافات فى الزمان والمكان ، انما هى بالنسبة للعبيد ، ولا تكون قط بالنسبة لله سبحانه وتعالى وهو القادر على كل شئ ، وهو خالق الأماكن والازمان .

### المعراج بالروح :

• ٣ — ان الأكثرين من العلماء على أن المعراج كالاسراء كان بالجسد والروح ، وأخذوا ذلك من ظواهر الأحاديث الصحيحة التى روتها السنة ، ففيها التصريح بأنه لقي آدم فى سماء ، وإبراهيم فى مثله ، وأدريس وعيسى ويحيى وموسى ، وهذه الظواهر أثروا الأخذ بها .

ولكن أولئك الأكثرين وقفوا عند رؤية الله سبحانه وتعالى ، فقال فريق منهم أنه رأى ربه وخاطبه ، وكان ذلك تكريما له لمخاطبة الله سبحانه وتعالى اختص به محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما وتقريبا له ، وهو فوق المذكور فى قول الله سبحانه وتعالى : « وما كان ليشأن أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب » أو يرسل رسولا « وليس من هذه الثلاثة رؤية الله سبحانه وتعالى ، وتلقى الرسول منه مباشرة من غير حجاب » .

وقد رأى ذلك الرأى الامام أحمد بن حنبل وقاله أيضا أبو الحسن الأشعري وقالت طائفة أخرى لم يقع ذلك لحديث مسلم عن أبي ذر رضى الله تبارك وتعالى عنه : « قلت يا رسول الله هل رأيت ربك ، فقال عليه الصلاة والسلام انه نور أنى أراه ، وفى رواية رأيت نورا » .

والذين قالوا ان الاسراء كان بالروح وفى رؤيا صادقة قالوا ذلك فى المعراج ، بل هو أولى ، فالرحلة كلها كانت رؤيا صادقة ، وقد بينا القول فى أدلة هذا الرأى بالنسبة للاسراء من قول .

وقد انضم اليهم غيرهم ممن يرون أن الاسراء كان بالجسد والروح ، فمنهم من قال ان المعراج كان بالروح وليس فى الموضوع نص قرأنى يدل بظاهره على أنه كان بالجسد والروح ، حتى لا يكون مناص من اتباعه أو تأويله ، بل نجد اللفاظ تقبل أن يكون المعراج بالروح ، وبالظاهر المتبادر ، لا بالتأويل المنتزع انتزاعا .

ولننظر فى الآيات الكريمات الدالة على المعراج :

دلالة آية الاسراء على المعراج بالاشارة لا بالعبرة ، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى « لنريه من آياتنا » فتلك الآيات التى أراها الله عبده هى المعراج وامامة الأنبياء السابقين .

والآيات الأخرى التى دلت على المعراج ، كانت الفاظها لا تدل على المعراج إلا بالاشارات البيانية ، ولننظر فيها عبارة عبارة ، وكلها من السمو البيانى فى المكان الأعزل الذى لا يصل اليه بيان قط .

« علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى » فقد قالوا انه جبريل عليه السلام ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى ، فتعليمه لا يكون بالتلقين بل يكون بالارشاد والايحاء .

وقوله سبحانه وتعالى : « وهو بالافق الأعلى » يراد جبريل عليه السلام « ثم دنا فتدلى » أى نزل وقرب من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « فأوحى الى عبده ما أوحى » عن طريق جبريل ، « ولقد رآه نزلة أخرى » وهو جبريل أيضا وقوله سبحانه وتعالى « ما كذب الفؤاد ما رأى » تومىء الى أن الآيات الكبرى التى رآها كانت بفؤاده لا ببصره ، وقوله سبحانه وتعالى : « ما زأغ البصر وما طغى » أى ما كل وما تجاوز حده ، والنفى فيه ما قد يكون لأنه لم تكن رؤية بالبصر . حتى يكل المبصر أو يتجاوز حده ، وقد يكون لبيان أن البصر لم يتجاوز حده ليطنى ، ويحاول أن يرى ما لا يمكن أن يراه ، ويزيع بأن يكل ويميل ، ويلقى فى النفس ما لم ير .

واننا عند هذا النظر الفاحص ننتهى الى أن الاسراء اذا كان بالجسد والروح ، فإن المعراج كان بالروح فقط ، وأنه كان رؤيا صادقة ، وقد اتجهنا الى ترجيح ذلك لما يأتى :

(أ) أنه ذكر فى المعراج أنه التقى بالأنبياء آدم وإبراهيم وموسى ويحيى ، وغيرهم ، والباقي منهم هو أرواحهم ، وأجسامهم سيبعثها الله تعالى يوم البعث والنشور ، وفرض أنه بعثها ثم أفناها فرض بعيد لم يذكر فى حديث من الأحاديث ، ولا خبر من الأخبار ، ولو ضعيفا ، وكل فرض فى أمر غيبى لادليل عليه من المنقول فهو رد على قائله الا أن يكون أمرا يؤدى اليه البرهان العقلى ، ولا يوجد شيء لا من المنقول ولا المعقول يقرر اعادة أجسام الأنبياء الكرام أحياء ، ثم اعادتها الى الفناء .

(ب) ان العبارات القرآنية الكريمة الواردة فى المعراج تومىء بل تصرح بأن الأمر فى هذه الرحلة السماوية كان روحيا وأن الإدراك لم يكن بالحس ، بل كان بالقلب والفؤاد ، فالله تعالى يقول : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ، أفتمارونه على ما يرى » فالحديث القرآنى كله كان فى اثبات رؤية الفؤاد ، وأنه لاتجوز الممارسة فيما رأى الفؤاد الذى لا يكذب ، وذلك لا يتحقق الا بأن تكون الرؤية روحية ، لأن رؤية القلب لا تكون الا روحية ، وأنه عندما ذكرت حاسة البصر ذكرت بالنفى ، لا بالايجاب ، وقد بينا مؤدى النفى فى هذا .

(ج) أن أخبار المعراج تصرح بأنه رأى ربه ، والرؤية القلبية ممكنة باستحضار عظمته ، وبالسبحات الروحية المتجهة الى الله سبحانه وتعالى وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه لم ير ربه فى حديث أبى ذر الغفارى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام فى اجابة سؤال الصحابى الجليل أبى ذر : « أنه نور ، فأنى أراه » .

واننا لا نتعرض فى ذلك لكون رؤية الله تعالى يوم القيامة ممكنة ، أو غير ممكنة ، فذلك يوم القيامة بعد البعث والنشور ، وذهاب أهل الجنة اليها ، وإبقاء أهل النار فيها ، فان الكلام فيها غير الكلام فى الدنيا ، ونحن نحس ونرى ، فان كانت رؤية الله تعالى الآن فهى بالعين الفانية ، ورؤية أهل الجنة عند من يثبتونها تكون بالعين الباقية ، والله أعلم كيف يرى \*

وننتهى من هذا الى تقرير حقيقتين نراهما :

الأولى : أن الاسراء كان بالجسد والروح بظواهر النصوص المثبتة ، ولا معارض لها \*

الثانية : أن المعراج كان بالروح فقط لعدم وجود الأدلة المثبتة أنه كان بالجسد والروح من القرآن الكريم ، ولوجود المعارض من النقل والفعل \*

والآن نعود الى قصة الاسراء والمعراج كما هى فى الصحاح على أن نفس الألفاظ على ضوء هاتين الحقيقتين اللتين قررناهما \*

## الاسراء والمعراج فى صحاح السنة

٣٠١ — كان من الممكن أن نقف بالنسبة للاسراء والمعراج عند هذا الذى قررناه ، ولكن يجب أن نستأنس بالمنقول عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على أساس أن كل ما ذكر فى المعراج أنه بالروح \*

وقد رويت روايات مختلفة تتعلق بواقعة الاسراء ثم العروج ، نختار منها رواية البخارى \*

روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال :

« بينما أنا فى الحطيم ، وربما قال فى الحجر — مضجعا إذ أتانى آت ، وسمعتة يقول : فشق ما بين هذه الى هذه ، فقلت ( أى الرواى ) للجارود وهو الى جنبى ماذا يعنى به ، قال من نقرة شعره الى شعرته ، وسمعتة يقول من قصه الى شعرته \* فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطشت من ذهب مملوء ايماناً فغسل قلبى ، ثم حشى ، ثم أعيد \* \* \* ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، فقال الجارود ، وهو البراق : قال أنس نعم \* يضع خطوة عند أقصى



طرفه ، فحملت عليه ، فانطلق بى جبرائيل ، حتى أتى السماء الدنيا ، فاستفتح قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ! قال محمد قيل أوقد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قيل مرحبا به • فنعم المجيء جاء • ففتح ، فلما خلصت فاذا آدم ، فقال هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام فقال مرحبا بالابن الصالح ، والنبى الصالح ، ثم صعد بى الى السماء الثانية ، فاستفتح ، قيل من هذا قال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء • ففتح ، فلما خلصت ، اذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت عليهما فردا ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح •

ثم صعد بى الى السماء الثالثة • فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل • قال ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه ! قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت اذا يوسف • قال هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح •

ثم صعد بى الى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت اذا ادريس ، قيل فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا ، بالأخ الصالح والنبى الصالح •

ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل ، قيل ومن معك قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه ! قال نعم ، قيل مرحبا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا بهارون ، قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح ، والنبى الصالح • ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة ، فاستفتح ، فقيل من هذا ؟ قال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد • قيل أوقد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا موسى ، قال هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، فلما تجاوزت بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال أبكى ، لأن غلاما ما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن دخلها من امتى •

ثم صعد بى الى السماء السابعة ، فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل • قيل ومن معك ؟ قال محمد • قيل أوقد بعث اليه ؟ قال نعم • قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت ، اذا ابراهيم قال هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ، ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح •

ثم رفعت الى سسدره المنتهى ، واذا أربعة أنهار ، نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فقلت ما هذا يا جبرائيل ؟ قال أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران ، فالنيل والفرات ، ثم رفع لى البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أتيت باناء من خمر ، واناء من لبن ، واناء من عسل ، فأخذت اللبن قال هى الفطرة التى أتيت عليها وأمتك ٠

ثم فرض على الصلوات خمسون صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى ، فقال بم أمرت ؟ قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإنى والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك ، فسله التخفيف لأمتك فرجعت ، فوضع عنى عشرة ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنى عشرة ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، وبعث الى موسى ، فقال بم أمرت ، فقلت بخمس صلوات كل يوم ٠ قال أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإنى قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك فسله التخفيف لأمتك ، قال سألت ربي حتى أستحييت ، ولكنى أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت نادانى مناد : أمضيت فرضيت وخففت عن عبادى ٠ »

وفى رواية البخارى فى كتاب التوحيد أنه بعد أن راجع ربه بمشورة موسى عليه الصلاة والسلام ، وجاء فى مراجعة الخامسة أنه قال لربه : « يا رب ان أمتى ضعفاء وأجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأذانهم ، فخفف عنا ، فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد ، قال لبيك وسعديك ٠ قال انه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب قال لكل حسنة بعشر أمثالها ٠ فهى خمسون فى أم الكتاب هى خمس عليك » (١) ٠

وانه من المتفق عليه بين العلماء أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أم الأنبياء أجمعين ، وعلى مقتضى الذين قالوا ان الاسراء كان بالروح تكون الامامة روحية ثبتت بالرؤيا الصالحة ، وكذلك يرى الذين قالوا ان المعراج كان روحيا ٠

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ والتفسير لابن كثير أول سورة الاسراء ٠

ولكن من الرواة ما يدل سياق روايته على أن صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالأنبياء اماما كان عند مقدمه الى المسجد الأقصى ، ومن الرواة ما يدل سياق الرواية على أن الامامة كانت وهو يعرج الى السموات العللا .

واختار ابن كثير فى تاريخه أن امامته عليه الصلاة والسلام للأنبياء كانت بعد أن نزل من العروج ، ويقول فى ذلك .

« وهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ، والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريما له وتعظيما ، عند رجوعه من الحضرة الالهية العظيمة ، كما هى عادة الوافدين ، لا يجتمعون بأحد قبل الذين طلبوه اليه ، ولهذا كان كلما سأل على واحد منهم يقول له جبريل : هذا فلان فسلم عليه ، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده ما احتاج الى تعرفه بهم مرة ثانية ، ومما يدل على ذلك أنه قال عليه الصلاة والسلام « فلما حانت الصلاة أمتهم ، ولم يجيء وقت ان ذلك الا صلاة الفجر ، فتقدمهم اماما بهم عن امر جبريل فيما يرويه عن ربه عز وجل » (١) .

وان هذا الكلام يدل على أن امامة النبي صلى الله عليه وسلم للأنبياء كانت بعد أن تنزل من الأفق الأعلى ، وان المعراج كما انتهينا كان بالروح ، وكانت رؤيا صادقة .

هذه قصة الاسراء والمعراج ، كما نص عليها فى القرآن الكريم ، وكما جاءت بها السنة الصحيحة ، وقد ذكرناها بشيء من الاطناب ، لكثرة الكلام حولها ، واختلاف الروايات ، فكان لابد من أن نوصى القول فيها . وخصوصا أنها وانشقاق القمر أعظم خوارق العادات الحسية التى كانت فى حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومع ذلك لم يتحد بها كما تحدى بالقرآن الكريم لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انما تحدى بما يتناسب خلود شريعته ، ودوام رسالته وهو ما يبقى مخاطبا الأجيال كلها الى يوم الدين ، وهو القرآن الكريم .

## انتشار الاسلام فى البلاد العربية

٢٠٣ — اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة المكرمة الوحى ، ومنزل الدعوة الاسلامية الأولى ، لأنها مطمح أنظار العرب ، ولأنها مثابة الناس وأمنهم ، فهي تعد مصدر المعرفة العربية على قدر ما عند العرب ، وبها حج بيت الله الحرام ، وبها ملتقى العرب فى موسمه ، وبها أسواق الأدب ، والمتاع ، وفى موسم الحج يلتقى العرب من كل فج عميق ، وفى الأسواق التى تقام فى الموسم يتبارى الشعراء والخطباء فى عكاظ ، وذى مجاز ومجنة .

وإذا كانت مكة المكرمة لها تلك المكانة فى بلاد العرب ، فإن كل ما يكون فيها من أحداث تنتقل أخباره الى بلاد العرب ، فإذا كانت الأحداث منها رسالة رسول يدعو الى هدم الأوثان وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، فإنه لابد أن يسير بخبرها الركبان .

ومن العرب من لا يعيرها اهتماما ، ومنهم من يلتفت اليها ، ويهتم لها ، معاندا مع العاندين ، أو طالبا للحق ، فبيتيه .

وكذلك كان الأمر ، فإن أخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ودعوته الى الحق ، والى صراط مستقيم كانت تتجاوب أصدائها فى البلاد العربية ، ومن العرب من كان يجيء الى مكة المكرمة متعرفا أمر ذلك الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومنهم من يرسل اليه من يتعرف دعوته ، ويدرسها ، كما فعل أكتثم بن صيفى حكيم العرب ، ان أرسل بنيه الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما يدعو اليه ، فلما حضروا وسألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : تلا عليهم قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . قال : انه ان لم يكن ديننا فهو خلق الناس أمر حسن ، يا بنى كونوا فى هذا الأمر أولا ، ولا تكونوا آخرا .

وقد أسلم أبو ذر الغفارى بهذا العلم العام الذى شهرت به دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكذلك أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو ، فقد أسلم ان جاءه الخبر بدعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان رجلا شريفا شاكرا ، وقد

حضر الى مكة المكرمة ليتعرف خبره وما يدعو اليه ، ولنتركه يقص علينا قصة ايمانه ، ان يحدث أنه قدم مكة المكرمة ، فمشى اليه رجال من قريش فقالوا : يا طفيل انك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل بنا ( أى ظلمنا ) وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وانما قوله سحر ، يفرق بين الرجل وبين بنيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وانما يخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

ويقول الطفيل : « فوالله ما زالوا حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت فى أذنى حين غدوت الى المسجد كرسفا خوفا من أن يبلغنى شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . فغدوت الى المسجد . فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة الشريفة ، فقامت منه قريبا . فأبى الله تعالى إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا . فقلت فى نفسى : وأثكل أمى ، والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته .

لما انصرف النبى عليه الصلاة والسلام من صلاته الى بيته تبعه الطفيل وقد مال الى الاسلام فدخل على النبى عليه الصلاة والسلام وقال له :

« يا محمد ، ان قومك قد قالوا كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سدوت أذنى بكسوف لئلا أسمع ، ثم أبى الله تعالى إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعتة قولاً حسناً فأعرض على أمرك . قال فعرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلا على القرآن الكريم ، فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رسول الله : انى امرؤ مطاع فى قومه ، وأنا راجع اليهم وداعيتهم الى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما ادعواهم اليه .

عاد طفيل الى قومه يدعوهم الى الاسلام الذى أنبعث نوره من مكة المكرمة ، زاد الله البيت الحرام تكريماً وتعظيماً » .

**وقد نصارى نجران :**

٣٠٣ — وممن أسلموا عندما علموا دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وفد نجران وهم عشرون رجلاً ، أو قريب من ذلك من النصارى ، عندما

علموا أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الحبشة ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فهو يقول :

قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بمكة المكرمة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى انديتهم حول الكعبة الشريفة . فلما فرغوا من مسائلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن الكريم ، فلما سمعوا القرآن الكريم فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره .

لما قاموا عنه مؤمنين اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا قولا اثما ، قالوا لهم : خبيكم الله من ركب ، بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتدون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبا أحقق منكم ، أو كما قالوا « فقالوا لهم سلام عليكم لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نال أنفسنا خيرا » .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى خبر هؤلاء فى القرآن الكريم مبينا له بالاشارة فى وصف عام لبعض أهل الكتاب ، فقال الله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، أنه الحق من ربنا ، انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ، انك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، ونحن أعلم بالْمُهْتَدِينَ » .

وقد رجح الأكثر أن هذه الآيات نزلت فى نصارى نجران الذين ذكرنا لك الخبر عنهم ، ولم تكن الآيات فى النجاشى وأتباعه ، ويقول ابن اسحاق ان الذى نزل فى النجاشى وأصحابه من النصارى هو ما جاء فى سورة المائدة ، ان يقول الله سبحانه وتعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة الذين آمنوا اليهود والمذنبين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وانهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدفع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكذبنا مع

المشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فاتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » •

## عرض الرسول عليه الصلاة والسلام

### نفسه على القبائل

٤ • ٣ — يؤس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يؤمن قومه في هذا الوقت ، ورحمة الله تعالى قد تحملهم على الايمان ، ولكن بعد أدوار من الزمان والأحوال ، فإذا كان قد يؤس من ايمانهم في ذلك الايمان ، فهو لم يئأس من ايمانهم بعد تعاقب الأحداث ، لأن الله تعالى لم يقل له ، كما قال لنوح عليه السلام : « انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن » •

وإذا كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد من قومه الا الأذى في هذه الجولة ، فإنه وجد في بعض الذين يفدون الى الحج ، أو يفدون اليه من يجد قول الحق الى قلوبهم سبيلا ، وقد رأينا كيف كان نور الاسلام ينبعث خارج مكة المكرمة فيجىء آحاد من القبائل العربية ، ويستمعون القرآن الكريم ، وهم ممن يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فإذا تلى عليهم القرآن الكريم خروا لله ساجدين ، ثم يدعون من بعد أقوامهم •

وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتقدم الى القبائل في موسم الحج يدعوهم في منازلهم التي ينزلونها في منى يذهب اليهم ، قبيلة قبيلة ، يدعوهم الى الحق ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ، وقد أحست قريش بذلك ، فأنبرى الذين يلجون في عداوة الحق ليصدوا عن سبيل الله ، وعلى رأسهم أبو جهل ، وأبو لهب ، فكانا يتحريان أن يتبعها ، وأن يدعو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله تعالى بقوله : « ياأيها الناس ، قولوا لا اله الا الله تفلحوا » يتصدى أبو جهل أو أبو لهب ، وهما يتناويان ، فيقول : « يابنى فلان ، ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلكوا اللات والعزى من أعناقكم ، الى ما جاء من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه » •

وهكذا كانت الدعوة المحمدية تأخذ طريقها ، والذين يصدون عن سبيل الله يدعثرونها ، ولكن نور الحق لا تطفئه الضلالة ، ولا تغمى عنه الأبصار ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم دائب على الدعوة ، اتبعوه أو فارقوه ، وربما

«وجد غفلة عن اتباعه ، فانتهزها ، ومهما يكن مقدار الاستجابة ، فان اعلام الناس بعقيدة التوحيد ينبيه الأذهان الى التفكير فى الأوثان ، ومجرد التفكير فيها يحبطها .»

ولقد روى عن ابن شهاب الزهري أنه قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ، ويخاطب أشرانهم ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مع ذلك الا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول « لاأكره أحدا على شيء ، من رضى منكم بالذى أدعو اليه ، فذلك ، ومن كرهه ، لم أكرهه ، انما أريد أن تحرزونى ( أى تمنعونى ) فيما يراد لى من القتل ، حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله تعالى لى ، ولن صحبتنى بما شاء » .»

ونرى من هذا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم بالحكمة ، فهو يأتيهم من قبل ما شهر عن العرب بحبهم للنجدة ، ولا يأتيهم ابتداء بمحاربة تدينهم ، كما قال الله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » .»

وكان أكثر الجماعات لا يحبون دعوة الحق ، ومنهم من يحسن الرد ، ومنهم من كان يقول : الحق بقومك ، ولكن بعض الآحاد كانت تصفى أفئدتهم ، وان لم يستطع الكثيرون أن يخرجوا من ربة ما هم عليه دفعة واحدة .»

### جماعات تقبل الموحداية :

٣٠٥ — ومع الصدود من الجماعات ، والصد من بعض الآحاد ، والميل من آخر كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ماشيا فى الاتجاه الى القبائل فى موسم الحج ، وهو يتوسم الناس ، ويتعرف الوجوه والأشراف ومعه أبو بكر الصديق ، وهو من أعلم الناس بأحوال العرب .»

وكان بجوار القبائل التى أعرضت ، كانت جماعات قد أقبلت على الاستماع ، وبدأت منها الاستجابة ، حتى كانت قبيلتا الأوس والخزرج ، على ما سنبيين ، ولندكر لك خبرا عن بعض الجماعات التى مالت ابتداء ، قبل اللقاء : بأهل يثرب ، وسنجد فى كلامهم مجاوبة تدل على قدرتهم على المتعة ، وقوة تفكيرهم .»

روى أبو نعيم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صحب فى إحدى مرات عرضه نفسه الكريمة على القبائل على بن أبى طالب وأبا بكر رضى الله تعالى



عنهما ، وكان بين أبي بكر ، وبين قبيلة من شيبان بن ثعلبة صلة ومودة ، ثم جرى بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حديث طويل :

قال أبو بكر مخاطبا القوم : ممن القوم : قالوا من بنى شيبان بن ثعلبة •

فالتفت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال بأبى أنت وأمى ، ليس بعد هؤلاء من عز فى قومهم ، وهؤلاء غرر فى قومهم ، وغرر الناس ، وكان فى القوم مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة ؛ والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان أقرب الناس الى أبى بكر مجلسا مفروق بن عمرو . وكان قد غلب عليهم بيانا ولسانا فقال له أبو بكر كيف العدد فيكم •

فقال له مفروق بن عمرو ، انا لنزيد على ألف ، ولن تغلب من قلة •

فقال له أبو بكر : فكيف المنعة فيكم •

فقال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جد •

فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم •

فقال مفروق : انا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وانا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يدينا مرة ويديل علينا ، لعلك أخو قريش ( أى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ) مخاطبا له •

فقال أبو بكر ان كان قد بلغكم أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
فها هو ذا •

فقال مفروق بلغنا أنه يقول ذلك ، ثم التفت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وقام أبو بكر يظله ثوبه • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

أدعوكم الى شهادة ألا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله . وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله تعالى الذى أمرنى به ، فان قريشا تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد •

فقال مفروق : والى ما تدعو أيضا يا أخا قريش •

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبإلوالدين أحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من أملق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به ، لعلمكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتم هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا الا وسعها ، وإذا قتلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلمكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلمكم تتقون » .

فقال مفروق ، والى من تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان كلامهم لعرفناه .

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذئ القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلمكم تذكرون » .

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ولقد أساء قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام هانىء بن قبيصة ، فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هانىء : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وصدقت قولك . وانى أرى أن تركنا ديننا ، واتبعناك على دينك لمجلس جلسته الينا . . لم نتفكر فى أمرك ، وننظر فى عاقبة ما تدعو اليه - زلة فى الرأى ، وطيشة فى العقل ، وقلة نظر فى العاقبة ، وانما تكون المذلة فى العجلة ، وأن من ورائنا قوما نكره أن نعتد عليهم عقدا ، ولكن نرجع وترجع ، وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة ، فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنى ! قد سمعت مقالتك ، واستحسننت قولك يا أخا قريش ، وأعجبنى ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة وتركنا ديننا . واتباعنا إياك لمجلس جلسته الينا ، وأنا انما نزلنا بين حيزين : أحدهما اليمامة ، والآخر السماوة .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما هذان الحيزان .

فقال له المثنى : أما أحدهما فطفوف البر ، وأرض العرب ، وأما الآخر

فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى : لا تحدث صوتا ولا تؤوى محدثا ، ولعل الأمر الذى تدعوننا إليه مما يكرهه الملوك . فأما ما كان مما يلى العرب ، فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وأما ما كان يلى بلاد فارس ، فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول : فإن أردت أن تنصرف ونمنعك مما يلى العرب فعلنا .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أسأتم الرد ، إذ أفصحتم بالصدق ، انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه .

ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مخاطبا لهم : « أرايتم ، ان لم تلبثوا ، الا يسيرا ، حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ، ويغريكم بنابهم أتسبحون الله وتقدسونه ؟

فقال النعمان بن شريك : « اللهم ان ذلك لك يا أخا قریش » .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا » ثم نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابضا على يدي أبى بكر .

ويقول ابن كثير فى البداية والنهاية بعد أن ساق الخبر . هذا حديث غريب جدا ، كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ، ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم ، وفصاحة العرب « (١) » .

وفى الخبر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تنبأ لهم أنهم سينتصرون على فارس قريبا ، وقد انتصروا فعلا ، وأعلن ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال لأصحابه : « احمدا الله كثيرا ، فقد ظفر أبناء ربيعة بأهل فارس » وأن هذا الخبر الطويل يدل على أمور :

(أ) منها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دائما على بث الدعوة بين القبائل فى موسم الحج ، سواء أكانوا من القبائل المتاخمة لفارس ، أم المتاخمة للروم فى الشام ، وأنه كان يلقى تأييدا على حسب البعد .

(ب) ومنها - أنه كما كان يلقى صدودا ، كان يلقى أيضا حسن تفهم ، وإن كان ثمة تمرد ، ومنشؤه أنهم لا يريدون أن يتركوا ما هم عليه ليغيروا بمجرد مجلس .

ومنها — أن المنافسة وحب السيطرة بالشرف ، هي التي أضلت قريشاً  
وحيث لا تكون منافسة يكون التدبر والتفكير .

ومنها تنبؤ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما يكون بأذن الله تعالى  
وعلمه .

## ما بين الروم والفرس :

٦ . ٣ — ولناسبة ما تنبأ به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من هزيمة  
الفرس في جوار البلاد العربية ، ووقوع الأمر كالنبا نذكر تنبأ القرآن الكريم  
المنزل من رب العالمين من غلبة الفرس للروم ، وأن الفرس سيغلبون من بعد  
في قول الله تعالى : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم  
سيغلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون  
بنصر الله » .

ولقد ذكر علماء السيرة والمؤرخون أن كسرى قائد الفرس الى قتال  
الروم ، فانتصروا عليهم ، وهم من عبدة النير ؛ فهم كعبدة الأوثان ، ويصدران  
عن ضلال واحد ، فكان المشركون يعتزون بهذا النصر ، أنهم لا محالة  
سينتصرون على المسلمين ، لأنهم أميون ، وليسوا أهل كتاب ، والمسلمون أهل  
كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، فكانت المفاخرة ممن يقاربونهم ، ويستطيّلون  
بهم للإيهام بأنهم سينتصرون على المسلمين ، فنزل قول الله تعالى : « ألم غلبت  
الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم » . الى آخر الآيات الكريّمات .

وقد قال بعض المشركين أن الروم لن يغلبوا ، وقال له أبو بكر الصديق  
سيغلبون في بضع سنين فتراها على عدد من الابل ، في تسع سنين ، ان انتصر  
الروم فيها خسر الشرك الرهان ، وان لم ينتصر الروم فيما كان أبو بكر عليه  
أن يدفع ما تراها عليه .

وقد انتصر الروم في هذه المدة ، فكان الرهان لأبى بكر ، ويظهر أن  
ذلك النصر كان بعد أن هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة .

والحافظ ابن كثير يذكر في هذه ذلك الخبر ، فيقول :

« المشهور أن كسرى غزاه ( أى هرقل ) بنفسه في بلاده ، فنهزه ، وكسره ،  
حتى لم يبق معه ( أى هرقل ) الا مدينة القسطنطينية ، فحاصرها كسرى مدة

طويلة ، حتى ضاقت عليه ٠٠ ولم يقدر على فتح البلد ٠ لحصانتها ، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم ( أى الروم ) الميرة من هنالك ٠٠ فلما طال الأمر ، دبر قيصر مكيدة فطلب من كسرى أن يقلع من يلاذه ، على مال يصلحه عليه ، ويشترط ما شاء فأجابته الى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب ، وجواهر ، وأقمشة ، وجوار ، وخدام ، وأصناف كثيرة ، فطاووعه قيصر ، وهمه أن عنده جميع ما طلب ؛ ٠٠٠ وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج الى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ٠

فخرج من القسطنطينية في جيش متوسط ٠٠٠ وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فذهب قيصر من فورهِ وسار مسرعا ، حتى انتهى الى بلاد فارس فعاث فيها فسادا وقتلا في رجالها ، ومن كان بها من المقاتلة وقد كان أكثرهم مع كسرى ٠٠ ولم يزل يقتل ، حتى انتهى الى المدائن ، وفيها كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها ، وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه ، وحلق رأس ولده ، وأركبه على حمار ، وبعث من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة ، وكتب الى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذ ٠٠٠٠

أصاب العمى كسرى ، واشتد حنقه على البلد ( القسطنطينية ) فجد في حصارهم فلم يقدر على شيء ٠

عاد كسرى الى بلده بعد أن حزب بمكيدة قيصر مكيدة بعد مكيدة ، وبذلك غلب الفرس في أدنى الأرض كما غلبوا الروم من قبل ، والله الأمر من قبل ومن بعد (١) ٠

وقد ذكر ذلك الخبر في هذا المقام ، لأن ذكره امتداد لما انتصر به بنو شيان على كسرى ، كما تنبأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولسنا مقحمين له في غير موضعه ، لأن وقائعها كانت قبل الهجرة ، وامتدت الى ما بعدها ، ولأنه إيدان بنصر الاسلام في فارس من بعد ٠

ولنعد بعد ذلك الى التقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان قبل الهجرة من تمهيد لها ٠

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٤ ، و ٤٢٥ ٠

## التقاؤه صلى الله عليه وسلم بالأوس والخزرج

٣٠٧ — أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل كما أسلفنا من القول ، وما علم فى موسم الحج أن ملأ من قبيل قد جاء الى مكة المكرمة الاعرض عليه الدعوة الاسلامية ، والى التوحيد ، والايمان بالله ، وبأنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الله وما علم بوجود كبير فى قومه يقول فيتبع الا عرض الاسلام عليه .

وقد التقى بكثيرين من شمال البلاد العربية وجنوبها ممن جاوروا الروم ، وممن جاوروا الفرس ، وعقب أن لقى من ربيعة التى تجاوز فارس من رأى فيهم من أشراف العرب من كان فيهم نخوة ، ومعرفة وإدراك الواجب التقى ببعض رجال من يثرب ، التقى أولاً بجماعات منهم ، ثم كان الاتفاق على التأييد والنصرة بعد الاتباع على الايمان ، وهدى من الله سبحانه وتعالى .

وكانت يثرب بأحوالها ، وما فيها الأرض التى تقبل الدعوة المحمدية ، ذلك لأن أهلها كان اليهود يحاربونهم ولم يكونوا معهم على وفاق . كشأن اليهود حيثما كانوا ، وأينما ثقفوا ، وكان أهل المدينة وثنيين ، واليهود أهل كتاب ، فكانوا يذكرون لهم أنه الآن نبي مبعوث ينصر اليهود على الوثنيين ، وكما قال الله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا يستفتحون على الذين كفروا » فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » وبذلك كانت بين أيديهم معرفة للنبوة ، وإدراك للبعثة المحمدية .

وفوق ذلك كان أهل يثرب ينتمون الى قبيلة الأوس والخزرج ، وكان الخلاف بينهم شديداً ، وكانوا يتقاتلون ، وربما كان خلافهم بعمل يهودى ، كشأنهم فى تفريق الجماعات ، والقاء بذور الفتنة فى أى مجتمع يعيشون فى ظله . فكان التناحر بين الأوس والخزرج قبيلتى يثرب مستمرة ، والحرب تقع من وقت لآخر ، وفيهم من يهيم بالاستئصال بقريش على الآخرين ، فكانوا فى حاجة أو نصرمة من الخارج ، ولتوالى التناحر ، وكانوا يرحبون بمن يؤلف بينهم ، فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو الجامع بينهم ، والله تعالى المؤلف بين قلوبهم ، كما قال الله تعالى : « وأذكروا ان كنتم أعداء ، فالف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » .

## ابتداء الاتصال بأهل يثرب :

٨٠٣ — ابتداء الاتصال بأهل يثرب من الأوس والخزرج بالآحاد ،  
ثم سار في طريق النمو ، حتى صار الاتصال بالجماعات ، ثم كانت البيعة ،  
وتكررت مرتين .

١ يروى ابن اسحاق أنه قدم سويد بن الصامت وهو من بنى عوف بمكة المكرمة  
حاجا ، وكان رجلا شريفا ، ونسبه رفيعا يسمى في قومه الكامل ، لجلده  
وشرفه ، وكان شاعرا وله صوت مسموع في قومه .

فتصدى له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين سمع به ، فالتقى به  
ودعاه الى الاسلام . فكانت بينهما مجاورة لأنه لم يكن أعرابيا ليس على علم ،  
بل كان على علم يمهد له العلم بالنبوءات .

دعاه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال سويد : فلعل الذي معك  
مثل الذي معي . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وما الذي معك ؟  
قال مجلة لقمان — يعني حكمة لقمان — فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه  
وسلم : أعرضها علي . فعرضها عليه ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم : « ان هذا الكلام حسن : والذي معي أفضل منه ، هذا قرآن أنزله الله  
تعالى على هدى ونور . ثم تلا صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن الكريم ،  
ودعاه الى الاسلام ، فلم يبعد منه وقال : ان هذا القول حسن . ثم انصرف  
عنه الى المدينة ، وقدم على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج . وكان قتله قبل  
واقعة بعاث التي كانت بين الأوس والخزرج .

ولقد كان رجال من قومه يقولون انا لنراه قتل مسلما ، وان مقدمات  
الاسلام كانت منه في لقائه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان قال في  
القرآن الكريم : « ان هذا القول حسن » وهذا يدل على أن قلبه قد فتح للإيمان ،  
وان كان وصف القرآن الكريم أعلى من ذلك ، ولقد جاء من بعد ذلك جماعات  
من الأوس على رأسهم أنس بن رافع ، يلتصقون الحلف من قريش على قومهم  
من الخزرج ، أي ليعقدوا حلفا مع قريش لينصروهم من الخزرج .

سمع بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأنهم ، فجلس اليهم ،  
فقال ، هل لكم في خير مما جئتم له ؟ قالوا : وما ذاك ؟ فقال لهم : « أنا رسول  
الله تعالى الى العباد ، أدعوهم الى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل  
على الكتاب ، ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن الكريم .

وكان فيهم شاب مدرك وهو اياس بن معاذ ، فقال لهم : يا قوم هذا والله خير مما جئتم له • فنهره رئيس الجماعة وقال له : دعنا عنك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا • فصمت اياس بن معاذ ، وعادوا الى المدينة ، ثم مات اياس ، وقد قال من حضر موته من قومه انهم لم يزالوا يسمعون يهلل لله ويكبره ويسبحه ويحمده ، فما كانوا يشكون في أنه مات مسلما ، وان الله تعالى قد أنار بصيرته ، وأعطاه الله نفسا طيبة تدرك الحق عند أول سماعه ، وتؤمن به انه خلصت لله تعالى •

### يوم بعث :

٣٠٩ — بعث موضع بالمدينة المنورة ، تقاتل فيه الأوس والخزرج ، وكانت بينهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج ، وكبرائهم ، ولم يبق كما يقول ابن كثير من شيوخهم الا القليل ، فعضتهم الحرب عضا شديدا بنايها ، وكان ذلك غب عودة الأوس من مكة المكرمة ، وعرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه عليهم ، وأجاب به شاب منهم ، ونفره رئيس الوفد •

وان الشدة في كثير من الأحيان توجد في القلب نورا ، وكان الأحياء في تناحرهم يحدث من التحامهم نور يضيء كالنور الذي يحدث من احتكاك شيئين أحدهما موجب والآخر سالب •

فقد كانت واقعة بعث هذه بعد دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داعية أهل يثرب للتفكير فيما جاء به عليه الصلاة والسلام ، وعندهم معرفة عارضة بمبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه كان ابتداء لدخول الناس من يثرب فيه جماعات ، بعد أن كانوا يدخلون أحادا •

وقد روى البخارى في صحيحه بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، أنها قالت : « كان يوم بعث يوما قدمه الله تعالى لرسوله » • قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة ، وقد افترق ملوهم ، وقتل سرائهم •

لقد اكتووا بنار الحرب ، ومن اكتوى بها ، طلب برد السلام والاطمئنان • وفتح قلبه لنعمة الله تعالى •



## بدء اسلام الأنصار

٣١ — قلنا ان دخول الاسلام يثرب بالآحاد ، يدخلون فيه فرادى  
ثم جاء من بعد ذلك من يدخلون فى دين الله تعالى أفواجا أفواجا •

وان أولئك الآحاد كانوا يذكرون نعمة الاسلام فى عشائهم ،  
قيستأنسون به ، ولم تكن لهم بأسرة النبى عليه الصلاة والسلام عداوة ،  
حجبتها المنافسة ، أو الحسد ، أو أثارها الحقد على بيته الكريم صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، فوجدت بينهم معرفة الحق • وموجبات اتباعه ، من غير أن  
تكون المواقع التى تصد عن سبيل الله تعالى ، والتى تغلف القلوب بغلاف من  
العداوة والبغضاء ، فتمنع نور الحق من أن يدخل إليها ، فينيرها •

فى الموسم الذى كان عقب بعث والنبى عليه الصلاة والسلام يعرض  
الاسلام على القبائل بمنى ، يذهب الى منازلهم بها ، فى هذا الموسم التقى  
بهرط من الخزرج ، قال ابن اسحاق فى سيرته : « فقال لهم : من انتم • قالوا  
نفر من الخزرج • قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا لا ، قال أفلا تجلسون أكلمكم ؟  
قالوا بلى ، فجلسوا فدعاهم الى الله تعالى ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا  
عليهم القرآن الكريم ، وكان مما صنع الله تعالى بهم فى الاسلام أن يهود  
كانت معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك أصحاب  
أوثان ، وكانوا غزوههم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شئ قالوا ان نبينا مبعوثا  
الآن ، قد أظلم زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم مثل قتل عاد وارم ، وكان عندهم علم  
بذلك كما قرر القرآن الكريم •

وان النفر الذين جاءوا من قبل ، وذاقوا بشاشة الاسلام ، قد أوجدوا  
بينهم الفكرة الاسلامية ، فلما كلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرهط  
ودعاهم الى الله ، تذكروا فيما بينهم كلام اليهود •

قال بعضهم لبعض : « يا قوم : تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به  
يهود فلا يسبقنكم اليه » •

لذلك أجابوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما دعاهم اليه ،  
وصدقوا به ، وأرادوا أن يسود الاسلام بينهم ، وأن يستتب الحق قومهم ،  
وأن يكون الاسلام طريق الخير لهم ، فقالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

« انا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، ولعل

أن يجمعهم الله تعالى عليك ، فلا رجل أعز منك » وهكذا أجابوا داعى الله وقد ذكرت كتب السيرة أسماء هذا الرهط من الخزرج (١) .

واختلفت الروايات ، أكانوا ستة أم كانوا ثمانية ، وكلهم من الخزرج ، ولكن من الروايات ما ذكر فيها أنه كان من الأوس أبو الهيثم .

ومهما يكن ، فقد كان أولئك وفد الخير والحق والصدق ، فما ان انصرفوا عائدین الى يثرب ، حتى أخذوا يذكرون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعون بدعوته ، حتى عمت وفشت ، وتذاكر بها أهل يثرب ، ومنهم من استجابوا لدعوة الحق ، لمجرد ذكرها ، ولم يطلبوا برهاناً ، لأنها دعوة الى التوحيد ، وهى فى ذاتها صادقة ، وكانوا يعلمون بها ، ان يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض وحده ، وما كانوا جاهلين بالله تعالى ، بل كان فيهم بقية من ملة إبراهيم ، واليهود بينهم يذكرون لهم أن رسولا فى مكة المكرمة قد بعث ، فكانت الدعوة الى الله تعالى مستجابة لا مرأ فيها .

فشا الاسلام فى المدينة ، قبل أن يقدم اليها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقبل أن يرسل مبعوثاً ، يعلمهم الاسلام ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ، حتى ان ابن اسحق يقول بسنده المتصل ، لم يبق من دور الأنصار الا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلموه جميعاً ، وعلموا دعوته اجمالاً ، وتهيئوا البيعة .

## العقبة الأولى أو البيعة الأولى

٣١١ — تجاوبت أصداء الدعوة المحمدية فى ربوع يثرب وتذاكروها مذاكرة من لا يتنازعون فى شرف تمسه أو عصبية جاهلية ينصرونها ، ولكن تجاوب من يطلبون الحق ، ومن صغت أفئدتهم اليه ، ومن يرجون من الاستجابة زوال الفرقة التى تقسمهم ، وتجعلهم فى حرب مستمر ، وفوق كل ذلك يريدون أن يستعلوا بها على اليهود الذى كانوا يستفتحون عليهم بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سيكون مع أهل الكتاب عليهم ، فهم يسارعون اليه ، لأنهم يسارعون فى الحق ، ولا ييغون سواه .

(١) هذا السياق التاريخى فى السيرة لابن هشام ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والسهيلى وابن نعيم وصحاح السنة .

فلما كان موسم الحج الذى أعقب موسم اللقاء الأول ، وكان التفاهم الذى رجوا فيه الخير والأمن والسلام فى حضرة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الموسم جاء اثنا عشر نقيبا من الأوس والخزرج ، لا لأداء الحج فقط بل لهذا ، وللقاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، مستجيبيين له ، لما قد عاقدوا العهد على لقائه ، واعطائه به المواثيق عن أنفسهم ومن وراءهم ممن بعثوهم نقباء ، يتحدثون باسمهم ، ويقدمون العهود والمواثيق عنهم .

وقد روى عن عبادة بن الصامت أنه قال : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلا لبياعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وكانت هذه البيعة بياننا للشرع الاسلامى فى العلاقات الاجتماعية ، والأسرية ، وأخذ العهد عليهم أن يقوموا بحقها ، وهى جزء من الاسلام على عقيدة التوحيد ، والعبادات ، على أساس هذه العقيدة .

وقد ذكر عبادة بن الصامت نص هذه المبايعة ، فقال : « بايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم شيئا فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه الى يوم القيامة ، فأمركم الى الله تعالى ، أن شاء عذب وإن شاء غفر . ولقد قال المحافظ ابن كثير ، أن هذا الحديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما من طرق عن ابن شهاب الزهري . ونرى أن هذه المبايعة كانت لبيان بعض التكاليفات الاسلامية التى لا اختلاف فيها ، وما كانت للأيواء والنصرة ، لأن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد قرر الهجرة اليهم ، ولم يكن قد جاءه الأمر بذلك ، أو الإيحاء به ، ولأنه لا يأخذ بعهد النصر ، قبل عهد الايمان ، فما كان عهدهم عهد جوار ، ولكن عهد تأييد ، ومحاربة دون الاسلام ، ولا تكون الا بعد توثيق كلمة الايمان ، وحققها .

وقد سعى كثيرون من كتاب السيرة هذه البيعة بيعة النساء ، ولما كانت هذه التسمية فيما نحسب فى وقت البيعة ، إنما كانت بعد ذلك لمشابتها لما ذكره القرآن الكريم من مبايعة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم للنساء فى أحكامها ، وإن اختلف وقتها ، واختلف موضوعها ، فتلك كانت مع النساء ، أما هذه فكانت مع الرجال ، وهى للرجال وللنساء على سواء . وهذا نص بيعة النساء كما جاء بها القرآن الكريم ، فقد قال الله تعالى فى سورة الممتحنة : « يا أيها النبی اذا جاءك المؤمنات يبایعنك على ألا يشركن بالله شيئا ، ولا

يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم « بيعة النساء بعد الهجرة » .

مصعب بن عمير :

٣١٢ — انصرف القوم الى يثرب تحفهم بركة الله ، ونعمة الايمان ، فبعث معهم مصعب بن عمير الذي يلتقى في النسب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قصي بن حكيم ، فهو كما جاء في نسبه مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي .

وقد أرسله اليهم ، ليدعو الى الله تعالى من لم يؤمن ، وليعلمهم ، ويفقههم في الدين ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم .

ويذكر البيهقي بسنده عن عمرو بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما بعث اليهم مصعبا حين كتبوا اليه أن يبعثه اليهم ، وهو الذي ذكره موسى بن عقبة (١) .

وانا نرجح أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي اختار لهم مصعبا ، وأنه قرر أن يبعثه اليهم ليعلمهم الاسلام ويتلو عليهم ، فما كان من المعقول أن يتركهم صاحب الرسالة ، وقد استجابوا لله وللرسول من غير أن يرسل اليهم من يعلمهم ، ولعلمهم قد كتبوا الى الرسول أيضا ، فالتقت رغبتهم مع ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ذهب اليهم مصعب بن عمير ، ومعه علم الاسلام ، وعلم القرآن الكريم ، فأخذ يعلمهم مبادئ الاسلام ، وعباداته ويقرئهم القرآن الكريم ، ولذلك سمي في المدينة (المقرئ ) .

وقد نزل عندما قدم المدينة عند أسعد بن زرارة .

وكان يوم المسلمين بالمدينة المنورة في الصلاة ، لأنه أعلمهم بالقرآن الكريم وبالاسلام ، ان جاء ليعلمهم ، فهم منه بمقام التلميذ من الاستاذ ، ولأنه

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٥١ .

رسول رسول الله عليه الصلاة والسلام صاحب الرسالة ، فهو نائبه ، والنائب يستمد ممن أنابه السلطان ، ويضيف للرواة سببا آخر مستمدا من العصبية الأولى ، وهو أن الأوس كرهوا أن يؤمهم خزرجي ، والخزرج كرهوا أن يؤمهم أوسى ، فكان التوافق على أن يؤمهم مصعب ، ونرى أن السببين الأولين كافيان وهما الأليق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى أنه يتبادل الامامة مع مصعب ، ابن زرارة .

### أول جمعة اقيمت بالمدينة المنورة :

٣١٣ — هذا عنوان أخذناه من سيرة ابن هشام ، رواه عن ابن اسحاق ، ونقول فيه . ان هذه البيعة والاتصال بقبائل يثرب كان بعد الاسراء والمعراج ، حيث فرضت الصلوات الخمس ، والجمعة قائمة مقام صلاة الظهر وهى إحدى الخمس . وكان لابد أن تقام الجمعة فى المدينة المنورة بعد أن فشا الاسلام ، وسارت فى الطريق ، لتكون مدينة اسلامية ، يأمن فيها المسلم على نفسه وعلى دينه ، والجمعة تقوم حيث الأمن ، واستقرار الأمور على الوجه الاسلامى الذى يبتغيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه .

لقد أخذ أسعد بن زرارة الذى نزل عنده مصعب بن عمير رضى الله عنهما وذهبا الى جبل هزم النبي من حرة بنى بياضة فى بقيع يقال له بقيع الخضعات ، وكانت عدتهم يومئذ أربعين رجلا .

روى ابن اسحاق بسنده عن أبى أمامة عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك حين ذهب بصره قال : كنت اذا خرجت به الى الجمعة ، فسمع الأذان صلى على أبى أمامة ، أسعد بن زرارة ، فمكثت حيناً على ذلك لا يسمع الأذان لجمعة الا صلى عليه واستغفر له ، فقلت فى نفسى ، والله ان هذا بى لعجز ، ألا أسأله ماله اذا سمع أذان الجمعة صلى على أبى أمامة أسعد بن زرارة ، فخرجت به فى يوم جمعة ، كما كنت أخرج ، فلما سمع الأذن للجمعة صلى عليه ، واستغفر له ، فقلت : « يا أبت مالك اذا سمعت الجمعة صليت على أبى أمامة ، فقال : أى بنى كان أول من جمع بنا فى المدينة فى هزم النبي من حرة بنى بياضة فى مكان يقال له بقيع الخضعات ، قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال أربعون رجلا (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢١ ص ٤١٥ والبداية والنهاية لابن كثير ص ١٥١ ج ٣ .

ولم يكن عمل مصعب وأسعد بن زرارة من بنى النجار مقصورا على إقامة الصلوات ، بل أخذوا يدعوان الى الاسلام فى يثرب •

فقد جاء فى السيرة لابن اسحاق وفى البداية والنهاية لابن كثير • أنهما أخذوا يدعوان الى الاسلام بنى عبد الأشهل ، وبنى ظفر ، وهما من أقوى الأنصار صوتا ، وأبدهم ذكرا • واليك ما جاء فى البداية والنهاية : كان سعد بن معاذ بن خالة أسعد بن زرارة ، فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر . فجالسا فى الحائط ( البستان ) واجتمع اليهما رجال ممن أسلموا ، وسعد ابن معاذ ، وأسيد بن الحضير يومئذ من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه • فقال سعد لأسيد ، لا أياك انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانهما أن يأتينا دارينا • فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل اليهما • فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه ، قد جاءك ، فاصدق الله فيه • فوقف عليهما أسيد متشمتا ، ثم قال : ما جاء بكما الينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانى ، ان كان لكما بأنفسكما حاجة ، وقال غلام : أتيتنا فى دارنا رعيدي الغريب لتسفه . ضعفاءنا بالباطل ، وتدعوهم اليه •

فقال مصعب لأسيد : أوتجلس فتسمع ، فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكره • قال أنصت • ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالاسلام ، وقرأ عليه القرآن الكريم •

فقال مصعب وأسيد ، والله لعرفنا الاسلام فى وجهه ، فى اشراقه . وتسفله ، قبل أن يتكلم •

فقال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ، كيف تصنعون اذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ، قالوا له تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى • ففعل ما طلبا اليه ، ثم قال لهما : ان ورائى رجلا ان اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه ، وسأرسله اليكما ، سعد بن معاذ :

ثم أخذ حربته وانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلا قال أحلف بالله ، لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم •

فلما وقف على النادى ، قال سعد ما فعلت • قال كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا • وقد نهيتهما فقلنا نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن

بنى حارثة خرجوا الى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ، ليحقروك •

فقام سعد مغضبا مبادرا ، مخوفا للذي ذكر له من بنى حارثة ، وأخذ الحربة في يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا •

ثم خرج اليهما سعد ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا ، انما أراد أن يسمع منهما فوقف متشمتا ، ثم قال سعد بن زرارة والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ، مارمت هذا منى ، أتغشانا في دارنا بما نكره •

قال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد من ورثته قومه أن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان •

قال مصعب : أوتقعد فتسمع ، فان رضيت أمرا رغبت فيه قبلته ، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره •

قال سعد ، أنصفت ، ثم ركز الحرية وجلس • وعرض عليه الاسلام ، وقرأ عليه القرآن الكريم ، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف « حم ، والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ، وكم أرسلنا من نبي في الأولين » فعرفنا في وجته الاسلام قبل أن يتكلم في اشراقه وتسهيله •

ثم قال سعد لهما : كيف تصنعون اذا أنتم دخلتم في هذا الدين ، قالوا تفتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ثم كانت شهادة الحق ، ••• وقد أخذ حريته بعد أن فعل ما أشار به ، فأقبل عائدا الى نادى قومه ، فلما رآه قومه مقبلا ، قالوا نحلف بالله لقد عاد اليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم ، وقف داعيا للاسلام ، ويقول :

يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيية ، قال فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله (١) •

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥٢ ، ١٥٣ •

اجتمع مصعب وأسعد بن زرارة وسعد بن معاذ فى منزل أسعد ، وأخذوا يدعون الى الاسلام حتى فشا فى يثرب فأسلم بنو عبد الأشهل رجالا ونساء •

وقد فصلنا القول فى دعاية مصعب بن عمير ، وأسعد بن زرارة ، ونقلنا لك المجاوبة التى جرت بين الزعماء والكبراء ، فان الاستماع الى كلمات الرجال ، كما جرت على أفواههم تصور حالهم ونفوسهم •

لقد كانوا ينتهون من المجاوبة الى الاصغاء الى دعوة الحق واتباعها من غير تلكى ، وان هذا يدل على صفاء نفوسهم ، وحيث خلت النفوس من المنازعات بالشرف ، والمنافسة فى الفخر ، فانها تتجه الى الحق بقلب سليم ، فتسارع الى الدخول فيها ، وقد أحسوا أن فى الاتباع منجاة لهم من التفرق والنزاع الذى أدهم الى الحرب ، وعضتهم بنابها ، وفوق ذلك كانت وصلتهم ارهاصات بذكر النبوة المحمدية كان يستفتح بها اليهود عليهم •

## العقبة الثانية

٣١٤ — جاءت العقبة الأولى بعد اللقاء الأول بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والخزرج وبهم انتقل خبر الاسلام الى يثرب التى أعدها الله تعالى لتكون المدينة الفاضلة ، مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم كان فى العقبة الأولى التعريف بمبادئ الاسلام ، والبيعة بها ، على أن تكون هذه البيعة الميثاق الذى أخذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت البيعة الثانية فى العقبة بعد أن فشا الاسلام ، وكانت تمهيدا للانتقال الى المدينة والهجرة ، ويظهر أنها كانت فى آخر موسم حضره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة المنورة ، والعقبة الأولى كانت فى الموسم الذى قبله ، ولذلك كانت البيعة فيها بالايواء والنصرة ، كما يتبين ذلك •

ويظهر أن خبر اتصال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتسرب الى قريش ، ويحاولون أن يأخذوا حذرهم ، اذ رأوا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل ، وهم يتوجسون خيفة من أن تخرج الدعوة الى التوحيد من بين ظهرائهم الى العرب ، وانهم يتوقعون منهم الاستجابة ، ليستعين بهم ، ويتخذ منهم قوة عليهم •

وقد رأينا كيف يتعقبه أبو جهل وأبو لهب ، ويتناوبان •



لذلك عندما جاء مصعب من يثرب هو وأسعد بن زرارة ، ومعهم جماعات من الأوس والخزرج ، قد أسلموا وقد كان معهم من سكان يثرب من كانوا لا يزالون على وثنييتهم ، ولم يذوقوا بعد بشاشة الاسلام ، ومنهم من تتجافى قلوبهم دونه مثل عبد الله بن أبي سلول الذى أكله بغض الاسلام والمسلمين ، حتى صار رأس النفاق فى المدينة المنورة من بعد ، وكان يضع الفتنة ويبنيها ، ويشيرها حيثما وجد الى ذلك سبيلا .

ولقد أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حذره من ناحيتين ، من ناحية قريش الذين احتسبوا بأن أمرا يدبر من ورائهم ، ولقد كان يرى عيونهم تثبت من حوله ، حتى ان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليقول لو قد الأوس والخزرج عندما التقى بهم فى العقبة : « ليتكلم متكلمكم ، ولا يطل الخطبة ، فان عليكم من المشركين عينا ، وان يعلموا بكم يفضحوكم » .

والناحية الثانية من أولئك المشركين الذين صحبوا المسلمين من الأوس والخزرج ، ولعله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما حذر من عيون المشركين ، كان كلامه يعم الفريقين ، فريق قريش ، وفريق المشركين الذين صحبوا وقد الايمان .

ولهذا لم يلتق فى أول حضورهم ، بل ضرب لهم موعدا فى أيام منى ، فلم يأخذ عليهم البيعة فى أول لقاء .

فروى ابن اسحاق بسنده عن كعب بن مالك ، قال « خرجنا الى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقبة من أواسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠٠٠٠ وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين .

ويقول كعب فى هذه الرواية : فمنا تلك الليلة فى قومنا فى رحالنا ، حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نتسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا عند العقبة ونحن ثلاث وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان .

هذه رواية كعب بن مالك ، وروى أنهم كانوا سبعين ، ومعهم امرأتان .

التقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى الميقات المحدود ، والمكان المعين وقد صحبه فى هذا اللقاء عمه العباس بن المطلب ، وهو على دين قومه ، وانما صحبه ليتوثق له ، ويطمئن على نصرته ، وقد قال فى هذا اللقاء : :

« يا معشر الخزرج (١) ، ان محمدا منا ، حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هم على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وانه قد أبى الا الانحياء اليكم ، والحق بكم ، فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتهم اليه ، وما نعوهم ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه في عزة ومنعة من قومه وبلده . »

عندئذ قال قائل الأوس والخزرج ، قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعا الى الله تعالى ، ورغب في الاسلام .

وقد طلب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبا ففعلوا .

### البيعة :

٣١٥ — هذه هي البيعة الثانية ، كما جاءت بذلك الروايات المتضافرة وقد انقسمت البيعة الى قسمين :

أحدهما - لتوثيق مبادئ الاسلام ؛ وقد روى الامام أحمد في هذا القسم : ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « تباعون على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم » .

والقسم الثاني - خاص بنصرته صلى الله تعالى عليه وسلم . وأن يمنعه .

ويروى ابن اسحاق عن أبي أمامه أسعد بن زرارة أنه قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا

(١) قال ابن هشام كانت العرب يسمون هذا الحي الخزرج ، خزرجها وأوسها ، ولعل ذلك لأنهم كانوا أكثر أو أظهر عند قريش .

من الثواب على الله وعليكم اذا فعلنا ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أسألكم لربى أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، وأسألكم لأنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنجسونا ، وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم » •

وروى الامام أحمد أيضا عن عبادة بن الصامت أنه قال : انا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا قدم علينا يثرب ، مما تمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبنائنا ، ولنا الجنة •

هذه روايات متعددة فى ألفاظ البيعة ومعانيها ، ولا تخالف بينها ، بل يكمل بعضها بعضا ، واذا كانت نقصت بعض العبارات من رواية ، فان الرواية الأخرى تكملها •

ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نتيجة البيعة « أخذت وأعطيت » أخذ عليهم العهد الله بالتوحيد والطاعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأعطاهم الوعد بالجنة •

ولقد أعطوا الوعد بالنصر والايواء عن بيعة من ربهم ، فقد بين بعضهم لبعض ما فى الوعد بالنصرة من تبعات ، سيتحملونها ، ولنذكر لك بعض ما تذكروه قبل أن يصفقوا بالبيعة ، أو فى عنفها •

قال العباس بن عبادة بن فضلة الأنصارى أحد بنى سالم بن عوف :

هل تدرون على من تبايعون هذا الرجل ! قالوا نعم •

قال انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم فتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه اليه ، على نهكة المال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا فانا نأخذ على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف •

ولقد قال البراء بن معرور أحد النقباء مجيبا قول النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم عندما طلب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم • قال  
رضي الله تعالى عنه :

نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع ، أزرنا ، فبايعنا يا رسول  
الله ، فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا من كابر •

واعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال : « يا رسول الله ، ان بيننا وبين  
الرجال حيالا - وأنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت ان قبلنا ذلك ،  
ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا •

فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم ،  
والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسلم من  
سالمتم •

ولقد قال ابن هشام الهدم الهدم « يعنى الحرمة » ، أى ذمتى ذمتكم ،  
وحربى حربكم •

ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن تمت البيعة :  
« أنتم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين بعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على  
مدتى » •

بهذا تمت البيعة الثانية ، وكانت ايدانا بالهجرة ، وكان أساس قيامها  
ما يكون من حماية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد كانت حماسة الأنصار لهذه البيعة شديدة ، وبعضهم أراد تنفيذها ؛  
ومحاربة قريش فى عقر دارهم ، لقد قال العباس بن فضلة الذى نقلنا كلامه  
أنفا : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ؛ ان شئت لنميلن على أهل منى  
عذابا بأسيا فنا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم نؤمر بذلك ،  
ولكن أرجعوا الى رحالكم •

### علم قريش بالبيعة :

٣١٦ — كان حذر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلم  
المشركون بالبيعة قبل أن تتم فى موضعه ، لأنهم كانوا يبيثون العيون لمعرفة  
أخبار الخزرج والأوس ، إذ كانوا يتوجسون منهم خيفة •

لقد رجع أهل البيعة الى منازلهم فلما أضحوا عذا عليهم ناس من جلة قريش ، حتى جاءوا الى منازلهم •

فقالوا يا معشر الخزرج ، انه قد بلغنا أنكم جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا والله ما من حى من العرب أبغض الينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم •

وقد كان من بين أهل يثرب مشركون مثلهم ، وقد اجتهد الذين مال قلبهم للإيمان وأسلموا أن يخفوا عنهم أمر البيعة وما يتصل بها ، لذلك انبعث من أولئك المشركين من يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمنا ، فصدق القرشيون مقالته •

وقد روى ابن اسحاق أن القرشيين أتوا عبد الله بن أبي بن سلول الذى صار من بعد رأس المنافقين ، وكان من المشركين ، فسأله عند أمر البيعة ، فقال لهم ، ان هذا الأمر جسيم ، ما كان قومى ليتفرقوا على مثل هذا ، وما علمته ، كان الأمر بالنسبة لقريش أول الأمر ظنا ظنوه ، ولم يكونوا قد استوثقوا من صدقه ، فكان التكذيب كافيا ، لازالة الظنة ، ولكن لم يطمئنا •

لذلك أخذوا يتحرون صدق الخبر ، ليطمئنا ، فلما نفر الناس من منى ، وجدوا أن البيعة قد تمت ، أو أن ما ظنوه ظنا قد وقع •

راعهم ذلك ، فخرجوا فى طلب القوم الذين بايعوا ، فلم يلحقوا بهم ، ولكن أدركوا منهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، وكان كلاهما من النقباء ، وقد استطاع المنذر ألا يمكنهم منه ، فأعجزهم أتباعه •

وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه الى عنقه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة المكرمة يضربونه ، ويجذبونه بجمته (١) ، وكان ذا شعر كثيف •

ولقد حكى سعد حاله ، فقال : « فوالله انى لفى أيديهم ، ان طلع على نفر من قريش فيهم رجل وضئ الوجه شعشاع ، حلو من الرجال ، فقلت فى نفسى ان يك عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، فلما دنا منى كلمنى كلمة شديدة ، فقلت فى نفسى : « لا والله ، ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله انى لفى أيديهم ، ان أدلى لى رجل ممن معهم ، فقال ويحك أما بينك وبين أحد من

(١) الجمة مجتمع شعر الرأس من مقدمه •

قريش جوار ، ولا عهد • قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم • •  
تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، للحارث بن حرب بن أمية • • قال  
ويحك • • وخرج ذلك الرجل اليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة الشريفة ،  
فقال لهما ان رجلا من الخزرج يضرب بالأبطح ، ويذكر أن بينكما وبينه جوارا ،  
قالا ومن هو ؟ قالو سعد بن عباد ، قال صدق والله ! انه كان يجبر تجارنا ،  
ويمنعهم من أن يظلموا ببلده ، فجاء فخلصا سعدا •

ذكرنا هذه القصة بطولها • ليتبين أن قريشا أحنقهم ، أن استجيب طلب  
محمد عليه الصلاة والسلام أن يجد المأوى لدعوته في يثرب وظهر غضبهم في  
تتبع القوم وفي الأذى الذي أنزلوه بسعد بن عباد ، وهو الذي أدركوه ، وغيره  
قد اجتازوا الطريق ، ورحلوا ، قبل أن يصلوا ، ولو أدركوهم فوق المسبيين  
لا يعلم الا الله تعالى كيف تكون العاقبة • ولعلها تكون أول موقعة بين المشركين  
والمسلمين ، بل لعل هذه المطاردة ذاتها أول معركة بين قوة الاسلام ولو قليلة  
وقوة الشرك ، وان كانت كثيرة ، ولعل المشركين أدركوا بأن عهد الاستضعاف  
أوشك على نهايته ، والله ولي الصابرين •

## ابتداء الهجرة

٣١٧ — وجد المسلمون أنه صار لهم مأوى ينتقلون اليه ، وشعر  
المشركون أن الاسلام خرج نقيًا طاهرا ظاهرا قويا من أرضهم ليكيل لهم الضربة  
بمثلها ، والايذاء يدفعه ، وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد صار له  
قوة تناوئهم ان أرادوا به كيذا ، وأنه قد تلتف عليه قبائل العرب ، قبيلة قبيلة ،  
وما شعروا بالندم على أن حاربوه ، ولم يمكنوه من الدعوة ، بل لاقوه هو  
وصحبه بالأذى والاستهزاء ، ولكن الندم لم يعرهم ، لأنهم سادرون في غيهم •  
وقد استولت عليهم العداوة ، ومن استولى عليه العدا ، وسيطرت البغضاء ،  
لا يرعوى ، ولا يتجه الى الرجوع عما هو فيه ، وكلما ازداد قوة ازداد حدة •  
ولا ندم مع الحدة ، لأن الندم شعور بسلطان الحق • وليس للحق سلطان في  
قلوب المشركين الذين استمكن الشرك والتعصب في قلوبهم ، فلا تزيدهم مظاهر  
القوة في الحق الا عتوا واستكبارا ، ولا ننسى أن المنافسة بين العشائر ،  
والتنازع بين المشرف هي الأصل في الأعراض ، وتثبيت الكفر في القلوب ،  
وكلما ازدادت قوة الدعوة ، حسبوا أن ذلك زيادة لشرف بنى هاشم أهل  
الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه •

ولذلك اشتد كلبهم على المسلمين الذين بين ظهرانيهم ، لما رأوهم يخرجون

الى قوة يتجمعون بها ، ولم يخرجوا فارين بدينهم ، كما خرجوا فى هجرة الحبشة مرتين ، بل هم فى هذه المرة يخرجون ليجمعوا قوة يستعصمون بها بتوفيق الله تعالى ، وهدايته •

وذلك هو الفرق الواضح بين هجرتى الحبشة ، وهجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك لم ترعهم هجرتا الحبشة ، بل أثارت اشفاق بعض قریش كعمر بن الخطاب ، كما ذكرنا ، أما الهجرة الى يثرب ، فلقد أزعجتهم ، وأثارت غضبهم ، وان كان ثمة اشفاق ، فعلى أنفسهم لا على غيرهم •

هذا شعور المشركين من قریش عندما بايع أهل يثرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما شعور المؤمنين الصابرين فقد ابتدأوا يحسون بنصر الله تعالى لهم ، وأنهم صار لهم قوة ، تدفع عنهم وبهم ذل الاستضعاف والاستهزاء ، كما قال الله تعالى : « وتريد أن تمن على الذين استضعفوا فى الأرض وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين » •

### النبى صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على الهجرة :

٣١٨ — أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد البيعة الثانية - يحرض المؤمنين على الهجرة الى يثرب • وأهل يثرب من الأوس والخزرج يدعون الى دين الله تعالى ، وينشرونه بين أهليهم وأخوانهم ، حتى صاروا كثرة كاثرة فى المدينة ، وصاروا هم أنصار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصبحوا كالحواريين لعيسى عليه السلام ، بيد أن الحواريين لم يكونوا عددا كثيرا ، وكان الأنصار عددا كثيرا من بعد •

روى البخارى ومسلم بطرق مختلفة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « رأيت فى المنام أنى أهاجر الى أرض بها نخل ، وذهب وهى الى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هى يثرب » وروى الزهري عن عروة بن الزبير عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يومئذ بمكة المكرمة للمسلمين : « قد رأيت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لا بتين » فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورجع الى المدينة من كان هاجر الى الحبشة من المسلمين •

ويذكر ابن اسحاق فى سيرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برواياته أن الأذن بالهجرة أو الأمر بها ذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالت كلماته : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا

من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » •

ونرى أن هذه الآيات الكريمات نزلت بالمدينة المنورة ، لأن سورة الحج مدنية ، ولأن الآيات تنبئ عن أنهم أخرجوا بالهجرة من ديارهم ، وان الاذن من الله بالخروج والخراج قبل الهجرة ، والسبب مقدم على المسبب وان الأمر فيها اذن بالقتال ، وهو بعد الهجرة ، بعد أن صارت قوة متجمعة فى يثرب التى صارت مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم •

### الاذن للمؤمنين بالهجرة :

٣١٩ — أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويبين لهم أن فى يثرب الايواء والنصرة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها » •

بعد هذا الاذن الصريح الذى يكاد يكون أمرا ، خرج المسلمون مهاجرين أرسالا ، آحادا وجماعات ، ولم يجد المهاجرون السبيل ذللا سهلا ، بل كانوا يجدون معوقين من قريش ، لأن هؤلاء بعد أن علموا بببيعة الانصار أدركوا أن المسلمين بمكة المكرمة يتجمعون باخوانهم فى يثرب التى صارت مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذوا يترصدون كل من هاجر ، فان استطاعوا منعه منعه ، فحاولوا أن يمنعوا أم سلمة وزوجها ، وتركوه يهاجر دونها ، وهى بارادة مؤمنة صبرت وهاجرت وحدها ، حتى وجدت من أهل المروءة من عاونها على هجرتها :

وأحيانا كانوا يتحايلون على المهاجرين بالكذب حتى يردوهم ثم يعذبونهم غير موفين بعهدهم أو ذمة ، ولنضرب لذلك مثلا ، بأحد المهاجرين وهو عياش ابن أبى ربيعة •

يروى أن عياشا هذا عندما هم بالهجرة أخرج اليه أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، فتبعاه ، حتى قدم المدينة المنورة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد هاجر بعد ، بل كان لايزال بمكة المكرمة وقال له : ان أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها ، فقال له عمر وكان معه :



« يا عياش انه والله ، ان يريدك القوم الا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو اذى أمك القمل لامتشطت ، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فقال وهو مخدوع : أبر أمى ، ولى هناك مال فأخذه • قال له عمر : والله انك لتعلم أنى لمن أكثر قریش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما • فلما أبى ذلك قال عمر الرقيق الشفيق ، أما اذ فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتى هذه ، فانها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها ، فان رابك من أمر القوم ربب ، فانج عليها ، فخرج عليها معهما ، حتى اذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا أخى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه • قال بلى ، فأناخ وأناخها ليتحولاً عليها ، فلما استوتوا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه رباطا ، ثم دخلا به مكة المكرمة ، ففتناه فافتتن ، وخرج من الاسلام مكرها ، وقلبه مطمئن بالإيمان •

وكان صاحب عمر فى الهجرة ، ومعهما صاحب ثالث ، وهو هشام ابن العاص أدركه أهله قبل أن يصل الى المدينة المنورة ففتنوه عن دينه ففتن •

قال عمر صاحب الرواية كلها ، وكان قد صحبهما فى الهجرة ، « كنا نقول لا يقبل الله ممن افتنن ، وفى رواية عبد الله بن عمر عن أبيه قوله « ما الله يقابل ممن افتن صدقا ولا عدلا ، ولا توبة : قوم عرفوا الله ، ثم رجعوا الى الكفر لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولون هم لأنفسهم ذلك •

ولعل هذا الاعتقاد الذى سكن قلب عمر الفاروق ، وسكن قلوب أولئك المؤمنين الأولين ، انما هو لكى يتحملوا أقصى ما يمكن من البلاء ، وليكون صبرهم تحريضا لغيرهم ، ففوة الايمان تسرى من أقوياء النفوس الى ضعفائها ، وان الماء العالى يهبط الى السافل ، لتتوازن النفوس كالمسوائل •

لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة أنزل الله تعالى : « قل يا عبداى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا • انه هو الغفور الرحيم ، وأنبيوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن ياتيكم العذاب ، ثم لا تنصرون ، وأتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن ياتيكم العذاب بغتة ، وأنتم لا تشعرون » •

لما نزلت هذه الآية لم ينس عمر الكريم صاحبيه اللذين كانا على نية مرافقته ، ورافقه أحدهما ، ثم افتنن فى دينه وافتتن الآخر قبل أن يسافرا ، ولأنه لم ينسهما أرسل اليهما فى صحيفة هذه الآية الكريمة ، أرسلها الى هشام بن العاص الذى افتنن أولا - فلما قرأها فهمها بعد أن استعصى عليه

فهم ما يقصد عمر من كتابتها اليه ، وعرف أنها أنزلت فيه وفي أمثاله ، ممن كانوا قد قنطوا من رحمة الله تعالى .

وهنا رواية أخرى تقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بالمدينة المنورة ، قال : من لى بعباش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص ، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) بهما ، فخرج الى مكة المكرمة مستخفيا فلقى امرأة تحمل طعاما ، فقال لها أين تريدان يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين ( تعنيهما ) ، فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ ردة ( أى خنجرا ) فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه ، فصل القيذان ، ثم حملهما على بعيره .

٣٢ . — من أجل هذا التتبع الشديد من المشركين ، كان المؤمنون يتسللون فى هجرتهم لوإذا استخفاء من ظلم قريش ، الذى أنبعث من خوف تجمع المؤمنين بيثرب لينقضوا عليهم ، ويمنعوهم من فتنة الناس فى دينهم ، وكان الأقوياء منهم يختارون التستر ، ليظفروا بالهجرة فى أمان من الأذى ، الا عمر بن الخطاب الذى أبى الا أن يجهر بالايمان فى كل موطن من مواطن مكة المكرمة ، وأبى الاستخفاء ، فهو فى الهجرة أيضا أبى الاستخفاء ، وخرج مجاهرا بالهجرة متحديا من يقف فى سبيله .

روى على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه فى الجنة أنه قال : « ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا الا عمر بن الخطاب ( رضى الله تعالى عنه ) فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قومه ، وانتضى فى يديه أسهما ، واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة الشريفة ، والملاسن قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام ، فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة ، واحدة فقال : شأهت الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس ، من أراد أن تكله أمة ، أو ييتم ولده ، أو ترمل امرأته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ( ١ ) .

وقد يسأل سائل ان المشهور أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه صحب فى رحلته عياش بن أبى ربيعة . وكان فى عزيمته أن يصحبهما هشام ابن العاص ، فكيف نوفق بين هذه الرواية المشهورة ورواية على كرم الله

---

(١) راجع فى هذا أشهر مشاهير الاسلام للمرحوم رفيق العظيم ، طبعة ١٩٧٢ الناشر ( دار الفكر العربى ) .

وجهه ، ونقول فى الجواب عن ذلك ، ان الجمع بين الروايتين ممكن ، ومتى  
أمكن الجمع يتعين تصديق الروايتين ، ان لا ثرد احدهما الا اذا تعذر التوفيق  
بينهما .

والتوفيق ممكن وظاهر ، ان أن الصحبة كانت فى السفر ، وواضح أن  
السفر يكون بعد اعتزام النية والاصرار ، وقد كان متفقاً معهما على أن يلتقيا  
معه فى مكان يقال التناضب ، من أضاة بنى غفار .

والواقعة التى رواها على كرم الله وجهه كانت وهو لا يزال بمكة المكرمة ،  
وقد أعلن الهجرة ، فهو قد قال ما قال معلنا هجرته ، متحدياً قریشا ، ثم أخذ  
طريقه الى المكان الذى اتعدوا فيه ، فوجد عياشاً ، وتخلف عنهما هشام ، ان  
اقتتن فى دينه ، واستجاب لهم وقلبه مطمئن بالايمان .

كانت هجرة المهاجرين سرا ، أو على استخفاء من قریش .

وكانوا ينزلون فى مهجرهم على الأنصار ، فينزلون معهم فى بيوتهم ،  
فعمر بن الخطاب حين انتقل الى المدينة المنورة ولحق به أهله وأخوه زيد ابن  
الخطاب ، وعمر بن سراقه وغيرهم ، نزلوا على رفاة بن عبد المنذور ابن  
زهير فى بنى عمرو بن عوف فى قباء .

ونزل طلحة بن عبيد ، وصهيب بن سنان ، على ضبيب بن اصاف ،  
وهكذا غيرهم نزل فى منازل الذين آووا ونصروا ، وكانوا يرحبون بهم ، وكانهم  
بين أهليهم وذويهم ، لأن الايمان الصادق جمعهم ، ومحبة الله ورسوله ( عليه  
الصلاة والسلام ) فاضت عليهم ، فجعلتهم أحباباً على مائدة الرحمن ، وقد  
علموا فضل اخوانهم المهاجرين الذين صبروا عند الصدمة الاولى ، وأوذوا فى  
أنفسهم وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فجعل الله تعالى من خوفهم أمناً ،  
ومن ذل ضعفائهم عزة ، اذ اعتزوا بعزة الله تعالى ، وكان بهم بتوفيق الله أن  
صارت كلمة الله تعالى هى العليا ، وقد قال الله تعالى فى المهاجرين والأنصار :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ، يبتغون فضلاً من الله  
ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا  
الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة  
مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه  
فأولئك هم المفلحون » .

ويقول الله سبحانه تعالت كلماته : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » .

فالسابقون الأولون هم الذين هاجروا فارين بدينهم ، مجتمعين فى ظل الله تعالى ، ولا ظل غيره ، والأنصار الذين ولوهم فى السبق ، وفتحوا لهم ديارهم ، اذ فتحوا لهم قلوبهم ، وآثروهم على أنفسهم ، أولئك لهم الفضل الأول فى السبق الى اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذين دونهم اتبعوهم بإحسان ؛ فهؤلاء لهم فضل السبق ، والآخرون لهم فضل الاتباع .

## هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

٣٢١ — أخذ المسلمون يهاجرون زرافات ووحداً مستخفين ، وقليل منهم من هاجر معلناً ، كما فعل عمر رضى الله تعالى عنه ، فقد أعلن هجرته وتحداهم أن يمنعه ، وعلى كرم الله وجهه يخص عمر بأنه الذى أعلن وتحدى ، ولعل ما انفرد به عمر رضى الله عنه هو هذا التحدى . ولا شك أن من الأقوياء من يعلن ولا يختفى ، كسيد الشهداء حمزة بن المطلب ، فما كان لمثل حمزة فى قوته وبأسه وإيمانه أن يختفى ، وفوق ذلك فإن عشيرته من بنى هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب ليرضوا أن يرهقوا حمزة فى إرادته ، أو لا يوافقوه على هجرته ، وقد رضى العباس بهجرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما تدل على ذلك خطبته فى العقبة الثانية ، حيث كانت البيعة الثانية على الأيواء والنصرة ، بل لو سائرنا التصور العقلى المنطقى لقلنا أن العباس كان يرحب بهجرة حمزة ليكون بجوار ابن أخيه ، ينصره مع الناصرين .

ما بقى من المؤمنين من يثبت أنهم لم يهاجروا قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا على وأبو بكر ، فأما على فهو مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ثبت أنه هاجر بعد النبى بأمر منه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبقى من بعده ليرد الودائع ، أما أبو بكر رضى الله تعالى عنه فقد كان يهم بالهجرة ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستبقيه ، ويشير اليه بمعاريض القول بأنه قد يكون صاحبه ، ثانى اثنين .

لقد قال ابن اسحاق فى السيرة : « أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة المكرمة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ، ولم

يتخلف معه بمكة المكرمة أحد من المهاجرين ، الا من حبس أو فتن الا على أبى طالب ، وأبو بكر بن قحافة الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما استأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تعجل لعل الله تعالى يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستعد للهجرة من منذ البيعة الأولى عندما التقى بالأوس والخزرج ، بدليل هذه المبايعة ، ثم كانت البيعة الثانية بيعة الأيواء والنصرة دليلاً على أنه اعتزم الهجرة وأرادها ، ثم من بعدها أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أمرهم بأن يهاجروا ، فهاجروا زرافات ووحدانا . مستخفين فى الأكثر ، معلنين فى الأقل ، فكانت الهجرة ترتيباً للدعوة ، وخروجاً من موطن لا قوة للإسلام فيه الى بلد يكون للإسلام فيه قوة ، ويكون له فيها السلطان لإنشاء دولة اسلامية ، فما كان من المعقول أن ينفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مبادئ الاسلام فى مكة المكرمة ، وهى فى ظل الوثنية ، ويحكمها مشركون ، فالزكاة لا يمكن جمعها الا فى ظل سلطان عادل يجمعها من الأغنياء ، ويردها على الفقراء ، وتنفيذ مبادئ المساواة والاخاء ، ودعوة المسلمين الى التراحم ليكونون أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وما كان يمكن أن يقيم الحدود الزاجرة ، لبناء دولة فاضلة ، ولا القصاص العادل ، ولا لينظم المعاملات بين الناس على أساس من الرضا والعدل ، وما كان ليحارب الربا الجاهلى ، ما كان يمكن شيء من ذلك الا فى ظل الله تعالى ، وبدولة اسلامية تنفذ أوامر الله تعالى ، وتبعد الناس عن نواهيهِ ، وما كان يمكنه عليه الصلاة والسلام أن يقيم رأياً عاماً فاضلاً ، يقوم المنحرف ، ويرشد المسترشد ، ويكافئ المحسن الا فى ظل دولة اسلامية ، وعلى ذلك فالهجرة كانت أمراً مقرراً ، ولا بد منه لتقام دعائم الاسلام ، ولتثبت أركانه ، وتعم فى الوجود الانسانى دعوته ، وليست الهجرة جاءت بسبب حادث وقع ، أو خوف لأمر متوقع .

### ما اقترن بالهجرة المحمدية :

٣٢٢ — اقترنت الهجرة بواقعة وقعت من قريش ، فظنها كثير من كتاب السيرة أن هذه الواقعة هى سبب الهجرة ، وأن الهجرة كانت أمراً مسبباً لها ، ولكن الهجرة كانت أمراً مقرراً ، وتنظيماً محكماً .

يقول الله تبارك وتعالى : « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » فهم يدبرون من جانبهم ،

والله تعالى يدبر أمرا ، قد وجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وهو الهجرة ، والأمر الذى مكروا به وتأمروا عليه خلاصته ما ذكرته الآية الشريفة •

رأى المشركون أن مكة المكرمة قد خرج الذين اتبعوا محمدا عليه الصلاة والسلام ، ليتجمعوا ، وليكونوا مع أهل يثرب قوة تقاوم الشرك وتنقض على المشركين ، وأنهم بلا ريب أشد أعداء محمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، فلا بد أن تكون تلك القوة عليهم ، وأن عليهم أن يتداركوا الأمر قبل أن يستفحل ، وأن تتحقق المآرب •

وإذا كان الاتباع قد هاجروا ، ولم يبق الا ضعيف أو عبد ، فان مصمدا عليه الصلاة والسلام لا يزال بين ظهرانيهم ، وهو الرأس وغيره اتباع ، فاذا نالوا منه ، فقد تحقق مأربهم •

قال ابن اسحاق فى سيرته : « لما رأيت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم ، وغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم - عرفوا أنهم أصابوا دارا وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم •

اجتمعوا فى دار الندوة ، وهى دار قصى بن كلاب ، وكانت مجتمع أمر قريش ، لا يقضون أمرا ذا بال الا فيها ، اجتمع فى الندوة كبار قريش ، ودلف عليهم رجل من نجد ، حضر جمعهم ، قيل انه ابليس ، وأن لم يكن هو فهو مثله خبثا •

تشاوروا فى أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيا •

فقال قائل منهم أحبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذى كانوا قبله ، ومن مضى منهم من هذا الموت •

قال الشيخ النجدى : ما هذا لكم برأى ، ولئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلا وشكوا أن يثبوا اليكم ، لينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره •

فقال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرجنا ، فوالله ما نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع ، ان غاب عنا ، وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، فوالله لو فعلتم ما أمنتم أن يحل على من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم ، حتى يطأكم بهم بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، ففروا فيه رأيا غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام ، والله انى لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا وما هو يا أبا الحكم ؟ قال أرى أن تأخذ من كل قبيلة فتى شابا نسييا وسيطا فتيا ، ثم نعطي كل واحد منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم ، جميعا ، فيرضوا منه بالعقل ( أى الدية ) فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدي القول ما قال هذا الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره .

انتهوا الى ذلك فأعلم الله تعالى نبيه بما دبروا ، وأمره ألا ينام الليلة على فراشه .

### تنفيذ المؤامرة :

٣٣٣ — ان القوم اثتمروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ، ولكن الله تعالى أعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، « ويمسكون ويمكر الله والله خير الماكرين » ولقد روى الامام أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عباس أن أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهجرة كان فى ذلك الوقت ، ونزل قوله تعالى : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » وأن دخول الصدق كان بدخول المدينة المنورة ، والخروج مخرج صدق كان بالهجرة من مكة المكرمة ، كما فسر قتادة ، وهكذا كان خروجه من مكة المكرمة وهى أحب أرض الله تعالى اليه لدعوة الحق ولنصرته واعزازه ، وكان دخوله المدينة المنورة صدقا ، لأنه بسبب ارادة نصره الحق ، وأعلاء شأنه ، فخروجه صدق ، ودخوله صدق ، وكلاهما حق .

أن قريشا في عثمة الليل الذي بيتوا فيه تنفيذ مؤامرتهم بقتل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أحاطوا بداره ، ليقتلوه اذ يخرج اليهم ، ولم يحاولوا أن يدخلوا الى منامه ، وقال السهيلي في تحليل ذلك • وذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التثمم عليه في الدار ، مع قصر الجدار ، وأنهم انما جاءوا لقتله ، فذكر في الخبر أنهم هموا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض : والله انها للسببة في العرب أن يتحدث عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا سر حرمتنا ، فهذا هو الذي أقامهم بالباب ، وأصبحوا ينتظرون خروجه •

عندما أعلم الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بأمرهم كان محملا أمانات من القوم ، فكانت عنده ودائع الناس ، وليس بمكة المكرمة أحد عنده شيء يخشى عليه الا وضعه عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لما يعلم من صدقه وأمانته ، وكان ذلك مع شدة العداوة والمناوأة من كبرياء المشركين •

ولذلك خلف عليا رضى الله تعالى عنه ، وكرم الله تعالى وجهه في الجنة ، وجعله ينام في مكان نومه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال لعلى كرم الله وجهه : نم على فراشي ، وتسبج ببردى هذا الحضرمي ، فتم فيه ، فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم ، فنام على المؤمن المصدق لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الشجاع الجلد القوي الذي لا يهاب الموت في سبيل الله ، وكان اذ ذاك في نحو الثالثة والعشرين ، أو الثانية والعشرين •

### اجتمع المشركون في العثمة :

روى ابن اسحاق بسنده عن كعب القرظي أنهم لما اجتمعوا له عليه الصلاة والسلام ، وفيهم أبو جهل قال أبو جهل : وهم على بابي : ان محمدا يزعم أنكم ان تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد نومكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وان لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلكم نارا تحرقون فيها • فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب ، ثم قال نعم أقول ذلك وأنت أحدهم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو : « يس والقرآن الحكيم ، انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم ، فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون » •



مر بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم يروه ، وقرأ عليهم هذه الآيات ، وسواء أصبحت الرواية التي تقول ، انه خاطبهم أم لم تصح ، فانها لم تغير من اللب شيئاً ، بل الحقيقة أنه مر عليهم ، وتلا عليهم تلك الآيات البينات ، وحثا التراب فى وجوههم ، وانصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى حيث كان على موعد مع صاحبه الصديق •

اما المشركون المؤتمرون الذين كانوا يريدون قتل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانهم استمروا فى موقفهم منتظرين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرج ليقتلوه ، حتى اتاهم أت ممن لم يكن معهم • ويظهر أنه قد رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرج • فقال لهم ، ما تنتظرون ها هنا ؟ فقالوا محمداً ، فقال : خبيكم الله ، والله قد خرج محمد عليكم ثم ما ترك منكم رجلاً الا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم مضى لحاجته ، أما ترون ما بكم ، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ولكنهم مع ذلك لم يصدقوا هذا الرجل الذى اتاهم ، فجعلوا يتطلعون ، فيرون علياً فى الفراش ، متسجياً ببرد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقولون : والله ان هذا لمحمد نائماً عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك ، حتى أصبحوا ، فقام على من الفراش ، فقالوا والله لقد صدقنا الذى حدثنا •

### النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الى الهجرة وطريقهما :

٣٢٤ — كان أبو بكر يريد الهجرة ، كما هاجر أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكلما هم بالهجرة • قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تعجل ، ويقول ابن اسحاق استأذن أبو بكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة ، فقال له : « لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً » وقد طمع أبو بكر أن يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما يعنى نفسه ، ولقد عظم ذلك الظن فى نفسه ، فابتاع راحلتين ، فحبسهما فى داره ، يعلفهما اعداداً لذلك ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتى كل يوم الى بيت أبى بكر فى طرفى النهار اما بكرة ، واما عشية ، كما تروى عائشة رضى الله تعالى عنها ، وتقول حتى اذا كان اليوم الذى أذن فيه للنبي بالهجرة ، والخروج من مكة المكرمة من بين ظهري قومه اتانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر ، قال : ما أجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الساعة الا لأمر حدث ••••• قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى بكر ان الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصعبة يا رسول الله ، قال رسول الله الصعبة •

قالت راوية الخبر فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبيكى من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبيكى ، ثم قال يا نبي الله ، ان هاتين راحلتان كنت أعددتكما لهذا ٠٠

كان هذا فى الليلة التى أعلم الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بما يأتى به القوم ، وأذن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما خرج ، وقد غشى الله تعالى على أبصارهم كانت الرحلة الشاقة ، وكانت الهجرة المباركة ، وقد أخذت لها الأهبة ، وأعدت لها العدة ٠

عندما أخبر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر بأذن ربه له بالهجرة ، وأخبره عليه الصلاة والسلام بالصحبة تجمعهما ، قال الصديق : « يا نبي الله ان هاتين راحلتان كنت أعددتكما لهذا » ٠

وقد استأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط ، وكان لا يزال على الشرك ، وأبوه من بنى بكر ، وأمه من بنى سهم بن عمرو ، قد استأجره أبو بكر ليكون دليلهما فى الرحلة ، وقد دفع إليه أبو بكر الراحلتين ، فكانتا عنده بعدهما يرعاهما حتى يحل ميعاد الخروج عليهما ، ويروى أنه أهدى فضلاهما لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسأله الرسول عليه الصلاة والسلام عن ثمنه ، فذكره ، وقال هى لك ٠

وكان الميعاد بينهما وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأبو بكر ، خرج من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، وذلك للامعان فى الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش ، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة ، وقد اتعدا مع الدليل على أن يلقيهما فى غار ثور بعد ثلاث ليال ٠

وقد دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما روى ابن نعيم قائلا : « الحمد لله الذى خلقنى ، ولم يك شيئا ، اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام ، اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فاذلنى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، والميك ربى فحببنى ، والى الناس فلا تكنلى ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلى عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل على غضبك ، وتنزل بى سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقمته ، وتحول عافيتك ، لك العتبى عندى خير ما استطعت ، ولا حول ولا قوة الا بك » ٠

ومن قوله عليه الصلاة والسلام حين خرج من مكة المكرمة ، ونظر الى البيت « انك لأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما هرجت » وأخرجهم كان بالأذى ومنع الدعوة •

بهذا الدعاء المضارع ابتداء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رحلته المباركة التي أتت أكلها للانسانية كلها ، لأنها كانت ابتداء عموم الدعوة •

وقد كانت فكرة الهجرة بعد العقبة الثانية وفي عامها ، فقد انتهى الحج ، وابتداء التفكير في الهجرة النبوية ، وقد هاجر المؤمنون قبله ، وقالوا ان هجرته عليه الصلاة والسلام لم تكن في المحرم ولا في صفر ، ولكن قد ابتدأت ، ولعلها ابتدأت مع ابتدائه ، وقد وصلوا الى المدينة المنورة في الثاني عشر من ربيع الأول على أصح الروايات ، وكانت في يوم الاثنين •

ولقد روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : « ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبيء يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين » •

### في غار ثور :

٣٢٥ — كانت الهجرة هي النصر الأول ، بل هي أعظم النصر ، لأن النصر الذي جاء من بعدها كان ثمرة لها ، فهي باب للفتح ، ولقد عدها الله سبحانه وتعالى النصر الأول ، وذكر محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه في غار ثور هذا ، إذ قال الله تعالى كلماته : « ألا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ، إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن ، ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » •

خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى غار ثور ، وهو على مسافة من مكة المكرمة بأسفله ، وسار هو وصاحبه الصديق فجعل أبو بكر يكون أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقال اذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك واذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك • ويروى أنه قال اذا كنت أمامك خشيت الطلب ، واذا كنت خلفك خشيت الرصد •

وروى البيهقي عن عمر بن الخطاب قال : «لقد خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة انطلق الى الغار ، ومعه أبو بكر ، فجعل يمشى ساعة بين

يديه وساعة خلفه ، حتى فطن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : « يا أبا بكر مالك تمشى ساعة خلفى ، وساعة بين يدي ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا بكر ، لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دونى . قال نعم ، والذي بعثك بالحق ، فلما انتهيا الى الغار ، قال أبو بكر مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار فدخل حتى اذا كان ذكر أنه لم يستبرئ الجحر ، فقال : مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ ، فدخل فاستبرأ ، ثم قال أنزل يا رسول الله ، فنزل ، قال عمر : والذي نفسى بيده ، لتلك الليلة خير من آل عمر » (١) .

مكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مطمئنا الى وعد الله تعالى ، راضيا بالمشقة فى سبيل الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، وقد رضى أن يفارق مكة المكرمة ، وهى أحب بلاد الله تعالى فى سبيل اقامة الدولة الاسلامية ، التى لم يمكنه أهلها من الدعوة ، وحاولوا قتله ، وكانت هذه المحاولة مع عنادهم ، وكفرهم ، وجودهم بالآيات سببا فى أن يخرج يريد أرضا لدولة الاسلام فى غيرها .

علم المشركون ، أو العتاة منهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ، وأن الذى نام مكانه على ، وأنهم ترصدوا عليا ، وهم يحسبون أنهم يترصدون النبي عليه الصلاة والسلام ليقتلوه ، حاولوا أن يعرفوا من على أين ذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يجدوا عنده ما يطلبون ، فأخذوا يتقصون أثره ، ويتأثرون خطاه ليعرفوا أين يكون ، وأطلقوا فى الأسواق والأماكن من يأتى به حيا أو ميتا وقد اقتفوا أثره ، وتتبعوه ، حتى وصل بهم الأمر الى جبل ثور الذى بغاره الصحابان ، ولكن آية الله تعالى أن جعلت العنكبوت ينسج نسيجه ، وكأنه من سنين ، وأن حمامتين عششتا على بابه ، فكانت آية حسية من خوارق العادات ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحدث لاثبات نبوته الا بالقرآن الكريم ، لأنه المعجزة الكبرى الباقية الى يوم الدين . وهو حجة على الخليقة فى كل الأجيال ، ولكل الأجناس .

جاء رجال قريش يطلبون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد انتهى بهم الأثر الى الغار ، ولكنهم وجدوا ما وجدوا وقالوا أذ رأوا نسيج العنكبوت لم يدخل أحد . وهم لو ألحقوا بأنظارهم الى داخله لرأوا الرسول وصاحبه ،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ١٨٠ .

ولكن صرف الله تعالى أنظارهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم آمن مطمئن ، ولذا كان قائما يصلى ، وأبو بكر يرتقب ، فلما أتم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، قال أبو بكر خائفا على النبي عليه الصلاة والسلام « ان قومك يطلبونك أما والله أنى لأتل (١) على نفسى ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره » ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا تخف ان الله معنا » •

هذا ما كان من القوم ، وما كان يجرى داخل الغار ، وكان أبو بكر قد دبر الأمر بالنسبة للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقد كلف ابنه عبد الله أن يأتيهما وهما فى الغار بأخبار قريش ، وما تدبر من أمرها ، وهو غلام شاب ثقف مدرك لقن ، فيدلج من عندهما فيصبح مع قريش بمكة المكرمة ، ولا يسمع أمرا يكيدون به لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، وأمر مولاة عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ، فيريحها عليهما وهما فى الغار ، وذلك فى ساعة العشاء ، فيبيتان وأرسال لبن الغنم تصل اليهما ، حتى اذا جاء الغلس ، أخذ عامر بن فهير الغنم ، وعاد الى مكة المكرمة ، فيكون من اللبن غذاء ، ويذهب سير الغنم بأثار من يجيئون الى الغار ، حاملين أخبارا ، أو حاملين طعاما •

وكانت أسماء بنت أبى بكر تعد لهما سفرة من الطعام فى جراب ، ولما لم تجد ما تربط به قطعت نطاقها ، فربطت بقطعة منه على فم الجراب ، ولذلك سميت ذات النطاقين ، وكانت تذهب بالطعام لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه كل يوم ، أو كلما أمكنتها الفرصة •

### سراقة والسير الى المدينة المنورة :

٣٣٦ — مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى الغار ثلاث ليال ، حتى يسكن طلب قريش ، ويئسوا من أن يصلوا اليه ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبعدها خرجا قاصدين الى المدينة المنورة ، ومعهما دليلهما المشرك ، ولكنه كان أمينا عليهما ، غير مدلس ولا ممالئ ؛ فسلك بهما طريق الساحل ، حتى لا يتبعهم أحد من قريش ، لأنهم لا يتصورون أنه يسلك هذا

(١) هى من آل المريض أو الحزين بمعنى رفع صوته وصرخ عند نازلة تنزل به •

الطريق وهم يتتبعونه ، ويقتفون طريقه ، وقد جعلوا لمن يعود به حيا أو ميتا  
مائة ناقة كما أشرنا من قبل •

وقد طمع سراقه بن مالك بن جعشم في أن ينالها ، وقد روى ابن اسحاق  
عنه أنه قال :

« لما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة مهاجرا ،  
جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم • فبينما أنا جالس في نادى قومي ،  
أذا قبيل رجل منا • فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على أنفا ، انى  
لأراهم محمدا وأصحابه فأومأت اليه بعيني أن اسكت ، ثم مكث قليلا • ثم  
أمرت بفرسى • وأمرت بسلاحى • ثم أخذت قداحى أستقسم بها ، ثم انطلقت  
فلبست لأمتى (١) ، فاستقسمت ، فخرج السهم الذى أكره ، وكنت أرجو أن  
أرده على قريش ، فأخذ مائة الناقة ، فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشد  
عثر بى ، فسقطت عنه ، فقلت ما هذا ، ثم أخرجت القداح فاستقسمت بها ،  
فخرج السهم الذى أكره ، فاهبت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره فبينما فرسى يشد  
عثر بى ، فسقطت عنه فقلت ما هذا ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ،  
فركبت فى أثره ، فلمسا بدا القوم ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى  
الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يداه من الأرض وتبعهما دخان كالأعصار ،  
فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع عنى ، وأنه ظاهر ، فناديت القوم ، فقلت أنا  
سراقه بن جعشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريكم ، ولا يأتكم منى شيء  
تكرهونه • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله ، وماذا تبغى منا ؟  
قلت تكتب كتابا يكون بينى وبينك » •

يلاحظ أنه ذكر له ما كان يسعى اليه ، ولكنه عندما رأى ما رأى ، وسلم  
اليقين فى الرسالة ، استوثق من أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم منصور  
بأمر الله تعالى •

فكتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا ، ثم اللقاء اليه •

وقد استمر سراقه حافظا لهذا الكتاب ، حتى جاء الفتح المبين بفتح مكة  
المكرمة ، ثم فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حنين والطائف ذهب  
سراقه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالكتاب ، ويقول فى ذلك

(١) الدرر •

« دنوت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فرفعت يدي بالكتاب ..  
وقلت يا رسول الله ، هذا كتابك لى ، أنا سراقه بن جعشم ، فقال رسول الله-  
صلى الله تعالى عليه وسلم : « هذا يوم وفاء » .

أعلن سراقه اسلامه ، ويظهر أنه كان مؤمنا بصدق النبى صلى الله تعالى  
عليه وسلم من يوم أن رأى ما رأى ، ولذلك أراد أن يأخذ هذا الكتاب .

وقد سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن سقى الابل الضالة قائلاً :  
الضالة من الابل تغشى حياضى ، وقد ملأتها لابلى هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟  
قال الرسول عليه الصلاة والسلام الرحيم : نعم فى كل ذات كيد حرى أجر » .

ولقد حسن اسلامه فرجع الى قومه ، وساق الى رسول الله صلى الله  
تعالى عليه وسلم صدقته .

### الركب يسير فى طريق وعر :

٣٢٧ — لم تكن الرحلة المباركة سهلة ، لأن الطريق فى الصحراء ،  
ليس سهلاً فى ذاته ، بل هو طريق وعث تجتاز فيه الرمال والوهاد والآكام ،  
وقد اختار الدليل طريقاً هو أشد طرق الصحراء وعورة ، وذلك لكيلا تتبعهم  
قريش اذا سار فى الطريق الذى ألفوا السير فيه ، وقد يكون معيذا الى حد  
مناسب للصحراء .

لقد سلك بهم طريق الساحل ، ولم يكن مألوفاً فى الوصول الى يثرب .  
منه ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فى سيرته يذكر الأماكن التى مر بها فهو  
يقول :

« لما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط ( أريقط ) سلك بهما أسفل  
مكة المكرمة ، ثم مضى بهما ( النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر ) على  
الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عساق ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ،  
ثم استجار بهما حتى عارض بهما الطريق ، بعد أن أجاز قديداً ، ثم أجاز بهما  
من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقف ،  
ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة محاج (١) » ويقال له محاج

(١) فى معجم البلدان لياقوت ( محاج ) .

ثم سلك بهما مرجع محاج ، ثم تبطن بهما مرجع ذى الغضوين ، ثم بطن ذى  
أكشر ، ثم أخذ بهما على الجدادج ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما سلم ، من  
بطن أعداد مدلجة تعهن ( وزن فعل ) اسم عين ماء ، ثم على العبايد ٥٥ ثم  
أجاز بهما الفاحة » .

قال ابن هشام : « ثم هبط بهما العرج ، وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهما ،  
فحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، رجل من أسلم يقال له أوس ابن  
حجر ، على جمل له يقال له ابن الرداء - الى المدينة ، وبعث معه غلاما له يقال  
له مسعود بن هنيذة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية الفاعن  
يمين ركوبه ، حتى هبط بهما بطن رثم ، ثم قدم بهما قباء لاثنتى عشرة ليلة  
خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس  
تعتدل » (١) .

هذا هو البيان الذى ذكرت فيه أسماء الأماكن التى مر بها ذلك الركب  
المبارك ، فما ذكر كله أسماء أماكن فى الصحراء العربية ، وهى مجاهل فيها ،  
ما كان ليعلمها الا خبير بها ، وهو ذلك الدليل الذى كان عليما بها ، وكان  
« آمينا على من معه مع بقائه على الشرك » .

وهذا البيان يدل على مقدار صعوبة الرحلة ، حتى أجهدت الرواحل ،  
« واضطر النبی صلى الله تعالى عليه وسلم الى تغيير الراحلة » .

ثم معيبد :

٣٢٨ — هذا خبر عن امرأة نقية طاهرة مخلصه ، التقى بها النبی  
صلى الله تعالى عليه وسلم فى القديد فى أثناء رحلته ، وقد ظهر فى لقائه بها  
عليه الصلاة والسلام من خوارق العادات ، مما يضاف الى خارقة خروجه  
عليه الصلاة والسلام ، وقد وضع الله تعالى على بصرهم غشاوة ، فلم يروه ،  
ويضاف نسج العنكبوت فى الغار ، والى تعشيش الحمام عليه ، والى غوص  
قوائم فرس سراققة ، وعثرته عدة مرات .

فان كل هذه خوارق عادات حسية ، لا تقل عن معجزات موسى وعيسى  
الحسية ، ولكن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحد قريشا بها ، ولم يتحد  
الوجود الانسانى بها ، بل تحداه بالقرآن الكريم المعجزة الكبرى .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ، ٢ ص ٤٩١ ، ٤٩٢ .



والخارق الذى بدأ فى المرور على أم معبد ، هو أن اللبن در من شاة عجفاء حائل لا لبن فيها ، وسقى جميع الركب ، وتكرر السقى ، وشاركهم أهل المنزل الذى نزل فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واليك القصة كما رواها البيهقى بسنده عن أبى معبد الخزاعى :

« أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليلة هاجر من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، ودليلهم عبد الله ابن أريقط اللثي ، فمروا بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت أم معبد امرأة برزه جلده ، تحبى ، وتجلس بفناء الخيمة • فسألوها هل عندها لحم أو لبن ، يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك ، وقالت لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، وإن القوم مرملون مسنتون ( أى فى سنة جدب ) •

فنظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإذا شاة فى كسر خيمتها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت شاة خلفها الجهد عن الغنم قال عليه الصلاة والسلام : فهل بها من لبن ؟ فقالت هى أجهد من ذلك • قال عليه الصلاة والسلام : تأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : ان كان بها حلب فاحلبها ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله تعالى ، ودعا باناء لها يريض الرهط (١) ، فتفاجت واجترت فحلب منها ثجا حتى ملأه ، وأرسله اليها ، فسقاها ، وسقى أصحابه فشربوا عللا بعد نهل (٢) ، حتى اذا أرووا شرب ( أى عليه الصلاة والسلام ) آخرهم ، وقال ساقى القوم آخرهم ، ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء ، فغادروه عندها ، ثم ارتحلوا •

فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلا لانقى بهن (٣) • فلما رأى اللبن عجب ، وقال من أين هذا اللبن يا أم معبد ، ولا حلوبة فى البيت ، والشاة عازب ؟ فقالت : لا ، والله انه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت ، وكيت • فقال صفيه ، فوالله انى لأراه صاحب قریش الذى تطلبه • فقالت ! رأيت رجلا ظاهر الوضاعة ، حسن الخلق ، مليح

(١) أى يشعب الجماعة ، وتفاجت معناها فرجت بين رحليها •

(٢) النهل الشرب الأول ، والعلل الشرب الثانى - النقى المخ •

(٣) النحلة : ضخامة البطن •

الوجه ، لم تعب تجلة ، ولم تزر به صعلة (١) ، قسيم وسيم ، فى عينيه دعج ،  
وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أكحل ، أزج ، أقرن ( أى سيد )  
فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار واذا تكلم سما ،  
وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ، ولا هذر • كان منطقه خرزات نظم  
يتحدرون ، أبهى الناس وأحلمهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، ربة ، لاتنسأه  
عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر  
الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، ان قال استمعوا لقوله ،  
وان أمر تبادروا لأمره ، محقود ، محسود ، لا عابس ولا مفند •

فقال بعلا : هذا والله صاحب قریش الذى تطلب ، ولو صادفته لآلتمسن  
أن أصعبه ، ولأجهدن ان وجدت الى ذلك سبيلا •

هذه قصة أم معبد ، وهذه أقوالها ، وقد أشرنا الى ذلك فى صفات النبى.  
صلى الله تعالى عليه وسلم ، واسمها كما جاء فى كتب السيرة عاتكة بنت  
خلف بن معد بن ربيعة بن أضرم • وأبو معد زوجها — اسمه أكثم بن العزى  
ابن معبد بن ربيعة بن أضرم ، فهو من أبناء عمومتها ، وقيل انه أسلم ، وهاجر •

## خوارق اخرى :

٣٢٩ — سار الرائد الذى سلك بالنبى عليه الصلاة والسلام  
وصاحبه غير الطريق الجاد ، وسار فى طريق غير مطروق ، مر بأماكن كثيرة  
وقد حدثت فى هذه الطريق خوارق للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلها  
يتعلق بمسير السائر فى الصحراء ، وحاجته الى الزاد والماء ، فكانت الخوارق  
تجىء مناسبة لذلك •

وقد روى البيهقى بسند عن قيس بن النعمان قال : « لما انطلق رسول  
الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر رضى الله تعالى عنه مستخفين ،  
مروا بعبد يرمى غنما ، فاستسقىاه اللبن فقال ما عندى شاة تحلب ، غير أن  
هناك عناقا حملت أول الشتاء وقد أخذجت (٣) ، وما بقى لها من لبن ، فقال.

(١) الصعلة : صغر الرأس

(٢) الوطف : كثرة الشعر

(٣) أى ألفت ولدها بعد أن صار تام الخلق ، ولكن نزل قبل أوانه  
ويقال أيضا اذا ولدته قبل تمام الحمل ناقص الخلق •

عليه الصلاة والسلام ادع بها ، فدعا بها ، فاعتقلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر بوعاء فحلب ، فسقى عليه الصلاة والسلام أبا بكر ، ثم حلب ، فسقى الراعى ، ثم حلب ، فشرب صلى الله تعالى عليه وسلم . أخذ العجب الراعى ، فقال من أنت ، فوالله ما رأيت مثلك قط ، قال عليه الصلاة والسلام : « وتراك تكتم على حتى أخبرك ؟ قال نعم ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فإني محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فقال الراعى المخلص أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء ! قال أنهم ليقولون ذلك ، قال فإني أشهد أنك نبي ، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت الا نبي ، وأنا متبعك ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انك لا تستطيع ذلك يومك هذا فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا » .

وقد روى هذا أيضا أبو يعلى :

وروى أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « كنت غلاما يافعا ، أرعى غنما لعتبة بن أبي معيط بمكة ، فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر ، وقد فرا من المشركين ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « يا غلام عندك لبن تسقيننا » فقلت انى مؤتمن ، ولست بساقيكما فقال : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ قلت نعم ، فأتيتهما بها ، وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الضرع ، فدعا ، فحفل الضرع ، وجاء أبو بكر بصخرة منقورة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو وأبو بكر ، وسقيانى ، ثم قال للضرع أخلص فخلص ، فلما كان بعد أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت علمنى من هذا القول الطيب : يعنى القرآن الكريم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انك غلام معلم ، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعنى فيها أحد » .

وهذه القصة لعلماء السيرة فيها كلام ، وذلك أن ابن مسعود رضى الله عنه كان من المسلمين الذين أسلموا قبل الهجرة ، وأوذوا فى سبيل الله ، وهاجر الى الحبشة ، والقصة توهم أنه كان اسلامه فى أثناء رحلة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكلام علماء السيرة ، لا يمنع أصل القصة ، ولب الخوارق للعادة ، فان ذلك ثابت فى الصحاح ، وربما كان الكلام منصبا على السياق ، لا على أصل الواقعة وغيره ثابت بلا ريب .

وقد سقنا ذلك الكلام ، وليس فيه تطويل ، لأنه صدق ، ولا تطويل فى نقل الصادق من الأخبار •

وان هذا كله يدل على أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء على يديه من الخوارق الحسية ما يزيد على التسع التى اختص بها موسى عليه السلام ، وليست فى دلالتها الروحية أقل من معجزات عيسى عليه السلام ، إذ أحيأ الموتى بأذن الله ، وأذ أخرجها من قبورها بأذن الله ، واختلاف النوع لا يدل على ضعف الروحانية فى خوارق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالإسراء والمعراج خارق للعادة مادى روحى ، وغوص فرس سراقه ، ونبع اللبن بين أصابعه وتكرره يدل على قوة روحية لا تقل عن أحيأ الموتى ، ومع ذلك لم يتحد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا بالقرآن الكريم « أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا » •

## وصول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى قباء

• ٣٣ — استمر الركب المبارك محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه سائرا فى طريق وعر فى وعشاء الصحراء • وقد استطل فرارا من الطلب ، وآيات الله تتبعها آيه ، وكثرت فى الطريق • وتوالت ، ليعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالواقع أن الله سبحانه وتعالى معه حيث حل وحيث ارتحل ، كما علم من قبل بعين الايمان ، إذ قال لصاحبه وهو بالغار ، لا تحزن ان الله معنا • فأراه الله تعالى الآيات فى رحلته ، كما أراه الآيات فى نبوته •

وقد انتهت شدة الرحلة بالوصول الى قباء ، حيث المنعة والنصرة ، وحيث لقاء أهل الايمان الذين كانوا يتربون شخصه ، ويستشرقون لحلوله بينهم •

يقرر ابن اسحاق بسنده فى هذا عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة ، قال : حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة وتوقعنا قدومه ، كنا نخرج اذا صلينا الصبح الى ظاهر حرتنا ننظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوالله ما يبرح حتى تعلينا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جلسنا كما كنا نجلس حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا • • • وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل يهودى ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأن ننظر قدوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - علينا - فصرخ بأعلى صوته يا بنى قبيلة ( الأنصار ) هذا جدكم قد جاء ، فخرجنا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وركبه الناس ( أئ ) ازدحموا عليه وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل . عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام أبو بكر ، فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيما يذكر علماء السيرة الطاهرة على كلثوم بن هندم ، وبعض العلماء يقول انه نزل عند سعد ابن خيثمة ، وقد وفق ابن اسحاق وغيره بين الخبرين ، فقال انه صلى الله تعالى عليه وسلم نزل عند كلثوم ، ولكنه كان اذا خرج للناس وجلسوا اليه ، كان ذلك فى بيت سعد .

ولقد جاءت عبارات تفيد أنه كان يختار الجلوس فى بيت سعد ، لأنه كان عزبا لا أهل له ، وكان منزله منزل الأعزب من المهاجرين .

ونزل صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أبو بكر على خبيب بن أساف .

وفى قباء التقى على بن أبى طالب برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . إذ أنه مكث ثلاث ليال وأيامها بمكة المكرمة بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لرد الودائع ، ثم أخذ سمته الى يثرب ، وكأنه أقام فى مكة المكرمة . بعد الرسول عليه الصلاة والسلام المدة التى مكثها النبى وصاحبه فى الغار . إذ أنهما مكثا فى الغار ثلاث ليال .

ونزل على كرم الله وجهه فى المنزل الذى نزل فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو منزل كلثوم بن هند ، ويظهر أن حضوره الى قباء كان بعد حضور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بليلة على الأقل ، لأنه أقام بقباء ليلة أو ليلتين ، وقد ذكر ابن اسحاق أنه أقام فى قباء أربعة أيام بلياليها ، فذكر أنه أقام يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وفى هذه المدة التى أقامها بقباء أنشأ مسجدها ، وهو الذى أشار الله تعالى اليه فى قوله تعالى : « مسجده أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا » . والله يحب المطهرين » فهو مسجد أسس على التقوى من أول يوم أقام فيه النبى .

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جدير بأن يسمى مسجد الهجرة ، وأنه مسجد الذين يحبون أن يتطهروا فى عبادتهم غير مراثين ولا منافقين •

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصل فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وكان يوم الاثنين ، وقيل فى اليوم التالى ، والأول هو الذى يرجحه الرواة •

## دخول المدينة

٣٣١ — كان دخول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة يوما مباركا على أهل المدينة المنورة ، وعلى الأخلاف ، وعلى الخليقة كلها ، لأنه اليوم الذى انتقل فيه الاسلام من الدعوة فى مكة المكرمة وما حولها ، غير معلمة بنظام ثابت مقرر عام بل كانت الدعوة فى دائرة العقيدة ، وبيانها ، وبيان ما يتعلق بها ، من غير أن تكون نظاما مفروضا يتبع وينفذ ، انتقل الاسلام من ذلك الحيز الى عموم الدعوة فعلا ، للبلاد العربية ، فى كل صقع من أصفاعها ، ثم تجاوز حيز العرب ، الى الدول المجاورة ، ومنها انساب الى ما وراءها من اقليم الى اقليم •

ولقد أحس أهل المدينة المنورة بما حباهم الله به من فضل ، وبما اختص المدينة من شرف ، اذ صارت موطن الايواء والنصرة أولا ، وموطن النظام الاسلامى ثانيا ، والمكان الذى يآزر اليه الاسلام ثالثا ، وأحست بان الوثنية أذنت بأفول ، وأن اليهود فيها صاروا لا يتناولون بعلم علموه ، أو كتاب مسبقوهم به •

ولذا خرج الناس مهللين مكبرين بمقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستقبلون من يرون فيه الهداية فرحين واجدين فى مقدمة العزة والكرامة ، والاحلاس والطهر من الوثنية •

روى الشيخان البخارى ومسلم بالسند المتصل عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه قال : « خرج الناس حين قدمنا المدينة فى الطريق ، وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون : « الله أكبر جاء رسول الله تعالى عليه وسلم ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ، فلما أصبح انطلق ، وذهب حيث أمر » •

وروى البيهقي فى دلائل النبوة ، وأبو بكر المقرئ فى الشمائل ، والطبرى فى الرياض ، عن ابن عائشة ، واسمه عبيد الله بن محمد بن حفص ، وأمه عائشة بنت طلحة ، أنه صعدت ذوات الخدور تعلن تهنئة له حال دخوله :

طلع البدر علينا	من ثنيتات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا الله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع (١)

روى هذا الخبر فى سنن الترمذى والنسائى عن السائب بن يزيد .

هذا استقبال رائع - صحبه تكبير أهل المدينة لمقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان هناك استقبال عملى أروع فى معناه ، وهو تزامم أهل كل بطن من بطون الأوس والخزرج ، فى أن يأخذ بناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتكون اقامته بينهم .

جاء رجل من بنى سالم ، فقالوا يا رسول الله أقم عندنا فينا العدد والعدة والمنعة ، وأخذوا بزمام الناقة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « خلوا سبيلها فانها مأمورة » .

وجاء رجال من بنى بياضة . فقالوا يا رسول الله هلم بنا الى العدد والعدة والمنعة ، قال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا مرت بدار بنى ساعدة ،

---

(١) يقول ابن القيم ان هذا الدعاء قيل عند عودة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة تبوك ، ويحذف البيت الأخير من الأبيات الثلاثة ، والسبب فى قوله أنه أرحف المرجفون فى المدينة عن النبى فى غزوة تبوك مما جعل المؤمنين يستبشرون ويفرحون بمجيئه ، فخرج الغلمان والنساء يقولون ، وان ثنية الوداع فى مدخل المدينة من قبل الشام ، لا من قبل مكة ، ويقول فى ذلك ابن القيم : لما دنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة ، خرج الناس لتلقيه ، وخرج النساء والصبيان والولائد تعلن طلع البدر علينا . من ثنيتات الوداع ، وجب الشكر علينا . ما دعا الله داع ، وبعض الرواة يقول . اما كان ذلك عند مقدمه من مكة الى المدينة وهو ظاهر لأن ثنيتات الوداع اما هى من ناحية الشام ، ولا يراها القادم من مكة الى المدينة ولا يمر بها الا اذا توجه الى الشام .

اعترضه سعد بن عبادة والمندر بن عمرو فى رجال من بنى ساعدة ، فقالوا : يا رسول الله هلم الينا الى العدد والعدة والمنعة ، فقال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا وازت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه معاذ بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله ابن رواحة ، فى رجال من بنى الحارث بن الخزرج ، فقالوا يا رسول الله هلم الى اخوانك ، ومنهم أم عبد المطلب جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا هلم الى العدد ، والعدة ، والمنعة ، فقال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها •

فانطلقت حتى اذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت ، وكان ذلك عند دار أبى أيوب الأنصارى ، ويقول ابن اسحاق لما بركت لم ينزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، حتى وثبت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله ، واضع لها زمامها لا يثنىها به ، ثم التفتت خلفها ، فرجعت الى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ٠٠٠ ثم نزل عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بنى المسجد ، وبنى له دارا •

## خطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم

٣٣٢ — تدل هذه الأخبار التى سقناها ، على أن الأنصار الذين دخلوا فى الاسلام كانوا يرحبون بالنبى صلى الله عليه وسلم فى بيوتهم فرادى ، وجماعات ، وأنهم يبيتوا ويطونا كانوا يستعدون بعددهم ، ويعطون العهد ، على المنعة والحرب معه ، من غير تحفظ ولا شرط •

ويظهر أن ذلك كان يثير غضب المشركين فيهم ، وخصوصا الذين صاروا من بعد منافقين ، ييطنون مالا يظهرون أو يخفون مالا يبدون ، ولقد روى أنه ما مر بأهل بيت الا أعلنوا التأييد وأبدوا الترحيب الا عبد الله بن أبى الذى صار من بعد زعيم النفاق فى المدينة الطاهرة •

ولقد ذكر موسى بن عقبة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، مر فى طريقه بعبد الله بن أبى بن سلول ، ينتظر أن يدعوه الى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسهم ، فقال عبد الله انظر الى الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنفر من الأنصار ،



فقال سعد بن عبادۃ يعتذر عنه : لقد من الله تعالى علينا بك يا رسول الله وأنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ، وتملكه علينا •

أتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد نزوله فى دار أبى أيوب الأنصارى الى ثلاثة أمور :

أولها : صلاة الجمعة فقد صلاها فى بنى سالم بن عمرو بن عوف ، ويظهر أنه صلاها فى أرض فضاء ، لأنه لم يكن قد بنى مسجده فيها ، ومادام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد اختارها لاقامة الجمعة ، فهى مسجد تقام فيه الصلوات ، وخصوصا أنه ولى أمر المسلمين •

الأمر الثانى الخطبة ، وقد قالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطب الجمعة ، وقد روى فى نصها روايتان : احدهما - رواية ابن جرير الطبرى ، والخطبة فى هذه الرواية طويلة نسبيا ، ورواها البيهقى ، وروايته أقصر ، ولم ينص على أنها خطبة واحدة ، بل روى أخرى بعدها على أنها خطبة أخرى ، ولنذكر الخطب الثلاث ، وان كان فى بعض رواتها كلام ، ولكنها أشبه بكلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومواعظه •

### الخطبة التى رواها ابن جرير :

« الحمد لله أحمدده وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة على فترة من المرسل ، وقله من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله • فانه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله تعالى فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى وان تقوى الله تعالى لمن عمل على وجل ومخافة ، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينوى بذلك الا وجه الله تعالى يكن له ذكرا فى عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم ، وما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ، والذى صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك ، فانه يقول تعالى : « ما يبدل القول لدى ، وما أنا بظلام للعبيد » واتقوا الله فى عاجل أمركم ، وأجله فى السر والعلانية ، فانه من يتق

الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ،  
وان تقوى الله تعالى توقى مقتته وتوقى سخطه ، وان تقوى الله تبيض الوجه ،  
وترضى الرب ، وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد  
علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ، وليعلم الكاذبين ،  
فأحسنوا كما أحسن الله تعالى اليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق  
جهاده هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من  
حيى عن بينة ، ولا قوة الا بالله ، فأكثرُوا من ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت  
فانه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى  
على الناس ، ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ، ولا يملكون منه ، الله  
أكبر ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

هذه الخطبة كما رواها ابن جرير ، ولولا أن الحافظ ابن كثير رواها  
ما أقدمنا على نقلها ، ولكن قال الحافظ : هكذا أورد ابن جرير ، وفى السند  
ارسال .

ونحن نقرر ما قررنا أن ما اشتملت عليه أشبه بمواعظ النبى صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، ولكن نلاحظ أنها أطول من أكثر خطب النبى صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، ونلاحظ أن فيها تكرارا لم يعهد فى خطب النبى صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، وأن فيها آيات قرآنية من الآيات المدنية ، مما يدل على أنها  
انزلت بعد هذه الخطبة ، والله أعلم .

هذا ما نراه بالنسبة للخطبة التى رواها ابن جرير ، وقد روى البيهقى  
خطبتين .

أولاهما : ما رواه عن عبد الرحمن بن عوف قال : كانت أول خطبة  
خطبها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة أن قام فيهم فحمد  
الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أيها الناس قدموا لأنفسكم ، تعلمن ، والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن  
غنمه ليس لهما راع ثم ليقولن له ربه — ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه  
دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وأتيتك ما لا فأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ،  
فينظر يمينا وشمالا ، فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدامة ، فلا يرى غير جهنم ،  
فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ، ولو بشق تمره ، فليفعل ، ومن لم يجد  
فكلمة طيبة ، فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ،  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

والثانية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله ، فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، انه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، فانه من يختاره الله ويصطفيه فقد سماه خيرته من الأعمال ، وخيرته من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن ينكث فى عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وقد قال ابن كثير فى رواية هذه الخطبة ان طريقها مرسله الا انها مقوية لما قبلها ، وان اختلفت الألفاظ .

كانت هذه الخطب على ما هى متن أولاهما من نقد ، وعلى أنها مرسله ، بيد أنها فى جملتها على منهاج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعوة المؤمنين لتقوية ايمانهم ، وتغذيته بتقوى الله تعالى ، كما دلت أقوال النبى قبل الهجرة على منهاجه فى دعوة المشركين الى التوحيد .

## بناء مسجده عليه الصلاة والسلام

٣٣٣ — هذا هو الأمر الثالث الذى ابتدأ به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اقامته فى المدينة المنورة .

لقد ابتدأ سبحانه وتعالى ببناء مسجد فى قباء ، وهو المسجد الذى ذكر الله سبحانه وقال فيه « **مسجد أسس على تقوى من الله ورضوان** » وأنه يجىء اليه الذين يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين .

ولما نزل فى بيت أبى أيوب اتجه تفكيره الى انشاء مسجد بالمدينة المنورة الذى هو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال وهى : المسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس ( المسجد الأقصى ) ، وهذا المسجد ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ( مسجدى هذا ) .

روى عن ابن شهاب الزهري أنه قال : بركت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى موضع مسجده ، وهو يصلى فيه رجال من المسلمين ، فكان مصلى لهم قبل أن يبنى صلى الله تعالى عليه وسلم فيه مسجده .

ولقد كان ذلك الموضع الذى بركت فيه الناقة مربدا لغلّامين يتيمين فى المدينة المنورة من أولاد الأنصار ، وكان اليتيمان فى كفالة أسعد بن زرارة الذى كان أول داع للإسلام فى المدينة المنورة قبل هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إليها .

ساوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الغلّامين ، أو وصيهما ، أوهما بحضرة وصيهما ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أبى إلا أن يكون بالثمن ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير .

وكان قبل شراء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصلاة والسلام جدارا لا سقف له ، وكان يصلى فيه ، ويقيم الجماعة والجمعة أسعد بن زرارة ، قبل مقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت قبلته الى بيت المقدس ، التى كانت قبلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بمكة المكرمة .

وقد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعل ذلك المصلى مسجده كما أشرنا .

وقد جعله صلى الله تعالى عليه وسلم بناء مربعا ، طول كل بعد من أبعاده مائة ذراع ، وقد قال ابن القيم رضى الله عنه ، جعل أساسه قريبا من ثلاثة أذرع ، وتم بناؤه باللبن ، وبعضهم قال أن بعضه كان بالحجر المرصوص .

وقد اشترك فى بنائه كل من حضر البناء من المهاجرين والأنصار ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل فى بنائه ، وكان ينقل اللبن والحجارة بنفسه ، ويقول راجزا .

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

ولقد جعلوا يرتجزون ، وينقلون اللبن ويقول بعضهم فى رجزه مستحثا الهمم .

لئن قعدنا والرسول يعمل لئذاك منا العمل المضلل

وجعل عليه الصلاة والسلام قبلته الى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب ، بابا فى مؤخره ، وبابا يقال له باب الرحمة ، والباب الذى يدخل منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعل عمده بالجدوع ، وذكر السهيلي أنها جندوع نخل ، وسقف بالجريد ، وجعلت قبلته من اللبن ، وقيل من الحجارة منضودة بعضها على بعض •

وقد نخرت عمده فى خلافة الامام عمر فجردها ، واستبدل بها ، ولما كانت خلافة عثمان ذى النورين رضى الله عنه بناها بالحجارة المنقوشة ، وسقفه بالساج ، وجعل قبلته من الحجارة ، وهذه رواية واحدة ، وفى عهد عبد الملك ابن مروان أضيفت حجرات نسائه ، وكانت تسعا •

ولما كانت أيام بنى العباس ، بناه المهدي ثالث ملوكهم ، ووسعه وزاد فيه ، وذلك فى سنة ستين ومائة ، ثم زاد فيه عبد الله المأمون ، وأتقن بنيانه •

ونخلص من هذا الى أن سنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بناء مسجده ، ومسجد قباء كانت بأقل كلفة لتشجيع بناء المساجد •

وكما كان مسجده الطاهر الذى هو أحد المساجد التى تشد اليها الرحال كان أيضا مسكنه ، وكانت بيوته عليه الصلاة والسلام تسعا ، بعضها من جريد مطين بالطين ، وسقفها جريد ، وبعضها من حجارة مرصوفة بعضها فوق بعض ، وسقف أيضا بالجريد ، ولم يكن سقفه عاليا •

وكان سريره عليه الصلاة والسلام خشبات مشدودة بالليف ، فهل من معتبر ، فذلك نبى الخليفة ، فهل من الناس من يتسامى الى حياة كحياته !!

تم بحمد الله

المجلد الأول ويحوى الجزء الأول

ويليه المجلد الثانى

ويحوى الجزءين الثانى والثالث





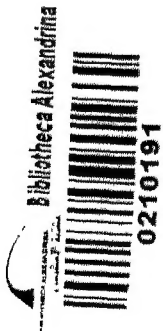
تطلب جميع منشوراتنا من

مؤسسة

دار الكتب والوثائق

للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير  
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى  
ت : ٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤



---

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار ( لاطوغلى ) القاهرة

تليفون : ٢٢٠٧٩